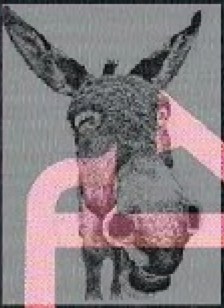

تل اللحم

قصة مرايا سيد مسلط

نجم والي

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار الساقي

تل اللحم

قصة مرايا سيد مسلط

«عندما انتهى الفنان سعد علي من قراءة الرواية، أغمضت عيناه لتحتفظان بآخر صورة في الرواية، والتي تتشكل صوراً في حلمه تلك الليلة. وفي ساعة متأخرة من الليل، حيث ما زال الحلم مستمراً، استيقظ سعد وبعينين نصف مغمضتين، نصف حالمتين امتدت يده لعدة الرسم. وسط ظلمة الغرفة... وسط عتمة الحقول الممتدة عند شباك غرفته... وحيث تسلل ضوء قمر خفيف، اختلط فيه الواقع مع الخيال، حركت تلك الصورة الحلمية ريشته، لتبدع هذه اللوحات التي أصبحت جزءاً مكملاً للرواية.»

نجم والي (البصرة ١٩٥٦) غادر العراق أواخر العام ١٩٨٠. درس الأدب الألماني في جامعة هامبورغ والأدب الاسباني في جامعة كومبليتنسه ـ مدريد. صدرت له (الحرب في حي الطرب ـ رواية ١٩٩٣)، «ليلة ماري الأخيرة ـ قصص ـ شرقيات القاهرة ١٩٩٥» «مكان اسمه كميت ـ رواية شرقيات القاهرة ١٩٩٧» «فالس مع ماتيلدا ـ قصص المدى دمشق ١٩٩٩» يكتب العمود والريبورتاج في جريدتي الحياة والمستقبل. تتوزع إقامته بين إسبانيا وألمانيا.

نجم والي

تل اللحم

قصة مرايا سيد مسلط

دار الساقي

© دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٠١

ISBN 1 85516 527 9

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

المحتويات

ما يشبه المدخل: التكوين ٩

القسم الأول

الخروج ١٥

القسم الثاني

اللاوّيّون ١٢٩

القسم الثالث

العدد ٢٦٣

ملحق

قصة مرايا سيد مسلط ٣٨١

ما يشبه النهاية: التثنية ٤٠٣

«ضلّت طريقها الحمامة
كانت دائماً تخطىء
ذهبت إلى الجنوب
بدل الشمال
ظنّت القمح ماءً
كانت دائماً تخطىء
ظنّت البحر سماءً
والليل صباحاً
كانت دائماً تخطىء
ظنت النجوم ندىً
والحر برداً
كانت دائماً تخطىء
ظنت ثوبك غطاءها
وقلبك بيتها
كانت دائماً تخطىء
نامت هي عند الضفة
وأنت على قمة غصن»

الحمامة: رافائيل البيرتي

«هذه القصة حقيقية لأنني اخترعتها أنا»
«بوريس فيان»

مراياي... إنعام،

حمامتي ...

ما يشبه المدخل: التكوين

QUE

استيقظت فجأة. ظننت أنه صوت المذياع الذي أيقظني، بعد اقتحامه أذني بالقوة، قادماً من راديو الترانزيستور الذي جلبته معي وتركته عند المكان الذي كان يفترض أن يكون منذ زمن طويل مكان جهاز التلفون، والذي تركته مفتوحاً ـ كما يبدو ـ دون دراية مني، يبث برامجه على هواه. ولكن في اللحظة التي صحوت بها، أو أجبرني المذياع على الصحو، سمعت صوتاً متقطعاً مثل صوت نشارة خشب، يتحدث عن مكان اسمه «تل اللحم»، وكيف أن أحدهم أطلق النار على نفسه هناك. «موت آخر»، قلت لنفسي، بينما امتدت يدي لتغلق المذياع، كي أستطيع معاودة النوم مرة أخرى ـ هكذا اعتقدت ـ بينما حاولت جاهداً أن أنسى الذكريات التي أراد إسم ذلك المكان أن يثيرها في ذهني. كنت قد قررت النوم، ولأيام طويلة، ولكنه صوت المذيع القادم من راديو الترانزيستور، يحاول إقتلاعي من بحر النوم الذي غرقت فيه، هكذا، رحت ـ مجبراً ـ نصف نائم أو نائماً تماماً (لا أدري)، أحاول تذكر: أين سمعت بـ «تل اللحم» ذاك، قبل الآن، فأتذكر بصورة واهنة أحدهم (لا أعرف حتى تلك اللحظة مَن!) حدثني عن تلك البلدة (إذا كان يُمكن تسمية المكان بالبلدة)، دون أن يقول لي أين تقع، مكتفياً بوصفها لي، بكونها، أرض قاحلة، برمال متحركة، طمست سيارتهم فيها، وأنهم كما لو كانوا يقودونها فوق نمل. . نمل. . نمل كثير، لقد بدأت أشعر به، يدب فوق جسدي، ويدب، حتى فززت مذعوراً، وما زالت فيّ بعد مقاومة ضد اليقظة، الرغبة الملحة والإصرار على النوم، على الإستمرار بالنوم، وكانت تلك يدي فقط التي امتدت إلى جهاز الترانزيستور، لتغلقه (يبدو أنني في المرة الأولى أخفضت صوته فقط. لم أغلقه)، وتغلق بالتالي، شلال ذكرى «تل اللحم»، ولترجع إلى مكانها، تستريح كعادتها فوق صدري، ولتختفي معها تلك الكلمة «تل اللحم» ومعها جملة أخرى متقطعة، وصلتني غير كاملة «أطلق النار على نفسه هناك»، ولا يهم من يكون المعني، وإذا كانت له علاقة بـ «تل اللحم» هذا أم لا

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

(بدأت أشك بوجود المكان) ولا يهم الجمل التي ألحقها بها المذيع، الذي لم أسمع صوته بوضوح، أو كأن صوته قادم من عالم آخر، وربما هي مقاومتي العنيدة ضد استيقاظي، ما جعلني أنجح بمعاودة النوم، وطرد «تل اللحم» من ذهني.

ولكن - كما يبدو - لم يُقدَّر لي أن أكمل مشروع نومي، إذ بعد لحظات من إغلاقي لجهاز الترانزيستور، ظننت أنني سمعت صوت جرس البيت (حتى تلك اللحظة لم أدرك أنه رنّ بالفعل!)، حاولت تجاهله هو الآخر، والنوم. لكن كما يبدو أن أجسامنا تملك هي الأخرى إستراتيجيتها وحيلها في التملص من رغباتنا، الظاهرة والباطنة، ففي تلك اللحظة، رغم اختفاء «تل اللحم» والنمل والرمال المتحركة، وصورة الشخص (العائمة) الذي حدثني عنه هو (لا أتذكر من هو!)، والصورة المتخيلة الشاحبة للشخص المفترض أنه أطلق النار على نفسه؛ رغم إختفائهم، وغرقهم في بحر النوم، نومي، أحسست بأن جفنيّ انشطرا إلى إثنين، أحدهما يريد الإستيقاظ، والآخر يلح على النوم، إلى حد أنني لم أستطع تمييز أي شيء.

فركت عينيّ، ولبرهة اختلط عليّ كل شيء، ولم أعد أميز ما يحدث، أقصد التمييز بين الحقيقة والوهم، بين الحلم والحياة، بين الكابوس وبين الأمنية التي نكررها أو تتكرر في دواخلنا دون دراية، وبدا مرة واحدة عبث التمييز بين ما يجري أمامي بالفعل، وبين ما يجري كَوَهم، أو بين ما أعتقده أنا وهماً، أصبح من الصعب التمييز لواحد مثلي لم يغادر الصوفا التي استرخى فوقها (ربما أقول ذلك كنوع من التمويه، لأنني بالتأكيد نمت نوماً عميقاً، وإلا لما حدث وتردد ذلك الصدى، صدى «تل اللحم» في جنبات سمعي الممتزج مع دبيب النمل وصورة الرمال المتحركة ورجل يطمس نفسه بسيارته، ورجل يُفترض أنه أطلق النار على نفسه، أو لما حدث كل ما يخلط بين الرؤى واليقين، بين الخيال والواقع). منذ ثلاثة أيام حيث كنت عائداً من حرب، صحيح أنها انتهت بالطريقة والنهاية اللتين شاءت لها الأطراف المتحاربة أن تنتهي، إلا أنها لم تنته لنا، نحن الذين استقبلنا قيأها، والتي لفظتنا مثلما يلفظ بركان حممه البركانية. نحن مجموعة من الأوساخ الساخنة التي تجمعت في جوف ذلك البركان، وأنا من بقايا تلك النفايات، من مضمون النفايات، النفايات التي يمكن لأي كائن بشري أن يعيش معها، شريطة أن تأتي المناسبة، أن يأتي اليوم والشهر والعام الذين تغلق فيهم الدائرة على هذا الكائن، ليبدأ بالشعور أن ما يعيشه كنفاية، له علاقة بمضمون النفايات عموماً، تلك النفايات التي نراقبها يومياً (خاصة عندما نكون وحيدين)، تتجمع في صندوق وفي كيس القمامة، لكنها نفايات من نوع خاص، بسبب الحمى التي تصاحبها. وهي بالذات تلك الحمى التي جعلتني ذلك اليوم، وأنا أسترخي فوق الصوفا، أو أغرق في حمّى النوم، ألا

أعرف إلا بعد نهوضي، بأنني على قيد الحياة (في أذني يعاود صدى ذلك الاسم الغريب «تل اللحم» الذي يختفي تدريجياً مرة أخرى)، وليس عليَّ أن أشكر أحداً معيناً بسبب ذلك، إنما عليَّ أن أقبل قوانين اللعبة، وعليّ أن أستمر معها حتى نهاية المطاف، لأن اللعبة وليس غيرها من سمح لي بالبقاء حتى الآن على قيد الحياة؛ وأنا على قيد الحياة، لأن الدور الذي عليَّ أن ألعبه حتى الآن، هو البقاء على قيد الحياة بالشروط التي يتطلبها دوري، ولا بد أن أقبل وضعي وحيداً - حتى الآن، لحظة رنين الجرس، جرس البيت -، ثم عليَّ أن أقبل، إن ما تبقى عندي، هو مصير ستقرره بالتأكيد تلك اليد التي ضغطت على الجرس؛ تلك اليد التي ضغطت على الجرس سبع مرات، وبقوة، وكأنها توحي بأنها مثلما تضغط سبع مرات على الجرس ذي الرنين اللعين، لها القدرة ذاتها بالتأكيد - على الضغط على المسدس، أي مسدس، سبع مرات (وربما أكثر!) لكي تقتل من تقتله من أجل الوصول لأهدافها، على الأقل، أو للاكتفاء بلذة إطلاق الرصاص، إذا افترضت، أن تلك اليد تضغط على الجرس بدون هدف معين، ليس بسببي أنا بالذات، إنما تضغط هكذا عليه، لمجرد الضغط فقط، ولكن سيان ما تعنيه تلك اليد بضغطها ذاك، عليَّ أن أرد عليها، لكنها لا تمنحني الوقت الكافي، أنا الجندي العائد من حرب، تفوق الجحيم بنارها الذي قرأنا عنه، ربما لا تعرف تلك اليد حجمه، أو ربما لأنها تعرف حجمه، ولذلك تضغط بهذا الإلحاح، حتى أنها لا تمنحني الوقت الكافي لمعاودة النوم، فتجبرني على مغادرة الصوفا، وسط صالون البيت، وسط ظلمة البيت، ظلمة الغرفة، وظلمة الليل الذي بدأ يطبق على المدينة، ووسط هدوء اجتاح المدينة بوقت مبكر على غير عادته، لا يقطعه إلا صوت أزيز حشرات الصيف الخرساء التي عثرت على صوت لها، وبدأت بالغناء، يصاحبها في العمق فجأة، صوت قريب لعزف چلو حزين، يفصلني لبرهة عن الغرفة، عن المدينة، عن الجنوب، عن البلاد، ولا أرى غير أضواء سفينة تغادر شط العرب فجأة، وتختفي وهي تنزلق عبر شباك الصالون الموازي للنهر، فأتمنى أن تكون معي وجيهة (زوجتي) لنرحل ونغادر فوراً، بلا رجعة هذه المرة، لكنني أنتبه فجأة إلى ضربات خفيفة على الشباك الآخر الذي ما زالت تغطيه الستارة (يبدو أن تلك اليد تعبت من دق الجرس، لهذا ذهبت مباشرة إلى الشباك)، لتضرب عليه ضربات خفيفة، يصاحبها همس ملح: «إفتح، أنا جارتك»، حتى أن كل شيء كان يبدو غير حقيقي.

القســم الأول

الخــروج

- ١ -

تحركت باتجاه شباك الصالون ببطء، وسحبتُ طرف الستارة بحذر، أو بحركة مخدرة، وكأنني أتخلص من ذلك الشخص الذي نام بكامل ملابسه فوق الصوفا، فرأيت امرأة تقف خلف الشباك. لم أشك في تلك اللحظة أنها معالي، جارتنا، تقف وهي تستند إلى سيارة مرسيدس لم أرها عندما وصلت هنا. تأملتها لوقت ليس بقليل، ربما مرت دقيقتان أو ثلاث. لم يبد عليها الجزع أو فقدان الصبر. في الحقيقة لم أتعمد إبقاءها تنتظر عند الباب الخارجي، إنما حدث الأمر دون تخطيط مني. ففي اللحظة التي ضغطت يدها على جرس الباب بالضبط، لم أكن أنا في هذا العالم، كنت في البعيد، أغرق، في مكان أقرب للوهم منه للحقيقة، مكان ما لجأت إليه لأنني منذ رجوعي قبل ثلاثة أيام، وأنا شارد الذهن، حيث لم أعرف ماذا أفعل حينها، لم أجد بديلاً أفضل من النوم. ولا أعتقد أنني الوحيد الذي كان يشعر بذلك، أو الوحيد الذي لجأ للنوم كبديل، فإن من المؤكد أنني واحد من ملايين الرجال، الذين عادوا في تلك الأيام من الجبهة، الذين عادوا من حرب، يفوق وصفها الجحيم، وخاصة أولئك الذين قطعوا طريق عودتهم عبر ذلك الطريق الذي أطلقوا عليه اسم «طريق الموت»، والذي كان وحتى أيام الحرب الأولى «طريق الجنة». لا يهم الوضع الذي كنت فيه، فعندما نهضت على أثر تلك الضربات، التي أزعجتني حقاً في البداية، إلا أنني اقتنعت بوقت قليل بعدها، وقلت لنفسي، لا بد لي أن أنهض، ففي النهاية ليس من الممكن أن أنام قروناً طويلة، رغم حاجتي الملحة للنوم قروناً طويلة بالفعل.

عدت قبل ثلاثة أيام من الجبهة، بعد أيام قليلة من إنتهاء الحرب، وإذا توخيت الدقة (مثل تلك الدقة التي علمنا إياها الجنرال الألماني الشرقي)، فقد كان مر على وصولي

ثلاثة أيام وساعتين وخمسة وخمسين دقيقة.

وبغض النظر عن ظروف الحرب وملابساتها، فإن ما جعلني أصبح شارد الذهن ـ كما قلت قبل وقت قصير ـ وأن ألجأ للنوم ثلاثة أيام وساعتين وخمسة وخمسين دقيقة، لا يرجع ذلك للظروف وحدها، بقدر ما يرجع إلى أمر يبدو الآن أكثر جلاءً (أو أكثر التباساً)، بعد تلك الرحلة التي كان كما يبدو، لا بد لي أن أقوم بها مع هذه المرأة، التي لم أعتقد حتى تلك الليلة، بأنني سأقوم برحلة معها فعلاً، رحلة لا تشبه كل الرحلات، رحلة هي مزيج من فن الهروب وفن النسيان، وفن العثور على الآخر، رحلة يجد كلّ منا نفسه فيها بمواجهة الآخر، أكثر مما نعثر فيها على أماكن أخرى غير مكتشفة.

وربما لم أوافق على رحلتي معها، لو لم تقنعني ذلك المساء بسبب غياب زوجتي، ولا يهم ما روته لي، لا يهم فيما إذا كان له علاقة بالوهم أم بالحقيقة، لأن ما تبقى منه في تلك اللحظة بالنسبة لي هو أهميته فقط بعلاقته بغياب زوجتي، وجيهة، والتي لم أجدها في البيت عندما عدت، أو عندما وصلت (لا تهم الأفعال هنا) لم تكن في البيت. صحيح أنني لم أكن متأكداً من وجودها مائة بالمائة، أو أنني ـ من الأفضل القول ـ لم أكن على يقين أنني سأراها هنا، في البيت، تنتظرني، وذلك ليس بسبب الأحداث التي جرت للبلاد، إنما، كنت أقول لنفسي، لماذا عليها بالفعل أن تكون هنا، ساعة وصولي (رغم أنني حاولت إقناع نفسي مثل الكثيرين الذين عادوا في تلك الأيام، والذين حاولوا إقناع نفسهم بالتفكير، أن زوجاتهم لم يكنّ في البيت، لأنهن خرجن لشراء حاجة ما، أو أنهن ذهبن إلى أهلهنّ، وأن عليهم تفهم الأمر، فمن أين لهن بالتالي معرفة أن رجالهن سيعودون في ذلك اليوم، ولا يهم أن الحرب انتهت ـ ربما احتاج الناس زمناً أطول لتصديق ذلك ـ)، فأنا لم أرسل لها رسالة منذ ستة أشهر.

مر في ذهني كل ذلك في اللحظة التي كنت أرقب فيها جارتنا من طرف الستارة. في تلك اللحظة أو قبلها بثلاثة أيام ـ كل ما أفكر به يختلط بصورة ما بين الوهم والحقيقة ـ، لا أدري لماذا خطرت في ذهني فكرة، إحتمال أن تكون هي قد تركت البيت، في تلك الساعة استحوذ عليّ رعب كبير، حتى أنني لم أستطع حينها عمل شيء، أكثر من أن أفتح محفظة النقود، والتي لم أجد فيها أكثر من عشرة دنانير. أعتقد أنني في اللحظة التي فكرت فيها أن أفتح الباب لجارتنا، عرجت قبل ذلك إلى الطاولة القريبة من الصوفا، حيث كان يجب أن يكون جهاز التلفون (الذي لم نحصل على خط له رغم محاولاتنا الكثيرة والواسطات التي كانت عندنا)، لكي أتأكد من وجود المحفظة التي خطر على ذهني أنني تركتها هناك. بالفعل وجدتها في مكانها، وعندما تفحصت محتواها، تأكد لي مرة أخرى، أن العشرة دنانير لم تُفرّخ دنانير جديدة. وضعت المحفظة في جيبي،

وسرت باتجاه الباب. فتحته، لتدخل.

ربما كانت معالي في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين من عمرها (أو ربما أكون أخطأت بالتخمين)، من الصعب التكهن بذلك على وجه الدقة ـ كما أنه من غير المهم في مثل حالتنا ـ، فهي تنتمي إلى صنف النساء اللواتي يصعب معرفة أعمارهن بدقة، خاصة إذا كان الأمر لا يعني أحداً. وهذه هي الحقيقة، فأنا الذي لم أفكر بإسمها قبل اليوم، لم يكن يعنيني معرفة عمرها قبل ذلك اليوم أبداً. كانت جارتنا، منذ أن انتقلنا أنا وزوجتي قبل ما يقارب إحدى عشرة سنة. فقد جئنا في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ ـ في ذلك اليوم أعلنت الجرائد المحلية عن تحرير إسم مدينة (أو الأفضل قرية) لم أسمع بها من قبل، بل لم يسمع بها أحد غيري ولا حتى في المناهج المدرسية: «زين القوس» إسم سيدخل التاريخ بالقوة. أمر غريب، فعلى مدى الإحدى عشرة سنة التي مرت، لم أنتبه بالفعل إلى أن معالي تختلف عن جاراتنا الأخريات، ليس بشكلها المغري بعض الشيء، إنما لأنها تتكلم بلكنة قريبة من لكنة المذيعة التلفزيونية الكويتية «سهاد مهتدي الصباح»، تلك التي كنت أواظب على رؤيتها، حتى أنني كنت أتلهف إلى رؤية نشرة الأخبار في تلفزيون الكويت.

ـ معالي؟

قلت، بينما كنت أفتح لها الباب.

ضحكت.

ـ هل تُسميني معالي؟ لا يهم.

وقبل أن أسألها عما تعنيه، أشرت بسرعة ـ حاسمة الأمر ـ بحركة من يدها، وكأنها تطلب مني الكفّ عن منحي الأمر أهمية ما:

ـ في النهاية ليست للأسماء علاقة بالشخص الذي يُسمّى بها، إنما أكثر بما يُثيره فينا إسم ما لأحد الأشخاص من تخيلات. على هذا الأساس أقبل أن تُسميني منذ اليوم معالي.

أنهت جملتها تلك وهي تضحك، حتى أنني وجدت في تلك اللحظة من العبث إثارة السؤال مرة أخرى. بل اعتقدت أنها تمزح، وأنها تريد مناكدتي فقط، وإلا ما الذي يجعلها تسمح لي بأن أطلق عليها إسماً لا تملكه حقيقة، بالإضافة إلى تأكدي التام من كون اسمها معالي، لأنها وبالرغم من غيابها المتكرر عن المدينة (لا أعرف إلى أين؟ ولم أسأل يوماً عن ذلك)، فإنه الاسم الوحيد الذي سمعته طوال هذه السنوات مرتين أو

ثلاث مرات بالاشارة إليها، بالاشارة من زوجها أو من الآخرين (القليل من الآخرين، لأن ليس لي علاقات كثيرة في المدينة مع الآخرين). ربما أثار فيّ ما قالته بصدد الأسماء الفضول، لو حدث ذلك في مناسبة أخرى، ولكن ذلك اليوم، وبعد انتهاء حرب لم يصدق أحد أنها ستنتهي، بدا أمر مناقشة الأسماء شيئاً من البطر؛ كان ذهني ببساطة مشغولاً بأمور أخرى. كنت أغطس بالتفكير.

- أعرف أنك كنت نائماً، وإلا لكانت أنغام الچلو أيقظتك منذ زمن!

قالت لي، وهي تدخل. لم أطلب منها الدخول، إنما هي التي دخلت وكأنه أمر أوتوماتيكي.

فسألتها بصوت يختلط فيه المزاح مع الجد:

- ماذا كنت تعزفين، إذا سمحت لي بالسؤال؟

فأجابت بصوت لا أعتقد أنه يخلو من السخرية، مني:

- «أيظن»، أو «قدر أحمق الخطى سحقت هامتي خطاه».

توجهت قبلي إلى صالون البيت (تحركت وكأنها تعرف البيت منذ زمن). أغلقتُ الباب وتبعتها. كانت تسير قبلي، كنت أفكر بدخولها التلقائي وربما خطرت في ذهني الكثير من التكهنات لو لم أتطلع إلى مؤخرتها التي بدت لي شهية تلك اللحظة.

ضحكت. فسألتني لماذا أضحك، فقلت لها:

- تخيلت سهاد مهتدي الصباح تتبختر أمامي.

لم أجرؤ أن أقول لها أنني فكرت بمؤخرة سهاد مهتدي الصباح!.

- ها، أنت تحب سهاد مهتدي الصباح أيضاً، مثل الباقين.

وسارت أمامي، دون انتظار إجابة مني. وعندما أصبحنا في المطبخ، سحبت هي كرسياً من الزاوية وجلست عليه. تطلعت بي، ثم سألتني:

- عندك سيجارة؟

فقلت لها:

- لنرَ.

واقتربت من أحد رفوف المطبخ العالية، بينما راحت يداي تبحثان عن السجائر

التي كانت تخبئها زوجتي هناك، فوجدت أربع سجائر «سومر». أعطيتها واحدة وتركت الباقيات فوق الطاولة.

أشعلت السيجارة بالولاعة التي كانت مرمية فوق الطاولة.

ـ هل نسيت زوجتك الولاعة، فأنت لا تدخن كما أعرف!

قالت لي ذلك بصوت لم يخلُ من التهكم وهي تنفث الدخان على راحتها، تتطلع بي ببرود.

هززت كتفي ببلاهة. لم أعرف بماذا أجيب، كم وددت سؤالها من أين لها أن تعرف أن زوجتي كانت تدخن وأنني لا أدخن، ثم أنني في تلك اللحظة كنت أتوق من صميم قلبي أن تنتهي من زيارتها الغريبة تلك بسرعة وتخرج. لكنها لم تمهلني الوقت الطويل، فقالت:

ـ هل تريد أن تعرف أين هي زوجتك؟

في الحقيقة لم أندهش كثيراً عندما سمعتها تلقي بذلك السؤال علي، ففي النهاية فإنها لا بد تعرف أكثر مني ما الذي حصل لزوجتي.

ـ لقد هربت مع أسيَدْ لوتي، ومع كل الديوك التي كانت في حوزته.

قالت تلك الجملة، وكأنها تتحدث عن رجل لا يعنيها، وليس عن أسيَدْ لوتي الذي هو زوجها.

صمتُّ، لا أعرف ماذا أقول لها. نظرت إليَّ من طرفي عينيها، ربما لتدرس ردود فعلي، بينما راحت تدخن السيجارة. وعندما خمنت أنني لن أجيبها، سحبت نفساً عميقاً من السيجارة، ونفثت الدخان بقوة، وفي الوقت نفسه أخذت تسحق السيجارة فوق راحة يدها التي بسطتها أمامي وكأنها تتعمد لتُريني آثار حروق عتيقة انحفرت هناك.

ـ لكن، أينما سيذهبان سألحقهما حتى نهاية العالم.

إذن هربت زوجتي مع مروّض الدِيَكة أسيَدْ لوتي. من لم يعرف أسيَدْ لوتي الذي كان يشتغل صاعود نخل وأشهر مهرب للدِيَكة التي كان يجلبها من إيران ويبيعها بسعر عالٍ، فهو الذي أشاع أن الدِيَكة الإيرانية أكثر بأساً من مثيلاتها العراقيات، وإن لم يبعها كلها، فقد كان يُبقي بعضها للمقامرة.

سألتني معالي بنفاد صبر:

ـ ألا تريد أن تعرف أين ذهبا؟

فذعنت لإلحاحها وسألت دون حماس، وكأنني ما زلت أشك بكل كلمة تقولها:

ـ أين ذهبا؟

وفجأة فتحت فمها على سعته، وكأنها استذكرت شيئاً مهماً، فعلقت بصورة تهكمية:

ـ أين ذهبا؟ هل هذا كل ما تسأله؟ هل هذا كل ما تقوله؟ إنه أمر غريب.

صمتت قليلاً، ثم أضافت وهي تنظر لي، وكأنها تريد التأكد من جديتي:

ـ إنها المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً في هذه البلاد يعود للبيت ولا يجد زوجته ويرد بهذه الطريقة الباردة، رغم أنه يعرف أنها ذهبت مع رجل آخر.

بالفعل استفزها سلوكي البارد، حتى أنني لم أشأ الإلحاح بمعرفة المكان الذي التجأ إليه، مثلما لم أرغب في تلك اللحظة الحديث معها بالتفصيل عن الأسباب، وأقول إنها ليست المرة الأولى التي تغادرني فيها وجيهة، وأنها سبق وأن فعلت ذلك بالضبط، في يوم توقف الحرب الأولى، رغم أنها لم تذهب في تلك المرة مع رجل، وكتبت لي رسالة، في وقت متأخر بعد رحيلها، لكن من أين لي أن أعرف أنها كانت تقول الحقيقة، وأنها لم تذهب بالفعل مع رجل آخر؟. بالإضافة إلى ذلك ما الذي تريده هذه المرأة التي تقف الآن أمامي وتطالبني بالتصرف وفق مقاييس وضعتها هي، فما الذي تنتظره من رجل نخرته الحرب وخربته الأيام. كلا، لم أكن قادراً على البوح لها بكل شيء (أو أظنه كل شيء، وهو في الحقيقة لا شيء).. فكرت أن أطلب منها مغادرة البيت، لكن لم أجد عندي القوة الكافية أن أفعل ذلك. ربما لاحظت هي حيرتي، حتى أنها رأت من العبث إبقاء فمها مفتوحاً، منتظرة إجابة مني، وربما لذلك السبب استدركت، لتقول باستهزاء:

ـ أستطيع تكهن المكان الذي ذهبا إليه. إنه مكان يدر النقود، فأنت تعرف أنه يعرف الدِيَكة، وزوجتك تعرف من هي الدجاجة اللطيفة.

عندما لفظت تلك الجملة الأخيرة، نهضت من مكانها واستدارت حتى كادت مؤخرتها تلامس الطاولة التي فصلتنا، لتؤشر على مؤخرتها، ثم لتضربها وهي تقول:

ـ تعرف تعيش من مؤخرتها. أين ستذهب؟ يعني ما تعرف؟

لم أعرف، بل من أين لي أن أعرف. تزوجت وجيهة في زمن آخر، واشتغلنا مترجمين سوية. آنذاك لم تكن هناك حرب، بالرغم من أننا كنا نشمّ رائحتها، في كل

مؤتمرات الترجمة الرسمية التي كنا نقوم بها. لكننا لم نتكلم يوماً صراحة عن ذلك، إما لأننا كنا لا نثق ببعضنا بما فيه الكفاية، أو لأننا كنا نعتقد بأن مجرد تجاهلنا لما سيحدث، سيمكّننا من تلافي الكارثة فعلاً، ولقول الحقيقة لم يكن هناك من يُفكر بالكارثة، فحتى السنوات الأخيرة من الحرب الأولى، قضيت خدمتي إما مترجماً لجنرالات ألمان شرقيين في وزارة الدفاع أو في القاعدة البحرية في البصرة، أو مترجماً في قسم الثقافة العسكرية في مجلة «حراس الوطن». ووجيهة ـ التي كانت خريجة قسم اللغة الإسبانية ـ تترجم هي الأخرى لجنرالات من أميركا اللاتينية ومن الأرجنتين وتشيلي بالذات. وكانت تبدو أكثر جدية مني إذا ما حضرنا بعض اللقاءات الرسمية سوية. لم أسمعها تُلقي بطرفة ذات يوم، أو تعلق تعليقاً مضحكاً، على العكس، كانت تقوم بواجبها مثل رابوط، أو مثل جندي. لم تبد نزقة بالمرة، على العكس، في كل اللقاءات الرسمية، واظبت على لبس تنورة طويلة، لم تضع الماكياج إلا بشكل خفيف، فيما أضافت النظارتان الملونتان الغليظتان (يُطلق عليهما كعب بُطُلْ ـ قنينة ـ عندنا) التي لم أعرف لحد الآن، فيما إذا كانتا نظارتين طبيتين أم مجرد ديكور لم تتخلَّ هي عنه، من أجل إضفاء رزانة مفتعلة، يقيناً بعد تغيرها وتغير الكثير من الناس في سنوات الحرب النهائية، ما عادت تجدي نفعاً، بل ربما ـ وهذا الإحتمال أكثر رجحاناً ـ ساعدتنا في إخفاء كل تلك الممارسات التي كانت تخفيها ولم تشأ إظهارها إلى العلن مباشرة. طبعاً سمعت عن اشتغال الكثير من المترجمين والمترجمات ـ الموظفين في قسم العلاقات الخارجية بوزارة الإعلام ـ بالدعارة بشكل ما، إلا أنهم حتى وإن اشتغلوا، فقد كانوا يتفاخرون، بأن تلك المرأة الشقراء أو غيرها التي أعجبت هذا الوزير أو ذاك، هي ذات شأن في بلدها، حتى أنني تساءلت ذات يوم بمزاح مع أحد المترجمين من أصدقائنا، فيما إذا كانت «بنازاير علي بوتو» قد نامت مع الحاكم أو أحد مساعديه في زيارتها الأخيرة للبلاد. بهذا الشكل، حتى لو أكون قد فكرت بزوجتي، فحدود الدعارة تبقى، هناك على مستويات الدولة العليا، لا أن تنتهي إلى مروض للديكة. لقول الحقيقة، كان ذلك تفسيري حتى تلك الظهيرة، أو حتى سماعي جملة جارتنا معالي المستفزة، التي كنت أعتقد أنها قالتها عن جهل أو عن غيرة.

ـ هذه الحرب تختلف عن الحرب التي قبلها، أنزلت الكثير من الناس إلى الحضيض.

وقبل أن تسمع تعليقي، أضافت:

ـ ومنهم زوجتك.

ففتحت فمي، بصورة أوتوماتيكية:

- وصعَّدت ناساً إلى أعلى من مستواها!

قلت لها غامزاً، مع شعوري المقيت من الحديث في السياسة مباشرة، وخاصة في مناسبة مثل هذه، فأنا أعتقد - وأبذل الجهد الكبير من أجل تحقيق ذلك - أنه لا بد لي من إبعاد السياسة عن حديثي، أو على الأقل نسيانها عند روايتي هذه القصة، فبالتالي تبقى أسباب مغادرة زوجتي وقدوم الجارة معالي هي أمور خارج السياسة. لذلك ضحكت في تلك اللحظة، كانت يدها قد امتدت إلى الطاولة لتأخذ سيجارة من تلك التي استقرت هناك. أشعلتها. ألقت عود الثقاب باتجاهي هذه المرة، وعلقت:

- إذا كنت تقصد زوجتك وأسيَدْ لوتي فهذا صحيح، ولكن إياك أن تقصدني.

مثلما تحتاج علاقة إلى كذبة ولو صغيرة (على الأقل) لكي تبقى على قيد الحياة، كان عليَّ أن أجاملها، فيقيناً، أن في تلك اللحظة كان يحتاج أحدنا الآخر. فجأة وجدتني أسمع سؤالها:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

هززت كتفي، وفكرت بعبث محاججتها فسألتها فيما إذا كانت ترغب بشرب الشاي. هزّت رأسها. وقفت فجأة وسألتني وكأنها تحزم أمراً مبيتاً:

- كم عندك من النقود؟

ضحكت وقلت:

- يكفي لملء خزان روحي، أو خزان سيارة!

لا أدري لماذا خطرت في ذهني فكرة السيارة. ربما لأنني تذكرت لحظتها رؤيتي لسيارة المرسيدس عند باب دارها. أجابت معالي، وهي تأخذ السجائر الثلاث الباقية وتتحرك بإتجاه الباب:

- عندي سيارة جاهزة تقف أمام الباب، سرقتها اليوم!

حدقت بها لبرهة فقط. وإذ طنت في ذهني جملة واحدة، لا أعرف كيف ومضت في ذهني تلك الجملة، في تلك اللحظة، جملة واحدة وليس غيرها، إذ تذكرت بأن نابليون، قال ذات مرة بأن أهم المعارك تُكسب في لحظة استراتيجية خاطفة. كان عليّ التصرف بحذق، واتخاذ قرار سريع، لا يهم، فيما إذا كان صحيحاً أم خاطئاً، فبالنسبة

لعائد من الحرب للتو، لا يمكن محاكمة مضمون القرار الذي يتخذه. قبل سنتين وخمسة أشهر، عندما غادرتني وجيهة، أنقذني صندوق القمامة من الوحدة، ورحت أحصي أيامي على عدد أكياس القمامة التي أضعها في الصندوق، الآن وبعد كل ما جرى، لن تنفعني أكياس ولا صناديق ولا نفايات، فالقمامة تركتها هناك ورائي، ولست على استعداد، للعيش من جديد، بانتظار عمال القمامة، الذين يأتون كل يوم أربعاء ويجمعون صناديق القمامة من أمام البيوت، فبعد كل ما حدث، لم تعد هناك بيوت، ولم تعد هناك قمامة، وليس هناك مديرية قمامة، لأن البلاد أصبحت كلها صندوق قمامة، وعليّ التصرف بسرعة، صحيح أنني لم أرد أن أكون مثل نابليون، أترك ذلك للحالمين أن يكونوا مثله ولم ينجحوا، إنما كان يهمني أن لا أفوت هذه الفرصة. عليّ أن أغادر. ولا يهم إلى أين. لذلك لم أبد أي تردد في الموافقة على اقتراحها، وخرجت معها بسرعة، ولم أنتبه، إلا عندما أصبحنا في الخارج، وجلسنا في السيارة التي كانت قد سرقتها هي (كانت سيارة الدكتور ماجد طبيب البلدة النسائي كما هو معروف، وطبيب الجراحة والعمليات الطارئة كما يدّعي هو)، إنني تركت أضواء البيت مشعلة.

لبرهة سمعتها تقول لي:

- انتظر لحظة.

دخَلَت إلى البيت، لتخرج بعد ثوان بحقيبة يبدو أنها جهّزتها قبل مجيئي. أخرجت من حقيبتها الصغيرة ربعية عرق، فتحتها مباشرة، ورشتها على الصندوق الخلفي للسيارة، وكأنها تطرد روائح غريبة، وقالت:

- من الأفضل أن تبارك مؤخرة السيارة بالعرق!

ثم أخرجت مفتاحاً، كان مفتاح السيارة، وقالت لي وهي تناولني إياه:

- خذه، ولا داعي لحمل حقيبة ملابسك، ففي هذه الحقيبة بعض من ملابس أسيَدْلوتي التي تركها.

قالت الجزء الأخير من الجملة وهي تضرب فوق الحقيبة. ثم دفعتني باتجاه السيارة. لبرهة أصبحنا في داخلها. رمت الحقيبة فوق المقعد الخلفي، وقالت:

- تحرك!

أدرت محرك السيارة المرسيدس الـ ٢٨٠ أس، وانطلقنا لا أعرف إلى أين. حتى أنني عندما سألتها، فيما إذا كانت تقترح إتجاهاً معيناً، قالت:

- كما تشاء!

ضحكت، وفكرت أنها كان من الأفضل أن تحدد لي الاتجاه. لأن أكثر ما يثير اضطرابي هو هذه الـ «كما تشاء»... لكن إلى أين؟.. لا أبالغ في القول إذا قلت إن حيرة كبيرة هجمت عليّ عندما أدرت المحرك. كم هو الأمر غريب، فالآن وأنا أحاول تذكر ما حدث تلك اللحظة، وكيف أنني اخترت الاتجاه ذلك الذي انتهى في النهاية إلى ما يدفعني أن أروي هذه القصة الآن، وماذا سيكون مجرى حياتي لو كنا سرنا باتجاه آخر.. باتجاه كان بإمكان السيارة أن تقودنا إليه؛ كم هو أمر يدعو للشلل، كلما تذكرت، بأن صدرت مني حركة كانت غير ذات معنى، حركة أدارت المقود باتجاه معين، جعلت الكثير من الأشياء، الكثير من المسارات التي كنت أظنها حتى تلك اللحظة (لحظة قيادة السيارة، والشروع بتلك الرحلة)، غير مهمة لتصبح عند نهاية الطريق مغزى ولبّ حياتي، إذا ما أجرؤ وأقول حياتها أيضاً، والتي لولاها لانتهى - ربما - كل شيء إلى الحضيض والدمار واليأس، مثل الوضع الذي انتهت إليه البلاد، الناس، والآن أستطيع الجزم الآن، الآن فقط، أن حياتي - لكي لا أقول حياتنا جميعاً - هي مجموعة من المصادفات تجعلنا نغوص بعيداً عن السطح الذي ننزلق فوقه يومياً. لا أقول ذلك بطراً، أو لرغبة بالتفلسف، إنما لأني الآن، أعرف، بأنني في تلك اللحظة التي جلست فيها إلى المقود لم أعرف أنني أبدأ رحلة طويلة، ستغير حياتي تماماً (أو هل كانت لي حياة!)، وأن يدي اليمنى، أو أصبعين منها، الإصبعان اللذان أدارا مفتاح المحرك، هما اللذان رسما اتجاهاً في ذهني لم أكن على علم به حتى تلك اللحظة، وربما حتى لمعالي.

- ٢ -

في اللحظة الأولى التي انطلقت فيها السيارة بنا خطرت في ذهني فكرة واحدة، قد تبدو غريبة للبعض، لكنها بدت لي في تلك اللحظة حميمية وأكثر قرباً لنفسي، حتى عندما حكيتها لمعالي. في الأول احتفظت بها لنفسي، ربما لدقيقتين أو لثلاث قبل أن تلاحظ معالي - تلك أول علامات الذكاء التي فاجأتني بها - أن تلك الفكرة كانت تطن في رأسي، كما لو كان غلاف رأسي من زجاج، والفكرة مثل ذبابة أو فراشة - لا يهم - تدور في داخل الزجاج تريد الخروج. لم تكن فكرة عبقرية، إنما بسيطة، مثل فكرة البحث عن مكان مناسب للتبول بعيداً عن أعين الناس، أو التفكير بمكان يصلح في وقت الحرب أن يكون ساتراً ترابياً أكثر من غيره، كانت الفكرة البسيطة التالية التي استحوذت عليّ: إنها المرة الأولى التي تجلس فيها إمرأة غريبة - غير زوجتي - إلى جانبي في سيارة. بالتأكيد لاحظت معالي ذلك، فهي التي قالت بدون حرج وبصوت لم يخلُ من التهكم غير المعلن:

ـ أول مرة تصعد إمرأة غريبة معك بالسيارة!

لم تحوِ جملتها تساؤلاً بقدر ما كانت تحوي سخرية كامنة. بلعت ريقي قليلاً، وحاولت إجابتها باستراتيجية لا أندم عليها تباعاً:

ـ يُمكن قول ذلك.

لم تعلق إنما اكتفت بضحكة ساخرة وبهزة من يدها وكأنها تقول لي «إحتفظ بهذا الجواب لنفسك»، أو «إضحك على روحك»، أو ـ وتلك الجملة هي أكثر الجمل مناسبة ـ «تستحق الخازوق أيها الدعيّ». لم يخطىء حدسي تلك اللحظة باعتبار الجملة الأخيرة أكثر تناسباً، لأنها ستقول لي بعد ثلاثة أو أربعة أيام ـ كما أعتقد ـ من رحلتنا، بأن ليس من الغريب أن الله لم يبعث لنا طيراً من أبابيل، أبداً لا حاجة لذلك، فيكفي «أنه بعث لنا ديكتاتوراً صغيراً، لقننا درساً لا يُنسى في التواضع». ربما بدت جملتها قاسية جداً ـ لي على الأقل وأنا أجلس هناك ـ، حتى أنني انفعلت في الأول وشعرت بغضب يتصاعد عندي، لكني لقول الحقيقة لم أعرف كيف أَرُدُ عليها، لدرجة أنها لاحظت اضطراب يدي عند مقود السيارة، فعدلت من جلستها قليلاً، لمست يدي، ثم مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت سيجارة من سجائر زوجتي التي وضعتها هناك:

ـ دخِّن واحدة.

لم أرفض، لكن يدي ترددت باستلامها. وضعت هي السيجارة بين شفتيّ، وأشعلتها مباشرة.

ـ لا تحاول نفش ريشك مثلما يفعل باقي الرجال!

أخرجت السيجارة بسرعة من فمي، وسلمتها لها، بينما فتحت يدي زجاج النافذة الملاصق لي. لم أجد جملة أقولها لها. فقالت لي:

ـ كم سنة لنا ونحن جيران؟

فقلت لها، وأنا لا أعرف ما تريد قوله:

ـ أكثر من أحدى عشرة سنة.

فصححت:

ـ عشر سنوات ونصف وثلاثة أسابيع وخمسة أيام.

نظرت لها متطلعاً. ربما أوحت نظراتي بأنني أستنجد بها، لتقول لي ما تعنيه بذلك التعليق، ففي النهاية لا تهم تلك الأسابيع والخمسة أيام، ثم متى كان الناس هنا بهذه

الدقة حتى يلاحظوا عدد الأيام بهذا القدر. معالي التي فاجأتني مرة أخرى باستطاعتها قراءة أفكاري، قالت:

- أعرف بماذا تفكر.

سحبت نفساً عميقاً من السيجارة، وأضافت:

- منذ ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ وأنا لا أحسب الأيام فقط، إنما الساعات، والدقائق، بل حتى الثوان.

سكتُّ. هذه المرة دخنت هي بعصبية:

- هل تريد أن أقول لك كم استغرقت الحربان بالأيام والساعات والثواني؟ هل تريد؟

لم أجد جواباً.

- سيان، إحدى عشرة سنة ونصف أم عشر سنوات ونصف وثلاثة أسابيع وخمسة أيام، لا فرق، فأنت في النهاية لا تعرف من هم جيرانك، مثلما لا تعرف أن زوجتك، كانت تنام مع الديّاك أسيَدْ لوتي منذ سنوات.

صمتت لحظة، فتحت هي الأخرى النافذة، وألقت برماد سيجارتها، لتقول:

- إذا أردت الدقة، زوجتك بدأت بخيانتك، كما تسمون ذلك معشر الرجال، قبل الحرب الأولى بخمسة وستين يوماً.

في تلك اللحظة شاءت هي منحي إستراحة قصيرة لكي أستجمع التواريخ بصورة دقيقة. حينها تذكرت أنها كانت تعني ذلك الإحتفال الضخم الذي عاشته البلدة للمرة الأولى في تاريخها.

- هل تعرف إفطَيْمْ بَيّ دَي حفظها الله؟

فسألت وأنا أتعمد تجاهل الإسم، ربما لخبث مني، لكي أنتظر ما ستقوله هي عنها:

- من؟ إفَطيْمْ بَيْ دَي... كما في الإنكليزية Pay day.

فأجابت:

- نعم، Pay day يوم الحساب، كما هو معناه، أيها المترجم العبقري.

فقلت وأنا أكذب:

ـ لم أسمع عنها أبداً.

ضحكت بسخرية، وقالت لي دون التوقف عن الضحك:

ـ لماذا تكذب؟ إذا صدق ما تقوله، فيعني بأنك مجرد حمار، لأن هذه المرأة أشهر من كل الوزراء الذين تعاقبوا على حكومات هذه البلاد.

لم أرد عليها، إنما انتظرتها تنتهي من ضحكها على الأقل. فأضافت هذه المرة بصوت جدي:

ـ أنت لا تعرف أن إفطَيِّم پِّيْ دَي، وليس غيرها التي كانت تحوم حول زوجتك، وهي التي زوَّجت جارتك من أسَيِّدْ لوتي.

لم أفهم ماذا عنت بجملتها تلك. وعبثاً انتظرت توضيحها القصة لي. لكنها صمتت ولم تتكلم بعدها على مدى ساعات، لا أعرف كم ساعة بالضبط، لكنني على يقين أنها كانت أكثر من خمس أو ست ساعات على الأقل، لا يهم، وكأنها في صمتها ذلك أرادت منحي الفرصة لاسترجاع ما حدث ذلك اليوم: يوم ١٩ تموز/يوليو ١٩٨٠.

ـ ٣ ـ

على مدى سنة كاملة، أي منذ ١٩ تموز/يوليو ١٩٨٠، عاشت بلدة القرنة اضطراباً لم تعشه قبل ذلك التاريخ أبداً. فطوال الأشهر الإثني عشر التي مرت على البلدة، طاف الموظفون ـ موظفو البلدية فقط ـ والمعلمون والمدرسون وطلاب المدارس الصغار والجنود والشرطة وصاعدو النخل على كل سكان البلدة. كانوا يدورون بالسكان، كل صنف منهم باختصاصه. موظفو البلدية حملوا تعهدات كان على السكان توقيعها يومياً، تقول بأن سكان البلدة يتعهدون دون إجبار من أحد، بالمحافظة على نظافة البلدة طوال تلك الشهور، وأنهم في يوم التاسع عشر من تموز/يوليو ألف وتسعمائة وثمانين سيُزينون شرفات البيوت بأعلام الجمهورية وصور حاكم البلاد، بالإضافة إلى تعهدهم بلبس ملابسهم التقليدية نظيفةً وجديدة ـ كما قالت معالي لي تباعاً أُستُثنيت إفطيّم پِّيْ دَي وحدها وسُمح، كما جرت العادة، لها ولأمثالها بتعليق أغطية الأفرشة على شرفات بيتها التي امتلكته في البلدة ـ بالتوازي مع ذلك حمل المدرسون والمعلمون إستمارات كان على السكان ملأها، ربما أوحى شكل الإستمارات أو الأسئلة التي تضمنتها بأنها تشبه إستمارات التعداد السكاني ذاتها التي كان الناس يُطلّقون عليها «الكرصة»، ففي تلك الإستمارات كان عليهم أن يكتبوا بالإضافة إلى أسمائهم، شرحاً مستوفياً لملكياتهم ـ سآتي تباعاً على هذه النقطة وكيف أنها هي التي أثارت الإنتباه ليس لشخصية أسَيِّدْ لوتي فقط،

سواء بما تعلق بمهنته كمسؤول عن صاعدي النخل في القرنة أم في عدد ونوعية الدّيكة التي يملكها، إنما لوجيهة كواحدة من أهم المترجمات في البلاد ـ. في الوقت نفسه طاف طلاب المدارس الصغار بمجموعات منفصلة عن طلاب المدارس المتوسطة والثانوية. فبينما حمل القسم الأول صناديق صغيرة مصنوعة من سعف النخيل ـ هيّأها صاعدو النخل ـ لها فتحة في الوسط، وهم يحثون السكان على التبرع لتسديد نفقات يوم الإحتفال، حمل القسم الثاني من المجموعة طوابع مصنوعة من ورق رخيص قامت طالبات المدارس أنفسهنّ بصنعه من حافات الدفاتر المدرسية المتبقية من العام الفائت، زوّدْنَ حواشيه بأرقام وتخطيطات لم تخلُ من فن ملفت للنظر وزخرفة دقيقة. كان على السكان دفع مبالغ معينة مقابل شراء تلك الطوابع والاحتفاظ بها، فربما بعد سنة أو سنتين سيحصلون على شرف مقابلة الحاكم ـ حاكم البلاد شخصياً ـ أو الحصول على جائزة خاصة، وفي الحالتين، هم رابحون، بالقياس للمبلغ الذي يتبرعون به من أجل شراء هدية تليق بالحاكم؛ لم يكن يُسجل إسم المتبرع ورقم بطاقته. أما الجنود والشرطة فقد كانوا يطوفون للمرة الأولى سوية بلباس رسمي موحد، لونه مزيج من اللون الكاكي واللون الأخضر، وهم يأخذون من السكان تعهداً خطياً بحراسة البلدة والمواقع التي سيقفون فيها. هكذا عندما تم الإحتفال في ١٩ تموز/يوليو ١٩٨٠، وحضر الحاكم ببذلته البيضاء، لم يكن سكان البلدة هم الحاضرون، إنما كانوا هم الذين يحرسون حدود البلدة. كان اليوم الوحيد الذي حضر فيه أفراد الشرطة المحلية وجنود الوحدات المتمركزة في البلدة والمدن المجاورة بكامل أعدادهم، مُسلّمين البلدة لحراسة أهلها ولطاقم القوات الخاصة بالحفاظ على سلامة الحاكم. ربما كان صاعدو النخل هم أكثر المجاميع تلك التي كانت تطوف البلدة حماساً. فعلى مدى السنة تلك أخذوا على عاتقهم زراعة فسيلة نخل كل يوم في بيت من بيوت البلدة، وإطلاق إسم الحاكم عليها أو إسم أحد أبنائه أو بناته، دون أن ينسوا أخذ تعهد من سكان البيت بالحفاظ على تلك الفسيلة والعناية بها، وإخبار رئيس نقابة صاعدي النخل أسيَدْ لوتي بكل الأمراض الطارئة التي قد تحصل لها. كان صاعدو النخل أكثر مبالغة في عملهم، فهم أرادوا تحدي الطبيعة وإجبار فسلات النخيل على النمو خلال سنة واحدة، لكي يُقدموها هدية إستثنائية إلى الحاكم. لسوء حظهم ـ أو ربما لحسن حظ أسيَدْ لوتي ـ لم تنمُ أية فسيلة من تلك الفسائل التي زُرعت بعجالة. وقبل يومين فقط من مجيء الحاكم تأكد للمسؤولين عن تنظيم الإحتفال ولصاعدي النخل أن من غير الممكن لتلك الفسائل أن تنمو، هكذا جمع مسؤول البلدة الأمني ومسؤول البلدة الحزبي ومسؤول إتحاد نقابات العمال في البلاد كل صاعدي النخل وبحث معهم سُبل تجنب الفضيحة، وإلا سيُلقون حتفهم جميعاً. حينها خطرت على ذهن أسيَدْ لوتي فكرة أخرى ـ ربما بدت عبقرية للبعض ـ، فاقترح حينها بدل تقديم الفسائل تقديم سمكة «الجصّانية» للحاكم.

وعندما سألوه عما يعنيه بذلك، قال لهم، أولاً لأن تلك السمكة الضخمة هي من الأسماك النادرة وأنها أحد رموز وكنوز شط العرب وبلدة القرنة بالذات وأن «سيادته سيعجبه طعمها بالتأكيد، وهو المعروف بحبه لأكل السمك، ألم يُرسل طائرتين محملتين من طائرات الخطوط الجوية المحلية لمضيفه رئيس الوزراء الفرنسي، صديقه المخلص، جاك شيراك: واحدة من الطائرات محملة بالسمك والثانية بسمّاكة أبي نؤاس المشهورين مع عدتهم الخاصة لسقف السمك!»، وثانياً أنه لم يفهم لماذا استثني الصيادون من المساهمة في الإحتفال، وحتى عندما أجابه البعض، أن ذلك حصل بسبب إنشغالهم بالصيد، وأنهم سيكونون جميعاً في شهر تموز/يوليو بعيدين عن البلدة، إذ ستكون قواربهم وسط الخليج، أجاب أسيَدْ لوتي بصوت لم يخلُ من سخرية وعزم، بأن الأمر لا يهم، وأنه هو وليس غيره من سيعوض عن موت تلك الفسائل، وغياب الصيادين أيضاً، والأمر جد بسيط، فيكفي أن ينظم المحتفلون ساعة لا أكثر للحاكم ليكون مع حاشيته عند ساحل شط العرب، بمسافة تبعد عن جسر القرنة (جسر الثورة)، وعند الخط الذي يقسم الشط إلى نصفين، حيث يلتقي النهران ـ دجلة والفرات ـ بالضبط تحت شجرة آدم التي سيقف الحاكم على منصة تحتها. وعليهم ألا يقولوا له شيئاً، إنما يتركونها للمفاجأة، ليسلمه أسيَدْ لوتي بنفسه سمكة «الجصّانية». حينها تطلع المجتمعون به، وقالوا له بأنه صاعد نخل وليس غواصاً، فقال لهم جملة شاعت في البلدة وتداولها الناس مثل الحكمة «من يغوص في الهواء يستطيع الغوص في الماء!» (ملمحاً إلى قدرته الفائقة في تسلق أكثر النخيل إرتفاعاً)، في ذلك اليوم بدد أسيَدْ لوتي كل الشكوك التي راودت محدثيه، والتي لم تهدأ على مدى اليومين التاليين، والتي ازدادت في يوم وقوف الحاكم عند شط العرب بالذات، ولم تهدأ حتى رؤيتهم لأسيَدْ لوتي يخرج من الشط بعد ساعة من الغطس ويحمل سمكة الجصّانية الثقيلة ـ كانت تزن حد الخمسة والعشرين كيلوغراماً ـ، وسط تصفيق الجميع، ودهشتهم، لأن لا أحد يفهم كيف تمكن صاعد النخل النحيف هذا، أسيَدْ لوتي، من صيد تلك السمكة الضخمة التي إن لم يفشل الكثير من الصيادين والمغامرين القادمين من مدن أخرى من أجل صيدها، فلقد أودت بحياة الكثيرين منهم؟ وإذا عرف البعض تفاصيل القصة، فإن عددهم لا يزيد عن عدد الأصابع، لم أكن أنا من بينهم، إنما كانوا ثلاثة فقط، وواحدة منهم كانت معالي.

ـ ٤ ـ

عندما علم أسيَدْ لوتي بأن الفسائل التي زرعها قُدّر لها ألا تنمو كما أراد لها، استحوذ عليه رعب كبير، وفكر أنه سينتهي إلى ذلك القدر الذي كثيراً ما ارتسم أمامه،

وحاول جاهداً تجنبه: الموت، أو السجن، لأنه يعرف بأن لا يمكن المزاح مع الحاكم، ويجب حساب كل خطوة يخطوها المرء ألف مرة، قبل الإقدام عليها. هل كان متهوراً في مشروعه، وبالغ في تصوراته؟ أراد أن يفعل المعجزة في زمن يتحدث فيه الجميع عن المعجزات. في الراديو، في التلفزيون، في المجلات، في الندوات العامة، في المدارس، في الدوائر الرسمية، في الشركات، في المدارس، في الإحتفالات، في المقاهي، بل حتى باعة الخضروات والفواكه واللحوم والملابس يتحدثون عن باقة الكرفس المعجزة، وعن البرتقالة المعجزة، وعن البقرة المعجزة، وعن دشاديش النوم المعجزة (المصنوعة في الصين حقيقة!)، كل شيء معجزة، حتى إفطَيْمْ پِّيْ دَي تتحدث عن «القحبة المعجزة»، وعن «المؤخرة المعجزة» بل عن «الكس المعجزة». وأسيَدْ لوتي لماذا لا يحق له التفكير بـ «الفسائل المعجزة». ليكن ما يكون، فإذا كان الأمر كذلك فعليه ألا يدفع الثمن لوحده، ألم يتهور كل صاعدي النخل معه؟ ليلقوا حتفهم معه، فمهما جرى ومهما سيحدث، فإنه سيفعل المستحيل لكي لا يلقى العذاب لوحده. محال. ألم يتعلم ذلك من الديكة التي كان يربيها!

لم يكن أسيَدْ لوتي صاعداً للنخل فقط، إنما ديّاكاً. ليس ديّاكاً عادياً وحسب؛ لم يعرفه سكان القرنة فقط، إنما طالت سمعته البصرة ومدن الجنوب حتى وصلت حدود البلاد الشمالية. فليس من الغريب أن يرى المرء في بيته ضيوفاً غرباء بأزياء مختلفة وغريبة عن سكان البلدة ـ أكراد بالبشتمال والعرقجينة، رجال من منطقة الغربية بدشاديش وغتر بيضاء وعقال أسود ـ يقدمون له من كل أنحاء البلاد، من أجل الحصول على ديك لا يخذلهم في رهانهم.

منذ خمس وأربعون عاماً وهو يمارس هذه المهنة (في المرة الأولى التي صعد فيها نخلة، كان يبلغ من العمر خمس سنوات). وإذا ما قسمنا حياته فهي تنقسم إلى قسمين، عشرون عاماً لصعود النخل وخمس وعشرون عاماً لبيع الديكة ـ لم يراهن يوماً على ديك ـ، بالرغم من أنه لم ينقطع في الخمس والعشرين سنة الثانية من حياته من صعود النخل، ولكن لقول الحقيقة، لم يجلب صعود النخل له الكثير من المورد، وظل يمارسه فقط لوجد قديم لا أكثر، أو ـ وهذا هو الأرجح ـ أراد عن طريق الإستمرار بممارسته تغطية ما يقوم به في الحقيقة: بيع الديكة. إذ بالرغم من أن بيع الديكة بدا أمر مشروع وعلني، إلا أن ذلك لم يمنع من تحريمه في هذه الفترة أو تلك، وأن التجارة فيه لم تخلُ من الكثير من المخاطر. وأبسط مثال على ذلك ما حصل في عهد الحاكم الحالي الذي اعتبر تجارة الديكة وتنظيم حفلات الرهان على عراكها مرادفة لتجارة الحشيش أو تعاطيه. لكن أسيَدْ لوتي العارف ببواطن الأمور والذي خبر أنظمة حكم مختلفة ورجال سياسة

وجنرالات صعبين ومختلفين، يعرف أن ليس كل ما يدور على السطح بصورة رسمية هو بالفعل ما يريده أولئك الناس.

«دعيهم يمنعون، ونحن نطبق ما يقولونه، ولكن لنمارس ما نريد سراً»، هكذا قال لمعالي ذات يوم عندما سألته، فيما إذا كان لا يخاف من مطاردة السلطات له. بالفعل هو الخبير في تعامله مع الناس عرف حاجة «الذين في العليّة» للديكة، وأنهم مجانين أحياناً إذا تعلق الأمر بتحقيق رغباتهم، وعلى استعداد لملء العالم بأنهار الدم إن لم يحصلوا على ما يريدونه، وخاصة إذا ما وعدوا به. وتلك هي المصيبة، فأمر الفسائل كان قد وصل مسامعهم.

إن علمه بذلك هو ما جعله يمرض في اليومين الذين سبقا يوم الإحتفال الضخم. وعلى مدى هذين اليومين لم يغادر فراشه، صاحبته حُمىً بسيطة كان يشعر بها على مدى فترات متفرقة، يصاحبها ذلك الكابوس الذي لازمه ليس على مدى الإثنين والأربعين ساعة تلك ولم ينفك عنه حتى استيقاظه ذلك الصباح على صوت ضربات على الباب، إنما على مدى السنتين الفائتتين، منذ أن فقد عائلته كلها ـ خمسة أولاد وبنتين وامرأة ما زالت شابة وأم وأب كان صياداً ولسوء حظه لم يذهب ذلك اليوم للصيد لمرضه (ذهب أسيَدْ لوتي بدلاً عن أبيه) ـ إثر وقوع صاروخ ضال أطلقته إحدى الوحدات العسكرية للقطعات البحرية المحلية التي كانت تمارس تمارينها الروتينية كل شهر، سوية مع بعض القطعات العسكرية الكويتية عند سواحل جزيرة بوبيان الكويتية.

لو كان عنده بنتاً أو ولداً أو أحداً ما في البيت لكان أرسله يفتح الباب، ولكن كان عليه النهوض ورؤية الشخص الذي راح يدق الباب مرات متكررة وبقوة. نهض ذلك الصباح بتثاقل، لكنه لم يعرف أن الأمر لم يكن بذلك السوء، وأنه لحسن حظه نهض ليفتح الباب، وليرى إفْطَيْم پِيْ دَي، بقامتها الطويلة، وبوجهها الذي امتلأ بالمساحيق، والذي ظل محافظاً على جماله رغم قربها من الخمسين سنة من عمرها ـ وبثوبها القطيفة النامرد الملتصق بجسدها، تقول له بصوت غاضب، كأنه يخرج من صدرها المضغوط عند طرف الثوب العلوي: «أنت أسيَدْ لوتي؟»، فأجابها بصوت واهن «هو بعينه!»، جملة لم تجعلها تلين فقط، إنما تضحك، وخاصة عندما رأته يخرج نصف عاري من الأعلى وببنطلون البيجامة فقط. راحت تضحك أكثر وتؤشر إلى ما بين فخذيه، حتى أنه شعر بالحرج وبيديه ترتعشان، عندما أنزل رأسه ليرى خلالة قضيبه السوداء تتدلى من فتحة بنطلون البيجاما. أدخلها. فقالت له إفْطَيْم پِيْ دي دون أن تقطع ضحكها: «صاعود نخل تمام، الخلالة يشيلها في كل مكان!». سألها بوجل عما تريد، فقالت له إنها جاءت إلى بيتها في القرنة، ورأت الفسيلة مريضة هناك، وإنها تريد منه مصاحبتها

للبيت وليرشدها فيما إذا كان هناك مغزى من زرع تلك الفسيلة، وفي ذلك المكان الذي اختاروه لها أثناء غيابها ـ هي إفْطَيِّم ـ، فبالتالي حتى وإن لم تكن الفسيلة مريضة، فلا يصح زراعتها في المكان الذي يتوسط الدار، والذي تضع فيه عادة كرسي من الخيزران وتجلس عليه لتراقب منه زبائنها في الغرف الإثنتي عشرة التي تحيط بالباحة، فوجود الفسيلة ـ لحسن الحظ أنها لم تنم ـ لا يسمح لها بمعاينة ما يفعلونه، هي الحريصة على راحة قحباتها، مثلما هي حريصة على راحة زبائنها.

لبس أسيَدْ لوتي ملابسه بسرعة، رغم الحمى، وصاحبها حتى البيت ـ شعر في الطريق بأن الحمى بدأت تغادره ببطء ـ! وعندما وقفا لصق الفسيلة، عرف إلى أي مدى انتهى مشروعه إلى الفشل، نعم مشروعه، فلو لم يكن هو الذي اقترح زرع كل ذلك العدد من الفسائل، والذي تخيل كيف أن الحاكم سيفرح لرؤيته منظرها، عندما يدخل كل البيوت على عادته، فهذه المرة لن يدخل إلى المطابخ ليكشف قدور الأكل ويفتح أبواب الثلاجات ويسأل ربات البيوت عما طبخن اليوم أو عما خزنَّ لأيام الشدة ـ «تحت حكمي ليست هناك أيام شدة وفاقة وعوز»، كان يعلق دائماً ـ بل سيشغله منظر تلك الفسائل، وسيفرح عندما يرى قطعة كبيرة بجانب الفسيلة كتب عليها اسمه أو اسم زوجته أو إحدى بناته أو أحد أولاده.

لم يفاجأ أسيَدْ لوتي، عندما قالت له إفْطَيِّم بِّيْ دَي بأن يقلع الشتلة مباشرة، بلا تباطؤ، وأنها لا تريد لا فسيلة نخيل ولا أية شتلة أخرى أثناء غيابها. قالت له بصوت حازم جعل صورة مرعبة ترتسم أمام عينيه فيما لو رأى الحاكم تلك الشتلات المريضة أمامه. فتخيل نفسه مشنوقاً عند الفسائل. وعند تخيله تلك الصورة، نسي الحمى التي سيطرت عليه، وطلب من إفْطَيِّم بِّيْ دَي أن تعطيه مسحاة. فأعطته.

لم يستغرق الأمر غير دقيقتين، وكانت الفسيلة تجثو مثل جنين يسقط في شهره الثامن أمام أقدامهما. كان أسيَدْ لوتي يعرق ويخرج أصواتاً غريبة خلال ذلك، كان كمن يلعن اليوم الذي ولد فيه أو اليوم الذي وافق فيه على استلام مهمة مسؤولية صاعدي النخل.

عندما ارتطمت الفسيلة مثل جثة صغيرة بأقدام إفْطَيِّم بِّيْ دَي رفستها بعيداً وكأنها قذارة التصقت برجلها. عاينت أسيَدْ لوتي وحركت رأسها ساهمة وكأنها لا تريد تصديق ما ترى: كان من البساطة ـ وحتى من مكان بعيد، من تلك الغرف الإثنتي عشرة ـ ملاحظة أن الرجل كان يعاني من كابوس لا علاقة له بالفسيلة فقط. فسألته إفْطَيِّم بِّيْ دَي عما جرى له، وإذا كان بإمكانها مساعدته. شعر أسيَدْ لوتي ببعض الهدوء لسؤالها،

لها هو أول شخص يسأله عن همه. مسح عرقه بيده اليسرى. رمى المسحاة إلى الحفرة التي خلفتها الفسيلة، وسأل إفْطَيْم پَيْ دَي بهدوء فيما إذا كان عندها له كرسي يجلس عليه. لم تحضر المرأة له كرسياً فقط، إنما سألته فيما إذا كان بحاجة إلى بيك من العرق ليخفف من توتر أعصابه، فأشار لها بالموافقة.

اختفت إفْطَيْم پَيْ دَي لبرهة، وخرجت من إحدى الغرف الإثنتي عشرة بقدحين من العرق، ناولته واحداً، واحتفظت بالآخر في يدها.

- «بصحة الخلالة!»، ضربت قدحها بقدحه. ابتسم أسَيَدْ لوتي إبتسامة باهتة.

وعندما شرب جرعة - جاء على نصف القدح تقريباً -، راح يداعب القدح بيديه، يبدأ في حكاية القصة لها. حدثها عن مشكلة الفسائل. وعندما انتهى، ضحكت إفْطَيْم پَيْ دَي، وقالت له إن عليه ألا يشغل باله. أولاً لأن الدولة غير معنية بزراعة النخيل، على العكس، هم لا يرحبون بزراعة أية فسيلة جديدة، بل ستقضي بلدوزرات وزارة الدفاع على كل النخل الممتد عند غرب وشرق شط العرب، وعندما سأل لماذا؟ كان سؤاله يمتزج براحة - لتخلصه من العبء - وبالقلق - لأنه لم يحب أكثر من النخيل في حياته، وكان وهو صغيراً على استعداد للتعاون مع الشيطان من أجل المحافظة على النخيل -، فأجابته بأنه سيعرف الأمر ذاته من «سيادته» عندما يأتي هنا، وحتى إفْطَيْم پَيْ دَي جاءت إلى البلدة لتشرف على شق الطرق الجديدة غرب شط العرب ولتختار الأماكن المناسبة لفتح بيوت جديدة لها. ربما ظل أسَيَدْ لوتي محافظاً على صمته فترة أطول - حتى أنه لم يكمل شرب القدح إلى أن أشارت له بإكمال القدح -، لو لم تقطع الصمت هي لتقول له أن عليه بالفعل ألا يقلق، ولتسأله فيما إذا كان لم يصطد السمك في حياته، فيجيبها، نعم، ولكن زمن طويل مر على ذلك، فحينها كان طفلاً، يصاحب أباه في رحلات الصيد، ثم ما علاقة ذلك بهمه الآن؟ فسألته، أليست سمكة «الجضانية» هي السمكة النادرة ورمز هذه المنطقة من شط العرب؟، فأجابها بنعم، فقالت له: «عليك صيدها، سيادته يحب أكل السمك، وخاصة مص عظامها أكثر من حبه مص أثداء النسوان!»، في الأول أرعبه سماع تلك الجملة، لكنه هدأ عندما عرف أنها فقط إفْطَيْم پَيْ دَي التي تجرؤ على قول ذلك. فقال لها، المشكلة أنه تعلم الصيد في القارب وليس في الغوص إلى قاع الشط، وأن هذه السمكة التي تزن أطناناً، هي أكبر من قدرته، فكيف ترى الحل؟ قالت له أن لا عليه، فهي ستتكفل ذلك، وستجهزه بكل ما يمكنه من صيد تلك السمكة شرط موافقته على شرطها، فسألها، وهو يأتي على بقية الكأس، بأنه مستعد لتقبل كل شيء شرط إنقاذه من الورطة. حينها تطلعت به إفْطَيْم پَيْ دَي، تطلعت به بإمعان وكأنها أرادت التأكد من قبوله الشرط - بالرغم من أن شكوكها إن لم

تكن في محلها، فلقد كانت مبالغ بها ـ.

لبرهة ساد صمت في المكان، فيما غادرت الشمس إلى الجهة الأخرى من العالم مثل كرة تشتعل. أخرجت إفْطَيْم يَّيْ دَي صوتها بحزم: «شرط قبولك الزواج بمعالي».

ـ في تلك اللحظة كنت أقف خلف باب إحدى الغرف الإثنتي عشرة.

قالت لي معالي، وكنا قد قطعنا مسافة لا بأس بها.

في الحقيقة لم ألاحظ، أو أشعر بالمسافة التي قطعناها. إذ عندما وصلت معالي في روايتها إلى تلك الجملة، فجأة تطلعت إلى مؤشر خزان البنزين، ما زال يؤشر إلى أن الخزان نصف ملآن، ثم تطلعت إلى الطريق أمامي، لأرى الشمس مثل كرة تشتعل، كأنها تهيء المشهد الذي انتهت معالي من روايته تواً. لم أستطع تحمل شعاع الشمس الذي كان ينعكس على زجاج مقدمة السيارة أمامي، فحاولت تجنبه. نظرت مرة أخرى إلى عدّاد خزان البنزين، وكأنني غير مصدق الخزان الممتلىء، فقلت لها:

ـ العفو لم أشأ مقاطعتك، ولكن يبدو أن صديقك الطبيب النسائي تعمد ترك الخزان ممتلئاً لتكهنه برحلتنا!

قلت تلك الجملة ساخراً. سمعت ضحكتها، ثم رأيت جسمها ينزلق في المقعد، لتكور يديها بين ركبتيها اللتين ثنتهما حتى وصلتا وجهها (فكرت لحظتها هل من الممكن أن ترفع سهاد مهتدي الصباح ركبتيها هكذا!؟)، وقبل الإستمرار في تخيلي الصورة، قالت معالي بصوت رقيق هذه المرة، وكأنها تتحدث عن معالي أخرى:

ـ الطبيب النسائي كان بالفعل صديقاً لمعالي!

للمرة الأولى لم أتعجب لما قالته معالي، فقد كنت مهيئاً لسماع كل شيء ولا يهم إلى أين سننتهي أنا وإياها.

ـ ٥ ـ

لم تفكر معالي في حياتها مرة، بأنها ستنتهي لا إلى أحد بيوت إفْطَيْم يَّيْ دَي، ولا إلى الزواج من أسَيْدْ لوتي. فحتى ذلك اليوم ـ التي تنصتت فيه لطلب إفْطَيْم يَّيْ دَي من أسَيْدْ لوتي الزواج منها ـ لم تدرِ أن تلك المرأة التي دخلت الخمسين من عمرها، تملك بيوتاً متعددة في كل مدن البلاد.

ـ أنا مثل أورزدي باك، الإنكليز وحدهم اللي تركوا بصماتهم. أنا مثلهم في كل

مدينة وبلدة عندي فرع أورزدي ولكن للنيك بأنواعه!

قالت لها، عندما دخلت معالي تلك الظهيرة إلى بيتها الـ «أورزدي باك» في القرنة. كان صوتها يلهث وكانت مضنكة من رحلة طويلة، حتى أن إفْطَيِّم بِّيْ دَي لم تجد عناءً في رؤية العرق الذي تصبب من جبهة البنت التي دخلت للتو في العشرين من عمرها.

ـ أنا دخيلتك.

قالت معالي، وهي تسقط على الأرض، كان صوتها متهدجاً، وذكريات أيام مليلة ـ وأكثر من ثلاثة أشهر من المعاناة ـ بدت تلك اللحظة وكأنها قرون طويلة حملت معها التعب. ربما تذكرت إفْطَيِّم بِّيْ دَي حياة ماضية لها، ربما تذكرت إذلال وخوف ويأس بعيدين، نعم ربما كانت حياتها السابقة هي ما يجعلها تملك تلك الآذان الصاغية لكل بنت لها معضلة. لا يهم ما كانت ترويه البنات لها، فهي كانت تحاول جهدها إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لم تُخضع أي بنت جاءت تطلب عونها للإبتزاز، إلا في حالة واحدة استثنائية، عندما حمل لها نائب الحاكم ابنته التي حملت من ابن الحاكم، حينها قالت للرجل «الأبرص» ـ كما تسميه هي ـ أنها ستساعده على إجهاض إبنته، بشرط أن يرتب حضورها لحفل الصوفية الذي ستنظمه الحكومة بالقرب من مدينة المحمودية، وافق فوراً، دون أن يفهم أسبابها ـ التي احتفظت بها حينها لنفسها ـ وإصرارها على حضور حفل ديني ليس له علاقة بسوق الدعارة على ما يعتقد!، ربما كان كل ذلك هو السبب الذي جعل تلك القوادة تشتهر على طول البلاد وعرضها، أو ربما كان كل ذلك هو السبب في اختيار البنات للشغل عندها دون إجبارهن على ذلك. أو ربما تكون سمعت جملة نابليون عن اللحظة الخاطفة التي تقرر مصير كل معركة ولذلك تتصرف باستراتيجية ذكية!. لا يهم، فمهما يكن الأمر، فإنه لا يمنع من أن إفْطَيِّم بِّيْ دَي ساعدت معالي على النهوض في تلك الظهيرة الحارة من تموز، لتأخذها في الحضن وتجفف دموعها. ولا حاجة لها هي العارفة بخلفية كل دمعة تسقط من عين بنت، أو خفقة قلب غير طبيعية لبنت. مسّدت شعرها الرطب، ومسحت دموعها، وقالت لها مواسية:

ـ قبل اثنتين وثلاثين سنة طحتُ عند رجلين كوكة بالحيدرخانة!

لم تشأ معالي أن تقول إنها تعرف كوكة. بدل ذلك راحت تحسب في ذهنها: قبل اثنين وثلاثين عاماً، يعني في تموز/يوليو ١٩٤٨، وبالتأكيد كوكة كانت قوادة مثلها.

ضحكت إفْطَيِّم بِّيْ دَي قائلة:

ـ كان الناس مشغولين بالنكبة، وما يدرون بنكبتي!

سألتها معالي ببراءة:

ـ النكبة؟ ماذا تقصدين؟

فأجابت إفْطَيْم بَيْ دَي دون أن تتوقف عن ضحكها:

ـ أكو غيرها، نكبة فلسطين، لكن ماكو واحد يعرف أن نكبتي كانت أكبر.

عندما لفظت القسم الأخير من الجملة ضربت بين فخذيها، ثم أضافت بعد فترة صمت قصيرة:

ـ كوكة كانت وحدة من النسوان القاسيات. عرفت بي حامل. عندما شافت جمالي شرطت علي أن تنزل الطفل مقابل الشغل عندها.

حينها تألمت فاطمة أبو رغيف (هكذا كان إسمها تلك الأيام، وقبل أن يطلق عليها اللقب الجديد) التي جاءت خصيصاً من بلدتها سوق الشيوخ إلى بغداد من أجل كوكة التي وصفتها واحدة من عماتها التي تسكن معهم في البيت لأنها لم تتزوج رغم بلوغها الأربعين والتي عرفت بها حامل وهي في شهرها الثاني.

ـ كوكة هي اللي سمتني إفْطَيْم بَيْ دَي. لأن الرجال كانوا ينتظرون بالمسطر عليّ. كانت كوكة تعلق، شوفيهم عبالك يوم الحساب. ذاك اليوم سمع جملتها شاب بنظارات وببذلة بيضاء، فيه رزانة شخص متعلم، علق بالإنكليزية، بجملة ترجمها لي هو نفسه، عندما دخل لغرفتي: «يمكن القول إفْطَيْم بَيْ دَي Pay Day في يوم آخر».

ومنذ ذلك اليوم عرفت إفْطَيْم بَيْ دَي ماذا يعني إلحاق الحيف بإحداهن، ربما لهذا السبب نذرت نفسها لمساعدة كل بنت تطلب مساعدتها، ولا يهم إذا ما انتهت إلى قحبة، فيبقى قرار البنت ذاتها.

ـ وهذا ما حصل لوجيهة؟

أردت أن أسألها عما تعنيه بذلك، لكنني رأيتها تنزلق في مقعدها أكثر، وكأنها تقول لي دعني أكمل القصة.

لم أعلق، لأنها هي التي قالت:

ـ هل تعرف، ان إفْطَيْم بَيْ دَي نوع غريب ونادر من النساء!

لم أعلق على جملتها. حاولت تخيل شخصية تلك المرأة التي رأيتها مرة واحدة فقط: في ذلك الحفل الذي أقامته البلدة لحاكم البلاد، والذي صاد فيه أسيَدْ لوتي سمكة

الحضانية»، وقدمها بيده هدية للحاكم الذي وقف بملابسه وبجزمته العسكرية وحاشيته عند الشاطىء حيث ظللت الشجرة المكان والتي يقال إن آدم قطف التفاحة منها فأكلها بإغواء من حواء. أحاول تخيل المنظر: أسيَدْ لوتي يمنح السمكة ـ التفاحة ـ إلى آدم لا يمكن تخيل الصورة، لأن الرجل لم يصدق حتى تلك اللحظة أنه سيصيد السمكة بالفعل.

ـ إفْطَيْم بِّيْ دَي علمته كيف يصيد السمكة.

قالت معالي، لتكمل:

ـ لولاها لضاع أسيَدْ لوتي وضاعت معالي!

أردت أن أقول لها أن تكف عن الحديث عن نفسها بضمير الشخص الثالث، لكنني وجدت نفسي أسألها كيف أنهما لم يضيعا، فقالت لي كنت عرفت القصة لو لم تقاطعها بين الحين والآخر، وألا أترك المجال لها ترويها بالتسلسل، فقلت لها: أقبل.

كان عليَّ القبول طبعاً، لأنني في النهاية من يريد الاستعلام عما جرى له، لزوجته، لجيرانه، أو للمرأة الجارة التي تجلس بجانبه، للبلدة التي سكن فيها، للشط الذي سكن بقربه، للناس الذين عاش معهم، للبلاد التي كان يفترض أنه كان يقاتل من أجلها، وإلا كيف يمكن تفسير: أنه هو خريج جامعة بغداد ـ كلية الآداب ـ قسم اللغات الأوروبية ـ فرع اللغة الألمانية، الذي كان متزوجاً من إمرأة هي الأخرى خريجة جامعة بغداد ـ كلية الآداب ـ قسم اللغات الأوروبية ـ فرع اللغة الإسبانية؛ وهو الذي شارك في حربين وقاتل طوال كل هذه السنوات ولا يعرف من هم جيرانه الذين كانوا يسكنون لصق بيته، وأنه لم يعرف أن زوجته كانت ليست كما كان يعتقد، ولا يمكن الشك في أنها تختلف عن صنف تلك النساء التي كانت هي نفسها تنعتهن بالقحبات العاديات (لم ولا أفهم الفرق بين قحبة خالصة وقحبة عادية) ـ «كانوا ينامون معها بأرخص الأسعار رغم غلاء سعر زميلاتها من خريجات الجامعة!» ـ، رغم أن الوقت غير مناسب الآن للتفاخر بالأسعار ومَن نام مع مَن ومَن قبض مِن مَن وكم، كلا، ليست القضية الآن بهذا الشكل، إنما هي الآن أشبه بتصفية حساب مع النفس، مع البلدة، مع المدينة، مع البلاد، مع الحياة. ومن الأهم له، وللقصة ألا يحزن الآن، فبالتالي مهما جرى، ومهما سيحدث، المهم هو رواية القصة كما تشاء هي، ولا يهم روايتها بالتسلسل أو حسب المنطق، ففي النهاية كل هذه القصص هي مثل الحياة، لا تملك تسلسلاً ولا منطقاً، فهي تكتفي بنفسها، ولا يهم من يرويها، هي تلقي بنفسها أمامنا، وسعيد الحظ ذلك الذي يتلقفها، ويرويها، فبالتالي، لا يهم المنطق أو التسلسل، هي وحدها القصة

مهمة، والأهم من ذلك هي الرغبة بقصها. وعن ذلك الطريق فقط نستطيع شد الآخرين لسماعها. ربما كانت هذه إستراتيجية أحد أنواع التعاون أو التضامن بين من يروي القصة وبين من يستمع إليها، مثله ذلك التضامن الذي يحدث بين سجناء زنزانة واحدة، أو بين أولئك المحكومين بالموت، أو بين أولئك الذين يتقاسمون ساتراً ترابياً أيام الحرب، أو بين أولئك المحاصرين بكمين يعرفون أن أية خطوة منهم إلى الأمام تقودهم للموت، أو بين تلك البنات اللواتي يتقاسمن عذاباً واحداً؛ سيان إن كنّ في عيادة دكتورة نسائية أو في غرفة قابلة غير مأذونة بالإجهاض، أو في بيت مشعوذة تفعل كل شيء لا يهمها عذاب البنات، المهم فقط ما تحصل عليه من مساعدتهن بالإجهاض، أو ذلك التضامن غير المعلن بين قحبة محترفة وأخرى يراد لها أو قرر لها أن تكون كذلك، أو ذلك التضامن الذي حصل بين إفْطَيْم بِّيْ دَي وبين معالي.

- ٦ -

قبل أن تدخل معالي بيت إفْطَيْم بِّيْ دَي بسنتين، اعتادت المجيء مع أختها التوأم التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة إلى البصرة لاستقبال اختهما الكبرى، التي كانت تعيش في الكويت. كان من الصعب ملاحظة الشبه بين الأختين آنذاك، لأن الأخت التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة اعتادت تلك الأيام على لف شعرها بمنديل أبيض، واعتادت لبس بذلة المحجبات التي بدأت عادة لبسها تنتشر بين البنات في ذلك الوقت. كانت الأخوات الثلاث يقضين عادة ليلة كاملة على الأقل إن لم تستمر للَيْلَتين أو ثلاث تحت إلحاح معالي في فندق الخليج. ليس من الغريب أن يثير الفندق حواس البنت اليافعة للتو تلك القادمة من بلدة صغيرة (سمتها على مضض: كميت، اسم لم أسمع به)، والتي بدأت عيناها ـ منذ أن عرف جسدها العادة الشهرية ـ، تنظران للعالم بنظرات فضولية أخرى. وفي تلك الأيام، وبالذات في أواخر السبعينيات بدأت الدولة ببناء سلسلة الفنادق السياحية تلك، أولاً في العاصمة، ثم لتمتد في باقي المدن الكبيرة، البصرة والموصل مثلاً، لتنتهي حتى إلى تلك المدن الصغيرة مثل الديوانية والناصرية والعمارة في سنوات الحرب لاحقاً. هكذا انتبهت معالي مثلها مثل باقي الناس فجأة على بنايات شاهقة وفنادق بأسماء، كان التداول فيها حتى أيام قريبة قبل الحرب يقود المرء إلى حتفه، مجرد نطقه لإسمها، فنادق: عشتار شيراتون، ميليا منصور، ميرديان فلسطين، الرشيد، بابل، الكاظمية، الخليج. وكما حكى لها لاحقاً الشاب الذي تعرفت عليه هناك، عن كل ما يدور خلف كل تلك المظاهر التي ستراها بنفسها؛ حكى لها عن كل ما له علاقة بوسائل الترفيه والدعارة التي تزودت بهما تلك الفنادق. كيف لها أن

تعرف، لولا دخولها هناك، أن البنات اللاتي كانت تراهن يتجولن في صالات الفندق بحرية، يُؤجَّرن من قبل أصحاب الفندق للتواجد في المرقص، وأسعارهن تختلف حسب أعمارهن، وحسب طلبات الزبائن عليهن. وفي الليل، في ذلك المكان الذي يطلقون عليه المرقص أو النادي أو الكافيتريا، يختلط كل شيء: العوائل التي تأتي للترفيه عن نفسها، العاهرات، القوادون، الضباط المجازون والمقيمون، وجنود من عوائل غنية، ولا يهم إن كانوا جنود إستخبارات، ضباط إستخبارات، ضباط أمن، كويتيون، فلسطينيون من وحدات جيش التحرير الفلسطيني، ضباط وشيوخ من مناطق الغربية (كان هؤلاء أكثر الناس نفوذاً وسلطة). وغالباً ما يختلط تحت هرج غناء نجوم الغناء وحابل السكارى كل شيء، كل شيء، وليس من العجب أن تنتهي الليلة إلى شجار عنيف (ينتصر فيه في النهاية إما ضباط جيش التحرير الفلسطيني أو ضباط بدو الغربية)، نوع من التسابق، يشبه ذلك التسابق بين عصابتين من القتلة وقطاع الطرق الذي ستراه لاحقاً معالي، عند مشاهدتها أفلام الكاوبوي مع صديقها الذي كان يدرس في قسم السينما، في أكاديمية الفنون الجميلة ويحلم بتمثيل هذا النوع من الأفلام. ولكن مهما كانت النتائج، لم تنزعج معالي من منظر ديسكو الفنادق، على العكس، كان يثير الفضول عندها أكثر، ويدغدغ فيها رغبات كامنة، حتى أنها كانت تحسد البنات اللواتي كن يشتغلن هناك. كم تمنت أن تكون مثلهن، وخاصة عندما كانت تراهن يجلسن بتنوراتهن القصيرة التي كانت تلتصق بأجسامهن، فيما كن يدخِّنَّ سجائر ماركة الـ «كنت» علانية.

في البداية لم يعجب الأمر الأخت الكبرى أبداً، ولكنها كانت ترضخ تحت إلحاح الأخت الصغرى التي كانت تحبها حد العبادة. وكانت بطريقة ما تبدي تعاطفاً مع رغبات الصغرى التي كانت في سنتها الجامعية الأولى، رغم أن ذلك لم يكن أمراً جديداً للأخت الكبرى، فلقد كانت منذ زواجها في الكويت، قبل خمس سنوات، تعرف نزوات الأخت الصغرى، وكانت تحسدها لجرأتها على فعل ما كانت تتمنى هي في داخلها فعله. وإذ مانعت في البداية، فإنها أسلمت نفسها في النهاية إلى قناعة: لماذا لا تحقق رغبات الأخت التي تحبها، فهي بالتالي قادمة من بلدة صغيرة، من «مكان اسمه كميت» (كما تقول).

بغض النظر عن ذلك لم تعد الأخت الكبرى تجد غضاضة بالفعل في قضاء يوم أو يومين في الفندق. ربما بدا ذلك الميل عندها بعد سنة زواجها الثانية، عندما بدأ الملل يغزوها، ليس من زوجها الذي كان يكبرها على الأقل بعشرين سنة وحسب، إنما من تعامله معها وطبيعة حياتها في مدينة الكويت، فمع الأيام راحت تبدو لها بلدتها الصغيرة أكثر حرية في تعاملها مع النساء من «مدينة الزلم» هذه، كما أباحت لأختها محذرة من

التفكير في الهجرة إلى الكويت مرة أخرى ـ كانت مجرد فكرة عابرة من معالي في إحدى لحظات يأسها بعد إجهاضها الأول ـ والعيش إلى جانب أختها، ثم «إنس التفكير بالزواج في الكويت»، وكأنها تحذرها من خطر عظيم. صحيح أن الأخت تحمست في أيام زواجها الأولى، لما يحمله الزواج في الكويت من امتيازات. فيكفي القول إن فلانة تزوجت في الكويت لتثير حسد وفضول الجارات كلهن، ولا يهم إن تزوجت من فرّاش مدرسة أو قصّاب أو مدير عام أو قوّاد، المهم أنها تزوجت في الكويت، يعني أن طريق النعمة والوجاهة انفتح أمامها، فالكويت كانت الجنة الأرضية للبنات والشباب الجنوبيين بصورة خاصة، فمن هناك كان يمكن الحصول على كل ما ينتجه الغرب من مودة وعطور. وفي بلدة صغيرة مثل بلدتها لم يكن من السهولة إخفاء الأمر. باستثناء زيارات السنة الأولى عندما كانت الأخت الكبرى تأتي من الكويت وقد بدت آثار النعمة والخير على وجهها، راحت تأتي بوجه مكفهر، غير مصدقة أنها ستعبر نقطة الحدود الفاصلة بين البلدين، «أم قصر»، وتصل البصرة ـ فندق الخليج. لم تتكلم الأخت الكبرى الكثير عن تجربتها هناك، فباستثناء تلك الجمل المحذرة، ظلت حياتها هناك غامضة، لا يعرف عنها أحد شيئاً، ربما كانت هي أكثر الفرحين باحتلال الكويت، لأنها كانت آنذاك في زيارة إلى بلدتها، ولم تشأ الرجوع تحت فوضى الإحتلال خاصة عندما سمعت خبر هروب زوجها إلى السعودية من بطش جيش بلادها. منذ تلك الأيام وهي نصف مطلقة ونصف أرملة، فزوجها رسمياً ليس له وجود، ولحسن حظها لم تنجب منه أطفالاً.

هكذا وجدت الأخت التي تزوجت من أحد أبناء بلادها المقيمين هناك منذ سنين والذي كانت عائلته تعرف عائلتها، عندما كان أبوها ذاته يشتغل في الكويت، قبل أن يرجع إلى بلدته، وهي لها من العمر ثمانية عشر عاماً، وجدت نفسها لا تفهم رغبات معالي فقط، إنما راحت تقول لها بحماس منذ لحظة وصولها مطار البصرة «نروح لفندق الخليج». حتى أنها وهي في الطائرة يستحوذ عليها خوف رهيب من ألا تجد معالي في انتظارها، لم يكن يهمها أمر الأخت التوأم المحجبة التي لم يعن أمر المبيت في الفندق لها الكثير، على العكس، كانت تفعل ذلك تحت إلحاح الإثنتين، حتى أنها كانت تقضي كل الوقت نائمة لا تغادر غرفتها، مهما حاولت الأختان. بالفعل حزنت الأخت الكبرى بصورة لا توصف عندما خرجت ذات يوم إلى صالة المطار ولم تجد معالي. كانت الأخت التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة لوحدها تنتظرها. بوجه عابس احتضنت أختها وسألتها عن معالي، فقالت لها إنها في رحلة جامعية، واتصلت بالأمس فقط، تخبرها بأنها ستغيب بعض الأيام وعليها ألا تقلق، ستلتقيها في البلدة، عند أهلها بعد انتهاء الرحلة.

لم تكن معالي في رحلة جامعية. إنما كانت عند كوكة في الحيدرخانة. نعم، كوكة تلك العجوز التي اقترب عمرها من الثمانين عاماً، ولكنها لم تكف منذ إدارتها لذلك البيت التي استلمته من أمها في الحيدرخانة، عن الجلوس عند عتبته، بثوبها الأسود القطيفة، وبعصّابتها العريضة، وبفمها المليء بالديرم، وبشفتيها الغليظتين، تصيح بكل رجل يمر «عندي أحلى البنات». ولكن في ذلك اليوم الذي جاءتها فيه معالي، لم تكن عندها أحلى البنات، إنما حولت البيت إلى ما يشبه العيادة السرية.

لقد انتهى زمن كوكة، وجاء زمن إفْطَيْم بِيْ دَي. لم تعد الدعارة وحدها تنفع. ربما حدث ذلك في زمن قديم عندما كان الجنس بعيداً عن متناول البشر - بعد القمر عنهم! «إذا صنفنا سكان هذه البلاد ضمن حظيرة البشر»، كما علقت معالي.

- الشغل يحتاج اليوم إلى مخ، قالت إفْطَيْم بِيْ دَي ذات مرة لمعالي.

لكن كوكة مثل كل القحبات المحترفات اللواتي يصبحن قوادات محترفات، لم تفقد ذلك المخ تماماً. ربما عرفت أن زمنها انتهى، وهي لا تريد لحفيداتها من بنت وحيدة لها ماتت متسممة بفضلات جسمها التي لم تستطع تغوطها سبعة أيام، بسبب انسداد مؤخرتها بقضيب أحد زبائنها الذي مات قبل أن ينهي مضاجعته لها عن طريق مؤخرتها، واضطروا لقطع قضيبه بليطة حادة من البارية التي طرحها فوقها)، أن ينتهين إلى «الحضيض»، لهذا السبب حولت بيتها في الحيدرخانة إلى أشبه بالعيادة السرية للإجهاض. بل ربما كانت تعرف منذ زمن طويل أن زمنها انتهى لذلك عملت المستحيل لكي تدرس حفيداتها الثلاث الطب، وبالذات الطب النسائي، لكي يشرفن على الإجهاض السري وخياطة البكارات، بشكل معلن في عيادتهن.

لكن لسوء حظ معالي، أنها عندما ذهبت ذلك اليوم، كانت الحفيدات ما زلن في بداية سنوات دراستهن الجامعية، وكان عليها أن تنتظر الإجهاض الثالث لتذهب إلى هناك.

لم تشترط عليها كوكة، الإجهاض مقابل الدعارة، حتى أنها لم تُخفِ تحسرها قائلة:

- آخ، لو جايتني قبل سنين، كنت سويتيك ملكة جمال بغداد.

كانت معالي تعرف جمالها. خاصة جمال جسدها. لذلك اختارت الدراسة في كلية التربية الرياضية في بغداد.

- حرام عليك، هذا الجسم الحلو راح يخرب بعد كل تنزيل طفل.

قالت كوكة بصوتها الغليظ.

فكرت معالي: «لماذا يخرب بعد كل إجهاض طفل؟».

أرادت أن تقول لها أنها سوف لن تعاود الكرة، وأن تلك الغلطة هي مسؤوليتها، وها هي تدفع ثمنها، وأنها لن تنام مع رجل آخر غير حبيبها، وأن الأمور ستسير على ما يرام، فهي ستغير من نمط حياتها. لكنها لم تقل لها، إنما ارتد لسانها كصمام، وكانت قبلاتها المتوسلة ليد كوكة ودموعها التي لم تعبِّر عن حزن وحسب إنما عن ندم لما جرى - مثلما راحت تبكي في السيارة - ولكن كيف تستطيع إرجاع الزمن إلى الوراء، ليس لها القدرة، وخاصة تلك اللحظة، عندما رأت كوكة تحضر قدراً فيه ماء يغلي، ومقصاً طويلاً وسكيناً، وتطلب منها أن تنام على ظهرها وترخي رجليها وتباعد بينهما، وتعطيها لعبة لتعضها.

عاينت معالي اللعبة في الأول فرأت بنتاً صغيرة، جميلة، عينيها سوداوين كبيرتين وشعرها مجعد أسود. لم تعضها معالي، عندما رأت آثار العضات العميقة والعديدة حولها، بل أغمضت عينيها وراحت تحضنها مثلما كانت تفعل في طفولتها، وتذكرت أن اللعبة تشبه «بنت المعيدي» المعلقة صورتها عندهم في البيت. ألم تسمع هذه الجملة منه أيضاً ذلك الذي حبَّلها في فندق الخليج:

- عيونك تشبه عيون بنت المعيدي.

وفي تلك الليلة عندما سحبها إلى غرفته، اعترضت على جملته قائلة:

- بس عيونها؟

فقال لها وأنفاسه تلهث عند أذنيها وهو يقترب منها في الفراش:

- إنزعي وراح أشوف إذا الباقي يشبه بنت المعيدي.

حينها تراخت يديها من طرف الثوب الذي أغلقته بقوة، لم تسمح له بخلع ملابسها فقط، إنما سمحت له أن يباعد بين فخذيها ويدخل فيها مباشرة، دون مقدمات. صحيح أنها تألمت بعض الشيء، ولكن إذا ما راجعت نفسها وهي منطرحة تئنّ تحت رحمة مقص كوكة الذي بدأ يجول في رحمها، إنها كانت تنتظر تلك اللحظة. كان غشاء بكارتها يزعجها، وكانت تريد الإنتهاء منه، على الأقل لكي تستمتع مع صديقها في الجامعة، وتنام معه بحرية، كم كان يلح عليها محاولاً إقناعها منذ زمن طويل بعبث الغشاء، مرة يقول لها:

- بوستك غير طبيعية!.

وعندما تسأله عما يعنيه بذلك، يقول لها:

ـ تشبه بوسة واحدة عندها خبرة بالجنس!

فتقول له:

ـ عيب يطلع هذا الكلام منك، وأنا راح أصير زوجتك!

فيجيبها:

ـ زوجتي؟ كيف ولحد الآن ما تسمحين لي أنام معك؟

فتهدئه وتقول له:

ـ رجعنا للإسطوانة!

لم يبطل من هذه «الإسطوانة»، بل أعاد تلك الجملة على مسمعها ذات ظهيرة ساخنة، وكانا ينامان في الهول، حيث نام أخوه الضابط الطيار وزوجته.

ـ أحلف بالسماوات والأرض أنت غير باكر!

حينها ربما لعِناده، أو لتختبر قدرته، قالت له:

ـ إفحص بنفسك، إذا ردت!

لم ينظر إلى اليمين أو اليسار، إنما هبط برأسه إلى الأسفل، وكشف عن ثوبها، فيما راح لباسها الأحمر الذي جلبته لها أختها من الكويت، والذي رُسِمَ فوقه «Love me» لا يهم فهذه الـ «Love me» كانت تعني بالضبط «Fuke me». طيَّر هواء المكيف بعض شعرات عانتها التي كانت نائمة، ووسط عتمة المكان انفتحت عيناه مثل عدستين. كانت مرة الأولى التي يرى فيها فرجاً منفتحاً بهذه الحرية أمامه. امتدت يده تلمس طرف الجذر اللحمي. رغم العتمة، سمعته يقول لها:

ـ لا تصدقين كلامي، كلما أقول لك، أنت مفتوحة!

لم تعلق، وكأنها خافت أن يوقظ بجملته تلك أخيه وزوجته، فيفسدان عليها متعتها، فسحبته إليها. تلك الظهيرة، لم تمنع عضوه الذي خرج من فتحة البيجامة، من الدخول إلى فرجها. فقط همست في إذنه:

ـ لا تدخله كله، بس راسه!!.

حتى أنها بذلت كل جهدها كي يبقى عضوه عند فتحة الفرج، بين الشفتين الكبيرتين. كانت تفعل ذلك، وكأنها لا تريد تصديق أنها غير باكر، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بأن صديقها بالذات، هو الذي يخبرها بذلك!

ولكن في فندق الخليج سمحت للعضو أن يدخل كله فيها هذه المرة. ربما تمنت تلك اللحظة أن يفتحها صديقها، ولكن كيف تستطيع جلبه وإدخاله فندق الخليج؟ وهل بإمكانه دفع أجرة مبيت الليلة هنا والتي تعادل راتب أبيه أو راتب أخيه الطيار؟ ولكن لماذا لم تصارح أختها الكبرى بذلك، ربما رتبت هي ذلك لهما؟ مثلما يعذبها مقص كوكة الذي بدأ يغوص في لحم رحمها مثل مخالب، كانت تعذبها الأسئلة. كلا لم تكن قضية فلوس فقط، إنما أبعد من ذلك. قضية لها علاقة بفندق الخليج، بالكويت، بأختها. بالضباط، بالشاب، وبالسيارات. نعم بالسيارات. اللعنة على السيارات. كان الشاب يملك سيارة تويوتا سوبر رويال مكشوفة. أشقر، طويل القامة، ضابط إستخبارات في السنة الثالثة من عمله. ولحسن حظه أو لحسن حظها ـ حتى تلك الأيام قبل جلوسها تحت مقص كوكة ـ كانت وظيفته تقتضي التواجد في فندق الخليج.

ـ تعرفين أهمية الفندق. ينامون فيه الكثير من المسؤولين، حتى سيادته عندما يزور البصرة، ينام هنا، الوفود الخليجية، «فندق مهم».

قال لها الشاب في أول يوم تعرفت فيه عليه.

كانا يجلسان حينها في الطارمة وحيدين، فقد ذهبت أختها الكبرى للتسوق في المدينة، فيما نامت الأخت الصغرى في غرفتها، أما هي فقالت إنها تشكو من صداع وستبقى في كافتيريا الفندق. لكنها في الحقيقة كانت تتطلع إلى الشاب الذي جلس عند زاوية البار ليشرف بنظراته على كل الداخلين للمكان والخارجين منه. كانت قد لاحظته مسبقاً في زياراتها السابقة، ولفت نظرها شكله الذي يشبه صورة المارشال قائد قوات الفيلق الثالث المعسكرة في البصرة والذي كان يظهر في كل المقابلات مع الحاكم. حينها تمنت لو كان لصديقها الشكل ذاته. ولكن، كلا، صحيح أن عباساً لم يخلُ شكله وهيئته من شكل العسكري، لكنه كان أقرب للجندي الصاعقة، جندي القوات الخاصة، منه لمنظر الضابط الذي يمنحه حضوره، بالإضافة إلى ذلك ليس بحوزة عباس هذه السيارة السوبر. وفي النهاية «لماذا لا، فهي لا تأتي إلى هنا أكثر من خمس مرات في السنة» ـ رغم أنها بعد علاقتها بالضابط راحت تتصل بأختها في الكويت كل أربعة أسابيع تطلب منها المجيء. وبالضبط كانت توقت مجيء أختها مع اليوم الخامس على مرور عادتها الشهرية (اليوم الأخير للعادة). ففي ذلك اليوم بالذات لا تستطيع كبح جماح شهوتها!

لقد أصبحت معالي بالفعل إمرأة. إمرأة لها رغباتها الواضحة. بالرغم من أنها وقبل أن تنتهي من غشاء البكارة واظبت على منح الشعور بأنها امرأة تعرف ماذا تريد، حتى وإن فعلت ذلك بنزق طفولي، ففي سلوكها دائماً ما يثير الإنتباه. خاصة إذا أعجبها

رجل. لذلك لم يجد الضابط ذلك اليوم عناء من سؤالها في الجلوس إلى جانبها. كان لطيفاً معها ومؤدباً مع العاملين في الفندق، ورأت بوضوح كيف أن الجميع يعامله باحترام، حتى المطربين الذين كانوا يغنون في الفندق، بل يأتون إلى مائدته صاغرين، حتى أولئك أصحاب الأسماء المشهورة: يمنحها ذلك الإنطباع أثناء حضورها بأنه يستخدم القوة في سلوكه مع الآخرين، حتى أنها كانت تستمتع في حضرته فخورة بلقائها بأصحاب الأسماء المشهورة. وكانت في زياراتها تحصل لها ولأختها على مكان متقدم في صالة حفلات الفندق. كانت معالي مستمتعة بعالمها، لم تتساءل يوماً، فيما إذا كان الرجل ينام مع أخريات، أثناء غيابها. كانت تخاف أن تسأله، كي لا يسألها أيضاً، وألاّ تضطر أن تكذب عليه. هكذا أخفت عليه علاقتها في بغداد، علاقتها مع الرجل الذي كانت تخطط للزواج منه.

سنة ونصف وثلاثة أسابيع وأربعة أيام، مرت على تلك اللقاءات معه، إلى حين جلوسها تحت مبضع كوكة، الذي راح يقطع أوصالها، حتى أنها صرخت ذات مرة، طالبة جرعة من العرق، ربما تعلمت ذلك من رؤيتها لأبطال أفلام الكاوبوي ـ عندما يكرعون من زجاجة الويسكي أثناء استخراج الطلقة منهم بسكين ـ مع صديقها المدمن على رؤية هذه الأفلام أكثر من رغبته في النوم معها.

ـ «سادة، اعطيها بيك سادة»، صاحت كوكة بإحدى حفيداتها، التي حملت قدحاً صغيراً، سادة مع قطعة من الليمون.

كرعت معالي القدح كله، ولاكت قطعة النومي. شعرت بحرقة في جوفها. وتذكرت جملته التي قالها لها:

ـ إجرعي الخبر مثل بيك عرق سادة.

لم تعرف أن ذلك الرجل الرقيق معها، سيكون فظاً عندما تخبره أنها حامل منه. حينها عرفت للمرة الأولى أنها كانت جاهلة تماماً، عندما تسمع منه تلك الجملة التي جعلت شعر رأسها يقف:

ـ حامل؟ روحي اسألي صديقك عباس؟

لم تعرف بأنه يعرف أن لها صديقاً في بغداد. وعندما فغرت فمها، كأنها تريد نكران ذلك، قال لها:

ـ لا داعي، بالمخابرات نعرف كل شيء.

لم يبق أمامها إلا أن تسأله عما يعني بذلك، وما عليها أن تفعله، قال لها:

- ما أدري، دبري حالك لوحدك.

وخرج.

وعندما حاولت في الشهرين اللاحقين تذكيره بذلك، ومطالبته بفعل شيء من أجلها، هددها قائلاً بأنها إن لم تسكت، فإنه سيلحقها ببغايا «فندق الخليج»، ولا يحتاج الأمر إلا إشارة من أصبعه، لذلك ليس عليها الصمت وحسب، إنما الكف عن المجيء إلى البصرة وفندق الخليج. لم تبطل المجيء إلى البصرة أو إلى فندق الخليج، بل راحت تكثر من المجيء دون منح الإنطباع لأختها بأن هناك ما حصل (لم تلاحظ أختها الكبرى أي أمر غريب أبداً - لأن الأخت التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، كانت تقضي معظم أوقاتها بالنوم - ربما كانت للأخت أيضاً علاقة بأحد ما، من يدري؟). وكل مرة كانت تذهب إلى مائدته أو إلى غرفته باكية تطلب منه مساعدتها في حل الموضوع، فهي لا تريد في النهاية الزواج منه. ولحسن حظها عندما دخلت غرفته في المرة الأخيرة، وجدت في الغرفة رجلاً في الخمسين من عمره مع سيدة. كانت السيدة في الأربعين من عمرها، من نوع تلك النساء اللواتي يصعب تقدير عمرهن، ولا يعرف فيما إذا كن عاهرات أم قوادات أم الإثنين معاً، لا يهم، فإن المرأة وحدها التي لان قلبها لها، وطلبت من الرجل الذي جلس إلى جانبها أن ينهض فوراً ويأخذ البنت إلى بغداد، إلى كوكة. لم يبد الرجل أية ممانعة، إنما نهض في الأول بارتباك، يعاين الضابط، الذي شعر بالارتياح حتى أنها رأت للمرة الأولى بعد زمن طويل تلك الإبتسامة التي كانت تحبها فيه. كم تمنته الآن بين يديها. لكنها تعرف، أنها خسرته إلى الأبد، ولا تنفع توسلاتها أو أمنياتها. لقد انتهى كل شيء وعليها إنقاذ جلدها الآن. سمعته يقول بضحكته الجميلة وهو يزيح خصلة الشعر الشقراء التي سقطت على جبينه:

- شلون فاتتني، أخذها عيوني منعم!

في تلك اللحظة تحرك منعم بخطوات وكأنه يرقص أو كأن معالي هبطت عليه هدية من السماء. قادها حتى باب الفندق، ثم سار خطوات قليلة، حيث ركن سيارته الـ «تيوتا كرونه» عند زاوية الكورنيش، في الجهة المواجهة للفندق.

- إصعدي.

قال لها بصوت جذل. وانطلقا باتجاه بغداد. كانت الساعة الثالثة عصراً عندما غادرا البصرة، وكانت الساعة الثامنة وعشر دقائق عندما أصبحا على مشارف بغداد.

لم يتكلما طوال الطريق (لكنها عرفت تباعاً أن مهنته الحقيقة المقاولة وليس التمريض هو المهنة الرسمية التي يزاولها، وأن له علاقات سمسرة قوية مع الضباط).

ـ «أجهزهم بتجهيزات خاصة، يسمح بها عملي في المستشفى»، لم تفهم معنى تلك الجملة الوحيدة التي قالها لها، والتي باستثنائها، لم يتحدث معها بأية جملة أخرى وحسب، إنما لم يقترح عليها حتى التوقف في إحدى محطات الطريق من أجل أكل شيء، أي شيء. إذ لم يتوقفا حتى ولو للحظة. حتى عندما انحرف بالسيارة عن الطريق السريع عندما أصبحا قريبين من بغداد، وبالذات على بُعد كيلومترين من بلدة المحمودية، بل لم يتكلما حتى عندما توقفت السيارة وأطفأت أنوارها وسط ظلمة الليل، وأمام بيت ريفي (عرفت في الصباح أنه حقل من حقول الدواجن، التي ارتبطت دون استثناء بشركات ابن الحاكم). لم يتكلما حتى عندما دخلا البيت. كانت تعرف أنه سينام معها، وكانت مهيئة لذلك، حتى أنها قبل أن يطلب منها نزعت ملابسها واستلقت فوق سرير كانت أفرشته مجعدة، عارية، وهي تفتح أفخاذها. ودون كلمة نزع هو الآخر ملابسه واستلقى فوقها. كانت عيناها تتطلعان إلى السقف، وهو يلهث بأنفاسه فوقها، فيما كان يحفر بقضيبه الذي انتصب فيها مثل عمود. لم تتكلم حتى عندما قَلَّبها، وحاول إدخاله في مؤخرتها. كان من الصعب عليه فتح عضلات مؤخرتها التي كانت متقلصة جداً في تلك اللحظة، وعبثاً حاول، ليفاجيء نفسه يقذف بسرعة فوق عجيزتها. لم تتكلم حتى عندما قَلَّبها مرة أخرى، وأدخل قضيبه المسترخي واللزج في فرجها. كانت تتطلع إلى السقف، تنتظر أن يقذف. كان يجهد نفسه حتى قذف. لم تتكلم حتى عندما نهض يدخن سيجارة، ويذهب للتلفون. لم تسمع بالضبط ما كان يقوله. لكنها بعد ساعة، كان عليها أن تستيقظ مرة أخرى لتراه على هيئة رجل بكامل قيافته العسكرية، إلتمعت ثلاث نجمات فوق كتفه، يهزها بعنف، ويخرج قضيبه من فتحة البنطلون. كان يدخل قضيبه في فمها، ويقول لها «مصي قحبة، لا تقولي عجل طالبة كلية!». لم تتكلم، إنما راحت تمص. كان قضيب الرجل يتصلب أكثر وصوته يزداد باللهاث وهو يصرخ بها: «راح أطر طيزك أربع طرات، بهذا العير الغليظ»، بالفعل ارتعبت في تلك اللحظة ليس من قضيبه الذي لم يكن غليظاً كما ادعى، إنما من هيئته المخيفة. كانت عيناه جاحظتان، بارزتان من محجريهما. لم يكن ينيكها، إنما تصورته وكأنه يتهيأ لقتلها. لذلك فعلت كل جهدها كي يقذف في يدها.

لم تنم تلك الليلة. فقد كانت ما أن تغفو حتى تصحو على رؤية رجل برتبة وقيافة عسكرية جديدة: مرة بملابس ضابط المشاة، وأخرى بملابس ضابط البحرية، وبعدها ملابس ضباط القوة الجوية، حتى اختلط عليها المشهد، ولا تدري فيما إذا كان الرجل

ذاته أم هم بالفعل ضباط آخرون يسلمها ذاته إليهم، واحداً بعد الآخر. لم تتكلم، حتى عندما قادها في الصباح إلى كوكة. وعندما دخلا بيت كوكة فقط، وقبل أن تأتي كوكة لتقودها إلى غرفة خلفية، انفتح فمه، لينطق بصوت رقيق جداً:

ـ إن شاء الله، تمر سلامات. لا تقلقين، بعدها نتزوج.

لم تدر معالي بماذا تجيبه. لم تتكلم. وفكرت، ربما أن الرجل مجنون. سارت خلف كوكة، وهي تفكر بما قاله، هل يسخر منها؟ في الوهلة الأولى شعرت بالغضب، عندما استلقت فوق الفراش، ورفعت فخذيها أمام كوكة. تذكرت آلام الليلة الفائتة، فما زال النعاس يسيطر عليها. ربما كانت وحدها عذابات الليلة الفائتة ما جعلها تنسى عذابات مقص كوكة، وجعلها لا تشعر بما فعلته المرأة هناك، إذ لم تصحُ معالي إلا على صوت كوكة تقول:

ـ خلاص!

وعندما حركت رأسها لتعاين ما جرى هناك تحت أقدامها، رأت معالي العجوز تجمع قطع لحمية صغيرة غرقت في الدم، فشعرت بالألم في أحشائها، وتذكرت أن المرأة كانت تقطع الجنين بالمقص قطعة قطعة لمدة نصف ساعة. حينها أجهشت بالبكاء، وأخرجت صوتاً يقترب من الصراخ:

ـ ما أريد أشوف هذا الجابني مرة ثانية.

كان صوتها من القوة، بحيث أن كوكة التي نهضت بسرعة، لتطلب من الرجل المغادرة، رأته كان قد غادر المكان تاركاً لها حزمة من النقود فوق الطاولة.

كان ذلك إجهاضها الأول. ظل يطاردها مثل الكابوس لأيام طويلة، خاصة وأن الرجل عاود الظهور أمام مدخل كلية التربية الرياضية، ملاحقاً إياها بالسيارة. لم تستطع إبعاده تماماً. كان يظهر ويختفي، حتى حدوث حملها الثاني. لكنها لم تشأ أن تسلم نفسها إلى مقص كوكة مرة أخرى.

ـ ٧ ـ

لم تسر الأمور على ما يرام، لأن معالي لم تغير من نمط حياتها. وإذا كانت هذه المرة لم تكن تعرف بالضبط طفل من الذي حملت به (رغم تحميلها مسؤولية الحمل للضابط)، فهي التي فرحت باختفاء غشاء بكارتها، وسمحت لصديقها عباس ـ منذ

عودتها إلى بغداد بعد قضاء ليلتين من أجمل ليالي عمرها مع الضابط (تقول إنها نست اسمه!) في فندق الخليج ـ للنوم معها، والسماح لعضوه في الدخول بحرية أينما شاء (لم يثر الأمر شكوكه بالمرة، فللصدفة أو لحسن الحظ، إن معاينته لها في تلك الظهيرة في بيت أخيه، في مدينة المنصور في بغداد، تمت قبل أسبوعين من سفرتها إلى البصرة)، فإن حملها هذه المرة كان واضحاً بالنسبة لها، ولم يختلط عليها مثل المرة السابقة. فحتى حصول حملها الثاني، لم يختلط عليها أمر حملها الأول، إنما اختلط عليها أيضاً أمر فتق الغشاء. فهي إذا ما صفنت مع نفسها وفكرت من كان الرجل الأول في حياتها تحار. هل كان هذه المرة الأردني ـ الذي كانت تعرفه قبل أن تتعرف إلى صديقها عباس وإلى ضابط فندق الخليج ـ صاحب أستوديو التصوير المجاور لبناية كلية التربية الرياضية الذي كانت تسلم جسدها لمداعباته، رغم أنه قبل وبعد كل مداعبة كان يسبح بحمد الإله الواحد الذي لا شريك له؟ أم صديقها الذي فحصها مثل طبيب نسائي رغم وجود أخيه وزوجته؟ عندما حدثت صديقتها سُميّة بالأمر (كانت سُميّة هي الأخرى «فاقدة لبكارتها»، لكن دون حمل!)، آنذاك قبل الحمل وقبل فحص صديقها عاشق أفلام الكاوبوي والجاسوسية، وقبل أن تكون سُميّة هي الأخرى ليست باكراً، قالت لها البنت القادمة من عائلة ذات «جاه وسمعة» في الأعظمية:

ـ ضروري إجباره على الزواج منك.

بالفعل جلبته سُميّة ذات يوم إلى بيت إحدى صديقاتها المتزوجات التي كانت تثق بها، والتي أفرغت لها البيت. في ذلك المساء، صارحته وهي تقدم له بلياقة واحترام كوب الشاي، وحيث جلست معالي إلى جوارها، بأنه من العيب وليس من الرجولة أن يأخذ ـ هو الرجل الأجنبي ـ بكارة بنت من عائلة «أشراف، تعرف بيها أنها علوية»، قالت له، ثم أضافت بعدها:

ـ صحيح أنها مو هاشمية، لكنها موسوية، من نفس عائلة الرسول.

حينها غص الرجل باستكان الشاي، وقال:

ـ صلى الله عليك يا رسول الله وسلم.

فانتبهت سمية، أنها نست أن تقول «صلى الله عليه وسلم»، فأعقبت:

ـ صلى الله عليك وسلم يا رسول الله.

ثم لتكمل قائلة:

- من غير الممكن رجل ورع مثلك ما يتحمل مسؤوليته.

كانت سُمية تقول ذلك مجبرة، فهي من طرفها قد كان كل هؤلاء الورعون يثيرون تقززها، وحتى عندما سألت معالي، ما الذي يجعلها تحب هذا الرجل، أجابتها صديقتها:

- لا تغشك ديانته، حار كلش!

وكانت تضحك من تصور صديقتها، حتى أنها ذلك المساء راحت تبحث عن «الحار» عند الرجل فلم تجده. ربما لاحظ الرجل تطلعها، فخاف من نظراتها، ووجد فيها بعض التهديد، فقال وهو مجبر:

- لا يهم، أنا على استعداد للزواج من معالي على شرط!

فسألته سُميّة:

- ما هو؟

فقال الرجل وهو يضع إستكان الشاي الذي فرغ من شربه فوق الطاولة الصغيرة التي استقرت رجلاه تحتها:

- تقطع دراستها في الجامعة وتتحجب وتقعد في البيت!

لم تعلق سُميّة، إنما نظرت إلى صديقتها بفضول. ربما افترّ ثغر معالي ساعتها عن ابتسامة لثوان، ربما أرادت النهوض لمعانقته ولتقول له «أشكرك حبيبي»، ربما كانت بينها وبين اتخاذ القرار المصيري ثوان، أو خيط رفيع. لم تقرأ جملة نابليون عن اللحظة الاستراتيجية الخاطفة، إنما تصرفت مثل لاعب السيرك ذاك الذي يسير على حبل ويصل المنتصف، وفي لحظة عابرة وقصيرة، لحظة خاطفة، يشعر باليأس فيود السقوط من فوق إلى الشبكة المريحة التي امتدت تحته، ربما يقول لنفسه «آخ كم جميل هو التمدد فوق تلك الشبكة، كم هو جميل الإسترخاء» ربما لأنه وصل حداً أقصى عند توتر أعصابه في منتصف المسافة التي قطعها، أو ليأسه من قدرته على مواصلة المسير. من يدري ربما هي لحظة خاطفة، حتى يعرف اللاعب، بأن لا يهم ما يحدث، المهم في النهاية هو السير على حافة الخيط، وليكن بعدها ما يكون. ربما يفسر كل ذلك ما حدث في ذلك المساء، أو يوضح لماذا نهضت معالي ذلك المساء، عندما انتهى الرجل من جملته وقالت له بصوت هادىء، لم يخلُ من الغضب:

- إطلع من البيت، وإلا أشبعك قنادر، حقير.

كانت صديقتها سُمية فقط التي فرحت لقرارها، وكأنها كانت تحتاج لذلك السلوك،

لتتأكد من ظنونها بصديقتها، حتى أنها احتضنتها لوقت طويل، بعد خروج الرجل. كانت المرة الأولى التي تسمعها تلفظ شتائمَ جارحة.

في ذلك الوقت عندما فعلت ذلك، كانت قد بدأت علاقتها بعباس للتو. ربما منحها ذلك السند بعض القوة، فعندما يشعر المرء بأن هناك من يسند ظهره، يشعر بالراحة والطمأنينة، مثل ذلك الذي يفز في الليل ويجد ذراعاً تتلقفه. هكذا تصورت علاقتها مع عباس. كم ليلة استيقظت مذعورة، وكابوس اكتشاف أخوتها وأهلها لها بأنها ليست باكراً يرعبها (رغم أن صديقتها سُميّة كانت تقول لها «لا يهم، ممكن خياطة البكارة»). ولكن في كل تلك الليالي كانت يد عباس تحت رأسها.

في كل ليلة جمعة كانت يد عباس تحت رأسها، كلما ذهبا في نهاية كل أسبوع إلى بيت أهله في الكوفة. كان عباس بطريقة ما يقنع أهله بزيارة أخيه كل أسبوع في بغداد ليفرغ له البيت هناك. هكذا اعتادت معالي على ليالي «الأنس في الكوفة» كما كانت تقول صديقتها سُميّة. كانت فقط لحظات الفجر تلك عندما تستيقظ مذعورة على صوت المؤذن الذي يأتي من مكبرات صوت ضخمة، ستة عشر مكبر صوت، أربعة في كل اتجاه من الكرة الأرضية، وضعت فوق قبة منارة مرقد الإمام العباس «أبو الراس الحار». حينها فقط كانت تستيقظ مذعورة، تتمتم شفتاها بأوتوماتيكية: «عباس، تحبني؟».

حينها كانت تمتد يد عباس إلى تحت رأسها، ويقول لها:

ـ طبعاً أحبك!

ليبدأ في النوم معها مرة أخرى. كانت تلك أكثر المرات التي تمنحها طمأنينة.

في المرة الأخيرة فقط، لم تستيقظ على صوت المؤذن، إنما ظلت مستيقظة طوال الليل، وكان هو يشخر بجانبها بعد نومه معها ثلاث أو أربع مرات. وعندما سمعت صوت «الله أكبر»، شعرت بجفنيها يسترخيان لبرهة، ثم ينفتحان، وبشفتيها تتمتمان بأوتوماتيكية:

ـ عباس، تعرف؟ أني حامل؟

لم يمد ذراعه تحت رأسها هذه المرة، إنما استيقظ مذعوراً. تطلع بها، ليسألها بصوت مرتعب:

ـ تعرفين من الفاعل؟

فقالت له معالي، وهي تحاول حبس دموعها، فلم تُحتَج الإنتظار كي يقول لها جملة

أخرى، فقد تكهنت مباشرة بما حملته نظراته من شر وبؤس.

- أنت؟

حينها سمعت جملة منه جعلتها ترتعب:

- ممكن يكون مسؤول الكلية؟

جمدت كل حواسها ربما لدقيقة واحدة فقط. رفعت نصف جسمها. أرادت التطلع به. لم تفعل. إنما نهضت من الفراش. لبست ملابسها. وضعت حاجاتها الصغيرة في الحقيبة وغادرت البيت. تأخرت بضع ثوان عند عتبة الباب قبل أن تخرج، ربما لحاجتها أن يوضح لها جملته الأخيرة. لم يفعل. في تلك اللحظة تأكد لها أنه هو الذي كان وراء إرسال مسؤول الكلية لاستجوابها في الشهر الماضي، رغم إستغرابها من الأمر تلك الأيام، إلا أنها خمنت أن الأمر لا يتعدى حدود الروتين الذي يفعله المسؤول الأمني بين الحين والآخر. رغم أنها اندهشت تماماً ذلك اليوم من تعامله معها، فهو لم يكتف بالإرسال في طلبها، إنما تركها تنتظره في غرفة نصف معتمة.

كانت الغرفة شبه فارغة، لم تحو إلا على طاولة صغيرة، ارتكنت عند إحدى زواياها، فيما علقت على جدرانها أجهزة غريبة لم ترها مسبقاً، ربما رأت البعض منها في أفلام الأبيض والأسود الجنسية التي كانت تشاهدها مع صديقتها سُميّة التي كانت تحصل على الأفلام عن طريق صديقها آنذاك الذي كان يشتغل مضيِّفاً في الخطوط الجوية. السوط الأسود ذو النهايات التي تشبه الأشرطة مثلما سبق وأن رأته في أحد الأفلام. الجهاز الذي يشبه القضيب (كان الوحيد الملقى فوق المائدة) سبق وأن رأته أيضاً، لكنها لم تر من قبل تلك العصا الغليظة السوداء التي علقت فوق الحائط، ولا المقابض المثبتة إلى الحائط، ولا الأقنعة التي ملأت الحائط. وماذا عن ذلك القضيب الحديدي الذي برز من قاعدة خشبية ثُبِّتَت في الحائط. هكذا جلست معالي ما يقارب النصف ساعة، إلى حين ظهور المسؤول الأمني الذي دخل الغرفة بهدوء يلبس الملابس السوداء.

عندما أصبح وسط الغرفة توقف، وأخرج علبة سجائر روثمان. لم يقدم لها سيجارة، إنما سمح لنفسه فقط بالتدخين. سحب نفساً، ومع نفثه للدخان دخل معها في الموضوع مباشرة.

- تشوفين كل هذه الأجهزة. كلها نستخدمها مع البنت اللي ما تتعاون ويانا. طبعاً أنت رفيقة، ونعرف تفانيك للحزب. لكنك وحدك، وبسبب جمالك القادر على إغراء وفضح أعداء الحزب والثورة. نعرف كل مسامة من جسمك، وندري أنت مو باكر.

راح أزودك بقائمة تحوي على أسماء الأعداء، ومن اليوم تتحركين باتجاههم!.

أخرج ورقة صغيرة وقرأ عليها ثلاثة أسماء لزملاء لها في الكلية. إبتسمت وقالت له:

ـ ولا يهمك رفيق. كلشي يصير مثل ما تريد!

انتظرته يقول شيئاً. لم يقل أي شيء، وعندما لاحظت صمته، أرادت النهوض، فسمعته يقول لها بصوت يرتجف:

ـ ابق بمكانك.

ظلت في مكانها، لم تعرف ما يريد، حتى رأته يقترب منها، ويخرج قضيبه منتصباً من البنطلون. هذه المرة أخرج صوتاً أكثر توتراً:

ـ إنزعي لباسك، وفكي رجليك!

فتحت فخذيها وهي مستلقية على الصوفا. لم تنبس حينها بكلمة وكأنها تُهيء لمفاجأة غير سارة. رأته فجأة يسرع لإشعال الضوء، وكأنه يرى فرجاً للمرة الأولى. حينها سمعته يقول:

ـ شنو هذا اللي ما رفعتيه؟

فقالت له بهدوء:

ـ عليّ العادة رفيق!

في تلك اللحظة رأته يعرق. ربما كانت جملته متأخرة، فهو لم ينتظرها تكملها، حينما امتدت يدها لتلقي بكيم العادة بعيداً، وبقضيبه يسترخي مباشرة عند ارتطامه بجدران فرجها، فلقد اختلطت حيامنه مع دمها الذي بدأ في النزيف بقوة. لسوء حظه؛ لم تكن معالي في يوم عادتها الخامس، إنما كانت في ثاني أيامها.

عندما غادرت غرفة المسؤول الأمني تلك الظهيرة تركته ملقى وسط الدم الذي لوث بنطلونه أيضاً، لكن فكرة وحيدة شغلت ذهنها ذلك اليوم: «من قادها إليه ذلك اليوم؟ من وشى بها؟ أو على أقل تقدير، من أوصى المسؤول الأمني بها؟». . ربما فكرت ببعض الأسماء، لكن أن يكون عباس هو الذي فعل ذلك، فهو ما لم تفكر به أبداً. عباس حبيبها على مدى الثلاث سنوات الماضية. عباس الذي سمحت له بمعاينة بكارتها. عباس الذي حلمت بأنها ستكون عروساً له يقودها بعربة خيول قديمة. عباس

الذي كانت تستيقظ مع كل صباح يوم جمعة بجوار صحن العباس على صوت «الله أكبر» ولتجد يده تحت رأسها. عباس الذي كانت تداعب حشفة قضيبه وتقول له «أبو راس الحار». . عباس. . عباس. . عباس الذي كان يُعتبر في كليته أو في كليتها، مثل زوجها. كل الأصدقاء والأساتذة في الكليتين ـ في كليتها وفي كليته ـ كانوا يتصرفون معهما وكأنهما شريكان. . . عباس هذا بالذات هو الذي سلمها إلى مسؤول الكلية، مثلما سلمها ضابط المخابرات لأحد أصدقائه من المقاولين.

في ذلك الفجر، وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً، عندما غادرت معالي الكوفة بالباص المتوجه إلى بغداد، المليء بالعمال الذاهبين إلى عملهم في معمل السكر السائل في طويريج وبالجنود، بالجنود الذاهبين إلى وحداتهم في المسيب والمحاويل، معالي تلك كانت على وشك اكتشاف أمرٍ ضخم في حياتها: لا يمكن الوثوق بأحد بعد. كلا. . ومنذ ذلك الصباح عرفت هي المعروفة بأدبها، للمرة الأولى كل النعوت السيئة التي ممكن أن تطلقها على الرجال: «أناني، يحب نفسه، خائن، كذاب، مخادع، أبو وجهين، تافه، حقير، نذل، سافل، مجرم، مستغل، وسخ، حيواني، بلا ضمير، لا يستحق الإحترام، وصولي، نسونجي، قذر، قبيح، قزم، متملق، ناقص، ثرثار، طماع، جشع، بشع، ناكر الجميل، فاحش، قاسي، سطحي، ملخبط، سارق، مقلد، ضعيف، بخيل، دعي، متظاهر، غير أصيل، مزيف، غشاش، جبان».

لكنها وهي تفكر في معضلة الجنين الذي كانت تحمله في شهرها الثالث والذي ربما يتحرك في بطنها، فكرت بماجد، صديق طفولتها، والذي كان يحبها «بعذرية». كانت تعرف أنه درس الطب وأصبح جراحاً. هكذا عندما وصلت إلى كراج علاوي الحلة، ركبت مباشرة بالباص خمسة وخمسين، وذهبت إلى كراج النهضة، لتسافر في الباصات الذاهبة إلى العمارة أو البصرة ـ لا يهم ـ فهي تريد الذهاب إلى بلدتها. وصلت في الليل. طبعاً فرحت أمها عندما رأتها. لكنها لم تُخفِ قلقها، حتى أنها قالت لها، أن هناك ما يقلقها في وجهها. طمأنتها معالي، وقالت لها أنه مجرد تعب عابر، وسألتها عن أمور العائلة، فقالت الأم متحسرة:

ـ كل شيء تمام. أبوك ما يبطل من الشرب. أختك تبعث أخبارها مرات من الكويت. أخوانك كل واحد بهمه.

في تلك الليلة لم تنتظر حتى اليوم الثاني فسألت أمها بحذر:

ـ ماما تعرفين إش صار من ماجد ابن فرجة الخبازة؟

ضحكت أمها، وكأنها فكرت أن ابنتها استعادت عقلها بعض الشيء وبدأت في التفكير بماجد. فقالت هي الأخرى بحذر:

ـ شذكرك به؟

كان ماجد قد انتقل مع عائلته منذ سنوات لإحدى المدن القريبة، وهي تعرف علاقة أمها بأمه، إذ كانتا صديقتين، لم تمنعهما المسافة من التزاور أحياناً. وهي التي لم تسأل أمها عنه يوماً، من الصعب أن تقول لأمها لماذا تذكرته في هذا الوقت بالذات.

ـ ماجد ما شاء الله صار طبيب، نقلوه لمستشفى القرنة، هناك فتح عيادة.

ربما انتظرت أمها تعليقاً منها تلك الليلة. لكن عبثاً. قالت لها:

ـ يمة أنه تعبانة راح أنام.

لم تقل الأم كلمة. نامت معالي، حتى أنها لم تشعر بأبيها الذي جاء من نادي الموظفين متأخراً، والذي فرح عندما رآها متمددة فوق سطح الدار.

في اليوم الثاني استيقظت معالي مبكراً، لتسافر إلى القرنة.

ـ ٨ ـ

عندما جلس أسَيَدْ لوتي تلك الظهيرة في باحة بيت إفْطَيِّم بَيْ دَي، يستمع إلى إرشاداتها، كان قد مر أسبوع على مجيء معالي إلى القرنة. وفي تلك الباحة بالذات، بجانب تلك الفسيلة المريضة جلست معالي على كرسي بأرجل قصيرة من الخيزران ـ مثلما جلس أسَيَدْ لوتي ـ تستمع هي الأخرى إلى إرشادات إفْطَيِّم بَيْ دَي.

كانت ظهيرة ساخنة غير عادية ـ رغم أن الناس في الجنوب اعتادوا على حر تموز/ يوليو ذاك ـ وكانت إفْطَيِّم بَيْ دَي تعرق، مسكت في اليد اليمنى مهفة وفي اليد الأخرى فتحت زيقها لتحرك الهواء بين فتحة الثديين اللذين سالت عليهما قطرات العرق من جهتي سلسلة القلادة الذهبية السميكة لتلتقيا عند القران المجيدي الذي التصق عند فتحة الثوب تماماً. كان ثدياها صلبين وقويين بالنسبة لإمرأة في مثل عمرها. «ربما لأنها لم تجهض سوى مرة واحدة في حياتها»، قالت معالي مع نفسها.

لم يكن لمعالي بد من معاينة المرأة الجالسة أمامها، والتي تأملتها في الأول، عندما حكت لها قصتها، وأخبرتها عما تريد. كانت إفْطَيِّم بَيْ دَي تتفحص معالي وكأنها تريد التأكد من أن هذه البنت التي أكملت للتو الثالثة والعشرين، والتي انتهت هذا العام فقط

من دراستها الجامعية، جاءتها بالفعل من أجل الإجهاض.

- صدقيني، طول عمري أحاول أفهم الرجال شيريدون، بس ما أدري؟

قالت إفْطَيْم بِّيْ دَي متحسرة:

- كل مرة، أقول راح أفهمهم، لكن كلشي ماكو، إيد من ورا وإيد من قدام!

قالت تلك الجملة وهي تضرب كفاً بكف.

- بنت حلوة مثلك، ليش يرمونها مثل النعجة. وين راح هذا اللي حبّلك يعرف بنت أحلى منك؟

أرادت معالي من صميمها أن تطلب منها التوقف عن الحديث، فهي ليست بحاجة للمواساة، لن ينفعها أي عزاء، ومهما حاولت المرأة، فإنها تضع ملحاً على جرحها، وأن المهم الآن الدخول في تفاصيل إجهاضها هذه المرة، لكي تتأكد من ظنونها، بأن إفْطَيْم بِّيْ دَي لن تجهضها بالطريقة ذاتها التي أجهضتها بها كوكة.

- آخ، كوكة، أدخلت المقص برحمك؟

سألت.

هزت معالي رأسها بنعم، وكأنها لا تريد تذكر ذلك مرة أخرى.

- مثلما سوت برحمي، قطعته تقطيع.

سكتت إفْطَيْم بِّيْ دَي لحظة، لتقول لها:

- لا تخافي، طريقتي أسهل، إذا تبعتي تعليماتي!

لماذا لا تدخل المرأة معها في التفاصيل مباشرة، هل تعذبها بهذا الإنتظار، تعويضاً عن طريقتها السهلة بالإجهاض. لماذا تنتابها الهواجس مرة أخرى؟ ألم تسمع، هي معالي، أن طريقة إفْطَيْم بِّيْ دَي بالإجهاض سهلة جداً، حتى ماجد ابن فرجة الخبازة، الاختصاصي بالجراحة قال لها ذلك، عندما زارته في عيادته.

- منو اللي دلاك عليَّ؟

سألتها إفْطَيْم بِّيْ دَي، عندما طرقت معالي عليها الباب تلك الظهيرة من يوم ١٠ تموز/يوليو ١٩٨٠.

- ناس يعرفونك ببغداد.

لم تشأ أن تقول لها إن الدكتور ماجد هو الذي أرسلها إلى هنا، رغم أنه قال لها

عليها ألا تخاف من أن تقول لها، أنها تعرفه وأنه جارها منذ الطفولة. رغم ذلك لم تشأ أن تقول لها ذلك. ربما كانت تخجل من انكسارها في حضرة المرأة، فبماذا تجيب لو سألتها المرأة «لماذا لا يجهضك هو، وهو الجراح المعروف؟»، كيف تستطيع شرح المهانة وتأنيب الضمير اللذين شعرت بهما عندما توجهت إلى عيادته. ثلاث مرات مرت بباب العيادة في وسط المدينة، ثلاث مرات وقفت أمام الباب تحاول منح نفسها شجاعة أن تضرب الجرس، وأربع مرات صعدت السلم المؤدي إلى عيادته في الطابق الأول من البناية الوحيدة ذات الطابقين في القرنة، مثلما نزلت منه. حتى عندما دخلت، أرادت أن تقدم نفسها باسم آخر لكي تطلب منه مساعدتها كشخص حيادي. لكن كيف لماجد أن ينساها، وكيف لها أن تنساه. خمس سنوات وماجد يحوم حولها منذ أن كانت في الصف الثاني متوسط، عندما كانا طالبين في ثانوية البلدة المختلطة. كتب لها العشرات من رسائل الحب التي كانت تجدها كل يوم ملصقة بعلكة تحت خشبة رحلتها. لم تستجب لأية رسالة منه، رغم العناء الذي كان يكلف الشاب نفسه به، لأنه كان حينها في الصف الخامس الثانوي، وليس من السهولة الدخول إلى صف آخر. كان يحتال بألف طريقة. وحتى عندما ذهب إلى البصرة ليدرس في كلية الطب، راح يلاحقها في العطلة الصيفية. عبثاً، لم تستجب له البنت. حتى عندما كتب لها ذات مرة رسالة يهددها بالإنتحار. لم ينتحر ماجد، بل أكمل دراسته، وأصبح جراحاً مشهوراً، خاصة بعد إجرائه عملية ناجحة لوزير الدعاية والثقافة الذي كان يعاني من صرع مزمن، كانت العملية الأولى من نوعها في البلاد (جازف ماجد باستئصال نصف مخ الوزير المريض). وهو الذي أصرّ على البقاء في القرنة، حتى عندما اقترح عليه الوزير بنقله إلى بغداد ـ طبعاً عندما تنشب الحرب، سيصبح ماجد طبيب أمراء الفيالق والقواطع ـ. لم تشعر معالي بالإضطراب والحرج في حياتها مثلما شعرت به في ذلك اليوم؛ وزاد حرجها ترحيبه هو بها، ربما ظنت أنه سيطردها، أو سينتقم منها، على العكس، نهض من مكانه، فرحاً لرؤيتها، وهو يقول لها:

ـ أهلاً بالعلوية.

ربما ظنت لبرهة أنه يسخر منها، ولكن حديثه معها جعلها تطمئن له، وتعتقد أن ماجداً كان جاداً معها. حتى عندما روت له حكايتها، وسبب مجيئها. احتاجت عشرين دقيقة حتى استطاعت في النهاية أن تقول له أنها لم تجد غيره ليساعدها في الإجهاض.

ربما ظلا صامتين خمس دقائق، هي ساهمة، رأسها مطرق إلى الأرض مثل طالبة صغيرة تفاجئها المعلمة وهي تفعل شيئاً ما مشيناً. فمعالي وحتى تلك اللحظة لم تعتقد أنها فعلت أمراً خاطئاً، أو معيباً، أو مشيناً، أبداً، لقد فعلت ما كان عليها أن تفعله، كانت

تلبي نداء رغباتها، أمينة حتى لنزواتها الخاصة بها، ليوم العادة الشهرية الخامس مثلاً، فهي لم تُفَوِت ذلك اليوم من حياتها منذ أن بدأت ترى دم الطمث يلطخ أفخاذها في المرة الأولى. سواء باستخدامها العادة السرية عندما كانت بكراً، أو بحرصها على النوم مع رجل تعشقه، بعدما انتهى أمر الغشاء. كلا لم تشعر بتأنيب ضمير أو ما شابه بسبب ما فعلته. كان يقلقها فقط، أنها الآن في حضرة الرجل الذي رفضته دائماً. ماذا ستفعل الآن مثلاً لو طلب ماجد النوم معها. اضطربت حينها وشعرت بالضيق وهي تجلس في العيادة، كانت تعرف أنها لن تقبل ذلك الشرط. وذلك الشعور بالذات هو ما جعل عذابها يزداد، وداخلها يفور، فتغضب من نفسها، فتسأل نفسها «لماذا سمحت للمقاول منعم بالنوم معك، بل أسلمت نفسك للضباط الذين اختلطت عليك هيئتهم فيما بعد؟».
لا تدري متى شعرت في الرغبة بالنهوض، وهي تقول له متلعثمة:

- سامحني على الزيارة!

ربما كان عليها أن تخرج مسرعة، ربما كان قدرها قد اختط طريقاً آخراً، ربما كانت الآن ميتة، ربما كانت قحبة رخيصة في الحيدرخانة أو في منطقة إثنين وخمسين، ربما كانت متزوجة الآن من مهاجر عراقي لم تكن له أية علاقة مع إمرأة أجنبية، ترسلها له أمه على ذوقها، ربما كانت الآن عانساً غير متزوجة، أو ربما كانت واحدة من «مستقعدات» أحد ضباط مناطق بدو الغربية أو سماسرتهم من المقاولين، أو ربما كانت في كل مكان الآن ولكن ليس في المقعد الأمامي من سيارة المرسيدس - إلى جانبي - ربما... ربما كانت هذه المرأة أو تلك، لو لم يطلب منها ماجد في تلك اللحظة أن تجلس ويقول لها بصوت هادىء بث في قلبها الطمأنينة:

- مستحيل أجري لك العملية، لكني أعرف امرأة عليها الإعتماد، وهي صدفة الآن في القرنة.

صمت لوقت غير قصير، كان خلاله يتفحص وجهها، وكأنه يريد التأكد من أنها تقول الحقيقة، وأنه يمكنه الوثوق بها بالفعل، أو كأنه كان يستحضر حبها سابقاً. لكي يساعد نفسه - ربما - على اتخاذ قراره بمساعدتها، فهي بالتأكيد كانت قد باغتته ليس بزيارتها له بعد كل هذه السنين فقط، إنما بإلقائها عليه خبر حملها، ومطالبته بإجهاضها، وكأنها شخصية حيادية لم يتوسل حبها سنوات طويلة.

- إفْطَيْم يِّيْ دَي.

قال لها ذلك، وهو يحاول أن ينطق تلك الجملة بحيادية.

لم تسمع هي بالمرأة من قبل. هزت رأسها بالموافقة، وراحت تقضم أطراف

أظافرها، ساهمة، كأنها تقول له بأنها الآن بانتظار قراره. نهض من مكانه، فنهضت هي الأخرى.

وعندما أوصلها إلى الباب، قال لها:

ـ على حد علمي، الإجهاض عندها ما يسبب ألم، ورخيص.

وصف لها البيت الذي جلست فيه تلك الظهيرة الساخنة، وهي تعرف أن الأمر ليس بمثل هذه السهولة التي اعتقدتها، فإذا كان الإجهاض سهل ـ كما طمأنها ـ رغم أنها شكت من أين له معرفة ذلك! فالمرأة وحدها هي التي تشعر بصعوبة الأمر.

ـ لازم تقولين منو اللي أرسلك إلي، وإلا بكيفيج؟

قالت لها إِفْطَيِّم بَيْ دَي، بلهجة حملت التهديد، رغم أن نبرتها كانت صافية. فهي لم تقتنع بجواب معالي الأول. حينها وجدت معالي نفسها مضطرة للقول:

ـ الدكتور ماجد.

وعكس ما تصورت معالي، رأت عضلات وجه المرأة تسترخي، حتى أن يدها توقفت لحظة عن تدوير المطواة، عندما فتحت فمها تسأل:

ـ عزيزي ماجد، من أين تعرفينه؟

فحكت معالي لها، بأنها تعرفه منذ أيام الدراسة. لم تشرح أمر رسائل الحب بالتفصيل، إنما لَّمحت لذلك تلميحاً. لكن إِفْطَيِّم بَيْ دَي العارفة بخفايا الأمور، قالت لها ضاحكة:

ـ هسه أعرف سبب كتمانك على الموضوع. كان الولد يحبك، وكنت ترفضين، مو صحيح؟

فأجابت معالي:

ـ صحيح

فقالت لها إِفْطَيِّم بَيْ دَي:

ـ أفهم سبب رفضه، لأن مستحيل يسوي لك الإجهاض هو، وإلا حسب ما أعرف ماجد ما يبخل بالمساعدة.

سكتت إِفْطَيِّم بَيْ دَي لحظة، لتضيف بصوت فخور:

ـ رغم أنه ماكو طبيب يشتغل أحسن مني. آني ياما نزّلِت لصديقات الوزراء وبناتهم. تعرفين هذا الجربوع نائب القائد اللي إسمه القوري أو البوري، شمدريني؟

لم تجب معالي، لأنها ترتعب لمجرد سماع ذلك الإسم. لكن إفْطَيّم بِّيْ دَي لم تنتظر إجابتها، عارفة أن ليس هناك من لا يعرف تلك الشخصية، فأضافت:

ـ نزّلِت لعشر نسوان حبلهن، ولبنته اللي حبلها ابن الحاكم.

ولكي تؤكد ذلك، تقول بصوت جازم:

ـ كل مرة كان يحضر بنفسه، حتى أنه في واحدة من المرات ظل أربعة أيام لحد ما نزل جنين بنته، كان هو يملي لها ماء بالطشت!

حينها عرفت معالي أن عليها الإنتظار أربعة أيام حتى سقوط الجنين. كانت مستعدة لتقبل كل مفاجأة في تلك اللحظة. وعندما لاحظتها إفْطَيّم بِّيْ دَي ساهمة، قالت لها:

ـ نعم أربعة أيام، عليك تطبيق تعليماتي بحذافيرها!

وعند انتهاء جملتها أشارت إليها بالنهوض، لتتبعها حتى غرفتها. هناك أخرجت إفْطَيّم بِّيْ دَي مسحوقاً أبيض. لتخلطه بسائل وتزرقه لمعالي، ثم سلمتها شاشاً أبيض، طلبت منها أن تدخله في فتحة المهبل ليستقر هناك، وألا تخرجه من مكانه مهما حصل. وفقط في اليوم الرابع، عليها أن تجهز طشتاً بالماء الحار، تجلس فيه، وتسحب ذلك الشاش، ولا تخاف إذا رأت الدم، فمع الدم ينزل الجنين.

وعندما أرادت فتح حقيبتها لتسألها عما تريده لقاء ذلك، مسكت إفْطَيّم بِّيْ دَي يدها وقالت لها:

ـ هذه المرة لخاطر ماجد.

شكرتها معالي وغادرت. حدث ذلك بأسبوع فقط، قبل جلوس أسَيْدْ لوتي على كرسي الخيزران ذاته، وسماع معالي للإرشادات التي لقنتها إفْطَيّم بِّيْ دَي إياها.

في تلك الأيام اتبعت معالي تعليمات إفْطَيّم بِّيْ دَي. لكنها في اليوم الثاني بدأت تشعر بما يشبه السكاكين تقطع أحشاءها تماماً. في الأول ظنت أنه ألم عابر، لكنها شعرت مع الوقت بأن تلك السكاكين توسع أماكن انتشارها، حتى تطوق جسمها كله من تحت الأثداء حتى بيت الرحم. لم تنم، إذ كان الألم يزداد ويزداد، حتى أنها تمنت سكينة كوكة، فمهما كان ألمها في بيت كوكة في الحيدرخانة، فإنه لم يستمر معها أكثر من ساعة أو ساعتين. ولكن هذه المرة يبدو أن الألم لا يريد مغادرتها. لاحظت أمها اضطرابها،

وعرقها وشحوبها، رأتها منطرحة فوق الفراش وقد كورت جسمها، ضمت رجليها حتى صدرها، فيما راحت يداها تضغطان على الرحم. سألتها ما بها، فقالت لها وهي تبكي:

ـ العادة، هذه المرة كلش قوية.

فوَّرت لها النعناع، والنومي بصرة. عبثاً. ثلاثة أيام شعرت فيها فقط بتقطع أوصالها، وبما يشبه ماكنة فرم اللحم تفرم أحشائها. حتى أنها لم تنتظر إلى اليوم الرابع لإخراج الشاش. أخرجته في اليوم الثالث. لم يكن هناك دم. ارتعبت، وانتظرت حتى اليوم الرابع. جلست في طشت من الماء الدافىء وانتظرت سقوط الجنين. لا شيء. في اليوم الخامس لم تهدأ آلامها، ولا في اليوم السادس. في اليوم السابع سافرت إلى القرنة مرة أخرى. وحكت لإفْطَيِّم بِّيْ دَي القصة. فقالت لها المرأة بصوت لم يخلُ من محاولة منح الثقة لها:

ـ إذن كان حملك ظاهري!

اندهشت معالي وقالت لها:

ـ كل هذه الآلام على الفارغ؟

فأجابتها إفْطَيِّم بِّيْ دَي وإبتسامة على ثغرها، وكأن القضية لا تهم في الحالتين، في حالة أن يكون الحمل ظاهرياً أم فعلياً، وهي بالتأكيد تعرف في داخلها، أن معالي لن تصدقها، لأنها تعرف بأن ليس من المنطق أن تكون عندها كل هذه الآلام وهي غير حامل، لأن الآلام تأتي في النهاية من تقطع الجنين:

ـ يجوز!

في اليوم ذاته أعطتها مسحوقاً آخراً، طلبت منها أن تنام بعد تناوله مع الماء. بالفعل شعرت بالراحة والإسترخاء بعدها، ونامت، حتى أنها استيقظت فقط حين سماعها صوت إفْطَيِّم بِّيْ دَي وصوت رجل عند ساحة البيت. كانت هي تلك اللحظة التي سمعت فيها الجملة:

ـ إذا وافقت على الزواج من معالي أخليك تخلص من الورطة!

وليجيبها:

ـ أوافق.

ـ ٩ ـ

هناك بعض اللحظات التي تستحوذ عليَّ فيها الرغبة لطلب بعض التوضيحات منها، فمن غير المقنع في مرات عديدة الإستماع للقصة فقط دون إثارة بعض التساؤلات. ربما

أستطيع إضافة بعض التفسيرات من عندي لبعض القصص التي روتها والتي ترويها، خاصة تلك القصص المتعلقة ببلدة القرنة، أو بزيارة الحاكم للقضاء في ذلك اليوم من شهر تموز/يوليو، أو لما جرى تحت شجرة آدم، أو لصيد أسيَدْ لوتي سمكة الجصّانية، أو حتى تلك القصص المتعلقة بإجهاضها. لم يكن من الصعب عليّ التفكير لخمس دقائق مثلاً كي أقول إن ذلك الحدث حدث لهذا السبب أو ذاك. فلقد تعلمنا في المدرسة، سواء في درس الحساب أو في درس الجبر، أن لكل شيء معادل. وحتى في دراستنا للأدب. فلقد علمونا مثلاً في جامعة بغداد ـ كلية الآداب ـ قسم اللغات الأوروبية ـ فرع اللغة الألمانية، أن هناك سببية تكمن خلف كل حدث روائي ومسرحي (بالرغم من أنني يجب أن أذكر للأمانة أن ما تعلمته زوجتي وجيهة في فرع اللغة الإسبانية ـ الذي احتلت صفوفه بعد سنتين فقط من تأسيسه بعد عام ١٩٧٧ كل غرف الطابق الأول في كلية الآداب ـ هو شيء آخر). والأساتذة القادمون من ألمانيا الشرقية ـ أستاذ «لانغ» القصير القامة عكس أسمه الذي يعني «طويل» وأستاذ «بينكه» والدكتورة «فراو مرعب» (هل يمكن تخيل اسم الكنية؛ كانت متزوجة من عراقي) والأستاذة ريتا (لم تحصل على الدكتوراة أو ما شابه، تعينت بسبب زوجها الذي كان يدرسنا هو الآخر)، والدكتورة «فراو نصيف» (أجمل وألطف سيدة في الفرع)، ومن العراقيين أستاذ القواعد «نصر» (زوج ريتا)، وأستاذ قراءة النصوص «غازي» (الذي كان يفتخر في كل درس أنه سبق وأن اختير كجاكي في الريسيز لكنه رفض!)، وأستاذ الترجمة عدنان الرشيد (كان نصف مجنون، أربع سنوات لم يشبع من تدريسنا آلام فارتر، وكان يترجمها لنا حرفياً إلى اللهجة البغدادية، الآن يدرس في جامعة الملك فيصل!)، وأستاذ الإنشاء «رشدي»، العصامي الذي كان نادراً ما يتحدث بجملة خارج الموضوع، والدكتور الألمعي «سامي» الكظماوي، الذي أقالوه من التدريس لعدم انتمائه للحزب، وأستاذ النحو الدكتور «عز الدين» (رئيس الفرع الذي كان يدرسنا النحو الألماني الذي لا يفقه منه شيئاً، وكان عندما يشرح لنا «الأكوسيتيف» أو «الداتيف» أو «الجنيتيف» يسيل لعابه حول شاربيه الغليظين!)، وأخيراً أستاذ ـ في كل شيء ـ عماد (الكردي الأصل مسؤول منظمة الحزب الحاكم في كلية الآداب) ـ أمر غريب لم تكن هناك أية أستاذة عراقية، بالرغم من أن صفنا مثلاً ـ مثل باقي الصفوف ـ كان يكتظ بالإناث أكثر من اكتظاظه بالذكور ـ مع ذلك تعلمنا على أيدي كل هؤلاء سواء كانوا الألمان الشرقيين أو العراقيين الذين درسوا هناك ـ العجيب لم يكن عندنا أي مدرس من ألمانيا الغربية ـ، تعلمنا على أيديهم أن لكل حدث سبب. كيف لي إذن ألا أتعجب من منطق رواية معالي لبعض الأحداث، وخاصة تلك التي تتعلق بها. كم بودي سؤالها مثلاً ـ مجرد ذكر مثال واحد ـ كيف وافق أسيَدْ لوتي ببساطة على الزواج بامرأة لم يرها؟ أو لماذا وافقت هي، معالي مثلاً على قبول زواجها به؟ أو لماذا خافت من

أن ينام دكتور ماجد معها، في الوقت الذي سمحت به للمقاول منعم و«ضباطه» أن يناموا معها ـ للأمانة تساءلت هي أيضاً هذا التساؤل مع نفسها، وهو ما يمنح ظنوني تأييداً ـ. ولكني لا أدري، بدل أن أسألها كنت أسترخي، مسلماً نفسي لظنونها. أحاول تفادي مواجهة نظراتها مثلاً، إما بالنظر أمامي، أقصد إلى الطريق، أو إلى مؤشر البنزين، أو أضع كاسيتاً من كاسيتات صديقها الطبيب النسائي ـ الجراح ـ ربما تكهنت هي بما يدور في داخلي، لذلك قالت لي وكأنها تعرف أسئلتي التي أحتفظ بها:

ـ أكيد تفكر مع نفسك، تعتقد أن كل هذه القصص اللي أحكيها خرافات.

سكتت للحظة.

ـ يجوز عندك حق. مرات كثيرة أتخيل قصصاً كثيرة، حتى أبدأ أنا نفسي في الاعتقاد بها بعد أيام.

انزلقت بجذعها في المقعد أكثر وأسندت رأسها إلى حافة المقعد، ثم أشعلت سيجارة جديدة. ربما كانت السيجارة العاشرة. كنا قد مررنا بالناصرية، ولا أدري بالضبط عند أية ناحية من نواحيها أصبحنا، إذ كان من الصعب قراءة القطع التي تشير للمدن فقد حُطِّم معظمها، أو ما زال الكثير من الشعارات المضادة للسلطة باقية فوقها، بينما كان ينبعث من المسجل صوت عباس جميل «التبعه وين ما يروح وقربه سلوى للروح. . . أبو عيون الوسيعة. . .». كانت شمس المساء قد بدأت تلقي صهدها، وكنا نمر ببعض نقاط التفتيش في الطريق، كانوا يشيرون لي بالإستمرار، حتى أنني بطلت التخفيف عندما أرى بعضها، ربما كانوا يفعلون ذلك، لأننا كنا نسوق مرسيدس ٢٨٠ أس أوتوماتيك. ومن يجرؤ على إيقاف مرسيدس في البلاد، وخاصة بعد تلك الحادثة التي حصلت قبل شهرين من رحلتنا، وتداولتها الألسن في طول البلاد وعرضها، عندما حاولت إحدى الدوريات وأثناء عملها الروتيني إيقاف سيارة مرسيدس عند مشارف ناحية الطارمية، والتي حال توقفها، برزت رشاشة من زجاج نافذة باب سائق السيارة، ليمطر كل أفراد الدورية برصاص الكلاشينكوف، قيل إن كان يقودها أحد أبناء الحاكم أو الحاكم نفسه. لا يهم، فما حصل، هو أنني كنت أشعر بالإستمتاع في تلك الرحلة وأنا أمر ببعض نقاط التفتيش دون التوقف، بالإضافة إلى أنني لم أكترث لأمر نقاط التفتيش الرسمية لأنه ما زالت في حوزتي هوية وزارة الدفاع عندما كنت مترجماً هناك. لكن يبدو أن الأمر لم يشغل بال معالي أبداً. ربما لأنها كانت تفكر أولاً بكونها امرأة وعلي أنا التصرف في النهاية كي نصل حيث نريد، أو ثانياً لأنها كانت ساهمة تشغلها أمور أخرى، أو ثالثاً ـ وهذا هو السبب الأكثر رجحاناً بالنسبة لي ـ لأن الأمر كان بالنسبة لها

سيان. فكثيراً ما سمعتها تردد أثناء رحلتها، أو إذا ما ساد الصمت في بعض الأوقات، كانت تردد بيت شعر للمتنبي:

أيــا شــئــت يــا طــرقــاً فــكــوني   هــــلاكــــاً أم نــــجــــاة أم ممــــاتــــا

كانت معالي قد انتهت من سيجارتها التي لم أعد أعرف إن كانت العاشرة أو الثلاثين - أنا الذي يكره السجائر ورائحتها - وألقت بها من النافذة، عندما استدارت لي، وقالت:

- بالتأكيد تريد أن تعرف منطق كل قصة؟

سكَتَتْ برهة ثم قالت بصوت قوي:

- ماكو. ماكو. وإلا ممكن تفسر لي ليش كل هذا الموت. ليش كل الرجال حقراء. ليش أكو الله.

لم أجد جواباً. في الحقيقة لم أتساءل بكل تلك الأسئلة، إنما كل ما كنت أريد معرفته، لماذا وافقت على الزواج من أسيَدْ لوتي. لم يعد يهمني قراره هو، بقدر ما كان يهمني قرارها.

- طبعاً، ما كان القرار بهذه السهولة اللي تعتقدها.

ثم عقبت ساخرة:

- كان بسهولة طريقة إفْطَيْم يَّيْ دَي بالإجهاض.

صحيح أن إفْطَيْم يَّيْ دَي اشترطت على أسيَدْ لوتي الزواج من معالي مقابل تعليمه سر طريقة صيد سمكة الجصّانية، إلا أنها لم تتمّم مراسيم الزواج إلا بعد الحديث مع معالي. ربما عرفت أنها كانت تتنصت خلف الباب. فما أن غادرها الرجل بعد سماعه الإرشادات، وبعد تعيين موعد الزواج معه في ظهيرة الإحتفال، وقبل أن يستلم الدهن الذي كان عليه أن يدهن به جسمه قبل الغوص، صاحت إفْطَيْم يَّيْ دَي:

- معالي تعالي أرجوك!

خرجت معالي لتجلس على كرسي الخيزران الذي كان جلس عليه أسيَدْ لوتي، وعلى يمينها انطرحت الفسيلة المريضة، والتي سمحت لأصابع يدها بمداعبتها. تطلعت إليها إفْطَيْم يَّيْ دَي، وأخرجت هذه المرة نظارة طبية من محفظة جلدية احتفظت بها في جيب ثوبها لهذا الغرض. نفخت فوق الزجاج ومسحته بكم ثوبها، ولبستها. لتبدأ الحديث:

- شوفي بنتي راح أحكي وياك، وأنت اللي تقررين في النهاية، مفهوم؟

فهزت معالي رأسها بالموافقة.

في تلك الظهيرة عرفت معالي، أن إفْطَيْم يِّيْ دَي مهما بدت قوية وقاسية إلا أن فيها الجانب اللين. كانت المرأة تعاني من أمراض ثلاثة مزمنة: الربو، قرحة في المعدة، والبواسير. وأنها تعبت، وتريد أن تستريح. قالت لها بصراحة بأن الزمن تبدل، وأنها هرمت، وأنها ما عادت قادرة على إدارة كل بيوت الدعارة التي تملكها. صحيح أنها تملك في كل مكان وكيلاً أو وكيلة لها. لكنها لا تدري لماذا يقول لها قلبها هذه المرة أن معالي هي الأكثر صلاحية وأمانة من الباقين:

ـ أشوف الطيبة بعيونك، قالت لها.

ليست الطيبة فقط، إنما للمرة الأولى تشعر بالثقة بواحدة.

ـ أعتبرك من اليوم مثل ابنتي.

لم تكن لإفْطَيْم يِّيْ دَي بنتاً، فهي أجهضت مرة واحدة عام ١٩٤٨ في بيت كوكة في الحيدرخانة، ومنذ ذلك الحين تلف رحمها. صحيح أنها في الأيام الأولى فرحت، فعلى عكس كل العاهرات ما احتاجت استخدام أي موانع للحمل، التي كن أغلبهن يجلبنها من تلك المرأة المدعوة «عسلة اليهودية». لكنها عندما تعدت الثلاثين بدأت في التفكير بالحمل. حاولت جاهدة، وراجعت المستشفيات أشهراً، وزارت أشهر الأطباء. قيل لها أن مدخل الرحم مجروح (في الحقيقة ليس سبباً مقنعاً من الناحية الطبية لعدم الحمل ـ أعتقد ـ). رغم ذلك، لم تبطل من مراجعة الأطباء حتى بلوغها الثامنة والأربعين، عندما توقف مجيء العادة الشهرية عليها، قررت أن تذعن لقدرها. لكنها لم تيأس. كانت تحلم بأن لها بنتاً تعيش في مكان ما في هذه البلاد، حتى وإن لم تخرج من رحمها.

ـ أنت هذه البنت.

سكتت إفْطَيْم يِّيْ دَي للحظة وكأنها تنتظر تعليقاً من معالي، وعندما لاحظت صمتها، أضافت بعد أن رفعت النظارة من عينيها لتمسحها مرة أخرى وترفعها أمام وجهها لتتأكد من نظافة زجاجها، ثم تضعها فوق مناخيرها:

ـ قحبة أو قوادة ما يفرق. إفتحي عينك زين وشوفي. كل شي عنده علاقة بالإقتصاد. كل شي تطور. وشغلة القوادة مو مثل أيام زمان، اليوم هي مثل كل شغل إداري بهذي البلاد، تحتاج عقلية مرة متعلمة وتكون مولودة قبل الشيطان بيوم. وماكو أحسن منك صالحة لهذه المهنة. أنت عبالك مثل بنتي. كل حياتي وأنا أتمنى بنت مثلك مدربة على كل شي. ما أصدق لقيتك.

عندما سمعت معالي جملة «كل شي له علاقة بالاقتصاد» تذكرت الشاب الذي كانوا ينعتونه بالشيوعي، والذي كان أحد الذين أوصاها مسؤول الأمن في كليتها بمراقبته، والذي كان يردد تلك الجملة بمناسبة أو غير مناسبة. كان يقول إن كل شيء له علاقة بالإقتصاد، حتى الرياضة. كم تمنت أن تسأله معالي حينها، وكيف يفسر عدم وشايتها به، فقد اكتفت بالقول لمسؤول الكلية الأمني، بأن الثلاثة الذين أعطاها أسماءهم هم رجال معقدون، لا يودون الإقتراب من المرأة، علاقتهم مشوشة مع المرأة، لذا من المستحيل إغرائهم، حتى أن المسؤول سألها حينها «تريدين تقولين همه مناويك»، فأجابته لتتخلص من العبء، «ما أدري رفيق، حاول أن ترسل لهم أحد الرفاق...»، أرادت أن تقول له «رفيق منيوك؛ رفيق عباس مثلاً»، لكنها لا تستطيع لفظ تلك الألفاظ، فمجرد التفكير فيها في ذلك الوقت يثير عندها الإشمئزاز، لذا عدلت عندما رأته ينظر لها بشزر وكأنه ينتظر منها فقط تلك الجملة لا غير، ولخيبته سمعها تقول «أقصد رفيق آخر».

لم تشأ أن تضبطها إفْطَيْم بَيْ دَي ساهمة لذلك عجلت بسؤالها:

- ليش تختاريني، أنت تحمليني عبء ما أقدر عليه!

فقالت لها إفْطَيْم بَيْ دَي:

- الآن أنت حرة، تريدين الزواج من أسيَدْ لوتي لو أخيطلك بكارتك. أنت حرة، حياتك وأنت حرة بيها!

في تلك اللحظة سألتها معالي:

- شنو قصدك بالحياة؟

فأجابتها دون تردد طويل:

- شوفي، عمري ما درست لا بالمدرسة ولا بالكلية مثلك. لكن أعرف شي واحد، الحياة هي اللي أعيشها، وما يهم إذا ما رفعت رجلي مثل مرة متزوجة ينيكها كل يوم نفس الرجل، أو قحبة كل يوم ترفع رجليها لواحد جديد.

فتساءلت معالي:

- فقط لواحد؟

فأجابتها إفْطَيْم بَيْ دَي، وهي تبتسم:

ـ شنو الفرق، كل ما يزيدون كل ما تشعر القحبة بأنها أريح من المتزوجة. شوفي أنت ممكن ترفضين اللي يريد ينام وياك بس المتزوجة لازم تقبل أن تنام مع زوجها وقت ما يريد ومثل ما يحب الأفندي، بدون أن يدفع لها أتعابها بشغل البيت ولا أتعابها بالفراش، حتى لو ناكها بطيزها، مثلما يحبون الزلم ينيكون دائماً، الخلاصة، المتزوجة قحبة أصلية بالمجان والمتزوج قواد.

فقالت لها معالي:

ـ والحب؟

فعلقت إفْطَيْم بَيْ دَي وهي تنفث حسرة:

ـ الحب، عن أي حب تحكين؟ حب هذا الحبَّلك وشرد من مسؤوليته، لأن يعتبر الجنين نغل، لو حب دكتور ماجد اللي ما قبل يجري لك الإجهاض. الحب مستحيل بهذي البلاد إبنيتي. قطنة وشيليها من إذنك، الرجال عندنا ما يعرفون يحبون، الحب يحتاج مهارة وفن، والرجال عندنا، إسطوات بكراهيتهم، كلهم فنانين بالإحتيال على البنات، دائماً يفكرون هذه بنية أخليها للنيك، وذيك أخليها للزواج.

فقالت لها معالي:

ـ يجوز، لأنهم يائسين، لأن الكره عمره ما كان عكس الحب، اليأس هو المعاكس للحب.

فقالت إفْطَيْم بَيْ دَي:

ـ العكس هو الصحيح، تعلقك بواحد وتصديقك للحب هو اليأس.

فقالت معالي:

ـ لكني ما أريد أسيَدْ لوتي.

فأجابتها إفْطَيْم بَيْ دَي:

ـ ليش ما أعرف، لكن للضرورة أحكام. لا تعتقدين بأن أسيَدْ لوتي هو اللي راح يستفيد. هو رجال مثل باقي الرجال. إلزميه من عيره لزمة بسيطة وشوفي شلون يزوع كل حليبه.

وفي النهاية سألتها معالي بفارغ صبر عما تبغيه في النهاية.

فأجابت إفْطَيْم بَيْ دَي ببساطة:

- بسبب مستقبلك ومستقبلي ومستقبل الشغل اللي ما أريده ينقرض، ومستقبل نسوان هذه البلاد!

وعندما بدت رغم ذلك غير فاهمة، وضحت لها إفْطَيِّم بِّيْ دَي:

- راح أخلي أسيَدْ لوتي يصيد سمكة الحصّانية، وشوفي شلون راح يصعد نجمه إلى فوق. مع أسيَدْ لوتي نستمر نعيش أنا وأنت، ونخلي قيمة للقحبات ولنسوان البلاد. هذه الشغلة تدر الذهب وإتجيب السلطة. أكبر واحد بهذي البلاد عقله هنا.

وضربت بين أفخاذها، وهي تقول:

- فهمتي؟

- ١٠ -

لم تفهم معالي ذلك فقط، إنما وافقت على الزواج من أسيَدْ لوتي. وعلى مدى تلك الليلة التي قضتها في بيت إفْطَيِّم بِّيْ دَي، راحت تخطط وتنسج الصور لمستقبل حياتها. لقد تعبت؛ وإذا رجعت إلى حالة لاعب السيرك الذي ذكرته سابقاً في سياق وضعها لحظة مجيء المصور الفوتوغرافي الأردني إلى بيت صديقتها سُميّة، فإنها لم تختَرْ هذه المرة الذهاب إلى آخر المشوار ماشية على الحبل، كما فعلت تلك الظهيرة، بل اختارت هذه المرة السقوط في نصف الطريق وتسليم نفسها إلى لدونة الفراش الذي فرشوه لها تحت حبل السيرك. كانت تفصلها عن تلك الظهيرة أربع سنوات. أربع سنوات من خيبات الآمال والإحباط. أربع سنوات من التعب، حتى أنها كانت تتمنى في بعض الليالي أن تكون جسماً حيادياً، لا هذه الـ «معالي» التي تبهجها الحياة وتفرح لكل حديث صغير يكمن فيه شيء من الفرح أو شيء من الحب تعتقد هي بوجوده. أربع سنوات بَحمْلَيْن كلَّفاها جبالاً من المعاناة والآلام. وإذا ما أسلمت نفسها إلى ما حدث، وقالت إنه قدرها، فأي عزاء تمنحه لخيباتها؟ كم عانت من كبح جماحها عند اشتداد رغباتها أو عند مجيء اليوم الخامس من العادة. وعندما قالت لها صديقتها سُميّة ذات يوم وهي تشرب بيك العرق الأول بصعوبة:

- العرق كلش حلو ورائع، بس لو يشيلون منه البيك الأول.

وكانت هي تعلق:

- أقبل بكل آلام العادة شرط يشيلون منها اليوم الخامس.

وكانت صديقتها تغص بالبيك لتعلق:

ـ داده عبالك يوم خمسة حزيران.

فتضحك معالي معها وتعلق هي الأخرى:

ـ يا ريت خمسة حزيران، لك عيني خمسة حزيران مالتي ما تهدأه كل صواريخ العباس والحسين.

فتقول سمية:

ـ يعني مو أحسن يعلنون يوم الخامس من عادتك الشهرية يوم النيك الوطني، أحسن من الإحتفال بعيد ميلاد العير الضرورة.

أين ذهبت تلك الأيام عندما كانت الصديقتان تتماديان بضحكهما وتعليقاتهما وغيبيتهما للأخريات حتى ساعة متأخرة من الليل، أو حتى الفجر؟... فمع زواج سُميّة شعرت معالي بفقدان جزء مهم من حياتها. كانت كمن يدفن جزءاً عزيزاً عليه. وكانت تعزي نفسها، ليس الزواج هو السيء بحد ذاته، إنما الرجل الذي اختارته سُميّة: نقيب في الجيش من قضاء الشرقاط. لا يضحك إلا ما ندر، والذي ما زال يعتقد أن البلاد «عندها كونة واحدة بعد»، وأن المستقبل سيري العالم: «أي أُسُود نحن، شرط أن ننظف أنفسنا من حثالة المعدان الشيعة سكان الأهوار الذين جلبهم الإستعمار بقيادة أبو القاسم الثقفي إلى بلادنا».

كان يلقي تلك الجمل بحضرة معالي وكأنه يتعمد إغاظتها، فهو يعرف أنها قادمة من الجنوب وأن عائلتها من الأشراف الشيعة. لم تعلق حينها وكانت تصمت. كان الصمت إستراتيجيتها في الرد على كل ما يغثها في الحياة، حتى عندما جاءها ذات يوم لاعب نادي الطلبة المشهور يقترح عليها في كافتيريا الكلية بجدية أن تصبح له معها علاقة:

ـ نعم علاقة جنس فقط، شنو رأيك؟

لم تجبه، إنما استمرت تأكل سندويشتها بلذة، حتى أن اللاعب والممثل السينمائي في الوقت نفسه، احتار في تفسير مواصلتها الأكل، ولم يعرف فيما إذا كانت طريقتها في أكل الهامبورغر توحي بقبولها لعرضه هو الذي لم ترفض عرضه أية بنت، أم أنها تهزأ منه. وعندما لم تجبه حتى وبعد مرور ربع ساعة على جلوسه أمامها، انسحب عندما رأى بنتاً أخرى قادمة. الشيء ذاته كان يحدث عندما يلقي النقيب ليلان زوج سُميّة بنكاته كل مرة «أكو فد واحد إشروكي...»، أو «أكو فد واحد شيعي...»، أو «أكو فد واحد من أهل العمارة...» ... إلى آخره من نكات «المرحلة» كما كان يسميها

الشاب الشيوعي الذي كان عليها مراقبته. كان النقيب ليلان يعتقد أنها توافقه على نكاته، بينما كانت هي في الحقيقة تنظر بسرية لغمزات صديقتها سُميّة الساخرة، والتي ترجمتها لها في المرة الأولى عندما سمعت التعليق:

- ترى ماذا سيقول لو عرف أن الذي فتحني شيعي إشروكي شيوعي! أو شين تكعيب، كما كانوا يقولون. بالفعل ماذا سيقول؟

تساءلت معالي مع نفسها. مثلما تساءلت أكثر من مرة، قبل أن تستريح في بيت إفْطَيِّم بِّيْ دَي، وبعد أن خاطت سُميّة بكارتها، بالذات قبل إجهاض معالي بثلاثة أشهر، وعند الدكتورة مثال الآلوسي الدكتورة النسائية أكبر حفيدات كوكة. وليس كما يشاع لعلاقتها مع أحد المسؤولين الكبار بأنها من أحد أحفاد القعقاع أو طارق بن زياد.

- عيني ما أدري طارق ابن زياد هماتين طلع آلوسي.

تساءلت حينها سُميّة بجدية، عندما دخلت عيادتها في الأعظمية ـ. هل عليها خياطة البكارة مثلها، وخاصة أن سُميّة كانت تحذرها حتى من عباس:

- ما راح يتزوجك. الرجال عندنا ما يتزوجون من اللي ينامون وياها، يعتبرونها صيد شرعي، دائماً يريدون وحدة ما مفتوحة، حتى لو كانت مفتوحة من الخلف، المهم أن ما تكون مفتوحة من الأمام؛ أنت وآني مو سيدات، لأننا انفتحنا بالغلط، من الأمام؛ ليش تعقدين الأمور، سويّ مثلهم إتونسي بكيفك وخيطيه حتى تتزوجين.

فتجيبها أنها لن تفعل ذلك، لأنها تثق بحب عباس لها، وبأنها لا يمكن أن تعيش مع رجل وتبني سعادتها معه على أساس كذبة، حينها تجيبها سُميّة:

- لكن كل زواج سعيد مبني على كذبة.

فتنفي معالي بهزة من رأسها، لتجيبها سُميّة:

- وكيف تفسرين زواجنا أنا وليلان؟

بعد شهر من ذلك الحديث كان عليها مواجهة نظرات سُميّة المؤنبة «ألم أقل لك؟».. ألم أقل لك؟ ألم أقل لك.. كل العالم يسأل السؤال ذاته، وأنا ماذا يهمني، كنت أتبع نداء روحي الداخلي... هكذا كانت تقول معالي لنفسها. لم تشعر بالندم حتى ذلك اليوم عندما جاءت إلى بيت صديقتها تسألها النصيحة. طبعاً قالت لها فوراً:

- الدكتورة مثال الآلوسي.

فاستغربت معالي من اقتراح صاحبتها:

ـ كيف تقترحين عليّ مثال؟

فسألتها:

ـ وشنو الضير بالإقتراح؟

فأجابت معالي:

ـ الكل يعرف علاقة مثال بالضباط وبأولاد المسؤولين بنادي الفروسية بالجادرية، هي طبيبتهم الخاصة هناك، بالإضافة إلى طلبها مبالغ تعجيزية، إذا ما تدفعه الوحدة تجبرها على الشغل بنادي الفروسية.

حينها غضبت سُميّة، وقالت لها:

ـ يعني تعتقدين بأنها باعتني لـ ليلان؟

حينها فقط عرفت معالي أن سُميّة كذبت عليها عندما ادعت أنها تعرفت على النقيب ليلان في أحد مقاهي كورنيش الأعظمية، عندما سألتها معالي عنه في اليوم الأول الذي قدمته لها. صمتت معالي في تلك اللحظة، وودت من صميمها ألا تتحدث سُميّة بعد. لكنها على عكس تصوراتها سمعتها تواصل:

ـ وشنو يعني إذا اقترحت عليّ الدكتورة مثال الآلوسي. أعرف قبضت من عنده فلوس كثيرة، وهو حكى لي كل القصة عندما تزوجنا. كان يدور على بنت شريفة لأنه تعب من بنات نادي الفروسية.

ثم أعقبت سُميّة بعد صمت قصير:

ـ معالي إفتحي عينك زين. كل شي خرب. راح زماننا. راحت الحرية.

أرادت أن تقول لها عن أية ترهات تتحدث، فزمانهن لم يأت يوماً قط. كان زمانهم، زمان كل أولئك الذين حبلوهن، وعن أية حرية تتحدث؟ هل انسطلت، وليس هناك حشيش في البلاد؟ لكنها لم تقل كلمة واحدة، فقط انسلت بهدوء من البيت، وهي تعرف أنها فقدت صديقتها إلى الأبد.

والآن ماذا ستقول لسُميّة لو سألتها عن زواجها من أسيَدْ لوتي؟ لو سألتها عن الفرق بين مثال الآلوسي وإفْطَيْم يِّيْ دَي؟ ماذا ستجيبها يا ترى؟ هل شعرت بتأنيب الضمير للمرة الأولى في حياتها؟ كلا.. فهي رغم كل شيء لم تصدر حكماً ضد

صديقتها، كانت تعزي نفسها بالقول: كنا صديقتين حميمتين، جمعنا الزمن بالصدفة وبسرعة خاطفة وفرقنا بالسرعة والقوة ذاتها، ولكن ليس بالصدفة ذاتها، فالصداقة عندما يُفَرَّط بها بعد سنوات طويلة من الإستمرار يجب أن يتحمل مسؤولية التفريط بها أحدهم، صحيح أن معالي كانت ما كانت، وسُمية كانت هي ما كانت، إلا أن أحداً ما يجب أن يأخذ دور الله، وإذا لا تستطيع الإختيار بينها وبين صديقتها للعب هذا الدور، ولتكن إذن الصداقة هي الحكم.

لا تلعب مع الكلمات عندما تقول ذلك، إنما لديها الشعور بأن إفْطَيْم بَيْ دَي هي غير مثال الآلوسي وأن أسيَدْ لوتي مهما بدا إنتهازياً بسلوكه إلا أنه غير ليلان. ربما حمل هذا الشعور بعضاً من الشك في الليلة الأولى التي قضتها في بيت إفْطَيْم بَيْ دَي، إلا أنها في اليوم الثالث على مجيئها، في يوم حفل استقبال الحاكم. ويوم عرسها، تأكد لها أن تصوراتها لم تكن في غير محلها، وأن أسيَدْ لوتي، يختلف تماماً عن النقيب ليلان، أنهما ببساطة عالمان مختلفان بعيدان عن بعضهما بُعْد الشرقاط عن القرنة. ولكن كيف غاب عنها سؤال آخر مهم، هل تختلف هي، معالي، عن صديقتها سُمية؟ وبأي قدر؟ هل وحّدهما فقدان غشاء البكارة فقط؟ وهل أبعدهما الغشاء ذاته؟ طبعاً الآن عندما تحاول استذكار كل ذلك، والحديث عنه وهي تجلس إلى جانبي في سيارة المرسيدس الـ ٢٨٠ أس، ونحن نسير في طريق بدأ يظلم، إلى هدف لم يتضح تماماً، هدف كانت تقرره حركة يدي وهي توجه المقود، وملاحظاتها المقتضبة بعض الأحيان، أو اكتفائها بهز رأسها، وكأنها تثني على الإتجاه الذي أقودها إليه، إلى أين؟ لم تسأل هي، ولم أسأل أنا، إلا مرة واحدة بشكل مقتضب، ودون حماس، حتى أنها أجابتني بصوت خافت «سر إلى الأمام»، دون أن تحدد لي الطريق بالضبط، حتى كدت أنسى الهدف الفعلي تقريباً (إذا كان هنالك هدفاً)، ومن يدري، ربما نسيته هي أيضاً، فلم أسمعها تعيد إلا جملة واحدة في أكثر من مناسبة: «سر إلى الأمام»؛ أفكر بهذا الآن، إذ كانت تحدثني عن القصة، بعد أن تكون دخنت السيجارة الألف، حتى أنه ما عاد ينفع فتح زجاج نافذة السيارة، فعفونة دخان السيجارة سيطرت على المكان؛ أفكر بهذا الآن وهي تجلس بجانبي، مثل شخصية حيادية، فحتى تلك اللحظة لم يجرؤ أحد منا على تصنيف العلاقة التي نمت بيننا بسرعة، فلو كان عندي غشاء بكارة مفقود لقلت إن علاقتنا تطورت على أساس هذا التضامن، ولو كان عندي وضع أسيَدْ لوتي لقلت لا بأس؛ أفكر بهذا الآن وهي تحكي القصة بعد أكثر من عشر سنوات من حدوثها وبعد مرور حربين، نعم بعد حربين مدمرتين؛ حربان أكلتا الأخضر واليابس، تركتا ظلالهما على الناس، على أشكال الحياة، على الأفكار، على المشاعر، على أولئك الذين نحبهم، وعلى أولئك الذين نكرههم، على

أنفسنا سيان إن أحببناها أم لا، حتى أشعرتنا من خلال الدمار الذي ألحقته بنا، بغربتنا عن العوائل التي تربينا في أحضانها، عن زوجاتنا، عن أصدقائنا، عن أحلامنا، حتى عن ملابسنا التي نلبسها والتي هي أقرب من كل شيء إلى جلدنا، بل ما عادت تتنفس مساماتنا الهواء ذاته التي اعتادت على تنفسه قبل الحرب، كل شيء عفن، عفن هذا الهواء الذي نتنفسه، بعفونة دخان سيجارتها، عفن هو الماء الذي نشربه لأنه مخلوط بالدم، عفنة هي الأفرشة التي ننام فوقها... كل شيء عفن وغريب.. رغم ذلك نجلس أنا وهي في سيارة، في بلاد احترقت، على طريق سريع بني أساساً لسير الدبابات وهبوط الطائرات (في الحالات التي تستدعي ذلك!)، بإتجاه هدف غامض، ولا يهم ماذا سيكون، فإنه لن يكون الهدف الذي سننتهي إليه أبداً - كلي يقين -... رغم كل شيء، أجلس أنا أصغي إليها بهدوئها ذاته الذي كان يبعث الريبة عند الآخرين، وهي تقص عليَّ الحكايات، الحكاية تلو الحكاية عن حياتها... ما الذي يجمعنا؟ هل هي صدمة ما بعد الحرب؟ هذا الفراغ الذي نشعر به الآن فجأة بعد إنتهاء الحرب؟ هل لهذا تركتني وجيهة مرتين، في المرة الأولى عند انتهاء الحرب الأولى، والثانية الآن؟ وهل هي حالي مع وجيهة، هي مثل حال معالي مع صديقتها سُميّة، إذ تعرف الآن فقط، وللمرة الأولى، أكثر من أي وقت مضى أنها كانت تختلف أيضاً عن صديقتها سُميّة، في كل شيء، ومثلما وَحّدهما فقدان غشاء البكارة، فرقتهما الحرب، نعم الحرب نفسها التي ستجمعنا.

- ١١ -

لا يمكن أن نطالب الآخرين أن يتطابقوا دائماً مع الصور التي نصنعها عنهم. ومن الضروري لنا بمكان أن نتخلى بعض الأحيان عن ولو القليل من أحلامنا، في النتيجة، لو كنا نحلم بعشرة من الأحلام، علينا التنازل عن تسعة منها والإبقاء أكثر شيء على واحد. يمكن أن يقود الحلم المرء إلى هلاكه، يصبح من الممكن التنازل فيه حتى عن هذا الحلم الوحيد من عشرة أحلام، مهما كان هذا الحلم بسيطاً: مثلاً الحلم بالعرس.

فلم يستطع كل هذا الإندفاع والنزق في السلوك، والتمادي فيه، من دون الأخذ بنظر الإعتبار الحدود التي يصل إليها، والتي قادت بشكل منطقي إلى إجهاضين، لم يستطع ذلك الحماس الذي كان يلح في داخل معالي إطفاء جذوة تلك الرغبة بالعرس عندها ذات يوم.

أمر غريب فرغم كل هذه الحرية التي منحتها البنت لنفسها، إلا أنها في خيالها، لم تفارقها تلك الصورة التي ارتسمت دائماً: صورة ثوب العرس وعربة الحنطور التي تجلس

فيها مع حبيب العمر، حتى عندما كانت وهي نائمة في الفراش مع أحدهم، أو في قمة شبقها وإلحاح جسدها عليها في يوم عادتها الخامس، لم تنس طبعاً تخيل شهر العسل أيضاً، ستأخذ شهراً كاملاً، وستجلب أجمل الملابس الداخلية من الكويت: أثواب نوم من الحرير، لباسات داخلية بكل أنواعها، لباس لكل يوم، بل ستطلق على كل يوم إسم اللباس: يوم الفراشة للباس أبو الفراشة؛ يوم العقرب للباس أبو العقرب؛ يوم خيط الحياة للباس الذي يملك خيطاً رفيعاً يغطي فتحة الشرج فقط؛ يوم النمر للباس المخطط بخطوط النمر؛ يوم العيون للباس المفصل على شكل عيون؛ يوم الزهرة للباس المفصل على شكل زهرة؛ يوم الإمبراطور للباس الشفاف بشفافية ملابس الإمبراطور؛ يوم السعفة للباس الذي على شكل سعفة؛ يوم الرئتين للباس الذي على شكل رئتين؛ يوم القلب للباس المفصل على شكل قصة قلب.. هكذا كانت تتخيل ثلاثين لباساً لثلاثين يوماً من شهر العسل، وبذهنها تتخيل رد فعل عريسها، كم سيفرح، وسيقول لها كل ذلك من أجلي، وستقول له: «نعم حبيبي، كل هذه اللباسات من أجلك. بعضها اشتريتها أنا في الكويت والبعض الآخر جلبته أختي لي من هناك»، سيضمها بين ذراعيه وسيلثمها بقبلة قوية، وتقول له «انتظر دقيقة، ألا تريد أن ترى الأتكات الثلاثين ودشاديش النوم الثلاثين والسوتيانات الثلاثين والجوارب الثلاثين، والكورسيهات الثلاثين»، ينظر العريس متعجباً عندما تلاحظ سعادته تجره من يده إلى خزانتها وتقول له فرحة، وهي تعد قناني صغيرة أمامها: «انظر عطر الكاشير، عطر الشانيل، عطر الأفيون، عطر الدونه، عطر جل ساندر، عطر يوب، عطر بالوما بيكاسو، كل مجموعة أسته لاودير ومجموعة أيف سانت لورانت وكل مجموعة عطور كريستيان ديور، أنظر للثلاثين عطراً، كل يوم أضع لك عطراً، هل أنت سعيد، ماذا تريد أن أضع اليوم؟»، تغمض عينيها وتنتظر منه أن يأخذها بين ذراعيه، فيقول لها: «أشكرك حبيبتي، كم هي جميلة الكويت»، فتقول له «ألا ترى، أنا أختلف عن البنات الباقيات، أنظر إلى طقم الأحذية الثلاثين إلى الفساتين الثلاثين، كل شيء يجنن، كل شيء من الكويت» يزداد عناقهما ويأخذها الوجد، فتقوده إلى السرير وهي بثوب النوم الشفاف الأسود أو الأحمر أو الرماني ولا يهم حتى وإن كان البني، المهم أنه يلحقها للفراش، وحينها ترفع الشراشف وتؤشر له ضاحكة أن يدخل إلى جانبها «تعال شوية عندي»، ويأتي «شوية» عندها، وتطلب منه أن يلمس الشراشف، فتقول له «هل ترى كم هن ناعمات»، فيجيبها «طبعاً حبيبتي»، ثم تطلب منه أن يلمس الفراش، فيقول «لكن جسمك أنعم منه»، فتقول له «كل هذا من الكويت، ألا ترى أنا أختلف عن باقي البنات، ولا واحدة تسافر للكويت وتحصل على كل هذه الأشياء مثلي».
ثم تضيف ربما ليأس وباللهجة العامية هذه المرة «تريد شي حبيبي بس أطلب وقول، أعطيك عيوني، كل شي أجيبلك من الكويت»، فربما سيجيبها بـ «لا على بختك

حبيبتي، وجودك كفاية»، أو بجملة «كنت أعرف أنت مو مثل الباقيات، كل هذي الأناقة والجمال، يا عيني عليك وعلى الكويت»، أو بجملة «كل شي ما أريد حبيبتي، بس لو تجيبيلي قلونيا تاباك أو قولونيا أم السفينة مع معجون الحلاقة أبو السفينة، كل جماعتي الضباط يستخدمونه، آنه الوحيد ما عندي، ويقولون لي شلون ما عندك منهن ومرتك رايحة جاية للكويت، وأقول لهم لو تعرفون كل اللي تحكيه لي عن الكويت، آخ لو نقدر ننقل كل سوق الكويت عندنا» ، أو بجملة «أرجوك حبيبتي، جماعتي الضباط يقولون بالكويت الملابس الخاكية أحلى من هنا، حتى النجمات تلمع أكثر، حتى الزي العسكري، أرجوك عمري، عيوني وكبدي، لو تدبرين لي فد قيافة أو قيافتين إن أمكن وعلى الأقل نجمة وحدة»، حينها ربما ستجيب «حبيبي، نسيت البيرية والبسطال، لأن بالكويت شفت الضباط يلبسونها، كلش حلوة عليهم»، عندما ترى تجهم وجهه من تلك الجملة تطمئنه قائلة: «آخ لا تزعل حبيبي، عيع، عوع من شكل الضباط هناك! طبعاً يرحون فدوة الضباط الكويتيين لضباط وطنّا، بس شواربكم كافية، شوف شواربك الحلوة»، فيضحك العريس ويقرصها من خدها ويقلبها فوق الفراش، وينزع اللباس أبو الفراشة أو أبو النمر أو أبو القلب، المهم أنه ينزع اللباس، ولا بأس أن يمزقه فكل شيء مسموح له في النهاية، فيقول لها وهو يدخل فيها «أعرف عندي مره شاطرة وذكية وتختلف عن الباقيات راح أكون سعيد وياهه مو بس بشهر العسل».

صحيح أنها في تلك الأيام كانت تتخيل عريسها بملابس الضباط، تلمع فوق كتفه على الأقل ثلاث نجوم ذهبية، ولكن بعد أن أسلمت أمر بكارتها لضابط ثم لأخ ضابط طيار - لم يغب عن ذهنها تلك الأيام وهي بين ذراعيّ عباس من تخيل أخيه النقيب الطيار وهو ينام معها - بدأت في التنازل شيئاً فشيئاً عن حلمها؛ فلم يعد العريس - الحلم يجسد صورة معينة، ففي الوقت الذي بدأت صورة الضابط - الحلم تصل ذروته في سنوات الحرب الأولى، استنفذت معالي تلك الصورة مبكراً، وراحت تتخيل مجرد عريس، لا يهم شكله، عريس - رجل، مجرد رجل ما، لا تهم مهنته، شرط أن يكون متعلماً وبوظيفة، يمنحها فقط الأمان ويجعلها تشعر أنها محبوبة منه.

لم تعرف معالي في بداية علاقتها أن من السهولة لها أن تحب لكن من الصعوبة لها أن تكون محبوبة. وأن الطريق الذي سلكته ليس طريقاً سهلاً. وهي مهما فعلت وتشبثت بمن تحبه فلن يقودها أوتوماتيكياً إلى الزواج. حتى صديقها المصور الفوتوغرافي الأردني أراد الزواج منها بشروط. لكنها الآن تحترمه أكثر من ضابط فندق الخليج، وأكثر من عباس، فهي لم تعرف ماذا كان يريد الإثنان؟، لكن هل عرفت هي نفسها ماذا كانت تريد؟ أو لماذا تريد الزواج، ما هي حاجتها له؟ وأليس من العجيب أن أسيّدْ لوتي وليس

أولئك المتعلمين من سيقبلها زوجة رغم أنها غير باكر؟. طبعاً هي لا ترسم صوراً مثالية لعلاقتها به، مثلما لا تعتقد أنه فعل ذلك لو لم يكن في الخمسين من عمره، أو لو لم يفقد عائلته كلها مع الأطفال، أو لو لم يكن عنده خيارات أخرى!

- لكن ممكن تقول لي منو عنده خيارات أخرى!

قالت لي، وأعتقد أننا تركنا خلفنا قبل خمس وأربعين دقيقة مدينة سوق الشيوخ.

كان بإمكانها طبعاً تلك اللحظة أن تسألني عن خياراتي أنا. لكنها لم تفعل. ربما كانت تعرف جوابي، أو ربما كانت تعرف أن لا خيارات لنا بعد حربين مدمرتين. وأن قناعاتي ربما لا تختلف عن قناعاتها بما يخص الموضوع إلا بالقليل. ربما لذلك السبب لم تسألني إنما راحت تحكي قصتها، وأنا أصغي لها، وكأنها تحكي قصتي، وكأنني أعرفها منذ سنوات بالفعل رغم أني لم أرها إلا مرتين أو ثلاث، لا أذكر منها إلا أولها بالضبط، عندما رأيتها في ذلك الحفل الذي نظموه عند شجرة آدم.

- ١٢ -

قبل يوم الإحتفال ذلك بأسابيع كانت قد اتُخِذَت إجراءات وخطوات عديدة لتأمين شكل من الإستعراض الطبيعي والأداء الهادىء، فبالإضافة إلى فرض منع التجول بثلاثة أيام قبل الإستعراض، والإستغناء عن عمل موظفي ومستخدمي وعمال الدولة، علقت البيارق الوطنية، التي زودت هذه المرة بعبارة «الله أكبر» في وسطها، مثلما أعيد طلاء البنايات الرسمية للمدينة، كما أعيد تمهيد أرضية الساحة التي سينظم عليها العرض، والتي كانت تواجه شجرة آدم، والمحصورة بين مثلث، وقعت على أطرافه أركان المدينة الرئيسية الثلاثة: «ساحة استعراضات الثورة الكبرى» (التي تحول إسمها بعد يوم من إعلان الحرب إلى إسم «ساحة سعد بن أبي وقاص»)، ومسجد النبي موسى (ألغي اسمه بعد ذلك ليصبح جامع عرفات)، ومنتزه العروبة (الذي تحول اسمه في التاريخ ذاته إلى إسم «منتزه الكويت») بالاسمنت، أما الذين ثبت أو بدا للسلطات الرسمية أن ليس لديهم سكن شرعي أو عمل مشروع في القرنة فقد صدر أمر إلقاء القبض بحقهم، وأودعوا سجن «الأمة العربية»، بالمقابل من ذلك صدر أمر بتعيين جمهرة متواضعة من الكوادر الحزبية والموظفين الموثوق بهم حزبياً بعد إحصاء أفرادها رسمياً وتثبيت أسمائهم في سجلات خاصة في مديرية أمن «البطل جمال عبد الناصر» الخاصة بالقرنة، وأرسل في طلبهم أن يحضروا للتجمع والتشاور بأمور المسيرة الاستعراضية عند الساعة الثالثة والنصف من فجر يوم العرض في ثكنة «القائد صلاح الدين الأيوبي». وهناك تم

إعلامهم بأن مشهد المسيرة هنا يجب ألا يقلّ عن مشهد المسيرات في العاصمة، أو مشهد المسيرات في الدول الشرقية الكبرى: الصين وروسيا. في الساحة الحمراء، في حالة روسيا، وفي ساحة المسيرة الكبرى في حالة الصين (وإلى حد ما يتقارب مع مشهد إستعراض الثورة الفرنسية في باريس، الذي حضره الحاكم مع سمّاكته ذات مرة). هناك منصة رئيسية رتبت فوقها أماكن لأعيان النظام تبعاً لسلم أهميتهم: الأمين العام للحزب الحاكم (الذي هو رئيس الدولة أيضاً) والذي كان يترك إلى جانبيه دائماً مكانين شاغرين، الأول إلى اليمين والثاني إلى اليسار: وُضِعَت فوقهما لوحتان خشبيتان تشير كل واحدة لاسم الشخصية التي يفترض لها الجلوس هناك، الأولى خط فوقها بالخط الكوفي إسم «صلاح الدين الأيوبي»، والثانية خط فوقها بخط الرقعة إسم «جمال عبد الناصر»، يحيط به (بعد المقعدين الشاغرين) زائرون من الدول الأجنبية. الأمر الوحيد الذي يختلف في حالة إستعراض مدينة القرنة، هو أن ممثلي الدول الصديقة يأتون في أول السلم.

هكذا تم ترتيب المسيرة، كما يحدث في الساحات الكبرى تلك: كان هناك الجيش الجمهوري أولاً، ثم الجيش التقليدي تبعاً لوحداته، ثم رجال الشرطة، ثم عمال البلاد بثيابهم الموحدة، كانوا جميعهم يلبسون في أياديهم قفازات بيضاء. بعد هؤلاء جميعاً أتت صفوف من المدرعات الحربية، والعربات العسكرية، وسرب من طائرات الميغ والميراج النفاثة التي شكلت جزءاً من القوات الجوية الوطنية. وفي المؤخرة جاء أعضاء الحزب القدامى المخضرمون، ورجال الجيش الشعبي ببدلاتهم التقليدية، ومجاميع من وحدات النساء المتطوعة من بلدان عربية مختلفة، ووحدات المنظمات النسائية التابعة لإتحاد النساء، ومجموعات تمثل كل وزارة من الوزارات. بعد ذلك وبينما كانت الخطب اللازمة حول ماضي الحزب «المجيد»، والبناء الإشتراكي القومي الوحدوي، والمهمات المقبلة والتضامن القومي المطلوب تصدح في مكبرات الصوت الكبيرة التي زاد عددها على المائة مكبر، كان الحاضرون الملزمون، كذلك، يتمسكون أكثر وأكثر باللافتات التي يحملونها ويلقون ثقلها عليهم.

«اليوم يحتفل المرء بثلاثة تواريخ. التأريخ الأول هو استلامه الراية قبل سنة، وفي وقت عصيب كان يمر به الوطن العظيم والأمة العربية المجيدة، وموافقة سيادته على تحمل مسؤولياته كاملة، رغم المؤامرة الدنيئة لزمرة كان يحسبهم رفاقاً له. التأريخ الثاني، هو ظهور المنتظر، القائد الضرورة، المهيب، البروفسور، العليم بكل شيء حفظه الله، هو انتقاله من النضال السري إلى النضال العلني، وظهوره في الحياة العامة، ليقف في الصفوف الأمامية، من أجل تحمل مسؤوليته في تثبيت دعائم الثورة، قبل إحدى عشرة سنة، كأنها حدثت بالأمس، فهكذا في زمن الثورة يجري الزمن سريعاً، لأن ليس هناك

من يعاين، ويحس بثقل اليوم وكأنه شهر، وبثقل الشهر وكأنه سنة، وبثقل السنة وكأنها دهر، ظهر لينقذ بلاده من الهاوية، ليجددها، ليبعث فيها الحياة من جديد، وليمنحها المبادىء، والعز، والحماس، والثقة بالمستقبل، لكي تنتهي من كل ما تبقى من آثار المؤامرات الإستعمارية ضدها ومن الإضطهاد الذي كانت تعانيه تحت ظل حكام لا يخافون من الله ومن اليوم الآخر، في الحقيقة لم يأت حفظه الله بإرادته وحده، كانت هي إرادة القدر، إرادة الزمن. أما التأريخ الثالث، فهو توافق عيد ميلاده مع ميلاد قادة تاريخيين يحترمهم، قادة خدموا أوطانهم وجعلوا رايات أعلامها ترفرف في كل مكان، إنها ليست صدفة أن يولد في الشهر نفسه، نابليون، وهتلر، وموسيليني، وسالازار، وفرانكو، وستالين، بل وتلك المناسبة التي تسعد سيادته أكثر من كل شيء، توافق عيد ميلاده مع عيد ميلاد بطلين وطنيين، بنيا الأسس الأولى لمبادىء الحزب العظيم، ودافعا عن حدود البلاد، وجعلا من سكانها أن يفتخروا من حملهم إسمها، وهما سرجون الأكدي، المحارب الصنديد، ونبوخذنصر، سابي اليهود، إنها في الحقيقة ليست صدفة، فهم رجال اصطفاهم القدر لكي يخدموا أوطانهم، ونحن جمعنا المناسبات هذه في مناسبة واحدة لنجعلها إحتفالاً قومياً، يعلن فيها الكادحون بيعتهم لسيادته، كل سنة، وبالذات هنا أمام شجرة أبينا آدم، الذي جعله القدر ليس صدفة يظهر فوق أرض وطننا العظيم، كل شيء عظيم في هذا الوطن، وطن آدم، وطن سرجون، وطن نبوخذنصر، وطن صلاح الدين الأيوبي، الكردي الذي صفّى دمه وانتمى للعروبة، ووطن سيادته، بطل الأبطال، هديتنا من الله، شجرتنا الوارفة، إنه الرجل الذي تتجاوز عبادته كل الأزمنة التقليدية، وعندما يحبه الشباب، الشباب خاصة، فلأنهم يرون فيه شخصية القائد الأبدي، القائد الضرورة! المنقذ والملهم لهم، الذي مجرد سماع صوته يجعل السعادة تفيض في النفوس، كما لو كانت قبب معابد العالم أجمع تحيط برأس هذا الشعب العظيم، وكلما سعى الإنسان لخدمته بأمانة، كلما تحققت أمنياته، التي يحصل عليها من الأب الأبدي، ولن ينفع سجود هذه الجموع له، فكلما بذلت جهدها في الإنحناء أمام قامته، كلما شعرت بأنها لم تفعل اللازم، تشعر بأن القدر اختارها من بين كل شعوب العالم أن تنعم بهذه النعمة، وتكدح أكثر، لتنال رضى سيادته، وهو واجبنا أن نعلن هنا، بإسم هذا الشعب العظيم، بأن الإحتفالات تفقد في وطننا العظيم كل أشكالها القديمة، فمنذ اليوم ليس هناك مناسبة أو إحتفالاً ولا يكون سيادته حاضراً فيها، لا يهم إن كان الإحتفال شخصياً أم شاملاً، فردياً أم عاماً، وشكراً للقدر الذي جعلنا نعيش في بلد الحرية والسعادة هذا، اهتفوا عالياً، يعيش... يعيش... يعيش، اهتفوا حتى تبح أصواتكم، اهتفوا، حتى تسقطوا صرعى على الأرض، بانتظار بركته عليكم لكي يعيد لكم الحياة».

من الصعب وصف العرض بصورة تتطابق مع الصورة التي جرى فيها، ففي النهاية بدا كله وكأنه مجرد محاولة لأن ينسخ على ضفاف نهر شط العرب، ما كان، زعماء الحزب يتذكرون أنهم شاهدوه في عروض مشابهة شهدتها طقوس «الدول الكبرى» في موسكو، في بكين، في باريس وربما حتى في واشنطن والقاهرة، لكن رغم ذلك (أتذكر المشهد الآن تماماً) فلقد بدا من المرجح أن أكثر الأمور لفتاً للنظر على صعيد هذا الإستعراض الرهيب للتلاحم والسلطة، يكمن حقاً في أن ما من أحد قد أتى ليشاهده باستثناء أولئك الذين يعتلون المنصة والآخرين الذين كانوا يشاركون في المسيرة. بمعنى أكثر وضوحاً: كان الممثلون هم الجمهور. وكنت أنا واحداً منهم، رغم أني لم أكن رسمياً جزءاً من إحدى تلك القوائم التي تحدثت عنها، ولا إحدى المجاميع التي سارت أمام المنصة الرئيسية، بل ولأنني لم أكن من سكان المدينة الدائمين، كدت أن أنتهي كما انتهى أولئك غير المقيمين في المدينة، إلى الحجز أو السجن في غرف مديرية أمن «البطل جمال عبد الناصر»، ولم ينقذني من ذلك سوى الهوية التي أحملها: هوية وزارة الدفاع. بهذه الصورة، وجدت نفسي ذلك اليوم جزءاً من الممثلين الذين كان يطلق عليهم الجمهور. وربما كنت نسيت شكلها هي، أقصد شكل معالي، لو لم نأت على ذكر مسيرة الإستعراض هذه المرة.

- ١٣ -

والآن فقط ونحن في السيارة تذكرت صورتها، لم تلبس ما يلفت النظر، مثلما لم تقف في مكان مميز. وقفت وهي ترتدي تنورة من الجينز وقميصاً أبيض خلف الحشد، حيث وقفت أنا. كانت كمن يتفادى أن يُضبط بجرم مشهود. وفي ذلك اليوم - أتذكر الآن - تساءلتُ بصورة خاطفة، من أين قدمت هذه البنت؟ ولا أخفي القول أنني ظننتها قادمة من أميركا اللاتينية، لها علاقة بالوفد الذي حضر مع خمسة وفود أخرى كانت قادمة من فرنسا وروسيا وبلغاريا وألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية.

ضحكت معالي عندما حكيت لها ذلك، وقلت لها، طبعاً أولاً لم يخطر في ذهني أنها من سكان البلاد لشكلها (كانت حنطية اللون بعينين خضراوين وشعر أشقر غامق) وللملابس التي لبستها والتي كانت غريبة على البلدة - فحتى زوجتي الجامعية لم تلبس تنورة كاوبوي جينز قصيرة مثلها -، ثانياً إن زوجتي وجيهة قد أوجعت رأسي بأميركا اللاتينية والوفود التي كانت تترجم لها، وقالت لي قبل المهرجان بأن أكبر الوفود التي ستحضر في هذا اليوم هما وفدا تشيلي والأرجنتين. ليس لهذا السبب وحده اعتقدت أنها أميركية لاتينية، إنما شكلها هو الذي كان يوحي بذلك: القامة القصيرة التي لا تتجاوز

المتر والستين، الوجه الدائري، الأنف المفلطح ـ الأقجم ـ الفم العريض بالشفاه العريضة، الشعر الأشقر الغامق الطويل المجعد، العينان الخضراوان، المؤخرة البارزة.

ـ إذن كانت نظرتك لي غير عابرة مثلما ادعيت؟

ـ لك الحق أن تفترضي ذلك.

قلت لها، والآن فقط أتذكر كل شيء بالتفصيل (ربما أتخيل أنني رأيت كل ذلك، لأنني أراها الآن بجانبي، مثلما تفحصتها جيداً عندما دخلت بيتي!).

ـ أي شي يلفت نظرك بالمرأة لأول مرة؟

سألتني معالي.

ضغطت حينها على دواسة البنزين، وتطلعت إلى مؤشر عداد السرعة، كان يشير للمائة والعشرين.

لا أدري أين قرأت ذات مرة، بأن أول ما يلفت نظر الرجل في امرأة ما ويجبر عينيه تصوب بذلك الإتجاه يختلف من بلد إلى آخر. فاليابانيون يجدون الرقبة هي الأكثر إثارة في المرأة. والصينيون يعتبرون القدم هي أكثر المواضع في المرأة إثارة وإغراء. الأفريقيون يقدسون المؤخرة، والمرأة التي بلا مؤخرة عليها أن تبطل أحلامها ليس بالزواج فقط، إنما في مجرد إقامة علاقة حتى مع شخص داعر. الأميركيون الشماليون يعبدون الثدي، وكلما كبر حجمه كلما أحبوا المرأة التي تملكه، والثدي الكبير بالنسبة إليهم هو القنبلة الوحيدة التي تفوق «قنبلة هيروشيما». الألمان ـ أوروبا الغربية والشمالية عموماً ـ يسيرون على خطى الأميركان. والناطقون بالعربية؟ لا أعتقد أن هناك جزءاً معيناً في الجسم يغريهم أكثر أو يحملهم على أن يشتهوا هذه المرأة أو تلك، ولكنني أعرف أن أجدادي مثلاً كانوا يحبون ربلة الساق، وعلى أساسها يقيسون حجم وثخن الفرج. فكلما كانت الربلة سمينة، كلما كان الفرج أكثر إثارة، سميناً وضيقاً «إذا طعنت طعنت في لبد وإذا سللت كاد ينسد»، كما قال أحد الشعراء القدماء ـ رضي الله عنه ـ، ورجال بلادي عموماً يتحدثون دائماً عن الصرة، ولا يهم بالنسبة لهم إن كانت صرة ولد أم صرة امرأة. ولكن إذا توخينا الدقة، فإنهم ليسوا مثل باقي البشر، يقولون يعجبنا هذا أو لا يعجبنا ذاك، على العكس، الأمر المهم بالنسبة إليهم هو الثقب «الزرف» ولا يهم إن كان ثقب فرج أم ثقب مؤخرة، ثقب إمرأة أم ثقب رجل، ثقب كائن بشري أم ثقب حيوان ـ حمارة أو عنزة، بل حتى كلبة ـ، ثقب حيوان أم ثقب جماد ـ صابون مثلاً ـ، ثقب جماد أم ثقب ورق ـ كما رأيت الجنود يفعلون في الثكنة (ليست ثكنة القائد صلاح الدين

الأيوبي، إنما في ثكنة «قائد» آخر): يغلقون عنق ورق الكلينكس باللاستيكة ويدهنونه بالزبد، ثم يدخلون أعضاءهم به ـ، وإذا ندر الورق فلا بأس من استخدام أوراق الأشجار. على هذا الأساس ليس من الغريب أن يقبل النقيب ليلان الزواج من سُميّة قبل رؤيتها فالمهم بالنسبة إليه أن تحضرها له على ذوقها ـ الدكتورة مثال الآلوسي ـ، وأن يقبل أيضاً أسيَدْ لوتي الزواج من معالي قبل رؤيتها أو السؤال عن من تكون ـ تلك هي واحدة من الصفات التي يشترك بها الإثنان: الضابط السني القادم من الشرقاط وصاعد النخل والصياد مؤقتاً والدياك أسيَدْ لوتي، الشيعي الشروكي ـ لكن ليس الشيوعي، إذن شين مكرر فقط ـ رغم افتراقهما في صفات أخرى كثيرة ـ على الأقل أنه لم يكلف لا إفْطَيِّم بِّيْ دَي ولا أية واحدة غيرها في البحث عن امرأة له.

ـ ليش نسيت الرجال المقيمين في الخارج اللي راحوا يطلبون من أمهاتهم إرسال بنات على ذوقهن لهم؟

طبعاً لم يخطروا على بالي، لأني لم أشتغل مثلها بهذا المجال.

إفْطَيِّم بِّيْ دَي أسست وكالة تعمل بهذا الإتجاه؛ خياطة بكارة الشابات وإرسالهن هناك، عن طريق وسطاء في عمان وفي دمشق وفي الشمال وفي تركيا. لا تتعجب إذا قلت لك حجم الطلب وعدد الراغبين بالزواج، دكاترة وطلاب وفنانين ومثقفين من مختلف الفئات والأعمار.

ولأنها تعرف أن موضوع هؤلاء الناس لم يكن ما أعنيه الآن، قالت:

ـ ما جاوبتني على سؤالي؟

لم أجبها على سؤالها بالفعل، وأنا أعرف أنني لست بقادر على الإجابة، فهي وحدها التي تعرف الأجابة، أو التوضيح على الأقل، وكل ما يلحق بذلك هو مجرد تهويمات وتفسيرات خارجة عن الموضوع. حتى أنها تصنع إشارة بيدها لتمنحني الإنطباع، أن عليَّ ألا آخذ الموضوع بهذه الجدية، فبالتالي بالنسبة للرجال في هذه البلاد الأمر سيان، لذلك لم تستغرب عندما جلست مع أسيَدْ لوتي للمرة الأولى، أنها تقابل رجلاً للمرة الأولى لا يعرف ما يريده من امرأة.

كان ذلك شرطها الوحيد على إفْطَيِّم بِّيْ دَي، أن تلتقي بأسيَدْ لوتي في اليوم التالي، وبيوم قبل الزواج في البيت لوحدهما. وافقت إفْطَيِّم بِّيْ دَي، وافقت دون إبداء أية شكوك بقدرة معالي على ترويض رجل مثله.

في الحقيقة لم يكن يحتاج الرجل إلى ترويض. لم يكن أسيَدْ لوتي آنذاك بالثعلب أو

بالذئب. وحتى ذلك الوقت لم يكن بالرجل الذي يحتال على الناس، ولا هو بذلك المستعد أن ينهش أصحابه، إلا إذا وجد نفسه في ضائقة فهو على استعداد للمشي فوق جثة أحدهم، أو الغدر بمن ساعده ـ هكذا ذهب مع وجيهة، ضد مصالح زوجته وإفطَيّم يَّيْ دَي ـ. كان رجلاً مثل باقي الرجال، بسيطاً مثل الحياة، ومعقداً مثل الحياة. لم يكن رجلاً حالماً ـ تلك ميزة نشترك بها نحن الإثنان ـ، حالماً حتى بمستوى أحلام النقيب ليلان كي يري العالم «أي أسود نحن». كلا لم يكن الرجل بالحالم. فمنذ اللحظة الأولى بدا مسلماً كل أسلحته لمعالي.

ـ تعرف أنني أقوى منك.

قالت له معالي، ربما ظنت تلك اللحظة أنها تستفزه.

فأجابها وربما يعرف أي نوع من النساء هي:

ـ لا قوي إلا الله إذا نحينا القائد الضرورة وياسين عرفات!

فصححت له:

ـ ليس ياسين.

فأجاب بجدية:

ـ لا يهم، النبي محمد كان عنده أكثر من إسم، مثلاً طه، موسى، حسين، عباس، والقائد عنده أكثر من مية وتسعة وتسعين إسم، أكثر من اسماء الله بمائة إسم.

ضحكت، وقالت له:

ـ أنت رجل صاحب نكتة، ولكن ممكن تشرح لي سبب قبولك بالزواج مني؟

فأجابها:

ـ نفس أسبابك.

فعلقت:

ـ أسبابي؟ لا أعرفها؟

فأجاب هذه المرة:

ـ أما أنا، فأعرف أسبابي.

فسألته:

- ما هي؟

فأجاب بصوت واطىء وهو يخفض رأسه إلى الأسفل، كطفل يخجل مما يقوله:

- أريد زوجة وبس.

فسألته:

- ما يهمك وضع المرأة، عائلتها، وهل هي باكر أو غير باكر؟

فأجابها جواباً جعلها تصمت لدقائق:

- شوفي، مع احترامي إلك، أنت مرة متعلمة، لكن الحياة تعلمنا أكثر من الكتب، أنا خلصت السادس الإبتدائي بس، لكن راح أقول لك شي خليه بإذنك، وما يهم إذا قبلتي بي أو لا، لأن بالنهاية لا هو قرارك ولا هو قراري بالزواج، وصدقي حتى هو مو قرار إفْطَيِّم بِّيْ دَي. هو قرار القدر، أو قرار من الله إذا كنت تؤمنين بالله. شوفي أنا صاعود نخل وديّاك، تعرفين شنو معنى الإثنين؟ يعني كل هذا النخل اللي ينعد بالملايين ما كان ينمو ويتكاثر لو كانت القضية منو الباكر ومنو لا، حتى الهواء اللي ينقل البزر من الذكر للأنثى مو كافي، لذلك أكو ضرورة لوجود صاعدي نخل، مثلنا، حتى نأخذ البزر بالقوة من الذكر ونعطيه للأنثى. هذا من جهة، ومن جهة الدِيَكة أبوح لك بسر وأرجوك احتفظي بيه، تعرفين بأي ساعة ينتصر فيها ديك على ديك ثاني؟ كلش بسيطة، لو دربناه أسبوع واحد بس وأقنعناه بأن الديك الثاني يريد يسرق حبيبته، زوجته منه. علينا بس أن نوصفها له، وما يهم، كلما وصفناها وأدخلنا برأسه بأن الديك الثاني يريد يسرق حبيبته منه، زوجته منه، شريكته، كلما زاد هياج الديك، ويروح يتبختر، يهز بذيله وعرفه. تعرفين ما عندي ديك خسر معركة؟ ما أريد أقول لك أكثر!».

من الغريب أنها لم تفهم ما قاله أسَيَدْ لوتي تهديداً لها، على العكس، فكما يحدث في الأفلام المصرية أو في الأفلام الهندية أو في الأفلام الأميركية، عندما تبدأ بطلة الفلم بالميل لبطل الفيلم الذي كانت تصده وتمقته حتى لحظات قريبة، بدأت معالي تفعل المثل. لكنها نسيت أمراً مهماً واحداً: أن أسَيَدْ لوتي لم يكن بطل فيلم لا في الواقع ولا في الطموحات. لم يشأ الرجل لعب ذلك الدور. حتى أنه أسلمها الدور في النهاية أن تقود إقتراح إفْطَيِّم بِّيْ دَي إلى ما تشاء. طبعاً ليس له اعتراض على الزواج منها. هي البنت الجميلة التي كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وهو الرجل الذي أكمل الأربعين من عمره - يعني أنه الآن في أوائل الخمسين، لا أصدق أن وجيهة تعيش معه!؟ - وهو رغم كل شيء ورغم كل ما حدث ويحدث متفائل من الزواج، ولا يطالبها بما يشكل

عبئاً عليها، ولتقرر هي شكل العلاقة معه، حتى أنه لا يجبرها لا على النوم معه ولا على الإحتفال بحفلة عرس كبيرة، رغم أنه يتمنى ذلك من كل قلبه.

ليس هو فقط، إنما هي الأخرى كانت تحلم بحفلة عرس كبيرة، تلبس فيها فستاناً أبيض فُصِّل على شكل قصة قلب، وأن تضع على رأسها أكليلاً من زهور الأكاسيا، وأن تلحق بها مجموعة من البنات الصغار، ثلاث بالضبط لا يتجاوز عمرهن الست سنوات، تعلمن النطق للتو، يرفعن ذيل فستانها، حتى منصة العرس، حيث يكون العريس في استقبالها يضحك، حينها تتحرك البنات الصغيرات بحركة خفيفة، ليصبحن حيث يقف العروسان، يرفعان هذه المرة صينية صغيرة غلفت بالحرير وطرزت حواشيها بالياقوت والعقيق لتخط إسمها وإسم العريس وتحت الإسمين ارتسم قلب وفي داخله سهم كتب بموازاته جملة لم تغادر أحلامها أبداً:

ـ إلى الأبد.

ولكن ذلك كان مجرد حلماً. لم يكن حلمها فقط. كان حلم أسيَدْ لوتي وإن كان على طريقته. في ذلك اليوم الذي التقيا فيه للمرة الأولى كان من الصعب عليهما فهم بعضهما. كان يوماً، شبيهاً بتلك الأيام التي يلتقي فيها وفدان سياسيان، أو يلتقي فيها رئيسا دولتين يريدان البقاء تحت «أربع عيون» كما يقال في الأخبار. بالضبط إتفقا معالي وأسيَدْ لوتي على الزواج ذلك اليوم دون إثارة ضجة، وأخبرا إفْطَيِّم بِّيْ دَي بقرارهما لتحضر لهما شيخاً ويعقدا قرانهما في فسحة البيت حيث الفسيلة المريضة. عملت إفْطَيِّم بِّيْ دَي اللازم: كان الشيخ الذي عقد قرانهما مصرياً، من أواخر المصريين الذين كانوا يصرون على البقاء في البلاد رغم عمليات الاغتيال التي بدأت حينها تجاه مواطنيه، أما الشاهدان فكانا: الدكتور ماجد وإفْطَيِّم بِّيْ دَي، رغم أنها هي التي قالت للشيخ ربما لا تصح شهادتها لأنها امرأة، فأجابها الشيخ:

ـ ومالو، دحنا شافعية يا مدام، وأنت زي ما أنا شايف تعادلي بألف راجل!

بالفعل كانت تعادل ألف رجل.

هكذا تزوجا بصمت، ودون صخب، بل حتى دون أن يناما مع بعض، فهي التي اشترطت عليه ألا يفعلا ذلك إلى حين قرارها هي. فوافق أسيَدْ لوتي ذاعناً، موافقاً على شرطها، حتى أنهما افترقا بالفعل، في ذلك النهار كما شاءت هي، ذهب هو إلى بيت، وذهبت هي إلى بيت إفْطَيِّم بِّيْ دَي الذي سيصبح منذ ذلك اليوم بيتها؛ إنسلا عن بعضهما مثل وفدين رسميين يعقدان معاهدة، الفارق الوحيد أن خبر معاهدتهما لم يأت

في نشرات الأخبار في اليوم الثاني، فإن الذي حملته الأخبار في اليوم الثاني ليس في القرنة، وليس في البصرة، وليس في البلاد، وليس في الشرق الأوسط، وليس في العالم الذي يسمونه بالعربي، إنما تناقلته كل وكالات العالم للأخبار وحملته كل نشرات الأخبار في العالم: تهديد الحاكم بغزو أحد جيرانه دون تسميته، تاركاً الباب مفتوحاً للتكهنات، أثناء زيارة له لبلدة القرنة وتسلمه السمكة النادرة، السمكة المعجزة: «سمكة الجصّانية من يد سمّاك شيخ» ـ هكذا في الأصل ـ إسمه أسيَدْ لوتي كما لفظته المذيعة العراقية الأصل خالدة حسين التي كانت تشتغل حينها في إذاعة الهيئة البريطانية، بلكنة ساكسفونية مصطنعة تستدعي الضحك.

ـ ١٤ ـ

ظل عدد البيوت التي تملكها إقْطَيْم بِّيْ دَي مجهولاً حتى للمقربين منها، ليس لأن البيوت توزعت على طول البلاد وعرضها فقط، إنما لأنها الأوامر التي فرضتها عليها أعلى قيادة في أركان الجيش، وخاصة في المدن التي لا تخلو من وجود ثكنات عسكرية وفي المدن المتاخمة لجبهات قتالية. ففي هذه المناطق بالذات، كان عليها بناء بيتين واحد للدعارة العلنية (أو من الأفضل القول شبه العلنية)، والثاني سري جداً لا يعرفه أحد إلا القيادات العليا جداً في الجيش. والقسم الثاني من البيوت، كان يستخدم غالباً كمكان سري لإدارة العمليات العسكرية، وإذا لم تستدعِ الضرورة، فإنها تبقى مجرد مكان إحتياطي تنتقل إليه القيادة العسكرية في الوقت الذي تشاء، لذلك شجعت الدولة إقْطَيْم بِّيْ دَي على بناء أكبر عدد ممكن من البيوت، عند المناطق الشمالية من الحدود، أو عند المناطق القريبة من حدود البلدان المحيطة بالبلاد. وإذا كانت البيوت الأولى بُنيت على الطراز الشعبي ولا تختلف في تفاصيل بنائها وتوزيع الغرف عن البيوت التقليدية، فإن هذه البيوت الثانية، البيوت السرية، بُنيت بطريقة تختلف عن البيوت الأولى، فعادة يجب أن تحوي على غرف عديدة لا تقل مساحة الواحدة منها عن مائة متر مربع، لا تبنى فيها أية شرفة، في وسطها صحن يجب أن لا تقل مساحته عن ألف متر مربع (لكي تستطيع طائرات الهيليكوبتر الهبوط فيه)، تنتشر في أطرافه أنواع الشجر المثمر، وتتوسطه بركة يتدفق منها الماء بغزارة فيمنح إنتعاشاً في أيام الصيف الحارة، وأن تكون مزودة بمكيفات هواء وبتدفئة مركزية، ومخزن للمؤونة يكفي لشهور طويلة. في الحقيقة يمكن تسمية تلك البيوت قصوراً، رغم أنها لم تحمل مظاهر القصور من الخارج، وهذا ما يوحي به جدارها الخارجي، لأنه مجرد جدار للتمويه، جدار مبني من الطابوق العادي، يرتفع عالياً، يحجب عن الذي يراه من الخارج، منظر الجدار الذي بني خلفه من الموزائيك والكاشي،

رغم أن لا أحد يستطيع التقرب من تلك البيوت، دون تصريح خاص أو بإذن رسمي، بالإضافة إلى أن كل هذه البيوت تقع على أطراف المدن، لا يمر بها إلا عابرون قليلون، أو الجنود الذين يلتحقون بوحداتهم. وهي - بغض النظر عن التمويه المصنوع لها - لا تثير ريبة أحد، حتى عندما يزورها كبار القادة العسكريين، لأنهم يأتون عادة مع حلول الظلام، ولا يرحلون منها إلا في جنح الظلام أيضاً، وبدونهم، يقطع التيار الكهربائي، مثلما تقطع بصورة منطقية أيضاً، الإتصالات السلكية واللاسلكية.

في الحقيقة لم تتم كل تلك الإجراءات بإرادة إفْطَيْم بَيّ دَي، فلو قيض للأمور أن تجري وفق تصورات المرأة، لكانت تتم كما اعتادت هي أن تفعل في بيوتها الأخرى، لكنها كانت مجبرة على تغيير الكثير من الأشياء، وهي لا تشكو لأحد، لم تَشْكُ لمعالي أبداً، إنما أرادت أن تجعلها على بينة مما يجري، وفي النهاية فإن معالي، ستعرف لوحدها خفايا المهنة وستطّلع على أسرار ما كانت ستعرفها، لو لم تثق المرأة فيها، وتريد إيراثها هذه المملكة. فصحيح أنها وعلى طوال كل هذه السنوات، عاشت أموراً متناقضة كثيرة، إبتداءً مما يجعل شعر الرأس يقف، وانتهاءً، بما يجعل الطفل يشيب، إلا أن ما حدث لها خلال العشر سنوات الأخيرة لم تفهمه بسهولة، وكان عليها أن تنتظر وتصبر سنوات، وتروض نفسها مع الوقت لكي تتكيف مع الوضع الجديد ومع متطلبات السوق العامة من جهة، ومتطلبات الدولة من جهة أخرى. فلفترة طويلة (وقبلها على طوال كل هذه العقود)، كانت تشعر بأنها هي، كقوادة محترفة وصاحبة باع طويل في هذا المجال، تجلس على عرش هذه المملكة، تملك الصولجان بيدها، وتقرر بحركة من إصبعها كما يحلو لها كل شيء، لكنها في السنوات الأخيرة فقط ومنذ تسلم هؤلاء للسلطة، بدأت تشعر أنها هي الآن «الدولة»، التي تجلس على عرش مملكتها، وأنها قيادة الجيش، هي التي تحكم بطرف الصولجان الذي في قبضتها، وهي مجرد وسيط، بين الدولة، الجيش، وبين قحباتها، ولا يمنحها العزاء أن تتذكر أن الدولة كان يحكمها الجيش دائماً، وأنهم كانوا دائماً زبائنها الأوائل، لأنها تعرف، أن في تلك الأزمان، كانت هي التي تملك زمام الأمور، وكانت سلطتها على بعض الوزراء وقادة الجيش قوية، وكان ممكن لها أن تكون سبب إنقلاب، لكنها ظلت مكتفية بعرش مملكتها، حتى جاء هؤلاء (أي نوع من البشر هم؟ أنها حتى لا تستطيع التحدث بلهجتهم أحياناً)، ليغيروا كل شيء، فمعهم راحت البلاد تصحو كل يوم على تغيير جديد، على فرمان غريب، وتدريجياً، راحت الدولة تملك زمام الأمور في كل مجالات الحياة، لكنها لم تتصور يوماً، أنهم سيدسون أنوفهم في أمور الدعارة، فعلى حد علمها، كان - ولحد وقت قريب - عمل الدعارة محصوراً بفئة صغيرة من الناس، يتجنب الجميع تدنيس أنفسهم به، وليس كما جرى في زمن

هذه الحكومة، فلم يعد سوق الدعارة سوقاً سائباً كما كان دائماً، تحكمه قوانينه ذاتها، إنما أصبح جزءاً من برامج الخطة الخمسية، يضع الاختصاصيون له الدراسات والإستراتيجيات. هكذا استيقظت يوماً في بداية سنوات السبعينيات، لتتلقى الأوامر بمغادرة بغداد (كانت تسكن مؤقتاً في منطقة المسبح آنذاك) والذهاب إلى أطراف البصرة، لتجد في انتظارها هناك، في مطار المعقل، مسؤول المنظمة الحزبي، الذي سيأخذها إلى مقر منظمة الحزب في ساحة أم البروم، ليتدارس معها الخطط والسبل الكفيلة بإنجاح مشروع تأسيس مدينة بإسم «حي الطرب»، وعندما تسأله عن الأسباب الداعية لذلك، يشرح لها المسؤول الحزبي، بأن القيادة الحكيمة، فكرت بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، ببناء مدينة بديلة لمدينة بيروت، لكي تكون منتجعاً ومدينة ملاهي لأشقائنا العرب من مواطني الخليج، مدينة يمكن أن تشبه إلى حد ما مدينة «لاس فيغاس»، لنقل «لاس فيغاس» العربية، مدينة نموذجية، فيها كل أنواع الترفيه واللعب. وعندما تسأله، لماذا وقع الإختيار عليها، يجيبها، لأن القيادة الحكيمة تدارست الموقف على أعلى المستويات، وكان إقتراح السيد نائب القائد العام للقوات المسلحة (تذكرت أنها أجهضت واحدة من عشيقاته) أن تكون هي، للموقع الذي هي فيه، فبالإضافة إلى تاريخها الوطني، لأنها - كما يدعي - كانت تحرض المشتغلات عندها على الإضراب عن ممارسة الجنس مع المستعمرين واليهود (لم تفعل ذلك يوماً)، وهي من أقدم القوّادات في الوطن العظيم، ولها تأثير كبير على كل زميلاتها في المهنة، طبعاً، لا ينكر أحد علاقتها الجيدة مع معظم الرفاق المسؤولين، وتقديمها الخدمات الجليلة لهم. وعندما سألته عن الواجب الذي عليها أن تقوم به، أخبرها، بأنه سيصطحبها إلى المكان الذي حددته القيادة، وسيتدارس معها هناك، كل تفاصيل الخطة المرسومة.

بالفعل سافرت معه ومع مرافقين آخرين، وعندما وصلوا مشارف منطقة المشتل، نزلوا من سيارة اللاند روفر التي أقلتهم، وأطلعها مسؤول منظمة الحزب في البصرة، على مساحة الأرض التي من المقرر أن تبنى فوقها المدينة، وقارنها مع الخرائط التي بين يديه. وفي طريق الرجوع، صارحها، بأن الواجب الذي ألقي على عاتقها ليس بسهل، لكنه مثل كل الواجبات الوطنية الأخرى، واجب مشرف، وعليها الآن تطبيقه، ولا يعتقد بأن طريقها سيكون شاقاً، فقد استوردت لها القيادة العشرات من الفنانات (هكذا سمى العاهرات!) القادمات من مصر، بالإضافة إلى ذلك، فسيضعون تحت تصرفها البنات الشابات من الكرديات المحجوزات عندهم بعد دخول الجيش لقُراهن، ولتطمئن فانها لن تبقى بعوز، وإذا شعرت بذلك، عليها فقط أن تزوره، وسيرتب ذلك في القيادة، للحصول لها على نساء جيدات، سواء عن طريق الإتفاقات مع البلدان العربية

الشقيقة، وخاصة مع الأخوة الفلسطينيين، أو عن طريق تسفير النساء الكرديات من قراهن إليها، أما ما يخص المشتغلات عندها الآن، ففي النهاية ستقتنع أغلبيتهن، بأن ليس هناك من جدوى في رفض أو ممانعة أو مماطلة البعض منهن، فأمر القيادة ملزم، ووافقت عليه أيضاً القوى السياسية الأخرى المنضوية تحت ظل «الجبهة الوطنية والقومية التقدمية»، والقرار واضح، فعلى قحبات منطقة ٥٢ ومنطقة الميدان في بغداد، وقحبات بصرة داخل في شارع بشّار، وعلى الكاولية (هكذا سمى الغجر) ترك الكمالية في بغداد، ومخيماتهم في سنجار، عليهم جميعاً الذهاب إلى المدينة الجديدة، إلى «حي الطرب»، وأمامهم مدة ثلاثة أشهر، لتهيئة أنفسهم والإنتقال إلى هناك، وستنتقل البيوت المتروكة إلى أياد أمينة، بيوت منطقة ٥٢ سيتم إسكان عوائل جيش التحرير الفلسطيني «الشقيق» القادمة من لبنان، وبيوت الميدان، ستبنى فوقها المكتبة الوطنية، وستلحق بها أقسام مديرية الإستخبارات الجديدة، أما بيوت شارع بشّار في البصرة، فستتحول إلى فنادق سياحية خاصة لتنظيم المهرجانات السنوية ولمبيت أشقائنا العرب، ضيوف هذه المهرجانات، فكثيراً ما كنا نحار مثلاً بإسكان وإرضاء ضيوفنا في مهرجان المربد مثلاً، وفي النتيجة كل واحد منا يخدم بلاده من خلال الموقع الذي هو فيه.

وبالفعل بُنيت المدينة، وظلت هي ـ بموافقة السلطات ـ محتفظة ببيتها في المسبح، بجانب السفارة الكويتية، تقوم بزيارات طويلة للحي، لكنها كانت تكتفي بإدارة الشغل في الحي، من بيتها عن طريق خط تلفوني مباشر مع مسؤول الأمن في «حي الطرب»، أو عن طريق الملحق الصحفي التابع للسفارة الكويتية، الذي كانت ترتب معه زيارة المسؤولين الكويتيين إلى هناك، وتحضير البنات الصغيرات الباكرات أو الشباب الصغار ـ الذين كانوا يفضلونهم غالباً على البنات! ـ بصورة خاصة، لهم.

سبع سنوات دام العمل في «حي الطرب»، حتى صحت إفْطَيْم بِّيْ دَي في شباط/ فبراير ١٩٧٩، على زيارة مسؤول منظمة الحزب في البصرة ذاته، ليطلب منها، المجيء معه للبصرة، ويخبرها، بأن القيادة الحكيمة ترتأي هذه المرة، ضرورة إتخاذ إحتياطات لازمة، فمن الممكن بعد الإنقلاب الذي حدث في البلد المجاور، أن تنوش التحرشات «حي الطرب»، لذلك تقترح عليها القيادة بناء بيوت تتوزع على مناطق مختلفة من البلاد، تتوافق مع حاجة البلاد الماسة لها هناك، وتنسجم مع الخطط التي رسمتها القيادة، والمطلوب منها أن تهيء نفسها في غضون سنة أو أكثر بقليل، لتستطيع نقل كل المشتغلات عندها إلى تلك الأماكن، وعليها أيضا أن تقدم جرداً بعدد القحبات، بعد أن زودوها بقوائم خاصة لهذا الغرض عليهن ملأها بصدق وأمانة. وعندما سألته عن ملكية الأراضي والرأسمال الكافي لبنائها، قال لها، لا داعي للتفكير بملكية الأرض، فليس

هناك في كل الأحوال قانوناً ملزماً يحدد ملكية الأراضي، ومجرد إعجابها بقطعة أرض يكفي، وهم سيوافقون عليها، إذا وجدوها تتطابق مع الخطة المرسومة، أما من ناحية الرأسمال اللازم، فليست هناك مشكلة، ستقرضها الدولة كل ما تحتاجه، وسيتم تسديد النفقات، بالمناصفة، نصف الأرباح تذهب للدولة، والنصف الآخر يكون من حصتها ومن حصة المشتغلات، فودعته وهي تأخذ معها الإستمارات المتعلقة بجرد المشتغلات، قال لها، بأن من الضروري أن ترسلها له في أقرب وقت.

وفي ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، عندما اندلعت الحرب الأولى، كانت إِفْطَيِّم بِّيْ دَي قد رتبت كل شيء، حتى أنها في يوم نشوب الحرب الأولى، وبالرغم من خطورة الطريق بين «حي الطرب» والبصرة، وتشديد قصف طائرات الفريقين المُركّز، زارت مسؤول منظمة الحزب في البصرة، الذي استقبلها في مكتبه، وسط صوت المارشات العسكرية التي كانت تصدح في المكان، ورغم انشغاله ورده على التلفونات، قال لها، بأنه ليس لديه الوقت الكثير، وأخرج لها من جرارة طاولته إستمارات الجرد ذاتها التي أرسلتها له منذ شهر بعد لقائها الأول معه، ومعها مجموعة أخرى من الأوراق، وقال لها، إقرأي الأوراق جيداً، كل شيء واضح فيها، يجب تفريغ «حي الطرب» بأقرب وقت، لأنه سيصبح منطقة عمليات عسكرية، أرادت أن تقول له، لماذا، فإن الحي يحد الكويت، والكويت لم تدخل الحرب، بالإضافة إلى أن معظم زبائنها هم من الكويتيين!، فقال لها، إنه يعرف بماذا تفكر، وتلك هي أوامر القيادة الحكيمة، وليس عنده الوقت الكافي للمناقشة، إذا لم يكن من المستحيل مناقشة أي شيء.

هكذا خرجت منه ذلك اليوم، وعليها أن تنفذ أمرين، الأول، هو التعجيل بتفريغ «حي الطرب»، فليس من السهل هذه المرة إقناع بعضهن، وخاصة المصريات منهن، بأن الشغل في المستقبل سيكون مربحاً ولن يختلف عن الوضع السابق، بعد أن تعودن على التعامل مع كل أولئك القادمين من الخليج، ومن الكويت بصورة خاصة، لكنها تفاجأت بموافقة أغلبيتهن على الإنتقال، فكما قال بعضهن، بأنهن سئمن العيش قرب الصحراء، رغم الربح الذي يحصلن عليه، أما بالنسبة للغجر، فكان الأمر أسهل، لأن أي إنتقال هو أمر بديهي بالنسبة لهم، وبالفعل كانت إِفْطَيِّم بِّيْ دَي قد انتقلت بوقت قصير، لو لم يحصل ما يشبه «الحرب في حي الطرب»، تلك المواجهة التي جرت بين ثلاثة جنود هاربين وشيخ عجوز وموسيقي عازف عود وبين قوات الحرس الجمهوري، التي طوقت الحي لأيام طويلة، وكأنهم فتحوا جبهة حرب هناك. الأمر الثاني، وهو الأصعب، فإن ليس من السهل عليها إقناع بعض القحبات بالتسعيرات الرسمية التي قررتها القيادة العامة للقوات المسلحة. هي نفسها لم تقتنع، فكيف تستطيع إقناعهن بصواب القرار. وهي

عندما تفحصت الأسعار المثبتة فوق قائمة جردهن، لم تفهم المعايير التي وضعت على أساسها الأسعار، إذ ليس هناك سبباً أو ترتيباً منطقياً يمكنها الإستناد إليه، وقد اختلط فيه كل شيء، وإلا كيف يتساوى سعر واحدة عمرها ثلاثون سنة مع واحدة عمرها ٢٠ سنة، وكيف يتساوى سعر الغجرية مع سعر واحدة من منطقة ساحة الميدان، بل كيف يكون سعر قحبة من شارع بشار أغلى من سعر قحبة قادمة من العاصمة من منطقة ٥٢، ولدهشتها لم ترتب الأسعار على أساس المدينة أو القومية أو العمر أو اللون، أو تاريخ مزاولة المهنة، إنما رتبت بصورة تقترب من الفوضى، رغم أن ظاهر الأمر بدا، أن السعر يعتمد قبل كل شيء على نوعية الخدمات التي تقدمها كل واحدة منهن.

لم يبق أمامها غير أن تجمع القحبات في ساحة كبيرة خلف سوق «حي الطرب»، وتصارحهن بحقيقة الأمر، وأن هناك هذه المرة لكل واحدة منهن، قائمة مكتوب فيها تسعيرتها، والمكان الذي ستتوجه إليه، وستأتي بعد أيام باصات عسكرية خاصة، ستنقلهن إلى أماكن سكنهن وعملهن الجديدة، وليس عليهن القلق، فهي كمسؤولة عنهن، عليها أن تنفذ الأمر أولاً، وستناقش موضوع قائمة الأسعار في أول زيارة لها مع وزير الدفاع ذاته.

ـ ١٥ ـ

قبل ما يقارب السنتين، وفي الاستعراض الكبير (سآتي على ذلك لاحقاً بالتفصيل) الذي أقيم عند شجرة آدم، في مدينة القرنة، بمناسبة عيد ميلاد الحاكم الخمسين ومرور عشر سنوات على إستلامه دفة القيادة ومرور سنة على انتصار البلاد في حربها الأولى، لفت نظري، الإسم الذي خط بخط عريض على سيارة القمامة: «حاوية المخلفات الصلبة المحلية»، ولو لم أعرف سيارة القمامة الوحيدة في المدينة من لونها، لتصورت أنها سيارة جديدة في المدينة، ولكني عرفت ذلك اليوم، أن تغيير الأسماء شمل حتى القمامة. وأنني ربما ارتكبت خطأً فاحشاً مع نفسي، عندما كنت أتأمل لأيام طويلة ـ وقتما تركتني وجيهة في المرة الأولى ـ صندوق القمامة، أو كيس القمامة، وربما اختلف الأمر معي، لو تأملت «حاوية المخلفات الصلبة المحلية»، رغم أن الأمر يتعلق ببيتي، أو بصندوق صغير، وليس كما هو الحال مع صندوق السيارة الضخم. على أية حال، ذلك اليوم، ورغم الخوف والإضطراب اللذين سيطرا عليّ طوال ساعات الاستعراض، لأنني وبمساعدة مفوض الأمن شاهين نزّال، فُرض عليّ الإشتراك في الجزء الأساسي المتعلق بالاستعراض، إلا أنني وجدت الوقت الكافي للتفكير بهذا الإسم الجديد، وربما فعلت ذلك عمداً لتصريف أفكاري باتجاه آخر، بسبب القلق والخوف المذكورين اللذين سيطرا

عليّ أثناء الاستعراض، والفضل يعود لمخترعي الإسم. ولكن بعيداً عن تفاصيل الاستعراض وما جرى فيها، حلّقت أفكاري إلى ما تريد. فكرت، عجيب هو أمر هذه البلاد، أنهم بارعون في تغيير كل شيء ومحو ذاكرة الناس، بكل ما يشتركون فيه بصورة عامة، أو بكل ما يتعلق بذاكرتهم الشخصية، فحتى المدن التي وُلدوا فيها تغيرت أسماؤها، فبدل العمارة راح الناس يسمعون ميسان، وبدل الناصرية، عليهم أن يقولوا ذي قار، وبدل الديوانية، يقولون القادسية، وبدل السماوة، راحوا يسمعون المثنى، إنه نوع من تثبيت ذاكرة جديدة. ولأن البلاد تعيش الإنجازات الكثيرة، وعلى الكثير من المسؤولين إفتتاحها، فليس من المعقول أن يفتتح أحد القياديين في الدولة، «مُقَلّب الزبالة»، لأن الإسم لا يمنح الأهمية التي يمنحها إسم «حاوية مخلفات الفضلات الصلبة»، بغض النظر عن ذلك، فإن «صندوق القمامة» يثير على المستوى الشخصي الإشمئزاز، فهو يستدعي في الذاكرة فوراً رائحة كريهة، أبخرة خانقة، وصوراً لفئران تتقافز، ولشحاذين يبحثون عن قوتهم هناك، وعلى المستوى العام، فإن «القمامة» هي منظر مألوف في بلدان العالم الثالث، ولا يتطابق مع الصورة التي تحاول البلاد منذ سنوات صنعها عن نفسها. وعلى مدى العشرين سنة الماضية، ومنذ مجيء الحاكم، ودعوته لتجديد البلاد وإخراجها من ظلمات الماضي، تشكلت لجان عديدة، على طول البلاد وعرضها، لإعادة كتابة كل شيء، وفي هذه اللجان (التي كان يوقع على تشكيلة أسمائها الحاكم أو نائبه وزير الدفاع، رغم أن من المعتاد أن يكون الحاكم هو أيضاً وزير الدفاع) تجلس فحول العقليات الوطنية المشرفة على مناهج التربية في البلاد، فبالتالي ـ كما قال الحاكم نفسه في إحدى المناسبات ـ إن وراء كل إسم جديد تختفي فلسفتنا التربوية «في خلق الإنسان العربي الجديد». وهي هذه العقول، وليس غيرها، التي صنعت في البلاد جيلين ـ حتى الآن ـ خاضعين لذاكرة جديدة، لا يعرفان حتى أسماء المدن التي وُلِد فيها آباؤهم، ولم يبق الأمر في حدود المدن تلك، إنما طال كل شيء، من أسماء الدوائر الرسمية، ليصل في النهاية إلى إسم البلاد ذاتها، الذي لم يغير إسمها فقط، إنما ذُكِّرَت بعد أن كان جنسها مؤنثاً. هكذا سمي البورديل الذي أدارته حسيبة، إحدى زميلات إفْطَيْم بَيْ دَي، في «مكان اسمه كميت»، بـ «مديرية الترتيبات العام»، ربما لأن العقول التي تدير الأمور في البلاد لم تستقر آنذاك على تسميات جديدة، أو لأن قوائم أسماء الأماكن الجديدة ما زالت تقبع على طاولة الحاكم، تنتظر توقيع سيادته، حالها مثل حال كل الأوراق الأخرى، فقط ما يوقعه الحاكم يصبح ساري المفعول، ويتحول إلى قانون. لذلك فإن ما جرى لصناديق القمامة، في تحولها إلى حاويات، جرى بوقت أسرع، من ذلك الذي استغرقه تحول بيوت الدعارة. ومثلما دُهِشتُ، في يوم الاستعراض، عندما رأيتُ الإسم الجديد الذي كُتب بخط عريض على سيارة القمامة، ذُهِلت إفْطَيْم بَيْ دَي،

عندما سلّمها المرافق الأول لوزير الدفاع، الأوامر المتعلقة بالتسمية القانونية الجديدة للبيوت التي تديرها: «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة».

حدث ذلك على هامش الحفل الأول (قبل الاستعراض الكبير) الذي أقيم في القرنة، عند شجرة آدم، والذي حضرته إفْطَيِّم پِّيْ دَي كمدعوة. ففي ذلك اليوم لم تناقش إفطَيِّم پّيْ دَي مع الوزير موضوعة التسعيرة التي ثبتتها السلطات لكل قحبة، لا لأن الرجل لم يكن عنده الوقت الكافي لمناقشة هذه القضية، أو لأنها نسيت قضية التسعيرة، إنما لأن إفْطَيِّم پّيْ دَي ذاتها وليس غيرها، من اقتنع بصواب التسعيرة التي ثبتتها قيادة أركان الجيش، ففي النهاية، عرفت أن ليس المهم جمال القحبة أو عمرها أو نشأتها، إنما المهم هي الخدمات التي تقدمها. لذلك راحت بدل ذلك، وبينما كان الجميع يترقب ظهور أسيَدْ لوتي، وخروجه من ماء شط العرب، وفي يده السمكة الجصّانية، تناقش الوزير بكل ما يتعلق بالترتيبات اللازمة الجديدة التي ترتأيها قيادة الجيش، فهي - كما أعلمت الوزير - قد انتهت من اختيار مجموعة من الأماكن التي تصلح لـ «بيوت الترتيبات العامة»، فصحّح لها الوزير جملتها «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، ونظر إلى مرافقه، وأمره بتسليم القرار الجديد الصادر من قيادة القوات المسلحة، «تجدين كل ما يتعلق بالأمور التنظيمية والإدارية الخاصة بالبيوت». قال لها الوزير، ولم يجد الوقت الإضافي لإضافة بعض التعليقات لما قاله، فقد خرج حينها أسيَدْ لوتي وفي يده السمكة الجصّانية.

عندما رأت إفْطَيِّم پّيْ دَي الاسم الذي كتب على صدر الورقة الأولى، التي هي واحدة من حزمة من الأوراق، احتوت على التعليمات الخاصة بهذه البيوت، ضحكت، وعبَّرت لوزير الدفاع، عن إعجابها بالخيال الذي يملكه رجاله، فهز الوزير رأسه منتشياً، وقال لها، بأنه سيبلغ اللجنة الخاصة بتنظيم أمور «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، مديحها.

كالعادة، لم يستغرق ذهولها الوقت الطويل، فهي وبحكم تجربتها كقوادة، طوال هذه الأعوام، عندما أدركت للمرة الأولى في حياتها، بأنها تتعامل مع ناس يختلفون تماماً عن الذين سبقوهم، وبالتالي لا تهم التسمية التي يطلقونها على بيوت الدعارة، فالدعارة تبقى دعارة، وإذا فكرت في الأمر جيداً، فربما سيمنحها الاسم الجديد فرصة بالتصرف أفضل من العمل تحت الإسم القديم، فإسم مثل «مديرية الترتيبات العامة» لا يثير عند الزبائن إلا الخوف، رغم أنها نفسها لم تبلغ بذلك شخصياً، سوى في بغداد، حيث في العادة لم يكن هناك اسم معين للبيوت، لأن كل بيت هو جزء من المنطقة التي فيها، هكذا سميت بيوت منطقة ٥٢، مثلاً، أو بيوت ساحة الميدان (رغم أن في حالات

إستثنائية، كان يطلق على بعض البيوت في ساحة الميدان، بيوت شريفة، بسبب علاقة أحد الضباط الكبار بالبيت أو تردده عليه، أو إقامته فيه)، إنما سمعت من بعض زميلاتها، وخاصة من حسيبة (قوادة تأتي في المرتبة الثانية بعد إفْطَيْم پَيْ دَي)، التي حدثتها عن خوف الكثير من الرجال في «مكان اسمه كميت» من الإقتراب من البيت الذي كانت تديره هناك، إما لغموض الإسم الذي كتب على قطعة خشبية عُلقت فوق بابه، وإما لأنه يذكرهم ببنايات كثيرة أخرى حملت الأسم ذاته في المدن الكبرى أو في العاصمة بغداد، والتي كشفت عن نفسها تباعاً، بأنها كانت تابعة لأجهزة سرية، لا يُعرف ما تقوم به (في العاصمة حدث ذلك الكشف وبقوة، بعد بضعة مرات من القصف الذي تعرضت له تلك البنايات، أما في المحافظات فحدث ذلك بعد أحداث آذار/مارس ١٩٩١). وكان على الكثير من الرجال في «مكان اسمه كميت» أن ينتظروا اندلاع الحريق المشهور الذي شب في دوشة الطيور والبساتين المجاورة لمدينة كميت وجاء على القسم الكبير من المدينة، وحرق ضمن ما حرق البيت الذي عُلقت على واجهته قطعة كبيرة كتب عليها: «مديرية الترتيبات العامة»، ليكتشفوا كم أنهم أخطأوا بما ذهبوا إليه، وحسدوا القلة القليلة منهم التي غامرت في الدخول للبيت، رغم الاسم الرسمي الذي أطلق عليه. لهذا لم تجد إفْطَيْم پَيْ دَي صعوبة بتلقين الاسم الجديد لحسيبة، التي منذ أن جاءت إلى «حي الطرب» وهي تشتغل عندها (رغم أنها لا تثق بها كثيراً)، على عكس ما وجدته عند المشتغلات الباقيات، وخاصة أولات القادمات من بلدان أخرى ويحملن جنسيات أخرى (من مصر وفلسطين وتايلاند بصورة خاصة)، والكرديات اللواتي واظبت المصفحات العسكرية التابعة لمديرية الإعاشة في الجيش على تحميلهن (بعد خطف وحدات قوات الحرس الجمهوري لهنّ)، طوال سنوات الحرب الثمان عند أول جمعة من بداية كل شهر (خمسون مصفحة عسكرية، وفي كل واحدة منها ٥٠ بنتاً، بعضهن تحت سن الرشد).

بالإضافة للإسم الجديد، كان على النساء التكيف مع الأوامر التي صدرت من القيادة العامة للقوات المسلحة، والتي تضمنتها القائمة، من أجل المحافظة على استقرار السوق وعدم التلاعب بالأسعار، ومن أجل تطوير العمل في البيوت المحافظة على أمنها وسمعتها، ولكي لا تتحول إلى مرتع للأعمال التخريبية، وجبت المراقبة الدائمة لكل بيت منها، على أن يقوم بذلك الواجب مسؤول أمني يكون بمثابة الإستعلامات تتناسب رتبته مع الأسعار الخدمية ومع نوعية الخدمات التي يقدمها البيت، ومع نوعية البيت، فالبيوت السرية، يقوم بحراستها ضباط من فرق الحماية أو فرق الحرس الجمهوري، ويجب ألا تقل رتبهم عن رتبة ملازم أول، أما البيوت الأخرى، التي تقدم خدماتها للشعب ولأفراد

القوات المسلحة، فيكفي أن يجلس عند غرفة الإستعلامات فيها مفوض أمن، شريطة أن يكون من سكان المدينة ذاتها. ولأن معظم أفراد قوات الأمن في القرنة كانوا من مناطق البلاد التي يطلق عليها بـ «الغربية»، فقد صدر أمر بنقل مفوض أمن، يدعى، مفوض الأمن شاهين نزّال، من مديرية أمن بغداد إلى مديرية أمن القرنة، لأنه من سكان المدينة الأصليين، (رغم انتقال أهله جميعاً إلى بغداد، في حي الأمين)، والذي طلب من إفْطَيْم بِّيْ دَي أن تسمح له بالنوم في أحد البيوت، فسمحت له، وأبلغته بأن عليه ألا يتحرش ذات يوم بإحدى المشتغلات هناك، فمن غير المسموح لحراس البيوت الدخول بعلاقة مهما كان نوعها مع واحدة منهن (تلك هي الأوامر)، وثانياً عليه إما أن يغسل فمه في اليوم مرة على الأقل بمعجون الأسنان، أو يمتنع عن أكل البصل والثوم بكثرة، لأنه يجلب أضراراً كثيرة للعمل ويبعد الزبائن عن التقرب للبيت الذي يحرسه، فما أن يقترب المرء منه، حتى تهجم عليه رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة.

في الحقيقة لم تشعر هي برائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة التي تنبعث من فم شاهين نزّال، إنما هي معالي التي شمّت ذلك، ولم تستطع في تلك اللحظة كتم أنفاسها، وغلق أنفها بإصبعيها، والضغط على الرغبة القوية بالتقيؤ التي سببها له، حتى أنها لم تستطع أن تقول له شيئاً، إنما أشارت له بيدها الثانية أن يقف وينتظر عند الباب، وهرولت إلى داخل الدار لتبلغ إفْطَيْم بِّيْ دَي بقدومه، لكنها عندما أرادت التلفظ بإسمه، لم تستطع كبح جماحها، فتقيأت مباشرة، أمام أقدام إفْطَيْم بِّيْ دَي، التي نهضت مذعورة بعض الشيء، عندما سقط على أطراف أقدامها جزء من القيء فلم تجد غير التعليق:

- إذن أنت هذه المرة حامل.

لم تشأ معالي تصديق ما تقوله إفْطَيْم بِّيْ دَي، والذي تكرره عليها منذ شهرين. هزت معالي رأسها نافية. وانتظرت قليلاً حتى تسترجع أنفاسها.

- لم أتحمل رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة.

قالت تلك الجملة وهي تشير باتجاه الباب.

- ١٦ -

ليس هناك أكثر إمتاعاً من السباحة في الأيام الحارة، وخاصة في الجنوب، فمن الممكن أن يبقى المرء ساعات طويلة تحت الماء، وفي مثل تلك الأيام، وعندما يشعر المرء بأن نار «جهنم» تبدأ بالإقتراب من الأرض، فإنه يعرف بأن كل صلوات معابد العالم

جميعاً لن تنقذه، إنما عليه الإسراع فقط بالقفز إلى أقرب حوض للماء، أو الوقوف حتى الأبد تحت رشاش الماء، وهو يلقي من ثقوبه الصغيرة، تلك القطرات التي لها إيقاع يختلف عنه في الأيام العادية. وفي هذه الأيام بالذات يكف الماء أن يكون عديم الطعم واللون والرائحة (كما يحلو لهم تعليمنا في المدارس)، ويكتسب طعماً ولوناً ورائحة خاصة. وهناك الكثير من الناس يتحولون في أيام الصيف في سلوكهم مثل الأطفال، ومثلهم لا يجدون غضاضة في السبح وسط البيت، إلى جانب الحنفية، ولا يهمهم إن كان أحد ينظر إليهم، فهم مطمئنون بأنهم مثل ذلك الذي يعاينهم، لا يكسرون محرماً، إنما يمارسون طقساً مألوفاً للجميع. وهذا يحدث في معظم بيوت الجنوب، حتى في وسط تلك العائلات التي تدَّعي بكونها محافظة، فهي لا تستطيع منع بناتها أو أولادها من التراشق بالماء عبر حنفية الماء، وإذا لم يواجهوا صعوبة كبيرة في منع البنات من ممارسة هذا الطقس، فإنهم سيواجهون بالتأكيد صعوبة في إقناع أولادهم بعدم اللعب بخراطيم المياه في ساعات النهار. ومهما تكن درجة التسامح في البيوت، فمن النادر أن يخلع أحدهم ملابسه (وأقله أن تخلع إحدى البنات ملابسها)، بل يبقون بملابس البيت. ولكن بعض الملابس لا تحتاج الخلع، فإذا تبللت بالماء، التصقت بالجسم، ولشفافيتها يستطيع المرء رؤية كل ما لا يسمح برؤيته عادة، وطبعاً الحديث هنا يتعلق بالنساء، أكثر منه بالرجال، ولكن من النادر أن تفعل النساء ذلك بصورة متعمدة، لأن الحرارة التي تصيب الجنوب في الصيف، وخاصة في شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس، لا تترك للمرء المجال للتفكير، إنها تشل العقل بالأبخرة الرطبة التي تطلقها، ولا يفكر المرء حينها إلا بالماء. وهذا ما تفعله معالي في الأيام الحارة عادة. لكنها لم تعرف ذلك اليوم أن هناك من يتلصص عليها من خلف الباب، وأنه كان ينتظر منها الإنتهاء من طقسها، مستغلاً صمت القيلولة الذي سيطر على المكان، بعد نوم إفْطَيْم يَيْ دَي في غرفتها.

وقفت، وفي يدها خرطوم المياه، تصب الماء على رأسها وهي مغمضة العينين، وربما استمرت في وقفتها دهراً، لو لم تشعر بيدين تطوقان خصرها، وبأنفاس تلهث عند رقبتها، تلفحها بحرارة لاهبة رغم برودة الماء التي ما زالت تسيل بقاياه فوق رقبتها، لأنها وكرد فعل للمفاجأة، مالت وبيدها خرطوم الماء، وانتظرت أن يمر كل الماء الذي سكبته فوق رأسها، لكي تفتح عينيها وترى اليدين اللتين طوقتاها والأنفاس التي حرقت رقبتها، والتي كانت بالتأكيد أنفاس رجل، فليس من المعقول، أن تكون أنفاس إفْطَيْم يَيْ دَي، لأنها لم تمزح معها أبداً بهذا الشكل، رغم علمها، بأن ليس هناك غيرها وغير إفْطَيْم يَيْ دَي في البيت في تلك الظهيرة اللاهبة من شهر آب/أغسطس. ربما فكرت بكل ذلك في ثانية واحدة أو ثانيتين أو ثلاث، ولكن مهما يكن عدد الثواني التي مرت،

فإنها وبصورة مفاجئة، عرفت صاحب اليدين اللتين طوقتاها وصاحب تلك الأنفاس الحارقة، إذ ما أن توقف سقوط الماء من رأسها، وما أن رمت خرطوم الماء من يدها، حتى هجمت عليها، رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، حينها، لم تحتج لدفع مفوض الأمن شاهين نزّال بعيداً عنها وتدافع عن نفسها، إنما دفعت باتجاه وجهه كل ما تجمع عندها من قيء، ليبتعد عنها مذعوراً، وربما لولا صياحه واضطرابه وصراخه هو، لما استيقظت إفْطَيِّم بَيْ دَي، التي لم تخرج عن طورها فقط، إنما سحبت عثقاً من بقايا الفسيلة المريضة التي اقتلعها لها قبل سنوات أسيَدْ لوتي، لتضربه به. وأخبرته في اليوم نفسه، بأن الأوامر العسكرية واضحة، وبأنه سيعاقب لتحرشه بمعالي، فتوسل بها، ألا تبلغ المسؤولين عنه، وسيفعل ما تأمره هي به. فقالت له، إنها ستنقله إلى بيت آخر. ففعلت.

لم تنتبه إفْطَيِّم بَيْ دَي لمعالي، إلا بعد خروج مفوض الأمن شاهين نزّال. ذعرت عندما رأتها ما تزال فوق الأرض، ملابسها ملطخة بالقيء، فانحنت عليها، حملتها إلى إحدى الغرف وضعت تحتها شرشفاً، وقالت لها مرة أخرى:

ـ أنت حامل هذه المرة، قلت لك.

إبتسمت معالي، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقول لها إفْطَيِّم بَيْ دَي بأنها حامل، رغم معرفتها بأنها هذه المرة، ولكن هذه المرة فقط، بأن المرأة على حق.

ـ أكلت زيادة على اللزوم، لا تقلقي.

فسألتها إفْطَيِّم بَيْ دَي إذا كانت تحتاج أن تسخن لها النومي بصرة أو شاي النعناع، فطلبت منها معالي ألا تزعج نفسها، ويكفي أن تنام بعض الوقت.

حدث ذلك في أحد أيام الصيف القائظة، في شهر آب/أغسطس، وبعد مرور أربع سنوات وأسبوعين على زواجها من أسيَدْ لوتي، وبعد مرور ثلاث سنوات على حادثة القيء الأولى. في تلك الظهيرة كانت تعرف بأنها حامل، وللمرة الأولى بعد آخر إجهاض لها، وليست كما نفت هي أمام إفْطَيِّم بَيْ دَي، رغم أنها مهما أنكرت حملها، فإن إفْطَيِّم بَيْ دَي بالتأكيد لن تقتنع بما تقوله، كما تعرف جيداً، امرأة خبيرة، ولا ينفع أمامها التكتم، إنها ستعرف بالقضية عاجلاً أم آجلاً.

وإذا لم يصدق ظنها في المرات السابقة، فلأن إفْطَيِّم بَيْ دَي بالغت كثيراً في ظنونها، هي لم تضع أية مناسبة صغيرة أو كبيرة، إلا وعبرت لها عن رغبتها أكثر من مرة برؤية «حفيدة» لها، نعم حفيدة، لأن الأمر انتهى بالنسبة إليها، منذ أن رأتها في [illegible]، وهي ترى فيها ابنتها، والآن بعد هذه السنوات الأربع من العِشْرة الحميمة

بين الإثنتين، فإنها تنتظر منها فقط رؤية حفيدة، لكن معالي، صاحبة الرأس العنيد، لا ترغب بالحمل. وعندما تسألها لماذا، تجيبها، إنها لا تريد وكفى. وكلما باحت إفْطَيْم يِّيْ دَي لها برغبتها، كلما ازدادت معالي عناداً، حتى هددتها إفْطَيْم يِّيْ دَي بقطع أقراص منع الحمل عنها، فأجابتها معالي، لا ضير، فإنها ستجد الوسيلة التي تحصل فيها على الحبوب. وعندما عرفت إفْطَيْم يِّيْ دَي بأن الإلحاح والتصلب مع معالي لا يؤديان إلى الهدف الذي تريده، فكرت أن تتعامل معها بلين، وراحت تجلب لها علب أقراص منع الحمل، بل راحت هي التي تذكرها كل يوم، بمواعيد أخذها للأقراص، ولم تفهم أسباب عدم اكتراث معالي، بل أنها لا تواظب على أخذ الأقراص منها، كما كانت العادة سابقاً، كانت تعتقد بأنها ما زالت غاضبة منها، لم تعرف، أن معالي كانت تحصل في بادىء الأمر على الأقراص عن طريق مفوض الأمن شاهين نزّال، الذي كان يبيعها أحياناً بسعر عال، والذي لم يبحْ لها في البداية عن المصدر الذي يزوده بها. في الحقيقة لا يمكن إطلاق إسم أقراص عليها، فإنها ليست لها علاقة بالأقراص التقليدية مطلقاً، ومن الأفضل تسميتها بالحبوب، فهي لا تُبلع، إنما توضع في مجرى المهبل، وتفعل مفعولها بالتأكيد على أساس تفاعل القاعدي (الحيامن) مع الحامضي (الحبوب)، كانت صغيرة الحجم بحجم النملة، وكما يبدو كانت تُصنع باليد وبكميات كبيرة، من مواد نباتية يتم خلطها، فيها رائحة الزعتر والعفص والليمون اليابس، ولولا تلك الرائحة لما تحملت معالي رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة التي يبعثها فم مفوض الأمن شاهين نزّال، كلما جلب لها كمية من الحبوب في كيس نايلون صغير. ربما حارت إفْطَيْم يِّيْ دَي فترة طويلة، في تفسير سلوك معالي، أو ربما أخذت بها الشكوك إلى أفكار أخرى، لو لم تعثر على الكيس ذات يوم بالصدفة، بينما كانت تفتش عن السجائر في حقيبة معالي. وعندما عرفت عن طريق معالي، بأن مفوض الأمن شاهين نزّال، هو الذي يبيعها ليس إلى معالي فقط، إنما إلى نساء أخريات في مدينة القرنة، أخبرته، بأنه مجرد حارس لا غير، ومن غير المسموح له بيع العقاقير الطبية، وأنها إذا ضبطته يقوم ببيعها ذات يوم ما، فإنها ستكون مضطرة للإبلاغ عنه، إذ هي في النهاية وحدها، ليس غيرها، هي إفْطَيْم يِّيْ دَي المسموح لها ببيع حبوب منع الحمل.

حدث ذلك قبل حادثة التحرش بمعالي، وقبل أن تعرف معالي شخصياً المصدر الذي يموّله بالحبوب، بعد تعرفها بالصدفة على البنت مَلَك وأخيها ربيع، العليل، في عيادة مثال الآلوسي، إبنة كوكة في الأعظمية، عندما ذهبت لتجهض هناك، لأنه لم يوافق في بادىء الأمر، واضطرت معالي تحمل رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة التي لم يتوقف فمه من بعثها يوماً (يبدو أنه من المصرّين والمتعصبين لأكل

الثوم والبصل)، حتى أقنعته بأن يبوح لها بالسر. ولم يوافق في الأخير، إلا عندما أخبرته بأنها تعرف أحداً يبيع ذلك في بغداد، ومن الأفضل لهما أن يتفقا لكي يتقاسما بيع الحبوب معه، فصدّقها، وأخبرها بأنه قبل سنوات، تعرف في بغداد على مقاول يطلقون عليه «صهيوني»، وانعقدت بينهما صداقة، لا داعي للدخول في تفاصيلها الآن، وأنه منذ ذلك الوقت يجلب له الحبوب، كلما سافر إلى بغداد، في المقهى التي يجلسون فيها، وهم يتقاسمون أرباح بيعها بالمناصفة. وعندما سألته، لكن من أين يحصل عليها «صهيوني» هذا، أجابها، أنه لا يعرف بالضبط، لكنه يعتقد بأن الرجل يسافر بشكل دوري للنجف أو إلى مكان قريب منه، ويجلب الحبوب من هناك، من امرأة، يعتقد أن اسمها: «عسلة لاوي».

- ١٧ -

عسلة لاوي، كان اسم المرأة. وهو الاسم ذاته، الذي سمعته معالي من الكثيرين، وحتى من إفْطَيْم بَيْ دَي نفسها، لكن اسم الرجل لم يكن الاسم نفسه، فهي لم تسمع حتى اليوم بإسم «صهيوني»، (الذي هو بالتأكيد ليس اسمه الحقيقي)، إنما الاسم الذي سمعته هو اسم «محمد طالب حمودي»، وربما يحمل الرجل إسمين، أو ثلاثة أو أكثر، فليس من الغريب أن كل أولئك الذين يزاولون تجارة سرية، أو مهنة سرية، يحرصون على إعطاء أسماء غير أسمائهم، مثلهم مثل المنخرطين في الأحزاب السياسية السرية، أو في المنظمات المسلحة السرية، الفلسطينية مثلاً، ولقد سمعت بحكم عملي كمترجم أسماء عجيبة لشخصيات كبار ضمن الوفود الرسمية التي واظبت على المشاركة في كل الأعياد الرسمية، وكانت أصعب الترجمات لي (لوجيهة أيضاً)، هي ترجمة تلك الأسماء إلى لغات أخرى، فلأن الأجانب تعودوا على طقوس أسمائنا وأن لكل واحد منها معنى، لم يكفوا عن التساؤل مباشرة بعد سماعهم لأحد الأسماء أن يسألوا عن معناه، وإذا كان الأسبان والأميركان اللاتينيين لا يستغربون كثيراً لمعنى بعض الأسماء، فإن من الصعب جداً إقناع الألمان بأسماء مثل: أبو الهول، أبو العباس، أبو الخوف، أبو التنين، أبو خنزير، أبو الأعمار، أبو الجهاد، أبو الأياد، أبو الزروف، أبو حيوان، (يبقى من أطرف الأسماء التي اخترعتها وجيهة، هو اسم «أبو العيورة»، والذي أطلقته على أحد هؤلاء الأبوات إذ لم تستطع تحمل سحنته ورائحته). هكذا لماذا لا يكون «صهيوني»، مثله اسم محمد طالب حمودي هو الاسم المستعار لشخص آخر، وهذا ما فكرت به معالي تباعاً، ولكنها في تلك اللحظة التي سمعت فيها الاسم، عندما كانت تجلس في عيادة مثال الآلوسي، إبنة القوادة المتقاعدة كوكة، لم تعر للإسم أية أهمية، أولاً، لأن رأسها كان يكتظ بما يكفي

من الأمور، وثانياً لم يهمها اسم الرجل أو حتى الرجل ذاته: الاجهاض، كان هو الأمر الوحيد الذي يشغل ذهنها في تلك اللحظة، أما بكل ذلك المتعلق بالأقراص، أقراص منع الحمل، وبالرجل الذي يبيعها، فلا بأس من الإستفادة منه بعد مغادرة العيادة، لأنها في ذلك اليوم، في تلك الظهيرة، في تلك اللحظة، توصلت إلى قرار حاسم في حياتها: عدم الإنجاب، نعم عدم الإنجاب، ولو كانت هناك دكتورة متخصصة ترفع لها الرحم، لطلبت منها ذلك، وفي تلك اللحظة التي تعرفت فيها على البنت مَلَك وأخيها ربيع، العليل ربيع، عرفت، وأصبح عندها القناعة أكثر من أي وقت مضى، بأن من العبث أن تحمل وتجني على شخص آخر تأتي به إلى العالم. في تلك الظهيرة كان يكفيها أن تسمع كلمات ربيع، العليل ربيع، الذي شرح لها مباشرة علاقته بالصوفية والصوفيين، حيث قال لها بقناعة تامة: «الممارسة الصوفية هي الكف عن الامتلاك والإكتفاء بما يقيم ضرورات العيش من الطعام والملبس والمسكن، وذلك الالتزام يتطلب أول ما يتطلبه هو تطبيق ما يعتبره الصوفيون أساس الشخصية الإنسانية، الموافقة على عدم أكل اللحم والالتزام بالنباتية الصرفة التي تصل إلى حد الإمتناع عن أكل منتجات الحيوان من حليب وزيوت، وتصل إلى عدم الإنجاب».

ربما حتى سماعها تلك الكلمات، التي ساندتها أكثر على اتخاذ قرارها بالإجهاض (بإرادتها هي هذه المرة، ودون الخوف من تبعية ما)، أو الكلمات التي أنستها أمر الاجهاض، ومساعدتها على الدخول لغرفة الطبيبة، مثال الآلوسي، إبنة القوادة المتقاعدة كوكة، لها، دون تأنيب ضمير أو خوف، لأن، الكلمات خدَّرتها قليلاً، وحملتها على التفكير بـ «ما بعد»، وهذه الـ «ما بعد»، كانت تعني، الإنتهاء من الإجهاض بأسرع وقت ممكن، والخروج من البناية، والشروع بالتفكير بحياة جديدة، حياة أخرى، دون طفل، دون إنجاب، دون «الجناية على أحد». هكذا كان حماسها للكلمات التي قالها الشاب ربيع، العليل ربيع، حرضها على اتخاذ قرار آخر، لا يختلف بدرجة مغامرته عن قرارها بعدم الإنجاب: أن تطلب من البنت مَلَك وأخيها ربيع، العليل ربيع، أن يصطحباها إلى القرنة، وهي ستتكفل حياتهما المستقبلية، وإذا كان ذلك القرار نما مثل جنين صغير، أمبريو (كما يطلق عليه الأطباء باللغة اللاتينية)، فإنه اكتمل عندما عرفت منهما، أو منها على الأكثر، من مَلَك، القصة التي جرت للإثنين:

«في الحقيقة لم أتعرف على أبي أبداً، فكما سمعت من أمي قبل وفاتها، أن زوجها، أبي، ذهب للكويت من أجل العمل عندما كنت صغيرة في القماط، وأننا كنا نسكن حي الأكراد في مدينتنا، وهو حي مشهور بوجود الكثير من الشيوعيين فيه، تعرض الحي لأول هجمات الجيش الشعبي في التسفيرات الأولى التي جرَت للأكراد

الفَيْليّة، لا داعي لشرح ملابسات الوضع في ذلك، تقول أمي، إنها توسلت بالرجل المسلح، الرجل الطاعن بالسن، والذي كان يدخن السيجارة تلو السيجارة ويشرب الكأس وراء الكأس، أن يتركنا، لأننا لسنا أكراداً فَيْليّة، وافق الرجل، على شرط أن تصمت، وأنه هو الذي سيرجعها بصورة سرية دون أن يدري أحد، ولذلك عليها الموافقة على البقاء فوق سطح الشاحنة. هكذا بعد إلقاء كل البشر هناك، بعد تفريغ الشاحنة من النساء والأطفال والشيوخ، لأن الشباب أبقوهم في سجون أبي غريب، كان من المفروض أن ترجع الشاحنة فارغة، وباستثناء ذلك الرجل المسلح، الرجل الطاعن بالسن، الذي هو الآخر كان كردياً فَيْلياً، لكنه كان يتعاون مع مديرية الأمن، لم يبق غيرنا على سطح الشاحنة. وكان من السهل بالنسبة إليه أن يقنعهم بالبقاء على سطح الشاحنة، لأنه فرش فراشه هناك، وقال لهم بأنه سينام، ولم يعرفوا أنه طوانا نحن الإثنين في فراشه. لم أعرف بما حصل، لكنها أمي التي روت لي تباعاً، بأنه أجبرها على النوم معه، رغم أن ـ كما تقول ـ لم يكن الرجل سيئاً إلى هذه الدرجة، فقد خيَّرها بين الموافقة عليه كزوج بعد أن ينام معها، أو أن تعتبر ذلك مجرد اغتصاب جنسي ينقذ حياتها وحياة ابنتها وتسكت. تقول أمي، إنها بكت كثيراً وبحرقة، وشعرت بالتعاطف معه، فقد كان هو الآخر رجلاً وحيداً يحب بلاده كما باح لها، وأنه كان مضطراً للإشتغال مع مديرية الأمن لكي لا يكون مجبراً على مغادرة البلاد التي يحبها، وهو رجل يعيش وحيداً بعد تسفير عائلته وأقاربه إلى إيران. تقول أمي، إنه لم يغتصبها كما يمكنني أن أتصور أو كما تصورت هي في البداية، إنما هي التي رفعت اللحاف الذي دثرنا به تلك الليلة، وهي التي طلبت منه أن يقترب منها ويندس معها في الفراش، لينام معها، وعندما انتهى منها، سحبت القنينة التي لم تغادر يده وهو ينام معها، وكانت مقتنعة بأن أبي الذي غادرنا للكويت لن يعود أبداً. أمي تقول إن ربيع جاء من تلك الليلة».

ليست أمها الوحيدة التي تعتقد ذلك، إنما ربيع هو الآخر الذي لا يكتفي بالإعتقاد بذلك، إنما يلقي اللوم على أبيه، بسبب المصير الذي انتهى إليه. فلقد كان عليه منذ يوم ولادته أن يعاني من نقص كبير في تكوينه، لتناوله كميات هائلة من الحبوب المسماة «بردنزلون» (وهي من فصيلة الكورتزون التي تعطى للأمراض المستعصية مثل السرطان!) بسبب معاناته مما يطلقون عليه مرض «تناذر الكليتين»، الذي أوقف نموه منذ سنه المبكرة، وجعل طوله لا يتعدى المتر والثلاثين. وبالتأكيد لولا قامته الملفتة للنظر، بتوافقها مع سنه، لما انتبهت معالي، مباشرة حين دخولها في تلك الظهيرة، إلى عيادة الدكتورة النسائية مثال الآلوسي، إبنة القوادة المتقاعدة كوكة، وكان الذكر الوحيد في العيادة، وبتلك القامة الملفتة للنظر، أمر جعلها تشعر بقوة سرية تقودها للجلوس إلى

جانب البنت تلك وليس إلى جانب أي من البنات الثلاثين أو اللاتي يفوق عددهن الثلاثين، البنات اللواتي جئن إلى عيادة الدكتورة التي تشير القطعة الخشبية التي علقت عند باب العيادة بصورة علنية، على كونها «طبيبة في الأمراض النسائية»، الدكتورة مثال الآلوسي، الوحيدة التي أكملت دراستها قبل البنات الأخريات للقوادة المتقاعدة كوكة، ولتنتهي بممارسة العلم الذي تمنته كوكة، أن تفتح أول عيادة شبه علنية، عيادة بتجهيزات طبية حديثة، تتكفل بإجراء عمليات الإجهاض في العاصمة. وفي تلك الظهيرة التي جلست فيها معالي إلى جانب البنت مَلَك، لم تنتظر منها سماع قصتها حتى النهاية، لأنها أولاً أحبت هذا الشاب الصغير ربيع، العليل ربيع، الذي عرفت منه لاحقاً بأنه من أفضل عازفي الفيولا في البلاد والذي اختار العزف على الجلو بإرادة منه، حتى أصبح من أفضل عازفيه أيضاً في البلاد، أحبته على طريقتها الخاصة، حتى أنها لم تقترح على مَلَك تلك وعلى أخيها مصاحبتها في رحلتها فقط، إنما أصرت أن يجيئا للعيش معها، وهي ستضمن مستقبلهما، رغم أنها لم تنتظر سماع قصة البنت التي كانت قد بدأت في تلك الأيام بمسيرتها الفنية، كلا لم تعرف معالي ذلك في تلك الظهيرة، لأنها كانت مغلفة ومشغولة بقصتها أيضاً، قصة إجهاضها، وبقصة قرارها المستقبلي، قرارها الحازم: عدم الإنجاب.

- ١٨ -

بغض النظر عن التزام الصوفية بعدم الإنجاب الذي تحدث عنه ربيع، العليل ربيع، فإن هناك بعض النساء، لا يتحمسن لمعاودة الحمل بعد عدد من الإجهاضات، رغم رغبتهن بالحمل، بعد شعورهن بالإستقرار مع شريك ثابت، ولا يحدث ذلك بسبب خوفهن من وجود عيب فيزياوي، كما يدّعي البعض، بسبب تضرر الرحم من عمليات الإجهاض المتكررة، وخاصة تلك العمليات التي لا تجري تحت رقابة طبيب، كما حدث مع معالي، إنما لأن تلك النساء، يطورْنَ نظاماً داخلياً من المناعة ضد الحمل الجديد. ويفعلن المستحيل لكي لا يحملن مرة أخرى. ربما هو الخوف من فشل الحمل هذه المرة، ما يحملهن على إبداع طرق لتجنب الحمل، دون أن يلفت ذلك نظر شريك حياتهن. مثلاً إن لم يحصلن على أقراص منع الحمل، كما هي الحال في بعض بلدان العالم (بسبب الرقابة الدينية أو بسبب شحة في التصنيع، أو رغبة الرجل في حملها ورفضه أن تأخذ زوجته الحبوب)، فإنهن يفعلن المستحيل، لكي لا ينمن مع شريكهن، في أيام نضج البيضة، أو يتصنعن مختلف الأعذار ليمنعن دخول حيامن الرجل إلى مهبلهن (إدعاء حرقة داخل المهبل أو ما شابه)، ويصبح العثور على عقاقير تختلف عن العقاقير التقليدية، هو

مثل العثور على كنز. يمكن إعتبار معالي إحدى تلك النساء، حتى وإن كانت لا تنطبق عليها كل النقاط المذكورة، ورغم أن عندها أسباب أخرى، ففي النهاية، رغم التعميم المذكور بما يخص النساء عموماً، تبقى الكثير من الحالات، خاصة بهذه المرأة أو تلك.

بعد الإجهاضين اللذين عملتهما، ارتبط الحمل عندها بالإجهاض، ولم تستطع يوماً تخيل ولادة طبيعية. بالإضافة إلى ذلك، فهي رغم زواجها من أسيَدْ لوتي رسمياً، ورغم إلحاحه هو الآخر وسؤاله المستمر عن حملها، إلا أن شعورها بنداء داخلي يحملها إلى أماكن مجهولة، خارج الوضع الذي هي فيه الآن، لم يتركها يوماً تسترخي لهاجس الاستقرار. وما أن تقفز فكرة الحمل في ذهنها، حتى تتخيل رعب تصورها، البقاء في البيت، والجلوس مع الطفل ساعات طويلة. وذلك ما لا تعرفه إفْطَيْم پِّيْ دَي، التي تعتقد بأن معالي في شغلها معها فقط، ستصبح قوادة محترفة مثلها، وأنها - معالي - رغم عدم سماحها لمعظم الرجال بممارسة الجنس معها، للقليل منهم وحسب، تشبهها في أيام تقحبها الأولى. لكن إفْطَيْم پِّيْ دَي لا تعرف، بأن معالي تختلف عنها في هذه القضية، وليس لأن زمن الإثنين يختلف عن الآخر. فمعالي، تحب الحفلات، الخروج إلى النوادي والمراقص، تحب الشرب والرقص والسهر، فهي يعجبها الذهاب إلى أماكن اللهو المختلفة دائماً، وكلما كان المكان غريباً ومختلفاً، كلما زادت رغبتها في البقاء فيه طويلاً، ولا يزعجها ما الذي يقال عنها، ولا يزعجها تحرش البعض بها، الذي يصل حد الخطورة في بعض مراقص فنادق الدرجة الأولى (بالمقارنة مع بعض القصص التي حدثت لها، يظل تحرش مفوض الأمن شاهين نزّال ليس بذي بال)، وذات مرة، وبينما هي ترقص، راحوا يضعون في فتحة صدرها أوراق الدنانير، وفي أربع مرات تراشق مجموعة من الرجال برصاص مسدساتهم فوق صالات رقص في فنادق الدرجة الأولى، لأن كل واحد منهم يظن أنها جاءت معه، وستخرج معه، لكن لا أحد منهم يعرف، بأنها لو أعجبت بأحد ما أحياناً فلا تجد غضاضة في الخروج معه، فقط لمتعة داخلية، وليس لأنها تريد ممارسة الجنس معه، ويحدث أحياناً، وبينما تذهب مع هذا الشخص إلى أحد المراقص، تلتقي في منتصف الليل بشخص آخر فيعجبها، فتدعوه للرقص، فيعتقد أنها ستخرج معه، لكنها عند الفجر تكون قد عثرت على شخص آخر تجد متعة في أن يوصلها للبيت، لكنها لا تسمح له بدخول عتبة البيت، وإذا أصرّ، تقول له إنها متزوجة، وإن زوجها ضابط كبير في الجبهة، وأن أطفالها وعائلة زوجها نائمين الآن، ومن الأفضل أن يذهب قبلها إلى عنوان تعطيه له (والذي هو في الحقيقة عنوان أحد «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»)، وأنها ستلتقيه بعد ساعتين أو ثلاث هناك، وفي النهاية لا تذهب إلى هناك، وتنسى الموضوع تماماً، حتى عندما يحدثونها عن رجل انتظرها

ساعتين أو ثلاث هناك، لكنه في النهاية اختار واحدة لينام معها. مرة واحدة فقط، حدث لها أمر مختلف مع أحد الشباب، الذي ظهر واختفى من حياتها بصورة سريعة وغريبة. وفي الحقيقة لم تنتبه هي للشاب، الذي كان يتطلع بها طوال الليلة ـ هو الذي اعترف لها بذلك ـ وخلّصها في نهاية الليل، من إحدى تلك الورطات التي تدخل بها غالباً، خلّصها من أيدي رجلين بدت سحنتهما البدوية أنهما من مناطق الغربية، عندما احتال عليهما مدعياً، أنها عشيقة «السيد وزير الدفاع»، وأنه ضابط ـ أخرج لهما هويته ـ جاء خصيصاً لهذا المكان لإرجاعها «للسيد الوزير»، وما أن أصبحا في الشارع، صفعته، وقالت له ألا يكرر مثل هذه الإدعاءات، وأنها لا تحتاج مساعدة أحد. بكى الشاب، وحدثها، أنه أنقذها لسبب خاص به، وأنه لا يريد منها غير أن تصغي له لمدة خمس دقائق. وافقت على مضض. حينها استرد الشاب أنفاسه، وبدأ في سرد قصته. قال لها، إنه يحمل رتبة ملازم أول، وأنه بالأصل من جامعة بغداد، كلية العلوم، وهو الآن يخدم في منطقة، في جنوب البلاد، ويرجوها أن تعفيه من البوح بإسم المنطقة، لأن ما يرويه ليس له علاقة بالمنطقة العسكرية؛ وأن الذي حدث له لم ولن ولا يصدقه أحد: كان كعادته ينام في سريره فوق سطح البيت الذي يسكن فيه، لكنه وقبل حلول الفجر، بعد منتصف الليل، إستيقظ فجأة، في ساعة وصول قطار الصباح القادم من البصرة باتجاه بغداد، والذي يمر في المنطقة التي يخدم بها؛ لم يستيقظ فقط، إنما نهض من الفراش أيضاً، وتوجه ببصره ـ على غير عادته ـ نحو سكة القطار، من مكانه على السطح، وبسبب انخفاض المباني في تلك المنطقة، كان من السهولة لبصره أن يلمح القطار، لكنه لدهشته، لم يجد القطار قد وصل، غيّر إتجاه بصره، فرك عينيه، ليطرد ما تبقى من نعاس ومن حلم، نظر إلى ما حوله، فرأى شبحاً بلباس أبيض، متمثلاً بشكل امرأة، وإذا توخىٰ الدقة بوصف الشبح، فإنه سيصفه على الصورة التالية: شكله الخارجي امرأة، بلباس أبيض، بشعر أبيض، بجسم أبيض، بشفافية مفرطة، غير طبيعية، مثل المرآة، واقفة على نهاية قمة جدار المقبرة، المجاورة للمحطة، رافعة يديها وكأنها بدأت للتو بالصلاة، ولكن وهي مولية ظهرها للقبلة؛ ركّز النظر إليها، ولم يصدق ما رآه، حاول بطريقة أو بأخرى تفسير المشهد بشكل منطقي، لكي يعرف، فيما إذا كان ما يراه حقيقياً أم خيالياً، ولكن قبل أن يصل إلى قرار، جاء القطار، فتوجه ببصره نحوه، ورأى أضوية، لأن الظلام كان ما يزال مسيطراً، ولم تكن هناك كهرباء في المنطقة، رجع ببصره مرة أخرى، صوب جدار المقبرة، فرآها ما تزال واقفة كما هي. عندما جاء على تلك النهاية، توقف الشاب، بينما راحت معالي تتطلع به بفضول لا يخلو من الرعب.

ـ وما هي علاقتي بالقصة، وما علاقة ما حدث بما حدث هذه الليلة؟

لم يجب الشاب مباشرة، إنما تردد قليلاً، وكأنه سيبوح بسر عظيم، حتى أن صوته لم يخلُ من الحزن والإنكسار، عندما وضح لها:

ـ الرعب الذي حدث لي، تلك الليلة، بعد اختفاء المرأة الشبح، لم يكن بقوة الرعب الذي شاهدته على وجوه الجنود الذين دُفنوا أحياء، بعد نقلهم أسلحة خاصة جداً، لأنهم يعرفون سر التلال الرملية التي تكتظ بها المنطقة التي نخدم بها، وثانياً، أن الليلة هي المرة الأولى بعد تلك الليلة، أرى فيها المرأة لابسة البياض.

ولا حاجة لمعالي أن تسأله عن المرأة التي يعنيها، فلقد مسك بيديها الإثنتين فجأة، وسدّ عليها الطريق، وهو يخر ساجداً أمامها، ثم ليترك يديها، وينزل على قدميها، ولتشعر بحرارة شفتيه، يقبلانها، عند القدمين، برقة، وهما تتمتمان بصوت مرتعش:

ـ أنت هي هذه المرأة.

كانا لوحدهما في الشارع. رفعته معالي من الأرض، وطلبت منه أن يهدأ قليلاً، فلقد أُخِذَت فعلاً بالمفاجأة، وأنها تشعر بالصداع الآن، وأن رأسها يدور، ومعه العالم، كل شيء يدور الآن، مثل دولاب، وأن من الأفضل، أن يذهب كل واحد منهما إلى طريقه، فأصرّ الشاب على مصاحبتها، وعبثاً حاولت أن تثنيه عن القرار، واضطرت في النهاية أن تعطيه عنوان أحد «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة» في منطقة المسبح، وبالفعل ذهب الشاب إلى هناك، وراح ينتظرها؛ لم ينم طوال الليلة، وفي الصباح، عندما لم تأت، انخرط ببكاء حاد، فاضطروا للإتصال بها (كانت آنذاك تزور إفْطَيِّم نِّيْ دَي في بيتها الرئيسي في منطقة المسبح). قال لها الشاب، إنه يوم إجازته الأخير، وهو مضطر للإلتحاق اليوم بوحدته، لأنه هو المشرف على نقل أسلحة خاصة جداً من بغداد إلى المكان الذي حدثها عنه، وأنه ينتظر كلمة منها، فإذا قالت له، لا تنقل الأسلحة، وابقَ، فإنه سيبقى، على شرط أن تأتي إليه، لكنها لم تشجعه على البقاء، وطلبت منه أن يسافر ووعدته أنها ستلتقي به بالتأكيد، عندما يرجع في إجازته القادمة. ولم يكف الشاب عن البكاء، إلا عندما أعطته رقم تلفونها الخاص جداً، وفي اللحظة الأخيرة سألته عن اسمه، فقال لها «ملهم»، لكنه لم يعاود الإتصال. حزنت معالي، لأن الشاب بالتأكيد قتل مثل أولئك الجنود الذين تحدث عنهم، في جبهات القتال، وشعرت للمرة الأولى بالذنب، ولم يكن من السهل عليها نسيان وجهه، وجه «ملهم» (إنه مجرد توافق بالأسماء، صدفة، وإلا فمن الصعب الإعتقاد بأن المقصود هنا، ملهم، صديقي، فكما أعرف أنه ما يزال في الأسر).

صحيح أن افتراضها لموت «ملهم»، سبَّب لها صداع رأس لأيام غير قليلة، إلا أنها

بصورة ما حاولت جاهدة التطامن مع نفسها، لأنها تشعر في النهاية - إذا فكرت بوضعها، بنفسها فقط - بأنها غير مسؤولة عن هذا الرجل أو ذاك، أنها حرة، دون ارتباطات، دون وعود، دون مسؤولية، وأنهم هم الرجال الذين عليهم التفكير بوضعهم، وأنها عندما تميل إلى هذا الرجل أو ذاك، فليس من الضروري تحميل القضية محمل الجد دائماً، ومن يضمن أن كل قصة يرويها أحدهم هي قصة صادقة، من يدري؟ الرجال يكذبون عادة، وهي لا تهتم بصورة جدية بما يروونه، يهمها فقط التمتع بالإصغاء لهم، دون تحميلات أخرى. فقط بهذه الصورة تحس بأنها فعلت ما يستحق المغامرة، وبأنها ما زالت شابة، وليس كما يظن الكثيرون، بأن ما يهمها هي الفلوس، فهي عندها ما يكفي من النقود، بالإضافة للمبالغ التي كانت تحصل عليها، من شغلها مع إفْطَيِّم پَّيْ دَّي، فإن أسيَدْ لوتي لم يبخل عليها يوماً بالفلوس، ففي بداية كل شهر، أما يسلمها نقداً أو يوقع لها صكاً، كانت هي التي تقرر حجم المبلغ، وكثيراً ما كان أسيَدْ لوتي يستغرب من طلباتها المتواضعة، لذلك لم يجد غضاضة، إذا طلبت منه في بعض الشهور أن يعطيها مبلغاً إضافياً، ولم يسألها يوماً عما تفعله بالنقود. وفي أحيان كثيرة - في المرات التي تراه فيها - تنسى أن تسأله عن الفلوس، لأن علاقتها بالفلوس ظلت علاقة آنية، لم تخطط لها مثل أولات الزوجات اللواتي يحتفظن بدفتر خاص، يضعن فيه جدولاً أسبوعياً، يتضمن خطط الإغراء اليومية، من أجل الحصول على مبالغ من أزواجهن لشراء هذا الثوب أو ذاك، هذه الحاجة أو تلك، وإذا لم يحصلن على ما يردن، يحولن البيت إلى جحيم، أو يضربن عن النوم مع أزواجهن، وكأنهنّ يقمن بدعارة غير معلنة، الجنس مقابل الفلوس، القضية تختلف فقط في هذه الحالة، لأن الأمر يجري بين زوجين، بينهما عقد مشترك. تعرف معالي تلك القصة، لم تسمع بها، إنما عرفتها قبل كل شيء من أختها الكبرى المقيمة في الكويت، التي كانت تعتبر زواجها صفقة تجارية تمت بين زوجها الذي يكبرها تقريباً بعشرين سنة، وبين أبيها، وعليها أن تأخذ حصتها من الصفقة وتستمتع بها، ولا يهمها الوضع الاقتصادي الذي يمر به الزوج، فقد كانت تعامله بدون رحمة، وسمعتها أكثر من مرة، تصرخ به، أثناء إحدى زيارتها لهم، عندما اعتذر عن عدم قدرته على إعطائها المبلغ الذي طلبته من أجل شراء زند ليس من الذهب وحسب، إنما من الزمرد والياقوت، وهددته بالطلاق إذا لم يشتر الزند من الصائغ الهندي الوحيد في مدينتهم، ولم ينفع زوجها الإستنجاد بأبيها، لأن أباها كان يقف إلى جانبها دائماً، كانت ابنته الكبرى المدللة، لذلك وعلى عكس ما أراد الزوج، عنَّفه أبوها، وقال له، لو لم يكن هو في الكويت. ولو لم يكن يعتقد بأنه صاحب ثروة، لما زوَّجه ابنته التي تصغره بعشرين سنة، وعليه أن يحصل على المبلغ المطلوب بأية وسيلة، مما اضطره أن يستدين المبلغ من الأب ذاته، ويعطيه لأختها الكبرى. معالي وأختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة،

أختها التوأم، حزنتا، وتضامنتا بصورة سرية مع الزوج، وقررتا مصارحة الأخت الكبرى، بأن ما فعلته لم يكن على حق، وأنهما تستغربان، كيف هي بالذات، التي كانت تحب الفضة وتفضلها طوال حياتها على الذهب، لا تكتفي بالطلب من زوجها أن يشتري لها الذهب، إنما تطلب منه هذه المرة أن يشتري لها الجواهر، فتقول لهما، بأنهما لا تفهمان، ولكن إذا تزوجتا ستفهمان ذلك في المستقبل، وأنها لا تستطيع أن تتحمل منظر أخته في البيت، وهي تلبس أنواع الذهب، والذهب الأبيض والجواهر، التي يشتريها لها زوجها رغم أنها تكبره بست سنوات، وهي بدأت تكره الفضة بسببها. لم تفهم معالي الأخت الكبرى، بل لم ترغب أن تفهمها، وظلت تحتفظ بتصوراتها عن الذهب والفلوس، وصحيح أنها لم تكره الذهب، وتفضل الفضة عليه كما فعلت أختها، إلا أنها لم تبالغ في شرائها لبعض الحلي، وحتى عندما اقترح عليها أسيَدْ لوتي شراء الذهب، أمام أهلها، اقترحت عليه أن يذهبا سوية للصائغ الهندي الوحيد في المدينة. حينها اشترت لهما حلقتين ولنفسها محبسين أحدهما على شكل سعفة، والثاني على شكل قلب. وقرطين أحدهما على شكل نجمة، والثاني قمر بوجه ضاحك، وزنجيل فيه حرف «م»، وحجل صغير، لأنها كانت تحب الحجل أكثر من كل شيء. لم تشتر أكثر من تلك الأشياء، رغم استغراب الأخت الكبرى، التي قالت لها، أولاً هو يكبرها في العمر، وثانياً أنها تتعجب كيف لم تطلب منه مهراً عالياً أو ذهباً كثيراً، فقالت لها أنها لا تحب لبس الحلي كثيراً، وإنها تشعر بالضيق، وستجرب هذا العدد القليل منها. لكنها بعد سنوات عرفت بأنه يمكنها الإستغناء عن الذهب إلى أختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم. في الحقيقة لم تهدِ الذهب لأختها مباشرة، إنما أعطته للشاب الذي تحبه والذي عندما أراد أن يتزوجها، لم يكن يملك شيئاً، فاقترحت عليه عندما عرفت أن يأخذ ذهبها كمهر (لم يدم زواج الأخت أكثر من خمس دقائق)، لكن الذهب ظل منذ ذلك اليوم بحوزة أختها، لم توافق معالي على استرجاعه، إنما ألحت على أختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم، أن تبقى تلبسه. وقالت لها، بأنها لا تجد قيمة كبيرة للذهب، ولا يهم المبلغ الذي تحصل عليه عند بيعها له، فهي لا تعير اهتماماً كبيراً للفلوس في علاقتها مع الآخرين، فكيف هو الأمر معها، وهي أختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم.

لم تكذب عليها بذلك، إنها بالفعل لم تجعل الفلوس معياراً لتقييم أحد، أو مقياساً تقيس على أساسه علاقتها مع الآخرين، على العكس، فحتى في ما يتعلق بالرجال، فهي تخرج مع الرجل الذي يعجبها ولا تخرج معه لأنه غني. وكانت تقول للذين يريدون إغرائها بالفلوس، بأن الفلوس ليست غايتها، هي وسيلة تستخدمها حسب حاجتها

ورغبتها، وهي تكفي أو لا تكفي حسب الطريقة التي ينفقها المرء؛ كانت اعتادت الخروج كثيراً، وفي بعض الأحيان تستنفذ كل ما في محفظتها من نقود، فلا تجد مانع أن يدعوها أحد لشرب كأس، لكنها تقول له منذ البداية بأنها ليست مضطرة للذهاب معه من أجل كأس، وبعضهم لا يقتنع بما تقوله، فيسألها عن سعرها، فتقول له، قنينة شمبانيا، ثم تحدق يميناً ويساراً، وعندما تجد شخصاً لا يعجبها تنهض، وتصفع ذلك الذي يجلس هناك. إنها تمزح، وتحب تسلية نفسها بهذه الصورة أو غيرها، حتى لو استدعى الحال بعض الأحيان، وخاصة إذا كان عندها الفلوس الكافية، فإنها تدعو بعض الرجال لشرب كأس على حسابها، أو تقدم لهم السجائر (خاصة إذا كانت تجلس إلى جانبهم النساء)، لذلك فمن الصعب اعتبارها قحبة، مثلما كانت تعتبر إفْطَيِّم يَّيْ دَي نفسها، أو مثلما يظن بها الكثيرون من الرجال خاصة، كلا، من الأفضل اعتبارها مغامرة في المكان الخطأ، أو مغامرة على طريقتها، وهي تعرف ذلك، لذلك، كانت كثيراً ما تصحو في اليوم التالي، وتقرر عدم الخروج، حتى أصبح روتين البقاء في البيت، مثل روتين الخروج، فهي تخرج عشرة أيام وتبقى في البيت عشرة أيام، لا يهم بالنسبة لها في أي مدينة تكون، أو في أي بيت من بيوت إفْطَيِّم يَّيْ دَي، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، لكنها عندما تكون في يوم العادة الخامس، تبقى في البيت، لا تخرج!

- ١٩ -

الطفل، كان يعني بالنسبة لمعالي الثبات في مكان، وهو أمر كانت ترفضه في قرارة نفسها. تقول، إنها لم تولد لكي تربط إلى شجرة. وزواجها من أسيَدْ لوتي، حتمته الضرورات. وهي سعيدة بالتعرف على إفْطَيِّم يَّيْ دَي. وعليه، فالرجل، ولا تدري فيما إذا كان ذلك بتأثير من إفْطَيِّم يَّيْ دَي، أنه بطبيعته هكذا، وافق على كل ما اقترحته عليه. ذهب إلى أهلها من أجل طلب يدها، كما أرادت، لم ينظم حفلة للعرس، إنما اكتفى بما أرادته، وحقق لها أمنية الإحتفال بالزواج في فندق، فندق بسيط. أما الأمر الثالث، وهو الأهم، فقد ترك لها أمر الإقامة مفتوحاً، هي التي تقرر، وكان أكثر ما يرعبها هو التفكير بأنها تزوجت، وأنها أصبحت ملكاً لشخص آخر، لرجل آخر، لرجل واحد لا غير، يقرر في أي اتجاه تذهب، ويحدد طريقة لبسها، مشيتها، ومع من عليها أن تتحدث، بل يفرض عليها ما يجب أن تطبخه، ما يجب أن تأكله، هكذا كانت مجرد فكرة الزواج ترعبها، إذ تعني بأنها لن تكون حرة نفسها (رغم أن من الصعب تسمية ما تملكه حرية بالمعنى العميق للكلمة)، والإنتقال إلى بيت شخص آخر، لا تعرفه، تعرفت عليه قبل يومين أو ثلاثة، وربما قبل ساعتين أو ثلاث، مثلها مثل أمها، أو جدتها،

رغم أنهن أكثر حظاً، فلم يتزوجن مجهولاً، إنما رجلاً من العائلة، يعرفنه منذ الطفولة، ولكن في حالتها المتطرفة، هي مثل تلك النساء اللواتي يُزَفَّنَ من البعيد إلى أزواجهن. لكن بالنسبة لمعالي، حتى لو كانت تعرف أسيَدْ لوتي من قبل، فلا يمكن أن تفكر أنها تزوجته، وهي لم تفكر بالزواج من أي رجل كانت على علاقة به، ربما فكروا أن حملها، هو نصب فخ الزواج، لكنها لم تفكر بذلك أبداً. والآن تشعر للمرة الأولى بأنها أصبحت بمواجهة هذا الخطر: الزواج. زواج مفاجىء خاصة عند مقارنته مع تلك الزيجات التي تحدث عادة ويطلب فيها من الناس التروي والتفكير طويلاً، وحتى في أزماننا السريعة هذه، لأن الزواج كما يعتقد الناس، هو أكثر القرارات مسؤولية بالنسبة للإنسان، ويحدد مسار حياته - إذا نحينا الموت جانباً -، لوزنه الخاص. ومنذ موافقة أهلها، وعقدها القران، أو عقد النكاح كما يسمونه شرعياً، الذي يدعوها للإتحاد مع رجل غريب عنها حتى ذلك اليوم، وإطاعته، بدأت تعيش هاجس كل المصائب المحتملة التي سيجلبها دخولها في هذا العقد، وهي مثل شخص تعرض لمرض من الأمراض لا يعرف كنهه، لكي يستطيع تشخيص العلاج اللازم له إذا استدعت الحال، ولذلك لا يضمن لنفسه الشفاء منه. والناس، أهلها، أختها الكبرى، وإفْطَيْم بَيْ دَي، يهنئونها، لاعتقادهم بأنها فرصة للتغيير الشخصي الجديد، لهذه الإنتقالة، حتى أختها التوأم التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم، تقول لها، إنها تفهم ما تفكر به، لكن عليها أن تأخذ الأمر، من باب «التغيير الشخصي». ربما تساعدها الأخت عكس الآخرين، عندما تحملها على تأمل الأمر بهذه الصورة، فهي تجد تعبير «التغيير الشخصي»، البسيط، أكثر ملائمة وأكثر دقة لتصوير حالتها الجديدة، فهي حريصة على منح «التغيير الشخصي» الذي أجبرت عليه، بعض الجدية، أكثر من المعتاد. بالضبط مثل مرض يغير وضعنا تماماً، ويجبرنا على التوقف عن ممارسة كل شيء وإلى أجل غير مسمى، لنبقى في الفراش نحمي أنفسنا منه ونتأمل العالم بعدها فقط ورؤوسنا فوق مخدات النوم. هكذا فاجأها الزواج، وعطل كل عاداتها (في الوهلة الأولى على الأقل)، حتى أنها خافت بأنه سيعطل كل قناعاتها ويدمر كل ذلك الحماس فيها، الحماس للعيش في الحياة، وتأمل العالم كما تريد، وليس لأنه زواجاً مفاجئاً، إنما القضية أبعد من ذلك، وستحصل لها بالتأكيد، حتى لو تزوجت من شخص تحبه. لأن المشكلة تكمن في الزواج بحد ذاته، فمن أجل أن يكون الزواج مقبولاً وفق الأصول المتعارف عليها - رغم الحريات التي مُنحت للمتزوجين في اختيار أزواجهم في أزماننا الحالية، ورغم محاولة البعض منهم الإتفاق فيما بينهم، على تنظيم حياة زوجية تختلف عن الزيجات الأخرى - إلا أن ليس بمقدور أحد من المتزوجين - وخاصة من النساء - تفادي الشعور غير المعلن وغير المريح، بأن اللحظة الحاسمة بدأت في حياة الإنسان، وأنه أصبح ناضجاً للإكتمال مع شخص آخر.

وفي حالة النساء ـ كما في حالة معالي ـ يضاف إلى ذلك، الشعور غير المريح بأنها نضجت، لكي تلحق بشخص آخر. ومعالي تعرف مسبقاً، بأن من الأفضل لها أن تتجنّب هذا الشعور الذي داهمها منذ توقيع العقد، وألا ينتابها الشك بهذه الصورة، وأن تفكر مثلما يفكر الكثيرون، بأن الزواج، فقط الزواج، هو الأساس الذي تقف عليه، وأنه هو الواجب الأكثر أهمية الذي تملكه منذ توقيع العقد أمام نفسها، حتى وإن اعتقدت بأنها انتهت من تنفيذ الواجب الملقى على عاتقها ـ مثل الكثير من البشر ـ وأن الأساس قد ثبتت دعائمه، بها وبأسيَدْ لوتي. عرفت معالي كل ذلك، ورغم ما كانت تفكر به تزوجت، لتعيش مع هاجسين لن يفارقانها بسهولة:

الهاجس الأول، هو تحمل الشعور، بأن عليها الآن، أن تعتبر «التغيير الشخصي»، هو حقيقة واقعة، وليس خيالاً تجريدياً، وأنها منذ الآن، ووفق ما يتطلبه الزواج التقليدي، لن تستطيع أن تنفصل بالمكان عن شريكها، ولن تستطع التجول عند كورنيش الأعظمية لوحدها، كما كانت تفعل، وعليها أن تطابق عاداتها مع عادات شريكها، وأن من الصعب عليها منذ الآن، التفكير بالمستقبل (إذا كان لها مستقبل في البلاد)، دون التفكير بشريكها، وعليها أن تعلن الوداع لتلك الأفكار الشخصية الغامضة، الأفكار التي تذهب بعيداً، عندما يضع المرء لنفسه الأسئلة، ويجيب عليها هو نفسه، ولن يقول لنفسه، لأسأل شريكي، وأرى ماذا يقول، كلا، المرء نفسه يسأل والمرء نفسه يجيب، دون الحاجة لإجبار نفسه على التفكير، كما هي الحال في الزواج، عندما يفكر الإثنان، ويتساءلان، ما الذي سيصبح منهما بعد خمس أو عشر سنوات، وفي أسوأ الإحتمالات بعد عشرين سنة؟، عندما لا يكون المرء مجبر على التنبوء بشيء، لأن ليس هناك شخصاً، يشاركه المخدة التي ينام عليها. سابقاً وقبل الزواج، كان المستقبل مثل حقيقة فُقدت بعد العثور عليها، مثل زئبق يزوغ من يد المرء، كلما حاول الإمساك به، كما لو لم يعد هناك مستقبل محدد، لأن هناك الحاضر فقط، كل لحظة، كل ساعة، كل يوم، هو تنويعة على لون الحاضر. وبعد الزواج، يتحدث المرء بافتعال عن المستقبل، عن تحضير أثاث البيت وحاجياته أولاً، التي ليست لها علاقة بالحقيقة بالإثنين، حتى لو ادعى كل منهما بأنه يفعل الصواب، إذا قال إنه راعىٰ ذوق الآخر في تحضيره للأثاث، فهو لا يدري بأنه تنازل عن نفسه، عن شخصيته، وأن الآخر تزوج منه بالذات بسبب شخصيته الأصلية، وهكذا، إن عاقِدَيْ الزواج، أو «النكاح»، يلغي أحدهما الآخر (في حالة تنازل كل واحد منهما عن شخصيته)، يعدمان الشخصية التي كان عليها كل واحد منهما، والتي وقع كل واحد منهما في حبها، وبالإنتقال لمسكن واحد، يلغى رمز شخصية كل منهما، وتلغى معه كل تلك الرموز اليومية الصغيرة التي تخص كل واحد منهما، الذهاب

للفراش يومياً، الإستيقاظ لوحده، تواجد كل منهما في مكان، حتى يجد المرء نفسه يتقاسم مع أحد الأشخاص البيت نفسه والفراش ذاته، ومخدة النوم ذاتها، التي ينامان عليها، أو يكافحان من أجل النوم، بالضبط مثل مريضين، ينظران إلى نهاية العالم.

أما الهاجس الثاني، ربما أصبح عندها بعد الحادث الذي وقع لزوج أختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم (وقع الحادث بعد زواج معالي بسنة)، وازداد هذا الشعور في منطقة «الدير»، عندما قضت في بيت الدواجن الذي كان يملكه أسيَدْ لوتي، بعض الأيام، كانت تلك المرة الأولى والأخيرة، فهي لم تشعر براحة في بيوت الدواجن، وكرهتها منذ تلك الليلة اللعينة التي كان عليها فيها تسليم جسدها دون إرادتها، مرغمة للمقاول صديق الضابط «ضابط المخابرات»، لكنها اضطرت للهرب من القرنة، بعد تعرض المدينة للقصف لمدة أسبوع في أيام الحرب الأولى. عند إحدى المساءات، شعر أسيَدْ لوتي بوعكة، حيث كانا يتنزهان، عند بساتين الهارثة، على الشاطىء، تلك الوعكة أجبرتهما على قطع نزهتهما والعودة للبيت مباشرة، لكي يستلقي هناك (في الحقيقة كانت هي تتحين الفرص للتنزه، لكي لا تبقى في بيت الدواجن). سرت فيه برودة نزلت من كتفه حتى أسفل جذعه، صاحبها شعور بالغثيان. لم يستطع الوقوف على قدميه أبداً. بالتأكيد أثرت عليه كمية البيض أو لحم الدجاج الذي أكله، رغم تحذيرها له، فهي رأت بعينيها نوعية الغذاء التي يزودون بها الدجاج وحجم الهرمونات والمواد الكيمياوية فيه، وتساءلت مع نفسها، فيما إذا كان أصيب بمرض السالمونيلي أو ما شابه. وفجأة استحوذ عليها شعور قوي بالمصيبة، تلك المصيبة التي تخيلتها في بداية الزواج، فكم سيكون حجم الرعب أمامها، لو تحقق ما كانت تخشاه في الزواج: خطر مرض الشخص أو موته المفاجىء، الشخص الذي فُرِضَ عليها (أو سمحت بأن يفرض عليها، أو ما كان لها إلا أن تقبله). كانا وحيدين في «الدير»، ومن الصعب الإتصال بطبيب في ذلك اليوم، فسيان ما ستقوله عن مرضه، فسيعتقد، بأنها بطرانة، عندما تطلب طبيباً والقصف ما زال على أشده، ومستشفى المدينة الوحيد يزدحم بالجرحى. بالتأكيد سيقول له، أو لهما (ما زال أسيَدْ لوتي قادراً على الكلام، وإن كان صوته واهناً) بأن العارض ربما يكون مؤقتاً، وأن الوعكة ستنتهي، أليس هذا ما يفكران به بصوت عال أيضاً، وقالاه لبعضهما، بل لا حاجة أن يقولانه لبعضهما، لأنهما شريكان، والشريكان، يتقاسمان الأفكار، كما يتقاسمان رأساهما مخدة النوم. لكن رأس أسيَدْ لوتي، استقر لوحده ذلك اليوم فوق المخدة واسترخى جسده فوق الفراش، فراش الزوجية، إنها فرصة له، لأن يفكر لوحده هذه المرة، وتركته ينام، كما لو أنه سيشفى عن طريق النوم. بدا غافياً، وظلت هي صامتة تتأمله، لكي يستطيع أن يرتاح هو هذه

المرة، وأفضل شكل للبقاء ساكنة دون أن تشعر بالملل لوحدها أو دون الحاجة لإجبار نفسها وحمله على الحديث معها وإزعاجه، هو الذهاب، عند الشباك، وتأمل المنظر الخارجي من خلاله، النظر إلى نهر شط العرب، الذي يتضح عبر سعفات بعض نخلات التمر وأشجار النبق القصيرة التي قاومت قصف وحرائق قنابل الطائرات والمدفعية، النظر لطيور المساء تتحرك، وتطير بانسيابية، قبل أن تلملم نفسها وترتكن إلى أعشاشها، حيث تسمع زقزقات وهمهمات أبناءها من البعيد. كانت معالي تتطلع إلى المنظر، إلى الخارج، خارج البيت، بيت الزوجية، وخلف ظهرها الفراش (فراش الزوجية؟) الذي استلقى فوقه بصورة عرضية أسيَدْ لوتي، رأسها يلتصق بالشباك، وليس على المخدة إلى جانب شريكها، تتطلع أو تنظر إلى الخارج، بعيداً عن المخدة، مخدة النوم، دون أن تشعر هذه المرة بشيء يسترعي انتباهها ويشغلها عن نفسها، فهي مثل شخص يأتي إلى حفل أو لقاء كبير، ويعرف أن الشخص الوحيد الذي يهمه لن يكون هناك، بأنه بقي في بيته، عند زوجته. كان أسيَدْ لوتي يستلقي فوق الفراش، مريضاً تحرسه زوجته، معالي، تقف متأملة عند الشباك، ظهرها يواجهه.

في تلك اللحظة، وهي تقف عند الشباك، وبعد سنة من زواجهما، عرفت، أن من العبث البقاء مع زوجها، أسيَدْ لوتي في بيت واحد، ومن الأفضل أن تغير الوضع، «التغيير الشخصي» الجديد، لذلك بعد رجوعهما في ذلك الأسبوع إلى القرنة، حدَّثت إفْطَيِّم يِّيْ دَي بما نوته، وبأنها هذه المرة ستكثف العمل في البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، أكثر من السابق. على هذا الأساس، لم تكن في بيته إلا نادراً، فقد اعتادت كل هذه السنوات على التنقل بين بيوت إفْطَيِّم يِّيْ دَي «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة».

أما أسيَدْ لوتي، فقد صارحته معالي بكل هواجسها، وأخبرته بقرارها النهائي، وهما ينامان على فراشهما، فراش الزوجية، رأساهما يتقاسمان مخدة واحدة، مخدة النوم، ونظراتهما تتطلعان بسقف الغرفة بصورة متوازية. لم يعترض على قرارها، وقال لها «إنها هي التي تقرر»، وبدا صوته يخرج باتجاه سقف الغرفة، أكثر مما يكون اتجاهها.

- ٢٠ -

على مدى تسع سنوات، وحتى معرفة معالي، بأن أسيَدْ لوتي على علاقة مع امرأة أخرى، لم تأت معالي إلى القرنة إلا في مرات قليلة، حتى يُمكن حساب عدد المرات التي زارت فيها المدينة، أو زارت فيها بيت أسيَدْ لوتي، بيتها، وحتى تلك الرحلات القليلة، كانت لها علاقة بعملها في البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، أكثر

مما لها علاقة باشتياقها لزوجها. وعندما تأتي إلى القرنة ولا تجده، بسبب إحدى رحلاته المتكررة إلى بغداد، أو بسبب تفقده لمزرعة الدواجن التي يملكها في الدير، على أطراف الهارثة، فإنها لا تنام في بيته (بيتها أيضاً)، إنما تقيم في بيت إفْطَيِّم يِّيْ دَي (كما حدث في ذلك اليوم القائظ من آب/أغسطس)، ورغم صغر مدينة القرنة، وإن كل صغيرة تصبح فيها كبيرة، وأنها في العادة مكان لا يصلح لحفظ الأسرار، إلا أن معالي لم تكن مادة للتقولات والأحاديث، إلا في حالات نادرة، وإذا تحدث المرء عنها فيقول، زوجة أسيَدْ لوتي، فهي بطريقة ما، جزء من المدينة، وجزء لا ينتمي للمدينة في الوقت نفسه.

لم يزعجها شخصياً التنقل بين بيوت إفْطَيِّم يِّيْ دَي، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، ولم يزعج أسيَدْ لوتي، زوجها، فلقد تصالحا مع الأمر بطريقة ما، وكأنهما واثقان ببعضهما. وبما يخص معالي فإنها لم تضع علاقتها به موضع تساؤل، فهي مطمئنة بأنه هناك، دائماً في مكانه، في القرنة، أو في الدير، أو في وزارة الدفاع في بغداد، رغم أنها ولقول الحقيقة، لم تسأله الكثير عن تفاصيل زياراته إلى هناك ولقاءاته مع مسؤولين برتب عالية، مع الحاكم مثلاً، ربما لأنها هي نفسها تعرف الكثير عن هؤلاء المسؤولين، وعلى عكسه، حاولت تجنب اللقاء بهم، هكذا حرصت أن تختار تواريخ زياراتها للبيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، وفي الوقت الذي لا يتواجدون هم فيه، وإذا حدث وأن كانت بالصدفة هناك، فهي تفعل المستحيل لكي لا يشتهيها أحد، لذلك احتفظت دائماً بملابس وسخة، في دولاب في المطبخ، وإذا اختفت منها رائحة البصل أو الثوم أو رائحة القلي، فلا تجد مفراً من توسيخها بأسرع وقت ممكن، كأن تقلي بصورة سريعة في المقلاة قليلاً من البصل والثوم، رائحتان تكرههما كثيراً، لكنها تضطر لفعل ذلك، لتجنب المعجبين بها. ولكنها على العموم وجدت نفسها مجبرة على التصرف هكذا في مناسبات قليلة، يمكن عدها على الأصابع، وخاصة في البيوت السرية، فعلى العموم هناك قائمة بمواعيد الزيارات، تعرفها هي وإفْطَيِّم يِّيْ دَي فقط، ومن النادر تغير مواعيد الزيارات، ويحدث ذلك، في حالة اختفاء المسؤول الذي كانت زيارته مؤملة (في معظم الحالات، يقال، إنه ذهب بمهمات خاصة)، أو حجز المكان للحاكم لوحده أو مع أحد ضيوفه المهمين. وذلك ما يحدث في البيوت البعيدة عن جبهة الحرب، وليس كما هي العادة في بيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، في المدن القريبة من جبهات القتال، حيث تحولت وعلى مدى سنوات الحرب، إلى مراكز إدارة للعمليات العسكرية، ولم تزر معالي تلك البيوت، إلا مرتين، مرة مع أسيَدْ لوتي، زوجها، ومرة مع إفْطَيِّم يِّيْ دَي. وفي المرتين لاحظت الفارق الكبير بين نوعي طراز بناء البيوت، ونوعية العسكريين الذين يزورونها. ففي البيوت السرية، بدا لها الرجال في

الحالتين، أكثر سرية، وأكثر تحفظاً، أخضعوها في الزيارتين إلى تفتيش دقيق، من النادر أن يحدث ذلك في البيوت الأخرى. وعندما دخلت هذه البيوت (في المرة الأولى مع أسيَدْ لوتي، الذي جلب نوعاً نادراً من الديكة، وفي المرة الثانية، جاءت مع إفْطَيِّم يِّيْ دَي، لتسليم وثائق ـ لم تعرف مضمونها ـ سلموها لها في بغداد، وطلبوا منها نقلها إلى هناك شخصياً) شعرت بالخوف، خوف شبيه بذلك الخوف الذي شعرت به، عندما جلست تنتظر في غرفة المسؤول الحزبي في كليتها، كلية التربية الرياضية، وتمنت أن تنتهي زيارتها لتخرج بأسرع وقت ممكن. على عكس ذلك، لم تشعر بمثل هذا الخوف في البيوت الأخرى، رغم أن بعضها لم يخلُ من بعض الأجهزة التي رأتها في غرفة المسؤول الحزبي آنذاك. أو لأنها هي التي تدير هذه البيوت، ربما لأنها تعرف الحدود والغايات التي تستخدم من أجلها تلك الأجهزة، أو ربما ـ وهذا هو الأرجح ـ أنها تعرف الآن كيف تشتغل هذه الأجهزة، فآنذاك، عندما كانت لوحدها في الغرفة مع المسؤول الحزبي، لم تعرف لأي شيء تُستخدم، يضاف إلى ذلك رعبها المتجذر ـ والمنطقي ـ من التواجد مع رجل لا تعرفه في غرفة واحدة، خلف باب مغلق. الآن تعرف أنواع هذه الأجهزة، التي تأتي منها كل شهر نوعيات وموديلات جديدة، فلقد كانت إفْطَيِّم يِّيْ دَي تحرص على استيراد كل جديد، أول بأول، من ألمانيا الغربية خاصة، من برلين الغربية وهامبورغ، وكانت تحصل عليها بأسعار رخيصة، عن طريق ألمانيا الديموقراطية (إسم على غير مسمى!)، تحملها لها الوفود التي تأتي للبلاد كل شهر، كانوا يجلبون لها عينات، وكانت هي تختار. ميد إن جيرمني Made in Germany (صنع في ألمانيا)، مكتوب على كل الأجهزة التي لم ترها معالي فقط، إنما كانت تحركها، وتوجهها كما تريد، أو من الأفضل القول، كما يريد الآخرون أن تستخدمها معهم، وليس كما شعرت بها وهي موجهة إليها في غرفة المسؤول الحزبي في كلية التربية الرياضية، ففي البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، من الممكن إبقاء الأجهزة حيادية لو أرادت هي، لكنهم هم زبائنها يطلبون منها أن تفعل ما يهدىء الإضطراب عندهم، على عكسها، في ذلك اليوم مع المسؤول الحزبي، فاضطرابها ازداد، لمجرد تفكيرها، أنه سيستخدم أحد تلك الأجهزة ضدها. هل هو تبادل في المواقع؟ هل تلعب الدور ذاته الذي كان يلعبه المسؤول الحزبي؟ ولا تتطرف إذا سألت نفسها أيضاً، ما الفرق بين ما يقومون به في هذه البيوت، وبين ما يقومون به في بيوت مديرية الأمن أو مديرية الإستخبارات أو مديرية المخابرات؟ ألا يجلس بعضهم، أمامها، على كرسي الإعتراف، ويبدأ بالإعتراف؟ وهي ألا تجد لذة بضرب بعضهم بالسوط أو بالعصى، وهم مربطون، على كرسي، يشبه الكرسي الذي تجلس عليه النساء عند الطبيبة أو الطبيب النسائي، وكما يسأل الطبيب، وهو يدخل يده في مهبل المرأة، ويتحسسه، ويسأل «هل الوجع هنا؟ هل آلمك هنا؟. . . الخ». تسأل

زبائنها، وهي تضربهم بالعصى، أحياناً على أعضائهم التناسلية، «هل يؤلمك ذلك؟»، وعند الإجابة بالنفي، تزيد من ضربها لهم، وتطلب منهم أن يزيدوا من اعترافاتهم، «تكلم، قل، كم واحدة حبلت منك، هل طلبت منها أن تسقط الطفل؟»، وعندما ينكر مرة أخرى، تضربه بقوة أكبر، حتى يعترف، فتواظب على ضربه بقوة وتصرخ «حقير... حقير... حقير»، وفي مرات كثيرة، يعلو صراخهم إلى حد لا يطاق، فتسارع واحدة من زميلاتها، أو إفطَيْم بَيْ دَي نفسها لتخليص الزبون منها، وعندما تعود إلى رشدها، تندهش، من بكاء الزبون، لأنها لم تكمل المشهد معه، فيركع عند قدميها، ويبوس حذائها، ويتوسل أن تضربه أكثر.

منذ البداية عندما دارت بها إفطَيْم بَيْ دَي في البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، وقدمتها للمشتغلات عندها، بكونها، تمثلها في حالة غيابها، ويمكن اعتبارها ابنتها أو وليتها على العرش، باحت لها معالي برغبتها أن تشتغل في فرع البيوت الذي أطلق عليه «فرع الأمن» (الأمن النفسي، كما عرفت معالي بعد ذلك!)، وأنها يمكن أن تذهب إلى البيوت الأخرى، إذا دعت الحاجة أو لأمور إدارية. لم ترفض إفطَيْم بَيْ دَي طلبها، وسمحت لها في النهاية أن تفعل ما تريد.

هكذا رغم تركيز معالي على العمل في البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة - فرع الأمن النفسي»، فإنها عرفت الفروع الأخرى من البيوت. فإن إفطَيْم بَيْ دَي، وبعد أن خبرت كل هذه السنوات من العمل، عرفت ما الذي يريده الرجال على العموم، والرجال في هذه البلاد بصورة خاصة، ليس ذلك فقط، إنما عرفت، أن تقسم نوعية العمل في البيوت، ونوعية الخدمات التي تقدمها، حسب المدينة، أو المكان القريب من البيت وهكذا امتلكت بيوتاً توزعت على طول البلاد وعرضها، كل بيت في اختصاصه: بيوت لممارسة الجنس من الأمام فقط، بيوت لممارسة الجنس من الخلف فقط، بيوت لمص قضيب الرجل، بيوت لمص فرج المرأة، بيوت لمص الأثداء فقط، بيوت للمشاهدة فقط من خلف زجاج غرفة، مشاهدة رجل وامرأة يمارسان الجنس، أو مشاهدة امرأتين تمارسان الجنس، أو مشاهدة إمرأة تمارس العادة السرية، أو مشاهدة رجل يمارس العادة السرية، بيوت لنكح الغلمان، بيوت لنكح الزبائن من قبل الغلمان، بيوت لنكح الحيوانات (باستثناء الحمير والعنز والقرود التي تتواجد دائماً، فعلى الزبون هنا أن يخبرهم قبل مدة ليجلبوا الحيوان الذي يريد)، بيوت الأمن النفسي بأنواعها.

لم تترك إفطَيْم بَيْ دَي شيئاً ينقص تلك البيوت، بل إنها علقت قريباً من القائمة المؤطرة بالزجاج التي وضعت عليها التسعيرة الرسمية، قطعة خشبية صغيرة، تشبه السبورة استقرت عند حافتها السفلى قطعة من الطباشير، وعلى حافتها العليا، علقت

إعلاناً مكتوباً عليه: «في حالة الإخبار عما ينقص البيت، وفي حالة إقتراح أفكار جديدة، تحصل على دخول مجاني لعشر مرات». هكذا بدت إفْطَيِّم بَيْ ذَي حريصة على راحة زبائنها، وابتكار أفكار جديدة، وتبنيها لأسرع التطورات التي تطرأ على المهنة. كانت حريصة على مواكبة ما يجري من تطور لمهنة الدعارة في كل مكان، ولم تفكر في استحداث قسم للترجمة، إلا في وقت متأخر، فهي كانت تكتفي في ذلك الوقت بالإقتراحات الجديدة التي يكتبها زبائنها فوق السبورة، والجلسات الشهرية مع العاملات معها، ولم تفكر بترجمة المجلات الجنسية التي لم تخلُ من كتاباتها عن أكثر مستحدثات الجنس في أوروبا، وفي اليابان وفي أميركا. طبعاً لم تخلُ البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، من وجود المجلات الجنسية، فقد كانت تبيعها في كل البيوت، وإذا كانت الأجهزة تنقطع بعض الأحيان أو يصعب استيرادها في الأزمات، فإن المجلات الجنسية لم تنقطع يوماً.

كل هذه السنوات ومعالي لم تمل أو تشعر بالتعب، فهي لم تشتغل مثل الباقيات كل يوم، كلا، كانت تشتغل حسب مزاجها، فإنها بالتالي كوريثة للعرش، حالها مثل حال إفْطَيِّم بَيْ ذَي، تدير تلك المملكة بإشارة منها، وإذا اشتغلت في نوع واحد من البيوت، بيوت الأمن النفسي، فليس لأنها تمتنع عن الشغل في مكان آخر، أو أن الشغل هناك يثير فيها الغثيان، إنما لأنها فقط تشعر بالأمن النفسي، في تلك البيوت. وهناك فقط، يمكنها تصفية حسابها، مع الرجال، مع نفسها، أكثر مما تستطيعه في مكان آخر، كم كان يعجبها مثلاً، أن تشتغل في أحد بيوت اللعق، تستلقي هي، ويلعق لها أحدهم فرجها، لكنها لن تشعر بتلك الطمأنينة أو بذلك الأمن النفسي كما في هذه البيوت، ولا تتحدث عن ذلك بصورة تجريدية، فإنها ولكي تتأكد من ظنونها فعلت ذلك، ذات يوم قررت الذهاب إلى أحد تلك البيوت، وهناك، تعمدت ترك فرجها وسخاً، بكل روائح الليلة الماضية الممتزجة مع رائحة الأورين ورائحة لباس لم تستبدله على مدى ثلاثة أيام، وعندما نزل أحد الزبائن بلسانه على فرجها، شعرت بأنه يعضه ويقتلعه من مكانه، حينها انتابها شعور متناقض، فمن جهة شعرت بالزهو والإعتزاز، بأن «إبن القحبة» هذا يلتهم فرجها رغم عفونته، على العكس يبدو أن الوساخة زادت من حماسه، لكن من جهة أخرى لم تشعر بتلك النشوة التي تشعر بها عندما تحرك سوطها أو عصاها وتضرب بها الرجال في كل موقع من أجسادهم، كلا لا تشعر بالنشوة نفسها تلك، التي هي ليست بنشوة جنسية وحسب، إنما يختلط فيها الوجد والكبرياء، حتى تشعر بنفسها تطير، تصعد إلى فضاءات عالية، تعلو حدود الأورجازم، شعور من الصعب وصفه بكلمات بسيطة، ولن يفهمه الرجال، ولم يفهمه ذلك الرجل بصورة خاصة الذي دفعته بقوة عن فرجها،

وقالت له، سأجلب لك واحدة أخرى، والذي لم يقتنع لما قالته، وراح ينظر لها بحيرة واضطراب ودهشة.

ولكن أي نوع من الرجال هم هؤلاء؟ ربما لم تفكر بذلك السؤال إلا في مرات قليلة، لأن أكثر ما يهمها هو نفسها، ما تريده هي. ولكن حتى عندما تفكر بأولئك الرجال فهي تنظر للموضوع في علاقته معها. وكثيراً ما تطمئن نفسها، بأنها لو كانت متزوجة من أحدهم لما جاء إلى هذا المكان. هل يمكنها تصوّر أسيَدْ لوتي، زوجها، يوماً يأتي إلى أحد هذه البيوت. إفْطَيِّم پِّيْ دَي تقول لها بأن أسيَدْ لوتي هو درّة نادرة. هو نوع نادر، من الرجال، ثم تكمل مازحة، لحسن الحظ ليس كل الرجال مثله، وإلا لما ربحنا فلساً واحداً. ولكن ماذا لو خطر على بال هذا الرجل النادر زيارة أحد هذه البيوت؟ كيف ستتصرف. في تلك المرات التي تفكر فيها بذلك، تفاجىء نفسها، فتندهش، لأنها تفكر على طريقة المرأة المتزوجة. هل هو أكثر تحرراً منها في نظرته للزواج، أم هو مثل الكثيرين من البشر، ينظر لصلاحية أو عدم صلاحية الموضوع، على أساس مصلحته؟ وطالما أن مصلحته تتطابق معها الآن، فما الذي يخسره. وذات مرة قال لها، بأنه سمع الكثير عن البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، وهو لا يريد تصديق كل ما يقوله الناس، أن إفْطَيِّم پِّيْ دَي تمارس شغلها مثلما يمارس الكثيرون أعمالهم، وحينها أرادت أن تسأله، هل صحيح أنه لا يعرف ما الذي يدور في تلك البيوت، وأنه لا يعرف مهنة إفْطَيِّم پِّيْ دَي بالتمام؟ هل هو يتغابى، أم لا يريد أن يعرف الموضوع؟ وكأنه كان يعرف ما يدور في ذهنها، قال لها، أنه لا يهمه، وحتى لو كان كل ما يقوله الناس صحيحاً، فهو ليس عنده اعتراض. لم يدُر الحديث بينهما عن الموضوع بهذه الطريقة مرة واحدة، إنما عشر مرات على الأقل، في بعض الزيارات القليلة التي قامت بها معالي. وإذا استغربت معالي من رد فعله، فليس بسببه، ربما فكرت بذلك في السنوات الأولى، وربما قالت لنفسها، دعيه يفكر ما يشاء، فالأمر في النهاية أكثر راحة، لكنها فكرت بسببها هي نفسها، هل من المعقول، أن امرأة مثلها وبجمالها، ورشاقتها هي سيان بالنسبة لرجل مثله؟ من الصعب الجزم بذلك، فمعظم الرجال، خاصة زبائنها، يأتون إليها أو إلى الأخريات بسبب خيباتهم مع زوجاتهم، وكلهم، هم متزوجون منذ سنوات، كلهم يقصون القصة ذاتها، يتحدثون عن خيانات زوجية وموت للحب، كلهم تركوا وراءهم قصص حب قوية، أو تزوجوا عن قصة حب. وأسيَدْ لوتي، زوجها، ما الذي يمنعه من الشعور بالخيبة ذاتها؟ لماذا لا يكون قد زار مرات عديدة تلك البيوت؟ ولكن لم يحدث ذلك، وهي تصدقه عندما يجيبها عن سؤالها، فبالتالي، لا تحدث صغيرة أو كبيرة في تلك البيوت، دون أن تعرف بها هي أو

تعرف بها إِفْطَيْم يَّيْ دَي، التي من المستحيل أن تخفي عنها شيئاً. وحتى عندما طلبت منه ذات مرة أن يذهب، رفض وبإصرار، رغم تأكيدها له، أنها لن تعترض. حينها راحت تفكر بالأمر بجدية. فمن الصعب لمعالي تصور رجل خائب، لا يزور البيوت، ذلك ما علمتها إياه التجربة. وإلا فإن هناك تفسيران: أما الرجل أندر من نادر، أو أنه على علاقة مع امرأة أخرى؟ وبما أن معالي لا تؤمن بوجود رجل فوق الكرة الأرضية أندر من النادر، انتهت بتفكيرها للتفسير الثاني، وخاصة عندما أكد مفوض الأمن شاهين نزّال ظنونها.

- ٢١ -

من الصعب التلصص على أحد خفية، دون أن ينكشف المرء، مثلما من الصعب الإحتفاظ بسر والتصرف بحرية، أمام شخص آخر، وليس من المهم أن يكون صديقاً أو شخصاً غريباً، وكلما اقترب المرء من الشخص الذي يحتفظ بسر إزاءه، كلما صعبت حاله، من الممكن أن يخترع المرء القصص الكثيرة، القصة تلو القصة، أن يقول اليوم هذه القصة، وغداً أخرى، أو أن يعيد القصة ذاتها في يوم آخر ولكن بطريقة أخرى، فإن مسار القصة دائماً يعتمد على الراوي الذي يرويها وعلى الطريقة التي تروق له بها روايتها، لكن مهما حملته الظنون، فإنه سيجد نفسه ذات يوم فجأة، يبوح بالسر الذي كان عليه الإحتفاظ به لنفسه دون إرادته، حينها لن تنفعه محاولة رواية القصة من جديد، أو التبرير بأنه في الحقيقة أراد رواية القصة منذ زمن، لكنه تريث حتى تحين الفرصة الملائمة، وهو يعرف - أو شريكه في السر يعرف أيضاً - بأن اللحظة الملائمة، هي دائماً اللحظة التي تلي إفشاء السر، فحتى لو استعجل المرء بإفشاء السر، فهناك دائماً لحظة ملائمة قبل ولحظة ملائمة بعد، وتعريفها يعتمد على زاوية النظر إليها، ولأن كل سر يتعلق بطرفين، فمن المنطقي أن ينظر أحدهم للّحظة الملائمة بأنها جاءت متأخرة، والثاني، ينظر للّحظة الملائمة بأنها جاءت في الوقت المناسب، وذلك يعتمد على درجة علاقة الشخص بالسر، فإن الذي يملك السر، ليس كمن يتلقى السر. لا يحتفظ المرء بالسر دائماً بسبب مصلحته لوحدها، أو بسبب الخوف أو بعدم الرغبة بالكشف عن ارتكاب خطأ حقيقي في السلوك، وليس دائماً بسبب الحفاظ على شيء لا يريد المرء أن يفقد صلاحيته، إنما في أغلب الأحيان بسبب الغم أو الاستياء أو الكرب أو حتى لا تفسد السعادة الموجودة أو حتى لا تحدث الأضرار، وفي مرات أخرى (وخاصة في هذه البلاد) لكي يصبح المرء حضارياً، لأن ليس من أصول التربية الصحيحة أن يبوح المرء بكل شيء، يجب ألا يعرف الجميع العيوب والنزوات؛ بعض الأحيان يخفي المرء أصوله أو

يزيفها، لأن معظم الناس، تمنت بالتأكيد قدراً آخر لها، هناك من يخفي على الآخرين أقرب الناس إليه، ولا يهم إن كانوا آباؤهم أو إخوانهم أو أخواتهم أو أبناؤهم، يخفي عليهم مرحلة ما من حياته، من طفولته أو شبابه أو سنوات نضجه، في كل سيرة حياتية هناك معلومات مُغيّبة، لأنها كانت مشينة أو مقرفة أو منحوسة، واحدة أو أكثر، أو تكون كل السيرة مزيفة. وفي كثير من الأحيان يخجل المرء من أشياء كثيرة، من هيئته أو أفكاره الماضية، من جهله وسذاجته، من ذله أو كبريائه اللذين أظهرهما ذات يوم، يخجل من تساهله أو عدم تساهله، من أشياء كثيرة مفترضة أو أقوال دون قناعات، يخجل من كونه وقع في حب أحد كان صديقاً لأحدهم (أو كانت صديقة أو زوجة لأحدهم)، أو من وقوعه في حب شخص لم يستحق ذرة واحدة من عواطفه. هكذا هي الحياة، غالباً ما تكون خيانة ونفي دائمين لما كان قبلاً، تُحرَّف تُشوَّه مع سير الزمن، ورغم ذلك يظل المرء على دراية، بأنه يخدع نفسه، بإخفائه الأسرار، حتى وإن كانت أغلبيتها مبتذلة. هناك دائماً مناطق مضيئة وأخرى معتمة، تنمو وتتغير مع تغير وعي المرء ومع الأيام ومع الشركاء ومع الطموحات والمشاريع، حتى يصبح المرء اليوم، ليس ما كانه أمس. ولكن ما هو مؤكد أيضاً، بأن كلما مضى الزمن وشاخ المرء كلما أصبح من الصعب عليه أن يخفي سراً، ويروح يستعيد كل ما كان حتى ذلك الوقت مضغوطاً، وبسبب تعب أو فقدان الذاكرة أو ما شابه ذلك فقط، تبدأ الأسرار بالإلحاح وتستدعي ذاكرة دقيقة، ذاكرة مُنزّهة عن الخطأ هذه المرة، لتذكر مَنْ يعرف ماذا، مَنْ يعرف مَنْ، ومَنْ يعرف كل صغيرة، مَنْ يعرف كل كأس مسموم، يعرف كل خطأ وكل حيرة وكل حماس للزمن الميت. لذلك يسمع أو يقرأ المرء في الجرائد عن فلان من الناس اعترف بجريمة ارتكبها بعد أربعين عاماً، بعد أن كان يعيش حياة محترمة يسلم نفسه للعدالة، ويتحدث بالتفصيل عن الجريمة، أو يسمع المرء من قريب له في العائلة، يروي له بعد خمسين سنة سراً يحيره، فيروح الاختصاصيون ورجال القانون والأخلاقيون يتحدثون عن هؤلاء الأشخاص، عن انتصار الندم أو عذاب الضمير أو التطهير من الدنس، بينما في الحقيقة أن كل ما يحرك هؤلاء الناس هو التعب أو عدم القدرة على الإستمرار بالكذب والصمت، للتذكير بأن ما عاشوه وما فعلوه هو حيوات مخترعة تضاف لتلك الحيوات التي امتلكوها فعلياً، لنسيان ما حدث بالفعل واستبداله بالمُخترع. إنه التعب فقط الذي يحمل هؤلاء الناس على رواية أسرارهم، على الإنتقال من الظل إلى الضوء، مثل ذلك الطفل الذي يظهر فجأة من مخبأه، لكي تنتهي اللعبة بالنسبة للمطارِد والمطارَد، لكي يتحول كل شيء إلى نوع من الفتنة، مثله لاعب القمار الذي يتعب من إخفاء أوراق اللعب، ويطرحها جميعاً في النهاية فوق الطاولة فإذا كانت الحياة لعبة، فمن الأفضل أن يلعبها المرء بالمكشوف، ففي النهاية، فقط هي عزيمة اللعب المكشوف التي تمحي الكدر

والتعب. وإذا ضاعف مرور السنين من التعب، وحمل الذاكرة على تفريغ خِرجِها من الأسرار، فإن الحروب تعجل في الخروج من المنطقة المظلمة، ليس لما تحمله الحرب من دمار وموت، إنما لتغير إيقاع الأيام فيها وتحولها إلى ثقل أكثر عبئاً من الأسرار ذاتها، فإن الذي يذهب للحرب، مثله مثل شخص يحتضر، والإحتضار لا يُتعب لوحده، إن ما يُتعب هي تلك الحياة المخترعة قبله، هكذا من يذهب للحرب، مثله مثل الذي يقبل على أمر خطير، يود التحرك دون أثقال، والأسرار مهما كانت مبتذلة أو غير ذات قيمة فهي أثقال مرهقة. مثلما باح لي مفوض الأمن شاهين نزّال ووجيهة بأسرارهما كل على حدة، ومثلما باح أسيَدْ لوتي لمعالي، بالسر الذي أخفاه عنها، دون أن تكون مضطرة للإلحاح عليه، ودون أن تواجهه به، فلقد واجهته في ذلك اليوم بقضية أخرى، فبالتأكيد لولا إعلان حالة تشبه النفير العام في القرنة، لما حدثها بتلك السهولة. ولكن مهما يكن فإن من يخفي سراً تختلف حاله عن الذي يلقى إليه السر، فالمتلقي يظل يرى الأمر متأخراً من زاويته. ويزيد الأمر تعقيداً، إذا لم يسمع المرء السر الذي يخصه من الشخص الذي يحتفظ بالسر عليه، إنما من طرف آخر، كما حدث لمعالي. إذ لولا مفوض الأمن شاهين نزّال وغرامه المزمن، السري أولاً والمكشوف لاحقاً ـ منذ تحرشه بها عند حنفية الماء وسط ساحة البيت ـ، لما تجرأت على مواجهة أسيَدْ لوتي بشكوكها، أو بما يثقل على صدرها، ليبوح لها بالسر، ولكن ليس كما توقعت هي. مفوض الأمن شاهين نزّال الذي تعب من مطاردتها لأكثر من ثلاث سنوات بصورة سرية، وسنتين بصورة علنية، ظل يفكر بكل الوسائل التي تجعل معالي تلين، ولم يترك أية مناسبة أو فرصة إلا استغلها من أجل زيارتها، لم يمنعه إرسال إفْطَيِّم يِّيْ ذي له إلى أحد البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، القريبة من الحي السكني الذي بَنَتْه الدولة لموظفي معمل الورق، فكثيراً ما يستغل مجيئه لمدينة القرنة لغرض التسوق أو إنجاز بعض المعاملات المتعلقة بإحدى القادمات الجديدات ـ رغم أن من الأفضل له مراجعة الدوائر في البصرة كما كان يفعل عادة، ولكنه يغير خططه، كلما سمع بزيارة إفْطَيِّم يِّيْ ذَي ومعالي للقرنة ـ؛ لا يهمه التأنيب الذي يُصبّ عليه من إفْطَيِّم يِّيْ دَي، وشكوتها من سلوكه، فكل شيء يهون بمجرد رؤيته لمعالي. كان مغرماً بها، وكانت إفْطَيِّم يِّيْ دَي تعرف ذلك، وكان يضايقها ما يحصل، لكنها ولسوء حظ معالي، ارتكبت خطأ بشكواها له عند السلطات العسكرية في المنطقة، لأنهم أصدروا قراراً بإعفائه من الخدمة في البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، ونقله للعمل في مديرية أمن المدينة «مديرية أمن البطل جمال عبد الناصر»، بل جعلوه نائباً للمدير العام. حينها قرر مفوض الأمن شاهين نزّال تغيير إستراتيجيته. كان من المتعب بالنسبة له الإستمرار على طريقته القديمة. لكنه لم يعرف في باديء الأمر الطريقة الأفضل لتغيير موقف معالي منه، يعرف فقط أن عليه اكتشاف وسيلة

جديدة، إذ من غير المجدي مطاردة امرأة دون أمل بالحصول عليها، ولا يصدق أنها لا تقبله، لأنها تحب أسيَدْ لوتي، كما صارحته ذات مرة، فذلك عذر وحسب، وإلا كيف تسمح لنفسها الشغل في البيوت، إذا كانت تحبه؟ في الحقيقة تذكر مفوض الأمن شاهين نزّال جملتها بشكل عابر، ولم يشأ التوقف عندها طويلاً، لكنه فجأة وفي إحدى التظاهرات المؤيدة للحرب التي نظمتها نقابة عمال القمامة، حيث كان يتطلع من شباك المديرية، رأى أسيَدْ لوتي يمر بصورة خاطفة، وبالذات في تلك اللحظة برزت في ذهنه فكرة خاطفة أيضاً. فكر إذا كانت معالي تحب أسيَدْ لوتي، فليست هناك وسيلة أخرى، غير إثبات أن زوجها لا يحبها.

في ذلك الوقت، خلال إقامته وشغله في البيت القريب من الحي السكني لمعمل الورق، نسج مفوض الأمن شاهين نزّال، علاقة جيدة وقوية مع حسيبة، القوادة التي لم تبطل شكوى زمانها، وتغير دفة سفينة الدعارة باتجاه رياح إفْطَيِم بِّيْ دَي، ودخل معها في صفقات مشتركة تتعلق ببيع أقراص منع الحمل، التي كان يجلبها من زميله الذي كان اسمه صهيوني، في زياراته المتكررة لهذا الغرض إلى العاصمة، على مر كل هذه السنوات، حتى نمت بينهما علاقة ثقة متبادلة، وبالحرص على اعتماد أحدهما على الآخر، لذلك لم يشك من طرفه بأنها سترفض له يوماً طلباً أو تمتنع عن مساعدته، مهما كانت النتائج، لأنها تعرف أيضاً، بغض النظر عن الحميمية التي نشأت بينهما، بأنها تحتاج في هذه الأيام العصيبة، مساندة أحدهم ودعمه لها، حيث لم تعد الدعارة كما كانت في السابق تتوزع على مراكز عديدة، إنها مثل كل مؤسسات الدولة تتركز الآن في يد واحدة، في مركز واحد، وإفْطَيِم بِّيْ دَي هي واجهة للمركز الرئيسي، الجيش. في تلك الظهيرة نفسها صعد مفوض الأمن شاهين نزّال إلى سيارة الرانج روفر التابعة للمديرية وتوجه إلى البيت القريب من الحي السكني لمعمل الورق، لزيارة حسيبة، والإتفاق معها على تفاصيل الخطة التي فكر بها. وبمساعدتها رتب مفوض الأمن شاهين نزّال كل شيء، حتى أن الأمر جرى بصورة سريعة، أذهلت كل الأطراف. ففي اليوم التالي فقط، زار أسيَدْ لوتي وقال له، إنه منذ زمن طويل في القرنة وهو يود التعرف عليه بصورة جيدة، لذلك فإنه يدعوه للعشاء في البصرة، في فندق الخليج. وافق أسيَدْ لوتي وذهب معه في اليوم التالي. وبعد مرور ساعة من جلوسهما في بار الفندق، ظهرت القوادة حسيبة مع فوقية محمود، إحدى القحبات المصريات، وتوجهت إلى مائدة الإثنين، وتصنعت الأمر لتقول، بأنهما مرتا بالصدفة، وسألت فيما إذا كان بإمكانهما الجلوس، فأشارا لهما بالموافقة. طلبا لهما بعض الويسكي، وظل الأربعة جالسين هناك ست ساعات. شربوا ثلاث قناني من الجوني ووكر (في الحقيقة لم تشرب المرأتان أكثر من

تصف قنينة). وفي الساعة الواحدة ليلاً غادروا فندق الخليج باتجاه القرنة، بعد أن طلبت المرأتان إيصالهما إلى البيت، فبالتالي لا بد أن يمروا في الطريق بمعمل الورق. لم يكن من الصعب ملاحظة أن أسيَدْ لوتي، كان أكثرهم سكراً، أولاً لأن الرجل لم يعتد الشرب (كانت معالي تشرب أكثر منه عادة!) وثانياً، كان قد ترك وراءه يوماً مرهقاً، إذ كان عليه في ذلك اليوم حرق خمسين نخلة مرة واحدة، لتسوية طريق سري لمرور الدبابات والمصفحات موازياً للنهر، بسبب احتمال هجوم مكثف أو إنزال كبير متوقع في الشهر القادم، للجيش الإيراني قريباً من القرنة، لعزل قوات الجيش الثالث المتمركزة هناك، وفصلها عن مركز العمليات. ما أن تحركوا بسيارة الرانج روفر بعد مغادرتهم فندق الخليج، حتى خاطب أسيَدْ لوتي الجميع واعتذر لتعبه، ثم نام وهو يجلس في مقعده الأمامي، بجانب السائق. لم يتوقع مفوض الأمن شاهين نزّال، أن كل شيء سيسير على ما يرام ودون تعقيدات، دون إلحاح منه، فحتى فوقية محمود اقترحت هي نفسها، أن ينزل أسيَدْ لوتي معهم، فهي تجده شخصية جذابة، وطريفة، وما زالت الطرائف التي رواها لهم عندما كانوا جالسين في الفندق، عالقة في ذهنها. وبالفعل لم يعترض أسيَدْ لوتي، كان ما يزال تحت تأثير خدر النوم، وبالنسبة له، الأمر سيان، فبالتالي لم تكن معالي حينها في القرنة. لم يدم الأمر طويلاً، إذ بعد عشر دقائق أو أكثر بقليل، كان أسيَدْ لوتي يستلقي عارياً بين ذراعي فوقية محمود التي كانت عارية هي الأخرى.

ربما نسي أسيَدْ لوتي تلك الليلة، لأنه لا يتذكر منها إلا النزر القليل، وكل ما بقي منها في ذاكرته، هو أنه استيقظ في اليوم التالي وصداع تصاعدت حماه في رأسه (كانت تلك الحمى البسيطة عادة التي كان يشعر بها مع ذلك الكابوس الذي لازمه على مدى السنوات الماضية، منذ أن فقد عائلته ـ خمسة أولاد وبنتين وامرأة ما زالت شابة وأم وأب كان صياداً ولسوء حظه لم يذهب للصيد لمرضه أثر سقوط صاروخ ضال أطلقته إحدى الوحدات العسكرية للقطعات البحرية المحلية التي كانت تمارس تمارينها سوية مع بعض القطاعات العسكرية الكويتية عند سواحل جزيرة بوبيان)، شفي منه بعد ثمانية أيام، رغم شربه أنواع شايات الأعشاب، والذي انتهى منه بصعوبة، ليعاودوه من جديد، عندما سمع بحالة التعبئة العامة التي أعلنت في المدينة، بسبب اقتراب الإنزال أو الهجوم المتوقع، والذي زاد من حدته، عندما واجهته معالي بثلاث صور له وهو عار بين ذراعي فوقية محمود، التي سمع إسمها ذلك للمرة الأولى من معالي. لم تصدقه معالي في البداية، لكنه راح يستعيد ببطء كل تفاصيل تلك الليلة، وأقسم لمعالي بأنه ذهب ولم يكن يعرف إسمها قبل ذلك، فحتى عندما كانوا جالسين في بار فندق الخليج، لم يسمعها تقول اسمها، رغم أن ذلك لن يغير من الموضوع، ولا من كونه هو أسيَدْ لوتي يرخي رأسه

بين ذراعي القحبة المصرية فوقية محمود، فأقسم لها مرة أخرى بأنه لم ينم معها، فقد كان سكراناً جداً، ولا يتذكر أنه فعل شيئاً معها، وأن كل الذي يعرفه هو أنه استيقظ في الصباح وصداع قوي، مثل الصداع الذي هجم عليه اليوم، يستحوذ على رأسه ويهد قواه. لم تصدق معالي، وقالت له، إن عندها الشعور بأنه يخونها مع امرأة أخرى. حينها تضاعف صداعه، وحدق بها طويلاً. كان يسترخي فوق الفراش، بينما راحت هي تتحرك في الصالون. كانا في بيت أسيَدْ لوتي، في بيتهما، وفي بيت الزوجية، دائماً يجري الحديث بطريقة تختلف عن الحديث في مكان آخر، أو عن الحديث بين غير المتزوجين. في بيت الزوجية، يعرف المرء البيت جيداً، يعرف كل زاوية، لذلك ترى دائماً أحد الزوجين، بينما يتحدث يتحرك، ولا فرق إن راح يكوي الملابس أو يسقي النباتات، أو يرفع الصحون، أو ينظم الطاولة، أو يفتح التلفزيون ويغلقه في الوقت نفسه، ذلك ما كانت تفعله معالي، فهي لم تجلس لحظة واحدة أثناء حديثها، كأنها مثل ممثلة في مونودراما، تمشي، وتلقي جملتها، جملة واحدة «لماذا تلعب معي، لماذا لا تقول الحقيقة، بأنك تخونني مع واحدة أخرى»، وهو يجلس يصغي لها مثل طفل، ينفي ذلك، بتلعثم، بحيرة، مثلما يفعل الأطفال أو مثلما يفعل المرء عندما يتوجه بفكره لشخص آخر، رغم أنه لا يقصد إهانة الآخر أو لعنته مثلما لا يتمنى له الخراب، أو العار أو الموت. كان بإمكانه أن يسألها مثلاً لماذا تغضب هي، ولماذا تشتغل عند إفْطَيِّم بِّيْ ذي، وهو لم يسألها يوماً عن طبيعة عملها، لكنه لم يفعل ذلك، لأنه يرى غضبها، وأنها بالتأكيد سترد عليه، وستقول له، تلك هي مشكلتك، لماذا لم تسأل، ولماذا تسأل الآن، فنحن لسنا مثل الأطفال، يقول أحدهم «إبن القحبة»، فيجيبه الثاني «أنت إبن القحبة»، وثانياً، إنه هو أسيَدْ لوتي الذي تعب من الإحتفاظ بالسر وعنده رغبة أن يروي لها القصة. سألها بصوت حائر عن مصدر حصولها على الصور، فقالت له:

ـ مفوض الأمن شاهين نزّال.

فقال لها:

ـ توقعت ذلك، إنه يحبك كما نعرف.

فأجابته:

ـ هو الذي يعتقد ذلك، لكنك تعرف بأني لا أحب رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة.

ثم أضافت بسخرية:

ـ كيف تحملت طوال تلك الليلة تلك الرائحة النتنة؟

لم يجبها. عرف أن بإمكانه في النهاية أن يروي لها القصة.

فقال لها:

- أنت على حق، أنا على علاقة بامرأة أخرى، ولكن ليست هذه الـ «فوقية محمود».

حينها قص عليها. ربما كان يشعر بالحاجة للخروج من الظل إلى الضوء، ربما تعب من الإحتفاظ بسر يثقل عليه، وربما كانت عنده رغبة قوية بالوضوح، بإمتلاك اليقين، بالطمأنينة والتوازن في داخل نفسه. حكى، وحكى، وكلما استمر بالحكي، كلما شعر بأنه لم يخرج كل ما في قلبه، بأن عزيمته بالحكي لن تنتهي، وأن عنده القدرة على الحديث حتى الصباح. حكى وحكى، لم يجب على أسئلتها، التي كانت تقل كلما زاد في الحكي، فقط، إنما حكى عن أشياء أخرى، بل راح يضع أسئلة لها وكأنها تسأله، ويجيب عليها هو ذاته. حكى وحكى، وعنده الشعور، بأنه لم يحكِ السر الذي يريد فقط، إنما خلطه مع أسرار أخرى، أنه يريد أن يفهم. حكى وحكى، ومن يحكي، يعرف كيف يوضح الأشياء بصورة تفصيلية مثلما يعرف توضيح نفسه بصورة جيدة، لأن الحكي هو مثل إقناع المرء لنفسه، بأنه بهذه الطريقة فقط سيفهم، أو إقناع المرء لنفسه هكذا يمكن فهم كل شيء، حتى الأشياء الأكثر شناعة، كل شيء يمكن غفرانه إذا كان هناك ما يستحق الغفران، كل الماضي بكل قوته أو تعقيداته أو بساطته، لأنه حدث ويجب العيش معه، منذ تلك اللحظة التي يقال فيها «كان»، يبدأ البحث لذلك الماضي عن مكان في الذاكرة لكي لا يمنع البشر من متابعة العيش، لأن ذلك حدث أو لأننا نعرف بحدوثه. لذلك فإن ما حدث هو أقل حدة بكثير من المخاوف والإحتمالات، أقل حدة من التوقعات والتصورات والأحلام الثقيلة والكوابيس، لأن كل هذه الهواجس لا يلحقها المرء في وعيه إنما يستبعدها بعد مكابداتها والتفكير بها في كل لحظة ولذلك تستمر برعبها للبشر، على عكس الوقائع التي حدثت، والتي تصبح توافه بسبب طبيعتها هي نفسها، وبالذات لأنها حدثت، وانتهى المرء منها، مهما كانت، خاصة إذا قال المرء، أنه كان عليَّ فعل هذا أو هذا بدل أن أكون فعلت ذاك أو ذاك، أو يقول، إنني فعلت ذلك، لأنني لم أجد مناصاً منه، والآن حسناً، يمكن معالجة الأمر بهذه الطريقة أو تلك، لكن غالباً، للأسف، يحكي، بصورة متأخرة قليلاً، أو يحكي دون طلب الصفح، أو دون أن يسأل المرء نفسه، وماذا بعد؟ مثلما كان أسيَدْ لوتي في تلك الظهيرة. كان يحكي ويحكي، عن المرأة الأخرى، التي قال عنها في النهاية:

- في الحقيقة، لا يمكن تسمية الذي بيننا علاقة...

سكت، رأى معالي تتطلع به شبه غائبة، تنحنح وكأنه يتردد بما يريد أن يبوح به، فأكمل بصوت ضعيف:

- كل ما بيننا، هو أننا نضرب بعضنا بالحزام...

ألقى تلك الجملة بشيء من الخوف، ربما لاعتقاده أنه سخيف أو سيفاجىء بذلك، لكن عبثاً، فهي ظلت بلا حراك، وكأنها تطالبه باستفسارات أكثر:

- لا أكثر ولا أقل، هي وأنا ننزع ملابسنا، أول ما نلتقي، نبقى في اللباس الداخلي فقط، تضربني هي بحزام جلد خشن، وأنا أضربها بحزام نايلون أخف، على الظهر، على الظهر فقط... مرات على الساقين... أو على الأعضاء... أقصد الأعضاء التناسلية، لكن ضربات خفيفة، ما تشبه ضربات الحزام على الظهر، الضربات القوية، اللي تترك أثرها.

وعند انتهائه من الجملة، أدار لها ظهره. لم تنظر إليه، وعرفت، مرة أخرى، أنها صحيح متزوجة من هذا الرجل، لكنها لم تعرف الكثير عنه، بل لا تعرف أبسط الأشياء، تضاريس جسمه. أرادت أن تقول له ذلك، أو على الأقل تصارحه، بلا جدوى علاقتهما ببعضهما، لكنها بدل ذلك، سمعت نفسها، تسأله عن اسم المرأة. أجابها ببساطة:

- وجيهة.

وكأنها لم تسمع الاسم، أو كأنها لم تكن معنية بالإسم، سألته:

- حسناً، والآن ماذا نفعل؟

خرج صوتها ضعيفاً جداً. بالتأكيد تعبت مثله، فالحكي، الحكي الطويل يتعب، ومثله الإستماع. لبرهة نظرت إليه معالي بجبين مقطب وبتركيز، وبدا كما لو أن الفضول والتعب وعدم الثقة بدأوا يتنازعون في داخلها. في تلك اللحظة نظر لها بعمق، فعرف مرة أخرى، بأنها أجمل من وجيهة، أكثر شباباً، وأنه مطالب بتوضيحات أكثر، أو أن يقول لها على الأقل ما يفكر به الآن. لم تتوقف من النظر إليه بجبين مقطب، وكأنها سمعت ما يفكر به، حينها فكر أن يقول لها ما يفكر به، لكنه بدل ذلك وجد نفسه يقول:

- هناك مشكلة أكثر تعقيداً.

قال ذلك بصوت يخلو من الرغبة بالتوضيح، وكأن تلك الطاقة في الحكي انتهت مرة واحدة.

ـ لم يبقَ هناك شيء يخيف. احك.

فقال بصوت متقطع.

ـ وجيهة تعرف الكثير، ويطلبون مني تصفيتها.

فقالت له بفضول:

ـ ماذا تقول؟ إحكِ.

لم يحكِ.

ـ الحكي يرهق. أنا مرهق.

ضغط على رأسه، وهو يقول تلك الجملة، التي لم تسمعها معالي حتى نهايتها، لأن صفارات الإنذار بدأت بعويلها الذي اختلط مع أصوات المدفعية والطائرات.

القسم الثاني

اللاوّيّون

- ٢٢ -

استيقظتُ بعد نوم سيء، نوم غير مريح، متقطع بشكل دائم، كان ثقيلاً طوال الوقت، أسود، كما لو أنني لن أستيقظ أبداً، كان نوماً دون أحلام، دون كوابيس، لم يكن هناك شيخ بهيئة جميلة - كما كان يحصل معي عندما كان يزورني شخص بعض المرات في أحلامي أيام كنت جندياً - على هيئة إمام مثلاً - يقول لي «ها إنني هنا» - أو أنثى تقول لي «لماذا تتركني أذهب، أنا أمك»، كان نوماً معتماً - مضبباً حالكاً بالسواد الذي غلف قلبي، وبدا لي أنه يجعل مني أعمى. استيقظت بسبب العطش. ومددت يدي إلى كوب من الماء تركته الليلة الماضية إلى جانب بقايا الأكل من الليلة الماضية، فوق المنضدة المجاورة للسرير، من جهتي.

انسللت بخفة، وتحركت ببطء. وقفت وفتحت النافذة، كان الليل يتوغل في روحه، والنجوم تتحرك ببطء. كان القمر باكتماله، وهناك بدا كل شيء يتحرك مثل الأشباح، والأشياء حيوية تنبض بالحياة، تزفر الأسرار أمامها، كل شيء مع سره، وكلها تتداخل مع بعض مرة أخرى، لذلك نحن لا نفهمها، ونعاني الخوف بسببها، بأننا تقريباً لا نفهم أي شيء منها، أي شيء. هناك وسط ذلك الليل، تختلط تلك الزفرات مع زفرات معالي، ليس في الفراش وهي نائمة الآن تحت الشراشف الوحيدة التي لها لون مضيء وسط الغرفة الصغيرة المكتظة بالأشياء المعتمة، إنما حتى ونحن في السيارة، دائماً تلك الزفرات التي تصاحب زفيرها، وكأنها فواصل أو فوارز تدسها بين الجمل أثناء الحوار. بدت لي أنها لا تعرف الصمت مثل باقي الناس، وكأن جسمها اعتاد على «جمناستيك» الأصوات، دائماً هناك صوت، لا يهم ما الذي يعنيه، ربما تعتبر الأصوات من جانبها إشارة للحياة. أعرف أن الكلمات هي مثل تلك الأشياء، مجرد جماد، الصوت

فقط يمنحها الروح، كل كلمة تتحول إلى هيئة، بل إلى كائن حي عندما نلفظها بصوت عالٍ. لكن تلك الزفرات، زفرات معالي، هي مثل زفرات المدينة في الخارج، مليئة بالأسرار، ليس لي القدرة على فك رموزها. بعض الأحيان يتهيأ لي بأن تلك الزفرات لا تخرج من فمها فقط، بل تجد طريقها إلى كل مكان فيها، أتخيل كل مسامة فيها مكبر صوت، أو ميكروفون، تعلن معالي فيه عن نفسها. وعندما تقلب جسمها وتُخرج أنيناً خافتاً، أسمع ذلك الصفير مثل سؤال:

ـ ما الذي تريده مني؟

أقف عند النافذة أسمع السؤال، في النتيجة نحن من يُحمّل الأصوات معانيها. وأتطلع بالجسد النائم أمامي: طوت نفسها مثل كتلة من الأسفنج، شعرها الأشقر المجعد غطى وجهها، وفمها ليس بالمفتوح أو المغلق، كان ينفتح وينغلق، كأنها تتمتم، أو تصلي، أو تطلب الماء، أو تقول لأحدهم في الحلم:

ـ لا تجلدني، أنا حبيبتك.

لم أرَ في وجهها الدائري أنها تطلب الثأر من أحد، أو أن هناك ما يزعجها، مع ذلك، ربما أسمع بذلك الصفير الذي يتغلغل في الغرفة وسط العتمة الواضحة، ويصلني حيث أقف أعاينها من الشباك، أنها حزينة، بل أنها غاضبة، لكن، عندي الشعور أن ذلك مجرد شيء عابر، كأن الغضب عندها مؤقت، حدث عابر لا يدوم أكثر من تلك اللحظة التي تختفي فيها الغمغمة وتبدأ غمغمة أخرى لتسأل:

ـ لم تجب، ماذا تريد مني؟

أشيح بوجهي عنها، وأنظر إلى الخارج. كم اشتهيت في تلك اللحظات أن أدخن سيجارة. ليس صحيحاً ما يقولون أن التدخين عادة سيئة وقبيحة. ممكن أن يكون مضر بالصحة، ولكن أليس مجرد العيش هو مضرة للصحة؟ كانت جدتي الأولى قررت في أواخر سنوات عمرها الكف عن الحركة، لأن خالي المثالي في كل شيء، لم يجعلها تنجو من نصائحه «العبقرية» الكثيرة وتصوراته حتى لها هي المرأة العجوز بحياة مثالية، أدخل في ذهنها فكرة «موت الخلايا»، وأن في كل حركة بسيطة منا تموت عشرة آلاف وتسعمائة وتسعين خلية، فقال لها تخيلي أن تلك الحركة تستغرق ثانية أو ثانيتين فقط، ففي النهاية تموت في اليوم مليونان ونصف من الخلايا، ولسوء حظ تلك الجدة، أنها كانت متعلمة بالقياس إلى جداتي الأخريات، كانت قابلة مأذونة أيضاً، تحرص دائماً على تمييز نفسها عن الجدات الأخريات، وإلا لو لم تكن كذلك، لما صدقت تلك الفكرة،

وقررت منذ ذلك اليوم الكف عن الحركة، حتى ماتت وهي جالسة. وعلى فراش موتها، سألوها ما هي وصيتها الأخيرة، فأجابت، ليس لها وصية، لأنها تموت سعيدة، فطوال تلك السنوات العشر التي ظلت فيها جالسة عاشت ثلاث سنوات أكثر مما يجب. على عكس الجدة الأولى، كانت جدتي فرجة، التي كانت تختفي غالباً، لم يسأل أحد عنها، لأنها أولاً جدة، وثانياً أين تكون قد ذهبت؟ كانت دائماً هناك في مكان ما، ولا يهم أين، ستظهر حتماً، مثلما لا يهم عدد الساعات التي تغيبها، كنت وحدي الذي يعرف أنها واظبت على الذهاب إلى المستشفى الجمهوري ـ إذا صدقنا أن لكل شيء مضاده فيُفترض أن عندنا المستشفى الملكي! ـ. لم تذهب إلى هناك يوماً لأنها مريضة وتريد العلاج، فكما أذكر حتى وفاتها لم تذهب للطبيب إلا مرة واحدة، عندما حملتها أنا مجبراً فوق كتفي بسبب الإنفلونزا الحادة التي أهلكت جسدها النحيل حتى ظننا أنها تموت، كلا كانت تذهب إلى هناك لأنها عشقت الجلوس في حديقة المستشفى، هناك تدخن سجائرها «المَزّبَن» أو «الرفاع» وتدردش مع القرويات القادمات إلى المستشفى. لم يزعج أمرها أحداً، لكن عندما اندلعت الحرب وبدأ القصف ـ كانت القرنة تحت متناول نيران المدفعية الإيرانية ـ أو تحليق الطائرات الإيرانية، بدأوا يقلقون على جدتي، وبدأوا يتساءلون أين يمكن أن تكون. فقلت لهم عليهم ألا يقلقوا سأحملها أنا على المجيء. ذهبت إلى حديقة المستشفى ورأيتها كالعادة تدخن سيجارتها وتحكي للقرويات عن الحرب بصوت عال ـ لم أصدق أذني، كانت تستخدم جملة قالها خالي (الذي كان شيوعياً قبل أن يتحول إلى مؤمن متعصب للشيعة)، ذات مرة في أول يوم من أيام الحرب بـ «أن هذه الحرب هي من تخطيط الإمبريالية»، جدتي تلفظ كلمة «الإمبريالية» بسلاسة، وهي تلقي رماد سيجارتها الذي يصير غالباً أطول من سيجارتها ذاتها، والقرويات يستفسرن منها عما تعنيه بهذه «الإمبريالية»، فتجيب جدتي دون حرج «خياتي الامبريالية هي اللي تسكن بالقصر الجمهوري»، تقول ذلك وكأنها تقول «تسكن في البيت المجاور»، وصرخت بها أن تنهض وتترك الحديث، لأن القصف بدأ يشتد والطائرات بدأت تزيد، رفضت النهوض، حتى أنني اضطررت لحملها هذه المرة فوق ظهري أيضاً. وحال وصولنا البيت حدثتها عن أمر الخلايا وموتها وكيف أنها لو اتبعت مثال أمها فستعيش ليس ثلاث سنوات فقط، إنما تسع سنوات أكثر، فقالت لي، إنها لا تريد أن تعيش لا تسع ولا ثلاث سنوات أكثر؛ أنها تريد أن تعيش وتحكي مع الناس متى تشاء، وإن عليّ ألا أتدخل في شؤونها، وأن أتركها لحالها، وأعود إلى بيتي، وأهتم بأمور زوجتي «المدنيّة».

تذكرت الجدتين وأنا أقف عند النافذة. للمرة الأولى فهمت ما كانت تعنيه. لم أشأ تلك اللحظة العيش ثلاث سنوات أو أربع أكثر أو أقل من اللازم، إنما كنت مستعداً

للتوقف عن الحركة، بل للموت بعدها لو استطعت إقناع نفسي بتدخين سيجارة. قلت لأتخيل نفسي بسيجارة عند الشباك. لكن هل يساعدني ذلك بمعرفة ما أريده من معالي كي أجيبها في النهاية، ليس بالضرورة عندما تستيقظ، إنما وهي نائمة. أردت عقد حوار معها وهي نائمة. ليس مثل ذلك الحوار الذي كانت تقوم به عمتي صفية مع الأموات، إنما أردت ببساطة محاورة الأحياء. وإذا لم أفعل ذلك بسببها، فعلى الأقل أفعله لنفسي.

لم تسألني معالي طوال الطريق هذا السؤال، وكان بإمكاني الإنفصال عنها ونحن على الطريق السريع، وحتى عندما وصلنا إلى هذا المكان وصعدنا إلى هذا الفندق، بل كان بإمكاني أن أقول لها عندما تستيقظ:

ـ إسمعي، لا أريد تكملة الطريق، كل واحد منا يذهب إلى طريقه، لا أنت تعرفين ما الذي تريدينه ولا أنا، ومن الأفضل للإثنين بعد كل ما حصل تجنب مضاعفات الطريق.

نعم من الممكن أن أقول لها تلك الجملة بطريقة نبيلة، أو أن ألقيها على طريقة أحد الممثلين الذين يقلدون طريقة الممثل المصري «يوسف وهبي»، والذي أراه في التلفزيون. لكن ماذا سأقول لو سألتني عن أية مضاعفات أتحدث، فهل هناك مضاعفات في هذه البلاد أكثر مما هي الآن؟ سأقول لها:

ـ أريد أن أعيش، فأنا لا أصدق أنني بقيت على قيد الحياة رغم كل الكوارث التي عشتها.

نعم سأقول لها ذلك. ولكن للحظة، أنها ستقول بالتأكيد:

ـ هل تعتقد أنني الأخرى أصدق أنني بعد كل ما جرى لي بأنني ما زلت على قيد الحياة؟

ربما ستقول لي أيضاً:

ـ من الأفضل أن يفعل المرء شيئاً، حتى وإن كان خطأً، على ألاّ يفعل شيئاً، وفي النهاية يبقى القرار قرارك، إن شئت أن تذهب، فاذهب، أفضل من تحطيم رأسك بالأسئلة!

حينها (كم تمنيت تلك اللحظة أن تكون السيجارة في فمي فعلاً، لسحبت نفساً عميقاً ونظرت لها نظرة متفحصة قبل أن أقول لها وداعاً، أو كما في الأفلام الانكليزية «باي باي»!)، هل أنا قادر بالفعل أن أقول لها «وداعاً»، بعد كل تلك المسافة التي

قطعناها: ثلاثمائة وستين كيلومتراً، وعلى الأقل خمس عشرة نقطة تفتيش؟ هل سأذهب إلى طريقي بالفعل؟ وما الذي أعنيه بكلمة طريق؟ هل عندي أصلاً طريق؟ وبماذا سأجيبها لو سألتني:

ـ أين ستذهب؟

ولا أستطيع إجابتها، فتقول لي:

ـ إذن من الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى!

كلا، نعم من الأفضل. أنا الذي يزفر هذه المرة، ولكن بعد سماعي تلك الزفرة التي تأتي من خلف ظهري، تمس ظهري مثل يد ناعمة بخفة، وتدور إلى جانب، تحرك قميصي، وتجس جهة الصدر اليسرى، تبعث معها الأنين، الوجع، وفي نفس الوقت تقول إصبر قليلاً «ستريك الأيام ما كنت جاهلاً» بيت آخر من المتنبي الذي تحبه.

وبدل أن أستدير وأعاين تلك المرأة النائمة هناك، وكأنني أخاف من زفرة أو غمغمة أو حركة أخرى منها وهي نائمة، ظللت على وقفتي، أراقب المدينة مثل طير يقف فوق منارة عالية. المدينة تصدح بين التلال المحيطة، النهر يقود الماء مثل سكك إلى خارج المدينة، بينما كانت النيران التي اشتعلت في صحون البيوت التي بدت بعيدة، أو الأضوية التي التمعت فوق قاشاني منارات المدينة العالية تشبه أضواء المنارات التي يلمحها البحارة من البعيد وسط وحشة وظلمة البحار الواضحة.

وبالتدريج أشعر بأسرار الأشياء تحيط بي. كنت مثل المحاصر تلك اللحظة: معالي من ورائي والمدينة من أمامي، وأنا أقف في الوسط، بلا سلاح، بلا قناع، بلا سيجارة، بل شعرت أنني حتى بلا ملابس، حينها سيطر عليّ ذعر أجبرني على لمس نفسي، لأتحسس القميص، لم أُخفض رأسي، كأنني أخاف من الفضيحة أمام نفسي، أن أكون قد نمت عارياً إلى جانبها في الفراش، يا إلهي لم أكن سكراناً في الليلة الماضية، إنها معالي التي أتت على كل الويسكي، الذي عثرت هي عليه في الأول ـ صدفة ـ عندما سقطت من يدها سيجارتها، في السيارة معبئاً في قناني صغيرة. اعتقدنا أولاً أنها قناني عقاقير طبية لأنها تشبه تلك القناني التي تُباع عند مداخل المستشفيات في البلاد، وكان عليّ أن أرى زجاجة الجوني ووكر الفارغة مرمية إلى جانب تلك القناني، لكي أتذكر ما قاله لي الدكتور ماجد عندما أوصلني للبيت في تلك الليلة التي حدثتني بها وجيهة للمرة الأولى عن حياتها بصراحة «الدكتور ماجد يعتقد أن زجاجة الويسكي تجلب له الفأل السيء، لذلك يفرغها دائماً في هذه القناني الصغيرة»، وعندما قلت لمعالي ذلك،

ضحكت بسخرية، وقالت «ذوق مريض»، ثم راحت تُدير الويسكي من القناني إلى قنينة الجوني ووكر، ثم تقول، «إذن لنشرب بصحة شرابك!»، ومدت يدها لي تناولني الزجاجة، فهززت رأسي بالرفض، حينها علقت «أحسن، سأشربها لوحدي»، وراحت تكرع، وهي تشحط مع كل جرعة، مثل مبتدئة تشرب للمرة الأولى، حاولت ثنيها، لكنها رفضت، وكأنها تُهيّء نفسها، للمصيبة التي ستحدث، وكأنها كانت تخطط لإطلاق النار على عسكر نقطة التفتيش الذين حاولوا إيقاف سيارتنا.

بقيت رافعاً رأسي، أغمضت عينيّ للحظات وتركت يديّ تنزلق إلى الجزء السفلي من جسمي. الحمد الله، ها أنا ما زلت في بنطلوني. إذن لم أخلع أية قطعة من ملابسي، وفي اللحظة ذاتها، هجم عليّ خوف آخر، ترى أتكون هي التي نامت عارية؟ فهي بالتالي شربت كل الزجاجة. في تلك اللحظة استحوذ عليّ رعب أن أستدير. إذن لأبقى: معالي من ورائي والمدينة من أمامي، وأنا بلا سلاح بلا سيجارة، بلا قناع، ليس عندي قدرة جند طارق بن زياد، إذا صحّ أنهم جميعاً واصلوا الطريق معه؟ ولكن ذلك ما قالوه لنا في كتب التاريخ، ماذا ستكتب كتب التاريخ عن لحظة وقوفي تلك اللحظة عند شباك الفندق الذي يطل على شارع يؤدي إلى مراقد دينية يبدو أن المدينة أرادت (على مر تاريخها) أن تنافس بها المدن الدينية المجاورة المكتظة بالمراقد التقليدية، وماذا سيكون لو كان أحدها هو مرقد مُفترض لإمام يذبح الناس أنفسهم في سبيله وعلى الفراش إمرأة غريبة عني، أطلقت النار على عسكريَّيْن وربما أردتهما قتيلَيْن بمسدس حملته في حقيبتها، لم أرَ شكله أو حجمه بالضبط، ولا أعرف من أين جاءت به، إمرأة أحاول التعرف عليها متأخراً، بعد حربين وبعد الكثير من خيبات الآمال والإحباطات. معالي من ورائي والمدينة من أمامي.

مرت ساعات وأنا أقف هناك، مفترضاً أكثر من سيجارة بين أصابعي، مثلما افترض الناس وجود قبر لجثة ذلك الإمام الذي بانت منارة ضريحه من البعيد، ضئيلة وصغيرة، أضواؤها تلمع عائمة وسط ضوء القمر، رجل يُفترض أنه قُتل شر قتلة ـ ويُقال إن أخاه قُطعت كل أعضائه وظل يقاتل بأسنانه! ـ، وإذا صحّ ما يدعونه فهذا يعني أن قتلته كانوا نبلاء لتركه يُدفن هناك، فعادة لا قبور لمن يقتله العسكر في هذه البلاد، وثانياً يعني أنني بالفعل دخنت السيجارة، أنا الغريب القادم من مكان آخر، والذي زار تلك المدينة التي نحن على مشارفها، للمرة الأخيرة عندما كان عمره أربع عشرة سنة، أنا الغريب الذي لا يعرف أين سيُدفن في بلاد أصبحت كلها مقابر، أنا الغريب الذي لا يجمعني مع هذا الغريب، المدفون هنا ـ كما يُفترض ـ سوى الموت أو القتل ربما، فأنا لم آت من بلاد أخرى إلى بلاد ليست لي فيها ناقة ولا جمل، مثلما لم

أقطع مثله بطاح وصحارى ومدن ومعسكرات ونقاط تفتيش ـ هل وُجدت في ذلك الزمان ـ بحثاً عن سلطة فقدها أبوه، إنما أصاحب امرأة يُفترض أن زوجها فرّ مع زوجتي أو فرّت زوجتي (إذا صحّ وإن لم تكن ميتة) مع زوجها، أو فرّت هي، (هذه المرأة) معي أو فررت أنا معها، وأصبحت شريكها في جريمة قتل لرجلين أو ثلاثة أو أكثر، المهم أنهم من رجال الدولة.. سيان، لا أريد شغل ذهني بأمر هذا الغريب الذي بدا لي مبهماً هو الآخر، والذي لا يهمني إن كان اسمه الحسين أو العباس، ولكن قصته، هو الذي جاء من تلك البلاد الغريبة، الحجاز (اليوم تأتي قوات التحالف من هناك، بينما يفرّ أحفاد أتباعه إلى هناك!)، تظل في النهاية بالمقارنة وقصتي مع قصة معالي مجرد قصة عادية بطرة، لها علاقة بالسلطة وخالية حتى من المغامرة، كما لو أنها تأتيني من زمن بعيد، زمن ينتسب للخرافة، زمن سحيق، زمن ما قبل الحرب. كل شيء مختوم بدمغة زمن ما قبل الحرب، حتى ماضيّ أنا، حتى حياتي أنا ـ هل كانت عندي حياة ـ؟، حتى وجيهة.. كم بدت غريبة عني تلك اللحظة، رغم إلحاح صورتها عليّ، وأنا أحاول جاهداً إبعادها عني، أصر على الوقوف عند النافذة. إنزلق القمر إلى الجهة الأخرى من العالم ليختفي هناك، وأصبح الليل أكثر ليلاً. حينها غطت النجوم السماء كلها، التمعت إنعكاسات المرايا تحت الشمس، تمنح الجمال للشارع الأبيض والأزقة الملتوية البيضاء، مروراً بالساحة المقابلة للفندق، ساحة الفلكة، بالأحياء المجاورة، بالشارع المؤدي للطريق الرئيسي (لم يكن بالطريق السريع) إلى تلك المراقد، حيث القباب، باتجاه المقبرة، التي يفترض بها أن تكون هناك، والتي استحوذت على كل الأراضي المحيطة بها، على ثلث جنوب البلاد، ونمت بعد الحرب لتصبح بلاداً لوحدها، بلاداً «غنية بالنفط» كما كان يدعي خالي الذي يفسر إضطهاد الشيعة في البلاد لهذا السبب:

ـ بسبب النفط خالي. بالقرآن مكتوب، الروح تصعد للسماء لكن العظام تبقى بالقبر. بمرور السنين تتحول إلى نفط.

وعندما يلاحظ نظراتي المتشككة، يسألني:

ـ تعرف شنو معنى كلمة نجف؟

وقبل أن أفكر حتى بمعنى تلك الكلمة التي كنت أسمعها يومياً، وخاصة أيام الحرب فإن تسعين في المائة من قتلى الحرب هم من الجنود الشيعة، قبل أن أفتح فمي سمعت خالي يقول بفخر ولكن بصوت واطيء وهو يتلفت يميناً ويساراً، وكأنه يلقي بسر كبير أو كأنه يعد لمؤامرة أو إنقلاب:

ـ يعني نه جف، والمعني هنا أغاتي بحر جف، وبالضبط بحر من النفط جف!

ولكي يقنعني أكثر كما كان يعتقد، أكمل يقول:

ـ صدقني لو بطلوا الشيعة من دفن موتاهم هناك راح تتخبل الحكومة.

لم تكن نظريته سيئة، فسألته:

ـ كيف تتصور الحل؟

فقال بهدوء وبوجه مبتسم كعادته:

ـ كلش بسيطة، بدل أن يرسلون موتاهم للنجف يرسلونهم لمقبرة حسن البصري بالزبير!

بدت لي فكرة عبقرية بالفعل، لكني أبديت شكوكي إزاءها، أو لنقل لكي أقتنع بها تماماً، كان عليه توضيح القضية لي حتى النهاية:

ـ خالي إقتراحك صعب، لأن عليك بالأول إقناع جماعتك الشيعة أن يُدفنوا بجانب السنّة، وثانياً، ما سوّيت شيء، الحكومة راح تصوّب عيونها باتجاه الزبير بدل النجف.

فأجابني بجملة كان عليّ تذكرها عندما نشبت الحرب الثانية:

ـ بما يخص الحكومة ما أعتقد، لأنهم ما يجبذون الدفن بمقبرة حسن البصري لأنهم يعرفون اليوم أو غداً راح ينتهي أمر الزبير، إما للكويت أو للسعودية، على الأكثر للسعودية لأن الزبيريّة الأصليين هم من قبائل نجد. لكن القضية هي قضية جماعتنا الشيعة شلون أقنعهم؟

بالفعل كان خالي في وضع حرج، فإنه بمجرد تفوهه بذلك الإقتراح ألّب عليه الكثير من علماء الشيعة، وخاصة أولئك الذين يجلسون على عرش الحوزة الدينية، لذلك لم تجد السلطة حرجاً في اعتقاله، في عام ١٩٧٦، في زمن لم يكن فيه من المعتاد اعتقال شخص بسبب أفكاره الدينية.

كان خالي مُدرِّساً للجبر قبل أن يختفي أثره مرة واحدة، عندما سمع أنه مطلوب من الإثنين من الدولة ومن رجال الدين الشيعة بعد صدور فتوى منهم بقتله. وأعتقد أنه عرف بخلفية الأمر، حتى أنه قال لي، قبل أن يختفي، بأنه يُشكل خطراً للكل لأنه دس أنفه في مجال محرم على العراقيين الخوض به: النفط. فالنفط ظل في يد الحاكم ونفر قليل محيط به، حتى أنني اكتشفت أن خالي لم يكن الشخص الخطر الوحيد، إنما كان وزير النفط هو أخطر شخصية في البلاد لكن أتعسها، فلو أحصينا كل الوزراء الذين خدموا في هذه الوزارة نجد أنهم انتهوا جميعاً إلى حتفهم إن لم يكن إلى مصيرهم المجهول

باستثناء الوزير الأخير الذي انتهى إلى منفاه الإجباري، والذي كان قائد الفيلق الثالث في البصرة والذي كان رجل أحلام ليس معالي وحدها بل بنات كثيرات من جيلها. بالتالي فإن وزارة النفط هي الوزارة الوحيدة التي لم يجلس على عرشها شخصية من عائلة الحاكم - إلا إذا شاء له الموت - مثلما هي الوزارة الأقل أماناً على سلامة حياة الشخص المستوزر. عندما فكرت بالنفط، فكرت بالفعل بجدوى ونفع التدخين، لماذا؟ لا داعي للإستطراد وشرح ما أعنيه.

مرت دقائق وأنا أتلذذ بمرأى السيجارة الوهمية في يدي. لبرهة رميتها تحت أقدامي. وما هي إلا لحظات لاحقاً، كم من الوقت لاحقاً، بزغ أول ضوء للصباح خلف المدينة خاملاً مثل مريض أو كسول أو ضابط يستيقظ من فراشه، راحت المدينة تحلّ عن نفسها السواد الواضح تدريجياً، وعندما اقتربت الشمس، التي لم تُر بعد كلها تصدها البناية التي نتواجد فيها، كانت تُسمع بين التلال المحيطة الأصوات المعتادة للمؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة. وتدريجياً مع تزايد أصوات المؤذنين - ربما كانوا عشرة أو عشرين من العميان، فحتى الآن لم أعرف مؤذناً غير أعمى - ومع طلوع ضوء الصباح، تُسمع حركة خافتة مثل صوت تثاؤب، تطير مع هواء المدينة. ربما صرخ ديك أو ديكان أو ثلاثة، لكن أصواتهما التي بدت في الوهلة الأولى بعيدة مثل لطخة الشمس الفضية المختفية عند التواءات شوارع المدينة وثنايا حنايا بناياتها، والتي يبدو أنها لا تستطيع التوغل بين شوارع المدينة وساحاتها وأسواقها، حتى تصعد إلى البناية التي نحن فيها، دون الإعلان عن نفسها أنها قادمة، مثل صوت المؤذن أو صوت الديك، نوع من التسابق غير المعلن من يستحوذ على المدينة في الأول: الشمس أم المؤذن أم الديكة، أو من الأول الذي يحرر الجسد المجهد، الذي يصر على التمطي في الفراش، يُردد أصواتاً غير مفهومة، ولا يُكمل طقس إستيقاظه إلا بعد أن يكون قد دخّن سيجارة.

ذلك الصباح دخّنت معالي سيجارتين، قبل أن تُخرج جسدها تماماً من الأفرشة البيضاء المجعدة، وتذهب إلى المرحاض في الممر. لم تكن عارية، هي الأخرى نامت بكامل ملابسها. كان وجهها متعباً، ربما لتقلبها غير المريح آلاف المرات، أو ربما لنومها غير المريح هي الأخرى، فقد بدت لي فاقدة الصبر تتقلب على كل الجهات.

كانت عندما تنام (حتى في تلك اللحظات القليلة التي نامت فيها أثناء قيادتي للسيارة)، تصبح جميلة مثل الصباح وغامضة مثل بزوغ القمر، القمر الذي كنت أبحث عنه عبثاً في أيام خدمتي العسكرية الأولى، أو أثناء عبورنا الطريق الصحراوي (الذي أطلقوا عليه طريق الموت تباعاً) باتجاه الكويت (الوحدات العسكرية من أجل احتلال الكويت وأنا من أجل البحث عن سهاد مهتدي الصباح).

ـ ٢٣ ـ

أول كابوس تجلبه الحرب هو الظلال التي ستتركها، والتي لن نتعرف على العالم فيها إلا على شكل أجزاء متناثرة؛ كما لو أن ليس هناك من وسيلة للتعرف على العالم الذي كان حتى فترة قريبة مرتبطاً بنا بصورة عميقة. لا أتكلم عن معرفة عامة للحرب فقط، إنما عما عشته أنا شخصياً، ففي ليلة وضحاها ثبت لي بأن كل ما تعلمته وما قرأته وكل ما عرفته من الناس، كل ذلك الذي رأيته من خلال العالم وأحسست به ما عاد يعني لي شيئاً على الإطلاق؛ كما لو أن الزمن تجاوز كل الناس الذين عرفتهم وكل الحِكَم والتصورات التي امتلكتها حتى اندلاع الحرب ـ ولا أريد أن أقول سَحَقَهم ـ كما لو أنهم انسلوا إلى ليل الأبدية.

أعرف أن سبب ذلك هو راديكالية الحرب، ولا حاجة لأن يقول ويشرحِ لي ذلك أحد. فذلك الذي يحدث ويتطور عادة في عشرات السنين، في قرون عديدة، تُجهز عليه الحرب كاملاً دفعة واحدة ـ أقصد كل تلك التغييرات المتعلقة بأشكال حياتنا وسلوكنا وثقافتنا ـ. وكأن الحرب تعوض عن عمق الإستمرار الزمني. تأخذ هذه الأضرار أشكالها في الحياة، في الأفكار، في المشاعر ـ ليس بالضرورة أضراراً، فإن الذي يسمعني أقول هذا الكلام الآن سيتعجب من سطحية حديثي حتى بعد يوم انتهاء الحرب ـ. ولا علاقة لذلك بنوعية ما تعلمناه أو بمقدار حميميتنا مع الشخص الذي ارتبطنا معه أو درجة قربنا أو مدى نفورنا منه. فكل شيء كنا نعرفه قبل الحرب يتجه إلى مسافة عميقة: يحمل دمغة «ما قبل الحرب». وكأن كل ما عرفناه يخص عصراً بعيداً وغريباً جداً. هكذا يغطس زمن الحرب في ماض بعيد، أكثر مما نستطيع أن نضع له تاريخاً. الحرب تُمزق كل شيء في النهاية، تعريه أمامنا، وكل شيء يصبح مباشرة بعد الحرب غريب عنا (حتى أهلنا الذين تربينا في أحضانهم) ولا يهم إن كان الشيء ثميناً أم عديم القيمة، كل ما يعود لزمن ما قبل الحرب لا يعنينا ببساطة، لأنه لا يقول لنا شيئاً عن تجربة الحرب التي سيطرت على حياتنا. ربما ـ يقيناً وليس ربما ـ نجد أنفسنا وحال أن تنتهي الحرب في فراغ مطلق، بأن ليس هناك ما يُمكننا الإستناد عليه، وكأن صدمة ما بعد الحرب تُكمل صدمة يوم اندلاعها. أعرف الآن ـ بعد مرور شهرين على انتهاء الحرب الثانية (متى انتهت الأولى!) ـ بأن هذا الفراغ لا يبقى مدة طويلة، ففوق الجراح ينمو جلد جديد (كما حدث في هذه الأشهر القليلة بعد توقف الحرب الأولى). ولهذا السبب فقط نبدأ في التعرف من جديد في مقدمات ما قبل الحرب على عالم هو شبيه بعالمنا الآن: بسيط بساطة الحياة، ومعقد بتعقيدها. والآن فقط يموت كل ما كان ليس بذي قيمة، ويبقى ما هو عزاء لتفسير ما حلّ بنا، وما سيحلّ.

لذلك يصعب عليّ جداً، الحديث عن الحرب بتفاصيلها، بل يتمرد الشخص الآخر في داخلي على رواية ما جرى بتسلسله الزمني البسيط. وما جدوى الحديث الآن عن أيام خدمتي الأولى (في الحرب الأولى) في خطوط الجبهة الأمامية، قبل أن يأتي أمر استدعائي السريع إلى وزارة الدفاع؟ وما جدوى الحديث عن غبطتي السرية عند سماع خبر دخول الجيش لمدينة الكويت. أنه أمر متناقض، صحيح أنني غير مهتم بأمر الكويت جدياً، وفيما إذا كانت بالفعل، كما شاء لها الحاكم وحزبه أن تكون «المحافظة التاسعة عشر» أم لا، فكل ما يهمني هو أن أكون واحداً من أعضاء الفريق الأعلامي الذي سيدخل إلى بناية محطة إذاعة وتلفزيون الكويت، لأرى امرأة الأحلام: سهاد مهتدي الصباح. كم من الليالي سهرت لوحدي أمام عدسة التلفزيون، حريصاً على مشاهدتها لوحدي. حتى عندما تزوجت، لم أرد أن تشاركني وجيهة متعتي الخاصة بمشاهدتي لها وهي تذيع النشرة الأخبارية، أو تقدم فواصل قصيرة، عن هذا البرنامج أو تلك المغنية أو ذاك المغني، وحتى عندما تركز عملها أكثر منذ الشهر الثاني من الحرب الأولى، على اعادة قراءة البيانات العسكرية العراقية التي يبعثها لها المسؤولون على المركز الإعلامي من العسكريين الكويتين المشاركين في مركز القيادة الميدانية للحرب، قبل أن تتفرغ نهائياً لكتابة الشعر، وأُحرم من رؤيتها يومياً في التلفزيون، حيث كان يُسمح لها بدخول القصر الجمهوري أو أي قصر آخر من قصور الحاكم لتلقي قصائد المديح له، فقط له، في حضرته، ولم يغيظني تغزلها به، بعيونه أو بشاربه، كنت أحبها، وكنت أضطر أن أسمع تلك القصائد الغثة التي كانت تلقيها، ويُقال إن شاعراً عربياً لبنانياً وآخراً فلسطينياً كانا يكتبان لها تلك الإنشاءات السمجة مقابل مبالغ طائلة. رغم كل شيء، بقيت على وجدي لسهاد مهتدي الصباح، وعلى العكس فإن ندرة ظهورها على شاشات التلفزيون مقارنة بظهورها اليومي الأول، زاد من وجدي لها. هكذا لم يفهم أي واحد من زملاء الفريق الإعلامي الذي صاحبته في الأسبوع الأول من دخول الجيش للكويت، عدم مشاطرتي لهم بما كانوا يحملونه من أمنيات. كانوا جميعهم فرحين، لا يصدقون أنهم سيدخلون الكويت، حتى يملأوا سياراتهم بكل البضائع التي لم توجد في بغداد أبداً. كانوا يتحدثون عن عطور الفيشي والتاباك ولافانديل، وصابون اللوكس وبنطلونات الجينز وقمصان الحرير، وثلاجات سيمنز وتلفزيونات فيليبس وسيارات الشفروليه والدودج والمازدا، لكنهم لا يسألون السؤال البسيط، لماذا لا نملك نحن كل هذه البضائع، رغم ثراء البلاد وعلاقتها الجيدة بالدول الغربية وخاصة فرنسا، وكان من السهل لها استيراد البضائع ذاتها؟ بدل ذلك كانوا يسألونني، عما سأعمله حال دخولي الكويت. «اللقاء بسهاد مهتدي الصباح». كم بدت لهم الجملة مضحكة. واعتقدوا أنني أمزح، لذلك لم يفهموا سبب الحزن الذي استحوذ عليّ، عندما عرفت، بأنها لم تكن في الكويت في ذلك الوقت، وكانت حالها

حال أغلبية الكويتيين في إجازة في لندن، هكذا راح الآخرون يفسرون سبب حزني، لأنني لم أرجع مثلهم بسيارات استحوذوا عليها هناك، وحملوها بكل ما طاب لهم، حتى بأتفه الأشياء، بقطع الصابون مثلاً! وهم ذاتهم الذين لم يفهموا حزني عند انسحاب الجيش من الكويت، ظنوا أنني حزنت على ضياع الكويت، «المحافظة التاسعة عشر»، كما أُطلق عليها رسمياً، ولم يعرفوا طبعاً سبب الحزن الحقيقي: كنت أعرف أنني لن أرى سهاد مهتدي الصباح بعد ذلك، وعليّ التدرب على غيابها من حياتي، ولم يحدث ذلك بسبب انسحابنا من الكويت، إنما بسبب ما جرى لها هي بالذات، ولم أستطع إنقاذها. القصة حدثت ببساطة ويُمكنني روايتها باختصار: بعد انتهاء عطلة سهاد مهتدي الصباح (أعتقد أنها كانت في لندن أو في بغداد)، رجعت إلى مدينة الكويت، وهي على عكس الكثيرين لم تَخفْ من العسكريين العراقيين، لأنها تعرف معظم الضباط، وخاصة الضابط الذي عينه الحاكم محافظاً لـ «كويت سيتي»، وظلت تعيش حياة طبيعية أثناء الاحتلال، رغم أنها ولسبب لا يعرفه إلا العسكريون القريبون من مراكز القرار، لم تظهر في أية واحدة من المناسبات الرسمية لتمدح الحاكم أو ضباطه كما كانت تفعل سابقاً في المهرجانات الأدبية، إنما اعتصمت في بيتها وصمتت (قيل أن ذلك كان أمراً من الحاكم، فلقد أراد أن يحتفظ بها مثل احتياطي، إذ كان يتفاوض معها على استلام منصب المحافظة، وكانت تقول له لينتظر قليلاً، إنها على استعداد لتسلم المنصب عندما تحين الفرصة)، حتى نزول قوات التحالف وطرد قوات الحرس الجمهوري التي أرسلها الحاكم هناك، ويُقال، بيوم واحد فقط قبل انسحاب تلك القوات، اقتحم بيتها محافظ «كويت سيتي»، ومع عصبة من الضباط، وقالوا لها، إنهم راحلون، ولكن قبل رحيلهم، عليهم أن يذوقوا طعمها (بالحرف الواحد قالوا لها «طعم كسك وطيزك»)، وأن ليس من العدالة أن الحاكم، هو الشخص الوحيد الذي كان يفعل معها ما يريد، ولتعتبر ذلك ما تشاء، جزء من خراب المدينة التي يتركونها خلفهم، هكذا أخرج المحافظ صفارة من جيبه، وصفّر، ليعلن بداية الهجوم: تسعة وثلاثون ضابطاً، بعدد سنوات عمرها، اصطفوا عليها بالدور، وراحوا يقلبونها وجهاً وقفا، حتى خرّت مغمية عليها، وهي منذ ذلك اليوم نصف مشلولة طريحة الفراش، تبلع الحبوب المُسكِّنة، وتكتب قصائد في مدح بلادها و«فلسطين» هذه المرة. هكذا كان عليّ أن أنسى سهاد مهتدي الصباح، معبودتي. الآن عندما أتذكر ذلك، أتساءل، هل كان بالفعل ذلك كل ما عشته، أم أن ذاكرتي (مثل أية ذاكرة أخرى) انتقائية، استل ما أريد إبهار معالي به، لا غير، لماذا لم أحدثها عن مشاهد الرعب هناك، مشاهد القتل والإغتصاب؟ هل لأنني لا أثق بها؟ هل لأن ما تفكر به لا يهمني؟ هل لأن رواية القصة لن تغيّر من مسار الأشياء، ولن تجعل ما حدث يصبح غير موجوداً؟ أم هي الهدنة غير المعلنة التي تعودنا عليها في البلاد؟ إذ أن هناك أمور عديدة

لا يتحدث عنها المرء، يخفيها تحت البساط. «نعيش مثل الناس التي كانت تعيش في أسطورة ملابس الإمبراطور»، تقول معالي، مشيرة للقصة التي قرأناها في درس القراءة في المدارس الإبتدائية، والتي حُذفت من كتب القراءة في المناهج المتأخرة. ربما يعتقد الناس بأن لا شيء يحدث لو كف المرء عن الحديث عنه؟ وأن مجرد تسمية الشيء باسم، هو ما يمنح الشيء مصداقية حدوثه؟

دون أخذ ذلك بنظر الإعتبار، لا يُمكن فهم فوضى واختلال وتداخل القصة التي أرويها، فليست الصورة التي أصفها وتسلسل منطقها هو الذي يُقلقني إنما تشظي القصة كلها، وتحولها إلى حطام شبيه بذلك الحطام الذي تركته الحرب فينا أو شبيه بتلك الآثار التي تتركها قنبلة تقع في الموقع غير المراد لها أن تقع فيه ـ أعرف أنه تشبيه غير موفق، لكن يمكن التغاضي عنه إذا أخذ بعلاقته مع فوضاي وفوضى الحرب ـ، ثم إن ما أريد قوله، هو أن هناك أناس يوجهون أنظارهم لما هو مشكوك فيه أكثر مما يوجهونها لما هو ثابت، وأعتقد أنني واحد منهم، إن الشيء ذاته لا يهمني كثيراً بقدر ما تهمني آثاره، أن ما يهمني هو أثر القدم أكثر من القدم التي سببت ذلك الأثر، سيان إن كانت قدم إنسان أو قدم حيوان أو ضربة قنبلة أو تهدم عمارة سكنية، ولكي أوضح ذلك أكثر أقول أنني رجل مشغول بالأثر لا يهم إن كان مادياً أم نفسياً، أكثر من إنشغالي في البحث عن مُنجز الفعل؛ ولتوضيح الصورة أكثر، فلو تخيلت نفسي ضابطاً في شرطة الإجرام ـ معاذ الله ـ فبالتأكيد لن يهمني مَنْ قتل مَنْ، إنما جلّ ما يهمني هي الأسئلة التالية:

أ ـ متى حدثت الجريمة؟

ب ـ أين حدثت الجريمة؟

ج ـ بأي سلاح تمت الجريمة؟

د ـ ما الذي تركه المجني عليه؟

هـ ـ كيف يُمكن تفادي الجريمة التالية؟

وربما سؤال واحد آخر أو سؤالان. وإذا ما انتهيت من ذلك، حينها ـ أعتقد ـ أنه من الممكن الإبتداء في طرح السؤال البطران:

ـ من ارتكب الجريمة؟

ربما علمتني الحرب ذلك؛ فإذا كان الكثيرون لا يعتبرون الحرب جريمة، فإن ذلك أمر يخصهم، لكن الأمر منتهٍ بالنسبة لي: «إنها جريمة»، ولو أسلمت نفسي للسؤال التقليدي الذي يأتي عليه ضباط شرطة الإجرام مثلاً ـ حتى شارلوك هولمز ومسيو دوبو

ومسيو غالان ـ هو من ارتكب الجريمة؟ هذا يعني إذا طبقت سؤالهم على الحرب، نكون كلنا مجرمين، ولكي أختصر الطريق على الحكم الذي نستحقه جميعاً ـ الإعدام أو إنجاز حرب جديدة، وإلا كيف يُمكن تفسير أن دولاً كبيرة تلجأ للقوة وقتل الآلاف من أجل تسليم «مجرم واحد» فقط؟ لا تعتقدوا أنني حصيف وذكي وأنني صنعت ذلك المنطق لكي أساعد أحداً. كلا؛ أنا صنعت ذلك المنطق كي أنقذ جلدي، المواطن البسيط: الذي اشترك في حربين، وقف غريباً في مدينة يُفترض أن أحد الغرباء مات فيها، لذا أطلقوا عليه إسماً معيناً، لكن إذا اتفقتم معي ممكن أن نُسميه بإسم آخر، ومن الممكن إن نطلق عليه إسم واحد منكم: عبد علي أو عبد الحسن أو عبد الحسين، أو عبد العباس، أو أسيَدْ لوتي أو عبد المعالي، أو عبد الوجيهة، أو إفطَيْمْ پّيْ دَيّ، نعم إفطَيْمْ پّيْ ديّ، لم لا؟

دون أخذ ذلك بنظر الإعتبار بعلاقته بما ذكرت قبل ثوانٍ، لا يمكن لأحد أن يفهم ما جرى لي ولمعالي. ولقول الحقيقة لا يهمني هذا الـ «أحد» بقدر ما يهمني أنني أنا نفسي لا أفهم ما حلّ بي، ما حلّ بمعالي، ما حلّ بوجيهة، ما حلّ بإفطَيْمْ پّيْ دَيّ، ما حلّ بأسيَدْ لوتي، ما حلّ بسُميّة، ما حلّ بماجد، بل حتى ما حلّ ببيت سمكة الجِصّانيّة الذي بَنَتْه وحافظت عليه لسنوات طويلة.

ـ ٢٤ ـ

إذا صدقت الرواية التي حكتها لي وجيهة، والتي حكاها لها أسيَدْ لوتي بعد عودتهما من إحدى رحلاتهما من بغداد، فإن فكرة البحث عن بيوت أسماك الجِصّانيّة وتحويلها إلى مخازن سرية للأسلحة الكيمياوية والجرثومية، كانت فكرة الكولونيل التشيلي الذي كان مسؤولاً على الحرس الجمهوري في قصر المونيدا (قصر الرئاسة). وهي التي ترجمت ذلك اليوم بين الكولونيل ووزير دفاع البلاد، لم تعرف ماذا يعني ذلك البيت الذي تحدث الوزيران عنه. ففي الحقيقة لم تملك أية مقدمات عن الموضوع، كما جرت العادة في بروتوكولات اللقاءات السابقة، المتعلقة بمشروع الصواريخ أو المدفع العملاق والتي كانت تحمل الشفرة التي اقترحها الكولونيل التشيلي مع زميله الكولونيل الأرجنتيني «كوندور». فحتى ذلك اللقاء، كان من المعتاد أن ترسل وزارة الدفاع في طلبها للحضور إلى شعبة الترجمة في الإستخبارات العسكرية، في بناية وزارة الدفاع في ساحة الميدان، وهناك يتفقون معها على مضمون المحادثات التي ستتم، ثم يأخذون منها تعهداً خطياً، ألا تبوح بأي سر مما يُقال هناك إلى الخارج، وهي تعرف عقوبة مخالفة هذا الأمر ـ حتى وصولنا فندق «الحيارى»، كنت بالفعل استغرب كيف أن وجيهة لم تُعتقل ولا مرة واحدة ـ. أعرف هذه الإجراءات لأنني أخضع لها أنا الآخر، وهناك مصادفات عديدة تمت،

بأننا ـ أنا وهي ـ نذهب إلى وزارة الدفاع سوية، إذا صادف حضور وفد من ألمانيا الشرقية إلى البلاد؛ أكثر المصادفات التي كانت تتم، في حالة قدوم وفد كوبي مع وفد من ألمانيا الديموقراطية، فحتى ذلك الحين لم أعرف لماذا كان يصر الوفدان على الحضور سوية إلى البلاد ـ عرفت بعدها، بأنهما حرصا على اللقاء مع بعض في بغداد بعد انتهاء زيارتهما، لتنسيق تعاونهما سوية بما يخص قطعاتهما العسكرية في أنغولا أو الموزمبيق ـ.

صحيح أن في بعض الأحيان تحدث بعض المفاجآت، كأن يطلب الوفد زيارة المدينة، أو يستعلم عن قضية لم توجد في البروتوكول. لكن بما يخص بيوت أسماك الجصّانيّة، كان كل اللقاء المتعلق بها هو مفاجأة.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تسمع فيها وجيهة عن سمكة الجصّانية، لكنها المرة الأولى التي بدأت تتخيل هذه السمكة التي لم ترها سوى مرة في حياتها، عندما خرج أسيَدْ لوتي حاملاً إياها، بوجه مجهد، وجسم هلكان، ليُلقي بها ـ في نفس يوم عقد قرانهما ـ أمام الحاكم الذي ارتدّت أقدامه قليلاً إلى الوراء حينها وأخرج مسدساً من جنبه، وضرب طلقة في الهواء ـ لا يُمكن وصف وجه أسيَدْ لوتي حينها الذي امتقع لونه وأصبح بلون مصفر، رمادي ـ؛ زغردت بعض النسوة من القريب، لبطت السمكة تحت أقدام الحاكم قبل أن تلفظ أنفاسها مباشرة عند رؤيتها فوهة المسدس مصوبة باتجاهها، وقبل أن تصل الطلقة إلى أحشائها. في تلك اللحظة صفقت الوفود الأجنبية المشاركة.

«Que Maravilla!» صرخ الكولونيل التشيلي الذي وقف بجانب معالي بنشوة.

لم ينسَ الكولونيل التشيلي منذ ذلك اليوم أمر السمكة. رغم أن وجيهة لم تترجم ذلك اليوم أموراً مهمة؛ حتى خطاب الحاكم كان مترجماً على ورقة بكل اللغات، ترجمت منه جملتين فقط: واحدة للكولونيل التشيلي، عندما عبَّر عن إعجابه بالخطاب، وطلب السماح بعرضه على رئيس بلاده لإلقائه في إحتفال يوم الجيش مع إجراء بعض التعديلات طبعاً ـ تغيير اسم نبوخذنصر الذي يأتي في الخطاب إلى محرر تشيلي وبابل إلى سانتياغو ـ، والجملة الثانية هي رغبة الكولونيل في زيارة ثانية وأن يكون البلد ـ لم ينسَ أن يُلحق كلمة العظيم ـ قد دخل حرباً بالفعل، لأنه حسب قناعاته التي امتلكها من زياراته المتعددة، أن قائداً كقائد هذه البلاد، لا يستطيع الرضوخ لتهديدات البلدان التي تُحيط به، وأنهم في تشيلي «حكومة وشعباً. . . الخ» سيساندون الجيش بحروبه ولا يهم ضد منْ.

بالفعل تحقق ما أراده الكولونيل التشيلي، ففي الزيارة التي تلت كانت قطعات الجيش تحاصر مدينة عبدان، وفي الزيارة الثالثة كانت قطعات الجيش تدخل مدينة

الكويت وكان ضباط الحرس الجمهوري يتغوطون في القصر الأميري الكويتي!

في ذلك اللقاء أعرب وزير الدفاع عن امتنانه لنجاح صفقة الأسلحة التي باعتها تشيلي للبلاد ـ الوزير استخدم بدل «باعتنا» الفعل «أعطتنا» ـ، ولكن يجب مناقشة أمر السلاح الكيمياوي. فأجاب حينها الكولونيل التشيلي، أن من غير الممكن الحديث بذلك قبل مجيء الوفد الأرجنتيني. أجابه الوزير أن «الأخوان» ـ استخدم الوزير كلمة الأخوان بالحرف الواحد! ـ سيصلون غداً. هكذا كان على وجيهة أن تبيت تلك الليلة في بغداد، فاقترح عليها الوزير مرافقة الوفد التشيلي إلى فندق ميليا المنصور، ثم الذهاب بعدها إلى نادي الفروسية في الجادرية. (لم تحكِ وجيهة عما جرى تلك الليلة، إنما اكتفت بالتلميح بأن الكولونيل التشيلي طلب منها مرافقته للفراش فرفضت بأدب!).

في اليوم الثاني بالذات وبحضور الوفد الأرجنتيني، قال الكولونيل التشيلي إن أفضل مكان لتخبئة الأسلحة الكيمياوية والجرثومية هو بيت سمكة الجصّانية، (أمر شبيه بما أشيع عن تخبئة الكويتيين للذهب تحت الماء).

وللمرة الأولى سمعت الحديث بالأرقام عن مساحة تلك البيوت، حتى تخيلت الأمر مجرد تغطية أو رمز لكي لا تعرف حتى المترجمة ذاتها الموضوع الذي يتحدثون عنه. لذلك وجدت نفسها تسأل أسيَدْ لوتي بحذر، فيما إذا كان للسمكة بيتاً له حجم معين، فأجابها بنعم، فسألته عن حجمه، قال لها من الصعب على المرء الذي لم يره تخيُلْ كبره. كان كمن شمّ رائحة أخرى تختفي وراء السؤال. لذلك كان حذراً في الإجابة، فلقد اعتاد حضور أكثر من لقاء بين وفود أميركا اللاتينيّة ومسؤولي البلاد بحضور وجيهة طبعاً. ولكن تحت إلحاح وجيهة، سألها بصوت لين وصريح:

ـ القضية من اليوم صارت خطرة.

فسألته:

ـ منين تجي الخطورة؟

فأجاب:

ـ من اليوم دخل إسم بيت سمكة الجصّانية ليصبح تحت كود سري للغاية.

فقالت له بطريقة ملتوية لم تخلُ من دبلوماسية، ولم تخلُ من صوت رقيق:

ـ إذن إحكِ لي قصة صيدك للسمكة.

فضحك أسيَدْ لوتي، وعندما كان يضحك يتهيأ للمرء أنه يضحك من كل قلبه، لكن الضحكة، كانت استراتيجيته يمنح عن طريقها نفسه بعض الوقت، لكي يستعيد

أنفاسه ويحسب لكل خطوة يخطوها:

ـ ست وجيهة ما أدري بهذا الزمن من الصعب الوثوق بأحد!

فقالت له مطمئنة:

ـ صحيح كلامك، لكن أنت وأنا نشتغل سوية ولازم نساعد بعضنا ونبني جسر من الثقة.

فأجابها بجملة لم تخلُ من الفطنة، لكنها لم تخلُ من السخرية المُرة أيضاً:

ـ تحكين مثل ما يحكون بالبيانات الرسمية بين الوفود في التمثيليات التلفزيونية.

فقالت ضاحكة:

ـ حياتنا صارت بهذا الشكل، صرنا نحكي مع بعض مثل ما تحكي الوفود الرسمية.

حينها ضحك الإثنان، وبدأ أسيَدْ لوتي بحكاية قصة صيد السمكة. لذلك عندما حدثتني بها معالي لم تُضف لها إلا القليل. فأسيَدْ لوتي لم يحكِ لوجيهة عن خوفه عندما كان في قاع الماء، إنما عن شجاعة وهمية، كأنه يُريد لفت نظر المرأة له وليس ثقتها به فقط التي نَمَت منذ ذلك اليوم.

ـ ٢٥ ـ

لو لم تزر إفطَيْمْ بِيِّ دَيّ البلدة في تلك الأيام، لما كان يُمكن لأحد التكهن بمصير أسيَدْ لوتي. ربما يكون قد أنقذ جلده بسبب عدم حاجة الدولة بالفعل إلى زراعة نخيل جديد، فلم تصدق عيون ضباط الجيش الميدانيين أنها سترى إحتراق وموت كل غابات النخل تلك الممتدة في الجنوب، وخاصة من منطقة القرنة حتى الأهواز والتي طوقت المنطقة كلها من جُفير والحُزمية وحميد ودوب السيد ونهر عمر وسوسانغيرد وكوت والحويزة بل وصلت شمالاً حتى ديزفول وجنوباً حتى بسيتين وخرمشهر. وفي تلك المناطق بالذات كانت تتحرك قواتهم ومعداتهم العسكرية. بالإضافة إلى أن النخيل لم يشكل أي اعتبار وأهمية لأولئك الضباط القادمين من مناطق الغربية، كانوا يكرهون النخيل أكثر من كرههم للمدينة. لكن أسيَدْ لوتي الذي كان النخيل جزءاً من حياته، وكان حتى ذلك اليوم، يعتقد أن حريق النخيل تم بفعل «هجمات طيران العدو» كما كان يُردد على أصحابه صاعدي النخل، والذي بحسن نية منه اقترح زرع فسائل جديدة، دون أن يدري أنه بذلك الإقتراح كان يحكم على نفسه بالإعدام، بل أنه لم يدرِ أن الحكومة المحلية ألغت بعد ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ الإحتفال بيوم الشجرة وأوجدت

بديلاً عنه عيد ميلاد «البطل صلاح الدين الأيوبي».

لكن مهما يكن، فقد كانت إفْطَيْم بّيْ دَي أكثر دراية منه في خفايا الأمور. بل في دخيلتها لم تُزعجها سذاجته على العكس، كان هو الشخص الذي احتاجته في تلك اللحظة، وحتى ذلك الأسبوع لم تصدق أن القدر سيقود لها شخصين تستطيع عن طريقهما تجاوز محنتها وأزمة الدعارة التي بدأت تعاني منها بعد ظهور قوادات محترفات وخاصة بعد غزو المتعلمات من خريجات الجامعة للمهنة، شاركن فيه الكثير من الأجنبيات أيضاً. فبطريقة ما عرفت إفْطَيْم بّيْ دَي أن هناك ما يشبه اللوبي العالمي بدأ ينافسها، وحالها الآن مثل حال محل صغير بجانب سوبر ماركت يُفتح بجانبه. لكنها البارعة في الإستراتيجية والتكتيك لم تستسلم بسهولة. وتعرف أن القدر دائماً حليف المجتهدين:

- كل شيء ولا تستسلم، الكبرياء والعزم يقتلن اليأس عندك.

هكذا قالت لأسيَدْ لوتي، عندما أرته علبة من النسكافة حفظت فيها سائلاً أبيض حليبي.

سألها:

- ما هذا؟

فأجابته:

- بزر ذكر سمك الحِصّانية.

فغر فاه، ولم يفهم.

فقالت له:

- القضية كلش بسيطة، أنت راح تصيد نثية الحِصّانية، مو ذكر الحِصّانية.

وعندما بدا حتى تلك اللحظة لا يفهم.

ناولته علبة النسكافة، وقالت له:

- إسمعني زين راح أشرح لك.

حينها جلس أسيَدْ لوتي مثل طفل في المدرسة الإبتدائية أمام معلمته، يمسك علبة النسكافة مثل دفتر مدرسي يحصل عليه للمرة الأولى، بينما ينظر لمحتوياته بين الفينة والأخرى أثناء شرح المعلمة له ما عليه من واجب مدرسي. الفارق بين ذلك التلميذ

وأسيَدْ لوتي هو أن الأمر لا علاقة له بالرسوب والتضحية بسنة، إنما يتعلق الأمر بحياته. لذلك كانت تشرح له كل شيء بالتفصيل، بل كانت تُعيد عليه بعض الأشياء إذا لم يفهمها.

قالت له عليه أن يستيقظ في ذلك الصباح، ويقول لنفسه «اليوم لازم ألتقي بمرة أنام وياها». وكان عليه في تلك اللحظة أن يداعب قضيبه، حتى ينتصب. حذار من القذف، يجب أن يخرج من البيت وكله شبق. فالسمكة ستكون هي الأنثى التي يبحث عنها، وحذار أن يعتقد أنه ذاهب لصيد سمكة في بطنها جوهرة كما في تلك القصة التي نعرفها ونحن صغار، على العكس، أنه في الطريق إلى صيد سمكة ممكن أن تُلقيه إلى حتفه. لماذا؟ لأن أنثى الجصّانية لا شغل لها غير بناء بيتها في قاع النهر، وبالذات على أطراف الهور، حيث تبدأ مياه الأهوار تصب في مياه شط العرب، فإن غاص من منطقة سوق الشيوخ والحمّار، والجبايش حتى القرنة، فلن يجد غير شوارع مائية مليئة ببيوت سمك الجصّانية، ولا يستغرب إذا ما رأى بيوتاً من عدة طوابق. هناك تعيش أنثى الجصّانية سنوات طويلة. بل بعضها يُعمر حتى المائة سنة، وطوال هذه السنين لا تفعل شيئاً غير الأكل، تجلس هناك، بانتظار ذكر الجصّانية الذي يغيب لزمن طويل لكنه لا يوازي عمر أنثى السمك في كل الأحوال، لذلك هو نحيف بنحافة سمك الشبوط، لأنه يغادر شريكته ليطوف مسافات طويلة، ويُلقح كل الأناث التي يلقاها في طريقه وحيدة في بيوتها مع أطفالها، وعندما يرجع يجلب معه حزمة صغيرة من البردي لتبني السمكة بيتها بها وليست تلك الحزمة غير اعتذار عن إهماله لها ـ هذا ما يعتقده هو ـ أنه يرجع لا ليُلقح شريكته التي تركها، إنما يرجع عندما تنتهي قدرته على اللقاح، يعود فقط ليموت، لكنه إذا وجد ذكراً آخراً في البيت لن يدخل، يؤجل موته، وينتظر في مكان موارب حتى يغادر ذلك الذكر، ليدخل ويموت على راحته. وعلى عكس ما يعتقد الذكر، فالأنثى لا تكترث لموته، بل تُلقي بجثته لأطفالها الصغار حتى يلتهمونها، إن وجدوا. وهكذا تستمر الحياة، فالإناث الصغار يبقين في البيت، فيما يُغادر الذكور البيت، ليبدأوا رحلتهم.

ولأن أنثى الجصّانية تُعمر عقوداً طويلة، فإنها تُصاب بالعمى النهري. لذلك فإن طعناتها مخيفة: «الحذر من طعنة الأعمى»، لأنها طعنة واحدة لا تُكرر ومميتة. وأنثى الجصّانية تُدافع عن بيتها بحماسة. وحتى ذكور الجصّانية لا يستطيعون الدخول إلى بيتها إلا وفي خياشيمهم حزمة من البردي. لذلك السبب كلما كثر رجال أنثى الجصّانية، كلما كثر أطفالها، وكلما كان بيتها عامراً، لهذا بنيت العمارات بدل البيوت، بسبب كثرة الأطفال. أما البنات فإنهن لا يغادرن إلا متى بدأن بإنتاج البويضة.

لذلك على أسيَذ لوتي، أولاً أن يدهن جسمه بتلك الحيامن التي احتفظت بها إفْطَيِّم يَّيْ دَي في علبة النسكافة بدقائق قليلة فقط قبل النزول إلى قاع الماء. وعليه ألا يقلق، فحيامن الجصّانية لزجة لا يقتلها الماء بسهولة كما يقتل حيامن الرجال، «لا تنسَ أن أضعف حيامن على الأرض هي حيامن الرجال، حتى الهواء يقتلها بسهولة». عليه ألاّ ينسى أيضاً أن يأخذ حزمة من البردي في فمه، كلما كبرت الحزمة، كلما أصبحت احتمالات دخوله عرين سمكة الجصّانية قوية، وعليه ألا يعير اعتباراً إذا ما رأى ذكر الجصّانية في طريقه أو عند الباب ينتظر دخوله ليموت، بل حتى إذا رأى ذكراً في داخل البيت، عليه أن لا يتباطأ في سحبه من زعنفته الخلفية ورميه خارج البيت، فليس هناك فعلاً مفرحاً لأنثى الجصّانية أكثر من ذلك الفعل. أما الباقي فهو أمر يبقى بينه وبين السمكة، فليس من السهولة إغراء أنثى الجصّانية. أنها أصعب من تسلق جبال الهملايا.

ـ فهمتني؟

سألته إفْطَيِّم يَّيْ دَي.

فأجاب وقد تصبب العرق على جبهته:

ـ أنه والله وسمكة الجصّانية!

فلم تجد غضاضة من القول له:

ـ إذا اعتمدت على الله فراح أنضيع. اعتمد على شهوتك. على رغبتك بالنيك.

ثم استطردت وكأنها تذكرت أمراً مهماً:

ـ لا تنس فكر باجر لازم إتنيك معالي!

فقال لها جملة لم تكن خاطئة:

ـ منو عرفك راح تكون أسهل من أنثى الجصّانية!

فقالت له:

ـ أدري، أنت على حق.

وقبل أن يخرج أعادت جملة بدت لها أهم من كل الجمل:

ـ حذار من طعنة الأعمى.

هز رأسه، وخرج.

دهن نفسه في اليوم الثاني ونزل. كان يوم ١٩ تموز/يوليو ألف وتسعمائة وثمانون، عندما نزل أسيَدْ لوتي إلى قاع نهر القرنة بالضبط عند ذلك الخط الذي يلتقي فيه دجلة بالفرات ويكوّنان بعدها شط العرب ـ في الحقيقة أنهما لا يلتقيان بل هو الفرات الذي يهجم على دجلة ويدفعه معه لينتهيان إلى شط العرب ـ، بالذات عند ذلك الخط الفاصل، حيث يُمكن تمييز لون الفرات الغريني الطيني اللون ودجلة الغامق بلون الرصاص، وعند ذلك الخط بالضبط ارتفعت الشجرة الضخمة، نصف قطر جذرها يتقاطع مع خط الماء الفاصل، تلك الشجرة التي تكون عادة معزولة عما يُحيطها بسياج صغير، ووُضعت فوق جذعها أفعى ضخمة بشعة وكريهة من البلاستيك لتوحي بتلك الأفعى الذكية التي أقنعت آدم وحواء بأكل التفاحة، «كي يخرجوا من جنة الله التافهة والمملة»، كما قالت له معالي.

في ذلك اليوم رُفع السياج، ليقف الحاكم تحتها، بقامته المربوعة الطويلة، ليُلقي خطاباً مهماً، بمناسبة مرور سنة على تسلمه الحكم ـ لم يقل «إستلام الراية» كما قال في اليوم الأول من تسلمه السلطة ـ وانتصار البلاد، على أعدائها «الأكراد الصهاينة»، وأن البلاد بقيت «كونه ـ في اللغة العربية الفصحى معركة ـ واحدة، إن لم تكن كونتين»، ثم إن سيادته فقط هو الذي يقرر. أحاطته حاشية كبيرة من الوزراء ـ لم يبقَ وزير واحد في بغداد ـ وخمسة وفود أجنبية: الوفد التشيلي، الوفد الأرجنتيني، الوفد البلغاري، الوفد الألماني الشرقي والوفد الفرنسي. . . ووفود أخرى شقيقة وصديقة. فيما توزعت حمايته على ضفتَّيْ النهر وتحصنت الدبابات والمدافع المضادة للطائرات على امتداد طويل للنهرين: من ناحية الغبشيّة على أطراف هور الحمّار حتى الهارثة ومن العزير حتى كرمة علي، فيما أُرسل كل أهالي القرنة ـ باستثناء النساء ـ لحراسة أبواب البلدة دون سلاح طبعاً بالعصي فقط. مشهد مؤثر بالفعل، تختلط فيه التكنولوجيا بالفولكلور. وقف الحاكم وسط تلك الحشود وقد هيأه مرافقوه للمفاجأة الكبيرة: «السمكة المعجزة سيدي»، وهو الذي لم يعرف جملة أخرى في قاموسه، قال له بلهجة آمرة مباشرة وبنغمة أهالي الغربية:

ـ «جيبوها»، وكأنها كانت امرأة سينام معها. فوضّح له أحد مرافقوه الذي كان زوج ابنته أيضاً، كما يعتقد، بأن هناك شخص من أهالي القرنة، صاعد نخل ـ عند تلك الكلمة امتدت يده للمسدس ـ «سابقاً سيدي» ـ تسترخي اليد ـ، وهو ديّاك وصياد سمك. فصاح بالمترجمين، وهو يأخذ سيجار الهافانا من الصندوق الصغير الذي بيد المرافق ذاته أمامه، ويقول بلهجته التي يثقل بها حرف اللام:

ـ «قللوللهم، عندنا سمك معجزة، ها؟».

لم ير أسيَدْ لوتي ذلك. وجيهة التي وصفت له ما جرى فوق وهما مسافران في الباص في طريقهما إلى القرنة، لأنه كان حينها في القاع، يصارع سمكة جصّانية، يبدو أنها كانت تنتظر مجيء أحدهم، ثم أنها يأست من كل ذكور الجصّانية، ولن تنفع معها لا «حيامن ولا بطيخ»، فلقد كانت تسكن لوحدها تعاني من ملل مر، ولم يكن عندها ـ ولسوء حظه وخيبته ـ بيتاً واحداً ولا بيتاً عادياً، بل عمارتين تتوزعان على جانبي الخط الفاصل، إلى جانبي لوني الماء، عمارة في دجلة وعمارة في الفرات متلاصقتان مع بعضهما، تشابك برديهما وكأن تلك العمارتين بنيتا منذ قرون.

وما أن لاحظ أسيَدْ لوتي أنه بدأ يتعب من صراعه معها بعد خمس دقائق، وأنه بدأ يفقد الهواء الذي خزنه في رئتيه، فكر باستراتيجية أخرى غير تلك التي شرحتها له إفْطَيْم بِّيْ دَي. فعكس كل توقعات المرأة وجد أنثى سمك جصّانية تختلف عن كل تلك الصفات التي سمعها من فم إفْطَيْم بِّيْ دَي. بالإضافة إلى كونها كانت تعيش وحدها، لاحظ أن بيتها من الكبر بحيث أنه لا يحتاج إلى بردي جديد ـ ألقى البردي مباشرة من فمه، ليساعد نفسه على الحركة بصورة أفضل ـ ثانياً لفت نظره أن كل ذكور سمك الجصّانية الذين يقتربون من بيتها، يسرعون في عدوهم فجأة وكأنهم يعرفون تلك الأنثى القابعة هناك، ولا يريدون التورط معها؛ وفي تلك اللحظة خطرت له فكرة لم تخلُ من المغامرة حينها وهي الإبتعاد لحظات عن بيتها ومسح كل الحيامن التي علقت به بغرين القصب الذي امتد على أطراف بيتها، ومعاودة الهجوم عليها. طبعاً كان من المنطقي البحث عن سمكة أخرى وفعل ما يفعله ذكر الجصّانية، ولكن اكتشافه كان أولاً متأخراً بعض الشيء، إذ دخل في متاهة بيت القصب الأول وليس من السهولة الخروج منه دونها ـ قالت له إفْطَيْم بِّيْ دَي أن أنثى الجصّانية لا تموت إلا عند مدخل بيتها ـ، ثم أن الأمر بدأ يعجبه، وأنه بدأ يثار بالفعل، حتى أنه رغم خوفه لم ينسَ شبقه تلك اللحظة. هكذا راح أسيَدْ لوتي يحوم حولها. ولمفاجأته اكتشف أن دخوله لعرينها وملاحقته لها دون الحيامن لم تثرها، حتى أنه كاد يتحرك ببساطة، إلى حين اكتشافه المفاجأة: ففي تلك العمارتين الكبيرتين وجد جبلين من الهياكل العظمية والجماجم. صعقته المفاجأة ولم تبقَ له حيلة حتى انتظار اللحظة الحاسمة. أخذ إحدى تلك الجماجم غطى بها وجهه وزحف خلف السمكة. في تلك اللحظة عندما نهشته السمكة نهشتها الوحيدة والقوية ظنت أنه مات، فاندفعت إلى باب البيت وكأنها تريد تنفس الهواء، كانت تلك فرصته للإنقضاض عليها، بالفعل شدّ فمها بحبل احتفظ به لهذا الغرض. كان عليه إخراجها حية.

في ذلك اليوم وبعد مرور سنة من تسلم الحاكم للسلطة، وإحدى عشرة سنة على ظهوره من العمل السري وانتقاله للعمل العلني، وتوافق عيد ميلاده مع قادة تاريخيين

وطنيين وعالميين، وبمناسبة انتصار البلاد على «الأعداء»، رمى أسيَدْ لوتي وسط تصفيق وضجة الجميع، وسط زغاريد النسوة ودهشة الوفود الأجنبية، وسط الغبار الذي أثارته جزمات عسكر الحرس الجمهوري والحماية وطلقات حاكم البلاد، رمى سمكة الجصّانية عند قدمي حاكم البلاد.

بالتوازي مع ذلك في تلك اللحظة:

تنفست إفْطَيْم يَيْ دَي الصعداء عندما سمعت الخبر ـ لم تحضر الحفل بتوصية من فوق ـ

فكرت وجيهة برجولة وشجاعة هذا الرجل، حتى أنها استخدمت العادة السرية في ذلك اليوم للمرة الأولى بعد مرور سنوات على زواجها. ولكن وذلك هو الحاسم، في نفس تلك اللحظة فكر أسيَدْ لوتي بمعالي، وتساءل مع نفسه، فيما إذا ستكون بصعوبة أنثى الجصّانية.

ـ ٢٦ ـ

تلك القصة هي آخر سر باحت لي به وجيهة، رغم أنها عندما رَوَتها، كان قد مرّ عليها عدة أشهر، وكانت الحرب الأولى تقترب من تكملة سنتها الأولى. بعد ذلك وعلى طول السنوات الأولى للحرب، وبالتدريج، وبالتوازي مع برودة علاقتنا ـ أنا وهي، ربما بسبب إنشغال كل منا بالمهمات الخاصة التي أُنيطت به، إذا احتجنا البحث عن عذر شرعي ـ نمت بينها وبين أسيَدْ لوتي لنقل علاقة ثقة غير عادية إذا لم نشأ تفسيرها تفسيراً آخر. فحتى ذلك الحين كنا ومنذ زواجنا معتادين على رواية أحدنا للآخر القصص المتعلقة بما يعيشه كل واحد منا سواء في عمله أو بما يحيط به، ورغم تباعد لقاءاتنا هذه المرة بسبب سفراتنا المنفصلة لبغداد، وبسبب تعييني مترجماً في النصف الثاني من سنوات الحرب في البصرة، إلا أننا كنا معنيين برواية كل تلك الملاحظات والإنتباهات التي تُثير انتباهنا وتُلفت نظرنا، وكنا متفقين على التعامل مع ما يجري، بعيون أولئك الذين يحضرون استعراضاً ما، أعتقد أنها هي التي استعارت ذات مرة أحد المقاطع لشاعر برتغالي إسمه بيسوا: «حكيمٌ هو من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم».

حتى علاقتي بها بدأت بنوع من الاستعراض. فما أزال أتذكر، عندما قدّمني إليها صديقي ملهم الذي كان يدرس الأدب الإنكليزي ـ ما زال أسيراً في إيران ـ. كنت أجلس في نادي كلية الآداب بجانب صديقة ملهم آنذاك، رباب، والتي أصبحت زوجته لاحقاً. كان ملهم القادم من عائلة تحب الأدب والفن ـ من العوائل الأرستقراطية المتعلمة

النادرة في البلاد ـ يطمح في تلك الأيام إلى تشكيل صالون ثقافي في بيتهم، لنلتقي فيه كل يوم خميس، وكان حريصاً ألا يحضر جلسات الصالون الذكور فقط، إنما النساء أيضاً. وكان يردد:

ـ ما قيمة قراءة الشعر والحديث عن الثقافة دون حضور نسائي.

أعتقد أنه كان جاداً في مشروعه، ولم يحمل في ذهنه نوايا ملتوية، كأنه يُريد عن طريق ذلك الصالون مثلاً السيطرة على قلوب بعض النساء ـ كما اتهمه البعض ـ، فقد كان يحب رباب ويحترمها، لكن يبدو أنها المرة الأولى والوحيدة التي أخطأ ظني فيها بـ «ملهم».

كنا تقريباً جميعنا في نفس المرحلة الدراسية، السنة الثانية باستثناء وجيهة التي كانت في سنتها الأولى، وهي من أوائل الطالبات اللواتي سجلن في القسم، وليس كما تصورنا في البداية أن فتح الفرع له علاقة بالأدب الإسباني، إنما فُتح ـ كما شرح لنا أحد مسؤولي الحزب في واحدة من الندوات الجامعية الخاصة بالمترجمين ـ لحاجة الدولة إلى مترجمين في اللغة الإسبانية وخبراء في الإصطلاحات الخاصة بصناعة الأسلحة والصناعات الكيمياوية والبكتيرية، لهذا فوجئنا بطبيعة النصوص الدراسية التي كانت في حوزتهم إذ خَلَت من الجانب الأدبي تقريباً، وإن وُجد فهو للتمويه فقط. والقسم الذي بدأ بصفين، توسع ـ مع توسع الدولة في تلك الصناعات طبعاً ـ ليستحوذ على كل الطابق الأول من فرع اللغات الأوروبية. في الحقيقة كنا مجموعة مثالية، نكاد نمثل كل لغات قسم اللغات الأوروبية: كان ملهم يدرس الإنكليزية، رباب تدرس اللغة الفرنسية، وجيهة اللغة الاسبانية، وأنا اللغة الألمانية، لم يبقَ لنا غير اللغة الروسية، التي لا أدري لماذا لم نُدخلها عالمنا، ربما لم نرغب يوماً في الرحيل إلى روسيا، فحتى اليوم أعتقد أن الحماس في دراسة أية لغة له علاقة برغبة الرحيل إلى تلك البلاد، التي تنتمي لها تلك اللغة.

أعتقد أن وجيهة هي التي قالت لي جملة «بيسوا» تلك في أول خروج لنا في نزهة بسيارة ملهم. فذات ظهيرة مشرقة بعد ساعة من المطر غادرنا الكلية وذهبنا إلى مكان قريب من الجادرية وجزيرة أم الخنازير. كان ملهم يعرف ذلك المنتزه الصغير جيداً. عند ممر مليء بالأشجار أوقف السيارة: هو ورباب في المقاعد الأمامية، وجيهة وأنا في المقاعد الخلفية. لم يقُدْ ملهم السيارة فقط، إنما كان يتحكم في تفصيلات طقسنا أيضاً. في الوهلة الأولى طلب منا أن نسترخي قليلاً، أن نسند رؤوسنا إلى مقاعد السيارة، ونترك لخيالنا الرحيل مع «منولوجنا الداخلي» ـ هكذا بالحرف الواحد» ـ. فعلنا وجيهة وأنا ما اقترحه ملهم، حتى أنني أغمضت عينيّ، ورحت أحاول الرحيل بعيداً، لكنني لم أفلح.

كان رأسي فارغاً، وعندما فتحت عينيّ رأيت يده تنغرس في شعر رباب التي استرخت تماماً مغمضة عينيها، وشفتاها الصغيرتان ترتعشان. ربما استغرق الأمر عشرين دقيقة، عندما رأينا ملهم يستعدل في جلسته ويقترح هذه المرة على كل واحد منا أن يقرأ قصيدة لأحد الشعراء الذين نحبه باللغة الأصلية للقصيدة.

قرأت أنا قصيدة لريلكة، قرأت رباب قصيدة لرامبو، قرأ ملهم قصيدة لبايرون الذي كان يعشقه بجنون، لكن وجيهة قالت فقط:

ـ حكيمٌ هو من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم.

في اللحظة فكرت، أنها رأتني أراقبهما، هي وملهم، عندما كانت أصابعه، تمسد رقبتها، شعرها. لكني طردت الفكرة من ذهني، لأنها كانت مغمضة العينين، مثلها مثل رباب. فكرت، من الأفضل انتظار ما ستقوله. لم أنتظرها وحدي، إنما انتظرها ملهم ورباب أيضاً، كلاهما ـ مثلي ـ فضولي لما ستفصح عنه. ربما توقعا مثلي، أنها ستقرأ قصيدة طويلة لـ «لوركا أو رافائيل ألبيرتي»، ولكنها صمتت. فسألها ملهم:

ـ هذا كل شيء؟

فأجابت:

ـ نعم، وهو ما قاله شاعر برتغالي إسمه «بيسوا» على لسان إسم شاعر آخر إسمه «ريكاردو رايس». لم نفهم ما عَنَتْه، فأضافت:

ـ بيسوا هو شاعر الأنا المنقسمة، الذات المتعددة، كان يكتب بروح أربعة شعراء مختلفين.

حينها سمعت ملهم يردد وعينه تسرح في البعيد:

ـ حكيمٌ هو من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم.

في تلك اللحظة سمعنا ضرباً لم يكن قوياً ولا خفيفاً، لكنه كان ضرباً أقوى من ذلك الضرب الذي نسمعه يضرب على باب مقفول من أجل السماح بالدخول.

فرأينا رجلين مسلحين. أنزل ملهم زجاج النافذة، وقبل أن يفتح فمه ليسأل، صاح الرجلان بصوتين ـ بديا تلك اللحظة مضحِكَيْنُ بالنسبة لنا، لقد تكلما في اللحظة ذاتها أحدهما بصوت حاول أن يكون لطيف، والثاني بصوت خشن:

ـ هوياتكم؟

أخرجنا هوياتنا إلى ملهم ليسلمها لهم من خلال زجاج النافذة، أخذها صاحب الصوت الخشن ذاك، فيما وقف الآخر يصوب الرشاشة ـ كلاشنكوف على ما أعتقد ـ إلى زجاج السيارة. لقول الحقيقة لم يتطلع الرجل بالهويات بصورة صحيحة، إنما أرجعها إلى ملهم بعجالة وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ اتحركوا من هنا، ولا تمرون بهذا المكان مرة ثانية!

شغَّل ملهم محرِّك السيارة، وعندما قفزت السيارة أمتاراً قليلة، ورأى ملهم وهو يتطلع في المرآة الأمامية إختفاء الرجلين، قال بغضب:

ـ بأي حق لا نستطيع الوقوف هنا؟

فقلت له:

ـ أنت الذي تنتمي للحزب يا ملهم وليس أنا.

فقال لي:

ـ وما هي علاقة الحزب بالقضية.

ثم أضاف وهو يزيد من سرعة السيارة:

ـ أنت الوحيد الذي لا تنتمي للحزب، حتى الآن.. حتى الآن.

وشدد على هذه الـ «حتى الآن» التي كررها مرتين. لم أشأ التعليق على جملة بدت لي ساذجة وسخيفة حينها. قالت وجيهة كأنها تُريد تهدئة الوضع:

ـ حكيمٌ من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم.

فضحكنا.

كان ذلك في ربيع عام ١٩٧٧، وكان ملهم ورباب مغرمين ببعضهما بشكل قوي، يثير الغيرة ـ أو هذا ما أوحاه سلوكهما أمامنا ـ، فيما لم تكن وجيهة بعلاقة مع أحد ـ على الأقل حتى ذلك اليوم لحد علمي ولحد علم رباب ـ، أما أنا فقد انتهت علاقة لي بثلاثة أشهر قبل ذلك مع إحدى الطالبات، اسمها فاتن (إذا يمكن تسمية ذلك بعلاقة، لأنها لم تدم أكثر من أسبوع!)، التي كانت تدرس الفرنسية هي الأخرى ـ والتي للمصدفة انتهت للشغل في شعبة المخابرات في سفارة البلاد في باريس ـ، وكنت في تلك الأيام أنتظر العلاقة المعجزة وكأنني أطبِّق جملة الشاعر البرتغالي «حكيمٌ هو من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم». طبعاً كنت أشعر بالميل لوجيهة. إذ كانت وجيهة بشكل ما قريبة من تصوراتنا التي لم تخلُ من مسحة ثقافية آنذاك، فأنا وملهم كما الشبان الآخرون،

نحلم بامرأة بملامح رزينة، لا تضع الماكياج بصورة مبالغ فيها، لا يهم إن كانت ليست بجميلة ولكن أيضاً يجب ألا تكون قبيحة. تلبس نظارات دائرية. لا أدري، المهم امرأة تملك ملامح المثقفات الفرنسيات اللواتي كنا نرى صورهن في المجلات الثقافية. ولقول الحقيقة لم أبذل الجهد في البحث عن امرأة كهذه، إنما حاولت صنع المرأة التي ألتقي بها على هذه الصورة التي في خيالي. حتى ملهم حاول صنع صديقته على هوى الصورة التي في ذهنه لأن رباب لا تملك ولو جزءاً صغيراً من تلك المواصفات التي كانت تملأ رأسه هو الآخر؛ بغض النظر عن ذلك، كانت رباب امرأة جميلة: شعرها قصير لونه أحمر، عيناها عسليتان، صدرها بارز ـ من ذلك النوع الذي كان يُطلقون عليه في الحرب وقبل نشوب الحرب بالصدر الصاروخي ـ تلبس بناطيل ضيقة تُبرز مؤخرة شهية. بالإضافة إلى ذلك لم تحمل مواصفات المرأة الرزينة، كانت تمشي بصورة ملفتة للنظر، تتحدث عن الجنس دون حرج، وبشبق من الصعب إخفاؤه، حتى أن ملهم يأتي بعض الأحيان وآثار العض على رقبته ـ لا أدري فيما إذا كان يتعمد إبراز ذلك أم كان ينساه ـ.

هكذا بوعي أو دون وعي كنا أنا وملهم نفكر بوجيهة أكثر. لكني لقول الحقيقة لم أفعل شيئاً، بل لم أحاول عمل ما يُلفت النظر أو يُنبهها إلى الإهتمام بي. قد تكون لاَحَظَتْ ذلك، أو تكون انتظرت مني الشروع بشيء، ولكن لم أَخْطُ الخطوة الأولى لا أنا ولا هي، كنا نحن الإثنان مكتفيين بالتفرج على استعراضهما وعلى استعراض العالم. لكن رباب وحدها التي أزعجها مجرى الأمور، وإذا كانت تحثني في الأيام الأولى على مصارحتي لوجيهة بمشاعري نحوها ـ هل يُمكن تسمية ما كنت أشعر به نحوها بالمشاعر ـ، فإنها بطَلت من ذلك في الأيام الأخيرة، وكأن قناعات جديدة تكونت عندها.

وبعد شهر من نزهة الجادرية، كنت أجلس في نادي الكلية، عندما دخلت رباب والسيجارة في فمها. كانت المرة الأولى التي تدخل فيها النادي وبفمها السيجارة، لأن البنات ـ باستثناء الطالبات العربيات ـ كن يُدخنّ في غرفة الطالبات. رأيت عينيها تبحثان عني. وعندما لمحتني أجلس في الزاوية ذاتها التي كنا نجلس فيها توجهت صوبي. كانت عصبية، ارتعشت السيجارة في يدها واضطرب صوتها:

ـ قوم، تعال وياي حتى تتفرج على استعراض العالم بالشكل الحقيقي.

وقفت. سارت أمامي بسرعة وكأنها تريد اللحاق بـ «استعراض العالم». هرولت خلفها. غادرنا مبنى كلية الآداب. استدرنا في الشارع الرئيسي المتجه إلى الوزيرية، إلى اليمين، وأخذنا الباص رقم ١٢. لم أسألها وكأنني تكهنت حقيقة «الاستعراض»، أو كأنها المرة الأولى التي لا أريد أن أرى استعراض العالم فيها. نزلنا قريباً من كورنيش

الأعظمية، وسرنا حتى وصلنا المقاهي التي بُنيت حديثاً هناك من البردي. أعرف تلك المقاهي واحدة واحدة، ففي العام الماضي كنت أجلس مع فاتن هناك. دخلت رباب إلى واحدة منها ودخلت وراءها حذراً. وهناك في زاوية المقهى جلس ملهم ووجيهة متلاصقين مع بعضهما وهو يداعب شعرها. كانت لحظة خاطفة، فلم أستطع تتبع كل ما حدث بسرعة؛ فقط رأيت رباب تأخذ سراحيتين من الماء وتكبهما فوق ملهم، هكذا مرة واحدة. وصاحت بالجالسين بصوت عالٍ «حكيمٌ من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم!».

في الطريق إلى الجامعة حاولت رباب رميَ نفسها في النهر، فرجوتها ألا تفعل ذلك، لأني لا أجيد السباحة، وليس بإمكاني إنقاذها. كانت تلك الجملة الوحيدة التي قلتها، ثم ركبنا الباص. لم نذهب إلى الجامعة. أوصلتها إلى بيتها في البلديات، وأنا ذهبت إلى القسم الداخلي. تلك الليلة لم أنم جيداً، شعرت بطريقة ما أن ملهم خانني، أما وجيهة فلم أعتب عليها في داخلي، إذ في النهاية لم تكن صديقتي ولم يكن بيننا أي وعد. لكن ملهم؟ كيف سمح لنفسه بذلك. لم يكن غضبي عليه بسبب علاقته مع وجيهة، إنما بسبب إخفائه العلاقة عليّ، وكأنه هو وليس وجيهة وليس أنا الذي كان مسؤولاً عن معاناتي بسبب تعلقي بوجيهة.

لم أذهب للكلية في اليومين التاليين. وعندما ذهبت في اليوم الثالث لم أتوجه إلى نادي الكلية. بقيت أتجنب دخول النادي، أو إذا ما دخلته كنت أعرف أنني لن أجد ملهم أو وجيهة. أما رباب، غابت عن الكلية شهراً كاملاً، قضته في المستشفى بعد عدة محاولات يائسة في الإنتحار. في المرة الأولى شقّت شريان يدها الأيسر طولياً وليس كما هو معتاد أن يفعل الآخرون عندما يقطعونه عرضياً، فإن احتمالات النجاة وفق الطريقة التي قامت بها هي صفر. وعندما أنقذوها بالرغم من ذلك، جمعت أوراق الصحف المرمية في الردهة، وأشعلت فيها النار، وفي اللحظة الأخيرة تجنبوا في المستشفى حريقاً كبيراً، ربما كان أدى إلى موت الكثير من المرضى. حينها قيدوها في سريرها، ولم يسمحوا لها في التحرك بحرية إلا بطلب. هذه المرة حاولت الإنتحار بشنق نفسها بلف سلسلة التواليت على رقبتها. وبعد إنقاذها أيضاً، بلعت في اليوم ذاته قنينة صغيرة من إبرة البنسلين، فأجروا لها عملية واستخرجوا الزجاجة منها. حينها قررت ترك فكرة الإنتحار، وقالت لي:

ـ ما يردوني أموت، ما أعرف ليش، على هذا الأساس قررت أن أعيش.

لذلك عندما طلبت منهم هي فتح قيدها، وأنها لن تحاول الإنتحار مرة أخرى.

صدقوها. لم تفعل ذلك بالفعل. وبدت بشوشة تمزح معي ومع الممرضات، مع الأطباء ومع المرضى. زرتها مرات عديدة، حملت لها باقات كثيرة من الورد. كنت أودها بشكل خاص، وفي داخلي انغرست رغبة قوية أن نكون صديقان. لا أدري، ربما لم أعتقد أن تلك الرغبة جاءت نتيجة شعور مشترك بالفقدان، كلا، كان ودي لها يمتزج بشيء من الاحترام، من العرفان، أن هناك نساءً مثلها؛ وأعتقد أنها كانت تقدر صداقتي لها. عندما غادرت المستشفى، قالت لي:

- أنت رائع.

وبقينا نخرج سوية. ولم تغير نزهاتنا ولقاءاتنا مشاعري، التي ظلت غريبة عن محيطها، تختلط بالصداقة وباليأس وبخيبة الآمال، فقد كنت أحدس بشكل ما، أنها وملهم سيعودان إلى بعضهما.

ذات مساء وأنا أوصلها بالباص إلى بيتها - كانت تعيش مع أبيها الأرمل فقط -. قالت لي:

- راح أصارحك بسر.

كنت أمسك يدها ونحن نسير في الشارع المؤدي إلى بيتهم، وكان الليل قد هجم على بغداد، وفوق حي البلديات.

- آني مو باكر. ملهم فتحني.

فقلت لها جملة لم أعرف مدى صدقها آنذاك، لكنها خرجت من فمي بصورة أوتوماتيكية، ولم أستطع إيقافها:

- عمري ما اهتميت بالأمر، هل أنت حزينة على ملهم أم على الغشاء.

فأجابت:

- مو هذا الموضوع الآن.

لم أفهم، فشعرت بيدها تضغط على يدي:

- أنت ما تعرف مدى قوة حاجتي لرجل؟ أريدك الليلة تنام وياي، أبوي مسافر وأنا لوحدي.

لم أفكر بالأمر طويلاً، ولدهشتي وجدتني أقول لها:

- مستحيل.

كانت تلك المرة الأولى والوحيدة التي تطلب امرأة مني النوم معها وأرفض.

حينها رأيت دمعتين تهبطان فوق خدَيْها الجميلين. ثم شعرت بها تسحبني فجأة إلى داخل الدار، تُلصقني بالباب، ثم تروح تحك نصف جسدها السفلي بقضيبي. كانت تلهث، وكنت أشعر بأنفاسها تلفح أذني، لتقول لي بصوت هجم عليه الشبق:

ـ عندك حق. لكن إبق عفيّة بمكانك وانتظر حتى تجيني.

لم تكد تُنهي جملتها، حتى شعرت بكل جسدها يرتعد، وبأسنانها تعض شحمة إذني، حتى شعرت بأنها تدميها. وعندما انتهت، افترت أساريرها وضحكت وقالت لي:

ـ أنت أحسن صديق بالعالم. أرجوك أريد تساعدني مثل اليوم، مرة واحدة بالأسبوع.

فعلت ذلك. واظبت على مساعدتها مرة واحدة في الأسبوع. ولا يهم في أي مكان نكون، مرات كنت أدعك يدي بين فخذيها في باص مصلحة نقل الركاب، مرات في السينما، مرات في المطعم، مرات عند زاوية شارع مظلم. كنت أتجنب تكرار المشهد الأول الذي حدث عند باب دارها. كلا، لم أشأ إخضاع نفسي مرة أخرى لغواية أن نكون هي وأنا في مكان مغلق لوحدنا؛ كنت أحتاج جمهوراً من الناس يحيط بنا، ولا يسمح بالتمادي أكثر. يكفي أنني نجحت مرة واحدة في الإختبار.

وفي تلك الأيام عرفت أكثر من أي وقت مضى بأن ملهم سيرجع لها، لأننا مهما حاولنا إخفاء الأمر، فإن الجنس يبقى محرك مهم لحياتنا. وأنني لخيبتي سأكون مع وجيهة، التي بالتأكيد ليست بشبق رباب، والتي سيمل منها ملهم بعد فتحه لها.

ـ ٢٧ ـ

كلا لم يَمِلْ ملهم من وجيهة، إنما هي التي تركته. جاءتني ذات يوم إلى الصف. كنا قد انتهينا للتو من درس الترجمة للدكتور عدنان الرشيد، كان قد خرج معظم طلاب الصف، ولم يبق غيري وطالبتان: حميدة نعناع ومفيدة كامل. كانت مفيدة قد فتحت للتو إحدى المجلات الجنسية التي حملتها كالعادة معها ـ اعتادت أن تجلب كل يوم خميس مجلة جنسية معها ـ، كانت واحدة من تلكم المجلات القديمة بالأبيض والأسود. كنا قد قلبنا صفحة أو صفحتين، عندما دخلت وجيهة فجأة إلى الصف. بردة فعل قوية، أخفت مفيدة المجلة مباشرة، فيما نظرت مفيدة كامل باتجاه الباب. من طرفي لم أرَ وجيهة في الأول لأني كنت أنحرف قليلاً، معطياً ظهري للباب. ربما رأت حميدة نعناع تطلع وجيهة

بي، فلا هي ولا مفيدة كامل كانتا قد عرفتا البنت من قبل، لذلك رأيتها تعاينني وتغمز لي باتجاه الباب. لملمت نفسي كمن ضُبط في جرم مشهود، ونظرت إلى الباب، رأيت وجيهة تقف هناك. لقد فاجأتني بالفعل، ولا أبالغ إذا قلت لم أعرف ما الذي عليّ أن أفعله؟ هل عليّ أن أصيح باسمها؟ هل علي أن أقول لها تفضلي وأقدمها للبنتين؟ لم أعرف. بقيت جامداً في مكاني، حتى أن البنتين جمدتا، هما الأخريتان لا تعرفان كيف تتصرفان، وعلى وجههما امتزج الفضول مع الإنزعاج، لقد فاجأتنا وجيهة في طقسنا الأسبوعي الذي اعتدنا عليه، نحن الثلاثة، أو كما كانت تُسميه مفيدة «الإستعداد لضرب جلق نهاية الأسبوع لتعش العادة السرية».

ربما لاحظت وجيهة ترددي، فصاحت وهي تتقدم باتجاهي بصوتها الجدي:

- ممكن تجي؟

أخذت كتبي والدفاتر وكأنني أعرف بأنني لن أرجع. قلت لحميدة نعناع ومفيدة كامل:

- «Aufwiedersehen».

فأجابتا سوية دون إخفاء ضحكتهما: «Scheise»

الكلمة الأولى التي تعلمناها في اللغة الألمانية.

لم أخفِ اضطرابي حينها، فأولاً فاجأتني وجيهة بزيارتها ذلك اليوم، وثانياً كان ذهني فارغاً من خلفية الزيارة، وثالثاً خفت أن يكون الأمر متعلق برباب، لكني كنت أعرف أنها كانت في المستشفى، هذه المرة بسبب إجراء عملية الزائدة الدودية، وأنها ربما ستخرج غداً أو بعد غد، حتى أنني كنت أفكر بزيارتها غداً الجمعة.

كنا أصبحنا خارج مبنى الكلية، فلاحظت أن وجيهة تحمل حقيبتها وكتبها أيضاً. سألتني:

- نروح للسنتر البريطاني أحسن.

هززت رأسي، وسرنا صامتين حتى مبنى المعهد البريطاني. في الحقيقة كان اقتراحها مناسباً جداً، فكنت أفكر ذلك اليوم باستعارة إحدى إسطوانات شوبان من مكتبة المعهد، لأن رباب أوصتني بها.

وعندما جلسنا وجلب لنا عامل المقهى قهوة بالحليب، قالت لي:

ـ من حقك أن تتفاجأ بزيارتي.

فقلت لها متلعثماً:

ـ أبداً.

فقالت:

ـ ما يهم، راح أشرح لك الموضوع بالتفصيل.

في تلك اللحظة بالذات، وعندما لفظت كلمة «بالتفصيل»، خطرت في ذهني للوهلة الأولى مذيعة التلفزيون الكويتية «سهاد مهتدي الصباح»، التي كنت أواظب على رؤيتها كل ليلة في القرنة، وهي تقول بصوتها «وإليكم الآن نشرة الأخبار بالتفصيل». ففي تلك اللحظة وأنا أجلس بجانب وجيهة في السنتر البريطاني، عرفت أن الإثنتين وجيهة وسهاد مهتدي الصباح لهما إستدارة زاوية الشفتين ذاتها، وللمرة الأولى يخطر على ذهني سؤال جدي جداً، فيما إذا كان تعلقي الغامض ـ على الأقل حتى اللحظة ـ بوجيهة له علاقة بوجدي بسهاد مهتدي الصباح. فكم ليلة من ليالي الصيف، كنت أحرص على النوم عند زوايا السطح، كي لا يلمحني أحد، عندما استخدم العادة السرية متخيلاً سهاد مهتدي الصباح بين ذراعيّ تحت سماء صافية. بالتأكيد كان هو السبب ذاته الذي جعلني أكون غائباً عن الوعي بعض الشيء حتى أنني لم أنتبه إلى جملة وجيهة حينها، إلا عندما رددتها مرتين، وفي المرة الثانية وهي تلمس ذراعي برقة:

ـ هل تعرف أنني أريد واحداً مثلي حكيم، يكتفي بالتفرج على استعراض العالم.

وعندما لاحظت أنني لم أُبدِ أي رد فعل، ضحكت وقالت:

ـ يبدو أنك ما سمعت القسم الأول من جملتي؟

فأجبتها:

ـ بصراحة كنت في مكان آخر.

فقالت لي:

ـ عندك حق.

ثم أضافت:

ـ أتعبتني مطاليب ملهم. يدس أنفه بكل شيء. وأنا أمنيتي دائماً أن يكون عندي شريك سلس غير فضولي يترك الأمور على بساطتها.

فسألتها:

ـ وهل هناك شخص بهذه المواصفات؟

فأجابتني دون تردد:

ـ نعم

ثم تطلعت بي قليلاً وقالت:

ـ أنت.

لو أقسمت بكل قديسي العالم ومعابدها بأنني في تلك اللحظة لم أسمع تلك الـ «أنت» تخرج من فم وجيهة، إنما من فم سهاد مهتدي الصباح. لذلك لم أتردد لأقول لها:

ـ تردين نتزوج؟

فقالت لي وكأن أذنها لم تصدق سماع جملتي:

ـ هذا اللي ردت أقترحه عليك.

هكذا في تلك الظهيرة قررنا وجيهة وأنا التخطيط لزواجنا. كان من الطبيعي لإثنين غيرنا، أن يتحدثا تلك اللحظة عن وجدهما، عن كيف أن مشاعرهما ضلّت طريقها بعض الوقت وانتهت إلى شخص آخر، وكيف أن هذه المشاعر الآن فقط تتجه إلى طريقها الصحيح؛ كان من الطبيعي لإثنين غيرنا أن يقولا تلك اللحظة، ها أنت كما ترى كيف أن الحب ينتصر في النهاية، وكيف أن «القلوب سواقي تجري»، وأن القدر لا يمكن أن يضلّ الطريق رغم كل شيء؛ كان من الطبيعي لإثنين غيرنا أن يرسما مستقبلهما، ويتباريان في قول تلك الجملة التي نسمعها في المسلسلات الإذاعية ونراها تُردد على شفاه أبطال وبطلات المسلسلات والأفلام التلفزيونية «أنت حبي الأول والأخير»؛ كان من الطبيعي لإثنين غيرنا أن يقولا لبعضهما «ليس لي أب أو أخ أو صديق أو حبيب أو زوج غيرك، أنت عالمي كله الآن»؛ كان من الطبيعي لإثنين غيرنا أن يقولا لبعضهما تلك الجملة المنافقة أو هذه الجملة الصادقة، ذلك الوعد المخادع أو هذا الوعد الصادق الذي يخرج من القلب، أن يقول المرء هذا وهذا وهذا...؛ لكن كلا، إثنان مثلنا لم يقولا لبعضهما أياً من تلك الجمل، إنما كانا يتكلمان منذ اتفاقهما وهما يجلسان في السنتر البريطاني وحتى خروجهما إلى شوارع الوزيرية، مثل وفدين سياسيين رسميين أو وفدين تجاريين يعقدان صفقة العمر. كنا أنا ووجيهة كمن يوقع على اتفاق تلك الصفقة، وسيان

ما يأتي بعدها، فما كان يوحدنا ويهمنا في تلك اللحظة بالفعل هو:

«التفرج على استعراض العالم»

وحتى تلك الصورة التي التصقت في خيالي عن «سهاد مهتدي الصباح» لها علاقة بـ «استعراض العالم»، فلقد استللتها من التلفزيون. كنت كمن على علاقة بامرأتين. المذيعة التلفزيونية ـ والشاعرة لاحقاً ـ في ليالي العطلة الصيفية في القرنة، ووجيهة في بغداد. وخاصة في المرحلة الأولى من خدمتي العسكرية، منذ تخرجي في آب/أغسطس ١٩٧٨ وحتى ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ (خدمت ما يقارب الشهرين زيادة على الخدمة العسكرية الروتينية التي على الخريجين تنفيذها بسبب نومي واستيقاظي المتأخر ـ ربما بسبب العادة السرية التي واظبت على ممارستها ـ)، ظللت أميناً للمرأتين، فإنني وطوال فترة خدمتي التي استمرت حوالي الستة أشهر في القاعدة البحرية في البصرة، كجندي لم تمر عليّ ليلة إلا في النادر ولم أشاهد فيها النشرة الإخبارية في تلفزيون الكويت، حتى راح جنود الوحدة عندما يرونني أمام التلفزيون في حانوت الوحدة، يعرفون أنني شغّلت التلفزيون على محطة الكويت، فراحوا يُطلقون عليّ «عميل الكويت». كم كنت أحزن عندما لا تظهر سهاد مهتدي الصباح.

ما تبقى من الخدمة العسكرية قضيته في معسكر التاجي في بغداد. لم أنم في المعسكر إلا أثناء القيام بالواجبات، إنما أجّرت غرفة في أحد فنادق باب الشرقي. هكذا كنت ألتقي بوجيهة بصورة دورية، ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل. الغريب أننا لم نذكر لا ملهم ولا رباب مرة في لقاءاتنا. ولكننا لم نفعل ذلك حتى عندما بدأت علاقتنا في بغداد. فمنذ يوم خروجنا في شهر حزيران/يونيو ذاك من السنتر البريطاني، وكأننا قد عقدنا اتفاقاً سرياً على عدم ذكر الإسمين. لم أكن سعيداً لذلك الاتفاق السري، ففي دخيلتي كنت أحب الإثنين: ملهم ورباب، وكان بودي الإلتقاء بهما ومعرفة أخبارهما. لم أملك أية ضغينة إزاء ملهم، كنت غاضباً عليه ليس إلا، وكان غضبي عابراً ومؤقتاً، لم أشعر بالرغبة في الإنتقام، بل لم أشعر بالإنتصار عليه عندما زارتني في ذلك اليوم وجيهة واقترحت عليّ الخطبة، ثم الزواج؛ على العكس، كان داخلي فارغاً حينها من أي شعور بالتشفي منه، مثلما يشعر المرء بذلك عادة، إزاء الصديق السابق لصديقته أو الزوج السابق لزوجته، ففي النهاية ـ الآن أعرف أكثر من أي وقت مضى ـ أن شعوراً مثل هذا خاطىء وسخيف، وعلى هؤلاء الأشخاص أن يفرحوا لأن أصدقاء صديقاتهم أو أزواجهن السابقين سيئون أو نذلون أو مزعجون، أو يحملون كل صفة سلبية، وإلا فإن المرأة التي معنا تكون ما زالت معه. لا أريد القول إن طريق الجنة يمر عن طريق الجحيم، ولكن كل ما أريد قوله، إن لم نشكر الذي سبقنا لسيئاته ـ لأنه فقط لهذه

الصورة دفع التي نريدها أو التي كنا ننتظرها باتجاهنا ـ إذن علينا على الأقل أن نسكت ولا نتحدث عنه بسوء. وأعتقد في النهاية أننا نفعل ذلك ـ هذا ما يحصل دائماً ـ لأننا نحب شخصاً ما ونعرف أن له علاقة سابقة مع أحد، نشعر بأنه خاننا، فكل محب يطالب بتضامن شريكه أو حبيبه حتى قبل أن يعرفه. لذلك يتشاجر الكثير من المحبين والمتزوجين الجدد ما أن يسمعوا بعلاقة أحدهم بشريك آخر من قبل، حينها يرددون «ما كان عليك أن تفعل هذا أو ذاك»، أو «كيف سمحت لنفسك بالذهاب مع هذا الرجل النذل أو كيف سمحت لنفسك بالذهاب مع هذه القحبة» ـ الرجال يستخدمون عادة لفظة «قواد» أو «حقير» في نعت الرجال الذين سبقوهم، والنساء تستخدم نعت «قحبة» ـ هكذا يستبدل المحبون والأزواج الاستراتيجية، فبدل الإنفصال والإنتهاء من العلاقة مباشرة ـ إذا كانوا أمينين مائة بالمائة لما يشعرون به ـ والإنتقاص فقط من شريكهم، نراهم يُقدسون شريكهم، لأنهم هم الذين يتخيلون ذلك، مجرد تصور يسقطونه على الآخر الذي يحبونه بأنه شخصية تقترب من المقدس فلماذا سمح بتدنيس نفسه مع شخص «سيء» دون استشارتنا أو دون انتظارنا، وليس هناك زمناً معيناً تُقاس به هذه المسافة الزمنية، فهي غير محدودة وأبدية، حتى أنها ممكن أن تبدأ منذ سنوات الطفولة الأولى. وهذا يصح للرجل مثلما يصح للمرأة.

من الغريب أننا ـ وجيهة وأنا ـ لم نفعل ذلك، وكأننا كنا نتفرج «على استعراض العالم» هذا. هكذا ظلت أحاديثنا تدور عن أمور عامة، ـ لا أريد القول إنها خلت من الوجد ـ، لم نتطرق لما هو شخصي إلا ما ندر، وإن فعلنا ذلك، فعلناه فقط بما يخص ترتيبات الزواج. لم نتحدث عن أمر مهم أو خارق، كانت لقاءاتنا عادية وكانت هي قد بدأت للتو في العمل في الترجمة في وزارة الإعلام، شعبة الإعلام العسكري، قبل أن ينقلوها إلى وزارة الدفاع مباشرة.

هكذا سارت حياتنا بهذا الإيقاع، حتى في ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، عندما قررنا الزواج في النهاية والإحتفال بالمناسبة في القرنة، حيث قررت وجيهة العيش معي، والإقامة هنا مؤقتاً.

ـ ٢٨ ـ

لم نختر نحن الزواج في يوم إعلان الحرب، بل هم الذين اختاروا ذلك اليوم للحرب، وكأنهم يمنحوننا استعراضاً آخر نتفرج عليه، رغم أن الإستعراض هذه المرة دموي أكثر. ولكن ربما كان تصادف اليوم مع زواجنا ليس بهذا القدر من السوء، إذ يبدأ مع صدمة يوم الحرب، تاريخ جديد، عالم جديد، والناس لا تعود هي الناس، فجأة نجد

أنفسنا بمواجهة سؤال بسيط: «ماذا سيكون لو جاء دورنا، لو كنا نحن في المقابل وليس الجار أو القريب ذلك الذي تُنهي عليه شظية في يوم واحد». طبعاً لم يسأل أحد نفسه بصوت عالٍ، لأن الناس لا تأخذهم مفاجأة الحرب معها فقط، إنما يكفي أن يستيقظوا في اليوم الثاني من إعلان الحرب، حتى يعرفوا أوتوماتيكياً أن عليهم تغيير إيقاع إيامهم وأشكال تصرفاتهم. كل ذلك يحدث بسرعة تعادل عشرة عقود من السنين ربما. والناس، وهم يتصرفون بهذه الصورة يفعلون كل ما يوحي بأن كل شيء لم يحدث، يلتقون في السوق أو في المقهى، أو تمد الجارة رأسها من الشباك، لتقول لجارتها، «كيف حالكم؟» فتهز الأخرى وتقول «على الله». رغم ذلك الإنطباع المكابر ضد التشكي وضد الخوف من الموت، إلا أن هناك لحظات تفضح درجة تغيرنا. ولكننا في لحظة الفعل لا نعرف بهذا التغير، نحتاج وقتاً طويلاً بعدها لنعرف أننا سلكنا ما لم يكن في الحسبان، وأن طبيعة سلوكنا ذاك يمكن تفسيرها فقط في علاقتها مع أيام الحرب. ولا أتحدث عن الناس عموماً هنا، إنما أتحدث عن وجيهة وعنيٍّ. إذ أنني أسأل نفسي الآن فقط ما الذي كنت سأفعله، لو كانت ليلة العرس من غير الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠، حيث جاءتني وجيهة بالخبر اليقين:

ـ قبل أن تنام معي، أريد أصارحك بحقيقة، أنا غير باكر.

هل يمكن لو لم تكن الحرب تلك الليلة، أن أقول لها بتلك السهولة:

ـ وماذا يعني ذلك، غير مهم.

ولو قبلت السؤال وقلت لو لم تكن الحرب، هل صارحتني وجيهة بالحقيقة، وهل تراها تمادت في سؤالي تباعاً، وكأنها لم تتوقع إجابتي، أو كأنها اعتقدت بأنني أكابر وأفتعل، لذلك حاولت مرة وأخرى مجرباً مع نفسي نوعاً من السادية.

«هل تخاف أن تعرف الفاعل وليش؟»

كنا نجلس لوحدنا في غرفة معتمة تقريباً فوق السطح، وكان الضيوف قد انسحبوا جميعاً إلى بيوتهم، أما أمي وأبي فقد ناما تحت ليتركوا السطح لنا. كانت هي مستلقية إلى جانبي، للمرة الأولى عارية من كل شيء باستثناء نظارتيها. وجيهة الرزينة عارية لم أصدق ذلك، حتى أنني لم أنظر إليها بتمعن، لم أسمح لنظراتي في التجول فوق جسدها، وكأنني كنت أخاف شيئاً ما. لكن ماذا؟ لا أدري فيما لو كان هو ذنبنا في النهاية: نقسم النساء إلى قسمين، هذه المرأة للجنس فقط، لذا أول ما نفعله عندما نختلي بها هو تعريتها تماماً، تعريتها بحمى فضولنا ولوعة جوعنا الجنسي، والمرأة الثانية نقول

ستكون هذه زوجتنا، لا نحاول مسها، وأقصى ما نفعله معها هو تقبيلها، وكأن الجنس فعل مدنس لا علاقة له بالزواج: الأولى عاهرة أو كما يُقال في اللهجة العامية «قحبة» والثانية «زوجة». أتذكر في إحدى المرات أن أحد أصدقائنا المتزوجين كان يتحدث في لحظة سكر أمامنا عن متعته قبل ليلة واحدة وكيف أنه للمرة الأولى يجرب ممارسة الجنس مع واحدة بإدخال قضيبه في مؤخرتها. ربع ساعة وهو يشرح لنا متعة ما فعله، وكيف أنه في النهاية كان يشعر بأنه يضع قضيبه في حفرة. ولكن للحظة واحدة فقط أفاق إلى وعيه تماماً، فقال مستطرداً:

- أرجوكم لا تفكرون غلط ، في الحقيقة البارحة نمت مع بنت من قحبات منطقة ٥٢.

وعندما نبهه أحد الجالسين، بأنهما شربا البارحة سوية وأوصله هو للبيت، نشبت معركة حامية مع الإثنين:

- يعني معنى كلامك كنت أقصد زوجتي.

لا يهم من كان منهما صادقاً، لكن ما يهمني هو سبب تأكيده على أن تلك المرأة التي تحدث عن نومه معها ليست زوجته، لكي يُبقي صورة زوجته «مقدسة»، وكأنه لا يمارس معها الجنس.

فكرت بتلك القصة وأنا مستلقٍ بجانب وجيهة، في غرفة شبه معتمة، أشعلنا فيها شمعة أخفيناها عند زاوية الغرفة، ولم نغلق لا الستائر ولا الشبّاك كي لا نلفت النظر لمنظر الضوء في غرفتنا. كانت تلك أول أيامنا مع التعتيم. رغم أن تلك الليلة مرت دون تحليق أية طيارة، كأن إيران استنفذت في الغارة الجوية التي قامت بها مساء - كانت حفلتنا حينها قد بدأت للتو - كل أهدافها، أو أن السبعين أو الثمانين طائرة التي حلقت في مساء واحد تستعيد قوتها وطياروها ينامون نوماً عميقاً، لكي يوقظونا في الصباح. حتى أبي قال:

- من باچر بعد ما راح يقعدنا من النوم صوت ديك أو نهيق حمار، راح تفززنا أصوات الطيارات.

فأجابه أسيَدْ لوتي:

- أو على صوت هلهولات مدفعيتنا المضادة للطيارات.

لم نسمع صوت طائرة، فقط حفيف خفيف لنسمات عليلة يبعثها ليل أيلول/ سبتمبر

كعادته؛ حتى تلك الليلة لم تكن الحرب قد غيّرت عادات الهواء.

- يعني ما تريد تعرف.

شعرت بيد وجيهة تداعب شعرات صدري القليلة.

ربما كنت غائباً عنها بعيداً تلك اللحظة - أعتقد أنني فكرت بملهم وبرباب، وكنت أتساءل مع نفسي، كم كان بودي دعوتهما للعرس، لكن وجيهة هي التي رفضت - لذلك وجدت نفسي أصحو على يدها وهي تداعب أنفي، فتنحنحت - تعرفون استراتيجية النحنحة - كي أفكر قليلاً، ماذا يمكن أن يكون سؤالها، عبثاً حاولت، فلم أجد جواباً مناسباً، لأني لم أصغ لسؤالها هذه المرة. لكن البشر ماهرون في اختراع وسائل الدفاع عن أنفسهم إذا ما ضُبطوا بالجرم المشهود، مثل الأطفال: الفارق الوحيد هو أن الأطفال يفعلون ذلك بتلقائية وبراءة لا تترك أمامنا خياراً آخراً غير الضحك منهم ومعانقتهم، لكن البالغين يفعلون ذلك بصورة ملفتة للنظر يعتقدون أنهم يقدمون بعذرهم حجة دامغة، لكن كلا، حججهم تثير السخرية، لذلك عندما فكرت في تلك اللحظة، بما يمكن أن يكون سؤالها، فكرت أن من الأفضل أن أعطيها جواباً يصلح لكل سؤال، فقلت:

- كل الأجوبة مفتوحة.

حينها رفعت وجيهة جزءاً من جسدها العلوي، فرأيت أثداءها متهدلة. لم أستطعْ تلك الساعة تجنب النظر إلى ثدييها. كان لوجيهة ثديين كبيرين، ضخمين، تحركا وسط الظلمة مثل كيسين من اللبن الرائب، ووسط تلك الإلتماعات رأيت حلمتيها اللتين بدتا كبيرتين بصورة غير عادية، كانت حلمتا أم رضيع. في تلك اللحظة فقط فكرت بجدية ماذا يكون سؤالها، فقلت لها:

- بصراحة ما سمعت سؤالك بالضبط.

فقالت لي بصوت بارد وقد رأت إلى أيّ مدى وصلت إليه:

- أنا حامل.

لم يستغرق الأمر إلا ثوان، وقبل أن تبدأ تكملة جملتها، قلت لها:

- أكيد تمزحين؟

كانت المرة الأولى التي بدأ العالم يبدو لي بصورة ما ليس مكاناً للإستعراض فقط، إنما يصبح عالمي أنا؛ أو أنني أنا الذي يجلس في الإستعراض تحت المنصة.

ـ لا، لا تعتقد أني أمزح.

لم تخطر في ذهني حينها جملة أخرى فقلت لها:

ـ هل نمت مع ملهم مرة أخرى؟

فهزت رأسها بنعم.

لو قالت لنا ذلك المرأة التي صنفناها للجنس فقط لقبلنا الأمر؛ بل أننا لا نصغي إلا لما تقوله فقط، ونبدي تفهماً، إنما نَشُدُّ على يَديْها ونقول لها «عظيم ما فعلتيه، برافو!»، حتى أن بعضنا، أولئك الذين يتبجحون بالتحرر ويرددون كلمة «الحرية» ملايين المرات على شفاهم، بمناسبة أو من غير مناسبة، سيقولون لها، عليها ألا تهتم، وأنها بالتأكيد ستجد الرجل الذي يتفهم ذلك، وسيتزوجها؛ طالما لا نكون نحن المعنيون بالقضية. ولكن أن تقول لنا ذلك المرأة التي جعلنا منها ملكة على عرش مشاعرنا، ومنحناها ألقاباً عديدة، فإن الصورة تختل عندنا، حتى أننا نبقى صامتين، ننتظر منها التعليق، وكأن من سمع الجملة هو نحن. بالأحرى لا ننتظر تعليقاً منها، إنما ننتظر تبريراً. في الظاهر يُسمع التبرير كما لو كان عذراً لفعلها، وليس هو في الحقيقة تبريراً لظنوننا التي ضلت طريقها، لا عن خطأ إنما نحن من قادها وبوعي إلى الضلال. انتظرت تلك اللحظة أن تقول لي وجيهة مثلاً «أن ملهم أجبرها»، أو «أنها كانت على خطأ»، أو «كنت سكرانة ولم أفعل ذلك بوعي»، أو، وذلك أضعف الإحتمالات «لننتظر، ربما أخطأت العد ولم أحذر عند أيام نضوج البيضة، لأنك كما تعرف حبوب الحمل ممنوعة عندنا»... الخ.. كلا، لم تقلْ لي وجيهة أية جملة شبيهة، إنما قالت لي جملة حاسمة:

ـ إسمع، نمت مع ملهم برغبة مني وبرغبة منه.

بعض الأحيان أتساءل، فيما إذا كانت الصراحة دائماً بهذه الأهمية، بحيث أننا نقول كل ما نفكر به بصراحة، حتى لو عرفنا أننا نجرح بذلك أقرب الناس إلينا. ففي حالات مثل هذه لا نقول كلمات مجردة فقط، لأن الكلمات تتحول إلى كائنات وهيئات وأفعال حال تلفظنا بها. ربما يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر، هل السعادة تعبير كاذب، عارٍ من الصحة ولا أساس له غير الكذب؟ هل الكذب ـ أو إخفاء أو لَيّ بعض الأشياء ـ هو أساس السعادة؟ هل أن كل حب سعيد مبني على كذبة صغيرة؟ وماذا سنقول لو كانت تلك الكذبة التي يستند عليها الحب هي: الحب ذاته. وبالتالي لا يبقى لنا غير السؤال ما الذي يُمكن أن يجمع اثنين ـ رجل وامرأة طبعاً ـ معاً غير الحب؟ لو

سألت أبي وأمي فسيجيباني بسهولة «القدر جمعنا». والحب؟ «الحب إلكم إبني». الحب لنا. ولكن عن أي حب يتحدث الآباء والأمهات؟ عن أي حب نتحدث نحن، وماذا نعني بكلمة حب؟ وهل يصح لأحد الحديث عن الحب ولم يمارس الجنس بصورته الكاملة ـ من المستحيل تسمية النوم مع عاهرة بصورته الكاملة ـ إلا مرات قليلة مع ربات بيوت، كنّ يدُرْن على بيوت الطلبة، وزنبيل التسوق بأيديهنّ، يقلن لك ما أن ترفع ثوبها: «عجل، السوق راح يعزل!»، أقول هل يحق له الحديث عن الحب؟ فهي بالتالي وجيهة المؤهلة أكثر مني للجواب على هذا السؤال. ولكن قبل أن أسألها، يطنّ في رأسي سؤال آخر، هل كانت عندها الجرأة فعلاً للزواج مني ومصارحتي لو لم تكن الحرب؟ أما كان من الممكن لها أن تخيط غشاء بكارتها وتخفي كل القصة عني؟ في الوقت نفسه ماذا يعتقد المرء عند زواجه من بنت عذراء، ربما كانت عندها هذه العلاقة «العذرية» أو تلك؟ لماذا لا يكون الصديق السابق قد ضاجعها من الخلف؟ فالمؤخرة لا يحجزها غشاء بكارة، ولا تدخل في باب «العذرية» بالتالي؟ من الغريب أن الرجال يقلقون فقط عندما يعرفون بزوجاتهم غير بواكر، ويرجعون في ليلة العرس ويقولون لأهلهن «ما كانت باكر». ربما لهذا السبب اخترع الناس قديماً قصة المنديل الملطخ بالدم، لعدم اللعب بتلك الحجة، كأن يدخل أحدهم على امرأة، ينام معها ويخرج بعدها ليقول أنها لم تكن باكراً. لم يُخترع المنديل عندنا فقط أو كما يفتخر البعض بعظمة إنجازاتنا ويُلحق المنديل كامتياز للعرب فقط، إنما حتى أوروبا الإقطاعية عرفته، حتى أنه بعد ليلة العرس لا يُرى لأهل العروس والضيوف ـ كما هو المعتاد عندنا ـ بل يُعلق فوق البلكونات. ولكن لكي نعود إلى الموضوع، ماذا عن البكارة الأخرى، أقصد بكارة المؤخرة؟ لا جواب.

ـ ما جاوبتني على جملتي.

فقلت لها، لكي أؤجل الحديث أكثر، أو لأنني لا أعرف بماذا أُجيب، وعن طريق تلك الحيلة أمنح نفسي بعض الوقت للتفكير:

ـ هل من الواجب أن نجيب على كل سؤال؟

سكتنا لحظة، رفعت وجيهة هذه المرة كامل نصف جذعها العلوي. أدارت ظهرها لي. جلست على حافة السرير، وقد غطى الشرشف جزء مؤخرتها التحتي. فكرت، لماذا لا أسألها عن عذرية مؤخرتها مثلاً؟ خفت، وأجّلت السؤال.

كانت تلك المرة الأولى التي تجرأتُ فيها على التطلع إلى جسدها. هل لأنها أسقطت تلك الصورة المقدسة التي كانت عندي عنها، أم لأنها جلست موليةً ظهرها لي؟ لا

أدري، ولقول الحقيقة لم يهمني العثور على جواب في تلك اللحظة، بقدر ما كان يهمني التطلع إلى ظهر وكتف ومؤخرة وشعر تلك المرأة التي أصبحت منذ تلك الليلة زوجتي شرعياً، والتي في رحمها يرفس جنين هو ليس بجنيني.

سمعت صوتها يأتيني خافتاً:

ـ إقترح عليّ وقل لي شنسوي ويه الطفل.

فصححت لها بجملة لم تخلُ من الخبث:

ـ تقصدين إبنك وابن ملهم.

كانت المرة الأولى التي أجرؤ فيها على قول جملة خبيثة لها. لكن وجيهة الحساسة لم تترك تلك الجملة بحرية، فقالت بصوت جزع:

ـ نعم، نعم، إبني وابن ملهم، رغم ذلك أسألك لأنك من اليوم زوجي.

فأجبتها:

ـ أنا مع كل قرار أنتِ تقررينه.

ربما قلت تلك الجملة كي أصلح من استفزازي لها. كانت الجملة قد فاجأتها، حتى أنها حارت للحظة ما تقول، فقالت:

ـ أنت تحيرني. كنت أعتقد تقول لي اسقطيه، لذلك كنت مهيأة نفسي للجواب لا. الآن غلبتني، وعليّ أن أقرر.

لم أعرف بماذا أجيب، فعلّقت:

ـ تعرف هناك ناس يوصلون للصحيح عن طريق الخطأ.

فقلت لها:

ـ ما كان قصدي هذا.

فأجابتني:

ـ أنت رجل طيب.

واستدارت لي حينها، وهجمت عليَّ بشفتيها، وكأنها أرادت إفتراسي كليّ في لحظة واحدة. افترستني وجيهة الليلة كلها، ويعرف الله كم مرة نامت معي، حتى أنني لم أستطع جمع أنفاسي وفتح فمي لسؤالها:

ـ ليش أنتِ معي وجيهة؟

كان الفجر، وكان صوت الطائرات يملأ فضاء القرنة لبرهة ويختفي، لأسمع صوت أبي:

ـ إنهض إبني، على صبحية عرسكم.

كان صوت أبي يختلط مع جوابها:

ـ لأنك مثلي تكتفي بالتفرج على استعراض العالم.

ـ ٢٩ ـ

لم يكن استعراضاً للعالم هذه المرة، إنما أشبه بحفلة مليئة بالجنون والدم والقتل والموت، لا يمكن تخيلها دون تخيل الجحيم، أو تخيل سفينة نوح، قاتل الناس بعضهم البعض وهم فوقها. والأمر لا يتعلق بالحرب الفعلية فقط، بل حتى بتلك الحروب الصغيرة التي نقوم بها ضد بعضنا. البعض يقول إن تلك الحرب، والقتل بلا مغزى. ولكن هل ما يفعله الإنسان دون مغزى؟ وحتى لو بدا لنا الأمر كذلك، فيكفي أن نبحث عن خلفيته، حتى أننا نجد أن هناك مغزىً ما. وفي حالتي وحالة وجيهة فحمّى «الإكتفاء بالتفرج على استعراض العالم» واضحة جداً: لم نشأ دسّ أنفينا بما لا يعنينا، لا أقول بأمور النفط، كما فعل خالي، إنما حتى في تلك الأمور الصغيرة أو الكبيرة التي كانت تحدث حولنا يومياً، نعرف جيداً أن الأمور لا تصبح كبيرة لأنها كبيرة في الأصل، ولا تصبح صغيرة لأنها صغيرة، إنما نحن من يمنحها هذه الدرجة أو تلك، والأمر يتعلق بمدى علاقة ما يحدث بنا مباشرة، طالما أن الحرب لم تهدّ علينا البيت في ليلة عرسنا، بل منحتنا الحرية بأن ننام مع بعضنا وأكثر من مرة، فما هو اعتراضنا عليها، أي فأل يحمل هكذا عرس في حقيقة الأمر ليصحوا على حرب ـ الآن أحصد نهاية هذا الفأل ـ. لا أدري أين سمعت تلك القصة التي تتحدث عن عروس تزور محلاً لبيع الموبليات لتفحص موبليات عرسها، ورأت في المرآة التي في المحل الذي تتواجد فيه، أحدهم تدهسه سيارة. أي فأل سيء؟ ترى الموت؛ ترى أحدهم يُقتل في ليلة عرسها؟ لكننا ـ عادة ـ نسمع أو نقرأ القصص بشكل عابر، ليس لأننا لا نريد التعلم منها فقط، إنما لأن في دواخلنا هناك من يتمرد على تلقي الدروس. كبرياء فارغ، ربما. لكن لنسأل سؤالاً آخراً: هل تعلمت العروس ذاتها من تلك المرآة؟ في حالة العروس، لا أدري، وإلا لكانت أجّلَتْ يوم عرسها على الأقل. لكن في حالتي وحالة وجيهة وحالة أسيَدْ لوتي أعرف أننا لم نتعلم شيئاً. باستثنائي أنا، لم يسمع الآخران القصة، لكنهما

عاشا قصتهما، وجيهة صحت مثلي في الصباح على صوت الطائرات، وأول جملة قالتها: «راح يكون الطريق صعب بالسفر لبغداد»، لأن كان عليها السفر في اليومين التاليين والإلتحاق بعملها في وزارة الدفاع. أما أسيَدْ لوتي فمسبقاً وقبل اندلاع الحرب أدت تمارين الإستعداد للحرب إلى تهديم بيته وقتلت زوجته وأطفاله الخمسة، فقد استمر يعيش أيامه بصورة عادية: لم يصبح مجنوناً أو مختل الأعصاب كما نرى في الأفلام ونقرأ في روايات الأدب، بل على العكس، أقام لهم فاتحة وكان الناس يزورونه ويتحدث معهم بصورة طبيعية، بل مدد حفل التأبين حتى سبعة أيام، وكان يحصي بأعصاب باردة عدد أكياس الطحين والرز والفاصوليا والبصل والبطاطا وقناني الزيت وكيلوات اللحم التي حملها له مسؤول المنظمة الحزبية الذي لم يتورع عن حمل قطعة خُطت بلون ذهبي ليضعها فوق باب داره التي لم يبقَ منها غير باحة كبيرة وغرفة واحدة: «هنا صعدت روح شهداء المبادىء إلى السماء». بل سمعه أحدهم يقول «مع الأسف ماتوا موتة واحدة»، لأنه لم يقبض عن موتهم سوى سيارة فولكس فاكن برازيلي واحدة. وبعدها طبعاً كانت قصة الفسائل التي ماتت لحسن حظه، وقصة صيد سمكة الجصّانية، وقصة الدِيَكة.

إذا صح وكان المغزى الذي يختفي وراء سلوكي وسلوك وجيهة هو الرغبة في «الإكتفاء بالتفرج على استعراض العالم»، فما هو المغزى الذي كان يختفي وراء سلوك أسيَدْ لوتي؟

لقد واظب أسيَدْ لوتي على ما يفعله لسنوات طويلة. ذات يوم وكانت وجيهة عائدة من بغداد تزورني في بيت أهلي في القرنة ـ حتى تموز/يوليو ١٩٨٩ لم نسكن في بيت واحد، إنما كان لنا بيتين، واحد في بغداد عند بيت أهلها، وواحد في القرنة عند بيت أهلي (وحتى بعد تلك الفترة المذكورة لم يتسنَّ لنا العيش سوياً أكثر من سنة وأسبوعين، أي حتى ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠، يوم استدعائي للخدمة العسكرية مرة أخرى) ـ سألتها إلى متى يفعل أسيَدْ لوتي ذلك، ألا يخاف من عواقب الأمور فلقد صار له أعداءٌ كثيرين؟ طبعاً لم تفهم وجيهة سؤالي، وحتى إذا حاولت جاهدة الردّ عليّ فإن أقصى ما تقوله لي:

ـ لماذا؟

طبعاً لم تعرف حتى زواجنا شيئاً عن حياة الرجل، وفي بادىء الأمر كانت الصدفة وحدها التي جعلتها تلتقي به في مبنى وزارة الدفاع، عندما دخلت هي للمرة الأولى إلى هناك. ولو لم يُتركا لوحدهما في غرفة انتظار الوزير، لما عرفت وجيهة أنه قادم من القرنة، مدينة زوجها. كان ذلك على ما أعتقد في الأشهر الأولى من الحرب ـ لأن وجيهة كانت ما تزال حاملاً في شهرها الرابع على ما أظن (يُمكن أن أخطىء!) ـ، في

تلك الغرفة الأنيقة التي أعرفها أنا بالتفصيل أيضاً سألته هي ترى من أين يكون؟، لأنها لاحظت أن لهجته قريبة لأهل البصرة.

ربما كانت وجيهة تجلس فوق الصوفا المصنوعة من الجلد الأسود التي تسع لأربعة أشخاص، وأمامها المنضدة المصنوعة من المرمر الرمادي اللون، والتي وُضعت فوقها زجاجة سميكة كبيرة، وكانت تلف الساق فوق الساق، عندما سألته ذلك السؤال.

وربما كان يجلس هو على الكرسي الكبير الذي لا يجلس عليه إلا أعضاء الوفود المهمة، أمامه منضدة صغيرة من العاج الأبيض، وُضعت فوقها منفضة سجائر مصنوعة من المرمر الثقيل، وهو يُسند كوعه فوق أحد مساند الكرسي، عندما أجابها أنه من القرنة.

لا أصف ذلك الجو الذي دار فيه الحديث مجاناً، ولا لأنني أعرف المكان جيداً، إنما لأن الحاكم جلس ذات مرة وكنت أنا هناك أُترجم بينه وبين وفد ألماني رفيع المستوى، وكيف أنه في لحظة غضب ضرب بمسدسه فوق زجاج المنضدة ليصدعه، وكيف أن رئيس الوفد الألماني ضحك، وقال لي «Sagen Sie ihm, das ich diesen Achenbecher auf seinen Knallkopf Kaputt machen kann, Sagen Sie ihn, Los» (ما معناه: قل له، بأنني أستطيع تحطيم منفضة السجائر هذه فوق رأسه العنيد)، طبعاً لم أُترجم له الجملة حرفياً، إنما قلت له، «إن حضرة رئيس الوفد يقول، من الأفضل تمالك الأعصاب»، حينها استرخىٰ هو مثل طاووس وضحك ضحكته المعهودة، وقال «قللو لخاطرو نقبل نشتري الغاز الكيمياوي القديم»، كان التفاوض يجري بصدد شراء مخزونات الغازات السامة المتبقية عند ألمانيا من الحرب العالمية الأولى.

على أي حال في ذلك المكان ذاته، تعرفت وجيهة على أسيَدْ لوتي للمرة الأولى، وعندما حدثتني عن اكتشافها الجديد، وكيف أن العالم مثل قرية صغيرة في النهاية، حكيت لها ما لم تعرفه حتى ذلك اليوم. لقد سمعت للمرة الأولى تلك الجملة التي قالها سكرتير ديوان وزير الدفاع، عندما ظهر شخصياً في غرفة الإنتظار:

- جبت الديوكة؟

ليجيبه:

- نعم سيدي، تركتها بره.

لم تفهم وجيهة ماذا كان يدور. من أين لها أن تفهم هي البغدادية؛ ليست البغدادية فقط، إنما المرأة التي تعرف أن الدِيَكة للذبح فقط، وواحدة في مثل سنها من

أين لها أن تعرف أن الدِيَكَة ممكن أن تُستخدم لأغراض أخرى؟ للرهان مثلاً؟ للطيران مثلاً ـ كل شيء ممكن في هذه البلاد ـ؟ للتجارب الكيمياوية التي كانوا يجرونها وبحماس في أيام الحرب، حتى أنهم لم يتركوا لا أرنباً ولا دجاجة ولا فأرة ولا قطة حية، وإذا تعذر أو تعقد عليهم الأمر استخدموا السجناء ـ لم تَبُحْ لي وجيهة بذلك، إنما أنا الذي عرفت ذلك، لكننا لم نتحدث عن ذلك، كان كل واحد منا يكتفي بتفرجه على المشهد الذي يراه. كنا نذهب إلى المسرحية ذاتها، نجلس في المسرح ذاته، لكننا كنا نجلس في أماكن مختلفة، وعندما نخرج، نغرق في صمتنا. كان شرط الإكتفاء بالتطلع على استعراض العالم على خشبة المسرح في وزارة الدفاع في البلاد هو أن يحتفظ كل مشاهد بانطباعاته، وأن يُهيء نفسه للدور الذي سيُنيطونه به. في مسرح مبنى وزارة الدفاع، ليست هناك خشبة ولا صالة، الإثنتان متداخلتان في بعضهما، وكأن وزير الدفاع والسلطة في البلاد هما مخرجان مسرحيان طليعيان لا يؤمنان بفصل الجمهور عن المسرح (يعيش برتولد بريشت الذي درسناه في فرع الأدب الألماني).

لذلك لم يَدُرْ في خلد وجيهة ذلك النهار غير السؤال التالي: هل من المعقول أن الرجل تحمّل كل ذلك العناء ليأتي من القرنة من أجل حمل دِيَكٍ خاصة للوزير؟ طبعاً من غير المعقول، لكن وجيهة التي تشتغل في وزارة الدفاع وتعرف أمزجة هؤلاء الضباط ورغباتهم الغريبة، جعلها ذلك أن تجد في الأمر معقولية، لم لا؟ ربما يعجبهم أكل الدِيَكة الخاصة من الجنوب؟ ـ، «نعم ذلك ممكن الحدوث»، هكذا أقنعت نفسها. وحتى نحن سكان الجنوب لا نعرف كلنا قصة الرهان على الدِيَكة. ربما آخر من يعرفها هم أولئك الذين وُلدوا في الخمسينيات وحتى أواخر الستينيات. لأن بعد مجيء السلطة الحاكمة مُنعت رسمياً كل أشكال المقامرة ـ حتى البليارد الذي يُعتبر في كل العالم رياضة مُنع في البلاد بعد صيف عام ١٩٦٨ ـ، على هذا الأساس أغلق الريسيز ـ لكنه فُتح لاحقاً بعد نشوب الحرب، لم تقصف إيران الريسيز أبداً، أمر غريب! ـ ومُنع الرهان على الدِيَكَة. ليس من الغريب إذن أن يرتفع سعر الدِيَكَة لاحقاً. فالمقامرة مع الدِيَكَة لم تختلف تماماً، إنما ظلت لعبة سريّة مثلها مثل لعب البليارد ولعب القمار. البليارد كان يُلعب في غرف خلفية تبنيها بعض المقاهي خصيصاً لذلك، ولعب الورق كان يتم في غرف مكتظة بالدخان في بارات وفنادق الدرجة الأولى، في غرفها العليا، أما صراع الدِيَكَة، فكانت تُنظم له الرحلات إلى الخلاء وأماكن بعيدة عن المدن وأعين الشرطة العلنية والسريّة.

في الحقيقة كان امتعاض أسيَذ لوتي وزملائه من منع الديّاكة عابراً. ففي بلد مثل هذه البلاد، لا تعني قرارات المنع شيئاً لو تعلق الأمر بقضية يُمارسها المتنفذون أنفسهم. ولذلك مثال عابر بسيط، ألم تزدهر تجارة الدعارة في ساحة الميدان، في المكان المقابل

لوزارة الدفاع بالذات؟ بل يبدو أن الدولة تغض النظر عن الدعارة هناك، إنما لكي تُعبر عن احترامها ـ أو ربما لأن بعض المتنفذين فكروا بالتغطية على الأمر ـ أمروا ببناء دار المكتبة الوطنية إلى جوار بيوت الدعارة؟ مفارقة جميلة في النهاية، الدعارة كتراث وطني، لماذا لا؟ فإن المنع فقط هو الذي سمح لهم بالتجارة السوداء هذه المرة. هكذا كان أسيَدْ لوتي بحنكته الشخصية وعلاقاته، ولاحقاً لمقتل عائلته في الحرب، استطاع الحصول على أفضل الدِيَكَة المهربة. فعن طريق البحارة القادمين من كل أنحاء العالم في البصرة، كان يحصل باستمرار وبسعر بخس على أندر أنواع الدِيَكَة: من أفريقيا، من آسيا، من أميركا اللاتينية. حتى أن بعض كولونيالات أميركا اللاتينية تعجبوا عندما رأوا بعض دِيَكَة أوطانهم هناك. هكذا صعد نجم أسيَدْ لوتي فجأة، من صاعد نخل إلى ديّاك ـ قبل أن يصيد سمكة الجصّانية ـ، وليجني ثروة لا بأس بها من تجارته بالدِيَكَة المهربة، وخاصة الدِيَكَة الفارسية، التي شاع صيتها أيام الحرب، وكان كل مقامري الدِيَكَة يستلذون في الرهان عليها أو ضدها.

هكذا أصبح أسيَدْ لوتي سلطة أخرى في القرنة موازية لسلطة مسؤول منظمة الحزب ولسلطة المسؤول الأمني، أو لسلطة مدير الشرطة، فهم الذين كان عليهم التوسط عنده إذا ما أرادوا تحقيق رغبة أو مشروع لهم في القرنة أو في المناطق المجاورة. لقول الحقيقة لم يستغل أسيَدْ لوتي ذلك، فلقد ظل كما لو أنه لم يحصل على كل هذه الإمتيازات. وأنا شخصياً لم أشعر أنه تعالى على أحد أو أساء إليه، على العكس، كان يزور الناس، ويسأل عن حاجاتهم، وكان يساعد المحتاجين منهم خاصة، وفي عرسي لم أنسَ هديته التي جلبها لي: صفيحة من التمر البرحي المُطعم باللوز والجوز، من نوع التمور تلك الخاصة بالتصدير فقط ولم أنسَ جملته التي قالها لي «التمر ينشط العير، لا تفشلنه!»، يُمكنني القول أنني حتى تلك الأيام لا ألاحظ أي تبدل عليه.

بنى أسيَدْ لوتي بيته الذي تهدم في تمارين استعدادات للحرب، ليصنع منه قصراً فخماً فاق كل قصور المسؤولين في القرنة، ورفع القطعة التي جلبها المسؤول الحزبي فوق إطار الباب، هذه المرة أطرها بوشاح مزين بالذهب فعلاً.

رغم المساحة الكبيرة التي احتلتها حديقة بيته، لم يرَ أي من سكان القرنة ديكاً واحداً من ديوكه هناك. لقد حملها كلها إلى منطقة «الدير» في قضاء أو ناحية الهارثة، حيث يقع ضريح «سلمان بن داوود» وضريح «صاحب الزمان». هناك اشترى قطعة كبيرة من الأرض، ليجعل منها رسمياً حقلاً للدواجن، لكنها كانت في الحقيقة حقل الدِيَكَة المهربة من كل العالم.

- ٣٠ -

كانت تلك هي المرة الأولى التي تعرف فيها وجيهة، أن هناك تجارة ومقامرة بالدِيَكَة، ليس في البلاد فقط، إنما في كل أنحاء العالم، بل عرفت أن ليس هناك أكثر من الأميركان اللاتينيين من يلعبها بمثل هذا الوجد. صحيح أن الحاكم وحاشيته من العسكريين في المواقع العليا، كانوا يحبون المقامرة بالدِيَكَة أيضاً، إلا أن وجدهم لم يستطِعْ ذات يوم تجاوز وجد الكولونيلات الأميركان اللاتينيين، الذين كانوا على استعداد للمقامرة بكل شيء على الديك الذي يعجبهم. وربما عرف الحاكم بشغف الأميركان اللاتينيين، فحاول إستغلاله بشكل جيد، للحصول على مكاسب مباشرة. خاصة لعقد صفقات شراء أسلحة دسمة. إذ أن الأميركان اللاتينيين يُقبلون على المراهنة على الدِيَكَة من أجل صفقات سلاح، رغم أن الأمر بدأ في المرة الأولى صدفة، مجرد مزحة لا غير. ذات ليلة وقبل أن يبدأ صراع ديك الحاكم مع ديك وزير الدفاع الأرجنتيني غاليبري، حيث انتبه الكولونيل غاليبري أن الدولارات التي كانت في حوزته استنفذها في شراء الديك من أسيَدْ لوتي في الأصل. وفي تلك الليلة كان غاليبري يعرف أن في حوزته ديكاً يابانياً ليس قوياً وحسب إنما ذكي عكس ديك الحاكم القادم من أصفهان، حتى أنه لم يقتصد بتعليقه:

- «Quiere vos vencerme con un Gallo Farisi, que marevilla» مـــــا معناه: حضرتك تريد الانتصار عليّ بديك فارسي، أي عجب!» -.

ضحك الحاكم ملء قلبه، ومن النادر أن يضحك تلك الضحكة العميقة من القلب، لأن كما هو معروف عنه، لا يُخرج صوتاً واحداً منه بصورة طبيعية. تطلع بالكولونيل الأرجنتيني الضخم الجثة هو الآخر - ربما كان أطول من الحاكم ببعض السنتيمترات القليلة، لكنه كان أعرض منه عند الكتفين، شعره أبيض تماماً - ومد يده ليربت على كتفه، وقال لوجيهة:

- قولليلو لا يستخدم أي عذر، إذا ما عنده عملة صعبة، ممكن نتراهن على مسدساتنا.

لم يقترح تلك الجملة فقط، إنما أخرج مسدسه وراح يطلق الرصاص في الهواء، بيده اليمنى - حركة اعتاد الناس عليها -. لم يفهم الكولونيل الأرجنتيني حركة الحاكم، أو ربما فهمها ولكن خطأ، لذلك أخرج هو الآخر مسدسه وراح يضرب الرصاص في الهواء. فأمسكه الحاكم من يده. لم يفهم غاليبري الحركة، لكنه توقف عن إطلاق النار. استدار الحاكم إلى وجيهة هذه المرة بغضب، وقال لها:

- قولليلو ماكو واحد غيري يضرب طلقات هنا، هأ، ولا تنسين الرهان.

وعندما ترجمت وجيهة للأرجنتيني الأشْيَبْ ما سمعته، ضحك الرجل، وقال لها: «Si la pistola no es suficiente, pues apostamos por el Tanque que vigila la puerta de mi casa». ما معناه: إذا كان المسدس غير كافٍ، فيُمكننا الرهان على الدبابة التي تحرس باب داري!.

حينها فقط صفن الحاكم، حتى أنه ظل للحظات مطرقاً، وهو يمسك الكولونيل غاليري من كمه، ليتركه ويقول بصوت منشرح:

- قولليلو خللي يبقى مسدسو ونتراهن على دبابتو أحسن.

وافق الكولونيل الأرجنتيني. ومنذ تلك المناسبة أصبح الرهان على الدِيَكَة من أجل قطع الأسلحة العسكرية أمراً روتينياً، وأعتقد أن كل الأطراف وجدت فيه أمراً مسلياً. يجب ذكر حقيقة مهمة هنا، وهي أن في حالة خسارة الحاكم تُدفع قيمة قطع السلاح بالدولار أو بالدينار الكويتي: كان ريميريز الكولونيل القادم من التشيلي الوحيد الذي كان يصر على استلام الفلوس بالدينار الكويتي، ربما لكونه كان يشغل الحقيبة العسكرية في سفارة تشيلي في الكويت.

وعندما شعر الحاكم وحاشيته بأن الدِيَكَة سهلت حصول البلاد على بعض الأسلحة المهمة، أرسل لاستجواب أسيَدْ لوتي شخصياً - لم تكن وجيهة حاضرة في تلك المقابلة، إلا أن أسيَدْ لوتي هو الذي حكى لها القصة أثناء إحدى رحلاتهم المشتركة من بغداد إلى القرنة -. في تلك المقابلة حرص الحاكم على شرح أهمية حصول البلاد على السلاح بكل وسيلة، وعن تكاليف هذه الحرب التي وُرطنا بها - نعم بالحرف الواحد قال له «وُرطنا بها» وكان ذلك على ما أعتقد في عام ١٩٨٣» عندما كسر الإيرانيون طوق حصار مدينة عبادان واستعادوا مدينة خُرمشهر - وأن الدِيَكَة منذ اليوم هي إحدى وسائل الدفاع عن الوطن الشرعية. لقدسيتها لا نريد لها أن تصبح رياضة مبتذلة يلعبها كل من هبّ ودبّ، كلا، نريد لها أن تكون رياضة فيها شيء من القدسية.

- تعرف بأن نبوخذ نصر هو وقوادو كانوا يخلّلو الدِيَكَة فوق عرباتهم عندما يروحو للحرب.

لا يهم، إن كان ما يحكيه الحاكم صحيحاً أم اخترعه الرجل لنفسه، فإن أسيَدْ لوتي كان يعرف أن عليه هزّ رأسه معلناً الموافقة على كل ما يقوله. لكنه رغم ذلك لم يعلق، فهو في الحقيقة لم يعرف هذا الـ نبوخذ نصر أبداً.

ـ لذلك إحنا مو من عادتنا الغش، لكن إذا استدعت الحال لا نتباطأ. نريد منك تربي للقيادة دِيَكَة خاصة، ما تعرف الهزيمة، تتفانى بنفسها، وتروح للموت من أجل الوطن، وما يهم أصلو منين جاي، هه.

قال الحاكم له، قبل أن يستدرك ليسأله، وكأنه نسي أمراً مهماً:

ـ عجل شبيهه دِيك العرب، هه؟

كان على أسَيَدْ لوتي أن يجيب بسرعة، فليس من صالحه التباطؤ:

ـ باستثناء بلادنا، سيدي، ماكو تقليد تربية الدِيَكَة في الوطن العربي. مثل ما تعرف سيادتك، هذا التقليد بدأ من زمن نبوخذ نصر.

فقال له الحاكم:

ـ شوف. ما إنريدك تغش بالدِيَكَة، لكن إذا استدعى الحال، افعلوا.

ثم أخرج الحاكم من جرارته كيساً صغيراً رمادي اللون نُقش عليه العلم العراقي وكلمتا «الله أكبر»، يحوي على مسحوق أبيض:

ـ خذ هذو، إذا استدعت الحال، تعطيه للدِيَكَة اللي تبيعها لأصدقائنا من أميركا اللاتينية.

لم يسأل أسَيَدْ لوتي حينها عن محتوى الكيس أو صفات ذلك المسحوق، إنما وضع المسحوق في جيبه وغادر الغرفة تحت بركة الحاكم، وهو يجفف العرق الذي تصبب على جبينه وسبح كل جسمه فيه، لأنه كان يعرف أن ذلك المسحوق، كان ذات المسحوق الذي روت عنه وجيهة يومذاك، المسحوق الذي أخرجه الحاكم ذات مرة، من جرارته ملفوفاً بالعلم ذاته، وراح يتباهى بقوة تأثيره المباشرة، أمام ضيوفه العسكريين من مختلف بلدان أميركا اللاتينية، ولكي يُثبت له صحة ما يقول، بأن المسحوق أقوى من المساحيق التي جلبوها له، وجربوها على مرافقيهم الذين ماتوا مباشرة، نادى على أحد مرافقيه الذين مهمتهم تذوق الطعام قبله، وقدم له شراباً يحوي على المسحوق، ليخرّ شاربُه سريعاً مباشرة (كانوا عادة يفعلون ذلك مرة واحدة في السنة، لكي يثبت كل واحد منهم للآخر قوة السم الجديد ومفعوله على معارضيه، يجربه على مرافق يختارونه لهذا الدور لأنهم قرروا قتله!). وكان يُمكن لأسَيَدْ لوتي تخيل المشهد، لذلك لم يصدق أنه غادر الصالة، وفي جيبه المسحوق ذاته، الذي وجب عليه أن يحمله معه في حفلات مباريات عراك الدِيَكَة، التي راح حاكم البلاد يُنظمها كل شهر، وكان على أسَيَدْ لوتي ووجيهة

حضورها، حيث تُجلب في تلك المباريات أشجع الدِيَكَة، ليُنظم ما يشبه الدوري بينها، شبيهة بدورات كرة القدم. كان تُجرى القرعة وتوزع الدِيَكَة على مجاميع، الفارق الوحيد بين دورات كأس العالم لكرة القدم ولعبات كأس العالم للدِيَكَة، أن معارك الدِيَكَة يجب أن تكون تسقيطية؛ ليس هناك نقاطاً، إنما على كل ديك أن يُنهي الديك الآخر. هكذا لو حصل وتقابل ديكان قويان، يمكن أن تستمر معركتهما ساعات، بل الليلة بطولها. وعلى العكس هناك بعض الجولات تنتهي بدقائق: دورة دورتان، ويكون الديك نصف ميت ملقى على الأرض؛ تلك هي حال الدِيَكَة الضعيفة لسوء حظها التي تواجه ديك الحاكم أو ديك إبنه الأكبر (لم تعجب معارك الدِيَكَة الإبن الأصغر الذي كان يُنظم بالتوازي مع تلك الحفلات حفلات أخرى، تدور بنفس الطقوس ووفق المبدأ والنظام ذاتهما، مع الفارق الوحيد ذلك أنه يستبدل الدِيَكَة بالبشر. وأقول بالبشر، لأنه كان حريصاً على مشاركة الجنسين في دوراته الرياضية). في واحدة من تلك المعارك، فقدت وجيهة جنينها، رغم أن تلك المعارك كانت في بداية تنظيمها ولم تملك بعد جانبها العنيف والقاسي لاحقاً. أسقطت وجيهة الجنين ذات فجر، وكانت تعاين مع الباقين معركة بين ديك الحاكم وديك جنرال كوبي.

كانت وجيهة مجهدة وذكريات يوم مملّ وتعيس ما زالت تطن في ذاكرتها، رغم أنها حرصت بالفعل على أن تكتفي بالتفرج على استعراض العالم، وهل هناك أفضل من التفرج على معارك الدِيَكَة. ذلك اليوم حاولت تَذكُر جملة أيضاً قرأتها في مكان ما: «أن أجمل المعارك، هي تلك التي تحدث بين الرجال بسبب امرأة، وباقي المعارك هي معارك دِيَكَة». في ذلك اليوم وبعد رحلة مضنية حيث صاحب طريقها قصف الطائرات الإيرانية من القرنة وحتى مشارف بغداد، حتى الدُورَة إذا شئنا الدقة - ربما خفّ هناك بسبب تمركز وحدة صواريخ حماية بغداد -، في ذلك اليوم لا تعرف لماذا فكرت للمرة الأولى بأنها امرأة ليست جميلة. وإلا لماذا لم يحاول أي من الحاضرين التحرش بها، لا من الكولونيلات الأميركان اللاتينيين، ولا من الضباط المحليين. بل حتى الحاكم أو أبنائه المعروفين بنهمهما للنساء لم يتعرضا لها. غريب، إذن هي ليست جميلة. فكرت، وللمرة الأولى بعد حملها في الشهر الرابع، بأن الجنين قد يكون هو سبب تغيير شكلها: فإن ورم بطنها، وورم ساقيها، وخديها الغائرين، كل ذلك هو بسبب الحمل. ربما لهذا السبب لا يُشغل أحدهم نفسه بها. ليس من العجيب أن تُفكر امرأة متزوجة بذلك، هنّ المتزوجات بالذات أشد النساء حساسية للأمر، ربما هناك من أدخل في رأسهن بأن الزواج يجعل المرأة تذوي. قد يكون هذا التصور خاطئاً، لكن الصحيح من جانب آخر، هو أن الزواج بالفعل يجعل المرأة تذوي، ليس لأن الجسم يترهل بل لأنه يصبح كريهاً

بعد الزواج هكذا لوحده، كلا، أنه يذوي، بسبب الروتين. ليس روتين لقاء المتزوجين مع بعضهما، إنما روتين فكرة أن المرء متزوج. لأننا أنا ووجيهة لم نرَ بعضنا إلا فيما ندر، وبعض الأحيان ممكن أن تمر ثلاثة أشهر دون أن نرى بعضنا، وخاصة في تلك الأيام التي خدمت فيها في الجيش، أو تلك الأيام من سنوات الحرب، التي كنت أقضي فيها خدمتي في دائرة الإعلام الحربي. ولكنني أعتقد أن الأمر أبعد من مشكلة روتين تعوُّد الشريكين على بعضهما، أنه يرتبط ـ على أكثر تقدير ـ بانطفاء جذوة المغامرة ومحاولة فعل كل شيء من أجل جذب الآخر لنا. ولكن هل فعلت وجيهة شيئاً من ذلك قبل زواجنا؟ كلا. إذن ما فكرت به ذلك اليوم هو بالفعل غريب على امرأة مثلها. هل مارس أسيَدْ لوتي تأثيراً على ذهنها دون أن تدري، فهو الذي حدثها، أنه يكفي أن يقول لأحد الدِيَكَة، أن الديك الآخر يُريد أخذ حبيبتك منك، حتى يكون متأكداً من انتصاره. وعندما سألت أسيَدْ لوتي ذات مرة، إذا كان الديك يقاتل بالحماس نفسه لو تعلق الأمر بزوجته، أجابها، بأنه من الممكن أن يقاتل ولكن ليس بالحماس ذاته الذي يقاتل به من أجل امرأة أخرى غير زوجته.

ربما منذ ذلك الحين وهي تحمل في ذهنها حنيناً مبهماً لرجل يدافع عنها ويقاتل من أجلها. لكن من جانب آخر لم تكن وجيهة خبيرة بفن الإغراء. لم تعرف في حياتها أن المرأة لكي تكون مُشتهاة من الرجال، ولكي يتقاتلوا من أجلها، لا تحتاج بالضرورة أن تكون جميلة، أو شهية، إنما هناك سر تحمله بعض النساء منذ الولادة معها، والأخريات يكتسبنه مع الزمن، وخلال الممارسة يطورنّه، حتى يصبح روتينهن اليومي، بل يصبح عنصر حياتهن الأساسي، ولا حاجة لهن أن يصبغن أنفسهن بكل الأصباغ، أو يلبسن كل الملابس المغرية، فكل فعل مصطنع هو محاولة لإخفاء عيب ما، لأن في الحقيقة تكفي حركة رمشة من عين، أو رجفة شفة، أو تحريك كتف، أو مشية بسيطة، أو قصة شعر؛ في النهاية لا يهم أي شيء، لأن المرأة التي تغوي، تفعل ذلك بتلقائية ولا حاجة بها للتكلف.

كم أتعبها التفكير بالأمر طوال الطريق. فهي لم تنقطع عن تقليب القضية من كل وجوهها. ومن حقها أن تبدأ في الشك بجمالها؛ فلقد كانت هي بالفعل المرأة الوحيدة التي تحضر معارك الدِيَكَة ومراهنات العسكر عليها، ورغم ذلك لم يحاول أحد التحرش بها، لا يمكن لامرأة غيرها أن تعقل الأمر؟ حتى أنها فكرت، ماذا لو بدأت مع الدِيَكَة؟ ألم يقل أسيَدْ لوتي، بأن للدِيَكَة حاسة شمّ، يعرفون متى ترغب الأنثى بهم. بالفعل وصلت تلك الليلة مجهدة، وكانت في ذهنها فكرة واحدة، أن تفرغ من تلك الليلة بأسرع ما يُمكن. لكن اللعنة، تلك الليلة التي جرت فيها تصفيات دوري الدِيَكَة، انتهت

بسرعة حتى وقوف ديك الحاكم أمام ديك الكولونيل الأرجنتيني غاليري.

كان الحاكم حينها يُمازح الكولونيل أو يسأله بصورة جدية:

- صديقي غاليري، شلون خسرت حرب الفولكلاند، فيجيبه: «Muy simple, me tracionaron los Americanos» ما معناه: الأمر جد بسيط، خانني الأميركان.

في تلك اللحظة لم يشأ غاليري فقدان حرب جديدة، فإن معركة الدِيَكَة كانت أهم بالنسبة له من كل جزر الفولكلاند. كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، عندما وقف الديكان وجهاً لوجه. في البداية اتفق الحاضرون على الإقتراح، بترك الديكَيْن يرتاحان لبعض الدقائق. كانت الحادية عشرة ليلاً، عندما بدأ الديكان بصراع عنيف، كانا ينهشان بعضهما وكأنهما لم يقاتلا منذ قرون. لم تكن مرت ساعتان، حتى كان من الممكن رؤية الديكَيْن، عاريين من الريش عند قمة الرأس - عند العرف، كما يُطلق على ذلك - وبعد ثلاث ساعات، راحا يفقدان ريشهما تدريجياً، يسيل الدم منهما ليس فوق قمة الرأس، وعلى جانبي الوجه فقط، إنما فوق جسميهما بشكل كامل، حتى أصبح من الصعب تمييز الديكَيْن عن بعضهما، حتى تلك الأعلام الصغيرة - علم البلاد، وعلم الأرجنتين - اللذان وُضعا فوق ذيلهما، سقطا فوق الأرض، مخرومين، بعد أن نقرهما الديكان بمنقاريهما.

في لحظة ما بدا، كما لو أن الديكَيْن، قررا الإستراحة سوية؛ وقفا متقابلين، رأسيهما متداخلين ينقران بعضهما بخفة ولكن بعمق. إستغرق الأمر ربع ساعة تقريباً. حينها بدأ الملل والترقب يستحوذان على الحاضرين. فاقترح الكولونيل الأرجنتيني تفريق الديكَيْن عن بعضهما، وعندما ترجمت وجيهة الجملة، اقترح عليها الحاكم، أن تفعل هي ذلك.

كانت لحظة رهيبة في حياة وجيهة، لا يمكن وصف الرعب الذي استحوذ عليها، حتى أنها عرقت. لم تعرق جبهتها فقط، إنما كل مسامة في جسدها. وبشكل ما إلى جانب ذلك الخوف والرعب، شعرت بلذة سرّية تستحوذ عليها، وتساءلت مع نفسها، ماذا سيفعل الديكان لو شمّاها الآن؟ لم تخطىء في ظنونها، فما أن حاولت تفريقهما، حتى نسيا المعركة التي كانت تدور بينهما وانقضّا عليها، في تلك اللحظة صرخت وشعرت بالجنين وبحرارة الدم يسيل بين فخذيها.

- ٣١ -

ظلت وجيهة بعد تلك الحادثة - أو الواقعة إذا استدعت الدقة - طريحة الفراش لمدة خمسة أشهر، في القرنة أولاً، قبل أن يصدر لها الأمر بالبقاء في بغداد. وكانت في أول

استدعاء لها حيث كانت تستريح عندنا في البيت في القرنة ـ أرسلوا أكثر من مرة في طلبها، مرة عندما كانت في القرنة، وفي المرة الثانية وهي في بغداد ـ نقلتها طائرة هيليكوبتر أتت خصيصاً لها ـ كانت الطائرة تحط في ساحة السوق الرئيسية. لا يمكن تخيل المنظر. حتى أن والديّ صمتا ذلك اليوم. وقالت أمي:

ـ يمة أخاف عليك من هذِ المصيبة!

في ذلك الوقت كنت أقيم بشكل دائم في القرنة بسبب استخدامي في القاعدة البحرية في البصرة، في شعبة الرياضة، حيث كان واجبي الترجمة لجنرالين من ألمانيا الشرقية (عكسه حدث بعد سنوات، عندما كنت أقضي خدمتي في مكتب مجلة «حراس الوطن» في البصرة، إذ كنت أجيء للقرنة بين الوقت والآخر، لذا أجرّت غرفة خلف شارع الوطني، في دار للعزاب).

كان من الصعب شرح الأمر لأبي وأمي وما كنا نفعله أنا ووجيهة. ربما تفهما ما أفعله أنا، ولكن لم يفهما ما كانت تقوم به وجيهة. ولقول الحقيقة، حتى أنا لم أفهم لماذا يُرسل دائماً في طلب وجيهة بالذات وما هو سبب الإلحاح عليها. سألتها ذات مرة بحذر، فأجابتني، لأنها أفضل مترجمات ومترجمي البلاد. ولكني أعرف أن كل مترجم يحصل عنده الشعور ذاته، كل مترجم يعتقد أنه أفضل من غيره، وأعتقد أن ذلك مرض لا يصيب المترجمين فقط، إنما كل الذين يتعلمون لغات جديدة؛ أنهم مثل الأطفال الذين يتعلمون النطق أو الحبو للتو، ولبهجتهم لما تعلموه يُصرون على التنافس فيما بينهم، ويزيد الإصرار على أن كل واحد منهم أكثر قدرة وجرأة من الآخر. ذات مرة زارني أحد الأصدقاء الذين تخرجوا من قسم اللغة الألمانية معي، والذي رحل للعيش في ألمانيا الشرقية، وتزوج من امرأة ألمانية هناك. بقي هو وزوجته يومين عندنا، كانت الزوجة حريصة على زيارة شجرة آدم وحواء، لم أعلم إلا في وقت لاحق، بأنه كان طوال اليومين يسأل زوجته لتقول له من منا نحن الإثنان يتكلم اللغة الألمانية أحسن. عندما قالت زوجته ذلك لي، وكان هو مشغولاً بأخذ الصور للأفعى البلاستيكية التي أحاطت الشجرة بافتعال، ضحكت وقلت لها بالألمانية ما معناه، كيف يسمح لنفسه بمقارنة مستواه اللغوي مع مستواي اللغوي وهو المقيم في ألمانيا، هل يشك بمستواه اللغوي؟ طبعاً هو يتحدث أحسن مني. فقالت زوجته لا أدري لعزاء الأمر أم لصحته: «Dein Sprachniveau ist wunderbar» ما معناه: مستواك اللغوي مدهش.

لا أقول ذلك تبجحاً، إذ أنني بالتأكيد مصاب بمرض المترجمين المزمن ذاته. لهذا السبب ولشكوك أخرى كانت حتى ذلك الحين مجرد شكوك، لم أشأ الدخول في

تفاصيلها، بل لا أريد ذكرها الآن، ستأتي ضمن سياق الحديث ـ ولست حريصاً على استباق الأحداث ـ، لم أصدق ما قالته وجيهة، بأنها أفضل المترجمات والمترجمين في البلاد. رغم أني لا أنكر مستواها العالي ـ لا أعرف اللغة الأسبانية إلا بشكل بسيط منها وفي الفترة اللاحقة من زواجنا فقط، حيث حاولنا تعليم بعضنا البعض شيئاً من اللغة التي يعرفها الآخر ـ، الذي عرفته من خلال معارفها ومن خلال إلحاح وزارة الدفاع على الإرسال في طلبها. حتى أنهم ـ في الوزارة أو في «القيادة» كما يقولون ـ حرصوا على حضورها في المرتين الثانيتين وهي تجلس على نقالة:

ـ «الترجمة من على نقالة».

قلت لها مازحاً:

ـ عنوان فيلم جميل.

هكذا انقضت حياتنا. هي تشتغل مترجمة في وزارة الدفاع، وأنا مترجم متجول أُنتدب بين الحين والآخر من مكان إلى آخر.

لم أخدم العسكرية عندما استدعوا مواليد الـ ٥٦ في سنوات الحرب الأولى إلى خدمة الإحتياط، إلا لزمن قصير على الجبهة، هكذا لم أقضِ خدمتي مثل الجنود الآخرين، متنقلين على خطوط الجبهة يقاتلون القذارة واليأس، بل قضيتها متنقلاً من مكان مريح إلى مكان مريح آخر: في مبنى وزارة الدفاع وفي مقرات الوحدات العسكرية الأخرى، من مقر القيادة الجوية إلى مقر القاعدة البحرية في المعقل، من مقر الفيلق الرابع المرابض في كركوك، وحتى مكتب مجلة «حراس الوطن» في البصرة.

ولكن لا يهم في أي مكان كنت أؤدي خدمتي، فقد كنت متأكداً من حصولي على الإجازة بعد إنجاز ما يُناط بي هناك، وخاصة عندما تم تثبيتي في سنتَيْ الحرب الأخيرتين في مجلة «حراس الوطن» في قسم تحرير الصفحات العسكرية. كان من واجبي ترجمة كل ما يتعلق بتلك المعلومات التي تخص نوعية الأسلحة وخاصة الألمانية الصنع، وترجمة المعارك الحربية «التي خاضتها تلك البلدان في الدفاع عن نفسها» كما قال لي مسؤول الصفحات الثقافية. أرجو ألا يُثير الامر الاستغراب، فقد كانت الصفحة العسكرية الخاصة بالأسلحة تخضع لمحرر الصفحات الثقافية وهو الذي اقترح تسميتها بـ «ثقافة السلاح».

بل لم يكتفِ بذلك، إنما راح يحدثني ما يقارب الساعة عن جمال البندقية بشكل عام وعن الفروقات والإختلافات في درجات جمال هذه الماركة من البندقية عن تلك.

هكذا عرفت منه، بأن بندقية الكلاشينكوف هي أجمل البنادق، لكن شرط أن يحملها رجل نحيف، له قيافة رياضية. أما بندقية السيمينوف، فهي جميلة، شرط أن يحملها «مواطن عادي جداً»، أما الصواريخ فهي «تشبه قافية قصيدة غير مكتملة تنتظر إطلاقها، أو في أجمل الحالات هي مثل قصيدة شعر حر، ومثل موسيقى الجاز تنطلق متى تريد، تصنع موسيقاها الخاصة بها».

«هل تعرف أن الجميل في الأسلحة هو أن موسيقاها ليس لها بحوراً معينة. خذ القنابل مثلاً، ممكن أن يُثير صوتها في مخيلتك بحر الرمل، ولكن ممكن أن يكون بحر الرجز، لماذا لا؟ نفس الأمر مع المدافع الثقيلة، أما مدافع الهاون فإنها وحدها التي تُثير موسيقى بحر المتدارك، لهذا السبب عبارات هذا البحر محدودة مثل محدودية المسافة التي يطولها مدفع هاون. إن هذا البحر عاجز عن التعبير عن المعركة. من الأفضل استخدام الرجز، أو القصيدة المدورة. فالقصيدة المدورة مثل القنبلة المدورة تدور وتدور وتنتهي إلى تحطيم العدو. المهم تحطيم العدو، وبعدها تأتي القصيدة، هل فهمت؟» (ربما لهذا السبب ازدهرت القصيدة المدورة في البلاد وراح رهط كبير من الشباب يكتبونها).

كان أول درس لي في «علم جماليات الحرب» كما سماه هو، ولكن لا يهم فأنا سأتعلم الكثير خلال عملي هناك كما قال لي الشاعر الكبير، الذي يبدو أنه تذكر أموراً أخرى نسيها، فقال لي قبل أن يذهب ذلك اليوم:

ـ أما الدبابات فيتدرج جمالها حسب نوعيتها وحسب السائق الذي يقودها، مثلها مثل السيارات.

عندما لاحظ عدم فهمي أعقب:

ـ ليس كل شخص يصعد سيارة سوبر أو سيارة مكشوفة.

لماذا ـ كما شرح لي هو ذلك ـ علينا البحث عن علاقة هارمونية بين الموضوع والذي يستخدمه. لذلك ـ أوضح لي ـ يختلف الطيارون في هندامهم وفي هيئتهم، أنهم عالم آخر، ناهيك عن ضباط القطعات البحرية.

ـ أنهم أجمل الضباط على الكرة الأرضية، لكنهم للأسف لا يخلون من ميوعة.

قال لي، ثم ليُكمل حديثه بقصيدة:

ـ «كم بودي أن أكون ضابطاً.

مقاتلاً يوقِّت نبض البحر

على نبضات روحك أيتها البعيدة
مثل منار سفننا المشرعة للنصر أبداً
كم بودي الوصول إليك مكللاً بالنصر
على كتفي أجمل نجوم النهرين
وفي عيني التماع نزيف دم الشهداء
وبيديَّ أقبض على سفنهم
أو أعض عليها بين أسناني
نعم أيتها البعيدة، أعض على سفن الأعداء
حينها لا تكونين بعيدة
بل قريبة من القلب
قرب النصر».

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً يلقي الشعر بعد تلك القصيدة التي سمعتها في ذلك النهار الجميل في الجادرية، بالقرب من جزيرة أم الخنازير، عندما جلسنا في السيارة ملهم ووجيهة ورباب وأنا.

لم يلقِ الرجل قصيدته بشكل سيء، على العكس سحرني إلقاوه، حتى أنني سألته، أين يُمكنني الحصول على دواوينه، فكما هو معروف كان مسؤول الصفحات الثقافية هو أحد الشعراء الذائعي الصيت أسمه السيد عبد الرزاق الشيخ مخفر كما أعتقد ـ ويُقال إن أباه ولد في أول مخفر للشرطة بني عند منطقة نهر المجر الكبير على ضواحي مدينة العمارة (هو الذي أشاع قصة إعتقال جدته وهي حامل كرهينة إلى حين تسليم جده لنفسه الذي كان على رأس المتمردين ضد الجيش الإنكليزي!)، لذلك أُطلق عليه هذا الإسم «مخفر» ـ، وكانت قد صدرت له على الأقل خمسة دواوين. فأجابني وهو ينفث حسرة عميقة:

ـ لا أنصحك أيها الرفيق بقراءة كل دواويني، فكل ما كتبته قبل الحرب هراء.

فسألته متعجباً:

ـ لماذا؟

فقال لي وهو يستشهد ببيت أو بيتين من الشعر، ـ كما عرفت ـ لشخص آخر غيره

(أعتقد أنه فلسطيني؟):

- ندخل الحرب لكي نولد. الحرب تُعيد الأمل.

أنا لم أدخل الحرب لكي أولد، إنما إذا لم أتطرف في الأمر الآن وأقول دخلتها لكي أموت، لأنني أردت الإكتفاء بالتفرج على استعراض العالم، فسأقول الحقيقة فقط: على العكس أنهت الحرب على كل ما له علاقة بولادتي. لا أريد الحديث عن وجيهة الآن، إنما عن أمي وأبي اللذين فقدتهما بسبب الحرب. كلا لم يمت أي منهما في قصف إيراني، أو في قصف محلي عن طريق الخطأ كما حصل لعائلة أسيَدْ لوتي - لا أعرف ماذا أكون فعلت حينها؟ - بل مات أو من الأصح القول اختفى كل واحد منهما على طريقته. لم يختفيا بطريقة تراجيدية مثل تلك النهاية التي عرفناها في الحرب أو شاهدناها في الأفلام، إنما اختفيا بطريقة تقترب من الغرائبية إذا شئنا الدقة.

فبالذات بعد مجيء طائرة الهيليكوبتر لنقل وجيهة إلى بغداد، جمع أبي - دون أن أدري، بل يبدو حتى دون أن تدري أمي - صرّة صغيرة مصنوعة من القطيفة الوردية - كانت ثوباً لأمي ذات يوم - ووضع فيها حاجات بسيطة: صابونة، منشفة صغيرة، لباس داخلي ويشماغ ونسخة صغيرة من المصحف، وقرر السير باتجاه إيران. كان أسيَدْ لوتي الوحيد الذي رآه، فحكى لي أنه سأله دون أن يعرف عما نواه أبي، بل لم يجرؤ حتى على التفكير به:

- وين نيتك عمي.

توقف أبي لحظة، عاينه، ثم أشار بعصا رعاة صغيرة كان يملكها منذ شبابه باتجاه الشرق، وأجاب بهدوء:

- رايح لخميني يجوز يوافق على توقيف الحرب لخاطر هذه الشيبات.

ربما اعتقد أسيَدْ لوتي حينها أن أبي جنّ، لذلك لم يوقفه، بل قال له مشجعاً، وكأن الأمر مزاح لا غير:

- بلغه من طرفنا السلام، وأتمنى لك سيراً مبروكاً.

فهم أبي من طرفه تلك السخرية كونها أمر جدي، فتشجع، حتى أنه استنشق هواءً جديداً بعمق، وقال:

- في أمان الله.

أما أمي فكانت بعدها بسنوات، تقف في الباب كعادتها تنتظر رجوع أبي، وهي تجيب على أسئلة الساخرين، أو أسئلة الجيران الجدّية:

ـ حتى الآن وما رجع الحاج.

فتقول بهدوء وطمأنينة:

ـ يرجع عندما يقنع خميني بتوقيف الحرب.

استمرت على ذلك الديدن سنوات، حتى جاءها ذات يوم شاب ملتحٍ بلحية منحته الوقار، ليقول لها وهي واقفة كعادتها هناك:

ـ يمه بعدك تنتظرين الحاج يرجع من رحلته؟

فتهز رأسها بنعم. فيمد الشاب يده تحت إبطه، بعد أن ينظر ذات اليمين وذات الشمال، ويقول لها، وهو يخرج كتاباً ملفوفاً بعلم أخضر:

ـ هذا هدية من الإمام إقريه وكل أمنية تتمنيها تتحقق.

ناولها الكتاب وذهب. أرادت أن تقول له، أنها لا تعرف القراءة والكتابة، لكن عبثاً. لم تُرني الكتاب في اليوم نفسه، إنما راحت تضعه إلى جانبها في الفراش. تقلبه، تتفحصه، تمسده، وكأنها تُمسد حبيباً لم تره منذ سنين. وذات ليلة أردت أن أقول لها، أن عليّ الذهاب إلى بغداد مبكراً. ذهبت إلى فراشها، فلم أجدها، لكنني وجدت الكتاب، تصفحته بسرعة وأنا أسأل نفسي «أمي تقرأ الكتب؟». حملت الكتاب معي، حتى أنني لم أملك الوقت الكافي لتصفحه، فيكفي أنه أثار فضولي لثقله ولغلافه السميك، «دعاء الغائب، الحروف الطاهرة». بحثت عنها فوجدتها تصلي في باحة البيت الرئيسية. انتظرت حتى تنتهي من الصلاة، فسألتها عندما كانت تهم للنهوض من مكانها عن معنى هذا الكتاب، فأجابتني:

ـ هذا أرسله لي سيد تقي.

فسألتها بأنها لا تعرف القراءة أو الكتابة. فقالت:

ـ لكني عندي خشم يشم كل حرف بيه. إبني كل حرف بهذا الكتاب طاهر، قريت كل شي بيه بخشمي.

فسألتها من أين لها هذه القناعة؟ فأجابت:

ـ بعد سنين راح تعرف الشخص اللي أرسل هذا الكتاب.

سكتنا لحظة. كانت حينها قد نهضت من مكانها، وفي يدها السبحة الحسينية. فجأة سمعتها تقول وهي ما زالت مستمرة في التسبيح:

ـ ليش ما تجي وياي إبني.

فقلت لها مستغرباً، إلى أين، زائداً أن عليّ ذلك اليوم الذهاب بالفعل إلى مكان آخر، ولكن ليس إلى النجف أو إلى الكوفة أو إلى كربلاء كما اعتاد الشيعة أن يذهبوا في أيام ضيقهم، إنما عليّ الذهاب إلى وزارة الدفاع:

ـ الحرب تدعوني يمّه.

كنت أستخدم جملة شعرية كتبها مسؤول صفحتنا الثقافية أمس، وعلى مانشيت الجريدة فوق، لأن واجبه كان إعداد جملة تدعو الشباب الذهاب إلى الحرب كل يوم.

فقالت لي أمي:

ـ يمه صير هذه المرة عاقل واسمعني.

لم أكن عاقلاً وذهبت معها، على العكس كنت أعتقد أنها كانت تقول ذلك اليوم ترهات، لم أعرف أنها كانت تعني ما تقول، وأنها اختفت مثل أبي، ولكن أين؟

ـ ٣٢ ـ

بعد اختفاء أمي، كان عليّ البقاء في القرنة. أولاً، لأنني كنت أعتقد أن من غير الممكن ترك البيت فارغاً، وثانياً كنت على يقين من رجوع أبي وأمي ذات يوم، وضرورة أن يكون أحد في استقبالهما. لم يكونا ذلكما السببان كافيان لإقناع وجيهة في الانتقال نهائياً للعيش في القرنة. هكذا كان من الضروري إلحاق السبب الثالث. ولقول الحقيقة، كان من الضروري جداً إلحاق السبب الثالث، ليس بسبب وجيهة فقط، إنما بسبب المسؤولين في مجلة «حراس الوطن»، لكي أقنعهم أن أشتغل كمراسل لهم من البصرة، بسببي أنا، فقد كنت بالفعل بحاجة لإقناع نفسي والتأكد مائة بالمائة من أنني أود الإقامة في القرنة، دون هذه الـ «أولاً»، وهذه الـ «ثانياً»، وهذه الـ «ثالثاً» التي ألحقتها.

في النهاية قلت لماذا لا، خاصة وأن أمنا الأولى حواء مع أبينا الأول آدم أقاما هنا، مثلما لنا هنا بستان صغير، كان من الضروري البقاء بالقرب منه، رغم أن ما كنا نجنيه منه لا يعادل أحياناً ثمن التكاليف التي يستحقها، طبعاً فكرت في بيعه، لكن من يشتري بستاناً كفت أشجار النخيل فيه وأشجار النبق أن تكون مثلما كانت قبل الحرب، وما عادت تنتج الأثمار بالأشكال نفسها. فقد تبدل شكل الأثمار وسرعة نموها. فمثلاً، أصبح بإمكاننا أن نجني التمر في شهر مايس والنبق في مارس، قد يبدو الأمر مفرحاً إذا ما جنى المرء الأثمار مبكراً وقبل موسمها، لكن تلك الأثمار لم تكن ناضجة مائة بالمائة، لذا كان على جناة التمر أن يُلقوا على الأقل بما يعادل خمسين في المائة إلى

القمامة. أمر محزن، لكنه حقيقي وكان يحدث أمام عيوننا رَمي تلك الثمار. أسيَدْ لوتي كان يتحدث عن «انتحار النخل»، لم أسمع بذلك من قبل، لكن عليّ تصديقه، فمهنته الأصلية هي صاعد نخل، وليس مترجماً. حتى أنه ذات مرة ولكي يبدد شكوكي تماماً، قال لي:

ـ تعال، حتى تشوف بعينك.

أخذني إلى بستاننا. لم نتكلم طوال الطريق. لبرهة أوقفني عند أعلى وأضخم نخلة في البستان. أعرف تلك النخلة الضخمة منذ كنت طفلاً، وأتذكر كيف كان جدي يعتني بها بصورة خاصة ـ أبي كان يفعل الشيء ذاته ـ وكان يقودني إليها خصيصاً، كل صباح؛ نعم كل صباح يُفيقني من النوم، ويقول لي:

ـ جدي نروح نعاين نخلتنا.

لم أسأله تلك الأيام عنها، إنما كنت أذهب معه بلذة. لم يُجبرني على الذهاب أبداً، ولا يهم إن كان النعاس ما زال يُسيطر عليّ، كنت أستيقظ على نداء جدي، حتى أصبح روتيني اليومي. لا يمكن تصور حماسي في النهوض صباحاً، فأخرج مباشرة بالدشداشة معه ـ الدشداشة الكودري المقلمة صيفاً والدشداشة البازة المقلمة شتاءً ـ، ليتلقفنا ضوء الفجر عند عتبة الباب، وصوت الآذان بـ «الله أكبر... وعلي ولي الله».. إلى آخره من أجواء يوميات مدن الجنوب. لا يمكن تصور شوقي لزيارة النخلة، وكأنني لم أكن رأيتها بالأمس فقط، شعور لا يفهمه غير أسيَدْ لوتي ربما. لم أسأل جدي «لماذا هذه النخلة بالذات»، إنما هو الذي قال لي ذات صباح:

ـ عند هذه النخلة وقفت مثلك وأنا صغير ويه جدي، وجدي كان يقول لي نفس الشي.

هكذا فهمت أن تلك الشجرة نمت مع العائلة، كم يكون عمرها إذن؟ أية شجرة هي الأقدم، هي أم شجرة آدم وحواء؟ في القرآن يقال إن آدم وحواء أكلا من الشجرة تفاحة، لكن تلك الشجرة المُسيّجة القزمة في القرنة والتي يأتي السواح من كل العالم لرؤيتها لم تحمل التفاح ذات يوم، كما ليس في نيتها حمله في المستقبل، ثم أنها شجرة نبق. والنبق الذي أحبه ـ لقول الحقيقة أكثر من التمر ـ نمى في هذه الأراضي بالتوازي مع أشجار التمر. لا أبالغ في القول، أنني منذ صغري أواجه نفسي بالسؤال التالي:

ـ إذا صحّ وتكون تلك الشجرة في القرنة هي شجرة آدم وحواء، فهناك الإحتمالات التالية: إما أنهما أكلا نبقاً وليس تفاحاً، أو أن القصة كلها كذب، لم يكن

هناك آدم وحواء، أو أن القرنة كانت هي مكتب الله قبل أن يقرر الصعود إلى السماء، أو تكون قصة الشجرة مخترعة. إما أن إحدى تلك القصص صحيحة أو ولا واحدة منها.

لا يهم. لكنني في ذلك اليوم الذي قادني فيه أسيَدْ لوتي إلى النخلة، لم أفكر بتلك القصص فقط، إنما فكرت، كيف تجرأ الرجل وتحدث عن انتحار النخيل. فها هي النخلة تقف وسط البستان مطلة على كل النخيل المحيط بها، سعفاتها مائلات؛ كانت مثل طير ضخم يحضن أطفاله.

عندما أصبح أسيَدْ لوتي لصق النخلة، قال لي:

ـ أنظر بعينك.

مد سبابته إلى جذع النخلة، وبحركة سريعة، رأيت سائلاً مخاطياً فوقها.

ـ شم السائل أرجوك!

شممت السائل، فأجبته:

ـ لا ينبئني الأمر بشيء مختلف، فهو السائل المخاطي اللي تطلعه جذوع النخيل عادة.

في ذلك اليوم بدا كما لو أنه يملك صبر العالم كله، أو كمن يريد أن يهيؤني لمفاجأة ضخمة، وليقول لي في النهاية: «خذها أنت، يا مترجم، يا فهيم، يا خريج الجامعة، لكني الذي لا يعرف كيف ينتحر النخل وأشجار النبق». من المضحك أنني تخيلته يلقي الجملة بصوت مسرحي ـ مفتعل ـ مثل صوت مسرحي تقليدي، فيه تفخيم.

وعندما لاحظ عدم تعرفي للسائل اللزج، أشار لي أن أتبعه، فتبعته، لم نقطع طريقاً طويلاً، إنما كان الأمر أشبه بمزحة، فنحن لم نقمْ بغير استدارة واحدة، حتى أصبحنا عند جزء جذع النخلة الخلفي. هناك كما أعرف كانت الساقية الرئيسية، والتي تصب فيها ساقيتان فرعيتان تأتيان من جهتي البستان، تبدآن خارج الحائط المحيط بالبستان، لكنهما تأتيان من جهتين مختلفتين، واحدة من الغرب والأخرى من الشرق، وعندما تصلان إلى النخلة، يقرر مصيرهما هناك. جدي كان يقول ـ تذكرت ذلك في تلك اللحظة ـ:

ـ النخلة هي اللي تقرر الماي اللي تأخذه واللي تحتاجه.

ولسنوات طويلة لم يكن هناك فرق بين المصدرين ـ هذا ما أكده لي أسيَدْ لوتي

أيضاً ـ، أمر شبيه بذلك الذي يحدث بين مصبّي دجلة والفرات، فهما يلتقيان عند شجرة آدم وحواء أيضاً، ويكوْنان مجرىً واحداً بعد ذلك، لكن لم يقل أحد حتى الآن، أن الشجرة هي التي تقرر من أي المصدرين تأخذ ماءً أكثر. لكن أسيَدْ يقول:

ـ النخلة هي اللي تقرر يا ماي تاخذه.

وحتى تلك اللحظة اعتبرت الأمر ضرباً من الحماقة لا غير، لأن مهما كان قرار النخلة، فالنبعان في النهاية لا يزودان الساقية بغير الماء، ولا يهم ما تقرره النخلة، فالماء هو الماء.

ـ هنا تشوف شلون قررت النخلة الانتحار، وياها قتلت كل النخل.

ولم أفهم. رأيته يشير لي بالاقتراب. كان يجلس القرفصاء عند ملتقى النبعين بالضبط، وانحنى جذعه إلى العمق، فيما غمس يده اليمنى في النبع الشرقي، ويده اليسرى في النبع القادم من الغرب.

عندما أصبحت قريباً منه، قال لي:

ـ الآن شم ولا تقول لي، بأنك ما تعرف القضية شنو؟

حينها رأيت على راحة يده اليمنى حفنة من الماء الذي لم يكن صافياً تماماً، فقد احتوى على بعض من الغرين، لكنه ظل ماءً. وعلى راحة يده اليسرى رأيت سائلاً كثيفاً، حالكاً، أسود، لم أحتَجْ لوقت طويل، ولا لاختصاصي، ولا أن أفتح قاموساً، لأعرف أنه كان نفطاً؛ نعم نفط لا غير.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. نهض أسيَدْ لوتي. هذه المرة تبعته بصورة أوتوماتيكية، دون أية إشارة منه. لم نَسِر أكثر من مترين، حتى أصبحنا هذه المرة عند النقطة التي وقفنا فيها أول دخولنا، وعندما حدثني عن انتحار النخيل.

لكن لقول الحقيقة، حتى تلك اللحظة لم أفهم ما كان يعنيه. كان عليّ أن أنتظر ثلاث أو أربع دقائق ـ قضيناها أنا وهو صامتين ـ لأسمع جملته، ولأفهم ما كان يعنيه:

ـ النخلة هي اللي قررت تأخذ النفط اللي يجي من نبع واحد.

فقلت له:

ـ مستحيل. القضية منطقية. النفط أثقل وأقوى من الماي وهو اللي فرض نفسه.

ضحك أسيَدْ لوتي وقال بحزن:

ـ هذا كلام متعلمين. لأن النخلة الكبيرة هي اللي تقرر أي نبع وأي ماي أحسن. بهذه الحالة كانت النخلة تعرف أنه نفط.

فقلت له:

ـ حتى لو كان كلامك صحيح، ليش قامت النخلة بهذا الفعل.

فأجابني بهدوء:

ـ لأنها تعبت. قصف وحريق. تريد ترتاح.

حينها فقط نظرت إلى النخلة التي وقفت هناك والتي أعرفها منذ طفولتي. رأيت سائلاً كثيفاً حالكاً، سال إلى جانبي جذعها الضخم، مثل دمعتين سميكتين من الصمغ، لكنهما غزيرتان، سعفاتها متهدلة على الجانبين، تصنع ظلالاً كثيفة، تجعل من المكان أكثر عتمة مما عرفته عنها. فطوال تلك السنوات، وعندما آتي لزيارتها، كنت أرى أشعة النهار تلتمع فوق سعفاتها؛ وإذا ما حركتها الرياح، لا يهم حتى وإن كانت رياحاً خفيفة، اعتقدت بأنها كانت تغني. كانت أحياناً تمر ساعات، ساعات طويلة، أنام تحتها، وهي التي توقظني، بذلك الهدوء والحماس السِريينّ اللذين تنيمني بهما قبلها.

عندما كنت صغيراً، كانت علاقتي مع النخيل علاقة أخرى. فعندما كنت أصعدها ـ خاصة في فترة المراهقة ـ كنت أملك شعوراً بالنشوة هو الشعور ذاته الذي امتلكته لاحقاً عندما نمت مع النساء ـ ما عدا وجيهة؟ ـ أو «صعدت» عليهن.

أما أمي التي لم تنجب طفلاً آخر غيري آنذاك، فأتذكر كم من الليالي ذهبت إلى تلك النخلة، وجلست في حضنها، أو حضنتها، وكانت تصر أمامها قائلة، أن ليس هناك غيرها بإمكانه مساعدتها على الإنجاب. الآن أتذكر، كانت تقودني من ذراعي، مثلما يفعل جدي، بل قبل أن يفعل ذلك جدي بسنوات، لم تَمِلْ أمي منذ إنجابها لي ـ كانت قد دخلت للتو سنتها الواحدة والعشرين عندما ألقت بي للعالم ـ من الإصرار على زيارة النخلة والتحدث معها، لا يهم كم يأخذ ذلك من وقتها، كان سلوكها يثير فضولي بعض المرات فأسألها لماذا تواظب على ممارسة ذلك؟ فتجيبني، علي أن أشكر النخلة أولاً وأُصَلِّ لها، فهي التي حملتني إلى العالم. آنذاك، قبل أن أجيء إلى العالم ـ لم تستطعْ أمي الإنجاب، أربع سنوات بعد زواجها، زارت عشرات الأطباء المحليين والأجانب الذين كانوا يزورون البلدة مرة أو مرتين في السنة والذين كانت معاينتهم تكلف عشرات الدنانير:

ـ يمة حتى المستشفى الأميركاني ما قدر يساعدني.

في ذلك الوقت بَنَت البعثات التبشرية الأميركية مستشفى في القرنة، ظل يشتغل حتى إغلاقه بوقت سريع بعد مجيء العسكر، بعد قتلهم للعائلة الملكية في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨. إلى ذلك المستوصف ذهبت أمي، بالإضافة إلى ذهابها إلى عشرات المشعوذين والمشعوذات ـ السادة كما تسميهم هي ـ. كانت تدفع مبالغ كبيرة لكي يصنعوا لها التعويذة بعد التعويذة، ولكي يمنحوها العقاقير تلو العقاقير. كم من الأبخرة استخدمت في طقوسها، والتي لم تمارسها بعض الأحيان لوحدها، إنما كانت تجبر أبي على مشاركتها في الطقس ذاته ـ حاولت ممارسة الطقس ذاته معي بعدها ـ؛ كانت تصر على ذلك لاعتقادها، أن بهذه الطريقة فقط يأتي الوليد الجديد. كان عليها أن تحمل، وإلا فإن أهل أبي وعشيرته يتربصون بها. قالوا له:

ـ المرة اللي ما تحبل لو تطلقها، لو تتزوج عليها؟

لم يشأ أبي طلاقها مثلما لم يشأ الزواج من امرأة أخرى، رغم أنه ـ كما قالت لي أمي ـ:

ـ كان حلو، تسريحة شعره حلوة، ويغني حلو.

لم أسمع أبي يغني في حضرتي، ربما كان ذلك مجرد وهم توهمته أمي لحبها له، فكما أعرف أن أبي لم يكن يملك ميزات خاصة يمكن الحديث عنها، باستثناء تركه لأهله بسببها، وأعتقد أن ذلك كان سبباً كافياً لإدخاله التاريخ، فمن كان يجرؤ على فعل ذلك في زمانه!

لكن أبي الذي كان يحب أمي ـ ظل يحبها ـ لم يجد مناصاً من الإنفصال عن أهله ـ في ذلك الزمن كان ترك الأهل جريمة لا تغتفر؛ رغم ذلك كان مستعداً للمغامرة بسمعته بكل شيء من أجل لبيبة، أمي. في تلك الأيام قالت له أمي:

ـ لا تهتم. الله ما راح يخلينه لوحدنا.

لم تيأس أمي. وكانت النخلة هي خلاصها الأخير. حدثتني، بأنها لم تذهب لزيارتها في البستان واحتضانها أكثر من خمس مرات:

ـ وحبلت بيك يمة.

ثم تضحك بعدها وتقول لي بمزاح:

ـ حتى ردت أسميك نخلول.

فشكرتها لأنها لم تفعل ذلك.

بعد ولادتي عاد أبي إلى أهله. لقد انتصرت أمي، بعد أن أثبتت أنها بالإضافة إلى كونها ليست عاقراً، أنها ولدت ذكراً. منذ ذلك الحين وهي تعتقد أن النخيل هو علاج العواقر.

وعندما سألتها، لماذا لم تنجب مرة أخرى، بالرغم من توسلها المتكرر بالنخيل. فأجابتني:

ـ النخيل يعطيك مرادك مرة وحدة وبس. وأنت كنت مرادي، الباقي كان أمنية وبس.

الآن طبعاً أعرف حكمة تلك الجملة، وأعرف أن تلك الجملة لن يفهمها من يسمعها، أسيَدْ لوتي فقط، الذي عرفت عن طريقه أيضاً، وأنا أقف عند نخلة الأجداد، بأن النخيل أكثر ذكاءً، وجرأة منا، وأنه من الممكن أن ينتحر لتعبه وأنه ليس مشغولاً مثلي، أو مثلنا للوصول إلى الحكمة عن طريق الاكتفاء بالتفرج على استعراض العالم.

ـ ٣٣ ـ

لم أكن أحتاج وقتاً طويلاً ولا محاولات كثيرة لكي أقنع وجيهة بالعيش مؤقتاً في القرنة. فهي منذ مصارحتي لها بالقضية ـ رغم ترددي الذي لا يمكن تصوره ـ منحتني الانطباع، بأن الأمر لا يستحق كل هذا العناء مني، وأن القضية بسيطة جداً، فإذا حصلت بالفعل على عمل كمراسل لمجلة «حراس الوطن» في البصرة، فهي لن تتردد في الانتقال معي. فهي ـ وهذا ما شعرت به ـ كانت الأخرى تحتاج إلى استراحة قليلاً. أمر مضحك فلو فكرت بما جرى لنا نحن الإثنين، فإنني أصل إلى الصورة التالية: كنا مثل أولئك المشاهدين الذين يذهبون لرؤية استعراض أو مسرحية ما، يعاينونها بحيادية بإحساس ذلك الذي يشعر بتأدية واجب عليه، أو في أقوى الحالات واجب مدين به، ولدهشتهم ـ أو لخيبتهم ـ يكتشفون أن العرض المسرحي ممل وطويل وليس كما اعتقدوا ـ أو قالوا لأنفسهم في مثل هذه الحالات ـ أنها مجرد دقائق وينتهي العرض، على العكس، فها هو الاستعراض المسرحي يطول ويطول، حينها يشعرون بحاجة ملحة للحصول على استراحة قصيرة للتدخين أو لشم هواء آخر غير هواء الصالة. هكذا كانت هي حالتنا، بالضبط، دون أن يصرح أحدنا للآخر بذلك. كانت هي منهكة بعد الإجهاض الذي حصل لها ـ على الأقل هذا السبب المباشر الذي كنت أعرفه ـ وأنا تعبت من بغداد ووزارة الدفاع. أقول تعبت، ولا أعني أننا بدأنا بالشعور بالقرف والرفض لما كنا نراه ونعيشه ـ أمر يستدعي تغيير الموقف بلا شك ـ، كلا لم نملك ذرة من ذلك الرفض.

ففي البصرة وجدت أنا جواً ملائماً للعمل.

كان مكتب جريدة «حراس الوطن» يقع في عمارة النقيب عند نهر العشار، في مركز المدينة، حيث سوق حنا الشيخ - إسم غريب لمسيحي - وهذه المرة كان مسؤول المكتب أحد شعراء المدينة المعروفين، لحسن حظي لم يحدثني عن «علم جمال الحرب»، إنما أنا الذي رحت أُدوِّخ رأسه بتلك النظرية التي سمعتها حرفياً من الشاعر عبد الرزاق الشيخ مخفر، أو عبد الرزاق عبد الحادي - أعتقد أن اسمه كان يختلف عن هذا الأسم، لكني نسيته على أية حال! -، وكان هو يصغي لي مذهولاً، المسكين كان شاعراً شيوعياً قبل أن يدخل إلى صفوف الحزب الحاكم، وكان يعتقد أنني أحد ضباط الإستخبارات الذين يعملون كجنود للتغطية، أمرٌ جعله يصغي إليَّ بخوف، ويسألني بدقة عن تلك المقارنات التي كنت أعقدها بين الشعر والسلاح، ويسجلها مباشرة فوق أوراق ملاحظاته. لم يُبْدِ في أي يوم اعتراضاً، رغم أن الكلام الذي كنت أقوله كان شائعاً على صفحات جرائد ومجلات البلاد جميعها، وفي «حراس الوطن» بالذات، لكنه إما لم يكن يقرأ المجلة التي يشتغل فيها - وهذا أمر جائز تماماً - أو أنه لم يجرُؤ على الإفصاح عما يفكر فيه في داخله، ولولا رؤيتي له يعرق ويرتعش من الخوف أثناء حديثي معه، كنت اعتقدت أنه يطيِّزني أو يستغفلني.

عن طريقه - لم أعد أتذكر اسمه أبداً، ربما لأن شخصيته لم تترك حضوراً ما - تعرفت على مجموعة لا بأس بها من مثقفي وكتاب البصرة، كانوا يأتون إلى مكتب المجلة يومياً، فلم يكن المكتب بعيداً عن مكان جلوسهم في مقهى أبو مظر. كانوا هم الذين يأتون. لم أذهب أنا إلى هناك يوماً ما، ليس لموقف ضد المقهى أو ضد الناس الذين يجلسون فيها، ولكنني منذ طفولتي كنت أكره المقاهي، أمر يصعب تفسيره للكثير من الرجال. فحتى تلك الشلة من الشعراء والأدباء لم تصدق عندما أجبتهم ذات يوم، بعد دعوتهم لي بالذهاب معهم إلى المقهى:

- أكره المقاهي.

أعتقد أنهم فسَّروا القضية، على أساس أنني أرفض الاقتراب منهم، بسبب عدم الدخول بعلاقة شخصية معهم، وبالتالي تسهيل عملية النشر لمعظمهم كي يقبضوا المكافآت المجزية عما ينشروه من «أدب الحرب».

على أية حال ليس موضوع هؤلاء هو الموضوع الذي يهمني في سرد ما جرى لي ولوجيهة منذ انتقالنا للقرنة، إذ أنهم لم يتركوا أثراً في نفسي يُذْكَر، وخاصة عندما سمعتهم ذات مرة يتهكمون على أحد القصّاصين، ويطلقون عليه نعوتاً مثل «نزق»

و«طفل»، و«مخرب»، الخ. كل تلك الصفات بسبب نشره لقصة، قادته إلى حتفه، بل كانوا يتبارون في شتيمته أمامي، معتقدين بالفعل أنني ضابط في الاستخبارات.

ما يخص وجيهة، فقد عاشت بالفعل زمناً لا بأس به من النقاهة. كانت تقضي أوقاتها بين البيت والبستان الذي كنا نملكه. في بعض الأحيان كان يمر بنا أسيَدْ لوتي، وكان يحكي لها عما يحدث له في بغداد، وينقل لها تحيات المسؤولين، ولهفتهم لرؤيتها قريباً، فهم لا يريدون تسليم أنفسهم تحت رحمة المترجمين الأميركيين اللاتينيين - في ذلك الوقت سألتها: «لماذا هي المترجمة الوحيدة هنا؟ ألا يوجد غيرها من مترجمين؟ ولماذا استطاعوا في حالتي الاستغناء عني؟ - على أية حال حتى ذلك الوقت لم أعرف أن أسئلتي إن لم تكن غبية فإنها كانت بريئة تماماً.

وكان عليَّ أن أعيش زمناً أطول لكي أعثر على الجواب الشافي لأسئلتي. ولكن حتى ذلك الوقت، كان العالم ما زال يبدو طبيعياً إلى حد ما، وأقصد بـ «طبيعي»، أننا لم ندخل في غرائبية الحرب، حيث أصبح كل شيء معقولاً، أو إن لم يكن معقولاً فعلى الأقل ما عاد يثير أحداً. لأن على مدى سنوات الحرب الأولى، ولنقل حتى عام ١٩٨٧، وعندما بدأ ميزان القوى يميل لصالح الجيش الإيراني، وعندما بدأ الحديث عن «الدفاع عن الوطن» و«صد هجمات الغزاة»، و«البصرة هانوي العرب»، بدأ الناس يصيغون أسئلة أخرى في ذهنهم، فكل ما بدا حتى الأمس طبيعياً، كساه غبار روتين أيام الحرب، بدأت تسقط قشرته، وبدأ يُلحُّ بنفسه على طرح أسئلته علينا. طبعاً كان على البعض منا أن يكشط بنفسه ذلك الجلد الذي نما فوق الجراح، جراح الحرب. لم يكن الناس جميعاً مستعدين لإلقاء تلك الأسئلة على أنفسهم، وكان عليهم ربما الإنتظار أكثر حتى يصبح الجيش الإيراني بكل فوضاه فوق جزر مجنون، وفي وسط مدينة الفاو، ويصل أطراف القرنة، حيث بدأ الناس يسمعون بدل تلك التعليقات التي كان يكتبها الأدباء ذاتهم الذين ذكرت أسماءهم يومياً إلينا - في مجلة «حراس الوطن»، هي التعليقات ذاتها التي كانت تذاع في إذاعة «بغداد» وفي إذاعة «صوت الجماهير» التي كانت تدعو الناس للمساهمة كل حسب طاقته في «معركة المصير، مصير الوطن والأمة»، مع الاستعداد للإحتفاء بـ «اليوم الذي تتم فيه معانقة الغد الزاهر بمناسبة انتصارات قواتنا تحت ظل قيادتنا الحكيمة وتحريرها لكامل التراب العربي من النيل حتى نهر كارون!»، بدل تلك الديباجات التي اعتدنا عليها تلك الأيام - أقول - كان على الناس أن يسمعوا من الأشخاص ذاتهم تعليقات تدعو الناس والبصريِّين خاصة إلى التطوع «ذكوراً وأناثاً، شباباً وشابات، كهولاً وكهلات» للدفاع عن وطنهم ومدينتهم؛ بل منعت حينها مغادرة أي من سكان البصرة وقراها المحيطة بها إلى أية مدينة أخرى، كانت بالضبط تلك الأيام

التي بدأت العوائل تحتال بالخروج من المدينة بحجة حملهم تابوت أحد موتاهم، باتجاه مدينة النجف، تلك الحجة التي كشفها الحرس الجمهوري الذي كان يُطوق البصرة ويحرس بوابات الخروج والدخول إليها، حتى أنهم راحوا يطلبون من الناس إنزال التوابيت من فوق سقوف السيارات وفتحها أمامهم - رغم ذلك راحت بعض العوائل تقتل بعض الكلاب السائبة وتلفها، ولأن رائحة فطيسة الحيوان تزكم الأنوف، فإن أفراد الحرس الجمهوري كانوا يطلبون منهم إغلاق التابوت وحمله على سقف السيارة والابتعاد بسرعة -

ربما في ذلك الوقت فقط، بدأ بعض الناس بإلقاء الأسئلة - وإن كانت خافتة - على أنفسهم بأن مسارات الحرب بدأت تتغير بالذات في تلك الأيام، جئت للتو من الشغل، لم أجد وجيهة في الأول، وأردت نزع ملابسي على الفور، والدخول للحمام، فقد كان الجو حاراً بصورة مزعجة، كان أحد أيام الصيف تلك التي يضيق فيها التنفس وتصعد الرطوبة فيه إلى درجة التسعين في المئة، لكني توقفت عن ذلك، عندما سمعت صوت وجيهة يأتي خافتاً من جهة السطح، تسألني فيما إذا جئت من العمل، وبدل أن أجيبها، صعدت فوراً وبسرعة، لم أجدها مباشرة، عند المكان الذي نجلس فيه عادة وسط السطح، فراحت عيناي تبحثان عنها، وفجأة سمعت صوتها المرتبك الذي اختلط مع صوت راديو الترانزيستور، الذي واظب ذلك المساء على مناداة أهل البصرة، وتحفيز سكان كل القرى المحيطة بالمدينة، أن يتصدوا للقوات الإيرانية «المعادية»، «أرجوك لا تقترب»، قالت لي، ولكنها تأخرت في طلبها، فقد وصلت السرير، وأصبحت قريباً منها، قبل أن تنهي جملتها، كانت مستلقية فوق السرير، وعندما وجدتني أقف لصق السرير، استدارت بحركة رشيقة، وقالت «أفسح لك المكان كي تجلس»، وراحت تلم في يد واحدة ثوبها وتكمش عليه بفخذيها، وفي اليد الثانية، حاولت أن ترمي كيساً صغيراً ملفوفاً بعناية، لكنه سقط خلف ظهرها، أرادت أن تعاود رفعه، لكنني سبقتها إليه، وفتحته بفضول بسيط، كان منقعاً بالدم، دم ثخين، دم مخثر، دم جاف وكأن الكيس رقد إلى جانبها منذ أيام أو كأنها نسته هناك. فقلت لها:

- سأرمي الكيس في صندوق القمامة.

فخطفته مني:

- لا أتركه، سأرميه أنا.

طوته بيدها المرتبكة، التي صاحبتها رعشة قصيرة في جسدها، ولبرهة صمتنا، فسمعتها تقول، وهي تسترجع نبرة صوتها الطبيعية:

ـ دم وسخ، العادة الشهرية.

وكأنها لاحظت شكّي.

أكملت:

ـ ربما بسبب الإضطراب والخوف، جاءتني اليوم في غير وقتها، بالتأكيد ستنتهي الليلة.

فسألتها:

ـ الخوف والاضطراب؟ بسبب ماذا؟

فقالت، وهي تشير لجهاز الراديو:

ـ ألا تسمع، الإيرانيون يقتربون، وهم على أبواب القرنة.

لم أعرف بماذا أجيبها، فلقول الحقيقة، خفت أنا أيضاً بعض الشيء لا أعرف ماذا أفعل، لكنها وجيهة هي التي أنقذت الموقف، فسمعتها تقول لي للمرة الأولى، منذ زواجنا:

ـ أرجوك، أريد عرق، ممكن ادبر لنا عرق.

أنا الذي فاجأني طلبها، اعتقدت في بادىء الأمر أنها تمزح. نظرت لها، وابتسامة لم تفارق شفتي:

ـ نعم؟

فأجابتني بضحكة، ثم تحول تعبير وجهها إلى الجديَّة ـ كم أخاف ذلك التعبير ـ، رفعت نظارتيها الملونتين، رفعتهما إلى الأعلى، تطلعت بهما ـ كثيراً ما تساءلت إذا كان المرء يستطيع رفع نظاراته إلى الأعلى ويستطيع مسحها بدقة، فلماذا يلبس النظارة بالأساس؟ ـ ثم بدأت تمسح عدستيها بردن ثوبها الطويل. فأجابتني وهي تنظر إلى الأعلى وتنفخ بصوت مسموع وكأنها تطرد غباراً تجمع فوقهما:

ـ طبعاً، لا تعتقد أني أمزح، لازم نسكر قبل وصول الجيش الإيراني، عمري ما جربت العرق.

لقول الحقيقة، لا يمكن وصف فرحتي تلك اللحظة. كان بالنسبة لي ما يشبه الحلم رؤية وجيهة سكرانة. فباستثنائها هي كانت كل شلتنا في الكلية تشرب. رباب مثلاً كانت لا تشرب العرق سادة فقط، إنما تلعق حافة الكأس لمسح القطرات العالقة به مثل قطة.

ذلك المساء قررت الحصول على العرق بأي ثمن. طبعاً لم يكن الحصول على العرق سهلاً، صحيح أنه صناعة محلية وأن الإيرانيين الذين واظبوا على قصف العديد من مصانع البلاد ـ ذلك تقليد حربي ـ ولدهشتنا جميعاً لم يقصفوا يوماً أي معمل للبيرة أو معمل للعرق. لا أدري لماذا؟ مثلما أنني بصراحة حتى ذلك المساء لم أطرح على نفسي هكذا سؤال. لكن بالمقابل لم أكن أنا الوحيد الذي طرح على نفسه السؤال: «لماذا إذن كانت أزمة العرق هي السائدة تلك الأيام؟».. فمنذ ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، يوم إعلان الحرب ضد إيران، وأسعار العرق بازدياد تام. طبعاً أتحدث هنا عن العرق الزحلاوي، ولكن الحصول على نوعيّ العرق التقليديين الآخرين، كان أشبه بالمعجزة، أقصد: عرق المسيَّح وعرق العصري، ناهيك عن الحصول على أنواع البيرة العراقية من فريدة إلى أمستل، وانتهاءً بشهرزاد وكهرمانة، كان يعتبر أحد الأمور المستحيلة مثلها مثل قرار إيقاف الحرب.

لكن في تلك الليلة التي طلبت فيها وجيهة العرق كنت مستعداً للمجازفة في السير على حقل ألغام من أجل الحصول عليه، لها ولي طبعاً. كان عندي الشعور بشكل ما، بأنها يجب أن تشرب. فإنني حتى الأن لم أرها تشرب هذا المشروب اللعين، وضمن تجربتي، يجب التدرب جيداً على ضبط النفس والتعود على شربه، لكي لا يدخل المرء في متاهات هو في غنى عنها، أو في مطبات واعترافات وسلوكات يندم عليها في اليوم التالي. في تلك الليلة فكرت، من غير أسيَذ لوتي، من يدبر لي العرق، ولا يهم ما كان سعره في تلك الليلة. ولكن لخيبتي قال لي أسيَذ لوتي:

ـ عرق؟ عمري ما شربته، إذا تريد أعطيك ويسكي؟

قال لي ذلك، واختفى في الغرفة قبل أن يسمع جوابي ليأتي حاملاً زجاجة جوني ووكر.

ـ البارحة جابته أخت زوجتي من أختهما الكبرىٰ في الكويت.

كانت المرة الأولى التي سمعت منه شخصياً أن له زوجة وأخت تصغرها، وأن لها أختاً أكبر في الكويت. كدت أطلب منه أن يوصيها بجلب بعض ملابس الجينز لي معها في المرة القادمة. لكني عَدَلْت وأسرعت في القول له:

ـ أشكرك.

أخذت الزجاجة. مددت يدي إلى جيبي، كي أدفع له، فقبضت يده على يدي، وقال:

ـ مو عيب. ما بيناتنا فلوس.

شكرته وقلت له:

ـ بالرغم من فضلك عليَّ، لكن بالفعل أحب أن تدلني على واحد يبيع عرق.

فأجابني بهدوء:

ـ دكتور ماجد.

دهشت لذلك. كنت أعرف أين تقع عيادة الدكتور ماجد، لكنني لم أعرف أنه كان يتاجر ببيع العرق في السوق السوداء. خرجت، وكُلِّي إصرار أن أعثر على العرق. لأنني شخصياً لا أحب الويسكي، وإذا شربته فلا بد أن أكون مجبراً، ثم أنني وددت من كل قلبي أن تشرب وجيهة العرق.

كانت المرة الأولى التي ألتقي بها بالدكتور ماجد. كان يبدو أنه يعرفني من قبل، فقد حيّاني باسمي مباشرة. وعندما حدثته عن سبب مجيئي، ضحك، سألني، بأن لديه لترات فقط من العرق الزحلاوي، فوافقت. وقال لي أن أنتظر دقيقة. دخل إلى البيت وخرج وفي يديه القنينة. عندما رآني أمد يدي لإخراج محفظة النقود من جيبي، قال لي، إنه يرفض أن يأخذ نقوداً مني، وأنني يجب أن أترك الأمر للمرة القادمة. حينها خطرت في ذهني فكرة استبدال قنينة الجوني ووكر بالعرق. فأوضح لي بأنه لا يشرب الويسكي، وأن بإمكاني الاحتفاظ بقنينة الجوني ووكر، بل أنه أصر على إيصالي بسيارته للبيت، رغم رفضي، لا لخجل أو لعدم رغبتي بتكليفه، لكن المسافة بين بيتنا وبيته في الحقيقة ليست بعيدة ولا تتطلب لقطعها سيارة. لكنه أصر على توصيلي. فقبلت. كانت المرة الأولى التي أصعد فيها سيارة مرسيدس أحدث موديل: ١٩٨٨.

ـ أحدث موديل؟

فأجابني ضاحكاً:

ـ يعني، هدية من السيد وزير الإعلام.

صمت لحظة، ربما كان ينتظر مني أن أسأله عن المناسبة، لكنني صمتّ، فأضاف موضحاً:

ـ أجريت له عملية صعبة في العيون.

فسألت معبراً عن دهشتي:

ـ في العيون؟ هل حضرتك طبيب عيون؟

كنا وصلنا عند باب بيتنا. فرمل السيارة بصوت مسموع. إبتَسَم.

ـ تطلع لفوق!

تطلعت، فرأيت وجيهة تقف عند الشباك، وقد سحبت الستائر قليلاً.

ـ تعمدت أن أدوس على البريك بهذه الصورة حتى نعلن عن حالة قدومك.

ضحك. أردت أن أفتح فمي وأشكره، لكنه هو الذي فتح فمه قبلي:

ـ لا تظن، أنني نسيت سؤالك.

بالفعل نسيت ما الذي يعنيه، وقبل أن أبوح له بما أفكر، أكمل:

ـ لست طبيب عيون، لكن في بعض المرات يجب على الطبيب أن يتصرف بحذلقة وذكاء حسب الحال، وحتى ان استدعى الحال معالجة النساء.

فسألته:

ـ انت طبيب نسائي إذن.

سكت لبرهة قصيرة، وأجابني، هذه المرة وعيناه مُسَمَّرتان عليَّ، وكأنه يفحص ردود فعلي، رغم أن الوضع كان صعباً عليه بعض الشيء، إذ كان عليه الإستدارة في السيارة بصورة حادة:

ـ كلا لست طبيباً نسائياً، ولكن بعض النساء تأتمن على أسرارها عندي، وهناك عمليات لا يقوم بها أحد غيري، فأنا في النهاية طبيب جراح.

هززت رأسي، بإشارة اختلط الرضا فيها مع اللامبالاة.

رفعت كيس النايلون الذي استقرت فيه قنينتان من العرق. فتحت باب السيارة. وقبل أن أنزل سمعته يقول:

ـ أرجو ألا تكون نسيت قنينة الجوني ووكر، فإن هذه القنينة بالذات تحمل فألاً سيئاً.

ربما اعتقدت أنه يمزح، فسألته:

ـ لماذا؟

فقال لي:

ـ عندما كنت طفلاً، كنت أرى أفلام الكاوبوي، ومنذ ذلك ارتبطت قنينة الجوني ووكر مع أبطال تلك الأفلام، الذين يدخلون إلى إحدى الحانات ويقتلون العشرات.

ثم أضاف أثناء انشغالي بفتح الباب:

ـ سأضطر كالعادة لوضعها في القناني الصغيرة المخصصة للأدوية.

أغلقت الباب وأنا أقول له:

ـ وداعاً.

وعندما سمعت صوت انطلاق السيارة، تذكرت أنني بالفعل نسيت زجاجة الجوني ووكر تحت المقعد. ابتسمت في داخلي لفكرة القناني الصغيرة، وفكرت بالويسكي كأحد أنواع الدواء، ربما سأشربه يوماً بهذه الطريقة، أو أرى أحدهم يشربه أمامي بهذه الطريقة.

ـ ٣٤ ـ

بغض النظر عن بقاء صورة زجاجة الجوني ووكر منذ ذلك الوقت في ذهني، فإن تلك الليلة لا يمكن أن تغيب عن ذاكرتي يوماً، لأنها كانت الليلة التي أدركت فيها، أنني مهما تبجّحْت وادّعَيْت بأن زواجي من وجيهة كان زواج حب، فإنني لم ـ ولا ـ أعرف جيداً المرأة التي أصبحت زوجتي. ولكن إذا نحيت جانباً ما جرى لنا نحن الاثنين، وما أخبرتني به تلك الليلة، فمن حقي أن أطرح السؤال التالي: هل يعرف الأزواج بعضهم؟ وإن قالوا إنهم تزوجوا عن حب ومعرفة، فإلى أي مدى يذهبون في تصديق ظنونهم؟ وهل صحيح ما يقوله المرء لنفسه أو لمعارفه «أنا أعرف شريكي (شريكتي) أكثر من أي شخص آخر، وأنني واثق من حبه أو حبها لي»؟ من طرفي ـ وإن احتفظت بتلك القناعة لنفسي ـ لو سمعت تلك الجملة من أحد لقلت له «إجعل شريكة حياتك تشرب القليل من العرق وسنرى»، والاقتراح نفسه أقترِحُهُ على المرأة ـ مع اختلاف بسيط ـ «إجعلي شريك حياتك يشرب الكثير من العرق». للأسف ليس عندنا فن الترويج أو فن الدعاية للبضائع، وإلا فسيكون إعلاناً جميلاً ذاك الذي يقترح على الناس شرب العرق قبل الإقدام على الزواج. ولكن بقدر ما لهذا الاقتراح من إيجابية، فإنه يمكن أن يمنع الكثيرين من الزواج ـ خاصة الرجال منهم ـ، فالمثل يقول «عين الما شافت، قلب الما يحترق»، وإلا ماذا يفعل الرجال في هذه الحالات؟ رغم أن بمقدار تعلق الأمر بي، لا علاقة للأمر بقضايا مثل «الشرف» أو «العفة» وإلى آخره مما يطلقون عليه بالمعايير الاجتماعية، لأني قبل زواجي من وجيهة كنت أعرف أنها كانت على علاقة

بصديقي ملهم، رغم أني لم أعرف حتى تلك الليلة السبب الرئيسي لانفصالهما. لكن ما باحت به لي آنذاك يفوق ما كنت أحسب حسابه.

كما قلت نزلت من السيارة، وعندما تطلعت إلى فوق، لم أجد وجيهة حيث لمحتها وأنا في السيارة. دخلت البيت. كان ما يزال باب البيت مفتوحاً كما تركته، لكني لم أجد أحداً في البيت. فكرت بأن وجيهة ربما تهيّئ مفاجأة ما، لكن لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً حتى سمعت صوتها من محجر السطح المطل على ساحة البيت:

- الميز فوق السطح أغاتي.

وعند الدرج كانت المفاجأة: لقد اصطفت على جانبيه وعند كل درجة مجموعة من الشموع. كان ضوء الشموع الخافت يتراقص وسط ظلمة الليل المتأخرة التي هجمت على السلم، منافساً لضوء النجوم الذي تلجلج في سماء صيف آب/أغسطس. صعدت ببطء، غير مصدق. كانت تلك المرة التي غمرني فيها شعور خاص تجاه وجيهة، تجاه علاقتنا، تجاه العالم، مع إحساس بسعادة لم أعرفها من قبل، حتى أنني شعرت للمرة الأولى منذ تعرفي عليها بالخوف. أقول الخوف، ليس لأني غير صالح للحب، أو لأني لا أعرف ما هو الحب، إنما أقول ببساطة، «الخوف»، لأني سألت نفسي للمرة الأولى أيضاً، «هل أحب هذه المرأة بالفعل، أم أنني معها بسبب اليأس؟»، ولا ينفعني الإدعاء، بأن ذلك مجرد شعور عام ممكن أن يحدث للجميع، وخاصة عند القبلة الأولى. هل تساءل أحدنا عن معنى تلك القبلة الأولى؟ هل هي تعبير عن الحب؟ هل هي تعبير عن اليأس؟ أم هي تعبير عن الخيبة؟ أم هي مجرد رغبة بالتقبيل؟ لا أدري. ولم أشأ في تلك الليلة التفكير في الحالة العامة، إنما أرعبني بالفعل، أنني لم أفكر بهذا الأمر، ولم أطرح على نفسي مثل هذا السؤال قبل ذلك الوقت. لماذا مثلاً، لم أسألها في ليلة العرس، أو يوم اقتراحها عليّ أن نتزوج هذا السؤال؟ لماذا قبلت بما اقترحته هي، دون الدخول في تفاصيل الأشياء؟ هل خوفي منها، أو خوفي من كسر قضية كنت أعتقد أنها روتينية تجري بين رجل وامرأة، ولا يهم في أية مدينة، في أية بلاد، في أية قارة يعيشان، أم هو خوفي من إجابة منها تخيب ظني؟ ولماذا تخيب ظني؟ هل كنت أعتقد بالفعل بأن وجيهة تحبني؟ وأنا، هل كنت أحبها؟ لا أعرف. ما أعرفه فقط، هو أنني عندما كنت أعانقها أو أقبلها أشعر بالمتعة، وتباعاً، بعد زواجنا، بدأت أشعر بالراحة والاسترخاء بعد نومي معها؟ ولم أتساءل يوماً عن معنى ذلك: الراحة والاسترخاء، إصطلاحان يعرفانهما - ربما - كل المتزوجين والمتزوجات؟ ولكن هل يحتاج الرجال والنساء بالفعل هذين الشعورين فقط؟ ألا يحتاجان لحظات توتر؟ لحظات شجار؟ أقصد تلك اللحظات التي تجعلهما يقلقان على علاقتهما، فيبدآن بالكفاح في سبيلها. أو ألا يحتاجان لحظات من

التصعيد، مثل تلك اللحظات التي شعرت بها وأنا أصعد درجات السلم محاطاً بضوء الشموع؟ كان رأسي يطن بأسئلة كثيرة، وكنت أصبحت عند نهاية السلم، فوق السطح، ووجيهة تقف أمامي. وعلى مسافة مترين أو ثلاثة من مكان وقوفها، استقرت مائدة عامرة، اصطفت فوقها صحون من الجاجيك، صحن من الباقلاء، صحن كبير من السلطة، وصحن كبير من التبولة.

ـ مائدة عامرة بالفعل.

قلت لها، وأنا أضع قنينة العرق فوق الطاولة، ولأجلس فوق كرسي من البلاستيك.

قالت لي:

ـ إنتظر دقيقة.

نزلت، لتصعد بعد دقيقتين حاملة عدة الثلج ولتجلس بمواجهتي.

لبرهة حدقت بها. لا أبالغ القول أنني رأيت أمامي شخصية تختلف عن تلك التي أعرفها في الأيام السابقة. كانت وجيهة بكامل أناقتها. لبست فستاناً، كانت قد اشترته في إحدى رحلاتها إلى أسبانيا، ثوباً مفتوحاً عند الصدر يضغط على أثدائها فيجعلهما بارزين بصورة فاضحة، مما جعلها في وضع مغرٍ خاصة في جلستها تلك وقد فتحت شعرها وسمحت له بالاسترخاء فوق كتفيها. كان كل شيء فيها غريباً ذلك المساء، من تسريحة شعرها، مروراً بنظارتها، بابتسامتها، بطريقة حديثها، حتى حذائها الذي لبسته ذلك المساء للمرة الأولى. كانت وجيهة ـ لو سمحت لنفسي بقول ذلك بحيادية ـ مثل إمرأة تتهيأ للقاء فتى أحلامها. أمر غريب. لم أشأ الذهاب بعيداً في تصوراتي، وقلت لنفسي، لأدخل في طقسها مهيئاً نفسي للمفاجأة، وحتى تلك اللحظة لم أفكر بأمر غير عادي أو بأمر مريب، إنما كنت مذعناً لتصوراتي، إذ مهما تكون حدود الإحتمالات فإنها لن تدخل اللامعقول، متخيلاً كيف يمكن أن ننام مع بعض الليلة، بالتأكيد، ستكون ملابسها الداخلية جديدة بالنسبة لي، وليس من المبالغة إذا قلت أن حتى فرجها سيكون جديداً بالنسبة لي، ربما مثل فرج صبية نما للتو شعر عانتها. كانت تلك أفكاري أو خيالاتي إذا شاء أحد المتحذلقين تسميتها، وقبل أن أشرب البيك الأول.

هكذا عمرت القدح الأول وسط كركراتها، ومزاحها معي، بأن أعطيها بعض الإرشادات لشرب البيك التاريخي الأول في حياتها (على الأقل هذا ما قالته لي تلك الليلة). فقلت لها: لا تشربيه بشكل سريع، لأنه يخدع، لا تشربي كثيراً، وإذا دختي لا

تنامي، ثم حدثتها عن تلك النكتة التي كنا نتداولها في قسم اللغة الألمانية عن الألماني الذي جاء إلى بغداد ليعمل في إحدى الشركات الألمانية، وذات مرة التقى بعدد من السكارى في أحد البارات، فأقنعوه بالذهاب معهم للبيت وإكمال السهرة، وشرب العرق معهم. في اليوم الثاني حَدَّثَ أحد زملائه عن الليلة، وقال له أن شرب العرق للمرة الأولى في حياته، فسأله زميله، بأنه سمع عن العرق كثيراً، ولم يجربه حتى الآن، وما هي ميِّزاته، فأجابه، بأنه لذيذ، لكن فيه مشكلة واحدة، ذلك أن المرء عندما يستيقظ في الصباح يشعر بوجع في مؤخرته!

ضحكت وجيهة بعمق، وعلقت:

ـ أرجو ألا يحدث هذا لمؤخرتنا الخلفية، مثلما يحدث الآن لمؤخرة وطننا العزيز.

أثارت جملتها (التي ألقتها بالعربية الفصحى) فضولي في تلك اللحظة وحملتني على التفكير بما تعنيه. فأولاً لم أسمعها ذات يوم تمزح بمثل تلك الصورة، فبغض النظر عن كونها امرأة جدية جداً، لم أسمعها تستخدم كلمة «مؤخرة» قبل ذلك اليوم. بهذه الصورة لم نتحدث لا أنا ولا هي ـ حتى من طرف النكتة ـ عن أمور لها علاقة بالجنس وبالأخص ممارسته عن طريق المؤخرة، الموضوع المحبب لسكان هذه البلاد، الذين يوحون دائماً في أحاديثهم بأنهم بارعين في ممارسته، طواعية أو بإلحاح، كما اعتاد غالبية الرجال والنساء، أو بتردد أو للفضول فقط عند القسم الآخر منهم. فأتذكر ضمن هذا السياق، أن أحد الذين كانوا يترددون على مجلة «حراس الوطن» ـ أحد المثقفين ـ، والذي كان قد دخل للتو بعلاقة مع مثقفة زميلة له، كانت تشتغل معنا في المجلة ـ تدّعي أنها ناقدة، لا أفهم بهكذا أمور ـ، كان يتفاخر أمام المحررين الآخرين الذين فتحوا الموضوع لا أعرف بأي سياق، ليقول بأن:

ـ حتى المثقفات اللي يرفضن ذلك ينتهن بالنهاية للقول، معود دخله من الباب الخلفي، حتى أجربه شوية.

طبعاً باستثنائي وباستثناء شاعر هو أحد الزملاء الجدد في المجلة الذي كان يستمع معي للقصة، لم يعرف أحد بالمثقفة المقصودة ولكن في تلك اللحظة وأنا أجلس بمواجهة وجيهة لم تهمني تلك التقولات، ولم أشأ الدخول في التفاصيل، لأن ذلك ليس الموضوع المقصود، وما كان يهمني من يمارس الجنس عن طريق المؤخرة، ومَنْ ينام مع مَنْ، مثلما أن ليس في نيتي فعل ذلك تلك الليلة مع وجيهة. كان أشد ما يرعبني في المؤخرة هو منظر البراز الذي تنتجه يومياً، ولا حاجة لي لقصائد أبي نؤاس عن الغلمان، ولا حكاية «المثقف»، مثلما لم تهمني ـ لقول الصراحة ـ مؤخرة الوطن في تلك اللحظة. فكل ما

كان يقلقني تلك اللحظة، ما الذي تريده وجيهة من وراء ترتيب كل هذا الطقس ذلك المساء؟ وهل يدخل ذلك في باب «التفرج على استعراض العالم؟» باستثناء هذين السؤالين لم يَدُر في ذهني أي سؤال آخر.

لا أدري، ربما كانت واحدة من تلك اللحظات التي كنت أتطلع فيها إلى السماء التي نشرت ضياء نجومها فوقنا، وكأنها شاءت فضحنا تماماً: الواحد أمام الآخر، عندما سمعت صوتها يأتيني من البعيد، وكأنها ليست هي تلك المرأة التي أعرفها منذ سنوات، والتي تجلس أمامي بشعرها المنثور:

- راح أحكي لك وأرجوك اسمعني زين.

كانت واحدة من تلك الليالي البهية البيضاء التي ربما لا نحياها هكذا إلا نادراً، صحيح أن الضوء في الجنوب دائماً ينبعث بصورة خاصة، إلا أن تلك الليلة بعثت ضوءاً أكثر إشعاعاً مما هي العادة؛ ربما لإعداد المشهد الذي سأسمع فيه قصتها، قصة وجيهة. ولكن لكي أعود إلى طلبها، هل كان عندي خيار آخر تلك الليلة غير سماع ما أرادت أن ترويه لي؟

رفعت كأسها الأول الذي كانت قد جاءت على نصفه عندما بدأت في سرد القصة، التي أحاول إعادة سردها بأمانة. رغم أننا في النهاية نعرف مهما حاولنا أن نكونْ أمينين لرواية القصة، بأننا نختلق قصة جديدة حتى في حالة إعادة سردنا لها.

- تعرف بأني منذ طفولتي، وعندي رغبة أصير قحبة؟

قالت لي. لم أجبها بـ «من أين لي أن أعرف»، إنما حافظت على صمتي. شربت بقايا كأسي، لأعمر الكأس الثاني. سادت فترة صمت قصيرة، وقلت مع نفسي، لا يمكن أن تكون قحبة وأنا لا أدري، كلا من الممكن لي التفكير في تلك اللحظة بتلك الإحتمالات باستثناء هذا.

هي الأخرى أتت على بقايا الكأس، عكس إرشاداتي لها في شرب الكأس الأول. مدت لي الكأس وقالت لي:

- عَمْرَه.

كان صوتها يرتعش بنبرة توحي بأنها بدأت تسكر. فعلقت:

- لا تهتم طالما تبقى المؤخرة سالمة، أقصد مؤخرة الوطن وبناته.

أردت أن أقول لها أن عليها ألا تقلق من هذه الناحية، إذ لست بالرجل الذي

تهمه هذه المسائل. لكنها سبقتني بالحديث لتخرسني بحديثها. لم تقل تلك الجملة المتعلقة بالمؤخرة جزافاً، فكما روت لي، فلقد سمعتها وهي في السابعة من عمرها. كانت قد بدأت للتو في الذهاب إلى المدرسة، وكانت في الصف الأول في مدرسة «الفردوس للبنات». كانت تذهب كعادتها إلى المدرسة باكراً قبل باقي الطالبات. آنذاك كان الدوام المدرسي يبدأ في الساعة الثامنة صباحاً. ولكن بالرغم من أن أبواب المدرسة كانت تفتح في الساعة السابعة، فلا تبدأ الطالبات في المجيء حتى الساعة السابعة والنصف؛ كانت وجيهة هي الوحيدة التي تأتي باكراً، فقد كان أبوها خياط العباءات والملابس الرجالية يواظب على الذهاب إلى عمله مبكراً، أما أمها التي كانت تستيقظ في الساعة الخامسة والنصف صباحاً لإعداد الفطور للأب، كانت توقظها في السادسة وتطلب منها مغادرة البيت إلى المدرسة في الساعة السادسة والنصف. كان طريق وجيهة يستغرق نصف ساعة على الأقل. لذلك كانت تصل مباشرة عند فتح باب المدرسة. في تلك الساعة كانت ترى الحارس يغادر المدرسة، والذي اعتاد على مجيئها المبكر، مثلما اعتاد على قرصها من خدها في تلك اللحظة. كانت تبقى على الأقل نصف ساعة لوحدها في المدرسة قبل دخول ثاني الطالبات إليها. ربما استمرت وجيهة ستة أشهر على تلك الحال قبل أن تجد نفسها وجهاً لوجه مع من كانت تعنيه في لحظتها، ولكي تعرف من كانت تعنيهم كان عليها أن تسمع تعليق أبيها تباعاً.

في إحدى تلك الصباحات دخلت كعادتها المدرسة. وضعت حقيبتها عند الرَحْلَة التي تجلس عليها يومياً، وخرجت إلى الساحة. كانت كعادتها تجلس في ساحة المدرسة، عندما رأت شبحين يخطفان بصورة سريعة في الطابق الأول من البناية. أمر غريب، فإن بنتاً في مثل سنها، كان عليها أن تشعر بالخوف، كلا، لم يحصل ما يشبه ذلك، على العكس قادها الفضول لصعود السلم، والسير ببطء لاكتشاف ما يفعله الشبحان.

فعلت وجيهة ذلك، ربما مرت بالبابين الأولين اللذين يبدأ الطابق الأول بهما، في الثالث، كان الباب مغلقاً، ولكن ليس تماماً. كان بإمكانها سماع أصوات قادمة من هناك، مثلما كان بإمكانها رؤية الجسدين المتحركين هناك. كانت المرة الأولى التي ترى فيها مؤخرتين تحدقان باتجاهها. وعندما أصغت السمع أكثر عرفت أن الصوتين ليسا بغريبين عنها. كان صوت جارتهم وَصُفْ، وصوت جارهم الآخر حُوني. وكان الإثنان يقفان أمامها: حُوني وقد أنزل بنطلونه حتى الأسفل، وبانت مؤخرته، لكنه كان يروح ويجيء يئن بأصوات مختلفة، لم تعرفه من صوته فقط، إنما من بنطلونه الكحلي المخطط اللمّاع الذي واظب على لبسه طوال سنتين.

وَصُفْ وقد كشفت مؤخرتها، والتي بانت منها فقط، والتي لولا صوتها لما كانت

تعرفت عليها، لأنها أعطت وجهها إلى الشباك، وكانت تحرك مؤخرتها في كل الاتجاهات.

كانت المرة الأولى التي تسمع فيها الحوار التالي:

«ـ ها أم العيورة يعجبك كبره وطوله؟

ـ حُوني ما عندي غيره.

ـ راح أنسّيك كل العيورة التي عرفتيها.

ـ أي، فدوه أروحلك حُوني، فك طيزي.

ـ أخذيه، راح أقبطه كله.

ـ إترسه، لا تخليه يتنفس، اذيه شويه.

ـ راح أغرقك بالبزر.

ـ شمتاني، أنه قحبتك غرقني.»

ذلك الصباح لم تفهم الطفلة وجيهة ما كان يعنيه الحوار بتفاصيله. كانت تصغي فقط، ولم تتساءل مع نفسها ما الذي كان يفعله الإثنان هناك. حتى أنها ذهبت ذلك اليوم إلى البيت دون أن تقول لأحد ما رأته.

لكن في ذلك اليوم أيضاً، وعندما حملتها أمها إلى فراشها لتنام، لم تفكر بغير وَصُفْ. كانت منذ طفولتها تعرف وَصُفْ وتكن لها مودة خاصة، فهي التي أخذتها إلى السينما أكثر من مرة في العيد معها، فلولاها لما شاهدت فيلم «أم الهند»، وفيلم «دوبدن»، وفيلم «ليالي شامي كابور»، وفيلم «سنگام». حتى أنها فكرت أن كل ما تقوم به وَصُفْ صحيح. نامت تلك الليلة بعد أن قررت أن تذهب إلى الغرفة ذاتها في المدرسة في اليوم الثاني.

على غير عادتها، كانت هي التي استيقظت في اليوم الثاني، وألّحت على أمها في الذهاب مبكراً إلى المدرسة. أمها التي لم تعرف خلفية القصة، قالت لها:

ـ عفية بنيتي بديتي تحبين المدرسة.

لم تقل لها شيئاً. إنما خرجت مهرولة لكي لا يفوتها المنظر الذي رأته في الأمس. بالفعل ما أن صعدت في اليوم الثاني هناك، حتى وجدت الإثنين في طقسهما.

هكذا واظبت وجيهة على الذهاب إلى المدرسة يومياً مبكراً، ولتصعد إلى السطح. كم كانت دهشتها كبيرة، عندما اكتشفت بعد أسبوع رجلاً جديداً مع وَصُفْ. في الوهلة الأولى لم تصدق عينيها ذلك، فقد ظنت أنه ربما غَيَّر بنطلونه الكحلي المخطط. ولكن ما أن رأته يلبس بنطاله بعد الانتهاء من طقسه، حتى عرفت أنه رجل آخر.

على مدى أيام تلصصها ثبت لوجيهة أن وَصُفْ كانت تجلب بما يعادل كل أسبوعين رجلاً جديداً. استمرت وجيهة على مراقبة المشهد، حتى ما حدث ذلك اليوم.

كانت كعادتها تود الصعود للطابق الأول، عندما رأت يداً تمسك بها. تجمدت وجيهة في مكانها، عندما رأت فرّاش المدرسة وبجانبه وقفت مديرة المدرسة مع رجلين من الشرطة.

- لا تصعدين بنيتي.

قال لها فرّاش المدرسة بصوت واطيء. لم تصعد، وتراجعت حتى صارت في ساحة المدرسة، بوضع يسمح لها أن ترى المشهد الذي سيحدث فوق. جلست عند أحد أعمدة الطارمات. كانت خائفة، أطرافها ترتعش، وكأنها هي التي ستضبط هناك وليس وَصُفْ. لا تعرف لماذا استحوذ عليها ذلك الشعور، وشعرت بخذلان أقدامها لها، خاصة عندما سمعت صياحاً من فوق السطح. كم كان بودها أن تنهض وتعاين ما يجري هناك، فبالرغم من قامتها القصيرة، كان بإمكانها رؤية كل شيء لو وقفت، فهي تستطيع حتى وفي جلستها تلك أن ترى رؤوساً تتحرك هناك. لم يستغرق الأمر إلا لحظات، حتى رأت رجُلَي الشرطة يسحبان وَصُفْ، فيما سار خلفهم الفرّاش والشاب الذي كان مع وَصُفْ ومديرة المدرسة.

ذلك اليوم وصلت البيت حزينة، لقد وجدت الخبر أمامها في البيت. كان كل الحي يتحدث في القصة. حتى أبوها عندما جاء من عمله ذلك اليوم فأول ما سأل أمها، فيما إذا سمعت بقصة وَصُفْ. وحينما أجابته الأم بـ «بلى» راح، وهو يستبدل ملابسه في الإستطراد في حديثه عن وَصُفْ.

تنحدر وجيهة من عائلة شيوعية. أبوها كما يدَّعي، كان من مؤسسي الخلايا الأولى للحزب الشيوعي في البلاد، وهو كما يفتخر إلتقى بفهد، مؤسس الحلقات الماركسية الأولى أكثر من مرة. ولكن إذا بحث المرء عن الحقيقة، فإن أبا وجيهة هو أحد أولئك الشيوعيين الذين انتموا للحزب الشيوعي بالصدفة، بسبب تعاطفهم مع شخص ما. كان بالفعل قد التقى بفهد، ولكنه لم يفعل أكثر من خياطة زرين لسترته واللذين انقطعا ربما

في إحدى التظاهرات. فلقد اشتهر محل خياطته الواقع مقابل مقهى البرازيلية في الأربعينيات، وكان لا بد لفهد الذي كان يعيش مختفياً في الصالحية آنذاك من أن يُعَرِّج على محله لخياطة بذلة أو تعديلها. فهو لم يشأ أن يعرف محل إقامته في الصالحية، في منطقة الكرخ من بغداد، لذا كان من الأفضل له العبور إلى جهة الرصافة، والمجيء إلى دكانة خياطة «أبو وجيهة»، كما كان مكتوباً على القطعة المشعة.

لم يعرف أبو وجيهة هوية الزبون الذي كان خاط له بذلة جديدة أو خاط له أزرار بذلته التي تقطعت فقط. لكن في عام ١٩٤٨، عندما رأى في الصحف صورة الرجال الثلاثة، الذين أعدمتهم السلطات المحلية والبريطانية، تعرف على ذلك الشخص «الطيب» و«الكريم» الذي زاره مرتين أو ثلاث. لم يفهم في ذلك الوقت ما هي الشيوعية، ولكنه عمل المستحيل كي يتعرف على شيوعي ما، وبطريقة ما، عرف الأب بأن السلطات آنذاك قتلت ثلاثة رجال «يمثلون الشعب» ـ كما قال هو لابنته: فهد المسيحي، حازم الشيعي، وصارم السني. لكنه لم يدرِ بأن بائعة الأحذية الأرمنية المجاورة له، هي واحدة من النساء الشيوعيات الأوائل في البلاد ـ التي ماتت في ١٩٦٨ بأيام بعد استلام العسكر للسلطة ـ مرة أخرى ومن جديد ـ في ١٧ تموز/يوليو من تلك السنة والتي ستورث المحل لابنتها ماري التي كانت طفلة صغيرة آنذاك والتي ستعدم في عام ١٩٨٢ ـ مع عشرة نساء أخريات، بتهمة شتمهن الحاكم ـ وكانت دخلت للتو الخمسين من عمرها رغم أن ذلك لم يظهر على وجهها بتاتاً، فقد ظلت محافظة على جمال وأناقة غير عاديين! ـ. وأن الأم هي التي ستدخله إلى الحزب الشيوعي. هكذا أصبح الرجل شيوعياً.

منذ ذلك الوقت، وهو لا يترك صغيرة أو كبيرة دون أن يلحقها بـ «الظروف الموضوعية». على هذا المنوال كان يستخدم الجملة سواء كانت في محلها الصحيح أم لا. لذلك ما أن سمع بخبر وَصُفْ، حتى قال:

ـ لا تسألوا الناس، إسألوا الظروف.

إنها لمفارقة بالفعل أن يستخدم الرجل هذه الجملة قبل أن تراها وجيهة لاحقاً مكتوبة فوق مانشيت أحد الأفلام المأخوذة عن قصة «بئر الحرمان» لإحسان عبد القدوس ـ حتى أنها كانت تُصِر بأنه كاتب شيوعي ـ.

لم يكتفِ بتلك الجملة فقط، إنما راح يحلل على طريقته أمام الصغيرة وجيهة، كيف أن هذه «المسكينة» وَصُفْ ـ على حد تعبيره ـ تستحق التعاطف معها، فهي تنتمي إلى عائلة فقيرة، وأنها كانت تفعل ذلك مقابل بعض النقود لكي تسد رمق حياتها وتطعم أبناء أختها التي سُجِن زوجها الشيوعي، وأصبحت عالة على أهلها.

وجيهة الصغيرة في تلك الأيام التي لم يتجاوز عمرها السبع سنوات، شعرت بشكل ما - كان شعوراً غامضاً - أن أباها ليس على حق، فهي الشاهدة الوحيدة على كل ما كان يجري صباحاً أمام عينيها. لم تأخذ وَصُفْ من أحد نقوداً، مثلما لم تر أياً من الرجال يدفع لها النقود. وهي هجست بذلك الشعور الغامض طبعاً، أن وَصُفْ فعلت ذلك بدافع الرغبة. لقد سمعتها ذات مرة تقول لأحدهم، الذي سألها وهو يُزرِرْ بنطلونه، فيما إذا هي لا تشبع من الجنس، فقالت له:

- أحب النيك، ما أشبع منه، حتى لو ألف رجال ناكني.

ولكن كيف تستطيع نقل تلك الفكرة لأبيها في تلك الأيام، بأن امرأة ما، ممكن أن تدمن على ممارسة الجنس مثل كل رجل؛ بالإضافة إلى ذلك فإنها لم تفهم لماذا لم يعلق أبوها بالجملة ذاتها بخصوص الرجال الذين كانوا يواظبون على النوم مع وَصُفْ؟ ربما لأنه وحتى تلك الأيام لم يكن يدخل في تصور أي شخص، بأن هناك بعض الرجال ينامون مع النساء، عندما تدفع لهم تلك النساء؟ طبعاً لم تعرف الطفلة وجيهة إصطلاح «الجيكولو» ومعنى الرجال الذين ينضوون تحت ذلك التعريف. مثلما لم تعرف - حتى اليوم - لماذا ينعت الرجال بهذا الإصطلاح الذي لا يخلو من الرومانتيكية، منذ أن عالجته هوليوود بأفلامها، وقدمت للعالم شخصية الممثل المكسيكي «فالانتينو»، مثل بطل، مثل بونابرت الفاتح، الذي يستحوذ على قلوب النساء منذ النظرة الأولى فقط، إنما يفرغ جيوبهن أيضاً. ولاحقاً، عندما درست اللغة الإسبانية ورأته كنموذج لما يطلقون عليه «اللاتين لَفر»، فكرت فيما إذا كان الشاعر العربي القديم عمر بن أبي ربيعة «جيكولو» آخر؟ لماذا لم يطلق عليه مثلاً «قحب» (رغم أن الكلمة ذاتها كانت تستخدم في اللغة العربية القديمة وكانت تعنى الرجل العجوز المسن!) أو لماذا لم نجد أي تحليل حتى على طريقة أبيها «الماركسية» له، التي تشرح لنا ربما أن الرجل كان بعوز مالي بالفعل، لذلك كان يذهب إلى الحج، لأنه كان يعرف أن النساء الغنيات واللاتي في غالبيتهن من كبيرات السن - لا يمكن تخيُل واحدة تحت الأربعين من عمرها تذهب إلى الحج -، وتلك النساء فقط هن القادرات على الذهاب للحج إلى «بيت الله». وإذا اعترض ناقد أو قائل على هذا الكلام، فلا بأس، لكن شريطة إعفاء وَصُفْ من التهمة ذاتها، لأن إذا صح وكان الإثنين فالانتينو وعمر بن أبي ربيعة ينكحان النساء لطاقتهما الجنسية الرهيبة ولرغبتهما المشتعلة أبداً، ولا علاقة للأمر بالنقود - نفس الأمر يصح لكازانوفا ودون جوان -، فوَصُفْ وغيرها من النساء تنكح عشرات الرجال للدافع ذاته. «من منكم بلا خطيئة - جنسية -، فليرجمها بحجر».

طبعاً لم يكن لوجيهة الطفلة ذات السبع سنوات هذه الأفكار تلك الأيام، فهي

أفكار جمعتها لاحقاً في حياتها، لأنها حتى عندما درست الأدب الإسباني سألت أستاذة الأدب الإسباني الدكتورة ماري لو كاستانين، لماذا لا توجد في التاريخ «كازانوفة امرأة ودون جوانة؟». فأجابتها الدكتورة، باللهجة الشعبية المحلية التي كانت تجيدها:

ـ نعم أكو.

وحينما سألتها من تقصد، فأجابت الدكتورة التي كانت آنذاك في الأربعين من عمرها ولها ـ كما كانت هي تشيع ـ عشاقها في بغداد:

ـ أنا، شوفيني أمامك.

ضج الصف جميعه في الضحك، وقطعته الدكتورة نفسها بقولها:

ـ عندك حق، التاريخ كتبه الرجال، وخاصة بما يخص تاريخ الحب.

جملة حفظتها وجيهة وأعجبتها، رغم أنها لم ترغب أن تكون ذات يوم لا بـ «الكازانوفة» ولا بـ «الدون جوانة». أنها بالفعل لمفارقة محيرة، إذ أن وجيهة التي كان عمرها يقترب من السابعة آنذاك، عندما سمعت أباها يحلل الوضع الاجتماعي لوَصُفْ والطبقة التي تنتمي إليها، لم تشعر بغير شعور من التضامن مع وَصُفْ، لشعورها بأن أباها ليس على حق؛ في ذلك اليوم تمنت أن تصبح قحبة، لكي تثبت لأبيها أنه على خطأ، وأنها هي وجيهة ذاتها القادمة من عائلة متوسطة تقرر أن تمارس ما ألصقه أبوها بامرأة مثل وَصُفْ: أن تسمح للرجال بالنوم معها فعلاً مقابل الفلوس.

لم تصبح وجيهة قحبة. لكنها أصبحت ضابطة في المخابرات!

في تلك الليلة وهي تشرب الزحلاوي فوق السطح، عرفت أن من السهولة للمرء ـ لنقل المرأة في هذه الحالة ـ أن يتعهر، وبذات السهولة ممكن أن يصبح ضابطاً في الأمن أو في المخابرات.

من الطبيعي أن ينظر الناس للفعل من الخارج، وعندما يرون أن وجيهة ضابطة في المخابرات، سيبتعدون عنها مباشرة، ويقولون: إحذر، هذه ضابطة في المخابرات.

ذلك على الأقل رد فعلي الأول ونحن نشرب الزحلاوي، حتى أنني لم أسألها عندما أعلنت بصراحة عن وظيفتها الأصلية. كنت إما لم أستوعب الصدمة بالتمام، أو أنني لكي أصدق ما قالته تركت فسحة من الوقت، كي أعرف، فيما إذا كانت تمزح أم لا. كلا لم تكن تمزح.

ماذا يفعل المرء في أوضاع مثل هذه؟ يحاول الاحتيال على الزمن على الأقل. مثلاً

أن يستغل المرء الوقت ـ بمثل وضعنا ـ بتعَمْير بيكين جديدين من العرق. لم يكن قدحها فارغاً تلك اللحظة، بل ما زال فيه ما يقارب ربعه. رفعت قدحي الفارغ إلا من قطرات قليلة، وضربته في الأول بقدحها، كي أحثها على شربه. شربته بالفعل.

وفي الوقت الذي بدأت فيه بتعَمْير القدحين، سمعتها تقول:

ـ تدري بديت أشعر بأني أطير.

لم أقل كلمة، كأنني أخاف أن تتوقف عن حديثها، أو تتركني لوحدي معلقاً مع المعلومة التي ألقتها في النهاية.

لم تطر وجيهة، إنما دفعت بعضاً من ملاعق المزة التي ما زالت في كامل صحونها أمامنا.

ـ فد ربع ساعة لاخ وأبدأ بالشرب.

قالت ذلك. وعندما لاحظت تطلعي بها مستفهماً عما يعني ذلك، أوضحت لي أنها تعلمت تلك العادة من أبيها. لم يكن أبوها شيوعياً محترفاً فقط، إنما شارب محترف أيضاً. تعلمت منه أموراً كثيرة، وكانت تحبه، هي ابنته الوحيدة، حدَّ العبادة، لكنها رغم ذلك قاومت إغراءً واحداً منه: محاولاته المتكررة لتنظيمها في الحزب الشيوعي. وإذا ما سألت وجيهة لماذا لم تفعل ذلك؟ تقول ربما حبها له ما جعلها تبتعد عن الشيوعية. كانت تريد أن تثبت لأبيها عكس ما يعتقد، وكان عندها شعوراً غامضاً، أن الطريق الذي اختطه ليس صحيحاً، وأن على عاتقها يقع عبء واجب كبير: إقناع أبيها وإغرائه ان استدعى الأمر. ولا يهم أي رأي سيشكله عنها.

فإذا لم تفِ بوعدها عندما أقسمت مع نفسها في طفولتها أن تصبح قحبة، ربما لأنها نسيت القضية، أو لأن الحياة جرفتها بإيقاعها، حتى نامت، بل اختفت تلك الرغبة الطفولية في إحدى زوايا رأسها. ولكن بنفس القوة التي فكرت فيها في التضامن مع وَصُفْ، فكرت بالتضامن ذاته مع شاعر سمعت اسمه من أبيها «عبد الرزاق الشيخ مخفر».

لم يكن الشاعر في تلك السنوات شاعراً غير معروف، بل كان من الشعراء المعروفين. حتى وجيهة غير المهتمة بالأدب إلا ما ندر، أو بالصدفة، سمعت باسمه، أو قرأت له بالصدفة إذا ما تصفحت إحدى الجرائد التي كانوا يلفون بها الكباب أو التكة. ربما لم تنتبه له من هو ومن سيكون، لو لم تسمع أباها ذلك المساء عندما عاد من العمل، وهو يقول لأمه:

- اعتقلوا ماري، صاحبة محل الأحذية.

طبعاً لم تعرف الأم أن أم ماري هي التي أدخلت زوجها للحزب الشيوعي. ولكنها تعرف الأم مثلما تعرف الإبنة شخصياً - لم تعرف أنهما شيوعيتان -، بحكم كون محل الأحذية مجاور لمحل زوجها، حتى أنها اشترت أحذية لها ولوجيهة من هناك أكثر من مرة.

- أكو أمور تحدث بالدنيا يصعب تصديقها بالأول.

ودون أن تسأل الأم استمر الأب في حديثه:

- أكو واحد شاعر اسمه عبد الرزاق الشيخ مخفر.

تلك الظهيرة عرفت القصة تماماً. كان الشاعر يأتي كل يوم إلى مقهى البرازيلية، ويجلس في مكان ملاصق للشباك، ليعاين ماري صاحبة دكان الأحذية. كل الناس كانت تعرف تعلقه بها، حتى أنه كتب عنها ديوان اسمه «أحذية السيدة السومرية» وكتب فيه ما معناه أنه يختصر في أحذية هذه المرأة وشخصيتها كل زمن سومر وبابل، بالإضافة إلى تغزّله بالأحذية التي تبيعها والتي تلبسها... إلى آخره من التخريجات التي عوّدنا عليها الشعراء. عرفت ماري بأمر الديوان عن طريق الشاعر ذاته، فهو الذي حمل لها والعرق يتصبب من جبينه ديوانه، وقال لها، أنه كتب الديوان من أجلها. شكرته ماري، ولم تطلب منه شيئاً آخراً، وسألته فيما إذا كان بإمكانها أن تفعل له شيئاً، هز رأسه بـ «لا»؛ حينها خطر في ذهنها أن تهديه حذاءً من أحذيتها الأنيقة. فرح الشاعر، لكنه منذ ذلك اليوم لم ينقطع عن زيارتها يومياً. في بداية تردده كانت تصده بلطف، لكنها عندما شعرت بإلحاحه. طردته من المحل، ربما شعر الشاعر بالإهانة، هو الشاعر الكبير تطرده تلك المرأة. لم تَدْرِ ماري أنه كان يعرف بأنها شيوعية. أو ربما كانت تهجس معرفته بذلك، لكنها هي التي ظنت - ربما لمعرفتها الكثير من الأمور عن حياته السابقة، وكيف أنه درس في روسيا على حساب الحزب الشيوعي، قبل أن يتحول إلى صفوف الحزب الحاكم - بأن من غير الممكن أن يصل به الأمر إلى حد إيذائها. كلا، لم تفكر في ذلك مطلقاً، حتى أنه عندما دخل محلها في يوم إعلان الحرب، بعد مغادرته مقهى البرازيلية بحجة عدم الشعور بالأمان هناك بسبب واجهة المقهى الزجاجية، وحرصه على الإحتماء من قصف «الطيران المعادي» - كما قال لها هو ذلك -، فكرت ماري بأن الأمر عادي، فمحلها قريب من الرصيف، وبالتأكيد سيلجأ الكثيرون إليها مستقبلاً، لكنها كانت في ذلك المساء وهي تسمع صخب الطائرات المرعب التي خدشت السماء - لم تعرف عددها - لذا عندما سمعته يتحدث بفرح وهو يدوّر السيجارة في يده ويخرج الكلمات وهو يمط

مثل بوز براطمه مثل «مؤخرة دجاجة عندما تدفع بيضتها»، عندما سمعته يتحدث عن «الحرب المقدسة» التي يقودها «أبطال الأمة»، وكيف أن على «السياب أن يصحو ليرى ماذا يفعل المجوس في مدينته البصرة وأن يستدير لهم بغضب» ظنت أن الرجل يهذي، حتى أنها لم تجد غضاضة من شتم الحرب ومن أعلنها أمامه. في تلك اللحظة نسى الرجل الحرب، نسى السياب، نسى الطائرات، ورمى السيجارة على الأرض ومد بوز حلقه ليساومها هذه المرة بـ: إما أن تنام معه وفي المحل فوراً، أو يشي بها للسلطة. طردته. بعد ثلاثة أيام كان رجال المخابرات في محلها.

- لم يتصور أحد أن هذا الشاعر على علاقة بالمخابرات.

ثم ليضيف بعد صمت قصير:

- المعروف عنه أنه كان شيوعياً في الخمسينيات وأرسله الحزب الشيوعي ببعثة للإتحاد السوفياتي.

سحب الأب آهة عميقة وعلق:

- إذا سقطت المرأة أصبحت قحبة، وإذا سقط الرجل أصبح ضابطاً في المخابرات.

ثم راح يحلل شخصية الشاعر، وكيف أنه لحاجته للمال وإفلاسه شعرياً لجأ للإشتغال في سلك المخابرات. في ذلك اليوم قررت وجيهة العمل في ذلك السلك، وقراءة كل دواوين هذا الشاعر. كانت حريصة على إثبات العكس لأبيها. وفي ذلك اليوم فقط، تذكرت بعد سنين وَصُفْ.

- ٣٥ -

ذلك المساء عرفت وجيهة أفضل من أي وقت مضى. ومهما حاولت شرح شعوري تلك الليلة، فإنني سأنتهي إلى النتيجة التالية والبسيطة جداً، هي أنني: أولاً عرفت تقريباً لماذا كانوا يرسلون إليها فقط بالذات عند حاجتهم لمترجم، عكس ما كانوا يفعلونه معي، وثانياً - وذلك أمر غريب - لم أشعر بالإمتعاض في تلك اللحظة. فلقد استحوذ عليّ شعور ربما غير غريب على الكثيرين، شعور مزيج من الإمتعاض - لكنه عابر جداً ومؤقت، لا يدوم حتى لثوان - وشعور آخر بالامتياز. قد يبدو غريباً ما أقوله لمن لا يعرف ذلك، لكن الأمر سهل جداً لكل أولئك الذين عاشوا حروب البلاد. إذ شعرت بالأمان عندما عرفت بعمل زوجتي في المخابرات. بطريقة ما، عرفت أننا نتميز عن باقي الناس بشيء خاص نستطيع اللعب به كما نريد نحن. وبقدر تعلق الأمر بي، فصحيح أن ليس لي علاقة مباشرة بهذا الجهاز - يسمون التلفون النقال في البلاد بالجهاز

أيضاً! ـ إلا أنني عن طريقها أستطيع التوصل لما أريد. هل أنا شخص انتهازي أكثر من صديقي ملهم مثلاً؟ في الحقيقة رغم أنني طرحت السؤال على نفسي تلك الليلة، إلا أنني فكرت أن ملهم لم يتصرف معها ويتركها لهذا السبب فقط ـ كما عرفت نقلاً عن وجيهة ـ، إنما تركها لأسباب أخرى. لأن الإنسان في حالات يأسه وشعوره بالذنب يتشبث بأية ذريعة. ملهم الذي كان يشعر بالذنب ـ ربما ـ إزاء رباب أو إزائي، أو ملهم الذي كان يشعر بحرية جنسية مع رباب أكثر منه مع وجيهة، لم يجرؤ في تلك الأيام أن يتحدث معها بصراحة، لذلك لجأ إلى عذر «عدم قبوله العلاقة مع امرأة تعمل في جهاز المخابرات». وإلا هل كان يظن بالفعل أن وجيهة شيوعية، كما فكر في الوهلة الأولى؟ وإذا كان أحَبَها كونها شيوعية، إذن لماذا دخل هو الحزب الحاكم ولم يصبح شيوعياً؟ كم بودي أن أسأله ذلك السؤال الآن، لكن في ذلك الوقت لم تسنح لنا الفرصة في اللقاء، أما الآن فهو ما زال أسيراً في إيران. إن ملهم لم يَبُحْ لي عن امتعاضه منها لهذا السبب. كان يؤكد على «المستوى الثقافي» و«المستوى الجنسي»، ويحلم بامرأة تجمع بين الاثنين. وأنا؟ لم يهمني أي من الأمرين تجيدهما البنت، أي بنت، فكل ما كنت أريده، هو امرأة ترغب بالتفرج على استعراض العالم معي!

من أين لي تلك الليلة أن أستحضر ملهماً، لأقول له أية امرأة هي هذه. كانت بالفعل امرأة أخرى. كانت وكأنها مقبلة إما على الإنفصال عني أو على الموت غداً، للمرة الأولى أسمع من تلك المرأة جملاً لم أسمع بها من قبل، مثلما رأيتها تتصرف معي بطريقة لم آلفها من قبل. في تلك الليلة فكرت للمرة الأولى أن أسألها عن رأيها أن يكون عندنا طفل، أو فكرت، أن عليَّ على الأقل أن أفتح معها هذا الموضوع، إذ اعتقدت، وبعد ثمان سنوات من زواجنا، وسنوات من إجهاضها الأول، اعتقدت أن الوقت كان مناسباً. لا أدري، لم أفكر بالطفل قبل تلك الليلة، أو إذا بحثت في رأسي جيداً، أعتقد أنها هي التي قالت لي بعد إجهاضها الأول، بأنها، تأسف لما حدث، إذ أن الإجهاض حصل بالتأكيد بسبب الإجهاد والعمل المتواصل، وأنها لن تتباطأ في أن تحمل في المرة القادمة، وفي الوقت المناسب (وكأن الحمل شيء يحصل عندما تريد المرأة ذلك أو لا تريد، أمر غير منطقي، وهل لها أن تختار الوقت المناسب!؟)، نعم أعتقد أنها المرة الوحيدة التي تحدثنا فيها عن الموضوع، وأعتقد، أنني أنا الذي قلت لها، أن عليها ألا تقلق، لأن موضوع الطفل لم يقلقني يوماً، وسوف لن يقلقني في المستقبل، وأن الأمر يعود لها، وهي التي تقرر، فإنها ستحمل الطفل هي في بطنها في النهاية، لكنها أصرت في تلك المرة على التأكيد لي، أنها ترغب بالفعل أن تكون أماً، ولكي أخفف عنها (كانت ترقد حينها في المستشفى، رغم أن ذلك الإجهاض لم يسبب لها النزيف، لكنها غابت

عن الوعي لتحطم أعصابها)، الألم النفسي الذي سببه لها ما حصل، قلت لها، بأني أعدها ألا أفتح أمامها الموضوع مرة أخرى، حتى وإن أثاره أبي وأمي (فعلا ذلك وأرادا الحديث معها بذلك، لكنني، منعتهما فامتنعا)، قالت لي في النهاية، إنها موافقة، وإنها لن تتحدث عن ذلك مرة أخرى، وأنها ستفاجئني عندما تكون حاملاً. وبالفعل صمتنا نحن الإثنان. ومن طرفي لم أفكر به أبداً، لكنها في تلك الليلة (بالتأكيد بسبب العرق، أو بسبب تبدل وجيهة)، هي التي حملتني على التفكير بالموضوع مرة أخرى.

ربما تباطَأْتُ في مفاتحتها به أو سؤالها، ففي اللحظة التي أردت أن أفتح فيها فمي، مدت يدها لتغلق فمي بأصابعها:

ـ أش، لا تتكلم أية كلمة.

لم أتكلم.

شربت بقايا قدحها، وعندما وضعته فوق المائدة، قالت:

ـ انتهت قنينة العرق.

ضحكت وقالت لي بنشوة:

ـ سأعلمك الليلة الجنس.

لو سمعت تلك الجملة في وقت آخر ـ غير تلك الليلة ـ من وجيهة، لضحكت واعتبرت الأمر مجرد نكتة، ولدفعت لها واحداً أو اثنين من تلك التعليقات التي اعتدنا عليها في أيام المراهقة، أو في سنوات الجامعة الأولى: «العفو عيني، ما سمعتك زين؟» أو «لا بالله، أنت تعلميني شنو؟» أو «دخيلك عيني يابه أنت ومروتك»... الخ من الجمل الشبيهة، التي ليست هي جملاً في الحقيقة، إنما هي بالأصل استراتيجيات لتغيير دفة الحديث، أو لاسترداد النفس والبحث عن جواب لا نندم عليه، جواب مناسب. على العكس من كل ذلك، أخذتني وجيهة تلك الليلة بالمفاجأة، ولم أجد لا الجواب المناسب ولا الاستراتيجية المناسبة للتعليق على ما قالته، حتى أنني لا أعرف كم من الوقت بقيتُ معقود اللسان، صامتاً، مكوراً يدي في الحضن، لم أجرؤ على رفع كأسي على الأقل.

ـ ما الذي جرى لك؟

كانت جملتها هي التي أخرجتني من صمتي. وعندما هززت رأسي لأشير لها، بأن ليس هناك ما يقلقني أبداً، فلم يكن ذلك الفعل إلا مجرد رد فعل تعلمته ـ مثلي مثل

الكثيرين - بحكم العادة، ولا يعني شيئاً في تلك اللحظة. رفعت كأسي هذه المرة، لأرى من زاوية عيني، فيما إذا كانت تتطلع بي. كانت نظراتها تتفحصني، تربكني. وهي التي لاحظت ذلك، حتى أنها قالت بصوت ليس فيه سخرية:

- سيسقط كأسك إلى الأرض.

بالفعل كانت يدي ترتجف، وأنا أضع الكأس فوق المائدة.

- هل ستشرب بعد؟

سألتني وهي تقف، ثم لتقترب مني، حتى أن ثوبها (بالضبط عند فخذيها) لامس شعر رأسي. وضعت يدها فوق رأسي، وراحت أصابعها تعبث بشعري. شعرت بخدر بسيط، وتجمدت كل حركة فيَّ. ولا أدري فيما إذا كانت هي التي سحبت رأسي إليها، أم رأسي هو الذي مال إليها، عند ذلك المكان بالضبط. «لا يمكن أن أكون أنا»، قلت لنفسي «فهي التي تريد أن تعلمني الجنس هذه الليلة». ولبرهة راحت تضغط على رأسي بين فخذيها، وتحكه هناك، وهي تفتح وتغلق فخذيها ضاغطة عليه، حتى أنني بدأت أشعر تدريجياً ببعض البلل ينزل من شعري ويسيح على جبهتي، ليصل أرنبة أنفي، بلل لم أستطع تمييز رائحته بالضبط، إختلطت فيه رائحة لزجة قريبة من رائحة السمك مع رائحة عرق شعر لا تشبه رائحة الأبط، رائحة كانت تزداد مع ازدياد حركة ضغطها لرأسي وعصره بين فخذيها، ولحسن الحظ، كان فخذاها مكتنزين، مليئين باللحم، وإلا لشعرت بالعظام تصك عليه، رغم أن عند المنطقة العليا، القريبة من شعر العانة، لا ينفع أي لحم، فهناك تتحرك عظام مغلقة بغلاف غير سميك من اللحم، وعند التقاء الحوض هناك، كنت أشعر بقوة العظام تضرب على رأسي، وتزداد حدة ضربها، كلما ضاعفت من حركة ضغطها، أو من سعة فتح فخذيها وإغلاقهما على رأسي، حيث كانت تصاحب تلك الحركة، بإخفاض جذعها قليلاً إلى الأسفل، وتعود فترفعها بحركة سريعة للأعلى، حتى يبدو إنغلاق فخذيها مثل مقص أو مثل فم ضخم يلتهم رأسي. وكان من الممكن أن نستمر على ذلك الوضع ساعات، لو لم تكن هي التي شهقت، في واحدة من حركاتها تلك، وهي تدفع برأسي بقوة عنها، وتبتعد عني قليلاً:

- لا تقول سكرانة، أريد أعلمك الجنس الليلة.

قلت لها بتردد، أو بصوت لم يخلُ من استغاثة:

- لننزل.

فأجابتني، بينما كانت تخلع ملابسها، حتى جاءني صوتها شبه مخنوقة، بسبب

القميص الداخلي الذي كان يغطي وجهها:

ـ كلا، أريدها هنا، فوق السطح.

فقلت مرتبكاً:

ـ لكن ما زال الوقت مبكراً، وممكن أن يرانا الجيران.

كانت هي قد انتهت من خلع كل ملابسها، باستثناء الروب الداخلي، مع اللباس الداخلي الذي كان يبين لونه الأسود تحت الضوء.

ـ وما يهمك، معظم الناس هربوا من المدينة، وإذا كان هناك جيران فهم تحت في بيوتهم.

تحركت باتجاه فراش هيأته هي ليس بعيداً عن مائدتنا.

ـ لا تنس التعتيم والظلمة. هل هناك أكثر رومانتيكية من الجنس تحت ضوء النجوم وفوقك السماء.

قالت ذلك، وكانت ما تزال تلوك في فمها بقايا مزة. بعدها قالت بصورة غير مجبرة:

ـ لن أشرب بعد، سنُقَبِّل بعضنا إن أردت.

كنت ما زلت في مكاني، مأخوذاً بالموقف لا غير.

ـ لا تعتقد بأني سكرانة.

ثم حركت يدها في الهواء وتوجهت باتجاه زاوية السطح، حيث سريرنا. رمت نفسها فوق الفراش. رأيتها من مكاني تحرك بساقيها ذات اليمين وذات الشمال، ثم بحركة سريعة ترفع فخذيها عالياً وتسحب لباسها الداخلي وترميه باتجاهي، ليقع فوق بطل العرق الذي ما زالت بقية عرق فيه.

لم أكن سكراناً أبداً، أما هي فكما بدا لي كانت سكرانة، على عكس ما ادعته، وكلنا نعرف أن تلك هي استراتيجية السكارى دائماً، عندما يدعون أنهم ليسوا سكارى (طبعاً لا أستثني نفسي)، ولكني بالفعل لم أكن سكراناً تلك الليلة فعلاً.

لكن في لحظة متأخرة، عندما كنت بجانبها فوق الفراش، وكنا عاريين (عندما وصلت لها، كانت هي قد نزعت كل ملابسها، لتبدأ بنزع ملابسي جميعها بسرعة)، بدأت أفكر بها. كانت تلك المرة الأولى منذ أن تعرفنا على بعض، أبدأ في التفكير بها،

وأتساءل مع نفسي أي صنف من النساء هي، ونسيت مرة واحدة تلك المرأة، الزوجة، وجيهة التي كنت أعرفها حتى تلك الليلة، ولا أبالغ القول، إذا قلت، بأنني كنت أفكر بها وأقارن بين تلك التي كنت أعرفها والتي بدأت أعرفها الآن، منذ لحظة تعرينا، بطريقة توحي لي، بأنني بدأت أفتقد وجيهة التي كنت أعرفها، أو من الأفضل القول (لأن ذلك لم يكن افتقاداً بالأصل)، بأنني بدهشة وبقليل من الحيرة شبه متأكد، بأن هذه المرأة العارية بالشعر الأسود الجميل، والوجه المليء بالدم الحار ليست هي التي أعرفها. شعور غريب، يشبه الشعور بالخيانة، أو ليست هي الخيانة بالضبط، إنما عدم الإخلاص، نعم وكأنني أجرح الوفاء الذي قطعته لتلك المرأة، رغم أننا في النهاية نملك وجهات نظر وتفسيرات مختلفة للوفاء والإخلاص، وعادة يقصد البشر بالوفاء، هو الاتفاق بين شخصين على السماح بإدخال أعضائهما التناسلية ببعضهما، والتنازل عن السماح لأي عضو تناسلي غريب في الدخول إلى أي منها؛ الآن ربما أعرف أكثر مما عرفت تلك الليلة، أن شعوري ذاك جاء بالتأكيد نتيجة للتعود، ففي النهاية مهما تبدلت وجيهة، فإنني لم أُدخل عضوي التناسلي في فرج امرأة أخرى، حتى أشعر بعدم الوفاء، ألا يقصد البشر بعدم الوفاء، هو التبديل الدائم للسماح بالدخول أو الخروج لأكثر من عضو تناسلي آخر. إذا كان المرء قد تعود لوقت طويل على الفم ذاته، فإن كل الأفواه الأخرى تبدو له غير طبيعية، الأسنان كبيرة أو صغيرة، الشفاه محتاجة للتقبيل أو لا، اللسان يتحرك بحرية أم لا، كما لو لم يكن عضلة، إنما من لحم وعظام؛ روائح أعضاء الجسم مدوخة، من الإبط، والحوض، وحتى المؤخرة، بالإضافة إلى درجة العناق المختلفة، اللمس المخدر لجلد مختلف (حد الغرابة)، العرق الحامض لأعلى الفخذ، ألوان الجسم (هذه المرة تحت ضوء النجوم وضوء القمر) المختلفة والمتغيرة، كبر وحجم رطوبة فتحة الفرج. صحيح أن الجسد الذي كان يركب جسدي، هو من ناحية شكلية مجردة ذاته، قبل سنوات، لكنني تلك الليلة، شعرت بوزنه يختلف، لم يكن ثقيلاً، كان مثل ريشة، يقلبني بخفة، وأتقلب معه أنا الآخر مثل ريشة، كأنه بالفعل جسد آخر، لامرأة أخرى، وأنا لم أكن سكراناً (هي التي كانت سكرانة) لكي أشعر بأن يديَّ لا تقبضان في راحتيهما على الثديين ذاتهما، يحسان بالحجم المختلف للصدر، الذي رغم أنه ينزلق منهما بعض الأحيان، أو لا يبقى منه بعض الأحيان سوى حلمتين متصلبتين، يكادان يُخدَشان عندما تلحسهما شفتاي. لم أكن سكراناً، (كانت هي سكرانة)، لكي لا أعرف، بأن ذلك الجسد الجديد، لا يمكن القبض عليه، ودائماً كان هناك اضطراب وحيرة ودوخة أو شك، بما يتعلق بتدرج الخطوات والحركات، بما يتعلق بالشد أو الإلتفاف (إلتفاف الساقين، إلتفاف الذراعين... الخ) أو تقبيل الأعضاء، أو عضها، أو ربما من الأفضل السماح للأصابع أن تبحث هي عن ما تريده، ولتنتهي حيث لا بد لها أن تنتهي، أو بما

يتعلق بالتأثير الذي يفعله الواحد بالآخر، عندما يتوقف المرء، ليراقب الآخر، عندما يوقف المرء الملامسة، ويراقبها وهو مستلقٍ على ظهره، على مسافة ستين أو سبعين سنتيمتراً: «قضيبي في فمها»، فكرت مع نفسي، «ألم يكن أيضاً قضيب ملهم في فمها، وما هو الاختلاف بين القضيبين؟»، «هل فكر ملهم مثلي، في تلك اللحظة، وقال لنفسه ذات الجملة»، الجملتان الأخيرتان تختفيان من رأسي بسرعة، لأنهما تجلبان القليل من الدوخة لي، حينها يبقى رأسي فارغاً للحظات، أسمع صوت لوكها لقضيبي، فأعود أقول لنفسي «قضيبي في فمها»، عندما كان في فمها منذ دقائق، وأنا فكرت بهذه الكلمات، لأن تلك الكلمات تأتي فقط، عندما يترجم المرء في كلمات أو في أفكار، ما يفعله في تلك اللحظة، وما يصوره، وهذا يحدث أكثر عندما لا يعرف المرء الجسد الآخر، أو لا يتوقع منه هذه الحركة أو تلك (تلك كانت المرة الأولى التي تأخذ وجيهة فيها قضيبي في فمها، وأكثر من ذلك كانت المرة الأولى التي تلوك فيها امرأة قضيبي: شعور غريب)، وقبل كل شيء، عندما تسحب الكلمات على جسد الشخص ذاته وليس على جسد الآخر، الذي يتواصل معه المرء باحترام، ولحيرته يبحث عن تعابير وكلمات مناسبة. «قضيبي في فمها، وفمها ينغلق على قضيبي، لأن فمها استقبله بمودة، وكأنه جاع له منذ سنين، هل جاع فمها (وفرجها، لا أعرف لماذا أجيء على فرجها!) أيضاً لقضيب ملهم، هل عبرت حركته (حينها) عن الشبق والجوع ذاته، التي تعبر فيه مع قضيبي الآن، وماذا لو قالت لي، إنها المرة الأولى التي تمص أو تلوك أو تقبل أو تستقبل قضيباً في فمها، من الأفضل لي أن أصدقها، وعليَّ الكف فوراً عن التفكير بما فعله فمها أو فرجها أو مؤخرتها مع ملهم، أو فوق كل شيء أن أكف عن التفكير بما فعله فمها مع قضيب ملهم، إذا أردت لقضيبي أن ينتشي الآن، وهي تلوكه، وتتمزمز به، مثلما كانت تفعل مع أشياف الليمون أثناء الشرب، كانت تأخذ قطعة الليمون، تدخلها ببطء في فمها، وحين تعض عليها، تغلق عينها، وتمص القطعة بصوت لا يخلو من النشوة. سأكف، وسأقول لنفسي، كف «قضيبي في فمها»، فكرت، وإن ذلك يحدث للمرة الأولى، وأن ذلك أعيشه أنا للمرة الأولى، وجيهة لم تفعل ذلك معي من قبل، أو أن فمها لم يفعل مع قضيبي ذلك من قبل، أو من الأفضل القول، لم يستقبل فمها قضيبي قبل تلك الليلة. فم وجيهة يمص، ينفتح وينغلق عليه، يملؤه بالرطوبة، أكثر من كل ما فعله فرجها مع قضيبي كل هذه السنوات. كان ينقص فرجها رطوبة (لعاب)، وكان ينقصه المكان، إذ كان ضيقاً دائماً (لجفافه ربما). لكن شفتيها تلك الليلة كانتا جميلتين وعريضتين حارتين، قويتين، متحمستين، أشعر بحركتهما المستمرة. بينما كان قضيبي في فمها، كنت أرى ثدييها، سمراوين وكبيرين ولهما حلمتان سوداوان جداً. أشعر فوق فخذي بدغدغة تلك الحلمتين المتصلبتين، بضغطهما، دون أن تبعثا أي ألم.

بطراوة ثدييها، ورغم أنها لم تعد بنتاً شابة، هي من مادة لينة، مثل عجين طري، لم يتشكل بعد. ووجيهة الآن لا تشرب، لا تأكل، لا تدخن، لا تضحك، لا تتكلم، لأن قضيبي في فمها. بأن قضيبي في فمها، هو أمر غير متخيل بالنسبة لي (كيف كان لي تصور ذلك، عندما قالت لي سأعلمك الجنس، أو قبل ساعات قليلة، عندما حملت قنينة العرق، أو عندما أوصلني الدكتور ماجد)، وأكثر منه أمر غير قابل للتصور، بأنه سيدخل مؤخرتها، (لأنها هي التي همست بينما كانت تلوكه، همست بشبق «أريده بطيزي الليلة»)، لكنها عندما قالت تلك الجملة، كان ما يزال في فمها، مرة واحدة سمعتها تهمس بصوت اعتقدته الصوت الذي يحدثه اللعاب الذي يرميه فمها على قضيب، لأنه اختلط مع شهقة، وصرير سرير، وصوت بوق سيارة من البعيد، وصوت طيارة وحيد، لكنها كانت عالية، عالية (ربما تخيلتها)، رغم ذلك وصل صوتها، سمعته مثل الهمس أو همسها مثل الصوت، أو ربما رأيتها تهمس، وكأن قضيبي يملك عيناً، أو وجهاً بعين واحدة، بأنه في الوقت نفسه يستطيع أن يرى، وأنه يقترب من فرجها أو مؤخرتها أو يدخل في فرجها أو مؤخرتها أو دخل في مؤخرتها أو في فرجها. لا أدري، لا أريد أن أراه، ولا أريد أن أرى فرجها أو مؤخرتها، لا أريد أن أرى الفتحتين. لكنني أريد أن أراها هي. رغم أن وجيهة تلك الليلة أعجبتني وجعلتني أعيش ما لم أعشه قبل تلك الليلة، لا معها، ولا مع غيرها، فإن ذلك لم يمنع الشعور عندي بأنني لا أعرفها. أعرف أنها وجيهة، زوجتي، ولكنها ليست وجيهة، زوجتي التي كنت أعرفها قبل تلك الليلة. ليس هو جسدها، عظامها، فتحاتها، فمها، كانوا مختلفين، إنما بسبب خجل تلك المرأة التي عرفتها لسنوات، أنها خجلة وتبدو عفيفة، حتى من ملامسة الريح لها. وعندما نامت زادني الأمر غرابة، إذ بدأت أشم رائحة أخرى. إنها ليست رائحة وجيهة التي أعرفها، حتى أنها ليست رائحة مدينة القرنة، أو مدينة بغداد، أو رائحة البلاد كلها؛ إنها رائحة غريبة عليَّ وكفى. ربما كان عندها الشعور ذاته، لا يمكنني أن أستعلم ذلك، إلا إذا سألتها لاحقاً، لأنها الآن منشغلة جداً. ربما لم تشعر بهذا الرجل الذي يكون تحتها مرة، وفوقها في المرة الأخرى، ربما لا تشعر بشيء ربما لا تفكر مثلما أفكر أنا، ألا نفكر نحن عادة بطريقتين مختلفتين بالموضوع ذاته، ومن يقول أن الآخر يفكر بالموضوع ذاته الذي نفكر به. رغم أنها هي التي قالت لي، بأنها ستعلمني الجنس الليلة. وهي في النهاية، وجيهة، التي في الفراش، والآن تركب فوقي، وقضيبي يضيع، ينزلق، يتلوى، يلتوي في فتحتها (أية فتحة، لا أدري)، ولأن قضيبي ليس في فمها الآن، أو ربما لأنها شارفت على النهاية، على التعب، على الإجهاد، تقول بصوت يقترب من الصراخ:

ـ قل إنك تشتهيني.

وما كادت تنهي الجملة، حتى شهقت شهقة عميقة، وخرمشتني بأظافرها، لتنفصل فتحتها المصكوكة، العاضة، الماصة على قضيبي بحركة واثبة سريعة، حتى شعرت به يخرج بتوتر مثل قطعة من البلاستيك.

راحت يدي تبحث عنها، فقد كان نصف جسمها التحتي ما زال فوق فخذي العلوي، فيما استقر رأسها فوق المخدة. لبرهة ارتعش جسدها، ثم هدأ، لتخرج صوتاً مثل ماكنة تعبانة، لتتوقف عن الحراك بعدها تماماً، ولا أسمع ضربات قلبها إلا بالكاد «تك.. تك.. تك»، حتى أن كلماتي، أياً كانت ضاعت مع عتمة الليل. كنت أنا الآخر مرهقاً، ولا أدري كم كانت الساعة، لكني سمعت نفسي أتمتم:

ـ أشتهيك، أشتهيك.

وبعدها توقفت عن التفكير.

ـ ٣٧ ـ

في الصباح استيقظت على صوت المؤذن، يختلط مع صوت أغنية لأم كلثوم «أنت الحب». لم أصدق بادىء الأمر، إن ما يحدث له علاقة بالواقع. كان اليوم الأول الذي لم توقظني فيه أصوات الطائرات. «إذن لم يأتِ الإيرانيون»، قلت لنفسي، وكانت تلك الجملة الأولى التي قفزت إلى دماغي. كنت نصف فرحان، ونصف مكتئب، إذ أنني بطريقة ما، لم أشأ فتح عينيَّ بسرعة، وكأنني أردت الاستمرار في النوم، مثلي مثل ذلك الذي لا يريد أن يستيقظ من حلم، ليس لأن الحلم جميل، إنما لأنه يعرف، بأن ما ستراه عيناه، غير ذلك الذي يختفي خلف جفنَيْه، بأنه سيرى حطاماً للصورة التي بدأت للتو في التشكل في داخله، هناك في ذلك المكان، حيث ينام (أليس لذلك السبب، يرفض البعض الاستيقاظ، إذا طلبنا منهم ذلك، أو أيقظناهم بصوتٍ عال؟). في الحقيقة لم أحلم حلماً محدداً، أستطيع أن أرويه، كان حلماً مثل كل تلك الأحلام التي يحلمها الناس عادة، إنما كان كل ما حدث في الليلة الماضية، كل ما بقي مخزوناً منها، ما زال يلقي عليَّ ظلال النعاس، لم أصدق أن ما جرى جرى بالفعل، ولم أشأ الإستيقاظ لخوفي من الدخول في مطبات التساؤل، وكأنني أعرف، بأنني لا محالة، سأسألها، وجيهة، زوجتي، عما جرى الليلة الفائتة حقيقة، وأكثر منه خشيت أن أسألها، فيما إذا كان ما جرى سيتكرر، أو على الأقل، بأننا سنعيش أياماً (لكي لا نقول أسابيع أو شهوراً)،

أخرى مثل هذه الليلة، مثل تلك الأيام التي يطلقون عليها «شهر العسل»، فنحن، وقبل ثمان سنوات، لم نسأل أنفسنا فقط، إنما لم نفكر مثل الأزواج الآخرين، أين ومتى سنقضي شهر العسل. وفي تلك الليلة فقط، بدا لي زواجنا، كما لو أنه حدث لشخصين آخرين، شخصين حياديين، ليس أنا، الذي لا يقبل أن يفتح عينيه الآن، ولا حتى لوجيهة، زوجتي التي منذ الليلة الماضية أصبحت امرأة أخرى، زوجة جديدة، شخصين نقرأ خبر زواجهما في الصحف، مثل أي خبر من الأخبار الصغيرة الأخرى، التي نمر عليها مرور الكرام، والتي تأتي عادة في الصفحة الأخيرة، أو على صفحة الإجتماعيات، إلى جانب صفحة الوفيات، فهي ليس لها وزن الأخبار الكبيرة التي تأتي على الصفحة الأولى، مكتوبة بمانشيت كبير وعريض، تتوسم ترك الإنطباع الكبير عندنا: «طائراتنا تسقط العشرات من طائرات العدو»، أو «طائرات العدو تقصف المواقع المدنية وتترك مئات الجرحى والقتلى»، أو «الولايات المتحدة الأميركية تسمح للبواخر العراقية بالمِلاحة تحت العلم الكويتي»، أو «كل الشهداء فداءٌ للأمة والمبادىء العظيمة» أو «ملوك وزعماء الأمة يعلنون دعمهم الكامل في حربنا المقدسة»، أو «برقيات دعم من الحكومة الفرنسية والحكومة الألمانية للقائد»، أو غيرها من الأخبار الكبيرة، والتي تبدو تلك الأخبار الصغيرة مثل أقزام بالمقارنة بها، لا لأن ما تعلن عنه حدث قليل القيمة (فالزواج كحدث هو واقعة ضخمة، تغيير لشَرطيّ إنسانيين)، إنما يتعلق الأمر غالباً بالشخصين المتزوجين، بدورهما الوظيفي الاجتماعي، والمقصود ليس مرتبته في التسلسل الهرمي للوظائف فقط، إنما خطورته وقربه من المحور القريب من سلطة ما، في بلد مثل البلاد التي نعيش بها، قريب من محور السلطة العسكرية والسياسية، وفي البلدان الأخرى التي يطلق عليها «متحضرة»، قريب من محور سلطة الإقتصاد والمال بالدرجة الأولى، ثم يأتي بعدها المحور السياسي. وبقدر تعلق زواجنا نحن الإثنين، نحن أنفسنا لم ننظر للقضية، ليس بالقدر الكبير، إنما لم ننظر لها، حتى بالقدر الذي كانت تستحقه كقضية زواج كما يفعل الآخرون عادة، لم ننظم حفلة أو نسافر في رحلة شهر عسل، ولم نحتفل بذكرى مرور يوم زواجنا في هذه السنة أو تلك، كما قلت، كان مثل حدث عابر، حيادي، كأنه يخصُ شخصين آخرين غيرنا، بل وفي مدينة أخرى، في يوم آخر. لكن تلك الليلة فقط، بدأت التفكير بزواجنا للمرة الأولى. وبين اليقظة والنعاس، فكرت، أنني سأسأل وجيهة عن رأيها بالقيام برحلة شهر عسل، أو متى نبدأ بالتفكير بإبطال ممارسة الجنس على طريقة الروزنامة، أو «جدول الضرب»، كما سَمَتْهُ هي، (لم تأخذ وجيهة حبوب منع الحمل، لأن من المستحيل الحصول عليها في البلاد، وتداولها في ذلك الوقت يعرض المرأة للحبس) والتخطيط لتكوين طفل، أو على الأقل متى نبدأ بحسم أمر سكننا، هل ننتقل إلى بغداد، أم نستقر في القرنة، وخاصة، أنهم لم يرسلوا في طلبها في الفترة

الأخيرة، وكأنهم نسوها للأبد، حتى أننا لا نعرف المدة بالضبط، فقد سمعت ذات مرة مسؤول المترجمين في شعبة الإستخبارات في وزارة الدفاع، يقول لها «روحي في إجازة مفتوحة، إلى حين استدعائك»، لم تسأل عن السبب، لأنها اعتقدت في المرة الأولى، بأن القضية تتعلق ببضعة أسابيع، وبضعة أيام، كما كانت العادة، ولم تعرف أن المدة ستطول، وعندما تعدت السنة، هي التي قالت «نسوني»، وبدأت تقلق، تسألني، فيما إذا كان من الأفضل، أن تتصل هي بهم، وتستعلم عن أمرها. لكني لم أنصحها أن تفعل ذلك، «إتركي الكلاب في نومها»، قلت لها مترجماً مثلاً عن اللغة الألمانية، فهي ما زالت تذهب كل شهر لوزارة الدفاع وتستلم راتبها، فلماذا هذا الإلحاح. ربما تمنيت في داخلي أن ينسوها بالفعل للأبد، وتبقى في القرنة معي، لنعيش سوية، وخاصة بعد تسريحي (لكن تسريحي متعلق بنهاية الحرب، ولم أتخيل أن الحرب ستتوقف ذات يوم)، طبعاً لم أقل لها ذلك. كان من الصعب عليَّ أن أبوح لها، بما كنت أفكر به، لأنني ولمرات عديدة، لم أشعر بالحماس من جانبها، لعلاقتنا كمجرد علاقة، وكما قلت لم يهمني أنا الآخر ذلك كثيراً، لذلك لم يكن صعب عليَّ الاحتفاظ بما أفكر به، فأنا في النهاية شخص سلبي، لا أبحث أبداً عن شيء ولا أريد شيئاً، أو لا أعرف ما أبحث عنه وما أريده، شخص يكفيه أن تصل الأشياء إلى ما تصل إليه، ويكفي أن يبقى هادئاً، لكي لا تتعقد الأمور (فالأمور فيها ما يكفي من التعقيد)، وتصل إلى حافات الغضب والحنق والدعوة بأسوأ الأمنيات، يكتفي بالتنفس في هذا العالم، التنفس المتوازن المرتاح، مثل تدحرج خفيف السرعة، لا تستطيع تجنبه الأشياء البسيطة المتعلقة بخيط، بنظرتنا الحيادية والطائرة. أنا شخص يتعجب من كل أولئك الذين يشدُّون على الأمور بقوة، يجعلوها تتوتر، حتى يصبح مصير كل قضية يتعلق بخيط واحد، بل يصل بالبعض أن يقولوا إنه خيط الحياة الأخير، وإن مصير الشيء يتعلق بنظرة أو إشارة أو انفعال، أو كلام منهم؛ كلا لست أنتمي إلى أولئك الناس، ولو أنني أدخلت هذه المرة في رأسي بعض التعديلات، فليس لأنني أملك هدفاً واضحاً وكاملاً في رأسي، إنما بدأ يتشكل في داخلي شيء جيد بعض الشيء، لا أعرف كنهه، ولا أستطيع تحديده، مثل عجينة طرية، أو مثل ثدييّ وجيهة في الليلة الماضية، اللذان رغم صلابتهما، بديا حديثيّ التشكيل، وحتى الآن (أو منذ الليلة الماضية وحتى الصباح) راح وعيي يتفتح قليلاً، لكنه يبقى في حدوده البسيطة، حتى أن كل شيء يبدو ضمن حدود الممكن، لا يصل حدوداً درامية، كما يحلو للبعض أن يفعل مع أبسط الأشياء، أو أكثر من ذلك، لا أرى بالرغبات البسيطة والأسئلة التي بدأت تطن في رأسي منذ الليلة الفائتة، ما ينذر أن تتحول إلى شيء يستدعي الحذر أو يجعل من نواقيس الإنذار تعلن إشارة الخطر. كل ما في الأمر، فكرت، لو فتحت عينيَّ في ذلك الصباح الغريب (من الغريب أن يستيقظ

المرء في مدينة مثل القرنة بعد ثمان سنوات من الحرب على صوت المؤذن ممتزجاً بصوت أم كلثوم في أغنية «أنت الحب»، وليس على صوت المدفعية أو صوت الطائرات)، فإنني سأغادر حدود ذلك الشخص الذي كنته للمرة الأولى في حياتي، مثلما غادرت وجيهة حدود المرأة التي كانتها حتى الليلة الفائتة. بذلك الشعور فتحت عينيَّ في النهاية، ليس مثلي مثل ذلك المقبل على فعل عظيم، إنما فتحتهما ببطء، رغم أن جفنايَ هما اللذان انفتحا في الأول، وأنا مثل مساعد يتدخل في اللحظة المناسبة، في اللحظة الحاسمة، دون أن يبذل جهداً عظيماً، إنما هكذا جعلهما يتأرجحان، يتذبذبان، يرتعشان، ثم ينفتحان على سعة معقولة، تزداد بعض الشيء مع استدارتي إلى جانب، بالتوازي مع مد يدي إلى المكان ذاته، للبحث عن وجيهة، «ها أنا أمد يدي بصورة لم أعهدها من قبل أيضاً»، قلت مع نفسي، وأنا أترجم الفعل الذي كنت أقوم به في اللحظة نفسها التي استدرت بها، فكرت أيضاً، غريب هو تغير الأشياء، فهو أول صباح أشعر فيه بالرغبة بممارسة الجنس مع وجيهة، مثلي مثل عاشق جديد لا يتعب من اكتشاف جسد الذي يلتف على جسده للمرة الأولى، أو كلما لامست يداه مساحة منه، نادته بقية الجسد، ولا تكفيه الليلة مهما طالت، فهو ينام، لأنه يريد الاستيقاظ في اليوم التالي من جديد ليعاود النشاط. سمعت من البعض عن ممارسة الجنس في الصباح، وكنت أعجب من بعض القصص التي يرويها البعض، رغم أن معظم ما سمعته يحكي عن ممارسة جنسية روتينية، يتم استبدال وقتها من الليل إلى الصبح، ومعظم أولئك الذين سمعت منهم تلك القصص، إما أنهم يشتغلون حتى ساعات المساء المتأخرة فيرجعون إلى بيوتهم متأخرين، وإذا ما ناموا أمام شاشة التلفزيون (لا يهم البرنامج أو الصور التي تبثها الشاشة، طبعاً كلما كان البرنامج سيئاً ومملاً، كلما كان يبعث أكثر على النعاس)، فإنهم ينامون حال استقرارهم في الفراش، وفي الصباح إذا مارسوا الجنس، فليس لرغبة عن حب، أو عن شهوة قوية، إنما عن روتين صباحي، لأن أعضاءهم الجنسية متوترة، تختلط فيها الحاجة للبول مع الحاجة للجنس، ولا يجد بعضهم غضاضة من التعليق «في الصباح أقذف كل شيء سوية: البول، المني، النوم» (ذلك يحدث للرجال في العادة، حتى أنهم ربما لا يلاحظون أن زوجاتهم تتثاءب وهم يمارسون الجنس). ولكن عكس ذلك، هي قصص العشاق المليئين رغبة في الإكتشاف، أو رغبة الامتلاك، لأن الحدود بين الرغبتين تنفصلان بخيطٍ واهٍ جداً. فإبن عمي، الجندي المتطوع، الذي تزوج، لم يخرج من غرفته سبعة أيام، وحتى عندما ظهرت ثألة على حشفة عضوه. بعد أن قطعوها بعملية جراحية بسيطة في مستشفى الرشيد العسكري، قالوا له، يجب عليه الكف عن النوم مع زوجته لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، وعليه المواظبة على دهن قضيبه بالمرهم الذي أعطوه له. لكنه ما أن يصل البيت، حتى ينسى المرهم، ويستمر بممارسة الجنس مع زوجته أياماً، حتى

تظهر الثألة من جديد. وهكذا.. بما يتعلق بابن عمي، يختلط الأمر عنده، فالرجل لم ينم مع امرأة من قبل، وهو عسكري عنده إجازة زواج لمدة شهر، ويشعر أن عليه في هذا الشهر أن ينكح زوجته بما يعادل كل سنوات الحرمان التي كان يعاني منها (أي عشر سنوات، فقد كان عمره عندما تزوج أربع وعشرون عاماً، وإذا افترضنا أنه دخل في سن المراهقة في الرابعة عشر من عمره) ثم أيام مكوثه في الكتيبة في الأيام التي تلي (من يعلم عدد الأيام، التي تطول أحياناً للشهرين)، إنه مثل حيوان مجتر، يمارس الجنس مقدماً، يود امتلاك كل شيء غير معني بالاكتشاف، بلذة التعرف على جسد جديد، على رائحة جديدة، لذا فإن كل اكتشاف هو حدث يحدث بالتدريج، وكلما بطأت لحظات الإكتشاف، كلما تعمقت لذته، كلما اكتشف المرء شيئاً جديداً، كلما سمع بشيء آخر يناديه، ويقول له «اكتشفني، ها أنا أمامك مثل عالم مفتوح، مثل كتاب تقرأ صفحته الأولى»، وكلما شعر المرء بانجذاب مما يكتشفه، كلما بادله شعور الفضول ذاته، كلما ازداد هوسه وفرحه وإصراره على اكتشاف جديد، ومن جديد. قد تبدو أفكاراً كثيرة، تلك التي أتحدث عنها الآن، ولكني بكل هذه الكلمات التي ألقي بها الآن، أترجم، ما جرى في تلك اللحظة الخاطفة الصغيرة، التي انفتح فيها جفناي بالتدريج، وكنت أدفع بهما للخارج أيضاً، مثلما كنت أدفع بقضيبي للخارج أيضاً، أساعده في الإنفتاح، وكأنه يخرج من كيسين مائعين. جفناي ينفتحان، يتفتحان، وقضيبي يتفتح، على أمل أن فرجها ينفتح هو الآخر، ليلتهم قضيبي، ويستقبله مثل الليلة الفائتة، أو ليدخل قضيبي فيه، ويحييه تحية صباح الخير. مددت يدي إلى جانب، لأتأكد من وجود وجيهة. لم تكن هناك، وفي الحقيقة لم أعرف أنها ليست هناك لأن يدي لم تعثر عليها، إنما حدث الأمر قبل ذلك، فعندما يعتاد المرء على رائحة ما، تعلمه خياشيمه في الوهلة الأولى، فيما إذا كانت الرائحة التي يعرفها موجودة، أم لا، من الصعب على أنوفنا أن تخطىء، أنها ترى، ورغم عدم تدرب أنفي على الرائحة التي بعثها جسد وجيهة في الليلة الفائتة، إلا أنه هو الذي رأى (مثلما كان قضيبي هو الذي يراها ويتحسس وجودها في الليل): إنها لم تكن موجودة. فكرت، بأنها كانت قد استيقظت قبلي، وأنها في داخل البيت تحت. عدلت من وضعها فوق الفراش، لبست دشداشتي، وأدخلت قدمي في نعلي الصندل. نزلت الدرج، وما زالت بقايا نعاس على وجهي. أصبحت في باحة البيت. هتفت باسمها. لم أسمع جواباً. لم تكن وجيهة في ذلك اليوم موجودة ولا في الأيام التالية.

- ٣٦ -

ذات يوم، وأنا أدخل للبيت، رأيت مظروفاً مرمياً عند عتبة البيت، لونه أسود،

مظروف غريب، وزاد الأمر غرابة، أنه لم يحمل إسم أي مرسل عليه، أكثر من ذلك، كُتب العنوان (عنواني) بحبر أسود على ورقة بيضاء ألصِقت فوق المظروف، والختم الأسود المضروب فوق الطابع يشير (ولو بعدم وضوح)، إلى إسم «بغداد»، لكن حتى لو لم يكن أي إسم لمدينة، فإن الأمر سيان، لأني وبحدس ما توقعت اسم المدينة التي قدم منها، بغداد، ومن «وجيهة»، والأسماء الباقية، لا يهم من تكون فهي إما خطأ غير متعمد أو مجرد تنويعات جغرافية لا غير، وأنا في تلك الأيام، رجل لا تهمه الجغرافية (لم تهمني قبل الحرب، فما بالك بعد الحرب، حيث تبدلت مواقع الكثير من المدن، بعضها اختفى، وبعضها ظهر حديثاً ـ جديداً)، بقدر ما تهمه في مساعدته على تعيين مكان ما. «وجيهة كتبت أخيراً»، ذلك ما فكرت به للوهلة الأولى، وقد استبعدت عمداً أي مصدر آخر للكتابة، إذ أنني لم أكن معتاداً على استلام رسائل من أحد، مثلما لم أنتظر رسالة من أحد، وخاصة من بغداد، وحتى تلك الفكرة الطارئة عليَّ، أن تكون المرسلة وجيهة، هي فكرة جديدة، وبرزت في ذهني دون تخطيط، لأنني لم أعرف أن عندها هي أيضاً هواية الكتابة، كتابة أية رسالة، وأبعد شيء، أنها ستكتب رسالة حب. وأنا في الحقيقة لا أشكو من عدم استلامي في يوم ما رسالة حب، أو كأن أرجع ذلك مثلاً لسبب له علاقة بجحود وجيهة أو جفافها، كلا، معاذ الله، فليس في نيُّتي الشكوى، لأني ـ بغض النظر عن عدم كتابة وجيهة لرسائل الحب ـ في قرارة نفسي، أجد كل رسائل الحب مضحكة، وعندي الشعور، بأن ليس هناك أحداً في العالم في الوضع الذي يؤهله أو يكون فيه على استعداد لكتابة تلك الأسطر اللاهثة، الضالة، التي تعبر عن شوق ووجد عميقين، إلا عندما يجد نفسه بمواجهة الموت في الطريق، أو يسمعه يطرق عليه باب بيته، ويتسلل دون أن يستأذنه، إلى جنبات الهواء المحيط به، ويصعد السلالم، أو يطير مع ملابس الغسيل المشرورة فوق السطوح أو فوق الحبال، وسط ساحة البيت، أقصد، من أجل توضيح ذلك أكثر، بأن المرء يكتب رسالة حب، فقط عندما يصبح من الواضح له، أن الأمر يبدو بالفعل مضحكاً، لأنه لم يستلم رسالة حب بالمرة. وكأن شخصاً آخر كان في داخلي، وهو الذي بدأ يتحدث معي في تلك الساعة، ويؤكد كل الظنون التي ساورتني والتي أفكر بها، عندما وقفت في ممر البيت، أمام المرآة، أمسك في يدي وللمرة الأولى في حياتي رسالة، وفي اليد الأخرى، أعلق سترتي. بالفعل، لا أكذب إذا قلت بأني لم أستلم رسالة حب في حياتي، أقصد رسالة تختلف عن كل الرسائل الأخرى، لأنها تتحدث عن الحب فقط، وأنا نفسي لم أكتب رسالة حب فقط، إنما لم أجرؤ على مجرد محاولة فعل ذلك، بل لم أفكر يوماً بمحاولة استحضار الورق والقلم، والشروع ولو بكتابة سطر أو سطرين، مجرد التفكير بذلك الموضوع الآن (على افتراض أن الرسالة التي في يدي، هي رسالة حب من وجيهة)،

والتهيوء على الأقل، لاستحضار عدة الكتابة، خاصة، عندما قطعت طريقاً لا بأس به وأصبحت في صالون الإستقبال، حيث وُجِدَ دفتر كبير بورق مخطط مع الأقلام، على طاولة هيأناها لجهاز تلفون لم يأت حتى الآن (طلبنا الخط قبل خمس سنوات، ورغم العلاقات والواسطات، قيل لنا، من الصعب، بل من المستحيل مد خطوط جديدة للقرنة، ومعظم تلك الخطوط التي هي أصلاً معدودة تذهب أولاً للضباط!)، رغم ذلك فإن مجرد التفكير بذلك، يبدأ كل الجيش، كل أفراده الذين يعيشون في داخلي، بالتحديق بي، وبالسخرية مني «ها، الأخ، يكتب رسالة حب، منذ متى!»، ثم يعفّطون لي، ومع عفطتهم، يسقط القلم مني أولاً، لتسقط بعده يدي، بلا حركة، مثل المشلولة، وأعدل عن الفكرة تماماً. ولكن مهلاً، لماذا أعتقد أن ذلك الظرف المطوي في يدي، رسالة وجيهة، وهي رسالة حب، وتستدعي جواباً ما؟ وجيهة كتبت متأخرة بعض الشيء، بعد أيام قليلة، يكون مر على غيابها، بعد تلك الليلة الجميلة، الليلة الاستثنائية، خمسة أشهر بالضبط، كل تلك المدة لم تكن في هذا البيت (بطريقة ما هو بيتها أيضاً)، حيث عاشت أول ليلة حب عميق وأول تجربة جنسية عنيفة في حياتها (إذا صدقنا كلماتها هي، كما همست بها لي، في المرة الثانية، أو المرة الثالثة التي مارسنا فيها الجنس، أو ربما تخيلتها أنا تقول تلك الكلمات)، التي كما يبدو لم ينجح لا عنفها ولا عمقها في حملها على تبديل شيء من شخصيتها ومن طبائعها، حتى ذلك الإضطراب العميق والقوي لكل جوارحها، لم يحملها أن تبقى في البيت، حتى اليوم الثاني، أو إن لم تستطع ذلك، لم يحملها على الأقل أن تكتب مباشرة، عندما وصلت إلى بيت أهلها في بغداد، ولو كلمتين للتعبير عن القليل مما جرى تلك الليلة، ولا يهم أنها قررت أن تكون حذرة في الإفصاح عن عواطفها، أو أنها قررت أن تخبىء مشاعرها عني، نعم كنت أكتفي بكلمتين منها، وليس كما فعلت، إذ لم تكتفِ بعدم الكتابة، إنما رفضت استقبالي، عندما ذهبت مباشرة، بأسبوع بعد غيابها، قالت لأهلها، قولوا له «إنني لا أريد أن أراه»، وكأنها هربت من مسؤولية قرار خطير اتخذته تلك الليلة. واليوم لو خيّرتني هي، بين البقاء معي دون حب، ومغادرتي في حالة حبها لي، فسأختار الإقتراح الأول.

وجيهة كتبت متأخرة، وبالتأكيد لم تكتب رسالة حب، إنما كتبت هذه المرة، لأن لديها ما تقوله، أو ربما غيرّت رأيها. لم أفتح الرسالة مباشرة، وكأن جيش أولئك المتحاربين في داخلي، يخاف من فتح المظروف، ويلح عليّ أن أبقى محتفظاً به بيدي، أو أن أضعه عند المكان المفترض أن تأتي منه مكالمة تلفونية، ولم يحصل، فوق الطاولة الصغيرة، عند زاوية الصالون، إلى جنب الصوفا، تشع خطوط حبره الأسود، تحت ضوء اللمبة، التي يبدو أنني نسيتها مشعولة هذا الصباح، عندما خرجت؛ كان بودي تركه

هناك، إلى أجل غير مسمى، خمسة أشهر أخرى مثلاً، ربما أخاف عند فتحي له من تعقيد الأمور، وأنا كما قلت رجل لا يميل لتعقيد الأشياء، رغم ذلك، فإنني أخاف في حالة عدم فتحي له الآن، فإنني سوف لن أفتحه حتى أبد الآبدين، وسأضطر للكذب حينها، إذا جاءت وجيهة ذات يوم وواجهتني (إذا واجهتني!)، وسأقول مضطراً، إنني لم أستلم أية رسالة، ومتى كانت الرسائل في البلاد هذه تصل سالمة، أو تصل في وقتها المحدود، وأنني يقيناً لا أحتاج أن أبرر كثيراً، حتى أجد نفسي مضطراً مثلاً أن أقول لها، بأن الرسالة ضاعت في الطريق بين بغداد والقرنة «هل تعرفين، ما زال الناس والدوائر الحكومية تحت تأثير أيام الحرب، يحتاجون زمناً طويلاً لكي يعتادوا على أيام السلم، أو يصدقوا أنها أيام السلم بالفعل»، أو لماذا لا يكون ساعي البريد في القرنة، عطوان نفسه، كعادته، إحتفظ بها، مع بقية الرسائل الأخرى المتجمعة عنده، لأنه منذ تعيينه في مديرية البريد، منذ ثمان سنوات وهو يقول «سأسلْم رسائل اليوم مع رسائل الأمس غداً»، كان يتحجج بالحرب، وقصف المدفعية، وهو يعرف أنهم لم ولن يقيلوه، لأن لا أحد غيره يجازف باستعداده (مجرد الاستعداد) لتوزيع الرسائل من على دراجته في القرى المحيطة بالقرنة، وخاصة تلك القريبة من الحدود، وإذا لم تكن تلك الحال فربما تكون سقطت من كيس ساعي البريد المثقوب، وهو في طريقه إلى إحدى تلك القرى، أو ربما قَلَب الأطفال دراجة ساعي البريد عطوان في القرنة، وأخذوا الرسائل معهم يلهون بها مع مجموعة رسائل أخرى. لكن مظروفها مميز عن باقي المظاريف، لونه أسود، ستقول لي وجيهة، ليس هناك رسائل كثيرة بهذا اللون، والشخص الذي سيعثر عليه، سيقرأ العنوان المرسل إليه، وسيرسله مباشرة، بالتأكيد هناك بقية من الناس «الطيبين والشرفاء» في هذه البلاد، وإذا لم تصل الرسالة لحد الأن، فربما فتحه أحدهم عن طريق الخطأ أو عن طريق الفضول، ووجد أن الكلمات المكتوبة هناك، ليست معنونة إليه، لكنه مع ذلك، وجد بالذات الكلمات التي يود سماعها منذ سنين (مفترضين أنها كلمات حب) وسيطوي الرسالة بعناية ويضعها في جيبه، ليقرأها، كلما أصبح لوحده كعزاء له، كسلوى، كتعويض عن رسائل حب لم تكتب، ورسائل كان يتمنى إستلامها، وفي النهاية لا يهم عدد الأسطر التي تحويها، تكفي أي إنسان، كلمتان، كلمتان تعبران عن الحب فقط، بل أحياناً تكفيه كلمة واحدة فقط. لكن ذلك سيدهشني بالتأكيد ستقول وجيهة، لأن الرسالة لا تتكلم عن هذه الأشياء، ليس هناك كلمات حب ولا بطيخ. هذا ما تصورته مباشرة يا عزيزتي، لذلك استغرق مني تفكيري كل هذا الوقت الطويل، حتى قررت أن أفتحها، قلت مع نفسي، وأنا أسترخي فوق الصوفا، ضوء اللمبة خلف رأسي، والرسالة مفتوحة في يدي، المرتعشة بصورة واضحة تحت الضوء، وبصورة تستدعي الرثاء وتثير السخرية، عند أولئك غير المعدودين في داخلي، الذين بدأوا في

التكالب عليّ، بِطَنين يثقل الرأس مع كل كلمة أقرأها:

صديقي العزيز، ما حدث تلك الليلة، لم أفهمه كله، أو فهمته ولا أريد أن أدّعي بأني فهمته، لأنني أخاف من فهمه، ومن تحمل النتائج التي يترتب عليها. لكن رغم ذلك، لا أريد أن أكون جاحدة، لذلك المساء، لقد عاملتني دائماً باحترام وحسن نية، قبل زواجنا، وبعد زواجنا، قبل تلك الليلة، وفي تلك الليلة أيضاً، لكنني أسأل نفسي فقط (لا أسألك، لأني أستثنيك من أية مطالب)، أي مستقبل هناك، ولا أقول لنا لكي أثير حفيظتك، إنما أي مستقبل لي، لأنني شخصياً، لا أعرف ما الذي أريده، ولا أعرف ما الذي تريده أنت (لم أسألك في يوم ما عما تريده، أو لم أريك اهتمامي بما تريده). وإذا كانت الحياة مجموعة عينات، مجموعة لحظات، فليس من غير المعقول أن نطلق على ما جرى تلك الليلة لحظة عابرة. أعرف أنك لا تميل إلى تعقيد الأمور، وأنك تميل دائماً لتلك الحلول التي يطلق عليها «بالتي هي أحسن»، ولكن «التي» لا يمكن حلها بهذه السهولة. ربما لو لم تكن أنت بشخصك، وبسلاستك التي عرفتك بها، لما تجرأت أن أكتب لك هذه الرسالة، ولكن مع ذلك، كما ترى يا صديقي، لم أجرؤ على الكتابة إليك مباشرة بعد وصولي، وأيضاً لم تكن عندي القوة الكافية لمواجهتك، من أين لي بها، وما زالت آثار ذلك المساء بسلبياته وإيجابياته، بكل ما جرى فيه، لك (هذه آخر مرة أتحدث فيها عنك)، ولي، نعم بكل ما جرى لي، كنت مجهضة وذكريات يوم عنيف في حياتي ما تزال طرية، تحتاج أكثر من أسبوع حتى أشفى منها، لم أتمنى مجيئك، وكنت أدعو الله ألا تأتي، عارفة أنك، لن تنتظر أياماً طويلة، لأني غادرت بسرعة، ولم أترك أي رسالة، أو إشارة بسيطة. لم أكتب لك ذلك اليوم، ليس لعدم جرأتي، أو لرغبة مني في إخفاء شيء ما عنك، ما ستعرفه عاجلاً أو آجلاً، إنما لم تكن عندي القوة الكافية للتعبير عما أريد التعبير عنه. نحن نتكلم ونكتب الكلمات التي تعبر عن أشياء وأمور محسوسة، والكلمة هي شيء ملموس ما أن يلفظها أحدنا، مثلها مثل الفعل الذي تعبر عنه، وأنا في ذلك الصباح، لم أجد الكلمات المعبرة عني مائة في المئة، لأني لكي أجعلك على بينة مما حدث كنت أحتاج للكلمات التي تعبر بدقة، وليس كلمات عادية، لم أقتنع بالثمانين في المائة، ولا حتى التسعين في المائة، ذلك اليوم، تعلمت الدقة، مثلما نقلوها لك الجنرالات الألمان الذين كنت تترجم لهم، بل أردت أن أكون أكثر من ألمانية، لم تساعدني إسبانيتي التي تعلمتها، لأني كنت كما يقول المثل الإسباني «طيز في الهواء»، وكنت أحتاج حكمة جنرالاتك الألمان لكي أغطي الطيز المعلق في الهواء (ليس الذي كان معلقاً في السرير تلك الليلة). في ذلك اليوم خذلني أيضاً صديقي الشاعر البرتغالي الذي استعرنا منه حكمتنا الحياتية «حكيم من يكتفي بالتفرج على استعراض

العالم»، فعندما يكون المرء هو استعراض العالم ذاته، يَكُف الأمر حينها أن يكون مضحكاً، ويدخل هذه المرة في باب الجدية. لا أتفلسف عليك، يا صديقي، ولا تجزع من قراءة الرسالة وتريث قليلاً، فأنا ما زلت أحتاج الكثير من الكلمات، دون أن تفقد أية كلمة شيئاً من جوهرها، من حجتها، من وزنها الخاص. أعرف أن، في العادة عندما يتحدث المرء كثيراً، والأسوأ عندما يكتب المرء كثيراً فإنه لا يدخل في مطبات أن يقول سخافات، إنما قبل كل شيء يَكُف المرء عن إدراك ما يقوله، لا أكتب ذلك لكي أقنعك بالتريث حتى قراءة نهاية الرسالة، إنما لأني أحتاج هذا الإنفعال، مع معرفتي بأن الكلام دون انفعال، الكلام دون ضرورة للكلام، سوف يسرق من المرء روحه شيئاً فشيئاً، ويجعله يهذر، والكلمة دون روح هي كلمة جافة، مثل نخلة ميتة، نخلة دون لقاح (أو مثل نخلة من نخيل القرنة المحترق). أريد بانفعالي هذا أن أبعث الروح بكل كلمة أكتبها لك، وأعرف أنك الآن تتذمر، لأنك كنت تتمنى أن أكتب لك رسالة حب، لا أريد أن أقول، لم تكتب لي انت. . . (المعذرة، نسيت أنني قلت لا أريد الحديث عنك!)، رغم ذلك إسمح لي أن أقول لك بأن رسائل الحب، هي أكثر الرسائل تزويراً وكذباً للمشاعر، فإن الذي يحب (أو يعتقد أنه يحب) يعمل الاستراتيجيات (ليس التكتيكات، لأن التكتيك مبدئياً ليس خطأ)، ويلف ويدور، من أجل زخرفة وطلاء وتزويق أشياء ليس لها علاقة بالأصل، رسائل الحب، إذا جاز لنا التشبيه، تشبه رجلاً في الستين من عمره، صبغ شعره الأشيب بالحناء، رجل عجوز يتصابى، أو تشبه امرأة في الخمسين من عمرها، تحاول تغطية تجاعيدها وترهل جلدها عن طريق المساحيق والأصباغ والشّد. ليس هناك شيئاً مكتوباً في الحقيقة أصلي وثمين، إذا لم يكن تعبيراً عن تفكير وشعور عميقين. من ذلك جاء خوفي بعدم الكتابة إليك ذلك الصباح، أو بعدم بَوْحي بالقصة على حقيقتها تلك الليلة، كنت نويت ذلك في الحقيقة، ولكن عند لحظة جلوسي معك، رحت أحكي لك عن خوفي من دخول الجيش الإيراني، وعن القصص الأخرى، قصة ماري صاحبة محل الأحذية، وقصة الشاعر ـ المخبر، وقصة أبي، وقصة وَصُفْ (الآن أحترمها وأفتقدها أكثر من أي وقت مضى)، لم أقص عليك كل تلك القصص، لأني نويت روايتها، إنما صدقني، وحتى جلوسي أمامك، وضربي لكأسي بكأسك، كان في ذهني مصارحتك بالحقيقة، والحديث معك عما جرى، لكن فجأة وجدتني أروي قصصاً أخرى، بطريقة ما نخترع نحن القصة أثناء روايتنا لها. هل فعلت مثل شهرزاد، في ألف ليلة وليلة؟ لا أعرف، لكني أعرف، بأنني ليس شهريار، وبأنني ولا مثل شهرزاد. ولا أعرف، فيما إذا فكرت هي أيضاً مثلي، وبحثت عن الكلمات المناسبة، الكلمات التي تتطابق مع الحقيقة، لكم هو صعب في النتيجة المحافظة على الصدق في التعبير، أن نبقى أمينين لما نقوله، هل نجحت المرأة؟ لا أدري، فهي تبدو في بعض المرات ساذجة، وفي المرات

الأخرى تثير المشاعر. لم تخلُ قصصها من الوعظ، أو من ثرثرة، ترطن بالأقوال المأثورة فقط. لكن من طرف آخر، تعجبني فيها هذه الطاقة على مواصلة الإنفعال في كل قصة تحكيها. ربما شعرت في بعض الحالات، عليها أن تقول كلمات ميتة، ولا غرابة في ذلك، ألا أقول أنا الآن كلمات ميتة، كلمات مثل عظام خاوية دون حياة، لأنني كلما أريد أن أقول لك مباشرة ما أريد قوله في هذه الرسالة، أدخل في موضوع آخر، كمن يبحث عن أعوان ومساندين، عن أرض يستند عليها، ألم أقل لك «أنا طيز معلق بالهواء». لكن أليس ذلك في عمقه، هو نزاع متوتر بين النفس وبين الكلمات لكي نقول شيئاً نعتقد بأنه شيء أصيل، وعند إطلاق سراحه من دواخلنا، نشعر بأنفسنا أحراراً. كم عدد المناسبات التي قلنا فيها كلمات لا تمثلنا ولا تفصح عن شخصيتنا؟ تعبيرات تعبانة، كلمات اجتماعية حمقاء تذهب مع الريح، أو، والأسوأ، بقايا مراهقة وأكاذيب جبانة. المرء يستطيع أن يزفر في اليوم (أو في الليل) آلاف الجمل الغادرة والنزقة والوسخة، ضد الآخرين وضد نفسه. نحن البشر نتشكل على مخرطة الكلمة، وأعتقد بأن المرء ممكن أن يتكهن بوضعنا السيء أو الجيد لوجودنا عبر نوعية ما نقوله: مثلاً إذا ما كانت عندنا القدرة منذ زمن طويل على التعبير بوجد قوي أثناء الكلام، فإن ذلك يعني أن شيئاً يذبل في الروح، وإذا قضينا شهوراً دون إعطاء شكل لكلماتنا، للتعبير عن أي شيء مهماً كان صغيراً، فيعني أن المخ بدأ يصدأ بصورة تثير الإنتباه. وأنا أكتب لك بصورة متأخرة، لأني أردت أن أضع في الكلمات شحنات من الوجدان والشعور، حتى أجرؤ وأخبرك (الآن فقط تكف يدي عن الارتعاش)، بأنني قررت مغادرتك، لأنني لا أجد مستقبلاً لي (لكي لا أقول لك)، وقد تعبت وما عادت عندي الرغبة بإخفاء الأمور عنك، بأنني لا أجد مستقبلاً لي، ليس معك وحسب، إنما مع أي رجل آخر. صحيح أنني لم أصارحك يوماً، بتضايقي من كوني لست جميلة مثل الآخريات (مثل جارتنا معالي، أو أختها الصغرىٰ التي تزورها بين الحين والآخر، رغم أنني لا أدعي كوني قبيحة، لكني أردت أن أكون امرأة مثل باقي النساء، فإن لم أكن جميلة، فعلى الأقل، أستطيع الإنجاب، وتلك هي المعضلة، فشلت حتى في هذا يا صديقي. لم أقل لك، أننا منذ زواجنا، وأنا أحلم، أن أفاجئك بخبر حَملي، ولكني لم أفعل، لا لأنني لم أحملَ، كلا، لقد حملت أكثر من مرة (ها أنت تفتح عينيك بسعتيهما الآن)، ولكن منذ الإجهاض الذي تعرضت له في حفلة معركة الدِيَكة، وأنا أعاني من عدم ثبات الجنين. لم أقل لك، بأن الطبيب قال لي حينها، أنني ممكن أن أحمل، لكن سيكون من الصعب عليّ الاحتفاظ بالجنين. هكذا، لم أشأ إخبارك بأي حَمل، حملت خمس مرات، وكل مرة، قلت لنفسي، لأتريث في إعلامك، لأنتظر حتى الشهر الثالث، كما قال لي الطبيب، لكن بالضبط، عند نهاية الشهر الثالث كنت أجهض. لم تنفعني

مراجعة الأطباء، وحتى دكتور ماجد (طلبت منه ألا يخبرك بالأمر) صارحني باستحالة الحَمل، وحتى إذا ثبت الجنين، يقول، بأن الولادة لن تكون سهلة، وفي المرة الأخيرة، نصحني كحل أخير، باستشارة إفْطَيْم بِّيْ دَي، أو الذهاب لواحدة سماها باسم عسلة، يقول إن كل النساء في البلاد يذهبن لاستشارتها، في حالة الحَمل أو في حالة الإجهاض. لم تكن إفْطَيِّم بِّيْ دَي يوم مغادرتي في القرنة، قالوا إنها في رحلة، يعلم الله إلى أين، المرأة كما يبدو كثيرة السفر، لكنني سأزور عسلة بعد أن أستريح قليلاً. فالإجهاض الخامس أجهدني أكثر من أي إجهاض قبله، لا أقصد أنه اتعبني جسدياً، كلا، لا تستطيع تصور سهولة كل تلك الإجهاضات، فأحياناً كان الجنين ينزل، وأنا أجلس في الحمام، أو أقف في المطبخ (كم كرهت نفسي، حتى في الإجهاض لم أكن مثل باقي النساء، لم أعانِ ما يعانين منه عند الإجهاض عادة)، أكثر ما أتعبني، هو أنك كدت تعرف أمري هذه المرة، فالشاش الذي وجدته، ولم تفتحه، كنت نسيته على السرير وكان يحوي على الجنين الصغير. لا تتصور الرعب الذي سيطر عليَّ حينها. كان عليّ اختراع قصة، أية قصة. ربما من الأفضل لي أن أتوقف هنا، قبل اختراع قصة جيدة، فإن الاستمرار في الكلام هنا، سيجعل الكلمات مثل حصى يدخل الأفواه.

الرسالة انتهت بكلمات حيادية، من الصعب معرفة فيما إذا كانت تحوي على الوداع أم لا: «إلى اللقاء (ربما)، سأكتب لك في الوقت المناسب، وأرجوك لا تتحمل عناء زيارتي. ماذا لو كانت الرسالة قد ضاعت بالفعل، لكان باستطاعتي الآن إسناد رأسي إلى المخدة الصغيرة التي أدنيتها تحت رأسي فوق حافة الصوفا، وسمحت لنفسي ببذل الجهد أن أتخيل، ما الذي ستقوله، ما الذي لن تقوله، وسأختار طبعاً الأفضل والأجمل والأكثر ملائمة وعزاءً لي من الكلمات، لكن الرسالة كانت هناك في يدي، بكل الكلمات التي حوتها، كنت أرى الكلمات، تتحول إلى هيئات أمامي، هيئات تسقط مع رغبة الرسالة بالسقوط من يدي فوق الأرض، لن أرفعها، ليست لي القوة على التحرك من مكاني، أمر واحد استحوذ عليّ، أريد أن أنام، أو من الأفضل القول، كانتا هما عينيَّ، اللتان تريدان النوم. واللتان بدأتا بالإنغلاق تدريجياً، رغم ذلك ما زالت الرسالة عند طرف أصابعي، جزء كبير منها فوق الأرض، وجزء صغير ما زال يلامس أصابعي، ومثل شخص مخدر، رحت أقول لنفسي: نم، نم، ثلاث أو أربع مرات، لا أذكر، لكنني أذكر بأن آخر جملة فكرت بها، كانت: إذن لم تتغير وجيهة تلك الليلة بسبب اقتراب الإيرانيين من القرنة.

- ٣٨ -

لم يأتِ الإيرانيون، في اليوم الذي غادرتني فيه وجيهة، ولم يأتوا في الأيام التي

تلت. والذين أتوا في ذلك الصباح وطرقوا الباب عليَّ، هم: أسيَدْ لوتي، الدكتور ماجد، ومفوض الأمن شاهين نزّال. في الحقيقة، لم يأت الدكتور ماجد حتى الباب، إنما ظل ينتظرهما في سيارته. وعندما فتحت الباب، شممت رائحة بصل كريهة تختلط مع رائحة ثوم حادة أتت حينما اقترب مفوض الأمن شاهين نزّال، بفمه مني، وقبلني يميناً ويساراً وهو يقول:

- مبروك على انتصارنا، إن شاء الله يوم تحرير القدس واستعادة كل الحقوق الضائعة لأمتنا من جيبوتي حتى رأس الخيمة وطنب الصغرى وطنب الكبرى وأبو موسى.

لبرهة بقيت محافظاً على صمتي، لا أدري ماذا أقول، ربما لاحظ أسيَدْ لوتي صمتي، فعلق:

- اليوم تم إعلان وقف إطلاق النار.

لو قالوا لي مثلاً، إن الأرض كفت عن الدوران، أو أن الليل أصبح نهاراً والنهار أصبح ليلاً لصدقت، لكنهم إذا كانوا جاؤوا لهذا السبب، فإن الأمر نكتة وحسب. ثم لماذا يأتون لي، إذا كانت الحرب قد توقفت بالفعل؟ ربما لاحظ الدكتور ماجد اضطرابي وهو يجلس في السيارة، لذلك رأيته يلوح لي وهو يبتسم من مقعده بالسيارة، فتحركت باتجاهه، يتبعني أسيَدْ لوتي ومفوض الأمن شاهين نزّال. خرج من السيارة، ومد يده وهو يتقدم باتجاهنا.

- لا تستغرب من زيارتنا لك، فكرنا أن نقوم بدورة على شخصيات القضاء، حتى نرتب احتفالاً بالمناسبة.

هززت رأسي موافقاً، وأبديت استعدادي للمساهمة. فقال لي مفوض الأمن شاهين نزّال، ورائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة ازدادت قوة وحدّة، ربما بسبب الانفعال في تلك المناسبة، إذ سيأتي لتبليغي في اللحظة المناسبة. ثم صافحني الثلاثة وصعدوا سيارة الدكتور واختفوا بسرعة، وسط غبار الطريق.

ولكن كل ما فكرت به، يمكن جمعه في فكرة واحدة، هو عدم تصديقي بانتهاء الحرب، ليس لأني أحب الحرب، أو أتمنى لها ألا تنتهي، أو أتمناها لبلدان وشعوب أخرى، تقاتل بعضها البعض - فمن أنا بالتالي حتى أتمنى ذلك، فقرار اشتعال الحرب وإيقافها لا يتعلق برغبة أو أمنية مني، من أنا! -، إنما أعتقد أن الشعور ذاك، تكوَّن عندي بصورة تدريجية وانغرس هناك في أعماقي، خلال زمن الحرب: سبع سنوات

وعشرة أشهر وأسبوع ويوم واحد. بطريقة ما، كانت أيامي، وعاداتي، وردود أفعالي، وتصرفاتي تتشكل على مخرطة الحرب، لم أجرؤ على وضعها ذات يوم موضع التساؤل، ولا أعتقد أنني فكرت أو سمحت لنفسي بالتفكير بما أفعله، إذا ما توقفت الحرب، وأكثر من ذلك، أن أطرح على نفسي السؤال المنطقي: هل ستتوقف الحرب؟ ولا أظن أنني كنت الوحيد، لا في القضاء ولا في البلاد، فبشكل ما، كفت البلاد كلها عن طرح هذا السؤال، ربما تساءل أغلبهم عن نهاية الحرب في بداية أيام الحرب، وربما راح بعضهم يسأل السؤال ذاته، رغم مرور شهر واحد أو شهرين، ولكنني أجزم، أنه بعد دخول الحرب شهرها الثالث، بدأ الناس بالتفكير بصورة أخرى: «كيف يمكننا العيش مع الوضع الجديد»، وهكذا راح كل واحد ينظم حياته، طريقة تسوقه، طريقة أكله، طريقة خزنه للمواد الغذائية، طريقة دراسته، طريقة عمله، طريقة نومه (في الصيف فوق السطح أم لا)، بل حتى طريقة تواصله الجنسي. وكان الناس، عندما يسلم بعضهم على الآخر، كيف حالك أو كيف حال أبنائك، لا ينتظرون أي جواب، لأنهم يسألون أنفسهم، ويجيبون، الحمد الله إنه لم يُعَوَقْ أو الحمد الله أنهم عثروا على جثته، أو الحمد الله أننا ما زلنا نعيش، والأولاد لم يقتل أحد منهم حتى الآن على خطوط الجبهة. وإذا ماتوا، فلا بأس، إنها الحرب، فهل يمكن تخيل حرب، دون قتلى أو جرحى، أو معوقين؟ كلا، إنها الحرب، ولا يهم ما يحدث، فكل شيء يدخل في خانة الحرب، الشاب اليافع الذي يموت، البنت الصبية التي تهرب مع عشيقها، الجار الذي يغتصب ابنة جاره، الأب الذي يقتل ابنه لأنه لم يلتحق بوحدته في الجبهة، تعليق الهاربين من الخدمة العسكرية فوق أعمدة التلغراف أو فوق أعواد المشانق المنصوبة لهم عند مداخل الأزقة أو ساحة المدينة الرئيسية عند خزان الماء، أو عند مدخل السوق، أو فوق ساحة علوة الخضروات أو فوق ساحة بيع المواشي (الصفاة كما يطلقون عليها)، وَشْمُ الفارين من الخدمة العسكرية بقضيب من النار أو تقطيع آذانهم أو مصادرة أعضاء المعدومين منهم، لا يهم أي عضو منها، فكل أعضاء أجسامهم مستباحة، لا يهم إنها الحرب، وفي الحرب كل شيء مسموح به، الجار يسطو على بيت جيرانه، ابن الجيران الجندي يطلق النار على رجله، حتى يصبح معوقاً، ولكي يلتحق بوحدته مرة أخرى، كل أشجار النخيل التي تصنع حزاماً على الحدود الجنوبية يجب أن تقطع، لأنها تعيق تقدم دبابتنا البطلة، والمتبقي منها (من أشجار النخيل) لا يهم إن احترق أو انتحر (كما يدعي أسيَدْ لوتي)، إنها الحرب، وفي الحرب ليس هناك ممنوعاً، الممنوع الوحيد هو الوقوف ضدها، أو التفكير بأنها ستنتهي، أو مجرد إلقاء السؤال، متى تنتهي؟ فإذا كانت البلاد تدافع عن نفسها، فليس عليها غير أن تستمر بتعبئة كل قواها البشرية والمادية، من أجل استعادة حقوقها، ونحن كما كان يقول المذياع لنا يومياً، أمة مغتصبة من المحيط إلى الخليج،

لماذا؟ لأن القدر اختارنا، يقول بعض المحللين في المذياع والتلفزيون، لأننا كما قال رسولنا: خير أمة أخرجت للناس، لذلك وضعنا الله تحت هذا الامتحان، ولا يصح التساؤل متى ينتهي هذا الامتحان، فالامتحان هو أمر إلهي، وبمشيئته يتم كل شيء، لذلك فإن حربنا هي حرب مقدسة، وأبدية طالما هناك عرب يُخلَقون ويتوزعون على الأرض، ولا يهم أين تكون، وضد من، مثلما لا يهم، عدد القتلى أو عدد الجرحى أو عدد المعوقين، فهي حرب ليست مثل أية حرب أخرى، كلما ازداد عدد قتلانا، كلما كافأنا الله يوم القيامة، فمن يجرؤ على التساؤل «متى تنتهي الحرب؟»، على العكس، على المرء أن يستمر على التفكير بالحرب، ويعتبرها جزءاً من يومه، هكذا مثل الرياضة الصباحية، فإن الحرب بالتالي رياضة روحية، تقوي روح الأمة، ألم يقل ذلك أحد مفكرينا، «أن عظمة الحرب تكمن بقيمتها كحرب، وليس بنتائجها، فنحن رابحون سلفاً لأننا دخلنا الحرب»، أو ألم يقل أحد شعراء أمتنا الكبار «ندخل الحرب لكي نولد»، فكيف كان لي أن أصدق، بعد كل هذا الذي جرى، بأن الحرب انتهت، هكذا بعد كل هذا الزمن، يأتي مفوض الأمن شاهين نزّال، أو تأتي قبله رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، ويخبرني ببساطة بأن الحرب انتهت، وماذا سيقول المذياع الذي كنت أتغذى منه كل صباح، بما يطلقون عليه في الصباحيات، حيث يخاطب مثقفو بلادنا سكان البلاد، ويبدأون إنشاءاتهم دائماً بـ «عمت صباحاً أيها الوطن»، ثم عمت صباحاً أيها الجندي، الحرب هي فردوسك المنتظر، ثم عمت صباحاً أيها الفلاح، الحرب هي الحقل الذي يتغذى منه أبناؤك، ثم عمت صباحاً أيها العامل، الحرب هي المعمل الذي يزودك بالطاقة، ثم عمت صباحاً أيتها الأم، الحرب هي جنة تحت قدميك، ثم عمت صباحاً أيها الأب، الحرب تنتظر عطايا أولادك، ثم عمت صباحاً أيها الطفل، الحرب جزء من مصروفك اليومي، صباح الخير أيها التلميذ، الحرب هي مدرستك. صباح الخير، أيتها البنت العذراء، الحرب تحمي عذريتك. صباح الخير أيتها العروس، الحرب تزف لك أحلى العرسان. صباح الخير، أيها العريس، أصوات المدافع والدبابات هي موسيقى عرسك. صباح الخير أيها المؤذن، توضأ بدم الشهداء، وتزود بصوت لعلعات الأسلحة لتمنح طاقة لصوتك. صباح الخير أيها البشر، الحرب حق لا يعلى عليه. واليوم ماذا سيقولون لي؟ أنا الذي تعلم أن ينشد منذ طفولته في المدرسة وكل صباح «لاحت رؤوس الحراب تلمع فوق الروابي» ـ إلى نهاية نشيد الفتوة ـ، أنا الذي لا يعرف ماذا يفعل في ذلك الصباح، الذي توقفت فيه الحرب، والذي غادرته فيه زوجته. هل علمت وجيهة بتوقف الحرب، عندما غادرتني، لا بد أنها سمعت الراديو في الصباح قبل أن تخرج، وإذا فعلت ذلك رغم توقف الحرب، فهل إن توقف الحرب هو الذي جعلها تتخذ هذا القرار؟ وهل هناك أزواج آخرون مثلي الآن، يجلسون دونما زوجاتهم،

لأن الحرب توقفت؟ ماذا سيقدم لهم، ولي بصورة خاصة، المذياع من عزاء جديد، من زاد جديد؟

في ذلك الصباح، وقبل خمسة أشهر من وصول رسالة وجيهة، وأسبوع من محاولتي زيارتها، لم أعرف ما الذي عليّ أن أفعله بالضبط. جلست مثل بحار ضل الطريق أو أضاع بوصلته، أو مثل حيوان الإيل، سد عليه الصيادون الطريق، وهو يقف فوق قمة جبل، يعاين الهوة التي تحته، والتي هي وحدها خلاصه. ربما كان عليَّ السفر وراء وجيهة فوراً، أو السفر إلى النجف للبحث عن أمي التي رحلت هناك بعد اختفاء أبي الغريب، (وبعد أن اقتنعت أن تتنازل عن حلمها بتأجير غرفة في حي السيدة زينب في مدينة دمشق، لكي تموت هناك، غريبة مثل تلك المرأة)، ووجدت أن من الأفضل لها أن تموت وتدفن هناك، من أن تموت بصاروخ ضال في القرنة، قريباً من شجرة آدم؛ أو زيارة أسيَدْ لوتي والدكتور ماجد ومفوض الأمن شاهين نزّال، والتنسيق معهم لتنظيم الحفل الذي سيقام بالمناسبة، أليست هي مناسبة لها علاقة بالحرب؟ ولكن لا يمكنني الجلوس معهم الآن، ربما في وقت لاحق، فأنا لا أستطيع تحمل رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة التي تأتي من جهة مفوض الأمن شاهين نزّال. ففي اللحظة التي أشم فيها تلك الرائحة، أشعر بالقَرف، وبشيء يصعد من البلعوم، لذا أفكر بغسل أسناني، ربما أكون أنا الآخر في ذلك الصباح لم أنظف فمي، مسكين مفوض الأمن شاهين نزّال، لولا رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة التي يبعثها فمه، لما كان تَحمَّل رائحة فمي هو الآخر، فمي الذي تتزايد رائحة عفونته المقرفة، حتى أنني لم أستطع تحمل قطع الطريق القصير حتى المغسلة، لكي أبصق فيها، وأثناء الطريق في صندوق القمامة.

لا أدري فيما إذا كانت تلك هي اللحظة أم اللحظة التي تلتها (حين وقفت أنظف أسناني بالفرشاة وبمعجون الأسنان أمام المرآة)، عندما بدأت أفكر بصندوق القمامة. كانت لحظة عابرة، لكنها استمرت لأكثر من دقيقة واحدة (حتى عندما كنت أقف أمام المرآة، كان بإمكاني رؤية صندوق القمامة خلف ظهري). أعتقد في تلك اللحظة لم يخطر في ذهني أكثر من الذهاب لصندوق القمامة والتفتيش عن الشاش أو الكيس الصغير الحاوي على الشاش الذي ألقت به وجيهة بالتأكيد هناك. بالفعل وجدته. كان الكيس مطوياً هذه المرة بعناية أكثر، رغم أنه تلطخ في بعض مواضعه بالدم. إنحنيت على الصندوق، ولمست الكيس، كي أرفعه من مكانه، فكرت بفتحه ومعاينته، وفتحته قليلاً بالفعل، لكنني عدلت، وأرجعته إلى مكانه، وفكرت، عجيبات هن النساء يخرجن الدم من كل مكان وبسهولة. وقفت بكامل جذعي، هممت بالإنصراف، لكني فكرت أن من

الأفضل، إغلاق كيس القمامة وحمله إلى باب الدار لكي تأخذه سيارة الزبالة، فالصندوق لا يحتمل نفايات أكثر،واليوم كان يوم الأربعاء وهو يوم مرور سيارة الزبالة. طويت الكيس، وفي اللحظة التي حملته فيها، طرأت على ذهني فكرة غريبة، ذلك أنني بحملي للكيس، أحمل بقايا الليلة الأخيرة من وجيهة، أو بالأحرى بقايا الليلة الأخيرة مني ومن وجيهة، ومن الأفضل القول، أنني بإلقائي الكيس في الخارج، ألقي بنفايات خلاصة ثماني سنوات من الحياة المشتركة بيني وبينها، ألم تكن الليلة الماضية، هي خلاصة حياتنا؟

منذ ذلك اليوم، أو منذ اليوم التالي، أو بتركيز أكثر، منذ رجوعي من زيارتي الفاشلة لوجيهة، رحت أراقب صندوق القمامة يومياً. ولا أدري أين قرأت ذلك، بأن إذا كان المرء وحيداً، أو عاش وحيداً، فإنه ينتبه بصورة تفوق التصور إلى تشكيل علاقة خاصة مع صندوق القمامة، لأنه الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يقيم المرء معه علاقة ثابتة أو مستمرة. كل كيس نايلون أسود جديد لامع وطري ينتج شعوراً مطلقاً بالنظافة وبإمكانيات لا متناهية. وعندما يفرشه المرء في الصندوق، ويثبت حلقه على حلق الصندوق، فإن المرء يرحب أو يستقبل بهذه الصورة يوماً جديداً، كل ما سيحدث، سيأتي تباعاً. هذا الكيس، هذا الصندوق هما الشاهدان الوحيدان، لكل ما يحدث في يوم إنسان وحيد، وهناك ستكون شيئاً فشيئاً بقايا وآثار هذا الإنسان في مجرى اليوم مخزونة، هناك سيكون نصف مرمي، لكل ما اختاره المرء أو قرر له أن يكون غير صالح له أو غير قابل للإستهلاك من قبله، كل ما يبدو على الضد من رغباته أو غير نافع مما أكله وشربه واستعمله واشتراه وأنتجه واستلمه. في نهاية هذا اليوم يصبح الكيس، الصندوق ممتلئاً وغير منظم، لكن المرء كان يرى ويتابع كيفية امتلائهما، كيفية تحولهما وكيفية تصنيعهما خليطاً عجيباً، خليطاً بلا اختبار، وهذا الإنسان لا يعنيه نظام الكيس والصندوق، إنما يعنيه أكثر أن الخليط غير المختار، هو شاهد على نظام هذا الإنسان. الكيس والصندوق هما البرهان، بأن ذلك اليوم وُجد بالفعل وتراكمت أحداثه، وكان في النهاية يختلف بشيء قليل عن اليوم الذي مضى أو اليوم الذي سيلحقه، رغم أنه الوحيد المرئي من الاثنين مثلما هو الذي يربط بينهما. الكيس وصندوق القمامة، هما الشاهدان الوحيدان، بأن هذا الإنسان قضى وقته كله، وذلك هو العمل الوحيد الذي أكمله المرء بالفعل. الكيس وصندوق القمامة هما خيطا الحياة، عقربا ساعة الحياة. وكل مرة عندما يتحرك المرء باتجاه صندوق القمامة، ويرمي شيئاً ما هناك، يرى المرء الأشياء مرة أخرى، ويأتي على لمسها، الأشياء التي رماها قبل ساعات أو قبل دقائق، وهذا ما يمنحه شعوراً بالاستمرار، بأن كل شيء يجري على ما يرام وأن يومه بالتالي يحدده صندوق القمامة، وهناك يرى كل ما رماه. كل شيء يتركز وينغلق، يرتبط ويختفي ويتحول هكذا إلى أثر

مادي وملموس لنموذج يوم من حياة إنسان، وبالنسبة إليه فإن رمي الكيس وربطه ثم رميه يعني بأن اليوم قد أنجز وأغلق، لأن هذا اليوم تَثَبَّتَ ربما فقط من خلال هذه الأعمال: العمل على رمي النفايات والبقايا، العمل على التنازل عن بعض الأشياء، العمل على الإختيار، العمل على تصنيف ما هو غير مفيد. نتيجة كل هذا التصنيف في هذا العمل، الذي يجبر على ختامه الخاص: عندما لا يعود هناك مكان لنفاية جديدة، عندما يكون الكيس مضغوطاً، يعني أن العمل انتهى، وحينها، حينها فقط يوجد أمامنا مضمون من نفايات؛ وبقدر تعلق الأمر بي وبوجيهة، فلم تختلف علاقتنا في النهاية عن مجرى هذه العملية، فنحن الشاهدان الوحيدان، على أن ما تبقى من زواجنا هو مضمون نفايات، هي تراقبه من مكانها في بغداد، وأنا أرقبه من مكاني في القرنة، قريباً من شجرة آدم. وعبثاً حاولت تفسير ما جرى لنا بصورة أخرى، فحتى إذا رفضنا هذا المضمون، فلن نكون بالتالي غير مضمون نفايات، ألقت بنا الحرب، كل واحد في مكان.

ما يقارب السنة، وفي كل يوم، وأنا أراقب عملية تحول صندوق القمامة، بالضبط في ذلك الوقت، حيث لم أعد أرى فيه وجيهة، وتوقفي عن العمل في المجلة (تسرحت بعد أسبوعين من توقف الحرب، رغم أن الأمر لم يختلف كثيراً بالنسبة لي، لأنني لم ألبس البدلة العسكرية خلالها). فكرت في البداية في العمل في البستان، أو إصلاح ما هو قابل للإصلاح، لكن بالإضافة لكوني لا أفهم الكثير بأمور الزراعة، فإن العمل غير مجدٍ أيضاً، بسبب احتراق النخيل أو انتحاره، كما قال أسيَدْ لوتي لي ذات مرة. كنت أقضي معظم الوقت لوحدي، وعندي الكثير من أوقات الفراغ فقط، إنما كنت ما أزال تحت تأثير كل ما جرى، فإن احتجت الكثير من الوقت لتصديق انتهاء الحرب أو توقفها، فإنني لم أستوعب ما قالته لي وجيهة في الرسالة. ربما ساعدني اللقاء مع الدكتور ماجد أو مع أسيَدْ لوتي بنسيان الحرب. الأول التقيت به مرتين أو ثلاث، عجيب أمر هؤلاء الأطباء الجراحين، فما أن تشكو لهم من شيء، حتى أجابوك بضرورة إستئصاله فوراً، سيان ما تقوله، حتى وإن كان وجعاً بالرأس «يجب قطع رأسك»، والدكتور ماجد مثلهم لم يكف من الحديث عن العمليات الجراحية التي كان عليه إجراؤها حتى الآن، وآخ كم هي صعبة وخطرة مهنته، ففي بعض الأحيان عليه القيام بعمليات ما عليه القيام بها، لم يخبرني بما يقصده، وأنا الآخر لم أسأله عما يعنيه بهذا النوع من العمليات، ولكن ذات مرة، وتحت تأثير الخمرة، اعترف لي، بأن عليه في بعض المرات استئصال بعض أعضاء الجسم، وزرعها لمن يحتاج، لذلك ـ قال لي ـ، يمكن اعتباره في مناسبات عديدة، طبيباً للعيون، أو طبيباً للمجاري البولية، أو طبيباً للأذن والأنف والحنجرة، أو طبيباً في

الإجهاض، لكنه عندما لفظ الوظيفة الأخيرة، نظر إليَّ بنظرة، ذكرتني بنظرته لي في السيارة، عندما أوصلني تلك الليلة للبيت، قبل رحيل وجيهة. ارتبكت قليلاً، واعتذرت منه بلباقة بأني على موعد مهم، ولا بد لي من المغادرة، إضطرب الرجل، وراح يعتذر لي، بأنه لا يقصد شخصاً ما بالتحديد، وأنه كان حريصاً دائماً ألا يتحدث في هذه المواضيع، شَكَرْتُه وغادرته حزيناً. لم ألتقِ به إلا مرة واحدة بعد ذلك، فيكفيني صندوق القمامة، ولا حاجة لي لمنبه آخر يذكرني بما حدث. أما الثاني، أسيَدْ لوتي، ذهبت معه لزيارة البستان مرتين أو ثلاث (لم ألتقِ بمفوض الأمن شاهين نزّال، على العكس كنت أتجنبه، ولا أدري إذا كنت أتخيل ذلك أم أن ذلك حصل فعلاً، فكل مرة وقبل أن ألمحه من البعيد، كنت أشم رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، مرة واحدة لم أستطع تجنبه). إلا أن تلك اللقاءات الشحيحة بالإثنين، لم تجعلني أنسى ما حدث بيني وبين وجيهة. على العكس، كلما تأملت الأمر، كلما شعرت بالتباس القضية أكثر، ولم يساعدني أسيَدْ لوتي في مواساته لي، وبقوله، بأنه في الحقيقة يعيش لوحده، فزوجته، ومنذ أن تزوجا لا تزوره إلا في المناسبات (لم يقل لي أنها ذهبت مع إفْطَيِّم يِّيْ دَي)، وأنه، إذا أراد قول الحقيقة، غير منزعج من القضية، ربما هي في مكان بعيد، أفضل من كل وجع الرأس هذا الذي تسببه النساء. وأنا لم أسأله، كيف يسمح بذلك، أو لماذا قبل الزواج بهذه الطريقة، فالأمر لم يعنيني، ولم أشعر بأي فضول لما يقوله، كان يكفيني همي، الذي كان يزداد كل يوم. وبالذات كلما نظرت إلى صندوق القمامة. فكرت، كم يستعجل المرء بتصنيف ما هو غير مفيد، حتى أنه يقرر بسرعة برميه في صندوق القيامة، كما من الضروري أحياناً التروي في عملية التنازل عما هو غير مفيد، في عملية الإختيار، في عملية الرمي، ألم يكن عليّ أن أنظر إلى ذلك الكيس الذي رمته وجيهة إلى جانبها، إلى زاوية السرير؟ وحتى في اليوم التالي، لماذا لم أنظر إلى محتوياته. ربما لو لم أكتفِ بلمس الكيس في ذلك الصباح، أو ربما لو لم أعتقد بسهولة أن تخرج النساء في كل لحظة الدم ومن أي مكان، لكنت استوعبت قرارها بتركي، ولتصرفت بصورة أخرى مع صندوق القمامة، ولما كنت أرى أيامي على مدى كل هذه السنة مضمون من نفايات. فذلك الصباح الذي أغلقت فيه كيس القمامة وربطته ورميته، لم أرم فيه القمامة فقط، إنما فرغ رأسي فيه أيضاً، ولم يبقَ فيه غير صوت المؤذن، وصوت أغنية أم كلثوم «أنت الحب»، لم تكن وجيهة هناك، لم يأتِ الإيرانيون، ولم تأتِ إلى سمعي أصوات مدافع الحرب ولا أصوات الطائرات، لكنها أتت (وأتت قبلها رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، لأنه هو الذي كان يطرق بابي ليخبرني عما يحدث) بعد ذلك التاريخ بسنة واحدة بالتمام، ولو على شكل تمثيلية استعراضية، تطلعنا بها وحضرناها: وجيهة وأنا من جديد.

- ٣٩ -

أعلنت الحكومة عبر الجرائد والراديو، بأن «في غضون ساعات قليلة، سيتم التظاهر، بمساء واحد قبل الإحتفال (هذه المرة) بمناسبة مرور سنة على الإنتصار على العدو الفارسي، ومرور عشرين سنة على ظهور الحاكم وعشر سنوات على استلامه قيادة هذا البلد العظيم، وبأن المنطقة الجنوبية من البلاد، وبالذات منطقة البصرة، من القرنة شمالاً وحتى أم قصر جنوباً ستعيش احتفالاً لم تعشه من قبل، يتجسد بالتظاهر بهجوم جوي، على منطقة القرنة بالذات، عند لقاء دجلة والفرات القديم، أو من الناحية التكنيكية، يجب القول، بأن مدخل جسر القرنة سيُحطم، مما يجعل عبور الجسر عملية مستحيلة. في البداية ستطير طيارة إستطلاعية، ستحلق فوق القرنة وتصنع إشارة بالدخان فوق الجسر، في منتصفه، لكي تخدم تلك الإشارة في التدليل على الهدف، وتسهيل الهجوم عليه من قبل الطائرات المقاتلة. ربما يتساءل بعض المغرضين عن هدف تلك العملية، لأن النتائج ستكون عديمة التأثير، إذا جاءت قوات العدو بغطاء من الطائرات المهاجمة وألقت قنابلها دون إنذار، رغم ذلك نقول لهؤلاء المدسوسين، بأنهم يتجاهلون قوانين الحرب الشريفة، التي تقول، بأن المرء لا ينبغي أن يهجم على عدوه دون إنذار مسبق، ألم ننذر عدونا نحن بشهر قبل فرض العدوان علينا؟. ونحن عندما نفعل ذلك، لا يهمنا ما يفعله العدو الدنيء، إنما نتصرف ضمن ما تسمح لنا به المبادىء، والشريعة الاسلامية وتراث هذه الأمة المجيدة، التي لم تهجم في كل تاريخها الحربي دون سابق إنذار، قبل ذلك، بما يفوق الحدود بعض الأحيان، المهم بالنسبة إلينا، ليس هو ربح أو خسارة المعركة، إنما المعركة كمعركة فقط، ولأننا نفكر بنزاهة وتحكمنا المبادىء، انتصرنا في كل حروبنا، والله الشاهد. هكذا، قبل أن ينحلّ دخان الطائرة الإستطلاعية، تطلق المدافع المضادة للطائرات طلقة واحدة، لكي تبدأ صفارات الإنذار بالعويل، وعن طريق الإنذار المعلن ستحفز الناس على اتخاذ التدابير اللازمة، سواء تلك المتعلقة بالدفاع الفعال أو الدفاع المدني. سيدخل الحرس الجمهوري، شرطة الأمن، الهلال الأحمر، الفرق الطبية التابعة لاتحاد النساء، رجال الإطفاء، مباشرة في الفعالية، والجمهور مجبر على الابتعاد عن الشوارع المهددة بالهجوم، وعليهم التراجع ومراقبة الفعالية بدائرة محيطة، سيحددها المشرفون في كل منطقة، بينما بالتوازي من ذلك، على فرق الإنقاذ الإسراع للأماكن التي يمكن أن تتضرر، مثلما يجب على رجال الإطفاء، أن يكونوا على أهبة الإستعداد، وأيديهم تمسك خراطيم المياه، مثلما تمسك البندقية على طول جبهاتنا في مقاومة العدو الغاشم والدفاع عن وطنهم العظيم. خلال ذلك تبتعد طائرات الإستطلاع، بعد أن تتأكد، بأن إشارة الدخان كانت هناك، وأن فرق الإنقاذ قد تجمعت بينهم، حينها سنرى

في الوقت المناسب، ممثل المسرح والسينما الأول حسني حسين مع زميله جاسم العزّاك، على رأس فرقة من رجال الأطفاء المطوعين، والذين يأتي معظمهم من دائرة الثقافة والإعلام، وخاصة مؤسسة السينما والمسرح. حينها يستطيع سرب الطائرات المعادية أن يهجم، وعلى الطائرات أن تطير على علو منخفض جداً، بينما تبدأ المدافع والمضادات الجوية بإطلاق نيرانها، ولأنه تمرين واستعراض وحسب، فيجب ألا تصيب أي من الاطلاقات واحدة من الطائرات، وأيضاً لكي لا تُعاق حركة الطائرات في طريقها، والتي ستستمر في مناوراتها وحيلها، وهي لن تحتاج لإلقاء قنابلها المزودة برؤوس كيمياوية، لأن، القنابل ستنفجر تحت، وستنسف جسر القائد (القرنة سابقاً) ولن ينقذه الإسم الجديد الذي أطلق عليه، مثلما لا يمكن إنقاذ كتيبة من المدفعية تورطت في القتال هناك، ولا نعرف ما الذي تفعله الكتيبة هناك، إذ ستُقتَل وتُمحىٰ عن بكرة أبيها، وحتى اليوم لا يعرف ما الذي تفعله الكتيبة هناك، ولا من أعطاها الأوامر بالتواجد هناك، فأوامر القيادة كانت واضحة، هي ألا تتحرك أية كتيبة مدفعية أو مشاة هناك، فقط قطعاتنا الجوية، لأننا لا نضحي بأبنائنا هباء، نحن لسنا مثل العدو، الذي يزودهم وهم أطفال بمفاتيح لدخول الجنة، يرسلهم لكي ينظفوا طريق قواتهم الزاحفة من الألغام، نحن لم نفعل ذلك، ولكن إذا استدعت الحال، فلن نتردد باللجوء لهذه الوسيلة، رغم أننا سنبذل قصارى جهدنا ألا يموت الكثير من أبنائنا الصغار، ولكن في الهجوم على جسر القائد، لم نكن نأمل بذلك، ويبقى ذلك الحادث المؤسف، هو عار علىٰ قواتنا العسكرية، نقطع العهد بعدم تكراره، ولن ننساه، لذلك يجب تقديم المسؤولين من آمر الكتيبة وضباط بطارياته الأربع لمحكمة عسكرية، هذا إذا ما لم تنظر القيادة في أمرهم مباشرة في يوم الإستعراض. فرق الإنقاذ ورجال الدفاع المدني، الأطباء، المرضون، الفرقة الطبية التابعة لاتحاد النساء، عليهم أن ينهكوا أنفسهم، في الكفاح تحت النار لانتشال الجرحى وجمع الأموات، وعليهم دهن الجرحى بصبغة اليود وبدهن الزئبق، ثم تضميد وربط جراحهم بقطع الشاش الأبيض. وقطع الشاش ستغسل في النهاية، لكي يمكن استخدامها من جديد. بالرغم من الدفاع البطولي لصناديد أمتنا العظيمة، فإن طائرات العدو تعاود الهجوم مرة أخرى، وقنابلها الخارقة لا تخطىء الجسر هذه المرة، ولا الساحة المقابلة لشجرة أبينا آدم في القرنة، قلعة الصمود، جزء من الجسر تم تدميره، والبيوت القريبة من شجرة آدم تهدمت سقوفها على ساكنيها، معظمهم أطفال ونساء، إن لم يموتوا تحت الحطام، فإنهم احترقوا تحت النيران التي شبت في البيوت. خطأ آخر من مدير القضاء ومسؤول منظمة الحزب، خطأ لا يُغتفَر، لماذا لم يُنذروا هؤلاء الأبرياء بمغادرة بيوتهم؟ فأمر القيادة كان واضحاً تماماً، وهو إخلاء المناطق القريبة من المكان المعرض للخطر: ثلاث وثلاثون طفلاً وامرأة وخمس رجال طاعنون بالسن سقطوا!

من المسؤول عن هذه الجريمة؟ يجب تقديم المسؤولين عن ذلك الخطأ إلى محكمة تقرر مصيرهم، سوية مع آمر كتيبة المدفعية وضباط بطارياته. تهدم جزء كبير من الجسر، تهدمت بيوت كثيرة، رغم تلك الخرائب، لم يفقد أحد الأمل بالنصر النهائي، لأن الحاكم، قائد هذه الأمة، وروح هذا الشعب العظيم، ما زال على قيد الحياة، وما زال بعقله الجبار، يدير من موقعه دفة العمليات، وكل مرة، مهما يحدث من دمار، فإنه إذا مد يده، يجد شمس الربيع قاب قوسين من يده. الحطام يطول مواقع أخرى في الجنوب، خرائب كَرمة علي والبصرة القديمة والعشار، تتحول إلى خرائب جديدة، ومن مركز المحافظة تصعد غيوم الدخان عالية، عدد الضحايا يزداد، في كل مكان، تحترق بيوت، في المعقل، في الجمهورية، في التميمية، في الساعي، في الخندق، في حي الجزائر، في ساحة أم البروم في البصرة، تمتد وتتوزع على كل المحيط الذي يغلف مدينة البصرة، يضم حتى النواحي البعيدة عنها، وينتهي عند القرنة، حيث وقف الحاكم مع ضيوفه يستعرضون التمارين. في كل مكان، تصرخ أمهات على أطفالهن، أطفال يبحثون وهم يبكون، عن أمهاتهم، لا أحد يفكر بالآباء، إنها الحرب، وهم من أماكنهم التي لا بد لهم أن يكونوا فيها. إنها الحرب، وفي الحرب كل واحد في مكانه: الرجل المناسب في المكان المناسب. هناك في السماء تختفي الطائرات بمهماتها الشيطانية. والطيارون يصنعون مخططاتهم للهجوم المقبل، يأخذون صوراً للمواقع التي ضربوها، لكي يقدموا تقريراً مفصلاً عن هجومهم، بعدها يبتعدون باتجاه قواعدهم. المدينة هي بحر من النيران، عدد الموتى بالآلاف. حينها تعطي المدافع المضادة للطائرات إشارتها، صفارات الإنذار ما زالت مستمرة على العويل، التمرين انتهى. السكان يغادرون الملاجىء ويذهبون إلى بيوتهم، ليس هناك جرحى أو قتلى بينهم، البنايات ما تزال كما هي، لأن ذلك كان مجرد لعبة وحسب.»

كان ذلك هو البرنامج المفترض، كما سمعناه جميعاً في الراديو وقرأناه في الصحف، وكما شرحه وأكده لي المفوض شاهين نزّال أيضاً، عندما زارني ذلك اليوم، أنه صورة طبق الأصل عن الاستعراض الذي اقترحه أحد الضيوف الأعزاء على البلاد، الجنرال كاردوزو، الجنرال البرتغالي، ثعلب الحروب المقدسة التي قادتها البرتغال وقضت فيها على جحافل الشيوعيين ليس في البرتغال فقط، إنما في كل مستعمراتها الأفريقية، والذي رغم كبره في السن أصر على حضور المهرجان والإشراف على تنظيم الاستعراض شخصياً، كما نظّمه قبل ثلاثين سنة للجنرال سالازار، لأنه يرى في القائد، وملهم النصر امتداداً للجنرال سالازار، وزميله الجنرال فرانكو، والاستعراض هو هدية صغيرة لإرجاع دَيْن للبرتغال وأسبانيا وناقلتي النفط اللتين أهداهما سيادته لقيادة البلدين في

أواسط السبعينيات، رغم كل الأقلام الرخيصة التي صورت هذا الاستعراض بصورة ساخرة، وفي النهاية أقلام كتاب صهاينة وخونة من سلالة اللاويّين، وأحد هؤلاء الكتاب «الذين تنكروا لماء دجلة والفرات، الذين يعيشون في الخارج على فتات موائد الأجنبي، عملاء الصهيونية والأمبريالية، وهم عار على البلاد، اسمه، على ما يُعتقد، نجم والي (في الحقيقة لم أسمع باسم نجم والي مطلقاً، فلم يتحدث عنه أحد من الذين كانوا يشتغلون معي في مجلة «حراس الوطن»!)، والذي نقله بدوره بتصرف عن أحد الكتاب البرتغاليين الصهاينة (هو الآخر لاويّ)، والذي سبق له وأن نقله عن الوثيقة الأصلية التي حملت توصيات الجنرال كاردوزو نفسه، بعد تحريفه وزميله والي - الويل لهذا النذل إذا ألقينا القبض عليه! - للكثير من كلام الجنرال، رغم أنهما لم يأتيا بجديد، فإن فكرة مشهد الإستعراض سبق وأن قدمت في المسرح الكلاسيكي القديم، سواء عند إسخلس (يقصد أسخيلوس) أو عند شسكبير (يقصد شكسبير) في هنريش الثامن (يقصد هنري الثامن) أو ريشارد الثالث عشر (يقصد ريتشارد الثالث عشر)، (كانت المرة الأولى التي أسمع فيها مفوض الأمن شاهين نزّال يتحدث مثل ناقد مسرحي، وربما لاحظ استغرابي، فبادرني بالقول مباشرة: أنت تعرف بدايتنا المسرحية في المدرسة، حاولت التعويض بما يمكنك أن تطلق عليه النقد المسرحي، بالتأكيد سأكون من أفضل نقاد المسرح في البلاد، لولا إغراء وظيفة مفوض الأمن لي!).

في الحقيقة عرفت بالاستعراض، قبل أن أسمع طرقات الباب في تلك الظهيرة، ومنذ الصباح، عندما فتحت جهاز الراديو، لكنه كان يوم الأربعاء، وفي هذا اليوم يمر رجال القمامة، ويوم الأربعاء، هو أكثر أيامي حميمية مع صندوق القمامة، لذلك لم أفكر بالخروج ومعاينة الإستعراض. ولغرابة الأمر (لم أفهم علاقة ذلك في البداية بالاستعراض) لم يأتِ رجال القمامة في وقت الضحى كعادتهم، هكذا بقيت في البيت، انتظر مجيئهم. ربما غفوت قليلاً، وبين اليقظة والصحو، سمعت ضربات قوية على الباب. «في النهاية: يجيئون»، فكرت، بأنهم رجال القمامة، ولكن لم يطول ذلك الظن عندي كثيراً، وبمجرد أن فتحت الباب، تسربت رائحة بصل قوية ممتزجة مع رائحة ثوم حادة.

- كل هذه الضجة وأنت في البيت.

فكرت في تلك اللحظة أن أسأله، لماذا يصر على أكل البصل والثوم، ولماذا لا يستبدل أكله على الأقل.

- يجب أن تأتي معي، وجودك ضروري، نحتاجك اليوم.

لم أسأله مباشرة ما نوع الحاجة، إنما أشرت له أن ينتظر قليلاً لكي أجلب مفتاح

الدار. وعندما أصبحنا في الشارع، وكنا قد قطعنا مسافة لا بأس بها، خطر في ذهني أن أسأله:

ـ هل يحتاجوني لغرض الترجمة؟

فأجابني بصوت قاطع:

ـ كلا، مفاجأة سترى بنفسك، فقد تحقق في النهاية ما وعدتك به.

تصنعت عدم الفهم، لعدم رغبتي بسماع الحديث مرة أخرى عما يقصده كلما تحدث عن نشاطنا المسرحي في فعالياتنا المسرحية أيام النشاط المدرسي، عندما كنا أطفالاً، وقبل أن تنتقل عائلته إلى بغداد.

سكت، ربما ينتظرني أن أشكره، لأنه كان يحاول إقناعي في الأيام الأخيرة، وفي المناسبات القليلة التي التقينا بها، بأنني ممثل مسرحي جيد، لكني لم أعلق، فتابع هو:

ـ عليك أن تتبعني فقط.

كان فيه شيء من الاضطراب، حتى أنه عندما أخرج حزمة من الأوراق، التي أراد أن يطلعني عليها، على أساس أنها البرنامج، أخرج دون أن يدري حزمة من الصور تبعثرت بسرعة فوق الطاولة، لم أستطع تجنب رؤيتها: كانت أربع أو خمس صور، يظهر فيها أسيَدْ لوتي عارياً إلى جانب امرأة، لم أتعرف على وجهها، لم تكن زوجته معالي، ولم أرها قبل الآن.

لْمَلم مفوض الأمن شاهين نزّال الصور بسرعة، وتلعثم صوته، وكأنني أمسكته بجرم مشهود. عرقت جبهته، وازدادات رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة (كانت دائماً تأتي رائحة البصل القوية بالمقام الأول!) التي راح يبعثها صوته في تلك اللحظة.

ـ لم يكن في نيتي إطلاعك على القضية، ولا أعرف فيما إذا كانت تعنيك؟

لم أعلق، لأنني لم أعرف، أية قضية يقصد، بالإضافة إلى اعتقادي بأنه لم يخطىء عندما سألني، لأنني بالفعل غير معني بأية قضية، ولو امتلكت الجرأة، ولو لم يكن هو مفوض في الأمن، لقلت له، إنهض واتركني من غير رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، رائحتك، لكني بدل ذلك، سَكَتُّ، وكأنني شجعته على الكلام، أو كأنني أجبرته على الكلام، رغم أنه هو الآخر لم يُبدِ حماساً في البداية.

ـ سأدخل معك في الموضوع مباشرة، لولا حبي لها، لما وجدت نفسي مضطراً للّجوء إلى هذه الوسيلة.

قال ذلك وهو يشير للصور، وصمت قليلاً، بينما راحت جبهته تتصبب عرقاً. ولا داعي لأن يكمل القصة. فلقد شاعت قصته، أو لنقل شاعت قصة حبه لمعالي في القرنة، حتى أنها وصلت مسامعي دون رغبة مني، مثلها مثل كل تلك الأغاني التي نسمعها يومياً دون إرادتنا، ونحفظها، ونفاجىء أنفسنا بترديدها ولا حول ولا قوة لنا، ربما هكذا يمكن تشبيه حالتي، عندما وجدت نفسي أقول له، دون وعي مني:

- لهذا ألّبت عليك ليس معالي وأسيّدْ لوتي وحده، إنما إفْطَيْم بِّيْ دَي أيضاً.

أخرج منديلاً رمادياً مطرزاً، راح يمسح به العرق الذي تجمع على جبهته. وعندما لاحظ نظراتي صوب المنديل، سحب المنديل، وتطلع به، وضحك بحزن، بعد أن عرف بأني رأيت اسم معالي مطرّزاً على المنديل. وضع المنديل في جيبه، وقال وهو يكف كم قميصه، ليريني الوشم الذي خطه على ساعده:

- الموت أو معالي.

ضحكت ضحكة خفيفة، أقوى منها تلك الضحكة التي انفجرت في داخلي، رأيته يتطلع بي، وكأنه يسألني عن سبب ضحكي، حتى أنني أجبته دون أن يسألني هو:

- لايوجد سبب، تذكرت قصة أخرى.

بينما بالحقيقة ضحكت مباشرة، عندما تذكرت الهدية التي استلَمْتُها وجيهة ذات يوم من الوفد الكوبي، والتي كانت على شكل علبة سيجار كبيرة، كتب فوقها بورق التبغ «Sozialismo o Muerte» والتي عندما سألتها عن معناه، ترجمتها لي فوراً «الاشتراكية أو الموت».

«إفْطَيْم بِّيْ دَي حرَّضت عليَّ كبار المسؤولين، ووصلتني بعض التهديدات بالتصفية».

صمت، ثم تابع:

- لكني غير مهتم، الحب هو الأهم. لقد رأيت كيف يموت الكثير من البشر تحت التعذيب بسبب حبهم للشيوعية، وأنا لن أكون أحمق مثل هؤلاء وأموت بسبب فكرة ضارة ومنحرفة، سأموت بسبب الحب. وفي النهاية ليس هناك حباً دون إجبار، ليس هناك أحداً يحب أحداً بطواعية.

فكرت، كم تبدلت الأزمان. إنها أزمان الحرب بالفعل، التي تجبرني على تعلم

الحكمة من مفوض أمن، وأية حكمة، حكمة الحب.

ـ الحب هو مثل الواجب، يناديك، وعليك الإنصياع له، وعندما تحين ساعة الحب، عليك أن تنفذ ولا تناقش.

فقاطعته هذه المرة:

ـ مثل أحد مبادىء الحزب الأساسية: نفذ ثم ناقش. (المبدأ الذي أجد فيه الكثير من الغرائبية، لأن لو نفذ المرء لماذا يناقش بعدها. . . الأمر سيكون منته!).

تنفس قليلاً، ويبدو أنه بدأ يرتاح لسير الحوار بيننا، حتى أن قطرات العرق التي ظلت تسيل فوق جبهته وقتاً طويلاً توقفت.

ـ ليس هناك قصة حب في العالم انتهت نهاية سعيدة، وهي مثل قصص السياسة، بعض الأحيان، أفكر وأنا أعذِّب بعض الأشخاص، ما الذي «يجعلهم أن يصمدوا غير حبهم للفكرة التي دخلوا في غوايتها. فقط عند مقاومتهم نتساوى، ولن يكون هناك ضحية وجلاد، وعندما يعترف أحدهم ويلعن الفكرة فقط، تكف علاقتنا المتكافأة، فأبصق عليه، وأحتقره، لأنه خان حبه، خان كل حلفائه من العشاق، من يحب، عليه أن يقاوم حتى النهاية، لا تهم النهاية التي ينتهي إليها، ومن يحب عليه ألاّ يخيب ظن الآخرين الذي يحبون، عليه ألا يخونهم، فليس هناك أتعس لعاشق من رؤية شخص آخر يخون حبه، وإذا أردت الصدق ليسوا هم عشاقاً حقيقيين، فأغلبيتهم يتنازلون عن حبهم بعد القليل من التعذيب أو بعد القليل من سماع التهديدات، بل يعترف بعضهم، حال دخوله بوابة السجن، قبل أن يُضرب، وأنا في قرارة نفسي أفرح في النهاية، لأنني أؤمن أن ليس هناك عاشقاً أقوى مني في عشقه، وأنت تعرف علاقتي بالحب منذ الطفولة، فإن الوحيد الذي كان يصر على تمثيل دور العاشق ويتحمس له في المسرحيات التي يقيمها النشاط المدرسي هو أنا.

ربما جعلتني كلماته أبقى مسمراً في مكاني ساعات طويلة، وربما تركتني مرمياً مع ذلك السؤال الذي راح يطِنُ في داخلي، ترى أين أضع وجيهة، وأين أضعني أنا، وفق هذه المعادلة، معادلة مفوض الأمن شاهين نزّال، من خان من؟ من عذب من؟ من منا الآن هو الجلاد ومن هو الضحية، بعد أن كفت علاقتنا المتكافأة بعرف رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة؟ ربما بقيت جالساً لوقت طويل، أتأمل صندوق القمامة، كما هو ديدني دائماً عندما تغرقني فكرة جديدة في بحارها، لولا نهوضه هو من مكانه، أو لولا شمي لرائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، هذه المرة وقف فوق رأسي.

- لكن الآن يدعونا الواجب الآخر.

قال ذلك، وأخرج أوراقاً عديدة، فرزها، ورتبها من جديد، ناولني إيّاها:

- إرم عليها نظرة سريعة، إنها تعليمات الكولونيل كاردوزو، ترجمتها زوجتك عن الإسبانية، أصلية بدون تحريف الكاتب البرتغالي وبدون تحريف النذل نجم والي، والتي عليك التصرف وفقها، حرفياً دون تحريفات الصهاينة.

فسألته بصوت بارد:

- وهل ستكون وجيهة هناك.

فأجابني:

- أعتقد أنها ستكون هناك.

لم أدرِ، فيما إذا كان يعرف ما جرى بيني وبين وجيهة، وفضلت أن أتصرف بصورة لا تثير الشك عنده، حتى عندما سألني:

- كيف يكون، ألا تعرف أنت؟

فأجبته بسرعة:

- أبداً، كانت هي في زيارة لأهلها.

ورحت ألقي نظرة متفحصة على الأوراق، ولكن قبل أن أنتهي منها، سمعته يقول لي جملة، ربما ظلت تثقل على صدره لوقت طويل، ولن يشعر بالراحة إلا بعد أن ينفضها عنه:

- أرجوك، أنت الوحيد اللي يعرف بنهاية القصة، قصتي، وإذا مُتُّ لا تسميني شهيد الحب الوحيد، ولا الشهيد مفوض الأمن شاهين نزّال الذي مات وهو يؤدي واجبه دون أن يدري السبب.

- ٤٠ -

تبعته، كما قرأت النص الأصلي المترجم الذي طواه ووضعه في جيب سترته، بعد انتهائي من قراءته - حفظته عن ظهر قلب -، ولم أسأل، كنت أفعل ما يفعله هو، يسير، أو تسير في الأحرى أمامي رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، وأنا خلفها. قطعنا طريقنا بسرعة، حتى أصبحنا قريباً من حشد الناس قرب المنصة، حتى تلك اللحظة كان من الممكن أن يشق المرء طريقه، لم يبدأوا بالتزاحم حتى تلك اللحظة. رغم ذلك، كان علينا أن نستخدم بعض الحيل الضرورية، مثلاً «هل تسمحون نحن أطباء»، وعن طريق ذلك التكتيك، نجحنا في الوصول حتى الصفوف الأمامية، فكرت من هنا يمكن رؤية كل شيء. حتى تلك اللحظة لم تظهر أية طائرات في السماء، رغم أن قوات شرطة الأمن كانت في وضع مضطرب لا يمكن تجاهله، خلفهم انتشر أفراد

الحرس الجمهوري، وخلفهم في العمق، قريباً من المنصة، وقف رجال الحماية، يعطون أوامرهم من هناك. لبرهة لَمْحْنا مسلحون يهرولون من البعيد وهم يعيطون بالناس، كانت مجموعة من سيارات المرسيدس الحكومية، في واحدة منها، جلس الحاكم وبعض أفراد عائلته من الذكور، وفي السيارات الأخرى توزعت الوفود العربية والوفود الأجنبية. فجأة سمعنا صوت إطلاقة إنذار، بينما بدأت صفارات الإنذار بالعويل. طارت الحمامات في زرافات وخفقت بأجنحتها مثل صواريخ لعب نارية. رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة تقترب مني، ويهمس: «هناك شيء لا يسير وفق الخطة». هناك شيء لم يَسِرْ وفق الخطة، إنه خطأ ذلك الذي يرمي إطلاقة الإنذار، قبل أن تصنع الطائرة إشارة الدخان، بعدها فقط يجب أن تطلق صفارات الإنذار عويلها، ومضادات الطائرات إطلاقتها وها هو يعطي الإطلاقة وما زالت سيارات المرسيدس لم تصل المنصة. وصل صوت عال حتى الحشد، جاء من جهة السيارات، من واحدة من سمّاعات المرسيدس، إنه صوت الحاكم يسأل «شنو هاذ»، فأجابه صوت مسموع هو الآخر، صوت مسؤول الحماية ربما «سيدي لا تقلق، هناك غطاء جوي» (لم يكن على السماعة أن تنقل صوتاً، هنا أضيف خطأ آخر). ازدادت رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، لأن المفوض شاهين نزّال، اضطرب، صار وجهه شاحباً، وكان يبلع ريقه أكثر من مرة، أردت أن أطمئنه، لكن لا أعرف كيف، كان بودي أيضاً أن أسأله، لماذا لا يكف عن أكل البصل والثوم، وخاصة هذه الأيام، لكن فجأة رأيت طائرة تظهر في الأعالي. ماج الحشد، وارتفعت الأيادي، وصرخ الجميع بصوت واحد «ذيك هي، شوفوها، ذيك هي» (لا أدري لماذا يميل سكان البلاد إلى تكرار جملهم ثلاث مرات دائماً)، ولبرهة خيم الصمت على الجميع، عندما سمع فجأة إنفجار قوي، بالتوازي مع ارتفاع غيمة سوداء من الدخان للأعالي، سيطر على الأصوات هيجان عام وتوتر، فيما راح الأطباء يعلقون سمّاعاتهم، والممرضون يحضرون عدتهم، وحاملو النقالات يقفون في لحظة تأهب، بينما صنعت قوات شرطة الأمن طوقاً على الحشد، وأخذت قوات الحرس الجمهوري، تدور في دائرة مثل ثيران تدور عند البئر. فيما سمع المرء من البعيد الدمدمة المتساوية لأشياء تتطاير، يقترب دخانها وغبارها، ورحت أتساءل مع نفسي (مثل باقي الناس)، فيما إذا كان كل ما يحدث، يحدث حقيقة في النهاية، لذلك راح بعض الناس يبتعدون عن المكان، ينسحبون بسبب الخوف من وصول بعض الشظايا لهم، وكنت فعلت مثلهم، لكن كيف لي أن أتحرك، وأنا لا أعرف المهمة التي عليّ بسببها لا أن أعاني من رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، إنما أن أبقى مع الأكثرية التي يبدو أنها لا تريد مغادرة مكانها، بل أن الجمع راح عدده يتضاعف، بعد سماع أصوات التفجيرات، سمعت أحدهم يهمس بأن طريق العودة مغلق من قبل قوات الحرس الجمهوري. وللدقائق

راحت القنابل تنفجر، حينها أخذ جنود قوات الحرس الجمهوري، يضعون أقنعة الوقاية فوق وجوههم (أمر يدعو للغرابة، قوات الحرس الجمهوري فقط)، رغم أن عددها لا يكفي للكل، ولكن ما هي أهمية الأقنعة، إذا عرفنا، أن القضية تتعلق هنا بعرض لما يجب أن يجري حقيقة، وفي النهاية، سنعرف هنا من سيموت ومن سينقذ نفسه تحت الهجوم بالأسلحة الكيمياوية. حتى تلك اللحظة لم تُقَرر النهاية. ارتفع الدخان في كل مكان، وحشد المتفرجين من الناس، يعطسون، يسعلون، في الساحة الكبيرة، أمام شجرة آدم، وخلفهم صعد مثل جبل من الدخان الأسود، حتى بدا كأنه ما زال يحترق. رغم ما حصل، بدا من الصعب على الناس التصديق، بأن ما يجري هو أمر جدي. بدأت شرطة الأمن تدفع الحشد إلى الوراء باتجاه الدخان، لكن الناس راحت تقاوم بالغريزة، وهم يتقدمون عكس الحركة، فصرخ بهم أفراد الحرس الجمهوري من الخلف «تعيقون عمل فرق الإنقاذ، تحركوا، وإلا نطلق النار عليكم». تراجع الناس للوراء، عندما رأوا جرحى على نقالات بالفعل، نعم جرحى، يضحكون لأنهم نسوا أدوارهم في التمارين، هل من المعقول أنهم أطلقوا الغاز المثير للضحك؟، فحتى أولئك الذين حملوهم من فرق الإنقاذ، كان عليهم التوقف أكثر من مرة، لكي يجففوا عيونهم، من دموع الفرح، لا يمكن أن يكون ذلك بسبب غاز الفرح. في تلك اللحظة وصل الإستعراض إلى ذروته، رجال القمامة، رجال القمامة الذين انتظرتهم عبثاً ذلك اليوم، يُصِرُّون على تنظيف المكان، وحمل النفايات، وبقايا المواد المتفجرة، رغم أنهم هذه المرة يحملون أشياء أخرى، مجاريف كبيرة تتناسب مع الحدث، إنها الحرب، والحرب لا تتحمل المكانس الصغيرة، فإن تنظيف الشوارع والساحات من بقايا المتفجرات، هو ليس عمل ربات البيوت، ربات البيوت عندهن واجباتهن الأخرى في الحرب: أن يزغردن، نعم أن يزغردن، وكبيرات السن منهن ليلوحن بفوطاتهن، والشابات منهن، لا بأس أن يرقصن مع زغاريدهن، ولا يهم إذا كان بعضهن في الفرقة الطبية التابعة لاتحاد النساء، فإن هذا الصنف من البنات بالذات تقع عليه مهمات عديدة، ولا يهم صعوبتها أو قوتها، فكل شيء «فداء للوطن العظيم، وكل شيء من أجل المعركة»، إنها الحرب. لكن رجال القمامة، تركوني كل النهار أجلس، وهم هنا، ينظفون بقايا الحرب، فضلات الحرب، الرجل المناسب في المكان المناسب، وهم رجال القمامة، يعملون بإخلاص، بعد أن يحملوا النفايات في المجراف، يلقون النفايات، نفايات الحرب، في سيارات القمامة (هذه المرة كانت سيارات القمامة العسكرية)، ثم يكملون عملهم بصورة صحيحة، ولا يزعجهم الضجيج، الحشد، وجمع الناس المتدافع، إنهم يدخلون في جبل الدخان الأسود، ويخرجون منه بسلامة، إنهم يرفعون رؤوسهم عالياً باتجاه العلم الوطني المثبت فوق صهريج قمامة السيارة. فوق العلم جلست حمامة ضالة، كانت الحمامة الوحيدة،

التي انفصلت عن أخواتها. كنت أتطلع بها، وفكرت أن أبوح للمفوض شاهين نزّال بما أفكر به إزاء الحمامة، رغم رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، لكنني رأيته هو الآخر يتطلع بها، ليسحبني فجأة من ذراعي، ويقول:

ـ تلك هي الإشارة، تقدم معي.

فسألته:

ـ ماذا تعني؟

فأجابني وهو يدس مسدساً من عيار ٣٨ في يدي:

ـ ضع المسدس (كان مسدساً من عيار ٣٨) في حزامك، تحت السترة، وابق ملازماً لي، وافعل ما أفعله.

قال تلك الجملة، وهو يلوح لفريق رجال الإطفاء التابعين لمؤسسة السينما والمسرح، اللذين بدأوا يخلعون ملابس رجال الإطفاء، ليبقوا بملابسهم، وهم يجلسون عند صناديق يمكن أن تحوي على كل شيء، إلا من عدة رجال الإطفاء. تطلعت بالمسدس قليلاً، فرأيت حوله خيطاً من الدانتيل الأحمر شدَّه عليه على شكل نجمة. وضعت المسدس في الحزام، خلف السترة.

ـ ٤١ ـ

فجأة اضطرب شاهين نزّال، واصْفرَّ وجهه. بلا شك أن ما سنقوم به هو جزء من مهمة تتطلب مسؤولية عالية منه، مسؤولية على غير ما هو مألوف من المسؤوليات الأخرى (لذلك لم يَبُحْ لي بما سنقوم به، تاركاً إياي لما تخبئه المفاجأة). كلا، لا يمكن مقارنة وضعه الآن مع كل روتين عمليات المراقبة والمطاردة التي اعتاد عليها مع المشتبه بهم، أو مع المطلوبين سياسياً، الذين يجب اعتقالهم بأسرع وقت ممكن، أو مع التحقيقات التي يجريها في أقبية الأمن، حيث باستطاعته إجبار البعض على التنازل عن الفكرة التي يحبونها، بإمكانه سحب الإعتراف بمجرد إلقاء الأسئلة عليهم، ففي النهاية ليس هناك عاشقاً أكبر منه في تعلقه بحبه، وإذا امتنعوا فهناك أكثر من وسيلة لإجبارهم على البوح بما يريده هو. يتحسس بيده المسدس خلف سترته، وهو يشق طريقه بين الحشد، وينظر إليَّ، ليجعلني أفهم بأن عليّ أن أفعل الشيء ذاته (أوصاني، في حالة نسياني النص الأصلي المترجم عن الإسبانية، أن أفعل ما يفعله، وأن أبقى أسير بحذر على بعد خطوات منه). فعلت بالضبط ما طلبه مني، حتى وصلنا، إلى جهة الساحة الأخرى، وأصبح حشد الناس وراءنا، لنقف عند زاوية بيت عالي، ارتفع عند الزاوية،

بمواجهته عند الجهة الأخرى من الشارع، ما زالت الباخرة الضخمة، التي هي جزء من الاستعراض، والتي سمعت، أن كان يجب عليها أن تمخر، وتمر من أمام المنصة التي وقف عندها الحاكم مع ضيوف الشرف. أشار لي مفوض الأمن شاهين نزّال أن أقف عند زاوية البيت الأخرى. أخرج علكاً من جيب سترته، وراح يفك غلافه بحركة بطيئة جداً، وسط هدوء نسبي، بالمقارنة مع ما كان يجري من ضوضاء في الحشد. ربما اضطرابه وليس غير ما جعله يخرج صوتاً أثناء فتح ثنية الورق سمعته رغم المسافة غير القليلة التي بيننا، حركة لا إرادية منه، وهي بالتأكيد ضد القواعد، المثبتة له في ذلك اليوم (كم هو عدد القواعد التي انتهكت ذلك اليوم، أنا الوحيد الذي لم أنتهك أية قاعدة، لأن القاعدة الوحيدة التي كانت عندي ذلك اليوم، قبل أن يأتي مفوض الأمن شاهين نزّال، وأكون مجبراً على تتبع ما صنعته رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، هي تأمل صندوق القمامة وإنتظار رجال القمامة). لكن ما حيلة المفوّض شاهين نزّال إذا كانت رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادّة تأخذ بالازدياد أكثر من أي وقت مضى، ربما بسبب الإضطراب، أو ربما بسبب زيادة الرطوبة التي بدأت تلفح وجهه آتية من جهة نهر شط العرب المواجه لوجهه أكثر من وجهي الذي حجبته شجرة انتصبت أمامي عند زاوية الشارع المفتوح. ولبرهة لمحت خلف جذع تلك الشجرة، وجذوع ثلاث أشجار أخرى، رجالاً، يقفون مثل وقفتنا، أو مثل وقفة مفوض الأمن شاهين نزّال، لم أميّز وجوههم، ولا أدري فيما إذا وقفوا ولا يعرفون مثلي ما يجري، أم أنهم يعرفون القواعد التي يتصرفون على أساسها، لكنهم على أية حال ينتظرون إشارة من أحدهم للتقدم أو التراجع، إشارة تعلن بالتأكيد، مثلما بدا الوضع يوحي به، بالهجوم الكاسح. رفع مفوض الأمن شاهين نزّال وجهه باتجاه الباخرة، وباتجاه نافذة عالية بالضبط، في الطابق الثاني من السفينة، مواجهة للمكان الذي وقفنا عنده، والتي انبعث منها ضوء بصيص لا يرى بالكاد، ضوء يوحي بجو المؤامرة بالتأكيد. ولبرهة انبعث من خلف إحدى الشجرات ضوء قوي لمصباح يدوي، اشتعل وانطفأ مرتين، كانت تلك الإشارة بالهجوم، «هيا، تقدم خلفي»، همس مفوض الأمن شاهين نزّال بصوت يوحي بالاضطراب أكثر. حينها ظهر الرجال الآخرون جميعهم من خلف الأشجار، فرأيت هذه المرة وجوههم، كانوا خمسة من الممثلين السينمائيين المعروفين: حسني حسين، جاسم العزّاك، ناعم الرائدي، جواد التنكجي، جليل فاضل. قسم منهم مسك بيده مقصات حديد ضخمة، تلك التي تُفتَح بها الأبواب، والقسم الآخر يحمل بوكسات حديدية، إنهم ماهرون كما يبدو في المهمات الفنية التي أنيطت بهم، حيث يمرون، يتركون خلفهم آثارهم، أبواب محطمة، فكوك مكسورة، أسنان ساقطة، عظام مكسرة. يمر بهم جندي بحري (كانوا يسيرون أمامي، أنا كنت آخرهم بالتسلسل)، لا

يحتاج أن يخبىء نفسه، يتصرف مثل عابر طريق طبيعي، أو كلا، أنه جندي مسالم، كان في إجازة، أو جاء للتو من السوق (لكن من المستحيل أن يكون ذلك، لأن طاقم الباخرة يجب أن يكون في حالة إنذار، إذن يكون من يكون هذا الجندي، فهو خرق القواعد الموضوعة له)، ويرجع للباخرة، إنه يقيم في الباخرة، رغم ذلك، لا ينظر للرجال الذين تقدمهم في خطوات، إنما راح يتقدم باتجاه الباخرة، ويصعد فوق لوائح الخشب التي انفرشت كطريق يربط الباخرة مع اليابسة (كان على الباخرة أن تمخر منذ ساعات، لكنها كما يبدو خرقت القواعد الموضوعة لها). ضرب على الباب الذي يقود إلى داخل الباخرة، طرقات خفيفة، كأنه لا يريد إثارة انتباه أحد. لا أحد يراه، يمد يده إلى جيبه، ويخرج مفتاحاً، في ثوان قليلة ينفتح الباب. في تلك اللحظة كنا جميعاً عند المدخل. لم ندخل في الأول. في الممر العريض عند السلم المؤدي إلى الطابق الثاني من الباخرة، ظل الجندي البحري واقفاً لا يتحرك، يبدو أن ليست عنده الأوامر بالتحرك، ومهمته تقتصر على التنصت، وإعطاء الإشارة، إذا كانت هناك حركة مشتبه بها، وليعطي الإشارة لمفوض الأمن شاهين نزّال ليقرر، لأنه ـ كما عرفت في النهاية ـ المسؤول على كل ما يجري. لحظة ويظهر الجندي البحري عند المدخل، يشعل سيجارة (تلك كانت الإشارة التي تعني أن كل شيء يسير على ما يرام)، وليس هناك ما يثير الريبة عند أولئك الذين في الطابق الثاني. يرمي مفوض الأمن شاهين نزّال العلكة، ويستحوذ عليه الخوف، أن يبلع العلك وسط الحدث، إذا ما انتهى الأمر للتناشب بالأيدي. يتنفس عميقاً، ربما يريد أن يتأكد فيما إذا اختفت رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة من أنفاسه أم لا. عبثاً يفعل، فما أن يتحرك خطوات قليلة، حتى عَلَت من معدته أبخرة غير مرئية، وهذا بالتأكيد سيساعدنا جميعاً على تتبع أثره، وألاّ نضيِّعه، لأنه رئيسنا، وعلينا اللحاق به، والسير دائماً خلف الرائحة النتنة، باستثناء اثنين منا سيبقيان في الخارج يراقبان النافذة، «إذا حاول أحد الهرب من هناك، فيجب إطلاق النار دون إنذار مسبق»، قال لهما. الرجال الخمسة الباقون (بضمنهم مفوض الأمن شاهين نزّال) يصعدون السلم بالتتابع، تتقدمهم رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة ومع أبخرة غير مرئية أخرى تصعد هذه المرة من معدة رئيسنا. كانت خطواتنا مثل خطوات النمل، إذ كان هناك صمتاً مريباً يسيطر على المكان، بصورة لا تحتمل، وكأن الوضع تكهرب، مليء بالتوتر، بدا على كل الوجوه دون استثناء، على وجوه أولئك الممثلين الذين لهم باع طويل في التمثيل. من السهولة الشعور بذلك التوتر. حتى أننا (أو أنا، إذا تحدثت عن نفسي)، لم نعد نحس برائحة رئيسنا، لأن من الممكن أن يقول المرء، بأن الجميع كانت عندهم الرائحة ذاتها. عندما وصلنا إلى نهاية السلم، بدأ الرجال يشكّون، فيما إذا كان أحد في الطابق الثاني، فالصمت كان عميقاً إلى درجة كبيرة، حتى

بدا العالم كله نائماً، وشحب وجه مفوض الأمن شاهين نزّال، حتى يمكن للمرء أن يقرأ على وجهه علامات الحيرة والشعور بالخوف، لو لم يكن متأكداً مما سيجري، لكان من الأفضل له، أن يعطي الأوامر بتحطيم الباب المؤدي لصالة الطابق الثاني، وإطلاق النار مرة واحدة، لكي ينتهي من هذه المهمة، ويرجع إلى عالمه الطبيعي، عالم العمل السري، عالم مطاردة المشتبه بهم سياسياً، وإجبار المعتقلين على الاعتراف. من صالة الطابق الثاني يسعل أحدهم. من الداخل تُسمع أصوات صرصرة كراسي، خطوات مسرعة، أصوات، «لا أحد يتحرك من المكان»، يصرخ مفوض الأمن شاهين نزّال، وقد نفذ صبره، وزاد حجم اضطرابه. في تلك اللحظة يرفع مفوض الأمن شاهين نزّال يده اليمنى، ويعطي الإشارة، الباب المؤدي لصالة الطابق الثاني مغلق. تلك هي إشارة الهجوم. يُدخِلُ الرجال الثلاثة مقصات الحديد في ضلفة الباب، ويحاولون تحطيم عتلة الباب، حتى يفتحون شقاً كبيراً بعلو الباب، حينها يتحطم الباب من فوق إلى الأسفل، لتنشق فتحة كبيرة، لا تحتاج إلا لرفسة بالقدم، حتى تنفتح على سعتها تماماً، فيندفع الرجال بقوة، وفي يدهم بوكسات الحديد. شخص ما يحاول الهرب من النافذة، تسمع أصوات الطلقات عند الشارع «لا يتحرك أحد، إلقاء القبض على الجميع»، فجأة يشتعل الضوء في كل الصالة. الصمت يسيطر على الصالة «ليس هناك مجالاً للهرب»، يصرخ مفوض الأمن شاهين نزّال، ويتحرك والمسدس في يده ويعيد أوامره، بألا يتحرك أحد من المكان، إثنان من الممثلين السينمائيين يقفان إلى جانبه، وأنا خلفه، والضباط الذين فاجأناهم في الصالة، ليس عندهم الوقت الكافي للتصرف بمنفذ للخلاص، وخاصة عندما يعرفون بأن النافذة مراقبة بصورة جيدة. ولمرة واحدة، وقف الضباط الثلاثة وأياديهم مرفوعة في الصالة، في تلك اللحظة استطعت تمييز رُتَبِهم: الأول عقيد بملابس القوة البحرية، الثاني مقدم بملابس القوة الجوية والثالث مقدم أيضاً من صنف المدفعية. مفوض الأمن شاهين نزّال يضحك، ويقول «أنتم معتقلون جميعاً». ويخرج من جيبه بعض الأوراق، ويعطي الأوامر بالشروع بتفتيش المعتقلين للممثل حسني حسين، الذي ما زال يمسك في قبضته بوكس الحديد، والذي صنع وجهاً متجهماً، ربما لأن لم تكن هناك مقاومة من المعتقلين، كم هو أمر مؤسف، لم يقاوموا، لكي يستخدم بوكسات الحديد التي حملها لهذا الغرض، حتى أنه نظر إلى زميله الممثل جاسم العرّاك، الذي بدا وجهه متجهماً هو الآخر وكأنه يشارك حزن زميله (رغم أن الممثل جاسم العرّاك معروف بوجهه الكريه ولا يحتاج عادة أن يبذل الجهد الكثير في تأديته لأدوار الشر المعروف بها عادة)، قبل أن يطلب منه مفوض الأمن شاهين نزّال هو الآخر أن يذهب إلى النافذة ويرى، فيما إذا استطاع أحدهم الهرب فعلاً، ليأتي صوته بعد ثوان، وهو يمد رأسه من النافذة، ويخاطب الرجال المحاصرين لبوابة السفينة: «هل رأيتم أحداً يهرب؟»، فيأتي الجواب،

«نعم، هرب أحدهم»، وسيكتبون ذلك بالتفصيل في التقرير الذي سيقدمونه لاحقاً إلى الضابط المسؤول، بأنه هرب، لكنهم يستطيعون وصفه وتحديد رتبته وصنفه العسكري، «كيف هرب منكم؟»، يسأل جاسم العرّاك، فيجيبونه، بأنهم لا يعرفون كيف استطاع الهرب بالضبط، ربما عبر سلم الحرائق، أو سباحةً، يجب أن يتأكدوا أولاً من طريقة هربه. رجع الممثل جاسم العرّاك حيث يقف زميله حسني حسين. لم ينتظر مفوض الأمن شاهين نزّال طويلاً، لكي يبدأ بشتمهم «زمرة من الفاشلين»، ربما بينهم أحد المدسوسين من الطابور الخامس، أو من المتعاطفين مع المتآمرين، سيرى القضية لاحقاً، وسيتحقق من الأمر مع الضابط المسؤول، لكي تُتَّخَذ التدابير العاجلة واللازمة إزاء كل المتهاونين والمتقاعسين والفاشلين في المهمات الخاصة المناطة بهم، كل هذا الحصار المضروب والمراقبة، ثم يهرب أحدهم، وما أن يضحك المعتقلون، حتى وإن كانت ضحكة خفيفة، لكان اتضح كل شيء بمجرد النظر إلى وجوههم، لقد هرب أهم شخص من المجموعة، الضابط المسؤول عن المؤامرة. حينها بدا مفوض الأمن شاهين نزّال بإطلاق التهديدات، أنه يريد أن يعرف، أين هرب هذا الشخص، «إما تتحدثون، أو تُصفّون؟»، ويؤشر على مسدسه وعلى مسدسات مساعديه، الذين لوحوا بمسدساتهم هم الآخرون. في تلك اللحظة يصيح المخرج «قطع».

كان بالنسبة لمفوض الأمن شاهين نزّال قد بدأ المشهد الذي يريده للتو، التحقيق مع المعتقلين وإجبارهم على الإعتراف، لذلك سأل المخرج، رغم معرفته بأنه واحد من أكبر المخرجين العرب واسمه توفيق فالح، كيف يأمر بقطع المشهد في تلك اللحظة المهمة، فمن غير المعقول أن يهرب شخص واحد من قبضة سبعة مطاردين، غير معقول، فهدأه مساعد المخرج، الذي لا يقل هو الآخر أهمية عن المخرج واسمه فلاح أبو كيف، ويقول له، لا ضير، سيلقى القبض على الهارب لاحقاً، لكنه لا يقتنع، ويقول له، بأن الفيلم أساء لشرطة الأمن وللمخابرات، ولا يمكن أن يوافق عليه أحد، وكيف يسمح السيد مدير مؤسسة السينما جوزيف صايغ بهذه الترهات، فيعيد عليه المخرج مرة أخرى، بأنهم لو ألقوا القبض عليه الآن، لانتهى الفيلم، من الضروري أن يمتد الحدث، لأن هناك مشاهد أخرى سيصورونها خارج السفينة، وعليه أن يصبر قليلاً، فيجيب: كيف له أن يصبر وسمعته وسمعة أمن البلاد كلها مرغت في الوحل. وبينما هما وسط النقاش يقترب منهما مدير التصوير، مصري، يتحدث باللهجة المصرية التي يحبها مفوض الأمن شاهين نزّال، ويقول إنهم جاهزون لتصوير المشاهد الخارجية. حينها يهدئ المخرج مفوض الأمن شاهين نزّال، ويقول له هل يود أن يأخذ القليل من الإستراحة، أم يستمر في تمثيل المشهد الخارجي، يفتر ثغره عن ابتسامة الرضى، لأن عليه هذه المرة أن يقود

المعتقلين أمام منصة الحاكم، أية لحظة مدهشة، رغم أنه غير راض، ماذا سيقول الحاكم عن عمل قوى الأمن، يهرب مجرم متآمر خطر منكم هكذا بسهولة، يرتجف قليلاً، لكنه يثبت على قدميه عندما يسمع مساعد المخرج يصيح «أكشن». مرة أخرى يقف مفوض الأمن شاهين نزّال عند مدخل الباب، ويشير للمعتقلين بمسدسه أن يسيروا أمامه. المخرج ومساعده ومدير التصوير يسيرون خلفي. ننزل الدرج، ونقطع الممر مرة أخرى، وسط صمت مطبق، وعند نهاية مخرج السفينة، على الشارع، يصيح مفوض الأمن شاهين نزّال بالممثلَيْن اللذين كانا يراقبان النافذة، بأن يتبعانا، وألا يسمحا لأحد بالهرب، وأنهما يجب أن ينظرا إلى هذه الواقعة كحدث حقيقي، وليس مجرد تمثيل، الأمر يتعلق بسمعة قوى الأمن وسمعة البلاد بالتالي. المفوض شاهين نزّال بدا مثل كاريكاتور يسير وسط الحشد الذي راح يفسح الطريق لفريق الرجال، المتكون من خليط عجيب امتزج فيه الجد مع الكوميديا: في المقدمة يسير ثلاثة رجال مقيدون، وراءهم مفوض الأمن شاهين نزّال المعروف في القرنة، وحوله يسير خمسة ممثلين سينمائيين معروفين أيضاً، فقط أنا والمخرج السينمائي ومساعد المخرج ومدير التصوير، لم نكن معروفون بالمقارنة مع أولئك، لكن مهما اختلفنا، فإننا كنا نسير بخطى سريعة، مغلفين بالخوف، استحوذ علينا الاضطراب، ونهاية لا يعرفها أغلبنا، حتى أن الشك بدأ يستحوذ عليّ، ولم أكن مقتنعاً، بكل ما قرأته في النص الأصلي، لم أعد أعرف فيما إذا كان المخرج يعرف تفاصيل المشهد الذي يديره، أو مدير التصوير يعرف ما الذي يصوره، بل حتى مفوض الأمن شاهين نزّال بدا لي في تلك اللحظة مجرد رجل مسكين، يؤدي واجبه كمفوض في الأمن، عليه أن يعتقل أحداً، أو عليه أن يستغل كل شيء، حتى وإن كان تمثيلاً، عليه إن يستغله لتصوير جدية العمل الذي أنيط به، فكل شيء يدور في النهاية حول الاعتقال، كل شيء، ليس هنا في هذه التمثيلية الاستعراضية وحسب، كل العالم مبني على مبدأ الاعتقال، لولا الاعتقال لما استطاعت أية حضارة بناء نفسها والوقوف على قدميها، كانت هناك دائماً حضارة في يدها المسدس تعتقل حضارة أخرى وتدفعها أمامها، السيّئ فقط، هو عندما يهرب أحدهم، فهو لا يقبض أجراً، لكي يسمح لأحدهم بالهرب، إنما لكي يحكم القبضة، ويجعل كل المعتقلين يبوحون بالأسرار، ففي النهاية ليس هناك معتقلاً بدون أسرار. وأنا ما هو دوري في تلك التمثيلية الاستعراضية، المنقولة بتصرف عن تمثيلية استعراضية شبيهة جرت في البرتغال قبل ثلاثين عاماً. هل ذلك هو جزء من حكمة التفرج على استعراض العالم؟ أم هو جزء من سلبيتي، وكسلي، وعدم فعاليتي؟ لا أدري، فأنا لست بجبان، ولست بشجاع، لست بشرير، ولست بطيّب، أنا إنسان من نوع خاص بنفسه وكفى، أردت ذلك اليوم المواظبة على طقسي التأملي لصندوق القمامة، وكنت أنتظر رجال القمامة، لكي أسلمهم مع فضلات القمامة يومي الذي مضى، وكان

بودي ـ كما هي العادة ـ أن أفرش كيساً جديداً في الصندوق لنفايات اليوم الجديد، وها هو المساء بدأ يحل، وأنا لم أرْمِ نفايات اليوم الماضي، وكأن نظام حياتي بدأ يختل، بعد أن قطعت على نفسي عهداً ألاَ أُبقِي زبالة يومين في بيتي، كل كيس يكفي ليوم واحد، هكذا أعد أيامي، مثل أكياس النفايات، وهذه المرة الأولى بعد مغادرة وجيهة لي، يبقى كيس القمامة ليومين، ولن يأتي رجال القمامة لاحقاً هذا اليوم، فهم مشغولون هنا، في جمع نفايات يوم الاستعراض الاحتفالي بمناسبة مرور سنة واحدة على انتصار البلاد ومرور عشرين سنة على ظهور الحاكم ومرور عشر سنوات على استلامه الراية وسنة واحدة على انتصار البلاد (الذي جاء مصادفة مع عيد ميلاده الخمسين)، مثلما لن يمروا لأن الوقت مساءُ الآن، وحتى لو انتهى الاستعراض بعد ساعة أو ساعتين، وعليّ الرضوخ لأمر الواقع، الواقع كما جاءني أو تجسد لي ذلك اليوم بهيئة مفوض الأمن شاهين نزّال، أو رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، والذي أدخلني إلى هذه التمثيلية، باقتراح منه بلا شك، لأنه كلما التقى بي، يقول، إنه يحن لأيام الطفولة، وكيف أننا في المدرسة الابتدائية كنا نمثل سوية، ولم ينفعني أن أقول له، أنه عبث أطفال لا غير، ولا يمكن أن يطلق على ذلك تمثيلاً، فلا يوافقني على ذلك، ويقول، إن مجرد اعتراضي على ذلك هو من باب التمثيل، ثم يتحسر ويقول، ربما ستحين الفرصة، ويكتشفه مخرج ذكي، ويصنع منه شخصية «جيمس بوند» المحلي، ينافس شخصية «جيمس بوند» الاستعماري. ولا أدري فيما إذا كان اليوم قد شعر بالارتياح للدور الذي تسلمه، وهو لا يفهم ولن يفهم، أن لكل منا في هذه البلاد دور يقوم به، وليس هناك دور من تلك الأدوار أفضل من الآخر، كل الأدوار تؤدي إلى طريق واحد: إلى تلك المنصة، أو إلى القبر ـ القمامة!

ربما ساعدتني تلك الأفكار على قطع الطريق بسرعة، وطرد كل ما تجمع في داخلي من خوف واضطراب. ربما مر على سيرنا ربع ساعة أو عشرون دقيقة، عندما تقدم ضابط من الحماية يسد الطريق على الفريق المتقدم، ويسأل بصوت لا يخلو من الوعيد: «هل هؤلاء هم المتآمرون الوحيدون؟».

ـ «نعم». أجاب مفوض الأمن شاهين نزّال، وهو يدفع المقيدين بكعب مسدسه.

تراجعت قدمي خطوات بصورة أوتوماتيكية، لم أفكر بالهرب، لكنه كان رد فعل طبيعي. أردت النظر إلى الوراء، لكنني تذكرت، بأن يجب عدم النظر للكاميرا، لأن الكاميرا ـ كما يقال ـ، هي الجمهور، عليك ألا تنظر للجمهور، الجمهور ينظر إليك. وفي تلك اللحظة كنت مجبراً على النظر إلى منصة الشرف: عند ضفاف شط العرب، بالضبط عند الخط الذي يفصل مياه نهر الفرات عن مياه نهر دجلة، أو عند المكان

القديم، حيث كانا يلتقيان دجلة والفرات (قبل أن يغيرا اتجاههما، ويقررا اللقاء في نقطة تبعد خمسة وستون كيلو متراً بعد القرنة، وتبعد خمسة عشر كيلو متراً، عند گرمة علي)، حيث شجرة آدم، وقف الحاكم يتطلع بالمشهد وإلى جانبه عند منصة الشرف وقف ضيوف الشرف من رؤساء ووفود البلدان الشقيقة والبلدان الصديقة وكانوا يمثلون البلدان التالية على التوالي: المملكة العربية السعودية، الكويت، مصر، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، جمهورية مصر، البحرين، الإمارات العربية المتحدة، السودان، اليمن بشقيه الشمالي والجنوبي، تونس، موريتانيا، المغرب، الإتحاد السوفياتي، فرنسا، ألمانيا، تركيا، الأرجنتين، تشيلي، كوبا، ووفود أخرى يصعب تمييزها وسط زحمة الاستعراض، ولم ينس أن يترك إلى يمينه ويساره مقعدين شاغرين، وضعت فوقهما قطعتين خشبيتين: كتب فوق الأولى بالخط الكوفي «صلاح الدين الأيوبي»، وعلى الثانية خط بخط رقعة «جمال عبد الناصر».

ولدهشتي رأيتها، كما توقع مفوض الأمن شاهين نزال، رأيتها، وجيهة تقف بجانب ممثل الوفد الكوبي، فهي لم تكتفِ بترجمة فعالية الاستعراض عن الاسبانية، وكما كتبت بالبرتغالية والاسبانية بالأصل، إنما حضرت الاستعراض أيضاً، لبست هي الأخرى بدلة كاكية مثل الكوبيين. وظلت نظرتي مسمرة هناك، حتى أنني لم أرَ ما حدث بالتفصيل، واستدرت لمجموعة الرجال أمامي بصورة متأخرة بعض الشيء، بالضبط في اللحظة التي سمعت فيها صوت إطلاقات نارية وصراخ. كل شيء جرى بسرعة عجيبة، غمغمة الإطلاقات وصياح الرجال المطاردين، وكأن كل شيء خرج عن الخطة المرسومة له، إذ ركض الرجال المقيدون بسرعة، وركض خلفهم رجل الحماية الذي أوقفنا. وعندما وصلوا حدود الحشد، سد الحشد الطريق على الرجال الثلاث، ليقترب منهم رجل الحماية ويطلق عليهم النار، ليسقطوا وسط بحيرة من الدم. لا أدري فيما إذا كان المفوض شاهين نزّال قد بوغت، أو سار كل شيء بسرعة لم يتوقعها، فلقد ظل مسمراً في مكانه، ونحن معه، بحيث أصبحنا كلنا خارج الخشبة، لأن المخرج ومساعده ومدير التصوير راحوا يهرولون وراء رجل الحماية، وعندما انتهى من عمله هناك، واستدار باتجاهنا، استدار معه المخرج ومساعده ومدير التصوير. ربما تمنىٰ المفوض شاهين نزّال في تلك اللحظة أن يرفع مساعد المخرج قطعته الخشبية ويصيح «قطع»، لكن هذا لم يحدث، فقد أكمل رجل الحماية طريقه، حتى أصبح مواجهاً له، وصرخ به:

- رقيع، شروگي، يهربون من أمامك وتبقى بمكانك، ولا تعطي الأوامر للسبعة معك بالهجوم.

فتح المفوض شاهين نزّال فمه، ربما ليبرر سلوكه، لكنه تأتأ، ولم تخرج من فمه أية

جملة مفيدة، لفحت وجهي فقط رائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة وروائح أخرى غير مرئية كريهة أخرجتها معدته ودفعتها نسمة هواء مسائية رطبة لافحة. ولا يهم ما أراد أن يقوله، فبمجرد أن بدأ محاولته الثانية، حتى أصبح رجل الحماية لصقه، وأفرغ طلقات المسدس في بطنه. حينها رفع مساعد المخرج القطعة الخشبية، وصاح «قطع»، فارتفع تصفيق بين الحاضرين. وطلب منا رجل الحماية أن نتفرق، وأعطى إشارة بيده لضابط آخر قريب من المنصة، سمعنا صوت إطلاقة من مضادات الطائرات، يعني انتهاء الاستعراض. في البداية ترددت في أن أغادر المكان لوحدي، وفكرت أن أنتظر مفوض الأمن شاهين نزّال، لكنني رأيته يتلوى في مكانه الذي غرق في الدم، أردت أن أقول له بأن الفيلم انتهى وأن عليه النهوض، فرأيت رجال الإسعاف يدخلون الخشبة (لكن هذه المرة دون كاميرا وفريق سينمائي) يحملون نقالاتهم. وعندما وضعوه فوقها، سمعت همسه الضعيف:

ـ لم أقبل أن يعطوا البطولة لحسني حسين، عندك حق، لا أجيد التمثيل، وما فعلناه في المدرسة كان عبث أطفال.

وقبل أن يختفي صوته، أكمل، وهو يحاول أن يعثر على يدي ليمسكها:

ـ كان بودي أن أحكي لك عن سر يخص وجيهة. . .

لم يكمل جملته، وعبثاً حاول إخراج صوته. لم يستطع. كان بودي أن أسأله عن السر الذي يثقله هذه المرة، لم يكن عندي الوقت الكافي، فقد سحبه رجال الإسعاف بسرعة، ولم أرَهُ بعدها.

وفي البيت وأنا مستلقٍ فوق الفراش، وما زلت على قيد الحياة، وفتحة المكيف الكهربائي، تبعث هواءً بارداً عليلاً وكيمياوياً يلعب بأطراف ملابسي، حاولت العثور على عزاء للمشاعر، التي أيقظتها فيّ ذكريات وأحداث الليلة وكيف أنه انتهى بشكل يختلف عن نهايته في البرتغال، في لشبونة، قبل ثلاثين عاماً. بدوت لنفسي مثل رجل مشلول ومحبوس، غير مؤهل للإحساس بأن هناك ما يثيرني أو يمسني بصورة مباشرة. وهذا ما ثبت أيضاً قبل استلقائي فوق الصوفا، هناك في ساحة الاستعراض، سواء عندما وقفنا جنباً إلى جنب، أنا ومفوض الأمن شاهين نزّال، طوال تلك الليلة القاتلة، دون أن نعزي أو نتحدث بقليل من الود واحدنا مع الآخر، ولا أدري، فيما إذا كان هو، مفوض الأمن شاهين نزّال، استحوذ عليه الشعور ذاته، أم لم تكن عنده مشاعر أصلاً، وإلا ما الذي جعله يختار تلك المهنة، مهنة مفوض الأمن! ولكن بعيداً عنه، فأنا لست مسؤولاً عن حياته، واختياراته، أعرف بأننا، نحن الإثنان (ولا علاقة لمهنة أي واحد منا

هنا)، كنا غير مؤهلين، وحتى عند النهاية المفجعة، من تبادل كلمات العزاء مع بعضنا. فلربما لو كنا مؤهلين لفعل ذلك، لربما سارت الأمور باتجاه آخر (لي على الأقل، ولما أكون اشتركت في الحرب الثانية). ولكن من جانب آخر، لم أستطع في تلك اللحظة، أن أطرد فكرة، أن من الصعب عليّ التمييز بين الأشياء، ففي تلك الليلة اختلط عليّ كل شيء، ولم أستطع التمييز بين الحقيقة والوهم، بين التمثيل والحياة، وبدا لي ليس ما جرى أمام منصة الشرف، وعند شجرة آدم، إنما كل ما يجري في حياتي، وراءه مخرج ومدير تصوير، ويسير وفق سيناريو مكتوب منذ سنوات طويلة، مثلي، مثل مفوض الأمن شاهين نزّال، الذي لم ينتهِ كما اعتقد هو ليموت شهيد الحب الوحيد، وليس الشهيد مفوض الأمن شاهين نزّال الذي مات وهو يؤدي واجبه دون أن يدري السبب، مثلما كان يصر على دوره هو، ولم يشأ أن يشط عنه، لم أشط أنا أيضاً عن الدور الذي أنيط بي. لكن الفارق بيننا، أنه ميت الآن، وأنا على قيد الحياة، لأن الدور الذي عليّ أن ألعبه حتى الآن هو البقاء على قيد الحياة بالشروط التي يشترطها دوري، وعليّ أن أقبل وضعي وحيداً حتى بصندوق قمامة ليومين، فكل ما تنازلت عنه من فضلات تركته هناك خلفي في ساحة الاستعراض وما تبقى عندي هو اضطراب وخوف وإجهاد، جرجرتهم معي للبيت، لو كنت أستطيع لقفزت من مكاني وأطفأت مكيف الهواء، لأن هواءه بدأ يبعث فيَّ القشعريرة، ولفتحت الشباك، وصرخت «حسناً، مرة أخرى، كانت بيني وبين الموت شعرة واحدة، اللعنة، شعرة واهية جداً، من الممكن قول ذلك ولكن الموت لم يطلْني، لقد شعرت بأنفاسه في الساحة وفي الغرفة بعينيه الحمراوين تلمعان في الظلام وبيده الباردة تلمسني، لكني استطعت النجاة. إنتظروني، أنا ما زلت على قيد الحياة، مرة أخرى أنقذ جلدي»، لكني لم أستطع النهوض فقد كان الخوف والتعب والحيرة يثقلون عليّ ويشلونني ويجبرونني على النوم فوق الصوفا في صالون البيت وسط البيت، ظلمة الغرفة، وظلمة الليل الذي بدأ يطبق على المدينة. وسط هدوء اجتاح المدينة بوقت مبكر على غير عادته، لا يقطعه إلا صوت أزيز حشرات الصيف، الخرساء التي عثرت على صوت لها، والتي بدأتُ بالغناء، ما أن وضعت رأسي بكامل ملابسي فوق المخدة لأسقط في غيبوبة تفصلني تدريجياً عن الغرفة، عن المدينة، عن الجنوب، عن البلاد، فأتمنى أن تكون معي وجيهة لنرحل ونغادر فوراً، لكني أرى فجأة أضواء سفينة تغادر شط العرب وتختفي وهي تنزلق عبر شباك الغرفة الموازي للنهر، وصوت ضربات خفيفة على شباك الصالون، يصاحبها همس مُلّح «إفتح، أنا وجيهة»، حتى أن كل شيء بدا غير واقعي.

القسم الثالث

العدد

- ٤٣ -

- أهلاً بكم في تل اللحم، إلى متى ستبقون هنا؟

قبل أن أنظر للرجل الذي رحّب بي (أو بنا، نحن الإثنين) شعرت بما يشبه الدم الحار، يصعد للرأس، ويجعل كل الصمامات المغلقة، أو تلك التي توقفت حتى الآن عن العمل، أن تشتغل مرة واحدة: «تل اللحم»، تلك الكلمة التي سمعتها من راديو الترانزيستور، بعد يوم أو يومين أو ثلاثة من رجوعي من الحرب، واعتقدت أنني أسمعها للمرة الأولى، أو أنني - وأنا أغطس في بحر النوم العميق - لم أعرف، أو لم أتذكر أين سمعتها قبل تلك الساعة، التي أيقظتني حينها - بعد إغلاقي لراديو الترانزيستور، ودون إرادة مني - معالي، أولاً عند ضربها للجرس، وثانياً - بعد يأسها من ضرب الجرس - عند ضربها ضربات خفيفة لشباك الصالون، نعم «تل اللحم» تلك الكلمة التي أتذكر الآن من حكىٰ لي عنها (أو أعرف بالتفاصيل الكثير عنها قبل أن أتشرف برؤيتها)، وليس من شخص واحد فقط، بل من أشخاص عدة، سأحاول وضعهم بالترتيب، أولاً من الجنرالين الألمانيين الشرقيين (ومن ضابط شاب، التقيا به مصادفة في إحدى رحلاتهما، وافترقا عنه دون أن يعرفا أو يتذكرا اسمه)، ومن شاهين نزّال ووجيهة لاحقاً. ولكن حتى تلك الإختلافات، وإن بدت ظاهرياً تختلف عن بعضها، إلا أنها تلتقي في النهاية عند نقطة اتفاقها.

- أهلاً بكما، بكم، في تل اللحم!

سمعت صوت الرجل يأتيني بصورة واهية، ويده تلدغني، عندما صافحني وكأنه يريد إبعادي عن صورة المدينة التي بدأت تشكيلها في خيالي من جديد، تطابقاً (أو

امتداداً للصورة التي رسمها الآخرون لها، لأننا لا نعيد رواية القصة ذاتها أبداً!): في الحقيقة ليس هناك في المنطقة تلاً، والتل هو تعبير رمزي، للطريق الممتد بين تلك المنطقة والحدود الممتدة حتى السعودية؛ أرض قاحلة، بلا حدود، تمتد بعد نهاية المنطقة، بعض البساتين والهور وبعض المستنقعات التي يعيش فيها الجاموس، هناك تبدأ الصحراء، أو الأرض القاحلة، والتي هي عبارة عن خليج من الرمل داخل أراضي البلاد، داخل المنطقة؛ وميزة هذا الطريق أنه ينقسم إلى مسافات محددة، وينتهي إلى شارع نظيف، مبلط، تحده فجأة تلة رمل، رمال متحركة زاحفة، لأنها ناعمة جداً وتنتقل من مكان إلى آخر بسرعة، وإذا كان المرء يقود سيارة هناك، أو عندما لا تهب الرياح بقوة، فإن سائق السيارة يحس وكأن السيارة تدوس على نمل، لأن الرمل يدب مثل أفاع أو مثل جيش من النمل، يدب على الأسفلت؛ وإذا هبت الرياح بقوة، فإن الرؤيا تنعدم تماماً، ويحدث ذلك عادة بعد الظهر، بعد الساعة الخامسة، مثلما يحدث ذلك أحياناً صباحاً، إذا كانت هناك رياحاً موسمية، وكلما اشتدَّت الرياح، كلما برزت التلال أكثر. هناك طمست سيارة الجنرالين الألمانيين، لأنهما كانا يسوقان وقت الظهر، في وقت هيجان الرمل، وهما قادمان من البصرة (بدوني هذه المرة، ربما كانت رحلتهما سرية جداً، وهما لم يخبراني بها، إلا بعد انتهائها)، والرياح الصحراوية قوية عادة، ولأنهما (كما قالا بصوت فرح، يوحي بالمغامرة) لم يحيدا عن التل الرملي الموجود فوق الأسفلت، بينما عليهما في الأوقات العادية أن يقودا السيارة «زيك زاك»، لكنهما وبمساعدة ضابط شاب مرّ بهما صدفة بسيارته العسكرية، رفعا السيارة وتحركا (لم يقولا لي ماذا كانا يفعلان هناك، باستثناء السبب المعلن عن رغبتهما برؤية مضارب البدو الكثيرة هناك)، وكان عليّ أن أسمع رواية شاهين نزّال ووجيهة، لكي أتكهن سبب ذهابهما بالذات إلى تل اللحم؛ إن تلك الرمال بالذات (حسب رواية شاهين نزّال ووجيهة)، هي مكان مثالي للتمويه (بعد بيوت سمك الجصّانية)، مكان يصلح أن يكون مخازن كبيرة للسلاح، تحت الأرض، مثل الملاجىء، مغطاة على شكل تلال رملية تشبه تلال الرمال المتحركة. والآن أتذكر، أن الجنرالين حدثاني أيضاً عن ذلك الضابط الشاب، كيف أنهما وجداه حزيناً بصورة يرثى لها، والذي حدثهم عن سبب حزنه ذلك، فهو عائدٌ للتو من بغداد، بعد لقاءه في بارات أحد فنادق الدرجة الأولى في بغداد، بامرأة رائعة، امرأة حياته، امرأة أحلامه (حتى أنه قرأ لهما في تلك اللحظة بيتاً من الشعر للشاعر الفرنسي مالارميه: أحلم هذا الحلم الغريب النفاذ... بامرأة جميلة أحبها وتحبني...) والتي حاول أن يلتقيها مرة أخرى، فلم تقبل، ولكن بعد إلحاحه عليها، التقى بها مرة واحدة في أحد البيوت في المسبح، ووعدته باللقاء ثانية، وهو يأمل أن ينتهي «من هذه المهمة الخرائية»، ويلتقي بها، وسيحاول أن يقنعها بالعيش سوية؛ وعندما سألاه مازحينْ، بما يعنيه بهذه «المهمة

الخرائية»، أخبرهم بقصة معمل الأسمدة الكيمياوية (لم يحدثني عنه لا شاهين نزّال ولا وجيهة)، القريب من مدرسة ثانوية وحيدة في المنطقة، والشاب غير مرتاح للقصة، وهو خريج كلية علوم، ويعرف تأثير المواد الكيمياوية عليه، لكنه مجبور للعمل هناك، فالمعمل هو في الظاهر، معمل للأسمدة الكيمياوية أحياناً، وفي الأحيان الأخرى ـ إذا استدعت الحال ـ هو معمل إنتاج الحبوب لحقول الدواجن في البلاد، ولكنه ـ الشاب ـ لا يشك لحظة بوظيفة المعمل الحقيقية، فهو يعرف علاقة المعمل بالمخازن، لأن المخازن هي التي بُنيت في الأول (لم يحمل الجنرالان الألمانيان روايته محمل الجد، فقد بدا لهما غريباً بسلوكه، حتى أنهما ظنّاه سكراناً، إن لم يظُنّاه في أعماقهما ربما في الأصل ضابط مخابرات يريد اختبار درجة كتمانهما للأسرار العسكرية!)؛ «إذن، المعمل هو في الحقيقة معمل كيمياوي تُجرىٰ فيه التجارب على الدواجن، وأسيَدْ لوتي جاء إلى هنا مع دواجنه، مع دِيَكة»، كانت تلك الخلاصة التي توصلت لها تلك اللحظة، ولكي أعرف سبباً واحداً مباشراً ـ على الأقل ـ جعل معالي تجلبني إلى هذا المكان، صحيح أن تعليلاً واحداً لمثل هذا الرحلة ليس مقنعاً مئة في المائة، لكنه يصلح أن يكون على الأقل مفتاحاً لتفكير طويل، تفكير بدأ بالفعل يستحوذ عليّ، وكنت استمريت معه ساعات طويلة، لو لم أسمع هذه المرة وبصوت عالٍ، وبيد تلدغني بقوة، وكأنها تريد إيقاظي:

ـ كم يوماً ستبقى؟

حينها، في تلك اللحظة فقط، وكأنني صحوت من غيبوبة عميقة، تطلعت بالرجل الذي يقف قبالتي، كان رجلاً قصيراً أحدباً، يجلس خلف طاولة تجمَعَ الغبار عليها، لم يكن فوقها غير قطعة خشبية متوسطة الحجم، وسخة هي الأخرى، خُط عليها بخط كوفي عريض: «إدارة الفندق». لم أظن أن الرجل الأحدب، الذي لبس دشداشة مخططة لم تكن نظيفة هي الأخرى، حالها حال العرقجينة التي غطت صلعته من الأمام، لم أظنه هو صاحب الفندق، إلا عندما قال لي بصوته الأخنّ، وهو يتهيأ لتسجيل الأسماء:

ـ عادة نطلب هويات وعقد زواج، لكن حضرتك تبدو شاباً متعلّماً وابن عائلة. يكفي تقول لي اسمك.

فقلت له إسمي، بصوت واهن، رجع صداه لي بطيئاً، وكأنه لم يكن صوتي. كنت شبه مخدر، ببقايا قصص «تل اللحم» (الذي حرصت على طرده تماماً من مُخي في تلك اللحظة)، وبنعاس الليلة الفائتة ما زال يستحوذ على كل قواي. كنت بلا قوى، بلا عزيمة، بلا قرار.

لا أدري إذا سمعته يسألني عن إسم معالي أم لا، لكنني رأيت يده تتحرك مثل

شبح أمامي، ربما هزَّها مطمئناً إيايَّ بعدم أهمية الأمر. كنت بقيت على شرودي ذلك النهار. لا أعرف كم كانت الساعة، عندما وقفت أمام الرجل الأحدب، صاحب الفندق؛ لم يهمني أمر الساعة أبداً، ففي ذهني تطنّ جملة معالي التي ختمت حديثنا ذلك الصباح:

- سأرجع أنام، ولن أستيقظ، إلا عندما تأتي وتقول لي تعالي، لنخرج فقد تحسن الوضع!

لم أُعلِق على جملتها تلك الساعة، إنما تطلعت بها محاولاً إخراج ابتسامة حاولت إخراجها عبثاً، لأن أكثر ما هجم عليَّ ساعتها هو الذهول؛ حتى أنني تساءلت مع نفسي، لماذا تلقي هي على عاتقي مسؤولية تحسن العالم؟ من تظنني؟ وأعتقد أنها لاحظت وجومي ونظراتي الشاردة، فقالت لي:

- لا تصنع وجهاً كهذا، لم يتهدم العالم، أخرج وابحث لنا عن منفذ؟

حينها سألتها عما تعنيه بكلمة «منفذ»؟

فأجابتني (دون أن تذكر لي ميزات «تل اللحم»، بل دون أن تقول لي، إننا في «تل اللحم»):

- هذه المناطق هي مراكز المهربين في البلاد..

فسألتها بصوت حزين شارد:

- ولكن هل أتينا إلى هنا من أجل هذا يا معالي؟

فضحكت لتشعل سيجارة تدخن منها نَفَسَيْنُ أو ثلاثة ولتطفؤها في راحة يدها. لم أشح بصري عنها كما كنت أفعل في السابق، ربما لتعوُّدي على حركتها تلك، أو ربما لعدم حاجتي لفعل ذلك، فقد كان ذهني شارداً، بعيداً عنها في كل الأحوال.

- ولكن بعد الذي حصل تغير كل شيء؟

في تلك اللحظة فكرت أن من الأفضل تركها تنام بالفعل. ربما قادتنا هي إلى هنا من أجل هذا الهدف ذاته، فلقد سمعت عن لجوء الكثير من الناس إلى هذه المناطق، عوائل بكامل أفرادها.

هكذا عندما وقفت أمام تلك المنضدة الوسخة لم أعرف كيف أجيب على سؤال صاحب الفندق «كم يوماً ستبقى»؟. كنت أحاول تجنب أي أمر يثير الشك عند أحد.

لذلك حاولت جمع كل قواي والرد على أسئلته بدقة. لكن مشكلتي أنني ما كان عندي خطة واضحة في تلك اللحظة، فلقد حملنا طريقنا بالصدفة إلى هذا المكان، أو هذا ما كنت أظنه حتى ذلك اليوم.

قد يكون الرجل لاحظ حَيْرتي. لبرهة رأيت حدبته تنهض من مكانها. من الصعب تفسير التصور الذي استحوذ عليّ تلك اللحظة؛ لم يكن الرجل هو الذي يتحرك، إنما حدبته. لم أرَ حدبة بمثل هذه الضخامة من قبل، حتى أنني رحت أعتقد أنها واحدة من هلوساتي التي لم تغادرني منذ أيام الحرب الأولى.

لبرهة رأيت يد الرجل تحاول الوصول إلى كتفي. كان بالقياس لي قصير القامة، ربما لا يتجاوز طوله المتر والخمسين سنتمتراً.

سألني:

ـ هل رأيت القطعة التي كُتب عليها اسم الفندق؟

لم أرها. كيف لي أن أشرح له، أنني حتى هذه اللحظة، لم أعرف أنني سأنتهي إلى هذا المكان، إلى «تل اللحم» بالذات، وأنني لم أكن مهيأ للمفاجأة، بل أنني نسيت تماماً، تلك اللحظة العابرة، التي سمعت فيها اسم المكان، يأتي سمعي واهناً، من راديو الترانزيستور، بعد رجوعي من الحرب، مثلما نسيت تماماً القصص التي سمعتها عنه، ربما لأنني مثل الكثيرين من الناس، عندما يسمعون باسم غريب، لا يعيرون له أي انتباه، معتقدين، أنه إسم غير مهم، اسم لمكان عابر، لن يلعب أي دور في حياتهم؟ كيف أشرح له، أنها معالي التي فاجأتني بالمجيء إلى هذا المكان، وكأنها تعرف الطريق إليه منذ سنوات، وليس كما كنت أعتقد حتى لحظة وقوفي أمامه، بأننا جئنا بالصدفة إليه عندما أصبحنا على مشارفه، أقصد أننا جئنا إلى فندقه (إذا كان فندقه بالفعل) ليلاً هاربين من مطاردة لا أعرف (حتى لحظة وقوفي تلك) أننا نجونا بالفعل منها أم لا، وأننا كنا نبحث لاهثين عن أقرب فندق، حتى أننا لم نكن معنيين بغير كلمة «فندق»، ولم يهمنا الإسم الذي يلحقها. ثم أي دور يلعبه اسم الفندق؟ كلا، لم يكن الأمر كما اعتقدت، بأن علينا أن نشكر المرأة العجوز التي فتحت لنا الباب، واختفت بسرعة، ولولا صوتها الذي جاءنا من عمق الممر، لما عرفنا، أين ننام ،«غرفة رقم ١٣، ستجدونها مفتوحة، وغداً، غداً، غداً تسجلون أسماءكم».

ربت الرجل على كتفي. كان يحاول جاهداً الوصول لي؛ رغم حرصه الغريب على تجنب احتكاك حدبته بجسمي، إلا أنني لم أكف لحظة من التفكير في غرابة حدبته.

ـ اسمه «فندق الحيارى».

قال لي بصوت لم يخلُ من المواساة، أو كأنه يعرفني منذ زمن طويل، أو كأنه لم يتحدث مع أحد منذ زمن طويل. لا أدري لماذا خطر في ذهني تلك اللحظة فيما إذا كنا نحن نزلاء الفندق الوحيدين، أم هناك آخرون. فأنا لم أسمع لا في الليلة الفائتة ولا لحظة حديثي معه صوتاً لأحد نزلاء الفندق.

ـ عادة يأتي إلى الفندق الزبائن الحيارىٰ...

قال لي بصوت خافت، وكأنه حكواتي يهيؤني لسماع قصة غريبة.

ـ الحيارىٰ... لا يهم رجالاً كانوا أم نساء.. حيارى من كل الأجناس والطوائف والمِلَلْ والأعمار.. حتى الأطفال.. ولكن لقول الحقيقة من النادر أن يأتي الأزواج إلى هنا. فأنتما على ما أظن ثالث زوج في تاريخ الفندق. ولا أعتقد أن لذلك علاقة بتقاليد الفندق، إسمح لي أن أقول لك...».

سكت قليلاً فقط، لم يتنحنح. لم ينظُر لي. بل لم يجد أي حرج في تكملة جملته:

ـ إسمح لي أن أقول لك، أن تقاليد الفندق تسمح للأزواج هنا في الإقامة ثلاث ليال لا أكثر. ولكن لماذا أقول لك ذلك، فقبلكما لم يصبر الأزواج على البقاء هنا، كانوا يبيتون غالباً ليلة، وعلى الأكثر ليلتين... لا أدري ما السبب؟ لماذا؟ من النادر أن يبقوا أكثر من ليلتين، رغم الضيافة ونظافة الفندق... طبعاً أتمنى من كل قلبي أن تبقى أنت وزوجتك الحيرانة ليال عديدة... سيكون لي شرف عظيم، ولكني قلت هذا الكلام لكل الأزواج الذين قدموا إلى هنا، ولكن في النتيجة هم الذين قرروا. ستفعل أنت نفس الشيء، رغم أني أتمنى من قلبي، ألا تغادرنا قبل الليلة الثالثة.

سكت للحظة، أبعد ذراعه عن كتفي، وسحبني من ذراعي هذه المرة، حتى وصلنا خزانة ضخمة، ذكرتني بتلك الخزانات التي رأيتها في الأفلام القديمة، أو بتلك التي تخيلتها عند قراءتي قصص الخرافة والخيال، أو تلك التي تخيلت حجمها بعد سماعي لقصص جدتي.

أخرج الرجل الأحدب مفتاحاً صغيراً أخفاه تحت ثنية ذراع دشداشته الوسخة وفتح باب الخزانة بحذر، ليخرج حزمة من الأوراق والصور، ووضعها فوق الطاولة المتسخة.

ـ انظر.

إقتربتُ منه، فرأيت سبع صور، صور كبيرة بالأسود والأبيض.

ـ هذه الصور لسلالتي.

قال لي وهو يعزل الصور عن الصور الباقية:

ـ أبي وأبوه وجده وأبو جده وجد جده وأبو جد جده وجد جده. الله يرحمهم توارثوا الفندق، وكانوا يصُرون على تسميته فندق الحيارىٰ.

يخرج وثيقة من بين أوراق عديدة:

ـ أنظر ختم الإمام على وثيقة ملكية الفندق الأولية!

كانت ورقة قديمة تالفة من الصعب قراءة أي شيء فيها، تذكرني قبل كل شيء بتلك العُوَذ التي يعملها المنجِّمون.

ـ أما الصور الباقية.

يقول لي ذلك وهو يُخْرِج صوراً تعد بالمئات (هي الأخرى بالأسود والأبيض).

ـ هي لزبائن الفندق الحيارىٰ في كل العصور.

كانت هي الأخرى صوراً قديمة، من الصعب التعرف على ملامح هيئات الأشخاص فيها. بغض النظر ولقول الحقيقة لم يهمني أمر تلك الصور؛ لكن الرجل لم يدعني أسرح في التفكير طويلاً أو في اتخاذ قرار ما، فأردف مباشرة:

ـ هل تعرف من هو أول زبون حائر جاء إلى الفندق؟

لم أجب.

ـ مسلم بن عقيل.

صمت الرجل قليلاً، ثم أكمل:

ـ هنا نام بانتظار الحسين حائراً، بعد تورطه بدعوته للقدوم إلى أرض السواد. وهنا ناما الحسين والعباس قبل أن يُقْتَلا، وهما يتفاوضان مع ابن عمهما مسلم، على توزيع مناصب الحكومة التي سيؤسسانها. وهنا نام أيضاً الحسن مع عشرة من نسائه.

حزم الرجل الصور ليضعها في الخزانة من جديد. أغلق باب الخزانة بإحكام، وتأكد من إغلاق الباب مرتين أو ثلاث، وكأنه يخاف أن أسرق محتوياتها. أرجع المفتاح إلى مكانه، لا أدري فيما إذا ثبته بدبوس أم خَيّطه هناك، ثم اقترب مني، ليحاول من جديد وضع ذراعه فوق كتفي، ويقودني للتحول في صالة «إدارة الفندق» التي لم تزد مساحتها ربما عن العشرة أمتار. هذه المرة بدا صوته أكثر ثقة.

ـ أنت لم تقرأ القطعة التي عُلِقَت عند باب الفندق. أعرف ذلك، ولكن ثق لست

أنت فقط. كل الذين جاؤوا قبلك فعلوا الشيء ذاته. الحيران لا تُدِلّه عيونه على الطريق إنما قلبه. إن الذي دلَّك هو قلبك، اسمع دقاته من مكاني. لا تعرف عدد الحيارىٰ الذين مرّوا من هنا. هذا المكان هو قدر الحيارىٰ. هكذا كان الأمر منذ آلاف السنين، كما حدّثني أبي، دائماً كانت تمر من هنا قوافل الحيارىٰ. ولكن لا تعرف يا صديقي كم ازداد عددهم في الأعوام الأخيرة. يعجبني أحياناً عقد مقارنة مع السجلات القديمة، لا أجد مقارنة أبداً. ومن أجل أن أعطيك مثلاً وحيداً فقط، لم أجد بين الحيارىٰ في سالف الأزمان أطفالاً. ولكن ماذا أعني بسالف الأزمان! لا تغشك العبارة ولا تأخذها بحذافيرها، فأنا الآخر أقف حائراً بعض الأحيان أمام بعض التعابير. أردت أن أقول: حتى سنوات قريبة لم يزرْ الفندق أطفال حيارىٰ.

سكت لحظة وكأنه كان يتردد في تكملة ما يريد أن يرويه. لبرهة فتح فمه:

ـ بالرغم من أن ما عليَّ الحديث عن أسرار الآخرين، لكني سأستثني هذه المرة قصة الصبيَّين اللّذين كانا حتى البارحة هنا.. محمود وعلي.. صبيان أكبرهما محمود عمره تسعة عشر عاماً وعلي عمره ثمانية عشر عاماً. لا تعرف بأي حال وصل الصبيان هنا. ولا كيف كانا يضربان على جرس الباب. لقد استيقظت بذعر على ضرباتهما العنيفة للجرس، واستيقظ كل سكان الفندق، فأنت تعرف أن الفندق مزدحم في كل الأوقات، عدد الحيارىٰ في ازدياد. ولكن لنعود للقصة. نزلت إلى تحت. كانت الساعة ربما تقارب الثانية أو الثالثة صباحاً، عندما رأيت الصبيَّين بملابس ممزقة. كان وجهاهما متعبين. عرفت أنهما حيرانان يبحثان عن مأوى. فقلت لهما «أنكما في المكان الصحيح». أصعدتهما إلى فوق. قلت لهما ليستريحا قليلاً ويجلسان، فجلسا وكأنهما لم يجلسا منذ سنين، ولم أسمع من فيهما سوى جملة «نريد نتام عمي».

لم أفهم إلحاحهما على النوم لو لم أرَ قدميهما...

سكت الرجل وسألني بفضول:

ـ هل مشيت في حياتك مسافات طويلة على القدمين؟

ضحكت في داخلي أولاً بسبب تسميته للشابين بصبيين رغم أن سنهما أكبر مما يعنيه، وثانياً لإلحاقه كلمة «على القدمين» فإن المشي هو بالتأكيد ليس على الرأس إنما في كل الأحوال على القدمين، لذا تذكرت قصة قرأتها لأحد الكتاب المحليين تبدأ بجملة «سار على قدميه»، فما كان مني إلا أن أرمي الكتاب. لم ينتظر الرجل جوابي، فأضاف:

ـ كانت أقدامهما مشققة لأنهما قطعا مسافات طويلة، أياماً وليالٍ. كان للصبيَّين

قصة، حكياها لي رغم تعبهما قبل أن يناما. كان الصبيان من سكنة الزبير. وعندما اندلعت الحرب الأولى، كانا ما زالا يانعين. لكن أمهما الذكية عندما شعرت بامتداد الحرب، فكرت بإرسالهما إلى عمتهما «حصة» التي تزوجت في السعودية. كانت الأم شيعية من البصرة متزوجة من سني أصله من نجد. هكذا هرَّبَتْهُما إلى السعودية. وبالضبط إلى الحجاز. وعندما أوصل المهربون الصبيين إلى عمتهما، اكتشف محمود وعلي، أن عمتهما لم تكن متزوجة كما تفعل باقي الإناث، إنما كانت تدير مع زوجها بيتاً سرياً ـ أو علنياً ـ للدعارة، وفي تلك الأيام جاءها الصبيان هدية من السماء. قالت لهما العمة بوقاحة وبأعصاب باردة بأن عليهما البقاء في البيت وعدم مغادرته أبداً، لأنهما إذا فعلا ذلك فستشي بهما. سألتهما ما الذي يريدانه أكثر من الحصول على عمل في هذه البلاد؟ وأي عمل كانا يعتقدان أن يجداه في السعودية وهما جنديان هاربان؟ قالت لهما بأن عليهما خدمة الزبائن في البيت، والقيام بكل ما يتعلق بذلك من أعمال، من تقديم ورق الكلينكس إلى تنظيف الشراشف. هكذا عاش الصبيان الهاربان من جحيم الحرب إلى سجن عمتهما. وعند سماعهما باحتلال الكويت وقدوم جيش التحالف، فكّرا بأنها الفرصة المناسبة للهرب. وهكذا هربا فعلاً باتجاه الصحراء ليسيرا أياماً وليالٍ حتى وصلا هنا.

سكت الرجل، ثم أضاف:

ـ لكنهما لا يجرؤان على زيارة عائلتهما لأنهما لا يريدان الالتحاق بالجيش، أمس غادرا الفندق بحثاً عن منفذ!

هو الآخر يستخدم كلمة «منفذ»، ولكن لماذا يحدثني بتلك القصة، هل هناك في ملامحي أو في تصرفي أو في سلوكي ما يثير الشك؟. وكأن الرجل يعرف ما يدور في ذهني، قال لي:

ـ هناك تحت الفندق مباشرة يقع مقهى «الأمل»، حاول أن تذهب هناك، ربما ستجد الصبيّين، وربما ستجد المنفذ!

ثم أضاف:

ـ من يدري، أنت حيران، وهي أيام الحيارىٰ.

ـ ٤٤ ـ

نزلتُ السلالم، وفي ذهني ما زالت تطّن جمل الرجل الأحدب صاحب الفندق

«أيام الحيارىٰ»: كيف نسيت «تل اللحم»، وإذا قلت لنفسي، بأن ذلك المكان لا يعنيني، فلماذا لم يخطر على بالي مثلاً، أنني أحمل حَيْرتي معي منذ زمن طويل؟ صحيح أنني كنت مهموماً ومكتفياً بالتفرج على استعراض العالم فقط، ولكن لماذا لم أمنح نفسي ولو دقيقة للتفكير بما جرى لي، لوجيهة، لمعالي، لإفْطَيِّم بِّيْ دَي، لصاعد النخل أسيَدْ لوتي؟ هل أخفىٰ كل واحد منا حيرته عن الآخر؟ وحتى عندما حدثتني معالي بكل القصص التي حتى ساعة لقائي بها، لم أكن على اطلاع بها، رغم أنها كانت تجري بالقرب مني، بدوت وكأنني ما زلت ذلك الرجل الحيادي الذي يبحث عن مكان يمكنه منه للتفرج على استعراض العالم. بل وفي هذا الصباح عندما غادرت الغرفة ووقفت أمام الرجل الأحدب، لم يخطر على ذهني أنني أقف في طابور «الحيارى» الذي تحدث عنه الرجل، وكيف استطاع هو التكهن بذلك دون سماع قصة واحدة مني، أو دون معرفة منه ولو بسيطة لما جرى لمعالي ولي، على الأقل ما جرى في الليلة الأخيرة قبل وصولنا، تل اللحم، بل قبل وصولنا الفندق: «فندق الحيارىٰ».

بدا لي الأمر غريباً، وليس هناك تفسيراً له، إما أن الرجل له فراسة متميزة في قراءة الوجوه، ومن خلال نظرة واحدة لقسمات الوجه يستطيع معرفة كل شيء أو أن هناك في سلوكي ما يكشف بأني أخفي جناية ورائي، جنحة كبيرة. ولكن إذا ما قلبت الأمر جيداً في رأسي وأنا أصل دَرَجَتي السلم الأخيرتين، فإنني حسب ظني، لم أسلك ما يفضح أمراً حدث، كان سلوكي طبيعياً جداً. إذن ليس هناك سوى تفسير واحد: كان الرجل يتنصت إلى حديثنا ـ معالي وأنا ـ في الليلة الفائتة ـ وعن طريق حديثه معي أراد الإيحاء بأنه يعرف ماذا حصل لنا، وإلا ما الذي حمله على ذكر قصة الصبيَّين وما جرى لهما مع عمتهما حصّة ـ غريب أن يبقى إسم حصّة في ذهني، وليس اسم الصبيَّين، هي الأخرى إفْطَيِّم بِّيْ دَي السعودية! ـ. نعم ليس هناك تفسيراً آخراً لذكر تلك القصة؛ ملايين «الحيارىٰ» مرّوا به، لماذا حدثني بتلك القصة فقط، هل سمعنا نتحدث في الليلة الماضية عن إفْطَيِّم بِّيْ دَي؟ ولكن لقول الحقيقة، ما الذي تحدثنا به في الأمس عن هذه المرأة التي كنت أعتقد أنني نسيتها وأنها اختفت من حياتي تماماً ولكنها قفزت إلى ذهني مرة أخرى، بالضبط في تلك اللحظة التي غادرت فيها قدمي اليمنى درجة السلم الأخيرة، لأصبح عند الشارع مباشرة، حيث ما كان عليّ إلا أن أستدير يساراً قليلاً، لأكون في مقهى «الأمل» الذي وصفه لي الرجل الأحدب؛ لكني بدل ذلك عدلت لأسير في خط مستقيم، وأصبح بسرعة عجيبة عند الجهة المواجهة للمقهى، حتى أنني لم أكتفِ بذلك، إنما فعلت كل شيء لكي لا أعاين واجهة المقهى أو عمقها، بل استحوذ عليَّ قرار واحد فقط، السير إلى الأمام، ولا يهم إلى أين، وفي ذهني هاجس

واحد: تذكر ما دار بيني وبين معالي في الليلة الفائتة.

غريبة هي الذاكرة. في مرات عديدة نعتقد أننا نسينا أموراً كثيرة، ولكن هكذا فجأة وبضربة عصا موسى، نكتشف، أن ذلك مجرد هراء، إن النسيان هو وجه العملة الآخر. النسيان هو الذاكرة بالمقلوب؛ النسيان هو سلاح «الحيارىٰ» في الدفاع عن أنفسهم! وفي تلك اللحظة التي قطعت فيها الشارع للمرة الأولى، عرفت أكثر من أي وقت مضى: أنني أحد الحيارىٰ، وأنني مهما تجرأت وتسلحت بالنسيان، فلا أمل لي، لأن الذاكرة هي مثل شلال دائم عندي، لن يستطيع أحد ردمه والحد من تدفقه، منذ أن قدت السيارة مع معالي، وأن كل محاولة مني بالنسيان هي عبث لا غير. وإلا لماذا اعتقدت أنني نسيت قصة «تل اللحم»، بل لماذا اعتقدت أنني نسيت ما حدثتني به معالي في الليلة الفائتة. حتى عندما وقفت أمام النافذة متخيلاً نفسي مع سيجارة وهمية، متطلعاً بها وهي تنام مثل ملاك، لم أشأ تذكر ما قالته لي، قبل أن تنام وتأتي على آخر قطرة في زجاجة الويسكي التي أخذتها من ذراعها بصعوبة لأنها احتضنتها وطوقتها مثل طفل صغير؛ ربما لم أشأ تصديق ما قالته؟ أو ربما حاولت إقناع نفسي أنها سكرانة لا غير، أو أنها كانت واقعة تحت سيطرة الفعل الذي قامت به - إطلاقها النار على حراس نقطة التفتيش وقتلها لاثنين أو ثلاثة منهم! -؟ لكن لماذا الآن وأنا أرجع إلى الطريق ذاته الذي سرت فيه من قبل، لأقطعه مرة ثانية، أتذكر ما قالته جملة بعد جملة.

كم تمنيت سيجارة أخرى الآن. قلت لأفعل مثلما فعلت الليلة الفائتة. ولكنني أتذكر أيضاً أنني في تلك اللحظة التي وقفت فيها عند النافذة، رددت جملاً تشبه الشعر، أنا الذي لم أكن شاعراً ذات يوم، والذي كان يحسد الشعراء على مخيلتهم. هل قرأت تلك المقاطع في مكان آخر، أم أنا من ردّدها وهو يقف ومن أمامه الليل ووراءه امرأة تصرُّ على إشعال الفتيل؟ هل هو الشك بقدرتي على قول وكتابة الشعر هو ما جعلني ألجأ للنسيان أيضاً؟ هل الشعر هو ملجأ الحيارىٰ؟ هل الشعر هو طريق الحيارىٰ أو خطوتهم الأولى في التفتيش عن طريق؟ أتذكر كل ما ردَّدتُه في جنبات عقلي، وردَّده الليل، النجوم، المساء الظلمة.. نعم كنت أشعر في تلك الساعة بأن كل مسامة من جسد الليل، من جسد العالم، من جسد الفضاء؛ كل مسامة ما حية تردد معي صدى تلك الجمل التي تملكتني، وأنا أتأمل معالي، وكأنني أكتشفها للمرة الأولى، كأنني للمرة الأولى أكتشف أنني في حضرة امرأة ليست مثل باقي النساء، امرأة أحاول للمرة الأولى التعرف عليها؛ بل شعرت وأنني أردد تلك الجمل قريباً منها رغم المسافة التي تفصلني عنها ورغم النوم الذي يحملها بعيداً عني، كلا كنت على يقين حينها - نعم الآن أعرف ذلك أكثر من أي وقت مضى - أنني كنت أكثر وجداً مما كنت عليه حين كانت تجلس إلى

جانبي في السيارة؛ ومع كل جملة ردَّدتْها شفتاي همساً، كنت أشعر بها تدخل مسامات جلدي:

«الرسام يخلط ألوانه،
أخضر، أصفر، أزرق.
الموسيقيّ يجوع
يعزف بفوضى.
الروائي يضيّع هدفه.
يهذي مثلما الشعراء.
النورس وحده
من يعرف سر الطيران.
ويعرف هدفه لينزل،
آخذاً ضحيته،
سمكة مليئة بسم القنابل.
ماذا بقي للملاك كي يهبط؟
كانت هي أجمل عاهرة في المدينة
ملاكاً
حاول الهبوط إلى الأرض فهلك..»

هل قلت أنا ذلك بالفعل؟ هل كانت معالي عاهرة؟ الآن أتذكر وأنا أقف بمواجهة المقهى «مقهى الأمل» مرة أخرى، بأني جئت بالتأكيد على كلمة «عاهرة»، عندما حدثتني وقبل أن تنام بما خبَّأَته عني طوال الرحلة، وهي التي لفظت كلمة «عاهرة»، أكثر من مرة، سواء في وصفها لوجيهة أو في وصفها لإفْطَيِّم بِّيْ دَي. ولكن لماذا تهمني الكلمة الآن، أنا لم أستخدمها ضمن سياق القصيدة بمعنىً سيء، وأن ما يهمني هو تجنب المقهى والذهاب إما إلى الأمام - يميناً من المقهى حيث عُلِّقَت لوحة صغيرة تقول: «إلى المقبرة» - أو الرجوع إلى الطريق ذاته لأقطعه مرة ثالثة؟ لا أدري لماذا كنت أتجنب السير باتجاه المقبرة؟ ربما لكي لا أشغل نفسي بتساؤلات جديدة، فضلت الرجوع بسرعة إلى الطريق

ذاتها ـ لعلي أكتشف لاحقاً أن لي أسبابي! ـ لأن كل ما كان يهمني في تلك اللحظة هو تذكر ما قالته لي معالي في الليلة الفائتة، جملة تلو الجملة.

وعلى طول الطريق الذي لم يتجاوز المائتين وتسعاً وأربعين خطوة عرفت أن ما قالته لي لم يخلُ من الصحة أبداً، ولا يهم سواء عرفته قبل تلك الليلة أو بعدها، أقصد أنه لا يغير من أمر رحلتي معها، وثانياً لن يغير من مغادرتي القرنة. صحيح أنني منحتها الانطباع بأنني صدقت ما قالته لي، ذلك أن وجيهة لم تمت، وأنها هربت مع زوجها، أسيَدْ لوتي، إلا أنني الآن أعرف أكثر من أي وقت مضى، بأنني لم آت للبحث عن وجيهة، وأن القضية أصبحت بالنسبة لي سيّان، فلم يعد يهمني إن كانت وجيهة حية أم لا، كما حصل لي عندما رجعت من الحرب ـ أية حرب ـ للقرنة، وعرفت في الليلة الأولى أنها لم تعد تعيش، وأنها ماتت موتاً طبيعياً أم ماتت مقتولة، كلا لم تعد عندي تلك الرغبة، رغبتي أن أقول لها، بأنها هي المرأة التي أريد، وأنني أحبها، وأنني رجلها الموعود، ونحن الإثنان قدر بعضنا، أحدنا يكمل الآخر، كلا لم يعد عندي الحماس ذاته الذي كان عندي من قبل، وأقول لنفسي بتأنيب، كيف فاتني ألا أقول كل هذه السنوات ما جمعته لها في داخلي من مشاريع وأحاسيس، والآن أعرف أيضاً، أنني بالتأكيد جئت مع معالي لأنني كنت تعباً من الحرب والعسكرية ومرهقاً من القرنة ومن قصص أخرى، وأن تلك الحقيقة لا تغير من كون: أن وجيهة لم تكن في البيت! ربما كنت في دخيلة نفسي بحاجة إلى تغيير ما، وأبحث عن مجرد عذر، وأن معالي وليس غيرها من منحني ذلك العذر، بل أنني متأكد تماماً، بأنني لم يهمني في تلك اللحظة أية امرأة تطلب مني الرحيل معها، وقتذاك تلك اللحظة لم أعد نفسي في عداد «الحيارى»، إنما كنت أعتقد أنني رجل حكيم «يكتفي بالتفرج على استعراض العالم»، والذي لم يجد غضاضة في تلبية دعوة امرأة ـ كانت جارته لسنوات طويلة على الأقل، وإن لم يلتق بها من قبل! ـ بالرحيل بعيداً، وهي التي قادته إلى هذا المكان بالتالي، مثلما قادت يداه مقود السيارة، وأن حياتهما مثل السيارة، تسير بالاتجاه الذي يُراد لها أن تسير إليه، وربما تكون حياته قد اتخذت مساراً آخر، لو لم يجلس عند مقود السيارة ويسمح ليديه بالحركة. نعم حتى الليلة الفائتة لم يكن ذلك الرجل مغفل أو أحمق أو «حقير أو قاتل» (كما تصف معالي الرجال في كل البلاد بتلك النعوت!) كلا لم يظن ذلك بنفسه ولو حتى لمرة واحدة؛ بالطبع كانت عنده هواجسه وظنونه، لكنها لم تصل إلى هذا الحد. حتى ذلك اليوم، بل حتى تلك اللحظة التي جلست فيها معالي إلى جانبه في السيارة ـ إلى جانبي! ـ بدت لي (ولقول الحقيقة لا أكثر ولا أقل) غريبة، ليس في القصص التي جرت لها، وليس في سلوكها كله، إنما ـ ربما لهذا السبب بالذات لا غير ـ لأني لم أعرف امرأة قبلها على

هذه الشاكلة. أمر مضحك أن أقول ذلك، الآن فقط أعرف حقيقة كانت غائبة عني لسنوات طويلة. وهي: أني لم أعرف امرأة أخرى غير أمي ووجيهة (وقبلها إلى حد ما فاتن، رغم أن علاقتنا لم تستمر أكثر من أسبوع!). وإذا شئت قول الحقيقة والنبش في داخلي أكثر، أتساءل: هل كنت حقاً أعرف هاتين الامرأتين؟ وإذا ما تركت أمي خارج اللعبة، هل كنت حقاً متأكداً من معرفتي لوجيهة؟ بل هل كانت معرفتي لها تعنيني؟ وإلا كيف فاجأتني معالي بمعلومات شكّكت في صحتها حتى عندما قالتها هي لي؟ هل لذلك علاقة بتلك الجملة التي حاولت صياغة حياتي على خطاها، أقصد جملة الشاعر البرتغالي التي قالها على لسان إحدى شخصيات دواخله الممزقة، تلك الجملة التي قالتها وجيهة في تلك الظهيرة المشمسة بعد مطر خفيف ـ يا لجمال تلك الظهيرة ـ: «حكيم من يكتفي بالتفرج على استعراض العالم».

لكن بالأمس فقط لم أطرد تلك الجملة فقط من ذهني، وأُصِرُّ على محوها تماماً من قاموسي، إنما تيقنت أكثر من أي وقتٍ مضى بضرورة تغيير الكثير من قناعاتي، التي جعلتني أعيد التفكير بهذه المرأة التي كنت أعتقد أنها قادتنا إلى هذا الطريق لعبث منها لا أكثر، لطيش منها فقط، وليس لأنها امرأة «كانت محاطة بالغائط»، وأنها «مجروحة من رهط من الذكور التافهين، من الذكور المناويك» ـ على حد تعبيرها هي ـ، وهي لم تأتِ بي إلى هذه الأراضي القريبة من النجف وكربلاء والكوفة والحمزة والخضر، القريبة من كل تلك الأراضي التي يطلقون عليها «المقدسة» حباً بالحسين أو بأبيه علي أو بأخيه العباس، إنهم في النهاية يبقون ذكوراً مثل باقي الذكور، لا أكثر ولا أقل، إنما جاءت بي إلى هنا للبحث عن وجيهة فقط، وليس عن زوجها أسيَدْ لوتي، الذي لم يَعُد له وجود في حياتها، إنه الآخر مات، ولكن مقتولاً، ووجيهة هي التي وشت به وبقصة الأسلحة الكيمياوية المخبأة في بيوت سمكات «الجصّانية» وأن وجيهة الآن «عاهرة»، من عاهرات إفْطَيْم يِّيْ دَي، وأنها هنا في مكان قريب، من «تل اللحم» في كربلاء أو الكوفة أو النجف في واحد من مباغي إفْطَيْم يِّيْ دَي المشهورة، حيث تمارس الدعارة فيه تحت إسم «زواج المتعة»، ولا يهمك أن يطلقوا على هذه المدن بالمقدسة، فإذا شئت السؤال عن هذا المبغى، ليس عليك غير قطع هذا الطريق القصير الذي يبدأ عند هامش المراقد، على حواف صحون الأئمة، ولا يهم أي قديس أو إمام يكون، لا تتصور أنك ستجد بيوت دعارة تقليدية من قحبات وقوادين، كلا ستجد في واحد من تلك الإيوانات المبنية على ما يشبه البيت في داخل جامع، أو في داخل أحد صحون الأئمة، نساءً يجلسن محجبات، نساءً نظيفات يصلين ويتلون من آياته، وعند مدخل الإيوانات سترى شيوخاً معمّمين يجلسون مسبِّحين وشفاههم لا تكف عن ترديد آيات الذكر الحكيم؛ إسأل أي

واحد منهم وقل له إنك غريب قادم من بعيد وتريد أن تتزوج «زواج المتعة»، سيباركك ويطلب منك مهراً معيناً سيضعه في جيبه طبعاً، يختلف المهر باختلاف عمر العروس، وباختلاف عمر ورغبات طالب المتعة؛ لا تستغرب إذا قلت لك إنهم يحللون الزواج بإتيان المرأة من الدبر، وفي هذه الحالة تعقد أغلى المهور؛ لا تنس أن الرجال يفضلون هذا الزواج أولاً لولعهم به في هذه البلاد وثانياً أنه يجنبهم مضاعفات الحمل، رغم تطمينات شيوخ الإيوانات بأن النساء هناك يأخذن احتياطاتهن في تجنب الحمل، إلا أن الكثير من حالات الحمل حدثت، والشيوخ هناك لا يعقدون المهور إلا بعد التأكد من عنوان «العريس». هل تعرف أن كل تلك الإيوانات التي تنتشر في صحون مختلفة ـ حتى في مراقد وصحون الأئمة والقديسين في بغداد، من غير المهم إلى أية طائفة أو مذهب ينتمون، فبالفرج يتوحدون، وليس بعبادتهم لله ـ تديرها إِفْطَيْم يِّيْ دَي وتدفع منها نسبة كبيرة إلى الدولة؟ هل تعرف ماذا يسميها الرجال؟ «فراديس النكاح».

ـ في واحد من تلك الفراديس تقيم وجيهة الآن.

كانت تلك جملتها الأخيرة التي لفظتها قبل أن تسلم معالي نفسها إلى «فردوس» النوم، وزجاجة الجوني ووكر في حضنها، تستقر مثل طفل وديع، حتى إني لم أجد الوقت الكافي لسؤالها ما الذي حمل وجيهة على الذهاب إلى هناك؟ فهي كما أعرف لم تكن في عوز، ولا يمكن أن تكون أصبحت قحبة بسبب تلك الرغبة التي امتلكتها عندما كانت طفلة، والتي لم تتذكرها إلا مرة واحدة، عندما باحت لي بها في واحدة من تلك الليالي الاستثنائية في حياتنا الزوجية، وفي النهاية هي ليست مثل معالي التي باحت لي في واحدة من تلك اللحظات التي كانت قد عبأت في جوفها ما يقارب أكثر من نصف زجاجة الويسكي.

ـ منذ الطفولة وعندي رغبة لم تتوقف يوماً، هو أن أصير قحبة، أفترس الرجال.

ثم تصاحب جملتها بحركة تشبه حركة قطة متوحشة، ولكن بيد واحدة، تفتح كفها وتوتر أصابعها، وتكشر عن أسنانها:

ـ هكذا، مياو، كخ مثل القطة أنشب مخالبي بمؤخراتهم أولاد القحبة واحداً واحداً.

في تلك اللحظة لم أجد لي ملاذاً غير الضحك، رغم أنني خفت من حركتها بالفعل، ليس لجنونها الذي لم أشك به لحظة واحدة، إنما لأنني كنت على يقين من أنها سكرانة وأنها كانت بالفعل مستعدة لفعل، أي شيء أياً كان.

ـ لو كانت عندي ذات يوم سلطة في هذه البلاد الحقيرة لحرقتكم كلكم أيها الحقراء.

وعندما رأتني أضحك، قالت:

- هل تعرف أنني لست ضد هذا الأبّ الذي يطلق على نفسه القائد الضرورة.

لفَظَت الاسم الأخير بسخرية (وأنا أعرف أن الأبّ الذي هو في الأصل إسطوانة المجاري الرئيسية، هو أحد الأسماء التي تطلق على الحاكم)، ثم لتكمل:

- لأنه زعيم مخصيّ هذه البلاد التي جعلها مذكرة بالقوة، من سينهي عن طريق حروبه على كل الذكور شركائه بالعِنّة، هو يكره الرجال على طريقته، مثل عاقر تكره الحوامل.

لفظت تلك الجملة وهي تصّك بأسنانها على عنق زجاجة الويسكي. كانت تلك اللحظة التي حاولت فيها إحدى دوريات نقاط التفتيش إيقافنا. أو هذا ما تهيأ لي في تلك اللحظة، كان كل شيء معتماً أمامي، وكان بخار أنفاس معالي، وأنفاسي قد ضبب زجاج السيارة من الداخل، جاعلاً الرؤية صعبة عليّ. لم أكن متأكداً من شيء وحتى عندما صرخت هي:

- لا تقف لهم، لا تخاف من رشاشاتهم.

لم أصدقها، ليس لعدم رغبتي بتصديقها، إنما لأنني بالفعل لم أر شيئاً وسط عتمة الليل، ولأنني كنت أعتقد أن ما تقوله هلوسة من هلوسات سكرانة. كنت استمريت على اعتقادي ذلك، لولا رؤيتي لها تنحني بجذعها إلى أسفل المقعد، ويدها تبحث عن شيء ما؛ اعتقدت أنها تبحث عن قطعة من الكلينكس أو عن حذائها، ولم أعرف أنها كانت تبحث عن مسدسٍ خبأته في حقيبتها التي وضعتها قرب قدميها، عند الجهة اليمنى، حيث رمت القناني الصغيرة، بعد تفريغها من الويسكي. كان مسدساً من عيار ٣٨ الطويل الفوهة.

- إذا تقدموا سأقتلهم بهذا المسدس.

ربما كان عليّ الضغط على دواسة البنزين في تلك اللحظة، لكني بدل ذلك رحت أبطىء السرعة. كانت لحظة خاطفة تلك التي أنزلت فيها زجاج نافذة السيارة، عندما طَلَّت علينا ثلاثة رؤوس في الوقت ذاته، لتقول بتوافق كورس موسيقي واحد، وهي تتحدث معي متطلعة بمعالي:

- تحمل أشياء خطرة، غير القحبة اللي معك؟

كانت لحظة خاطفة، ربما لم يكمل الرجال الثلاثة (هل كانوا ثلاثة حقاً؟) جملتهم،

حتى سمعت ثلاث طلقات وصراخ الرجال وعياط معالي:

ـ أسرع.. دوس.. دوس أرجوك... دوس.

حينها رحت أضغط على كابح البنزين، فيما لم تتوقف معالي عن إطلاق النار من خلال النافذة ولكن لا أعرف ضد من، لأني لم أرَ سيارة تلاحقنا؛ كنا وحدنا على الطريق السريع. لا أعرف عدد الطلقات التي أطلقتها، لكني رأيتها فجأة تتوقف عن إطلاق النار، تغلق النافذة، وتنزلق في مقعدها، لتنخرط في بكاء حاد.

كنت بلا حيلة، لا أعرف ماذا أفعل، رغم أني ولقول الحقيقة لم أملك في تلك اللحظة شعور «الحيران» الذي تحدث عنه الرجل الأحدب، وإذا ما قلبت الأمر الآن، كانت معالي هي التي يمكن عدها مع طوابير «الحيارىٰ» الذين تحدث عنهم صاحب الفندق بصوته الأخنّ، وإلا لماذا بكت في تلك اللحظة؟ حتى أن بكاءها استمر لوقت غير قصير، وعندما توقفت مسحت مخاطها ودموعها، لتقول لي:

ـ الآن آني مرتاحة، أول رجال اقتلهم، ذنبهم.. كان عليهم الموت في الحرب، وما ينتظرون مجيئي.

لم ترجع المسدس إلى مكانه في الحقيبة، تحت مقعد السيارة، إنما خبأته تحت تنورتها (لا أعرف فيما إذا كانت تشد حزاماً تحت).

ـ أبقيت في المسدس طلقة واحدة... هل تعرف لماذا؟

لم تنتظر مني جواباً، ربما لمعرفتها بعدم معرفتي للجواب، بالإضافة إلى عدم اهتمامي بالأمر أصلاً.

ـ الطلقة أحتفظ بها لأحقر رجل في العالم... لا تخاف سألتقي بأحقر رجل في العالم.

في تلك اللحظة لا أعرف لماذا تطلعت بها متسائلاً، ربما لخوفي من كونها تعنيني أنا. أمر مضحك. ربما لاحظت هي خوفي أو عدم حيلتي، فضحكت ضحكة أراحتني وجعلتني أنسى في تلك اللحظة أنها قتلت ثلاثة رجال أو اثنين أو واحد.

ـ من ينظر إلى وجهك يعتقد أنها نهاية العالم.

لم أفهم.

ـ لا تخاف، أنت رجل طيب، الطلقة ليست لك... هل تعتقد بالفعل أنني أعنيك؟

ضحكت، وشعرت بيدها، يد معالي تمتد للمرة الأولى طوال الرحلة، لتمسد يدي؛ تمسد تلك الشعرات القليلة التي نَمَت فوق ساعدي.

ـ أنت أملس ورقيق مثل امرأة.

كان بودي أن أقول لها، كم هو جميل ما تفعله وبأن وجيهة لم تفعل ذلك معي ولا مرة واحدة.

ولكنها للأسف عندما انتهت من جملتها التي قالتها لي أسلمت نفسها إلى النوم وهي تغطس ببطء في مقعد السيارة، بينما راحت تحتضن زجاجة الويسكي المستقرة في حضنها، التي كان قد بقي فيها بعض الويسكي، في المرة الأولى بيدها اليمنى فقط، وفي المرة الثانية بيديها الإثنتين، بعد أن سحبت يدها اليسرى التي داعبت شعرات ساعدي. لماذا لم أطلب منها أمس مداعبة شعرات ساعدي مرة أخرى، لأقول لها تلك الجملة التي كان بودي البوح بها في السيارة: «أنني بدأت أحبك يا معالي»؟.

هل لأني لم أشعر ذات يوم بالانتماء إلى طابور «الحيارى»؟ أم لأني واحد من أولئك الرجال الواثقين من كل شيء أو الذين يعتقدون أنهم واثقون من كل شيء، ولكن إذا ما حانت ساعة الحسم، يشعرون أنهم خاليي الوفاض، يقفون أمام أنفسهم عراة، أمام العالم، أمام كل شيء، لا يعرفون ما الذي عليهم عمله، يخشون كل قرار؟ ألم تكن تلك هي حالي عندما وقفت للمرة الرابعة بمواجهة المقهى، بعد أن قطعت الطريق أربع مرات، ووقفت أربع مرات عند الجهة الأخرى من الشارع، أو عندما تجنبت السير باتجاه السهم الذي يُشير للـ «مقبرة» ـ ربما هذا هو الأمر الوحيد الذي أعرف الآن لماذا لم أقم به للمرة الرابعة ـ؟!، أو عندما ترددت في التوجه إلى المقهى «مقهى الأمل» للمرة الرابعة؟! ولكن فقط في تلك المرة ـ المرة الرابعة ـ سمعت صوتاً يأتيني من مكان ما ويصيح بي:

ـ يا أستاذ، المقهى أمامك.

لبرهة تطلعت حولي، قبل أن أكتشف مكان الصوت. رفعت رأسي إلى الأعلى، فرأيت بمواجهتي، فوق المقهى تماماً نافذة مفتوحة، ومقدمة جسم بشر تطل منها. بالأحرى لم تكن مقدمة الجسم هي التي رأيتها في المرة الأولى، إنما حدبة ضخمة. ضحكت وتوجهت هذه المرة، أسير ببطء نحو المقهى.

ـ ٤٥ ـ

قبل أن أدخل المقهى تذكرت نفوري من زيارة المقاهي. على العكس من الكثير من الرجال، لم أجد أية متعة بالجلوس في المقهى، أي مقهى ولو لساعات قليلة. ربما جاء نفوري لهاجس قديم صاحبني منذ الطفولة، نسيته لزمن طويل، قبل أن تعيده لي زيارتي لمقهى الأمل.

كنت أكره المقاهي مذ كنت صغيراً وامتنع عن المجيء إليها مع أبي، وكنت برغم حس الطفل أعتقد أن عالم المقهى يكتظ بناس غامضين؛ ربما لذلك علاقة بدخولي المقهى للمرة الأولى، وحدوث ما جعل النفور من المقاهي يتأصل فيّ. فما زلت أتذكر المشهد بصورة معتمة، كيف أن أبي سحبني بسرعة وجرني معه إلى الأرض عندما انبطح هو تحت تخوت المقهى؛ كان هناك تراشقاً بالنيران بين الشرطة ومجموعة أخرى من الرجال، مثل ذلك التراشق الذي عرفته بعد ذلك في أفلام الكاوبوي والعصابات؛ كانوا كما عرفت لاحقاً مجموعة من مهربي الشاي والترياق والأفيون بين إيران والبلاد. منذ ذلك الحادث، وأنا أبدأ بالصياح، كلما سمعت أمي تقول لي بأنني سأصاحب أبي للمقهى. وإذا كانت تهدئتهم وتطميناتهم لي قد أثرت عليّ لقليل من الوقت فقط، ولم تمر سنة على ذلك الحادث، حتى وقع حادث آخر، هذه المرة، بطله شاكر النصراوي، والذي كنت أظنه لوقت طويل رجلاً مثل باقي روّاد المقهى من الرجال، رغم اختلافه عنهم باعتنائه بهندامه ونظافته وأناقته. كان شاكر يلبس في تلك الأيام زبوناً أزرق، وعباءة من حرير، ويشماغاً يشده بطريقة تثير الحسد عند باقي الرجال، الذين كثيراً ما سمعتهم يناكدونه، ويطلبون منه تعليمهم سر تلك الشدَّة، التي ربما تميزت عن باقي الشدَّات بالطوية التي تقدمت اليشماغ وارتفعت عن العقال قليلاً. كان جدي يحسده أيضاً، لأنه حاول أكثر من مرة عمل الطوية ذاتها، ولم ينجح. ولكن بغض النظر عن ذلك كان شاكر النصراوي شخصية تثير الإهتمام والفضول، ولم أعرف حقيقته حتى ذلك اليوم، الذي وقف فيه رجل ضخم الجثة وطويل القامة في وسط المقهى، ليخرج مسدساً من جيبه ويصرخ وهو يتقدم باتجاهه، حتى أصبح فوق رأسه: «كافي شكرية!». لم يملك شاكر النصراوي أو بالأحرى «شكرية» الوقت الكافي للهرب؛ بل لم يستطع أي من الجالسين منع تلك الإطلاقات الخمس لتستقر في جسده الذي سقط عند قدمي الرجل صاحب المسدس الذي صوّب المسدس إلى صدغه في تلك اللحظة ليصيح بصوت عالٍ: «كلكم شهودي أمام الله، مليت، ما بقىٰ عندي صبر»، ويطلق النار على نفسه، ويسقط بجانب شاكر النصراوي، الذي رأيت من فتحة زبونه للمرة الأولى ثديين بارزين يظهران. بعدها عرفت أن شاكر كان في الأصل «شكرية» زوجة الرجل الذي أطلق النار، والتي نهضت ذات

صباح، لتعلن على الملأ بأن طيف النبي زارها في الليل وطلب منها التحول إلى رجل.

بعد تلك الحادثة، لم يستطع أهلي إقناعي بمصاحبة أبي إلى المقهى. كان لا بد أن تمر سنوات طويلة على ذلك الحادث لكي أجرؤ على دخول مقهى. صحيح أنني نسيت تلك الحادثة، وأن عالم المقاهي تغير كثيراً عما كان، إلا أن ذلك الهاجس ظل يصاحبني كلما دخلت مقهى. فإنني بطريقة ما، ما زلت محافظاً على خيال ذلك الصبي الذي يُثير جو المقهى فيه الكثير من التخيلات. ولم تكن مصادفة أن تصدق الكثير من تلك التهويمات، التي كلما رويتها لأحدهم ظنها هلوسات سكران، أو «هلوسات حيران» كما تسميها هذه المرة معالي وهي تلمح لصاحب «فندق الحيارى». وهذا ما جرى لي بالفعل في «مقهى الأمل».

من المبالغة تسمية المكان بالمقهى. لأنه يشبه دهليزاً، عرضه عند المدخل لا يتجاوز الثلاثة أمتار، وعمقه يقترب من العشرة أمتار. موقد الشاي بني في عمق المقهى، وعلى جانبي «الدهليز» امتد عدد من القنفات. ربما لم يتجاوز عددها الأربع عند كل جانب. وإذا فكرنا بأن فوق كل قنفة يجلس رجلان، كل واحد عند طرف منها ـ لأنه من النادر أن يجلس رجل في الوسط قريباً من سيقان الرجلين الممددة، وخاصة إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار أن معظم الرجال في البلاد يعانون من مرض الفطر في أقدامهم، ومعروفة الروائح التي يثيرها هذا المرض -. لا يهم ذلك، ولكني حينها دخلت المقهى «مقهى الأمل» للمرة الأولى، كنت حريصاً على معاينة ومراقبة كل شيء بدقة. في الحقيقة لم يشجعني ذلك على دخولي المقهى «مقهى الأمل» للمرة الأولى وحسب، إنما أكثر ما أثار عندي الفضول هو إلحاح الرجل الأحدب صاحب «فندق الحيارىٰ» وإصراره على زيارتي للمقهى، بغض النظر عن تطلعي لأي قشة أمل، فأنا ـ ولقول الحقيقة ـ كنت مستعداً منذ ذلك اليوم للتشبث بأي أمل. للمرة الأولى في حياتي شعرت بنفسي مثل الغريق، بل أني ومنذ وطأت قدمي اليسرى ـ على ما أعتقد ـ الشارع الرئيسي (بعد مغادرتي الفندق «فندق الحيارىٰ») لم أعد في شك من نفسي، في شك من حقيقة واحدة: أنني منذ تلك اللحظة واحد من «الحيارىٰ»، وعليّ الخروج من المأزق بأسرع وقت ممكن، فكما سمعت من الرجل ذي الصوت الأخنّ والأحدب ـ صاحب الفندق «فندق الحيارىٰ» ـ لم يُقِمْ أي واحد من «طوابير الحيارىٰ» أكثر من يومين هنا؛ وفقط في استثناء واحد او استثناءين مكث بعضهم هنا ثلاثة أيام. يقيناً لا يسمح الرجل الأحدب بالإقامة هنا لأكثر من ثلاثة أيام، وليس لي الحق في سؤاله «لماذا»؟ فهو صاحب الفندق «فندق الحيارىٰ» في النهاية. بالإضافة إلى كوني رجل عابر معبأ بالمشاكل يصاحب امرأة تغطس أكثر منه في المشاكل؛ نعم من أنا، لكي أقول له ما عليه وما ليس عليه فعله؟ وبالتأكيد إذا ما أردت تجنب

مضاعفة المشاكل، فعليّ أن أفهم الرجل، وأرحل بعد يومين على أكثر تقدير، فبالتأكيد لن يسمح لي بالإقامة في الفندق لأكثر من يومين. ومن أنا كي أطلب منه تغيير عاداته؟ طبعاً كان بودي أن أسأله ما الذي يعنيه بذلك، ففي النهاية هو صاحب الفندق، ولا يهم إن كان فندقاً للحيارىٰ أم فندقاً للمتعبين، ناهيك عن أنه فندق مثل أي فندق آخر، مأوىٰ يركن إليه في النهاية العابرون، وهو كصاحب فندق غير معني بمدة إقامة زبائنه. ولكن ذلك خطر في ذهني فقط، لم أجرؤ أن أقوله له؛ ربما ليس لخوفي أني لم أصارحه بما كان يجول في خاطري، إنما جاء تصرفي أكثر نتيجة لحرصي أنا بالذات على التخلص من المأزق الذي وضعتني فيه معالي ـ حتى ذلك اليوم كنت على يقين أنني لم أنتهِ إلى ذلك الوضع لولا معالي! ـ، ربما لذلك ولأسباب أخرى لم تخطر على بالي في تلك اللحظة فكرة الرد علىٰ استفزازه لي ـ الذي اقترب من التهديد ـ: «كل من سكن هنا سكن يومين لا أكثر!»، محفزاً جيداً يدفعني للبحث عن «منفذ» كما طلبت مني معالي، قبل أن تسلم نفسها للنوم من جديد.

عندما دخلت المقهى كانت فارغة تقريباً باستثناء رجل واحد جلس عند الزاوية، قريباً من موقد الشاي يدخن الناركيلة، والذي تطلع بفضول عندما رآني أدخل. جلست بتوجس. وتساءلت في ذهني «أين يكون الصبيّان اللّذان تحدث عنهما صاحب الفندق؟ ألا يكون قد اخترع قصتهما؟»، مرّ ذلك الهاجس بصورة عابرة، وفكرت بذلك عبثاً طويلاً، فما الذي يعنيني من أمرهما في النهاية. حاولت تصنع الهدوء، والسيطرة على كل حركة مني، كي لا أثير الرجل صاحب المقهى.

لبرهة رأيت رجلاً يدخل المقهى وفي يده صينية برونزية، لف حول وسطه وزرة ملونة، عرفت مباشرة أنه هو صاحب المقهى.

ـ الله بالخير، الأستاذ غريب على البلدة!

لم يقل تلك الجملة ساخراً، إنما كان ـ كما بدا لي لاحقاً ـ رجلاً مرحاً بطبيعته.

ـ ماذا تطلب عيوني، الطلب الأول على القهوة.

وقبل أن ينفتح فمي وأقول له «شاياً»، سمعت الرجل الذي كان يجلس في الزاوية يصيح:

ـ ليس هناك أحسن من الپايپ المائي.

يقصد النارگيلة، قاطعه صاحب المقهى «الأخ يريد إيصير إنگليزي».

فقلت وأنا أحاول إستلال ابتسامة مني: «شاي».

- تأمر عيوني.

قال صاحب المقهى وهو يتوجه إلى عمق المقهى.

لم تمر ثوانٍ وقبل أن يأتيني الشاي، حتى رأيت الرجل صاحب النارگيلة يلف خرطوم النارگيلة حول عنق الزجاجة، ويرفعها لينتقل في الجلوس إلى جانبي، دون أن يرفع يده اليسرى عن حضنه.

لم يكن في ملامح الرجل ما يثير، فقد كان أنيقاً بصورة غير عادية، نظيفاً، حتى أنه حلق شاربه الرفيع بصورة دقيقة، وكأنه أمسك مسطرة تحته.

عندما جلس إلى جانبي رفع الخرطوم إلى فمه من جديد، بينما ظلت يده اليسرى تقبض على عضوه، ثم صاح بصاحب المقهى:

- أرجوك أبو عادل جمرة جديدة.

حمل له صاحب المقهى جمرة جديدة بسرعة ووضعها فوق الرماد القديم. سحب الرجل نفساً عميقاً، وانتظر حتى أن ينتهي صاحب المقهى من تقديم الشاي لي، ويخرج من المقهى بعدها حاملاً صينية صفت فوقها أكواب الشاي.

- راح أدور دورة صغيرة بصينية الشاي.

ومباشرة بعد اختفاء صاحب المقهى، فتح الرجل الذي كان يجلس بجانبي فمه، وهو ينفث دخان نارگيلته:

- عجيب هو تخلف هؤلاء البشر لا يكفون من الحديث باللغة العامية.

ثم مالَ عليَّ قليلاً ليهمس في أذني:

- الأستاذ كما يبدو، غريب على هذه البلدة، عيوني!

هززت رأسي.

- من أين قدوم حضرتكم، عيوني؟

فقلت له:

- من بغداد.

- والنِعِم، من العاصمة، ما هي مهنتكم، عيوني؟

سألني، فوددت أن أقول له، لو يترك هذه الـ «كم» أولاً، وعليه ألاّ يذهب في أسئلته بعيداً، لكني بدل ذلك، قلت له جملة سأندم عليها تباعاً:

ـ مترجم.

ـ ما شاء الله. ستجد وظيفتك إذن غداً، عيوني!

قال لي. سكت لحظة، ثم مد يده ليصافحني:

ـ أهلاً وسهلاً بك، كل أمورنا ستكون متعلقة بكم، عيوني.

مددت يدي إليه، وأنا بالفعل لا أدري بماذا أجيب.

ـ تعرف بأنك الأكثر حظاً منا جميعاً. قال ذلك.

ثم أكمل: فرصة عملكم في هذه المدينة أفضل من الباقين. على العكس مني، عيوني.

سألته للعبث لا غير:

ـ وكم مرّ عليكم هنا.

هزّ يده، يده اليمنى، بينما ظلت اليد الأخرى مستريحة في مكانها، وسحب نفساً من نارگيلته، وقال بصوت حزين:

ـ منذ شهر، قبل الأحداث، عيوني.

لم أعرف أية أحداث يقصد. ثم أن الأمر لا يهمني من قريب أو من بعيد.

ـ لست الوحيد، فإن كل الذين ستلتقي بهم مرّ عليهم زمن طويل هنا. ولكل واحد منهم قصته، عيوني.

سكت.

ـ هل تسكن حضرتكم في فندق الحيارىٰ، عيوني؟

فأجبته:

ـ وهل هناك مكان آخر؟

فقال:

ـ طبعاً، ولكن اختياركم صحيح، أنا أيضاً أسكن هناك منذ زمن طويل. ولكن لا

يهم، عسلة امرأة نادرة الوجود، عيوني.

فسألته بفضول:

- من تقصد بعسلة؟

فأجاب:

- من غيرها، عسلة الصابئية صاحبة الفندق، عيوني؟

قلت بتعجب:

- صاحبة الفندق؟ وماذا عن...

قاطعني:

- أخ، تقصد الأحدب حياوي بنزين. مسكين حياوي بنزين إن له قصة أخرى. كل واحد هنا عنده قصة، عيوني.

سحب نفساً عميقاً آخر:

- آن حياوي بنزين إسم على مسمى. فهو رجل محظوظ، ولأنه وُلِدَ في زمن دخول البنزين للبلاد، سمته أمه بنزين. يقال إنها ولدته في محطة بيع بنزين، لأن أباه كان صاحب المحطة. عندما كبر حياوي بنزين، أصبح مثل الكثير من اليهود، رجلاً صاحب مقام وثروة، قبل أن يفقد ثروته ويصاب بالحدب. بالتأكيد تعرف عائلة القريشي النجفية؟ عائلة تعرف ماذا تفعل، ذكية، لم تجد غضاضة من توظيف حياوي بنزين، لأنهم يعرفونه منذ الصغر، فهو الإبن الأكبر لعائلته اليهودية التي كانت تسكن بجوار بيت عائلة القريشي. وفي سنة الفرهود، أعتقد أنك تعرف تلك السنة، عندما تم طرد اليهود...

عندما لفظ كلمة «يهود» قالها بامتعاض وهو يضغط على منخريه، وكأنه لا يريد شم رائحة كريهة، ثم أكمل:

- لكن عائلة القريشي، كانوا يعرفون بذكاء هذا الولد حياوي بنزين. اتفقوا مع عائلته على تخبئته لزمن قصير. هكذا بعد مرور سنتين أو أكثر على تلك الحادثة، استطاع الشاب أن يعيش بصورة طبيعية كمحاسب لتجارة عائلة القريشي. وهم ذاتهم - عائلة القريشي - الذين زودوه بأوراق رسمية وجعلوه يعيش بصورة طبيعية، خاصة بعد أن أعلن تَشَيُّعه، رغم أن...

قرب فمه من إذني وهمس:

- لا أحد يصدق تَشيُّعه. اليهودي يبقى يهودياً عيوني.

ثم أكمل القصة:

- كما قلت، أصبح حياوي شيعياً، وزوجوه من امرأة قيل أنها شيعية. ولكن هنا مربط الفرس، ومغزى القصة. لم تكن تلك المرأة شيعية، وإلا ما الذي جعل أختاً لها تقبل الزواج في السعودية بنجدي؟ على أية حال، عندما نشبت الحرب، أرسلت بأولادها، حيدر وسيف، قبل أن يغيرا اسميهما إلى محمود وعلي، إلى هناك، إلى خالتهما، لكي يعيشا بسعادة. أمهما ملكية ماتت بعد رحيلهما بسنة. فتزوج حياوي امرأة أخرى شيعية اسمها «جميلة»، هذه المرة خانته المرأة مع ضابط من أعز أصدقائه، لا تنس بأن حياوي كان يشتغل للضباط أيضاً. وعملت جميلة المستحيل لكي يُطْرَد من شغله كمحاسب. ربما تسألني وتقول «ولكن ما الذي حصل لبيت القريشي؟» سُفِّروا يا صديقي، مثل باقي كل العوائل. القريشيون هم الآخرون ليسوا عراقيين، إنهم إيرانيون. حينها هرب حياوي في الأحداث الأخيرة، بملابسه التي عليه، رغم بعض الإشاعات التي تقول أنه يعلم أين أخفى بيت القريشي أموالهم، قبل أن يُسفِّروهم، البعض يقول أن حياوي هو الذي سرق الفلوس ويحتفظ بها في مكان أمين. ولكن ليس هناك إثباتاً على ذلك، فالرجل جاء هنا، إلى هذه القرية، مثل كل خلق الله، يبحث عن عمل، ولحسن حظه التقى بعسلة، التي كانت هي الأخرى يهودية مثله. قَبِلتْهُ عسلة، على شرط أن يرجع للدين اليهودي. وافق. لكن لعنة الإمام ستطارده، فما أن أعلن توبته، حتى تكور ظهره، وأصبح أحدباً مباشرة. لم يصبح أحدباً فقط، إنما راح يخرّ أيضاً. لكن رغم ذلك فهو محظوظ، لأنه لم يجد مأوىً فقط، إنما عثر على شريكة حياة أيضاً. لذلك السبب عندما عاد ولداه من السعودية، تنكر لهما ما أن رآهما. فلقد مرّا من هنا في طريقهما للنجف صدفة. قال لهما، بأنه ليس بأبيهما. وأن زوجته قالت له قبل أن تموت، بأنهما ليسا بإبنيه. هكذا لم يكمل الشابان رحلتهما للنجف. بقيا هنا. هذه هي القصة، عيوني.

لبرهة سكت، ثم قال بصوت يقترب من الهمس:

- سيدخلان المقهى في كل لحظة. هما الآخران يبحثان عن عمل مثل كل شخص هنا.

أخرج آهة، وقال محاولاً بعث الطمأنينة:

- لكن لا تقلق بما يخصكم بسبب الشغل، لأن القضية لها علاقة بطبيعة المهنة التي يتقنها المرء. والترجمة هي المهنة الرائجة هنا هذه الأيام، عيوني.

هززت كتفي مُعرِباً عن لا مبالاتي.

- حضرتكم أكيد وراءكم قصة، عيوني.

لا حاجة لتكملة الجملة، هو يريد أن يسمع قصتي، أو ربما أية قصة.

ربما لاحظ سكوتي، لذلك علق:

- لا يهم إحكِ لنا القصة في المرة القادمة. ولكي أوطِّد الثقة بيننا سأحدثك أنا عن قصة كل شخص هنا. لكن أرجوك يجب أن تعرف أن ما سأقصه لك يجب أن يبقى سراً بيني وبينك، لا أريد أن يعرف ذلك أحد.

هززت رأسي. في الحقيقة لم أعرف كيف وبماذا أجيبه. رحت أحرك الملعقة في استكان الشاي.

- ٤٦ -

- قبل أن أقول لك ما هو إسمي أريد أن أحكي قصتي.

قال تلك الجملة بعد أن نظر إليّ طويلاً وكأنه يريد التأكد من أني أهلٌ لسماع القصة، أو هذا هو الشعور الذي منحني إياه على الأقل، قبل أن أعرف بأنني لم أكن الشخص الأول الذي يسمع قصته. بل عرفت لاحقاً، أن يده اليسرى تستقر في حضنه دائماً، بسبب رهبة قديمة استحوذت عليه مثل كابوس، أنه يخاف أن يفقد عضوه، كما قال لي لاحقاً، أنه منذ «يوم الخيانة» الذي تعرض له، عندما رأى امرأته في حضن شخص آخر، وأن قضيبه انكمش إلى درجة أصبحت رؤيته صعبة، وهو يخاف ألا يجده في مكانه يوماً، ولكي لا تختفي قطعة العصب التي تقلص طولها إلى قصر لا يمكن تصديقه فكيف يمكن قبوله، «ثلاثة سنتيمترات شتاءً وأربعة سنتيمترات صيفاً»، وهو لم يحكِ قصته لي أنا فقط، إنما كان يأتي دائماً بين الساعة الثانية عشرة ظهراً والواحدة، عندما تخلو المقهى من الزبائن - لأن معظم زوار المدينة يكونون في تلك الساعة في جامع المدينة الوحيد يصلون وراء أحد الشيوخ أو يسمعون خطبته -؛ زوار المدينة الجدد فقط - كما في حالتي - هم الذين لا يعرفون مكاناً آخر في تلك اللحظة؛ وهي في الحقيقة فرصته كي يُلقي هو الآخر خطبته على القادم الجديد. هكذا بدأ معي في رواية قصته، عندما سمع آذان الظهر، وتأكد له بأن «أبو عادل» صاحب المقهى سيكون في الجامع يصلي في تلك الساعة.

- قبل أن أبدأ برواية قصتي يجب أن تعرف أنني لا أحب الحديث باللهجة العامية.

لا تستغرب من ذلك، فعندما ستسمع القصة ستعرف سبب إصراري على الحديث باللغة الفصحى. اتفقنا... عيوني...

ألقى تلك الجملة، ليتركني حائراً قليلاً، فأنا لم أعرف إذا كان يُلقي عليّ حينها سؤالاً، أم أنه كان منتهياً من أمر إجابتي. على أية حال تمنيت في تلك اللحظة دخول أحد ما، أياً كان. لكن وحتى انتهائه من رواية القصة، قصته، لم يكن غيرنا ـ أنا وهو ـ في المقهى.

ـ أنا في الأصل من مدينة الشرقاط، ولدت في بداية الأربعينيات، لا يهم في أية سنة. كان أبي يملك دكاناً صغيراً. وكما تعرف في ناحية صغيرة مثل الشرقاط، كما هي الحال في المدن الصغيرة الأخرى يلتقي شباب الحي هناك. إذا استطعت التذكر بصورة جيدة، أرجو ألا يخونني حدسي، كان عمري خمس عشرة سنة عندما حدثت ثورة الزعيم. في تلك السنة مات أبي فاستلمت أنا الدكان. في ذلك الوقت أصبح الدكان ملتقى للشباب المؤمنين بالثورة. لا تستغرب ذلك. ربما ستتساءل مع نفسك ما الذي يحمل شباب من طائفة السُنّة أن يتحمسوا لرئيس شيعي مثل عبد الكريم قاسم. في الحقيقة لم تدخل في تلك السنوات مثل هذه الأفكار إلى رؤوسنا، لأن الكثير من الأمور كانت في تداخل مع بعضها. لأضرب لك بعض الأمثلة. صحيح أن عبد الكريم قاسم كان شيعياً، إلا أن معاونيه في الثورة كانوا سُنّة، عبد السلام عارف مثلاً ـ لا تعرف كم أكرهه ـ، بغض النظر عن كون الملك فيصل كان في الأصل سيداً هاشمياً، وهو ينتمي بهذه الطريقة أو تلك إلى المعسكر المضاد للسُنّة. نسيت أن أقول لك أنا الآخر «سيد». وحتى وقت قريب كنت أظن أن ليس هناك سيد شيعي وسيد سني. وطوال حياتي أصلي بالطريقتين مرة مسبل الذراعين على طريقة الشيعة، ومرة معقود الذراعين على طريقة أهل السُنّة. فالسُنّة يظنونني سُنّياً والشيعة يعتقدونني شيعياً، ولا يهمني ما يقوله الآخرون فأنا مسلم وسيد أشعر بانتماء للدين الإسلامي ولجدنا وسيدنا محمد صلوات الله عليه. أرجوك لا تقل لأحد بأني سيد سُنّي. تلك قضية لا يعرفها أحد غيرك، اتفقنا عيوني؟

عندما قال تلك الجملة توقف قليلاً، وكأنه يسترد أنفاسه. أخذ نفساً عميقاً من نارگيلته التي انطفأ جمرها تقريباً، حتى أنه لم يبعث من فمه غير خيطٍ ضعيفٍ من الدخان.

ـ ليس هذا هو باب القصيد. لكن أصبر سنأتي على الموضوع في النهاية. المهم يا سيدي، أنني كنت في تلك السنوات ومع مجموعة من شباب الشرقاط الذين كانوا يلتقون عند الدكان قاسمياً. كان من الصعب جداً التفريق في ذلك الوقت بين كونك قاسمياً

وكونك شيوعياً. لهذا السبب كنا بالنسبة للناس في ناحية الشرقاط شيوعيين.

توقف قليلاً، وعاين إلى يمينه وشماله، ثم مال عليّ ليهمس في أذني:

ـ وأنت تعرف في مدينة مثل الشرقاط قريبة من مدينة تكريت خطر أن تكون شيوعياً.

أردت أن أطلب منه في تلك اللحظة الكف عن الحديث، وأن يتركني بسلام، لكنه لم يمهلني حتى ثانية واحدة، ليكمل حديثه:

ـ هكذا كنا أقلية ملعونة في مدينة تعتبر الشيوعية مثل الطاعون. حتى جاءت مناسبة ثمانية شباط/فبراير ١٩٦٣. لتستيقظ المدينة فجأة، وتنشط في البحث عنا، وكأن الناس كانوا ينتظرون ذلك اليوم لإلقاء القبض علينا. حتى أنهم ذهبوا في اليوم الأول إلى الدكان، وعندما رأوه مقفلاً توجهوا إلى بيتنا. لحسن حظي، لم أكن ذلك اليوم في البيت، إنما كنت في زيارة عمتي التي يقع بيتها في الزقاق ذاته الذي يقع فيه الدكان. سمعتهم يسرعون الخطى، وهم يلغطون في البحث عني، يسوقون أمامهم اثنين من أصدقائي. هكذا غادرت في اليوم ذاته قضاء الشرقاط. ولم أرجع إليه حتى اليوم. سنوات طويلة كنت أجوب البلاد مدينة، مدينة. لبست أزياء مختلفة، اشتغلت مهناً متعددة، اشتريت هويات مزورة كثيرة. عشرات الأسماء حملتها ولكن يبقى الإسم الحقيقي هو الذي أملكه في النهاية. ولكن قبل أن أقول لك ما هو إسمي الحقيقي، يجب أن أقص عليك الجزء المهم من القصة الذي أريد روايته، عيوني.

ثم وكأنه استدرك خطأ قام به، قال:

ـ أرجو ألا تؤاخذني أن أتحدث معك بضمير التملك المفرد، إنه جزء من الميانة التي بدأت بيننا، عيوني.

ثم أخذ نفساً آخر، ولكن عبثاً يفعل، لقد تحولت الجمرة إلى رماد لا أكثر.

ـ بالرغم من كل ما مرّ إلا أنني لم أتنازل عن مبدئي الذي غادرت المدينة بسببه، ولم يهمني إن أطلق عليه الناس في ذلك الوقت الشيوعية، كنت مصراً عليه، أو هذا ما اعتقدته حتى انتقالي إلى مدينة الكوت. كان ذلك في بداية السبعينيات، ومع شريك لي تعرفت عليه في إحدى زياراتي لبغداد، حصلت على أول مقاولة لي في البناء. لم أعرف حينها أنني أخذت مقاولة لبناء بيت المحافظ. هنا أصل إلى الجزء الأول المهم من القصة. فعندما عرفت ذلك قررت الانسحاب لأن مبدئي كان يمنعني من المشاركة في بناء بيت لعدو لي. ولكني لم أنسحب، على العكس بقيت في الكوت لأبني بعدها ليس بيوت

المسؤولين فقط، إنما كنت مقاولاً لبناء سجنين، وبنايتين: بناية مديرية الأمن الجديدة، وبناية مديرية المخابرات. لماذا فعلت ذلك؟ كل ذلك بسببها، نعم بسببها، جميلة؛ جميلة التي أحببتها منذ النظرة الأولى، منذ أن رأيتها للمرة الأولى في المستشفى الجمهوري للمدينة: كانت تشتغل ممرضة هناك: امرأة طويلة مكتنزة الجسم شقراء. بالرغم من كونها مطلقة تزوجتها مباشرة. كنت مجنوناً بها. تزوجتها طبعاً بأحد أسمائي المستعارة، ما عدت أتذكر أي إسم منهم؟ لكنه بالتأكيد كان إسمي الصريح الذي سأذكره لك، إذا صبرت واستمعت إلى قصتي، وليس الإسم الذي ألحقوه بي جزافاً (يا له من تناقض، كيف أنه أحد الأسماء المستعارة ثم يقول هو إسمي الصريح؟ لا أفهم!). المهم في ذلك الوقت، عندما صارحت المرأة في ليلة العرس بوضعي وما جرى لي. قالت لي أنها لا تفهم كل القصص التي أقصها لها، لكنها تعرف شيئاً واحداً: وهو أنها كمطلقة وعمرها ستة وعشرين عاماً لم تصدق أنها عثرت على زوج مثلي يحبها وتحبه، وهي تريد البقاء هنا في الكوت بين أهلها، وأمنيتها أن تنجب الأطفال مني. وعندما أخبرتها بنيتي في الرحيل، قالت إنها ستشي بي لا نكاية بي بل حباً. لهذا بقيت في مدينة الكوت، لا يهمك أنهم يسمونها مدينة «واسط» الآن، الشاهد يا عزيزي، أنجبنا طفلين، وكنا نعيش سعداء، حتى انتقالنا إلى بغداد هذه المرة. هناك بنينا ڤيلا ضخمة في المنصور. وراحت مقاولاتي تتوسع وتتوزع على مختلف مدن البلد، باستثناء الشرقاط طبعاً. لم تتوسع مقاولاتي فقط، إنما توسعت شبكة علاقاتي، وراحت تتوثق مع كبار الضباط، ولم يهم إن كانوا ضباط أمن أو ضباط مخابرات. وراح تأثيري يكبر، حتى نسيت أمر هويتي المزورة. كان يكفي في تلك الأيام أن أطلب من أحدهم أن يعمل لي هوية باسمي الحقيقي، لكنني كنت مغفلاً واثقاً من حياتي مع جميلة، التي لم ألاحظ عليها أي تبدل كلما عدت من زياراتي من المدن الأخرى. طبعاً كانت عندي حياتي الأخرى. ولكني أبقى رجلاً يختلف عما تفعله المرأة. لا تنس أنت كرجل تُدخل... أسمح لي القول... قضيبك في حفرتها، والمرأة هي التي تستقبل... هي مثل وعاء... لذلك لا يحق للمرأة ما يحق للرجل. لا تنس أيضاً طبيعة عملي التي تحتم عليّ بعض الأحيان الحصول على بعض البنات للضباط، سمي ذلك نوعاً من الرشوة، لا يهم. ليس هو ذنبي إذا كانت نقطة ضعف البنات في البلاد هي الفلوس. كنا نحصل على أجمل الطالبات الجامعيات. ما أزال أتذكر تلك البنت التي لم أنم بعد لقائي بها وممارستي الجنس معها نومة سليمة.. أرق دائم.. في الحقيقة إنني آتٍ على الجزء الثاني المهم من سبب القصة التي أرويها لك... ولكن دعني أكمل الجزء الأول، رغم أن الجزءين متداخلان ومكملان لبعضهما. ففي إحدى تلك الرحلات التي أردت أن أساعد فيها أحد أصدقائي من المقاولين الشباب في البصرة، تعرفت على طالبة جامعية. كانت حاملاً من صديقي، أقول صديقي رغم فارق العمر الكبير بيننا.

كان ذلك في عام ١٩٨٠ على ما أعتقد. كان لي من العمر أربعين عاماً وكان للبنت ثلاثة وعشرين عاماً. آخ كم كانت جميلة. كنت أريد مساعدتها على الإجهاض. وكنت وأنا أصطحبها بالسيارة، أفكر بأنها طعم جميل لعقد صفقات جديدة من المقاولات. هكذا قدتها إلى مزرعتي على مشارف بغداد، وبعد أن نمت معها ـ لم تقل البنت كلمة واحدة ـ اتصلت ببعض من أصدقائي الضباط المتنفذين، ليناموا معها هم الآخرون. أعرف أن ما فعلته لا يُغفر، وهو ليس نوع من السمسرة فقط، إنما هو إجرام بحقي أنا شخصياً، لأنني أحببت البنت منذ أول نظرة، ولكن كيف كان لي أن أنسى أنها نامت مع الصديق ـ المقاول الشاب، والذي حدثني أكثر من مرة عنها، كيف أنها كانت تمص له عضوه لساعات، واسمح لي أن أقول لك كم نحب نحن الرجال ذلك!... كيف؟ قل لي؟ كيف؟ كيف لي أن أنسَ صورتها والعضو الغريب في حلقها...؟

صَمَتَ قليلاً، مسح بكمه وكأنه هو الذي مصّ قضيباً للتو، ثم أكمل:

ـ في الصباح استيقظت البنت وقالت لي «صباح الخير»، وكأن شيئاً لم يحدث، ثم سألتني عن الذهاب إلى مكان الإجهاض. كدت أنسى الأمر الذي جئت إلى هنا بسببه. قدتها إلى شارع حيفا حيث أعرف واحدة منذ سنوات، وكانت مشهورة بين المقاولين والضباط، بل حتى نائب سيادته يجلب بناته للإجهاض هناك. هنا آتي يا صديقي على الجانب المهم من القصة، على خراب حياتي، إن شئت الدقة، عيوني.

سَكَتَ قليلاً، تطَلّع بي وكأنه يريد التأكد مني. لم يحاول التدخين مرة أخرى، إنما طوى الخرطوم حول عنق النارگيلة، وأكمل ولكن هذه المرة جاء صوته واهناً، دون نغمة، دون حماس، لكنه مع ذلك خالٍ من الحزن، أي حزن.

ـ تركت البنت هناك وذهبت إلى البيت، ويا ليتني لم أذهب، فمنذ تلك اللحظة توقف قضيبي عن النمو، لقد أثّرت عليه الحادثة، وجعلته يفقد طوله الطبيعي، كان طوله ثلاثين سنتيمتراً (عندما قال تلك الجملة قرب فمه من أذني، وكأنه يبوح بسر خطير)، الآن كما ترى (عندما قال ذلك، تطلع بحضنه، دون أن يرفع يده التي تمسك به)، والسبب هو ما وجدته، ولا تسألني ماذا وجدت؟ فأنا نفسي وحتى تلك الدقيقة لم أتوقع أن أرى زوجتي جميلة في حضن الضابط الذي اتصلت به لينام مع البنت، لم ينم معها فقط، إنما كان يُخرج عضوه من مؤخرتها ويضعه مع البراز الذي علق به في فمها، وهي لا تكتفي بلوكه إنما تقول له «أريد بزر، بعد بزر!». سامحني على وصف ذلك المشهد المقرف. حينها خطرت في ذهني البنت التي كانت تريد الإجهاض، وفكرت كم هي مظلومة وأنها أشرف من زوجتي التي أنجبت لي طفلين. في تلك اللحظة ركضت

إلى البيت الذي كانت تُجهض فيه. لكنها طبعاً صرخت بي وألقتني خارجاً، رغم نيتي الحسنة بزواجها. ولم ينفع حومي حولها وتوسلي بها كي تقبل الزواج مني. كانت تردني دائماً بصوت مسرحي وباللغة الفصحى: «لا أقبل بالزواج منك يا هذا!»، لم أعرف فيما إذا كانت تسخر مني، أم ماذا. حتى أنني رحت أتعلم الحديث بالفصحى بصورة أوتوماتيكية. البنت لم تقبل عرضي بالزواج، وجميلة راحت تذلني يوماً بعد يوم، لم تنفع توسلاتي بها في الإستمرار معاً من أجل الأطفال، بل أني لم أعترض على جلبها الرجال إلى البيت. حتى جاء الضابط نفسه ذات يوم ليسلمني هوية باسمي الحقيقي ويطلب مني مغادرة البيت. لم أعترض. هكذا فقدت كل شيء دفعة واحدة. بقيت في بغداد أنام في الفنادق، ثروتي ضاعت لا أعرف أين وجهتي. حتى البنت الجامعية، كانت في كلية التربية الرياضية على ما أعتقد، والتي كنت أعتقد أنها ستقبل بستري عليها إذا ما تزوجتها، رفضتني، وقالت لي أنها لا تعتبر فقدان غشاء البكارة والحمل والإجهاض ولا اغتصابي واغتصاب الضباط لها نهاية العالم. سامحها الله تقول اغتصاب ونحن لم نغتصبها إنما نمنا معها برضاها وكانت هي تستلذ بذلك، ولكن الله يسامحها، كانت بنتاً فقيرة. لكن يا صديقي وأخي بالمصيبة، كانت البنت جميلة جداً، لها جسم حلو، قد وقوام، كانت رياضية بكل معنى الكلمة، حتى عندما كانت تتحرك بالفراش، كانت تتلوى مثل لاعبة جمناستيك. لا أكذب عليك لو رأيتها لصدقتني وحق هذا الماء المقدس...

رفع قدح الماء الذي وُضع فوق الطاولة الصغيرة أمامي، وكبّ جزءاً منه، ثم أرجعه إلى مكانه فوق الطاولة: «نسيت أن أقول لك أن الماء في حزبنا مقدس، ففيه تتطهر الفروج والأعضاء كما أمر الله ونبيه ورجاله الطاهرون».

بلع ريقه قليلاً. لم يسحب خرطوم النارگيلة، فلقد يأس تماماً من وجود بقايا جمر. ولم يمهلني أن أسأله أي حزب يقصد، فقد راح يكمل حديثه:

ـ شاهدي في الحديث، كن واثقاً بأنني لو رأيت البنت التي أجهضت مرة أخرى، فسأطلب منها أن تتوب لله ورسوله ولحزبنا وتتزوجني على سنة الله ورسوله. أحلف بالله العظيم كانت بنتاً طيبة. لا تنس أنها لم تكن متزوجة. لم يقترن أحد بها. ولكن ماذا أفعل لكبريائها وطيشها. نعم طيشها هو الذي وراء ذلك. بالتأكيد هي تفكر: من الأحسن أن أتمتع بحياتي الآن، أمارس الفاحشة على راحتي، وبعدها، أما أخيط بكارتي، أو أعثر على مغفل يقبلني كما أنا. المغفلون هم بالملايين في هذه البلاد. لست أنا واحداً منهم، لكني أحب البنت، ذقت طعم النوم معها مرة واحدة ويكفي. لا تنس أن حزبنا، «حركة المقرَّنين العرب»، يسامح غير المتزوجات وعندنا طبيبنا الخاص، شاب كردي طيب اسمه كاكة عزيز، عزيز الطارزاني، كانت عنده عيادة مشهورة قريبة من كورنيش

الأعظمية، وكان يخيط يومياً بكارات العشرات من البنات.

سَكَتَ مرة أخرى، وتطلع في ممر المقهى، ثم عاين ساعته:

ـ سيتأخرون حتى يأتون، ولكن من الضروري إنهاء القصة قبل أن يأتوا، عيوني.

ثم عاين، وسأل:

ـ أين وصلنا، عيوني؟

لم أجب، ولقول الحقيقة بدا غير معني بالجواب، إذ أكمل بسرعة، ولا أدري أنه بالفعل كان قد انتهى لما سيبدأه الآن، لكن الأمر لم يعنني تماماً، حتى أنني لم أجد مفراً من الشرود أحياناً، والذهاب بأفكاري بعيداً، لم أهتم بالطبع فيما إذا كان يلاحظ ذلك أم لا. سيان. ليكن ما يكون، فأنا لست مطلوباً بشيء لا للرجل ولا لحركته، بغض النظر عن أني لست مجبراً على تصنيف نفسي تحت قائمة الأزواج المخدوعين «حركة المقرَّنين العرب». لا أدري فيما إذا كان الأمر لسخريتي منه، أو لشك مما كنت أظنه أنا عن نفسي، فكرت بتحسس رأسي والتأكد، فيما إذا نما عندي قرنان أم لا، وقبل أن ترتفع يدي إلى قمة رأسي، سمعت صوته العالي:

ـ هكذا بدأت حالي بالتردي، حتى دخلت ذات يوم جامع الخلاّني، لعلي أعثر على كسرة خبز أو طعام آكله. وهناك رأيت إبن عم لي لم أره منذ سنين، حاولت إخفاء وجهي عنه، لكنه لمحني بسرعة، وصاح بي وسألني عما حصل لي، قلت له إنها قصة طويلة، ثم سألني إذا ما كانت عندي رغبة بمشاركته في عمله، فقلت له ماذا يعني بعمله، فذكّرني كيف أننا عندما كنا صغاراً نتدروش وندخل الحربات والسكاكين في أجسادنا. كان بودي أن أقول له أنني فقدت القدرة التي كانت عندي أيام زمان، وأني أخاف أن ينتهي الأمر بموتي بالفعل هذه المرة. طمأنني بأنه سيدربني في المرة الأولى بأن يجعلني أقف لاستقبال السكاكين والحربات التي ستُرمىٰ باتجاهي. لقول الحقيقة كنت مستعداً لفعل كل شيء. هكذا استمريت في شغلي ذاك، حتى تنظيم مهرجان الدراويش. هل تتذكره؟ أقامته الدولة عند نقطة السيطرة القريبة من طريق بغداد ـ الحلة. هناك نصبت الدولة تكيةً وخشبة مسرح للمشاركين. لم أتصور أن تلك المناسبة ستكون فرصتي للحصول على عمل ثابت. وأشكر إفْطَيْم بِيْ دَي التي كانت حاضرة يوم الحفل، والتي كانت تجلس في منصة القيادة الأمامية التي أرسلت في طلبي. وعندما قابلتني، صارحتني بأنها تحتاجني للعمل في أحد بيوتها على أطراف مدينة النجف لشجاعتي التي لم ترَ مثلها. سألتها عن مهمتي، قالت الوقوف واستقبال السكاكين. ذهبت إلى النجف، من الأفضل

ألا أحدثك عما يحدث في بيوت إِفْطَيّم پِّيْ دَي هنا. كل البيوت كانت ممتلئة بنساء الضباط. الضباط يقاتلون في الجبهة ونساؤهم تُنكح هنا، ينكحها زملاء ضباط لهم ومقاولون، وليس على سنة الله ورسوله، عيوني.

عندما لفظ الجملة الأخيرة، شهقت، وكأنه يلقي الخبر عليَّ مثل الصاعقة. لكن الرجل لم يمهلني مكملاً:

ـ ليس شغلي هو العمل في الإيوانات. أنا السيد الذي لا يخاف إلا من جده محمد. لست قواداً. أنا مقاول وصاحب مبدأ. لكن هذه المرة اللعنة على عبد الكريم قاسم، على الشيوعية، وعلى كل شيء. لم أتحمل، رأيت بعيني أكثر من حادثة قتل زوج لزوجته. لم أتحمل، غادرت أخيراً لأقوم بتأسيس «حركة المقرّنين العرب». وانتظر دقائق حتى تراهم كلهم يأتون إلى المقهى. ألم تلاحظ صاحب المقهى، هو الآخر صاحب قرن. وعندنا أيضاً شاعر الحركة، سامي معلة الذي هو في الأصل من مدينة النجف أيضاً. وهو المنظِّر الأيديولوجي لحزبنا بين الزوار المؤمنين. أريد أن أجمع كل الرجال الذين خانتهم زوجاتهم.. . ليسيروا تحت راية حزبنا المقدام «حركة المقرّنين العرب»: هل سمعت بتلك الجملة التي قالها شاعرنا «ليس هنالك رجلاً تقياً ولا كسّاً نقياً»؟ لذلك شعارنا هو: الفرج الطاهر، العائلة والوطن، ومبدأنا هو الإسلام. نحن ضد أي حرب تنشأ لسبب غير هذه الأسباب، ولقول الحقيقة الفرج الطاهر هو الأساس، هو دليل الإيمان: هو العائلة، هو الوطن والقيادة، هو الدين. لا تُغريك نظريات الأحزاب الأخرى. لأني أنا شخصياً جربت كل شيء، من القاسمية والشيوعية والقومية، وأسأل مجرباً ولا تسأل حكيماً؛ لذلك اسمح لي باسم الحزب أن أطلب منك شرف الإنضمام تحت لواء حركتنا المقدامة «حركة المقرّنين العرب»، نحن من سيصنع مستقبل رجال هذه البلاد، ليس هنا فقط، إنما مستقبل كل تلك البقاع الممتدة من المحيط حتى الخليج بل إن مصير كل تلك البلدان التي تسمّي نفسها إسلامية. وليس كما يقولون «الإسلام هو الحل» إنما «حركة المقرّنين العرب هي الحل». واعذرني أن أقول لك بأن لا تنفع تغطيتك للموضوع ولا تهربك من التعليق على ما أقوله ولا شرودك الذهني أثناء حديثي، لأن كل ملامح وجهك تشير إلى أن زوجتك خانتك مع رجال آخرين، وأن كل حركة منك تدل على يأسك من الحياة والعالم، ولا يفعل ذلك إلا رجلاً مقرناً، صدقني!

لم أعلق إنما اكتفيت بهزة من كتفي، حركة إن دلت على شيء، فإنها تدل على يأسي لا أكثر ولا أقل، أمر لم يشجعه على الاستمرار فقط، إنما منحه الحماس بأن يتمادى في الحديث معي. ولكن ولقول الحقيقة، ما الذي يهمني من أمره، ولست في وضع يسمح لي في الرد على أيِّ شخص كان، فكيف هو الأمر معه، ولا تهم طبيعة

الأسئلة التي يوجهها لي، كما فعل:

- إذا أجبتني على الأسئلة التالية أستطيع أن أقول لك في أي إيوان تكون المرأة التي تبحث عنها:

أ - ما لون شعرها؟

ب - ما حجم بظرها؟

ج - ما شكل مؤخرتها؟

د - ما عرض فمها؟

هـ - ما هي طبيعة الرائحة التي يفرزها فرجها؟

و - كم هي كمية الرطوبة النسبية في فرجها؟

والآن تشجع أيها الصديق وانهض معي قبل أن يأتوا. هَلُمَّ معي لنسافر مع أول سيارة تغادر تل اللحم إلى النجف، لنبحث عنها هناك. أرجوك ثق بالرجل الذي يتحدث معك: السيد محمد منعم النقشبندي. ثق بنا، نحن النقشبنديون، نحن مسلمون لسنا بشيعة أو بسُنة، نؤمن بالواحد الذي لا شريك له الذي يُحفظ بحفظ ما بين الفخذين.. توكل على الله والحزب وَثِقْ بي، ولا يهمك أن يسمونني سقراط.

لفظ اسمه بطريقة احتفالية. ومد يده لمصافحتي. فسألته:

- أنت سقراط؟

فأجابني متعجباً:

- هل تعرفني من قبل، أم عندك اعتراض على إسمي؟

ضحك وتابع:

- منحوني الإسم، محبة بالجندي البوليفي، الذي يحمل الإسم نفسه، والذي ساعدت عن طريقه الكثير من الناس.

لم أجبه، ورحت أنبش في رأسي لأتذكر أين سمعت الاسم من قبل، ليس اسمه فقط، إنما اسم عسلة أيضاً، ولكن ربما أتعبتني قصصه - عادةً، القص هو الذي يتعب وليس الاستماع إليه -، فلم أتذكر شيئاً في تلك اللحظة، مدَدْت يدي له شارد الذهن، وفجأة التمعت في ذهني فكرة الاستفادة منه. وفي تلك اللحظة التي استقرت يدي في

كفه، لم أملك فكرة واضحة عما يُمكن أن يساعدني به هو. ولكن فقط عندما أرجعت يدي إلى مكانها وسماعي لجملته:

- أنا خادمك المطيع وخادم كل واحد صاحب قرن. قل لي ما تريد وسأفعله فوراً، عيوني.

وعندما أكمل الجملة نهض من مكانه، وقال بصوت مرتجف:

- سأغادر الآن، غداً نلتقي في نفس الوقت، واعتبر نفسك ستشتغل غداً. سأذهب أنا إليهم...

هذه المرة لم يختم جملته كالعادة بـ «عيوني» إنما سَكَت، ثم قَرَّب شفتيه من أذني، كأنه يبيح لي سراً كبيراً:

- إلى قوات التلاحف.

أردت أن أصحح وأقول له «قوات التحالف»، لكنني فكرت بطرافة الإسم الجديد، ثم أنه، لم يمهلني الفرصة الملائمة لكي أصحح جملته، إذ أكمل مباشرة، بصوت لم يخلُ من الإحتفالية:

- سأذهب إليهم شخصياً، أفضل، ولن ننتظر إلى حين قدومهم، ولكن إذا بحثت عني قبلها تجدني في المقبرة، أو في ساحة السوق عند موقف السيارات...

ثم سَكَت قليلاً، وكأنه فكر طويلاً قبل أن يكمل، أو كأنه يبوح لي بسر كبير:

- في الساحة، من الممكن أن تلتقي بالتي تبحث عنها، عيوني، دون مساعدتي.

ثم غمز بعينيه:

- هناك يشتغلن على حسابهن الخاص، أحلى بنات وطننا العظيم، قطاع خاص، لم يعد هناك قطاع عام ولا قطاع اشتراكي أو قطاع طرق.

عندما انتهى من الجملة سيطر عليه نوع من الارتباك، لم أعرف سببه في الوهلة الأولى، فقد استحوذت عليَّ فكرة واحدة، فكرة ومضت في ذهني بصورة خاطفة، وهي أن أطلب من الرجل أن يقودني إلى النجف، أو إلى المكان الذي ذكره، ربما يكون الرجل على حق، وربما التقيت بالفعل بوجيهة. لا أدري لماذا قفز في ذهني اسمها مرة أخرى، ربما لم أنته منها تماماً، ربما ذلك هو الحل الأمثل، أن ألتقي بها، وأنتهي من حكايتي معها. ومثل كل مرة، عندما تخطر على بالي فكرة جديدة، تبدو في الوهلة الأولى غريبة،

لكنها تأخذ بالتطور، وتكبر مثل كرة ثلج، ثم تبدأ تلح وتلح، وتثقل عليَّ، ولا أستطيع منها فكاكاً، إلا بعد أن أنتهي منها تماماً. لذلك التفتُّ إليه، إلى محمد منعم النقشبندي، لأقول له، بأن ما أريده لا يمكنني تحقيقه بدونه؛ لكنه لم يمهلني طويلاً، فقد غادر المقهى بسرعة، ليدخل بعدها بدقيقة وبضع ثوان عدد من رواد المقهى يتقدمهم صاحب المقهى، فحدست سبب مغادرته للمكان.

- ٤٧ -

- أكيد دَوَّخ رأسك بالحديث عن «حركة المقرَّنين العرب» هذه؟

كانت تلك الجملة الأولى التي قالها لي صاحب المقهى «أبو عادل» وهو يدخل المقهى، قبل أن يتجه إلى موقد الشاي، ليُعَدِّل من وضع أباريق الشاي، ويهيىء استكانات جديدة للزبائن الذين دخلوا مع دخوله، والذين جلسوا يحيطون بي. كانوا خمسة أشخاص: شابان في مقتبل العمر، ورجل في بداية الأربعين من عمره وكهلان.

- حاولنا إقناعه أكثر من مرة أن يغير إسم الحركة ويسميها حركة «المقرَّنين المسلمين»، لأن القرون تنبت للعرب وللأعجمي، لكنه كان يصر على العرب فقط.

جاءني صوت صاحب المقهى وهو يحضر الشاي:

- مسكين سقراط.

ثم أعقب مستدركاً:

- العفو، سيد محمد منعم النقشبندي.

قال ذلك بشيء من السخرية لم يستطع إخفائها من صوته، رغم عدم شكي من محاولته منح صوته بعض الجدية، خاصة عندما أكمل ما بدأ به:

- رجل مسكين نحاول نساعده كلنا. قبل سنة أخذوه أهله للأئمة هنا حتى يعالجوه. طافوا به الكوفة، كربلاء، النجف. إحتاروا وياه، لأن قبل ما يجون هنا عرضوه على أحسن أطباء بغداد. لكن ما نفعتهم كل المحاولات اللي سووها. حكمة ربنا. أجبروه أهله على السكن في النجف. فهرب من هناك، وقدم إلى هنا. صار له سنة يسكن بواحد من الفنادق، كانوا أهله يزوروه كل يوم جمعة، يحملوه من هنا، يأخذوه للنجف، يسكنوه هناك، على أمل الإلتقاء به في الأسبوع القادم، ويدخلون وياه لحضرة واحد من الأئمة. لأن هناك سيد من بيت أبي رغيف قال لهم بصراحة بأن علاجه لا يتم إلا على يد الإمام علي صلوات الله عليه. لكن لخيبتهم لم يجدوه في

الأسبوع الثاني، لأنه هرب إلينا، يقول يكووني، تعبت من الكوي. ننتظر قرار أبو الحسنين وما يقولوه أولاده الحسين أبا عبد الله والعباس أبو فاضل، أبو راس الحار. ما يصير يبقى الرجال بهذه الحالة. يقولون مرته خانته، لكن الكل تسمع منه بس جملة وحدة يرددها كل ما اشتد عليه المرض «أريدها هي، البنية الطالبة، وما يهمني باكر مو باكر»، ماكو أحد يعرف البنت اللي يقصدها وإلا كان دَوَّرنا عليها بكل مكان وقدناها إلى هنا. قصة غامضة، دائماً يحكي عن زوجته الأولى ـ أستغفر الله ـ، يقول نامت مع واحد ضابط صديق له، وأن البنت اللي أجهضت، البنت الجامعية، يقول كانت طالبة بجامعة بغداد أشرف من زوجته. ماكو أحد يعرف القصة الصحيحة، لأن زوجته اللي اسمها «جميلة» زارته في المرة الأولى وقعدت بنفس المكان اللي يقعد فيه هو دائماً، تكلمت معاه بحنان، توسلت به يرجع لبيته وأطفاله، راح هو يطردها ويصيح بيها. في المرة الثانية جاءت مع ولديها. كانت قصة عجيبة. كنا نعتقد بأن الرجال راح يعرف أولاده ويرجع مع زوجته. خاب ظنّنا. أول ما شاف الأولاد صرخ بيهم باللغة العربية الفصحى: هما ليسا ولداي، من أين جئت بهما. ومن هو الرجل الذي حبّلك بهما». وعندما راحت المرأة تتوسل وتقول له، بأن هؤلاء أولادك يا محمد منعم، والأطفال يصيحون بصوت ينفطر له القلب «بابا، بابا»، قال لها باللغة العربية الفصحى: «كلا ليسا هما بولديّ، لو كان عندي أولاد منك لما كنت في هذا المكان، ولما أسست «حركة المقرّنين العرب»، أنت امرأة مثل باقي النساء، وهذا يعني أنك بحكم طبيعتك خائنة، لأن ليس هناك امرأة لا تخون، ألا تعرفين ماذا قال عنكن الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام؟ «إحذروا كيدهن»، وهل تعرفين ما قاله عنكن شكسبير (عندما لفظ إسم شكسبير تأتأ في البداية، لكن لقول الحق لفظ أبو عادل الاسم بصورة صحيحة في النهاية)، قال ذلك بمعرض تعليقه عن خيانة أمه «ألا ارفعي فخذيك أيتها النعجة الضالة!»، وتعرفين ماذا قال عنكن الزعيم عبد الكريم قاسم؟ قال «أمي فقط، ولتسقط باقي النساء»!.. بعد هذه الزيارة جاءت المرأة مرتين أو ثلاثة. في كل مرة كانت تسكن في فندق «الحيارى». في المرة الرابعة والأخيرة، قالت له بصراحة بأنها لن تأتِ مرة أخرى.. منذ ذلك اليوم والسيد محمد منعم النقشبندي يجلس عند مكانها نفسه.. قصة عجيبة. وإذا أردت الصراحة، قصة غامضة، ولا واحد منا يعرف حل لغزها، يبقى نقول ماكو غير أبو الحسنين علي، وأولاده الحسين أبا عبد الله، وأبا الفضل العباس وأولادهم المعصومين، هم فقط باستطاعتهم فك طلاسم القصة ويشفون الرجل.

وفجأة كأنه انتبه إلى وجودي للمرة الأولى:

ـ أكيد حضرتك تطلب شاياً؟

كنت أفكر بالأمر المحير في هذا الحوار الذي ألقاه عليّ، إنه مخلوط بالشعبي والفصيح، وكان يمكن أن أستمر وقتاً أطول، لولا سماعي لصوت عالٍ أيقظني فجأة:

ـ شاي على حسابي للأخ.

سمعت أحدهم يهتف من عمق المقهى. كان رجلاً لم أرَ بمثل أناقته في المدينة، ذكرني فجأة بصورة احتفظت بها منذ الطفولة لشخصية غريبة كان يُطلق عليها في المدينة آنذاك «شاكر النصراوي». يا إلهي، أصابتني رعشة خفيفة وخفت أن أرى المشهد ذاته الذي رأيته عندما كنت طفلاً، لأنه كان شخصية محبوبة من الجميع، حتى أن موته ترك حزناً عند سكان المدينة، وسكان حيّنا بصورة خاصة. فقط عندما رأيت الرجل ينهض ويتجه نحوي شعرت بطمأنينة داخلية. فعكس «شاكر النصراوي»، لم يُثِر الرجل فيَّ أي حس بالتعاطف معه. كان يبحلق بي بصورة غريبة تُثير القلق ليس فيها ذلك الشعور من الصداقة الذي حاول إشاعته عن طريق تبرعه بالشاي من أجلي.

ـ محمد طالب حمودي، أقدم نفسي لك، محمد طالب حمودي، رئيس مضمدي مستشفى المدينة، ولا يهم أن يُسموني هنا أرسطو، كان عليّ أن أحمل هذا الإسم، بسبب سقراط.

توقف قليلاً، ثم غمز بعينيه:

ـ أنت تعرف، لأنك من بغداد، ليس هناك سقراط دون أرسطو، والعكس هو صحيح أيضاً.

قال لي الرجل، وهو يمد يده لمصافحتي. ربما حاول الإحتفاظ بكفي أكثر من اللازم، ليحملني بضغط كفه فوق راحة يدي على الشعور بحرارة التعرف عليه. لكنها كفه التي بعثت برودة غريبة في يدي، حتى أنني اعتبرت مصافحته لي جزءاً من روتين عام اعتاد الرجل عليه، أو اعتادت يده عليه. سَحَبتُ يدي بسرعة منه. ربما لاحظ صاحب المقهى حذري، إذ كان يقف في تلك اللحظة فوق رأسينا، بالضبط أمامنا تماماً، بصورة قريبة جداً، حتى أنني شعرت بأنفاسه تبعث حرارة في وجهي، وهي تلقي بجملة اختلطت فيها السخرية مع الجدية:

ـ أستاذ محمد طالب، ليش تخفي شغلك الأصلي عن الناس؟

قال صاحب المقهى تلك الجملة، بينما كان يضع استكانين من الشاي أمامنا، ولينسحب بسرعة وكأنه ألقى بسر ما، ولا يريد تحمل مسؤولية البوح به حتى النهاية. بل حتى ضحكة رئيس المضمدين لم تستفزه في الإسترسال بجملته. اكتفى بحركة من

يده، وكأنه يقول «لا علاقة لي بالأمر»، وانسحب إلى عمق المقهى، وجلس، بينما راح يتفحص جريدة تبعثرت صفحاتها فوق التخت القريب من موقد الشاي. لم يكن في المقهى رواد كثيرون في تلك الساعة. ففي تلك الساعات من الظهيرة، بعد آذان الظهر، ليست المقهى هي المكان الوحيد الذي يفرغ من الناس، إنما كل المدينة. وليس كما اعتقدت في البداية عندما أرجأت عدم ازدحام المقهى بسبب نزولي المتأخر إليها، لأن الناس في كل نواحي ومدن البلاد الصغيرة اعتادوا اللجوء إلى بيوتهم ليناموا القيلولة بعد تناولهم الغذاء، أمر يؤدي إلى خلو المقاهي من زبائنها تماماً. وهذا ما لاحظته في ساعات الآذان الأخرى أيضاً، حتى أني اعتقدت أن سكان هذه المدينة مؤمنون بطبيعتهم، رغم القصص التي سبق لي وأن سمعتها عن هذه الناحية، قبل أن أسمع هذه المرة قصة أخرى عنها من صاحب الفندق ـ الذي ظهر أنه ليس بصاحبه ـ، والذي يصر، أنها كانت في الأصل خاناً لا يختلف في وظائفه عن خانات أخرى مثل «خان النص» و«خان المحاويل» و«خان مُجيدة» و«خان الحمد» و«خان المُشالة» و«خان رُحابة» و«خان جدول»، كل تلك الخانات التي لم أسمع بها قبل اليوم، والتي كانت مجرد محطات يستريح عندها أولئك الزوار الذين نذروا أنفسهم أن يسيروا كيلومترات طويلة، حتى يصلوا قبور أئمتهم. لكن مفارقة هذه المحطة ليس إختلافها في التسمية فقط، إنما هي تختلف في طبيعة روادها الذين يمرون بها. فهي بصورة ما على عكس تلك المحطات لم تكن محطة لقوافل زوار أئمة الشيعة، إنما مكاناً للمهربين والسجناء السياسيين الهاربين من سجون نقرة السلمان، والمُبعدين من السياسيين، واللاجئين من المملكة العربية السعودية لأي سبب كان. ومع مرور الزمن راحت تنزاح مبتعدة بصورة تدريجية عن باقي المحطات، وخاصة بعد أن أصدر رجال الدين «فتوة» تحرم المرور بها، بسبب اتهامها بالفساد والإلحاد، بعد أن تخصصت المدينة بصناعة أقراص منع الحمل وتزويد البلاد كلها بها (بصورة غير علنية أو غير رسمية) وأطلقوا عليها إسماً غريباً: «تل اللحم».، ونسجوا عنها الأساطير، كان ذلك أيام زمان، أيام كانت البلاد، تعيش ظروفاً أخرى. الآن فقدت الكثير من بريقها، وخاصة بعدما حدث ما حدث لكل البلاد، ويُقال أنها النقطة الأخيرة التي وصلت لها قوات التحالف، فمن فوق التلة التي ارتفعت فوقها المدينة، عاين الجنرال الفرنسي بلزاك الهضبة الممتدة أمامه، ويُقال أنه رَدَّد جملة الانتصار بالفرنسية أولاً، وترجموها بعد ذلك: ١٦٠ كيلومتراً بقيت أمامنا حتى الوصول إلى بغداد، وقد سمعه الكثير من الأهالي آنذاك يعطي الأوامر لجنوده بالتهيؤ للزحف باتجاه بغداد، لكن وجهه تكدر وفمه لم ينقطع من تمتمة Merde, Merde, Merde خراء، خراء، خراء، ما هذا؟ أي حرب قحبة هذه!» عندما جاءته الأوامر من الجنرال الأميركي، قائد قوات التحالف بإيقاف الهجوم، والتراجع بعض الكيلومترات إلى الوراء، ليبقَ في النهاية عند حدود المدينة، على أطراف

مقبرة «تل اللحم»، وهو الوحيد الذي لم يحتمل البقاء هناك يوماً واحداً، «أطلق النار على نفسه هناك» (هل هو إذن الشخص المعني الذي سمعت خبر انتحاره يأتيني واهناً عبر راديو الترانزيستور: الجنرال بلزاك؟)، ويبدو أن الجنرال الأميركي لم ينزعج لفعلة الجنرال الفرنسي «المغرور»، كما أطلق عليه، على العكس، فعل كل ما في وسعه، لكي تحافظ المنطقة على هدوئها وفعاليتها تحت سيطرته، وهكذا منذ أن عسكرت قوات التحالف هناك، حتى تحولت «تل اللحم» من قرية صغيرة إلى مكان يمر به «الحيارىٰ» والباحثون عن ملاذ أو منفذ، أو ملجأ، مثلي، أو مثلنا أنا ومعالي، أو كل أولئك الذين فلتوا من قبضة السلطات. هكذا غيرت الحرب هذا المكان بسرعة عجيبة، وجعلت سكانه القدامى يغادرونه، بينما صنعت من القادمين الجدد والقلة القليلة التي بقيت خليطاً غريباً، سأحتاج الكثير من الوقت، لأفك طلاسمه، دون حاجة للأئمة الذين ذكرهم صاحب المقهى. ولكن تلك واحدة من القصص الخاصة بالقرية، لأنني كما عرفت تباعاً، أن للقرية قصص أخرى.

ـ لا يهمك يا صديقي، أبو عادل حكواتي أصلي. إنه على استعداد أن يحكيلك قصة غريبة عني، مثلما حكى قصة سيد محمد منعم النقشبندي، أو مثلما سيحكي قصة الشابين محمود وعلي، أو قصة سقراط أو قصة حياوي بنزين الذي ستلتقي به.

قال لي الرجل، بينما شعرت بيده تربت على كتفي، وكأنه يعرفني منذ زمن طويل. هل هو «حيران» آخر؟ أردت أن أقول له، بأنني لست صديقه، وأنني لست مهتماً بسماع قصة أي شخص هنا، ولكن قبل أن أفتح فمي، أكمل:

ـ ربما يعتقد أبو عادل أن القص جزء من عمله، أو يريد استذكار أيام زمان، عندما كان الحكواتي سيد المقهى وليس صاحب المقهى. ثم لا تنسى أنه أطلق على مقهاه «مقهى الأمل».

لقول الحقيقة، بالرغم من أنني لم أُبدِ أي اهتمام لما يرويه الرجل، إلا أنني شعرت في داخلي بحماس خفيف يدبّ فيّ. كانت كلماته مثل أصابع ناعمة تدغدغني عند نقاط حساسة. هل لاحظ الرجل حيرتي؟ هل يلعب مع أعصابي؟ ربما في تلك اللحظة بدأت الأسئلة تضجّ في رأسي، وجدت نفسي مجبراً، على التطلع في ملامحه قليلاً، لعلي أعثر على خيط يشدني إلى الاستماع إليه، أو تصديق ما يقوله. عبثاً، كان وجهه خالٍ من أية ملامح توحي بالتكهن. فهو من صنف الرجال الذين إذا صدق التعبير عنهم، فإنهم يملكون تلك الصفات التي تعلمناها عن الماء: عديمو اللون والرائحة والطعم، مع الفارق الأساسي، أن انعدام الصفات تلك في حالة الماء تثير الراحة فينا، عكسه مع

هؤلاء الرجال. فمن الصعب التكهن بعمرهم أو بمهنتهم. وحتى لباسهم لا يوحي بشيء، فهم لا يلبسون زياً واحداً: لا يظهرون ببدلة الكاهن ولا بجبة القاتل.

ـ لا أصدق أنك مضمد، لأن نظراتك باردة.

وجدتني أقول له دون أن أدري. تطلع بي بإمعان، ربت على كتفي مرة أخرى، ضحك، ثم أخرج زفرة قصيرة، شفط ما تبقى من استكان الشاي، الذي أبقاه في يده فارغاً، وقال وهو يقلب الاستكان بين يديه:

ـ ليس هناك في العالم مهناً. هناك صنفان من الناس، صنف لديه ما يبيعه، والصنف الآخر يُباع.

سكت، وأضاف بعد لحظة:

ـ أعرف أنك ستقول لي بأنك من الصنف الذي لا يُباع، لست الوحيد من يقول ذلك. أنا مضمد منذ سنوات طويلة، هل تعرف كم من السنوات مرّ عليَّ في تضميد البشر؟

هززت كتفي، مبدياً عدم اهتمامي، أمر لم يعره أي نوع من الانتباه، فقد كان يتكلم وكأنه يُلقي بمونولوجه في الهواء لوحده:

ـ ثلاثون عاماً وسبعة أشهر وخمسة أيام. لم أَعِد تلك السنوات في المراحل الأولى، ولكن ربما ليس المهم بالنسبة لك، معرفة أسباب اهتمامي بعدها. قد يأتي يوم، تبدأ أنت الآخر بعد سنوات ما تسميه أنت عملاً أو وظيفة.

فكرت باعتراضه على تدخل صاحب المقهى وروايته القصص قبل دقائق، وتساءلت مع نفسي، لماذا يحكي لي أنا بالذات هذه القصص؟ أو ما هي الحكمة التي يبغيها من قصه تلك الأمور عليّ؟ وهل هناك رواية لقصة ما دون أن يكون للرواية هدف ما؟ أو هل هناك بشكل عام قصة تُروى من أجل روايتها فقط؟ في تلك اللحظة وأنا أجلس بجانب «رئيس المضمدين»، لم يكن أمامي سوى اللجوء إلى أحد الخيارين التاليين: أما الطلب منه بأدب أن يكف عن الحكي، والنهوض من مكانه، أو الإعتذار منه باضطراري لمغادرة المكان لأمر عاجل؟ لم ألجأ إلى أحد الخيارين، إذ بدل ذلك، وجدتني أقول له:

ـ إنها لعجيبة تلك القصص العديدة التي يسمعها المرء لو منحها دائماً أذناً صاغية.

ـ طبعاً. . طبعاً، حاول أن تسأل أبا عادل عن أي شخص هنا، سيروي لك عنه قصة أخرى، والأمر بمنتهى البساطة، هو أن لكل شخص هنا قصة. ولا تستغرب أن

تسمع كل شخص يروي قصة عن شخص آخر بدل أن يروي قصته هو. تلك حيلة اخترعها البشر منذ قديم الزمان. وسابقاً، عندما كان الطب غير متطور، كانت الناس تُعالج عن طريق رواية القصص. حتى عندما تطور الناس وراحوا يُجرون العمليات الجراحية، كانوا يستخدمون القص كوسيلة للتخدير. لا تنس أن الطب الصيني مبني على هذا الأساس. وفي الغرب لا فعل للمعالج النفسي غير أن يجلس المريض على مصطبة بجانبه، ويقول له، إحكِ لي ما مر بك اليوم. هكذا الحال هنا. كل شخص ستلتقي به، سيروي لك قصة، ويدعي أنه يحكي لك قصة شخص آخر، بيد أنه لا يروي غير قصته في الحقيقة. هذه هي حال سيد محمد منعم النقشبندي، وهذه هي حال أبو عادل أيضاً.

حينها توقف قليلاً وتطلع باتجاه صاحب المقهى الذي وإن بدا منشغلاً بقراءة الجريدة، فإن كل حركة جسده كانت توحي بأنه كان يصغي لحديثنا، مثله مثل الشابين الذين جلسا عند زاوية المقهى والرجل الذي جلس بجانبهما مدخناً النارگيلة. لم يصغِ الجميع لحديث «رئيس المضمدين» بسبب الفضول، إنما لأن الرجل كان يتحدث بصوت عالٍ، يجبر حتى ذلك النفر القليل الذي كان يدخل المقهى للسؤال عن أمر ما، أو أولئك العابرين الذين يشربون استكاناً من الشاي بشكل سريع.

- أليس ما أقوله صحيحاً يا أبا عادل؟

هكذا صاح بصاحب المقهى، الذي علق حينها:

- أخيراً راح تحكي القصة الحقيقية!

لقول الحقيقة، كانت تلك اللحظة الوحيدة التي بدأ فيها حديثه يُثير اهتمامي. ربما لاحظ استغرابي أو عدم فهمي لما يدور الآن، أو لما عناه بجملته التي سبقت تعليق صاحب المقهى، فقال موضحاً:

- بالتأكيد حكى لك منعم النقشبندي قصة مقاولاته، لكنها ليست قصته أنها قصة رجل آخر. لأن منعم النقشبندي لم يكن في الأصل مقاولاً. كان مضمداً. نعم مضمداً لا تستغرب من ذلك. وبالذات التضميد سمح له أن يصبح من صنف البائعين، من صنف أصحاب المقاولات، ولكنها ليست أي نوع من المقاولات التي تخطر على بالك، صحيح أنه شخص كان لديه ما يبيعه، ولكنه لم يسيء لأحد عن طريق ما كان يبيعه، على العكس كان يُنجز فائدة للجميع.

صمت لحظة، ليسألني بصوت واطىء.

- هل تريد أن تعرف ما الذي كان يبيعه؟

كانت المرة الوحيدة التي أوحى لي صوته بأنه لا يريد أن يسمعه الآخرون هذه المرة، مثلما كانت هي المرة الأولى التي سمحت لنفسي بإجابته:

ـ وماذا يعنيني ما كان يبيعه؟

مسك يدي بقوة، وكأنه يُنبهني إلى قضية خطيرة:

ـ من السهولة أن يصبح الإنسان مغروراً، ولكن آخ من الندم، لأنه من الصعب استرجاع اللحظة التي تمر بنا.

توقف لبرهة، وشرب من الاستكان الذي أمامه، هذه المرة أحدث صوتاً مسموعاً للشاي وهو ينزل في بلعومه:

ـ هل رأيت؟ هل سمعت كيف نزل الشاي في بلعومي؟ هذا الشاي نزل ولا يستطيع أحد إرجاعه إلى الاستكان، إلى مكانه السابق، لا ولا حتى الندم. هكذا هي اللحظة التي تمر. كن متواضعاً، ومستعداً لكل عرض، قبل أن يفوت الأوان، واحتفظ بما يعرض عليك حتى وإن لم تحتجه في هذه اللحظة. إن حياة الإنسان هي عبارة عن مجموعة من اللحظات غير المتساوية. لا تبعث النجوم في كل الليالي البريق ذاته. ثم قل لي بصراحة، ألم تُحدث نفسك بأنك ستستفيد من سيد محمد منعم النقشبندي. طبعاً لا أقصد قصة «حركة المقرَّنين العرب»، فهي ليست قصته الحقيقية، إنها قصة رجل آخر، ولا تستغرب إذا قلت لك أنني أنا الشخص المعني بها، وطالما هو حدَّثك بالقصة كاملة فلن أُدَوِخ رأسك بها مرة أخرى، وهي بالتالي قصة غير ذات معنى قياساً لما جرى للرجل ولمقاولاته حقيقة، أقصد قصته الحقيقية التي يعرفها القاصي والداني.

سكت الرجل، وأخرج علبة سجائر. قدّم لي سيجارة، فرفضتها بحيادية. أرجع العلبة إلى جيبه، دون أن يترك واحدة له. ربما هو من صنف أولئك الرجال الذين يحملون عادة علبة سجائر في جيوبهم من أجل الآخرين فقط، رغم أنهم لا يدخنون، أنه نوع من التعويض عن كياسة في السلوك يفتقدونها، أو لتعودهم على رشوة الآخرين، ربما يوضح ذلك معنى الجملة التي قالها لي:

ـ يجب أن يحمل البائعون علبة من السجائر في جيوبهم، حتى وإن لم يدخنوا، فالسيجارة هي جزء من أجواء الصفقة، وماركة الروثمان أو السومر الأصلي، صناعة ألمانيا، بصورة خاصة.

سكت، ثم قال، وهو يتطلع بعينيّ لفترة ليست بقصيرة:

- لك عينان كبيرتان، تريان أشياء كثيرة. بالإضافة إلى أنهما جميلتان، ولكن. . .

توقف عند تلك الـ «لكن»، ثم ضرب لثوان فوق الطاولة، قبل أن يقول:

- ولكن كما أرى أنك لست معنياً بعقد أية صفقة بيننا، أو على الأقل التفاوض بصددها.

وعندما انتهى من تلك الجملة وقف ليضيف، وكأنه تعمد تغيير الموضوع:

- الآن أرى فوق وجهك علامات الفضول، تريد سماع قصة السيد محمد منعم النقشبندي، ولكن كلا يا صديقي.

نهض فجأة من مكانه. لبرهة قصيرة تطلع بي. أخرج آهة صغيرة. ثم غادر، دون أن يقول وداعاً، ليس لي فقط، ولا لصاحب المقهى أو الجالسين أيضاً.

- هل تريد شاياً آخر؟

جاءني صوت صاحب المقهى، وكأنه يعزيني أو يعتذر لي عما حصل. ربما كنت مذهولاً، ولا يهم إن مَرَّ على ذهولي ثوانٍ أو دقائق، ففي تلك اللحظة فقدت إحساسي بالزمن، واكتظ رأسي تدريجياً بطنين عالٍ، تركته تلك القصص العجيبة يتردد على جنباته، فعرفت حينها أن ليس صحيحاً ما قاله لي فقط بـ «أنها لعجيبة تلك القصص العديدة التي يسمعها المرء لو منحها آذاناً صاغية» إنما الأكثر عجباً هو عدم الراحة التي تبعثها فينا قصة غير منتهية.

- ولا يهمك أصبر وراح تسمع قصته الحقيقية!

في تلك اللحظة فقط شعرت بأن صاحب المقهى كان يتحدث معي، فهززت رأسي بحركة عنيفة، وكأنني أستيقظ من كابوس طويل، لتبقى جملته عالقة في ذهني. رحت أتساءل طوال الوقت مع نفسي: ترى أية قصة يعنيها: قصة السيد محمد منعم النقشبندي، أم قصة «رئيس المضمدين» محمد طالب حمودي، أم قصته هو صاحب المقهى، أم قصة صاحب فندق الحيارى الأعرج، حياوي بنزين؟ أم قصة الأخوين حيدر وسيف أو محمود وعلي، اللذين كانا يقيناً هما الشابين الجالسين في المقهى؟ أم قصة الشاعر الذي ربما كان هو الشخص الآخر الجالس في المقهى؟ أم قصتي أنا الذي أروي لكم القصة؟ أم قصة معالي التي روت لي كما تدعي قصتها هي؟ أم قصة إفْطَيِّم بَيْ دَي التي أصبحت مثل شخصية سينمائية تطاردني؟ أم شخصية خالي الذي اختفى ذات يوم مطارَداً من الجميع، الذي ربما سألتقي به مرة أخرى في هذه القصة أو في قصة أخرى؟

أم قصة «تل اللحم» التي رووها لي بأكثر من شكل، القصة التي تحمل غرابتها هي الأخرى، ليس في الإسم فقط، إنما لما جرى لها قولاً ـ على أكثر من لسان ـ وفعلاً؟ أم قصة كل الغرباء الذي دُفنوا في مقبرة تل اللحم؟ أم قصتنا نحن الذي ننتمي إلى أولئك الغرباء؟ أم قصة رحلتي مع معالي؟ أم قصص هؤلاء الناس الذين يعيشون في تل اللحم، منفلتين من كل رقابة، يُلقي كل واحد منهم مونولوجه بكل حرية؟ أو هذه السلسلة من القصص غير السعيدة التي لا أخلص من واحدة منها حتى أقع في أخرى جديدة؟ وسيان ما تكون تفسيراتي للأمور في تلك اللحظة، فإنني لم أملك لا القوة اللازمة لسؤال أي شخص منهم تلك اللحظة، ولا القوة اللازمة للقول لهم صراحة، بأن هذا المكان الذي يُطلقون عليه «مقهى الأمل» هو جزء من هذه القرية البائسة التي هي جزء من هذه المدينة البائسة وأية مدينة؟، لا يهم، لتكن أية مدينة شريطة أن تكون واحدة من مدن البلاد الأخرى اليائسة التي تفشىٰ فيها البؤس وانهالت عليها طيور من أبابيل ترميها بحجارة من سجيل، والتي عَمَّها الخراب رغم أن هذه المدينة لم يدخلها الجند، إنما وقفوا فوق تلتها فقط، ولم يرفع أهاليها البنادق ضد الدولة كما عرفت، إنما أبقت مسافة بينها وبين الجيوش المتحاربة. وإذا صدقت حكاياتهم عنها، بأنها لُعنت بسبب صناعة أقراص منع الحمل على مر تاريخها وتزويدها البلاد بكل ما تحتاجه (بصورة غير علنية أو لنقل بصورة غير رسمية طبعاً)، فليس هناك أدنى شك كم أفادتها تلك اللعنة التي أطلقها رجال الدين عليها، ربما أنقذتها سمعتها الفاسدة بالفعل، عكس المدن الدينية المحيطة بها، التي سَوَّاها «الحرس الجمهوري» مع الأرض. إذا صدقت كل تلك الحكايات ـ على الأقل الحكايات المتعلقة بالمدينة ـ التي يروونها لي، فإنها هي الأخرى تروي حكايتها عن طريق كل واحد من هؤلاء. كلا لم تكن عندي القوة اللازمة، لأقول ذلك لأي منهم. كنت مجهضاً، لا أعرف ماذا أفعل. كنت خالياً من أية رغبة، وكل ما سأفعله سيبدو ضرباً من العبث، سواء ذهبت إلى الفندق، حيث ـ ربما ـ تكون معالي نائمة الآن، أو البقاء جالساً في المقهى ـ لكنني أكره الجلوس في المقاهي ـ، أو البحث عن الأخوين حيدر وسيف سابقاً ومحمود وعلي حالياً، أو على الأقل السؤال عنهما ـ كما نصحني صاحب الفندق ـ. لا أعرف ماذا أفعل، كم تمنيت تبادل الأدوار مع معالي في تلك اللحظة: أن تجلس مكاني، وأنا الذي أكون نائماً هناك، بانتظار مجيئها وإيقاظي برقة وهي تقول: «إصح، لقد تغير الوضع!»، ولا يهم أن يتغير بأية صورة، أريد أن يتغير الوضع، وليأت بعدها الطوفان. ولكن لماذا لا أذهب لها أنا الآن، وأقول لها: «تعبت، عدلت عن مشروعي، لا أريد البحث عن وجيهة، ولتذهب إلى الجحيم هي وأسيَدْ لوتي»! ولكن هل هناك منفذ يُخرجني من الدائرة التي وضعت نفسي بها. ها هي الدائرة، تجلس فوقي، تحيط بي، لا طريق إلى ما حول، لا طريق إلى الخارج، لا طريق

إلى الداخل. كنت مغلفاً باليأس. حتى أنني لم أقوَ على النهوض إلا ببطء من مكاني؛ وربما لو راقبني أحدهم، لظنّ، بأنني أود البقاء هناك، في المقهى، وإلا لما تطلعوا بي بدهشة، عندما وقفت، وصحت بصوت حاولت أن يكون طبيعياً:

- وداعاً.

وعندما رأيت نظراتهم المتطلعة بفضول غير عادي، تأكد لي - ومن خلال نظراتهم التي لم تُخفِ شيئاً من البهجة - أنهم بدأوا يحسبونني واحداً من زبائن المقهى - مقهى الأمل - الدائمين. أمر أرعبني مجرد التفكير به. ليس لخوفي من أن أصبح قصة يرويني أحدهم، أو لخوفي من لخبطة الأمور عليّ، كلا، إنما لأنني لم أكن زبوناً دائماً لمقهى ذات يوم. ربما تكهن الشابان اللذان كانا يجلسان في الزاوية تلك ما يدور في ذهني، وتكهنا بأنني لن أعود إلى المقهى مرة أخرى، وربما لذلك السبب وليس لغيره، غادرا المقهى بالتوازي مع مغادرتي له، حتى أنني عندما أصبحت في الشارع شعرت بأحدهما يتبعني، وعندما أصبح بجانبي، قال:

- إذا تحتاج مساعدة، تعال زورنا اليوم عند المساء.

ربما بدوت بصورة تدعو لرثاء أجبرت الشاب أن يبتسم ويقول لي بطمأنينة:

- أنا محمود، وأخي علي هو الجالس في المقهى. ننتظرك هذا المساء عند المقبرة.

تذكرت حينها، أن سقراط، أو محمد منعم النقشبندي قال لي جملة شبيهة، فهو الآخر يقيم هناك. هل كل ما أسمعه صحيحاً، أم أنني في مطب الجنون، وكل ما أسمعه هو مجرد هلوسات؟ فالمقهى الذي وصفه لي صاحب الفندق (الذي ظهر، كما يبدو ليس بصاحب الفندق)، لكي يكون المكان الذي أعثر فيه على منفذ لي ولمعالي تحول ذاته إلى كابوس أو ورطة، لم يُحررني منها غير المصادفات ذاتها التي جلبتني إليها. أما معالي التي ستسخر مني بالتأكيد، عندما سأحدثها عن المقهى، وستتهمني بالتكاسل والتقاعس وعدم اهتمامي الجدي بالبحث عن منفذ لنا، وأنني هذه المرة لست بحيران فقط، إنما يائس، يبحث عن خلاصه في اللاخلاص.

ولكن قبل ذلك، قبل أن يحدث ما جعل معالي تصدق ما قلته، كان عليّ أن أقبل أحكامها عليّ على مضض. لم أكن متكاسلاً، على العكس، كنت متحمساً جداً، للخروج من الورطة، وكنت أبحث بحماس عن منفذ لنا. وإذا ما شككت في البداية، أو في الليلة الأولى بالعثور على أية إمكانية، فلسببين لا أكثر: أولهما، أنني كنت أعتقد بأن ما

ارتكبته معالي هو أمر يخصها هي وهي الوحيدة التي تتحمل تبعاته، وأنني سأساعدها في الخروج من الورطة، وثانيهما، وحتى إذا شئت أنا الذهاب، فأين يمكنني الذهاب؟ أعرف أن كل تلك القوات الأجنبية التي دخلت من جنوب البلاد في أيام الحرب الأولى، ما زال بعضها يعسكر عند أطراف مقبرة «تل اللحم»، وبعضها الآخر عند مشارف الجزيرة حتى الحدود السعودية، وهذا ما أكده محمد منعم النقشبندي من خلال حديثه. ليس هو الوحيد الذي قال ذلك، إنما قالته لي معالي أيضاً، حدثتني عن الكثيرين الذين يلجأون إلى هناك، وحتى عندما كنت في وحدتي العسكرية، كان الجميع يتحدث عن «قوات التحالف» التي عسكرت قريباً من سوق الشيوخ والناصرية والسماوة. بل ذهب الأمر ببعضهم أن يدَّعي بأن سيارات النقل الصغيرة ـ الكوستر والرف ـ تنطلق يومياً من كراج الأمير في النجف إلى هناك.

فكرت بلا جدوى الذهاب للفندق، وبدل ذلك، قررت الذهاب والتمشي في المدينة حتى حلول المساء، لربما سألتقي صدفة بأسيَدْ لوتي أو بوجيهة، أو ربما سأعثر على منفذ، وكاحتمال أخير ممكن أن أذهب في النهاية للمقبرة.

ـ ٤٨ ـ

في أحيان كثيرة تستحوذ علينا أفكار وتخمينات، تنبثق فجأة مع تنفسنا، وتجعلنا نفاجىء أنفسنا بسلوكات أو تصرفات، تتم أو تنتهي إلى عكس ما نريد مفترضين قبل ذلك، إننا اتخذنا هذا القرار أو ذاك، وليس ما نفعله الآن، بسبب خيالات، ربما يعتبرها الآخر الذي يراقبنا سخافات، أو نتاج أفكار بغيضة تطاردنا بصورة دائمة. ولكن بشكل عام، الخيالات هي مثل القصص تعتمد على الشخص الذي يمسك بها، وعلى ذاكرته، فقوة التخيل عند المرء تأتي من مجموعة الذكريات التي يملكها، ومن لا ذاكرة له، لا خيالات له، وليس من الضروري أن تتطابق تلك الخيالات مع صور كانت موجودة بالفعل في الواقع. كثيراً ما تختفي الصور، لكن أسماءها تبقى فينا، ولا يهم أنها تختفي لمدة طويلة، في أماكن الذاكرة المعتمة، يكفي أن نستعيد إسم شخص أو إسم مدينة أو إسم شيء ما حتى تحضر صورته كاملة في ذهننا. وكلما انزاح الاسم للخلف، إلى مكان بعيد من الذاكرة، كلما استعدنا صورته بوهن، ونروح نشكلها على هوانا، معتمدين على صورتين تبرزان إلى المقدمة بقوة: الصورة الأولى له عندما تعرفنا عليه، والصورة الأخيرة التي تركناها فيه. ولأنني في تلك اللحظة فكرت بوجيهة، ليس من الغريب، أن أراها تظهر فجأة أمامي، في سوق المدينة، هناك، عند الساحة الرئيسية، التي تحدث عنها محمد منعم النقشبندي، تقف بقرب إحدى السيارات، إلى جانب نساء أخريات، يلبسن مثلها

حجاباً بطريقة يبدو أنه مجرد لباس تنكري، (ليس بسبب إشارة سقراط النقشبندي - تركيبة جميلة للإسم! - عن المكان)، أكثر من ذلك، لأن كل ما توحيه وقفتهن وطريقتهن باللبس، بأنهن بانتظار الزبائن. ولكن بتعلق الأمر بي، ربما لم أنتبه إليهن، أو ربما لم أنتبه لوجيهة التي افترضها واقفة الآن، لولا ما سمعته من معالي عنها، بأنها هربت مع أسيَدْ لوتي، وهي تشتغل الآن في أحد بيوت إفْطَيْم يِّيْ دَي (لا أدري فيما إذا ما زال يُطلق عليها «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»)، وبسبب ما سمعته من سقراط النقشبندي، وثالثاً، وذلك ما تذكرته في تلك اللحظة للمرة الأولى خلال الرحلة، أنها هي وجيهة، التي باحت لي في الليلة الأخيرة (رغبتها وهي طفلة أن تصبح قحبة) قبل مغادرتها الأولى لي، بعد أن شربت نصف قنينة من العرق، تلك الليلة، التي مارست فيها الجنس معها للمرة الأولى بشكل مختلف، لذيذ تفوق لذته كل الممارسات السابقة، في تلك الليلة قبل ما يقارب سنتين ونصف، عندما نويت للمرة الأولى أن أقول لها «أحبك»، رغم (كما لاحظت لاحقاً) أنني لم أخسر الكثير لأنني لم أقل لها تلك الجملة، وأنني في المرة الثانية فقط، عندما جئت من الحرب الثانية أو العاشرة (الشيطان وحده يعرف عدد حروب هذه البلاد!)، ولم أجدها، وظننت أنها ميتة، شعرت بالضيق، أن أكون فقدتها، دون أن أسمعها تلك الجملة التي يطيب للكثيرين سماعها، تلك الجملة التي يمكن أن تقود أحدهم للقتل أو للموت أو للانتحار، تلك الجملة التي يُمكن أن تجعل أحداً ما أكثر البشر سعادة فوق الأرض، أو أن تقوده إلى الخراب؛ تلك الجملة التي حتى لو رددناها مرات عديدة، كلنا نعنيها أننا نعنيها فقط مرة واحدة، نعم «أحبك» لا نقولها إلا مرة واحدة في حياتنا، والمرات الباقية هي تنويعة على تلك المرة، أو هي تعبير عن استراتيجيات، إن لم تكن لا تعني شيئاً، مجرد كذبة نرددها على مسامع شريكنا، تلك الجملة، التي لأننا لا نقولها إلا مرة واحدة، وعندما تنتهي اللحظة المناسبة التي كان لا بد لنا أن نقولها فيها، يصبح من المستحيل أن نملك القدرة على البوح بها في وقت آخر. نعم لا يمكننا أن نقول (الآن) لشخص كنا أحببناه قبل زمن، أننا نحبك، وكلما فات زمن أطول على تلك اللحظة، كلما ازداد عبث ما نقوله. وإذا أردنا ألا نكذب، فيجب علينا الحديث عن ذلك، عما مضى، عما كنا نشعر به بحيادية. وتلك هي الطريق الوحيدة التي يمكننا فيها إنقاذ ما تبقى عندنا من مشاعر، ليس أمام من أحببناه، إنما أمام من نحبه الآن. ذلك ما فكرت به، أو ذلك ما رغبت أن أقوله لوجيهة، وربما ذلك هو الباعث الكبير الذي جعلني أتمنى من أعماق قلبي، ألا أكون أخطأت الظن، وأن المرأة التي رأيتها في تلك اللحظة، هي وجيهة، وإذا كانت هي بالفعل وجيهة، والاسم يتطابق مع اسمها (لأن وجهها ممكن أن يتغير بواسطة الماكياج أو يهرم بسرعة)، فعليّ اتخاذ قرار سريع، يكون ما يكون، مجرد اتخاذ قرار.

اقتربت من الساحة، ووقفت خلف السيارات، أقرب سيارة للبيت الذي وقفت عند عتبته شاركتها هذه المرة ثلاث زميلات لها. كان بودي التطلع فيها بتمعن ودقة من الأمام، لكي أعرف فيما إذا كانت لها الملامح ذاتها، لكن من أجل ذلك، أحتاج أن أكون أكثر قرباً، رغم أن وشاح الحجاب لم يغطِ الجزء الكبير من وجهها، إلا أنه يمنعني من رؤية الوجه بكامله، بالإضافة إلى أن الوجوه عموماً تخدع غالباً، ومن الأفضل أن يثق المرء بالعواطف والأحاسيس لهذه الوجوه، بالتفاصيل غير الإرادية التي تأتي من الآخر، إيقاع التنفس، همهمة أو إشارة، خطأ في النطق، تلعثم بالكلام، الرائحة ـ حتى الأموات تبقى رائحتهم بعد أن لا يبقى منهم شيئاً ـ، طريقة المشي أو شكل طويتي الساقين، الأصابع عندما تدق على الطاولة بنفاذ صبر أو الإبهام الذي يدعك تحت الحنك، أو النشيج أو البكاء، طريقة البكاء خاصة بكل شخص، مثل الضحكة، الضحكة التي تشي بصاحبها عندما يصطنع وينفي اسمه، والتي لا يمكن استبدالها عند كل شخص، وتساءلت مع نفسي، أليس من الأفضل أن أذهب إليها، وأضحك أمامها، ربما ذلك يجعلني أتأكد من شخصيتها. لكني بقيت دقائق أخرى في مكاني أراقبها، لأنني كنت أبحث في داخلي أيضاً عن السبب الذي جعل وجيهة (إذا صح أنها على قيد الحياة) ألاّ تكون مع أسيَدْ لوتي في مكان آخر، وليس في هذا البيت الذي يبدو أنه بيت رخيص، بيت عادي ليس بمستوى تلك البيوت، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، التي كانت تملكها إفْطَيْم يَيْ ذَي، فرغم أنني لم أكن في واحد منها، إلا أنني سمعت عنها الكثير، بالإضافة إلى ذلك، فإذا صدق وأن حلت وجيهة محل معالي، فيجب أن تكون عندها المنزلة ذاتها التي امتلكتها قبلها معالي، وألاّ تنتهي قحبة في بيت دعارة عادي، تلبس ملابس حجاب رخيصة، لم تغطِ حتى جسدها بشكل جيد، حتى أن زميلاتها اللاتي وقفن إلى جانبها بدت ملابسهن أكثر جدة، ولا يمكن أن ينقصها المال إلى هذه الدرجة، كان دائماً عندها ما يكفي، حتى في أيام محنتنا، لم نملك في الحقيقة يوماً وضعاً اقتصادياً سيئاً، يحملني على تسميته بالأزمة، كلا، كان دائماً عندنا ما يلزم، سواء من ناحيتي أو من ناحيتها، بالإضافة إلى المبلغ الصغير الذي تركه أبي قبل أن يختفي والمبلغ البسيط الرمزي الذي حصلت عليه بعد بيعي البستان إلى مديرية البلدية (حولته البلدية إلى متحف للنخيل المقاوم للعدوان!)، أنا كنت مثلها، وَفّرت قليلاً من المال، من رواتبي، بعد أن قررنا الانتظار قليلاً حتى يصبح عندنا المبلغ اللازم لمغادرة البلاد، كان ذلك قرارنا الأخير، منذ رجوعها إليّ، بعد انتهاء ليلة الاستعراض المشهودة، بمرور عام على انتصار البلاد، وعشرين سنة على ظهور الحاكم وعشر سنوات على تسلمه الراية. فلا هي (بعد انهيارها عند رؤيتها الاستعراض الحي وكل ما جرى فيه) ولا أنا كانت عندنا الرغبة بالاستمرار في العمل، رغم أنها لم تطلب تسريحها من العمل، فهم الذين

سرحوها، أما أنا فقد كنت مسرحاً سلفاً. لم نكن عاطلين عن العمل بمعنى الكلمة، فيما يخصني كنت أحصل على دخلي، أولاً من بيعي لما أحصل عليه من نخلات وأشجار البستان، حتى شراء البلدية له بشهرين قبل اندلاع الحرب الثانية، وثانياً عن طريق ترجمتي للكاتالوجات الجنسية التي كانت تستوردها إفْطَيّم بِّي دَي من ألمانيا الغربية، حتى أصبح هذا دخلي الرئيسي، أما هي فاكتفت بترجمة الكاتالوجات العسكرية (رغم شحتها في الفترة الأخيرة). كان بإمكاننا الرحيل في ذلك الوقت، لكننا قررنا الانتظار سنة أو سنتين، لحين يصبح عندنا المبلغ اللازم للسفر. لكن الحرب فاجأتنا (الحرب الأولى فاجأت زواجنا، والحرب الثانية أتت على مشروعنا بمغادرة البلاد!). وعندما سحبوا مواليدي، تركت عندها كل ما وفرته، فلا يمكن أن تكون وجيهة بعوز، لكي تنتهي إلى هذه النهاية، أمر أكثر منه غرابة، إذا فكرت بأنها انتهت إلى هنا، لأنها تملك طيشاً كافياً وجرعات كافية للمغامرة، لكي تقول لنفسها تلك الجملة «ها أنا جربت هذا أيضاً» (مثل معالي)؛ أو أنها فعلت ذلك كنوع من الانتقام لغيرتها من معالي، أو أنها تعرف أنني مع معالي في هذه المدينة، وقدمت من مدينة أخرى، لكي تقول لي، بأنها هي نعم هي وليس غيرها، ربما لديها شكوكاً أيضاً مثل شكوكي، كل شخص يعي قليلاً التغييرات التي تطرأ عليه، وأنه يقول لنفسه، «إنني طبيعي، ولكن ما أفعله يفعله الآخرون». وما هو شكل الانتقام، إن لم يكن هو مصاهرتي بشكل مشاغب مع رجال آخرين غير معروفين ـ لا أعرف هويتهم ولا عددهم ـ، والذين حتى هي لا تعرفهم وإذا سألتهم عن اسمهم فإنهم لن يقولوا لها الاسم الصحيح. ربما رأتني أنظر إليها من خلف السيارة، أو ربما أكون تحركت من مكاني دون أن أدري ورأتني هي بوضوح، تقدمت خطوتين أو ثلاث خطوات مترقبة وغير مصدقة رؤيتي هناك، أقف. رأيتها تقترب، حتى أصبحت بمواجهتي. نظرت لي، ولم ترمش، كما لو كانت لم ترني أبداً، ربما إذا كانت وجيهة، كانت تنتظر الجملة الأولى الملائمة أو الجواب، فإن جرس الصوت المتشكل أيضاً، أو اللفظ المختلف لما هو معتاد، يكسب الوقت. كان وجهها يشبه وجه وجيهة الذي أعرفه، مثلما كان ليس هو في الوقت نفسه، وكنت أحتاج بالتأكيد وقتاً آخر لكي أتأكد من ظنوني. وضَعَتْ كوعها على مقدمة السيارة التي وقفت عندها، وألقت نظرة بلفتتين سريعتين إلى الوراء، حيث وقفت العاهرات الثلاث الأخريات، اللواتي رحن يتطلعن بنا، ينتظرن النتيجة التي سنتوصل إليها، واللواتي بالتأكيد سيتحركن باتجاهي، في حالة فشل الصفقة بيننا، هذا ما يعتقدنه هنَّ على الأقل. كنَّ يتطلعن بفضول، إلينا، ثم إلى جهة اليمين أو جهة اليسار، كنَّ أقل جمالاً أو أقل بهاء، في البعيد.

ـ ها عيني، يبين طير شارد!؟

كانت جملتها مزيجاً من السؤال والحكم القاطع. ولم أعرف كيف أجيبها أو أتصرف معها، في حالة أن أقول لها ما ينبغي لي أن أقوله لوجيهة لو وجدتها وحيدة هنا، فلم أتحدث قبل هذا اليوم مع عاهرة، مثلما لم أزرْ بيتاً للدعارة، حتى وإن كان بيتاً من بيوت إِفْطِيِّم يِّيْ دَي، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة».

ـ نطلع؟

كنت أنا الذي قال تلك الجملة (التي تعلمتها من الرجال الآخرين)، الرجل ذو اليدين الكبيرتين والأصابع الخشنة الذي سحبها في تلك اللحظة من كوعها، وكأنني متأكد من سلوكي معها، أطلب منها أن تفعل ما أريده، أن عليها تنفيذ الأوامر «نفذ ثم ناقش»، شعار المرحلة، ولم أكن أعرف فيما إذا كان عليَّ أن أتصرف هكذا مع وجيهة. لكن حتى الآن لم تتم الصفقة.

ـ انتظر، عندك مكان، عيني؟

قالت ذلك، وهي تتراجع خطوة للوراء، سحلت كعبها العالي، وهي تسند قبضتها في الخصر. سمعت صوت أساورها، وفكرت بأن وجيهة تخرج هذا الضجيج في الفترة الأخيرة، رغم أنها لم تملك هذا العدد الكبير من الأساور.

ـ إلحقيني، ولا تناقشي، وإذا كنت لطيفة، أعطيك ضعف المبلغ.

وتظاهرت بإخراج، بعض الأوراق النقدية من جيبي، أو كأن عندي ما يكفي، أو لكي أوحي لها بأن ليس هناك مشكلة بما يتعلق بالنقود، هذا ما أردت أن أقوله لها، وهي فهمت قصدي، ففي الوقت نفسه، مددت لها يدي لأناولها الأوراق التي كانت عندي، مثل عربون، معتقداً بأنني أرتكب وقاحة فأنا أحتاج النقود، أو على الأقل يجب عليَّ الإحتفاظ ببعض الأوراق لما سيأتي، أو لما خَطَّطَتْ له معالي، أن علي دفع أجور الفندق على الأقل.

ـ آخذ هذا عربون، والباقي أتركه بعدين، عيني.

أخذت ورقتين، دستهما في حقيبتها، وأكملت:

ـ بعدين يعتمد الأجر على طلباتك، وعلى الوقت اللي تاخذه مني، وعلى المكان اللي نروح له. تريد بالبيت، لو بالمقبرة.

في الحقيقة، لو لم تذكر هي كلمة المقبرة، لما عرفت أين نذهب، فأشرت لها برأسي أن تلحقني. قبل أن تسير خلفي، رأيتها تشير لصاحباتها بإشارة اتفقن عليها.

وعند تحركنا، لمحت الباقيات يبتسمن، ثم يتكئن على جدار البيت المواجه للساحة لموقف السيارات، وَقَفْنَ وهُنَّ يُثْنينَ سيقانهن على الحائط، فبانت تنوراتهن أكثر قصراً. أعرف أنني رأيت وجيهة مرة واحدة بتنورة قصيرة جداً، أعتقد في تلك المرة، عندما جلست إلى جانبي في المقعد الخلفي من سيارة ملهم (في نزهتنا الفاشلة تلك قريباً من جزيرة أم الخنازير)، وتذكرت بأنني حينها رأيت جزءاً من عضلاتها التي تغطيها جواريب النايلون البلاستيكية الخفيفة، رأيت منطقة من الجلد سوداء جداً، سوداء بصورة زائدة على ذوقي.

بدأنا نبتعد عن الساحة، وكلما سرنا خطوات، كلما قلّ عدد الناس، وخاصة عندما أخذنا نقطع الشوارع الخلفية. كانت شوارع ضيقة، تعزلها بيوت أغنياء مسيجة بجدران من الطابوق عالية، وبأشجار عالية هي الأخرى. ذكرتني هذه الشوارع بشوارع مدينة المسبح أو بشوارع مدينة الوزيرية مساءً. في هذه الشوارع ممكن أن تتوقف أية سيارة وتطفىء الماكنة، دون أن تكشف أضوية السيارات الأخرى الجالسين في داخلها، بل بإمكان رجل وامرأة يحبان المغامرة أن يمارسا عملية جنسية سريعة. وإذا كنت أعرف طريقي في شوارع بغداد، لأنني درست هناك، وتسكعت مع ملهم، وعرفت عن طريقه الكثير عن تلك الممارسات الجنسية التي تتم في المقعد الخلفي في السيارة، فإنني هنا لا أعرف الطريق جيداً، وفكرت أن أمنح لنفسي الحرية بالسير، كما لو كنت في تلك الشوارع في بغداد، وأن المقبرة، التي نذهب باتجاهها، مثل المقبرة الإنكليزية، خلف سكة حديد الصرافية، بين أكاديمية الفنون الجميلة ومتحف الفنون المدرسية وكلية الآداب، أو أكثر شبهاً بالمقبرة الملكية في العيواضية، بسبب موقعها المنعزل، وبسبب بيوت الطلاب وبيوت الدعارة المجاورة لها، قبل الوصول لنهر دجلة، خلف مدينة الطب. وماذا لو سألتني الآن، فيما إذا كنت أعرف الطريق؟ كلا لم تسأل، كنت أتصرف بطريقة الرجل الذي يعطي الأوامر، والذي يعرف كل شيء، وفكرت لو كنت أسير على الطريق المعاكس، لاعترضت منذ الخطوة الأولى. ولكي أبعد شكي، تباطأت قليلاً، لكي تسير إلى جانبي. حينها رفعت الفوطة التي لَفَّت بها شعرها، وخلعت معطف الحجاب، وطوته، لتضعه مع الفوطة في كيس النايلون، ثم دحسته في شنطتها، وهي تقول:

ـ انزع جبة الحجاب، للضرورة أحكام عيني.

في تلك اللحظة رأيت أن لها تسريحة شعر متوحشة بشكل مصطنع، لا يمكنني تصوره لوجيهة، فهي اعتادت أن تعمل تسريحة شعر بسيطة، ولم أرَها تلف شعرها على شكل تجعيدات مزودة بخصلات قريبة من اللون الأشقر، ولم تضع ماكياجاً يلفت النظر، الشفتان مصبوغتان بلون أحمر الشفاه القاتم، ويبين تخطيطهما أكثر من المعتاد، والعينان بأهداب مستعارة بصورة لا تقبل الدحض، أطرافها مخططة بالأسود ومطولة، لتزودها

بتلك الخطوط الأكثر سعة والأكثر متقاربة. أما الملابس التي تلبسها، فليست لها علاقة بالملابس التي كانت تلبسها وجيهة، التنورة قصيرة بصورة مبالغة، ومضغوطة على جسمها مثل قطعة البلاستيك، فقط الحقيبة، ممكن أن تكون حقيبتها، تشبه تلك الحقيبة التي رأيت وجيهة تحملها مرات عديدة، أيضاً الحذاء ذو الكعب العالي، من الجائز أن يكون حذاء وجيهة الذي كانت تلبسه خاصة في الليالي التي تحضر فيها بعض الحفلات. فكرت، بأننا نسير مثلما كنا نسير في بغداد، على كورنيش الأعظمية، وجيهة وأنا، ليس بإيقاع الخطوات ذاتها، إنما بالصمت ذاته، أو على الأرجح كنا نسير مثل رجل وامرأة أو مثل بنت وشاب في أية مدينة في البلاد، عندما تتبع الأنثى الذكر بخطوة أو خطوتين، وهو يقودها إلى بيت فارغ هيَّأه هو (يقال ـ مكان ـ في اللهجة الدارجة). سرنا بصمت، وكنت أنظر إليها بطرف عيني لكي أرى إذا كانت تملك الإحساس القديم ذاته، مثلما كانت تسير إلى جانبي في شوارع بغداد. كنت مستعجلاً أن أراها في الوجه مباشرة وبثبات لكي أتأكد تماماً من التقاطيع، لكن يأتي الوقت لكي أفعل ذلك بالراحة، رغم أن الوجوه تخدع. سرنا ببطء، ويبدو أنني أنا الذي سار أبطأ منها، أو هي التي سبقتني، فجأة انتبهت على صوتها:

ـ وصلنا المقبرة وراء البستان.

من الصعب رؤية المقبرة من هذا المكان، يمكن رؤية سورها الواطىء من البعيد فقط، من بين جذوع النخيل والأشجار القليلة، والذي ينتهي في العمق، عند بداية التل، تل اللحم. كنت أنا الذي يريد أن يقود، فلم أتحمل أن أراها هي تدخل البستان قبلي، أسرعت خطاي، وكأنني أعرف المكان منذ زمن بعيد.

ـ وين رايح، عيني، أحسن نروح وراء النخلات ذيك، هناك، عيني.

كانت تعني، مجموعة من نخلات عشر أو أكثر، شَكَّلْنَ حزمة متراصة على شكل مثلث، وكأنهن غرفة مهيأة للزوار.

ـ ما هو إسمك؟

سألتها وأنا أجلس، فوق العشب، دون أن أتطلع بها، حيث وقفت.

ـ نجمة.

أعرف أنها تكذب عليّ، لأن ليس هناك قحبة تقول اسمها. ولكن لو كانت بالفعل وجيهة، فإنها كذبت عليّ بتعمد، وتريد السخرية مني، لأن الإسم ذاك هو إسم المؤنث من إسمي.

أخرجت علكة من حقيبتها، فيه رائحة نعناع.

ضحكت، فسألتني:

- ليش تضحك عيني؟

كيف أقول لها أنني تذكرت زميلة الدراسة حميدة نعناع التي قالت لمفيدة كامل أكثر من مرة مازحة، أنها لشدة الهيجان الذي تثيره بها المجلات الجنسية، لا يظل أمامها أحياناً إلا أن تغلق فرجها بعلكة! لحسن الحظ، كانت هي التي قد غيّرت الموضوع، وسألت:

- وأنت، عيني، شنو اسمك؟

- محمد جواد الأزدي.

كذبت عليها، وفكرت بأنني سأكذب عليها في الحالتين، سواء كانت وجيهة أو نجمة.

- محمد آخر، كل المدينة مليانة بالمحمدين، ما عندكم إسم آخر، أحلى عيني؟

علقت، وهي تضحك.

- ماذا تقصدين بأنتم؟ تقصدين زبائنك؟

سألتها بفضول، أو لأنني أردت كسب الوقت.

- كلكم، أقصد كل الرجال اللي إسمهم محمد، كل عائلة فيها واحد شاذ عنها، بالضرورة يكون اسمه محمد، ما يهم إذا كان خريج سجون أو غشاش، أو حرامي، أو مغتصب، أو قواد، كل محمد يحمل شيء من علامات النبوة، الله يستر من اسم محمد وملحقاته عيني، محمد منعم، محمد طالب، محمد عثمان، محمد حمادي، محمد أمير، محمد سليم، محمد علي، محمد سلمان، محمد رشيد، محمد عباس، محمد حسن، محمدين، محمد جواد، لا تزعل عيني، الله يخليك ويخلي المخرج محمد جواد!

ابتَسَمت، ولم أشأ منحها الإنطباع، بأنني أسخر من استخلاصاتها التي في الحقيقة لا تخلو من العبقرية، فعلقت:

- لكني أعتقد أن الإسم الشائع هو عبد؟

فأجابت متسائلة:

ـ أنت يا مواليد عيني؟

فأجبتها، دون أن أفهم ما تريده من السؤال:

ـ مواليد ٥٦.

فأجابت بسرعة:

ـ شفت عيني، هذا كان بزمانك، بزمان جيلك، كان عبد هو الاسم الشائع، تريد أعدد لك العبيد ما شاء الله، تحرسهم عين النبي محمد (لم يخلُ لفظها اسم محمد من سخرية)، تفضل، بزمانك كانوا أغلبية الرجال اسمهم عبد، عبد الرحيم، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد المؤمن، عبد المهيمن، عبد العزيز، عبد الجبار، عبد المتكبر، عبد الخالق، عبد الباري، عبد المصور، عبد الغفار، عبد القهار، عبد الوهاب، عبد الرزاق، عبد الفتاح، عبد العليم، عبد القابض، عبد الباسط، عبد الخافض، عبد الرافع (حينها أشرت على فخذيها وهي ترفعهما قليلاً)، عبد المعز، عبد المذل، عبد السميع، عبد البصير، عبد الحكم، عبد العادل، عبد اللطيف، عبد الخبير، عبد الحليم، عبد العظيم، عبد الغفور، عبد الشكور، عبد العلي، عبد الكبير، عبد الحفيظ، عبد المقيت، عبد الحسيب، عبد الجليل، عبد الكريم، عبد الرقيب، عبد المجيب، عبد الواسع، عبد الحكيم، عبد الودود، عبد المجيد، عبد الباعث، عبد الشهيد، عبد الحق، عبد الوكيل، عبد القوي، عبد المتين، عبد الولي، عبد الحميد، عبد المحصي، عبد المبدي، عبد المعيد، عبد المحيي، عبد المميت، عبد الحي، عبد القيوم، عبد الواحد، عبد الأحد، عبد الفرد، عبد الصمد، عبد المقتدر، عبد المقدم، عبد المؤخر، عبد الأول، عبد الآخر، عبد الظاهر، عبد الباطن، عبد الوالي، عبد المتعالي، عبد البر، عبد التواب، عبد المنتقم، عبد العفو، عبد الرؤوف، عبد المالك، عبد الملك، عبد الجلال، عبد الإكرام، عبد المقسط، عبد الجامع، عبد الغني، عبد المغني، عبد المان، عبد الضار، عبد النافع، عبد النور، عبد الهادي، عبد البديع، عبد الباقي، عبد الوارث، عبد الرشيد، عبد الصبور. . .إلخ.

توقفت قليلاً وقد بلغ بها التعب مداه، استردت أنفاسها وتابعت:

ـ وزراء، شخصيات، أطباء، فنانون، كلهم إسمهم عبد، شتعتقد أعرف بس القحبجية، عيني؟

فقلت لها، والابتسامة لم تغادر فمي، لدهشتي من ذاك الجهد الذي قامت به، ولعجبي من قوة ذاكرتها:

ـ كأنك تعرفين أسماءه الحسنى؟

فسألتني ببراءة (ليس بمكر):

ـ من تعني؟ الحاكم، أم قاضي القضاة.

عندما لفظت الإسم الأخير، ضربت حينها بين فخذيها.

ـ بالتأكيد أخفيت عليّ اسمك الحقيقي؟

فتساءلت متعجباً:

ـ وما هو؟

فقالت بصوت موثوق:

ـ إسم أحد العبيد اللي ما حصلت على شرف ذكرهم هنا: عبد الجواد الأزدي.

فعلقت بضحكة خفيفة:

ـ إسم واحد يصلح أن يكون من أهل الكوفة!

توقفت قليلاً، وراحت تفحص وجهي هذه المرة:

ـ لا عيني، أقبل كل البشر، إلا أهل الكوفة، لأنهم بدو، وجوهم غليظة، شخصيتهم مزدوجة، يقولون ما لا يفعلون، غشاشين، إعذرني، وجهك خال من البداوة، عيني.

هل أضيف لها حجة أخرى تضاف إلى تلك، وأحدثها عن صديق معالي، عباس، الذي حدثتني عنه، والذي لا أعتقد أنه يخلو من بدوية؟، لماذا أدوخ رأسها، وعندها من الغم ما يكفي. نعم عندها من الغم ما لم تملكه ولن تملكه وجيهة ذات يوم، وإذا كانت هي فإنها تتصنع بصورة جدية، أو ربما هو تأثير الزمن عليها، وهي تشتغل في هذه المهنة، الذي أثّر عليها بطريقة ما.

ـ كلا، لا أعتقد، أعذريني، ولكن دعي هذا إلى جانب، وقولي لي، بالتأكيد عندك عائلة وأطفال؟

سألتها، وأضفت الأطفال، وكأنني أريد التأكد من كونها ليست وجيهة.

ـ طبعاً عندي عائلة، أما الأطفال، لا، لأن كل ما أحمل، يوقع الطفل، لا تخاف، عيني، ما طول عسلة موجودة، ماكو قحبة تحمل.

قالت ذلك، وهي تجلس إلى جانبي هذه المرة. ثم أضافت:

ـ إسمع، تره أنه أنام مع اللي أخيِّل عليه بس، عيني.

كنت أريد أن أسألها عن عسلة هذه، التي سمعت إسمها من قبل، والتي يبدو أنها هي التي تجهز أقراص منع الحمل، لكن جملتها الأخيرة جعلتني أفكر بها. هل تريد أن تقول لي، بأنها قحبة ليس بسبب المال، إنما بسبب الكثير من الخيبات؟ لكني، أعرف أن وجيهة لم تكن خائبة ذات يوم، أما هذه المرأة التي تجلس بجانبي وتبتسم، بإمكان أي إنسان ذو بصيرة أن يعرف أن بسبب خيبات كثيرة في حياة المرأة، بأن هذه الضحكة الجميلة بعض الشيء هي مجرد ضحكة مصطنعة لها علاقة بالمهنة، فيها القليل من الغضب، ولم تكن على هذه الحال، على العكس، كانت ضحكة صافية، تخرج من القلب، حتى زمن قريب، عندما كانت هذه المرأة ما تزال عذراء، أو ما تزال سيدة، وعندما كان المستقبل ما يزال أمراً غامضاً، قبل أن تمارس هذه المهنة، أو قبل أن تدخل إلى مطحنة هذه المهنة، من يدري ربما هي الحرب هي التي قربتها من المطحنة، وإذا صح ما تقوله، بأنها لا تذهب إلا مع الذين يعجبونها، فهي إنما تريد أن تقول بأن يمكن تصنيفها ضمن صنف ما يطلق عليهن بالقحبات، رغم إن إشكاليات العلاقات الاجتماعية، بكل أنواعها: النهارية والليلية، تمنعنا من الميل لإطلاق أحكام أنانية سريعة، في الحالتين، سواء كانت هي وجيهة، أم لم تكن. بلا شك أن هذه المرأة تنام مع الرجال بسبب المال، ويستطيع المرء أن يسميها قحبة دون لف ودوران، لكن هناك بالتأكيد ما يدعوها، أن تفعل ذلك، فقط عندما ترغب بذلك ومع من تريد، لذلك من الضروري إستثناءها من المجموعة، صنف القحبات. إنها، مثل أي شخص طبيعي، عندها وظيفة، ومثل أي إنسان طبيعي تستغل الساعات الباقية عندها، لكي تحصل على بعض الرجال الذين يرضون جسدها وحاجاته، الحاجات الخاصة جداً والحاجات العامة. وإذا لا يريد المرء أن ينزلها إلى تعريف بسيط، واطيء، فعليه أن يقول لها في النهاية، بأنها تعيش هكذا، كما يحلو لها، وعبر ذلك تحصل على متعتها، وعلى دخلها.

ـ وأنت، راح تبقى تسأل والحزب يجيب، (تذكرني بالشعار الذي كان يُنظم تحته الحزب الحاكم ندواته في كل مدن وقصبات البلاد!) عيني، هنا ماكو حزب بعد، ولا مخابرات واستخبارات أمن، وأمن رابع، وجهاز خاص، وجهاز عام، ولا كوفة ولا هم يحزنون، كل واحد بحريته، بصايت الله وأبو الحسنين وقوات التحالف، عيني!

سألتني بنفاد صبر.

ـ لا تستعجلي، فقط لحظات قليلة وننتهي من القضية.

أجبتها، ولا أعرف ماذا أقصد بالقضية، أو عن أي قضية سأتحدث، لو سألتني.

ـ العفو، العفو، عيني، أنت تأمر، واحنه ننفذ، عيني.

قالت، وضربت في النهاية بقبضتها ضربة خفيفة، بين فخذيها.

بدأت أشعر بصعوبة الحوار معها، وعليّ الخروج من المأزق بطريقة ما، ومعرفة ما الذي أريده، فحتى الصمت، لن يكون الطريقة الأمثل، فلقد تبدل الوضع منذ وصولنا البستان، وجلوسنا في هذا المكان المنعزل. قبلها كنت أفكر بأنها وجيهة وبأن بمقدورنا ترك التغاضي وأن نتحدث عن كل شيء أو عما هو معتاد بيننا، لنتحدث بصورة صريحة، عن الأسباب التي دعتها أن تتركني، ولماذا ذهبت مع أسِدْ لوتي، أو لماذا بدأت بالعمل عند إفْطَيِّم بِّيْ دَي، أو ما الذي جعلها تنتهي إلى «تل اللحم»، وتذهب مع الكثير من الرجال، وحتى لو كانوا ـ كما تدعي ـ يعجبونها، ألم تشعر بالخطيئة؟ ولكني لم أستطع الفكاك من الشعور الآخر الذي استحوذ عليّ منذ أن عرفت بأنها ليست هي، وأنها امرأة تشبهها ـ ألم يقولوا كل سبعة أشخاص من حبة واحدة ـ، وإنها واحدة من تلك المصادفات التي تحدث غالباً، كما لو كانت وجيهة امرأة بحياة أخرى أو بقصة أخرى، الشخصية ذاتها التي يمكن أن يكون بادلوها بأخرى وهي رضيعة في المهد ـ كما نقرأ في الصحف أو نسمع في الراديو أو نرى في التلفزيون ـ بالهيئة نفسها لكن بذاكرة أخرى وباسم آخر وبماضي آخر لم أوجد فيها أنا ـ فقط الحاضر هو الذي يحسب حسابه دائماً ـ ربما ماضي طفلة من الغجر (الكاولية يطلق عليهم باللهجة الدارجة) أحيطت مخدتها بأشياء غير مرتبة فوق عربة يجرها حمار أو بغل، وترى من مكانها أطفال المدينة أو أطفال العوائل الغنية تعلك علكتها، ملتصقة وجوههن بزجاج السيارات التي تمر بها، ويتطلعن بها بفضول؛ أو ربما ماضي صبية بضفائر ذهبية، تلعب في ساحة المدرسة، وتأتي الشرطة تسحبها من ضفائرها وتلقي بها مع عائلتها في بطن زيل عسكري، وتلقي بهم عند الحدود الإيرانية بتهمة كونهم «أكراد فَيْلية»، أو ماضي طفلة كردية سفروها مع أهلها من شمال البلاد إلى جنوبه، ترى كل يوم من فتحة خيمتها أو عند حنفية الماء حيث تملأ أمها الماء، ترى بنات العوائل في الجوار يتأبطن حقائبهن المدرسية، أو لماذا لا تكون بماضي امرأة ذهب زوجها، معيل بيتها الوحيد، إلى الكويت ـ ليس بسبب سهاد مهتدي الصباح ـ وقُتِل هناك، أو فرّ وقتلته طائرات التحالف على طريق الموت، أو يكون وصل مشارف البصرة، وقتله جنود الحرس الجمهوري، أو وصل حياً، لكنه وصل متأخراً، بيوم، أو بساعة، أو بدقيقة، من غير المهم، لأن الأمور هكذا في أغلب الأحيان، تسير على طرف السكين الحاد، وعليها إلقاء نظرة على كتب التاريخ التي تخبرنا دائماً، عن كل تلك القصص التي انتهت بسبب طرف السكين الحاد ذاك، ممالك اندثرت، ملوك انقلبوا على أخوانهم، أبناء قتلوا آباءهم وتزوجوا أمهاتهم، أزواج قتلوا

زوجاتهم خنقاً، سياسيون انتحروا، عشاق قتلوا بعضهم، (وإذا لم تكن هي وجيهة، ولم تدرس في الجامعة)، ولا تعرف القراءة والكتابة، فلتلق نظرة حولها، مدن اندثرت، مراقد مقدسة دكتها الدبابات ودمرت قببها الطائرات السمتية، نخيل خُرِق، أشجار ماتت، حيوانات قُتِلَت، طيور تموت منتحرة ما أن تصل أطراف الخليج، بل لتنظر لتل اللحم، ولتتأكد بنفسها، وحتى وإن لم تعش هنا، فستعرف بسرعة، ما الذي يحمل كل هذه الناس أن تلجأ إلى هنا، ولماذا تحول «تل اللحم» بسرعة، إلى ملجأ لكل هذا الخليط العجيب من البشر، إلى هذا الخليط من القصص، إلى مقبرة للغرباء، لا يدفن في مقبرته سكان المنطقة موتاهم، فقط البدو الرحل والغرباء والمهربون والمنفيون والمطاردون، هم الذين يدفنون هنا، وإن هناك فقط مقبرة أخرى، قريبة منه، اسمها «اللقيط»، هي المكان المفضل لدفن موتى سكان المنطقة. وماذا عن حكاية الغريب الذي تذكرته لاحقاً (ساعة إنهيال مونولوجي الداخلي)، كما جاء خبره في راديو الترانزيستور «أطلق النار على نفسه»، في المرة الأولى التي جاءني الخبر مقطعاً مثل صوت تقطعه نشارة الخشب، لم أشأ الإعتقاد أن ما أسمعه حقيقياً (هل كانت لي القدرة على سماع الصوت، أي صوت، في تلك اللحظة!؟)، ولم أتساءل حينها، كما أتساءل الآن، لماذا اطلق ذلك الغريب على نفسه الرصاص في هذا المكان؟ هل هو قدر الغرباء ألا يجتازوا هذا المكان أبداً؟ وإذا اجتازوه فإنهم سينتهون حتماً، أما مخربين أو مهدمين، قدرهم مثل قدر موسى (اللاوّيّ) الذي كان عليه أن يموت في اللحظة التي أوصل فيها شعبه للأرض الموعودة (هذا إذا افترضنا أن «تل اللحم» هي الأرض الموعودة!)، ليخرج صفر اليدين بعد رحلة التيه الطويلة، حتى أنه لم يملك ولو قبراً يدفن فيه؟ كيف لي توضيح ذلك؟ ما زال هناك الكثير لكي أشرحه لها، وأقول لها أن الحدود واهنة جداً، وكل شيء معلن بصورة خطيرة، مع وثبات القلب في القفص الصدري، في كل حكاية. ما زال بالإمكان أن أحكي لها، وأحكي عن طرف السكين الحاد، الذي يقطع رقابنا، وأن من غير الضروري التغاضي عن بعضنا البعض، فمن الأفضل أن نكشف جميعنا الأوراق أمام بعضنا، وألا نخاف الحكاية، وأنا أعرف أن الحكاية مثل صنبور ماء، فما أن نفتحه، حتى يبدأ بالجريان. ولكني بدل أن أحكي لها سألتها:

ـ هل أنا أول زبون اليوم؟

فأجابتني بانزعاج:

ـ هذا غير مهم، وأنه من هسه أصارحك ما يعجبني أحكي عن شغلي، فهمت، عيني؟

راحت تعلك علكتها بقوة، تعبر عن نفاد الصبر، ففاحت من العلكة رائحة النعناع الممتزجة مع رائحة العطر الذي وضعته، ربما كان عطر الكاشير، إنه العطر ذاته الذي تستعمله وجيهة.

ـ أنت غريبة، لا تريدين أن تحدثيني مثلاً عن عائلتك، ولماذا جئت إلى هذه المهنة، يبدو أن الذي يهمك الفلوس فقط.

مدت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت الأوراق النقدية التي أخذتها مني، وقالت، وهي تهم بالنهوض:

ـ خذها، أرجوك، ما أريد فلوسك، وأنا رايحه، مع السلامة، عيني.

سحبتها من ذراعها بقوة، وأجلستها في مكانها:

ـ لا تحاولين الوقوف مرة ثانية، أنت هنا، لكي تفعلي ما أريده منك.

قلت لها بصوت خشن، ولهجة آمرة، حتى أنني تفاجأت من نفسي، وهي كذلك بالتأكيد، في تلك اللحظة فكرت بأننا معشر الرجال ممكن أن نسبب الخوف والذعر عند النساء بمجرد لفظنا جملة بصوت خشن، أو بصوت بارد، بحركة عنيفة من أيدينا، أو ببحلقة قوية من عيوننا، فأيدينا أقوى من أيديهن ومتدربات على الخنق منذ عصور طويلة.

ـ مثل ما تحب، لا تنفعل عيني، لا تغضب مني أرجوك، العفو سامحني عيني.

قالت لي بصوت مسالم، لكي تصالحني.

ـ انت اللي انفعلتي، وليس أنا، ما تريدين الحديث عن عائلتك، ولا عن شغلك؟

فنظرت لي متعجبة، النظرة ذاتها التي كانت تنظر لي بها وجيهة، عندما نتناقش، أو نتشاجر، هكذا دخلنا أنا ونجمة بنقاش يشبه النقاش المألوف بين الزوجين.

ـ العفو، يعجبك أنت تحكي عن عائلتك، وعن شغلك، شتشتغل؟

سألتني بهدوء، وما زال بعض من الخوف في صوتها.

ـ أنا مخرج تلفزيوني.

كذبت عليها، وصَمَتُّ أنتظر أن تطلب مني مثلاً أن أسألها ألا يعجبها أن تشترك في أحد الأفلام، لم تسأل، فسألتها:

ـ ألا تريدين التمثيل بالتلفزيون، طبعاً على شرط أن تضعي باروكة؟

ـ أنا؟ بالسينما، وشعري شبيه؟ ليش الباروكه عيني؟

سألت متعجبة، لم أجد جواباً، لأنني بالأصل ألقيت جملتي الأولى دون تفكير، وفي الحقيقة «لماذا الباروكة»، شعرها جميل بالفعل، وعندما لم تسمع جواباً مني، أكملت:

ـ لا أرجوك، شغلي أحسن ومرتاحة بيه، لا شكراً عيني.

ـ يعني أنت ما تصدقين بأني مخرج تلفزيوني، وبأني أصنع آلاف الممثلات والممثلين من العدم، يمكن أجعلهم بأصبع مني في يوم واحد يمثلون مسلسلة عنتر وعبلة، تكذبيني؟

قلتها متذكراً بالفعل جملة للمخرج التلفزيوني المحلي عبد الجواد أو محمد جواد الأزدي، لكن الفارق بين جملته وجملتي، أنه قال جملته آنذاك بحماس مفتعل أمام المذيعة المسكينة التي كانت تجري معه المقابلة، بينما ألقيت أنا جملتي بالبرود ذاته، ذلك البرود الذي بعث فيها الخوف من جديد.

ـ أرجوك لا تزعل، ما أريد دور عبلة، ويكفيني العناتر الوطنية اللي تركتها وراي ببغداد، أتوسل بيك لا تغضب، عيني!

ـ تخافين مني؟

أعرف أنني أريد أن أجرب رد فعلها، فإذا كانت وجيهة، فلا يمكن أن أسبب لها، كل هذا الخوف.

ـ بهذي اللحظة لا.

أجابت كما لو تقول لي، ننتظر ونرى، كيف تتطور الأمور. ثم سألتني فجأة:

ـ شكلك يعجبني، لأنه لا يشبه شكل مخرج تلفزيوني أو شكل مخرج مسرحي أو سينمائي وطني، ولا تتعجب إذا قلت، إن شكلك ما يشبه شكل واحد من أبطال الوطن ولا من حاملي وسام البطولة، شكلك حلو، حبّوب ومريح، يطمئن القلب.

صمتت برهة، وكأنها تختبر رد فعلي، ثم تابعت مباشرة:

ـ عيني، شلون تريد؟ أمصه لك، لو من قدام، لو من وره على القدام، لا تقول من الطيز، تره عندي الدخول بس من الباب الرئيسي، ماكو دخلة من الباب الخلفي، ماكو أبداً، لا من الطيز ولا بوس، فهمت عيني، أقول لك من هسه، أنا وياك مو

بالسينما، ولا على خطوط النار، مفهوم، عيني؟

كان في كلامها شيئاً من السخرية، لكنها كانت تلقيه بنبرة جدية، تجعلني أفكر، أنها بالفعل كانت تنتظر جواباً مني، لكني بدل ذلك سألتها:

ـ ألا تخافين من المجيء مع شخص غريب للبستان، ولا تعرفين ماذا سيحدث لك؟

ألححت عليها بالسؤال، وهذه المرة بدا صوتي حتى بالنسبة لي يثير القلق.

ـ طبعاً أخاف، لكن شاب مثلك لطيف، ليش أخاف من عنده، شكلك مليان حنية، عيني؟

في صوتها شيء من الخوف، شيء يحمل النذير، ورأيت كيف راحت تتطلع بي بطرف عينيها بحذر، وفجأة احتقنت تقاطيع وجهها، ففكرت كم هو من السهل على الرجال أن يدخلوا الخوف في لحظة واحدة إلى النساء. أو كم هو سهل إدخال فكرة الخوف في ذهن أي شخص كان، كل شيء يلقي عدواه بسرعة، وكلنا نكون مقتنعين به، تكفي حركة واحدة. وجيهة أو نجمة هي الآن خائفة، رغم أنني الآن مع نجمة، فمن الممكن أن أخيف وجيهة، عندما تكون هي في نفس الوضع وتذهب مع باقي الرجال، أو ما الذي يحصل لو اقتنعت فعلاً بشخصية المخرج التلفزيوني عبد الجواد الأزدي (مجرد تخيل شكله يثير الخوف ليس عند البشر، إنما عند الكلاب ـ روى هو ذاته طرفة للمذيعة التي قابلته، كيف أنه ذهب مع إحدى السيدات الأوروبيات إلى بيتها، وكيف أنه اضطر لمغادرة الشقة بسبب ارتعاب الكلب منه وشروعه بالنباح وعندما طلبت منه السيدة، أن ينظر للكلب برقة اشترط عليها إما أن تقبله هو أو كلبها في غرفة النوم، فقالت له من الأفضل أن يغادر هو!). حاولت إخافتها أكثر، بتأكيدي على شخصية المخرج التلفزيوني.

ـ ليش أنت مصر على شخصية هذا الجربوع؟

سألتني متضايقة. في الحقيقة فاجأتني جملتها، حتى أنني لم أكن متأكداً في البداية من تقصد بالجربوع.

ـ الجربوع؟ من تقصدين؟

ـ منو غيره، عيني، الأزدي، أنت مو الأزدي، لأني أعرفه؟

فسألتها متعجباً:

ـ من أين تعرفين الأزدي، هل كان زبوناً عندك؟

بصقت، وتقلصت عضلات وجهها معبرة عن الاشمئزاز، كأنها على وشك التقيؤ، لكنها تمالكت أعصابها، وأجابت:

ـ لا عيني، شفته هذا الجربوع، اللي شكله يشبه شكل الوحش بالتلفزيون، بعدين، مثل ما تعرف، حياة الفنانين مفضوحة، تصور الكل تعرف، أن الأزدي عنده من زوجته الأولى طفل معوق، تنكر له وتركه في دار المعوقين في دمشق، أما زوجته الثانية فأعوذ بالله، لو تجي تشتغل هنا أحسن، تعيش بالأردن على راحتها، يومياً تستبدل عشاقها، محمد منعم النقشندي، راح يفتخر لأن ضمه لحزبه، «حزب المقرّنين العرب»، عيني.

حاولت أن أكتم ضحكة، بينما سعيت جاهداً ألا يفقد صوتي نبرته الجدية، لأسألها محاولاً تغيير الموضوع (في الحقيقة لا أحب أنا الآخر هذا الأزدي، لأنه دَعِي آخر يضاف إلى مجموعة الأدعياء الفاشلين في البلاد).

ـ ولكن ألا تعتقدين بأنك تبالغين؟

قالت بنفاد صبر:

ـ ليش أبالغ، ذنبهم هم، اللي على شكل الأزدي، ينفخون أنفسهم في التلفزيون، وهم أكياس فارغة، إذا عصرتها يخرج الضراط منها، لكنهم رغم ذلك شريرين، وإلا شلون يترك ابنه المعوق ويتنكر له؟ تعتقد أن هذا إنسان؟

فقلت لها:

ـ وما هو رأيك بالحاكم؟ هل هو من صنف البشر؟

تأففت. صمتت لبرهة، ثم قالت لي، وفي صوتها شيء من التوسل:

ـ أرجوك لا تكون مثل قسم منهم، واترك الأزدي والحاكم وكل هذه الشخصيات الحقيرة، أنت شاب رقيق، عيني؟

ـ كلا، لا تخافي مني.

قلت لها مستسلماً لشخصيتي التي تحمل الإسم المذكر من إسمها. ثم سألتها:

ـ ماذا تقصدين بالقسم منهم؟

سكتت، ربما لم تشأ الحديث في بادىء الأمر، تطلعت بي، ربما لتتأكد فيما إذا كنت غاضباً عليها أم لا، فقالت في بادىء الأمر:

ـ يعني، أقصد قسم من الزبائن هنا في تل اللحم. . .

لاحظت برودي، وسكوتي، فخافت أن أرجع إلى حالتي السابقة، فتابعت:

ـ شوف عيني، هذه المنطقة كانت دائماً خطرة، سابقاً بسبب الدين، لأنها كانت

مكان ضرب القامة بعد منع القامة، وآخر مرة يقولون، هجم الجيش على ضاربي القامة، المساكين، ما يعرفون، أن المنطقة محرمة، مو بسبب القامة، أكثر شي، بسبب مخازن الأسلحة الكيمياوية، وحتى بذاك الوقت كانوا يجون زبائن مو مريحين، وكل الناس، وخاصة القحبات الأقدم بالشغل هنا، تحكي عن شاب أريحي، اسمه ملهم، كان واحد من الضباط الخريجين بالمنطقة، خريج كلية علوم، وكان يحاول حماية اللي يشتغلن هنا، كان كلما يسكر يطلع الشارع يفضح قصة معمل الأسمدة الكيمياوية أو معمل الدواجن ويصرخ ويقول بأن المعمل هو أصلاً معملٌ للأسلحة الكيمياوية؛ قتلوه، بعد أن حاول يحرق معمل الدواجن، لكن بسبب محبة الناس له، ظل ذكره على كل لسان، ومو غريبة إذا حاول بعض الشباب هذه الأيام تقليده.

سكتت، بينما رحت أفكر قائلاً لنفسي «إذن، لم يكن تذكري للشاب الذي حكى عنه الجنرالان الألمانيان عبثاً، إنه ملهم الذي تحدثت عنه معالي. ولكن هل هو ذاته، صديقي ملهم، الذي لم يكن خريج كلية علوم، إنما خريج كلية الآداب قسم اللغات الأوروبية، فرع اللغة الانكليزية، أم أن الأمر مصادفة لا غير تضاف إلى مجموعة المصادفات التي تشكل حياتي، لأن ملهم الذي أعرفه، ما زال أسيراً في إيران؛ أو، إذا لم يكن الأمر كذلك، فهل يكون من المعقول أن أهل ملهم انطلت عليهم قصة أسره، مثلما انطلت عليّ، بعد أن يكون بالفعل هو المعني في هذه القصة، الضابط الشاب الذي قُتِل في «تل اللحم» على يد السلطات!؟

لبرهة وجيزة فكرت أن أسألها عنه، لكني أبطلت الفكرة، بعد تذكري، إنها لم تره، إنما سمعت به، ولن تضيف أجوبتها (إذا افترضت أنها ستجيب) لي شيئاً، وأن من الأفضل لي، أن أنحي قصة ملهم الآن جانباً، وأصغي لما ستقوله، وخاصة عندما شعرت بأنها لم تتعب من الحديث، على العكس، أن ملامح وجهها تشير إلى الإصرار على مواصلة الحديث، وكأنها تحصل على فرصة فريدة بالتحاور مع أحد، فرصة لا تريد أن تضيعها، ربما لمعرفتها أنها لن تحصل عليها. هكذا سمعتها تكمل:

- شوف، لو ما الشابين محمود وعلي، كان يكون الوضع خطر، لكن خطيه هما الوحيدين اللي يحرسون البنات، على خطى ملهم، نعطيهم مرات بخشيش، ما ياخذون مبلغ ثابت، وهمه الوحيدين اللي يمنعون الباقين يأذونا، مثل هذا اللي يلبس ملابس عسكرية، ملابس الضباط، وكل ما يروح ويه قحبة، يبقى بالملابس وعلى راسه بيريه، وما يكفيه الحزب اللي أسسه، «حركة المقرّنين العرب»، مرات يوقف عند الساحة، هناك بالمكان اللي شفتني بيه، ويطلب من كل الزبائن أن يلبسوا البيريه والملابس العسكرية إذا راحوا ويه وحدة من عندنا، يقول لازم تعرف النسوان منو هو السيد الآمر، عنده عقدة

خيانة زوجته له، راحت نامت مع ضباط، والثاني الملقب بالصهيوني. . .

فقاطعتها متسائلاً:

- الصهيوني؟ من تقصدين؟

فأجابت بعجلة وبنفاد صبر:

- محمد طالب حمودي، كل ما ينام مع وحدة، تجحظ عيونه، ويزبد، ويروح يصرخ بها، أخذي عيري الصهيوني، وهو في الحقيقة، عنده مشكلة بالجنس، خصي، يقول أنه مضمد، كلما يروح مع وحدة، يطلب فحصها، لكن إذا أجيت للحقيقة، هو براسه شي واحد بس، يريد إقناعنا أن نبيع له أحد أعضاء الجسم، هو تاجر بالأعضاء البشرية ويعرفنه قسم من القحاب اللي يشتغلن معاي واللي كانن يشتغلن ببغداد، كان عن طريق علاقاته مع الجيش، يحصل على عيون المعدومين، أو عيورتهم، ويبيعها للمحتاجين من المسؤولين، أو يصدرها عن طريق الحكومة للخارج. أعوذ بالله منهم، عيني، عندما نشوفهم نشرد، ما نريد نشوف خلقتهم، يحاولون يستغلون الناس اللي تريد تشرد لقوات التحالف.

ربما لم تلاحظ نجمة (أو ربما كان اسمها وجيهة) ذهولي، وإلا لما استمرت في حديثها عن الرجلين. إذن تلك هي قصة الرجلين الحقيقية، وكل تلك القصص التي روياها عن أنفسهم، تدخل في خانة ابتكار شخصية وحياة ليست لها علاقة، بتلك الحياة التي تعود لهما، كل على انفراد. ولكن هل هما الوحيدان اللذان يفعلان ذلك، ألم نقرأ ذلك في الأدب، ونراه على المسرح، وعلى شاشة السينما. فقط في الحياة، يتغطى بطبقة سميكة من الأكاذيب والخيالات، ودائماً يجب أن يكون هناك من يأخذ دور الإله الذي يراقب وهو من ظله، والذي عندما يتعب من الوقوف هناك في المنطقة المظللة، يخرج، ويكشف لنا ما كان خافياً، ما كان سراً، أليس ذلك ما يحدث لنا دائماً، عندما يواجهنا شخص بعد سنين ويقول لنا: «قبل سنوات فعلت كذا وكذا»، حينها نقف باهتين، لا نعرف كيف نرد، ليس لأننا نسينا ما فعلناه، بل أننا اعتدنا على الحياة التي اخترعناها لأنفسنا، وبدأنا نصدقها، ولم نعد نعرف حدود الصدق من حدود الكذب، لذلك هناك آلهة، وهناك قضاة وهناك متهمون، وكل واحد منهم مقتنع بالدور الذي اختارته له الحياة أو التي أجبرته على اختياره. فكرت أين أضع وجيهة أو نجمة بين هؤلاء، بالنسبة للآخرين، للطرف الثالث الذي يقف في الظل، هي قحبة، وبالنسبة لها هي نفسها، الأمر يختلف، إنها امرأة تذهب مع من تشاء، كما تقول، وفي النهاية كلنا، كل البشرية، مسكونة برغبة الجماع، أو النيك كما يقولون، وأن أجسادنا لم تقلع عن عادة أن تكون لجميع الناس، إنها لا تقنع بواحد، فمن يلعب دور الله هنا؟

- ما عادت شغلتنا مريحة، عيني، قبل أيام لقوا ابنية مقتولة، بعدها ببداية شبابها، كانت أول يوم تطلع بيه للشغل، كانت فقيرة، مو من ذيك البنات الملعبات، كانت تحكي لي كل شيء، عرفت منها، أنها أجت غصبن عليها مع هذا محمد طالب حمودي الصهيوني، قشمرها، وقال لها راح أتزوجك، بعد أن تعرف عليها ما أدري وين، وكانت هي شاردة من قريتها، ومجهضة قبل وقت قصير، نام معها خطيبها، وعندما فقدت بكارتها، ما قبل يتزوجها. المسكينة صعدت في يوم بالمساء، مع واحد بسيارة سوبر، في اليوم الثاني لقوها مشمورة بوسط البستان، جسمها مشوه، أخذوا عيونها الزرق والكليتين والقلب. ما أخذت نصيحتي، قلت لها أول يوم، أن تركب السيارة بالفلوس القليلة اللي عندها وتروح لقوات التحالف، ما أخذت نصيحتي. راحت المسكينة بلاش. باليوم الثاني نسوها الناس، وإذا حكوا عنها يقولون، قحبة، إذا كان الإنسان ما عنده قيمة بهذا البلاد، فكيف القحبة، عيني.

أكملت بصوت حزين هذه المرة، أكثر منه خائف.

- وتقول ما تخافين؟ شلون ما أخاف.

مددت يدي إلى جيب البنطلون، وسحبت ورقتين نقديتين أخريتين:

- خذي هذه النقود، وارحلي إلى قوات التحالف.

قلت لها وأنا أمد النقود باتجاهها.

- شكراً، وين أروح عيني، ماكو واحد يترك المكان اللي انولد وعاش بيه، لو أريد أروح كان رحت من زمان، عندما كانت قوات التحالف تعسكر فوق التل، من جهة المقبرة الثانية، مو هسه، أعرف، الناس تدفع مبالغ كبيرة للمهربين أو لأصحاب السيارات حتى يأخذوهم لمعسكرات اللاجئين على الحدود، المدينة مليانة بالمغادرين، السوق زين هالأيام، والله حباني بكس نظيف وحلو مثل ما يعجبك (وكأنها تُعيد تشكيل جملة المطرب المحلي المشهور الذي قال يتفاخر في مقابلة معه: الله حباني بصوت حلو!)، وأنا باقية هنا لحد ما أموت، المقبرة قريبة، والوطن هو المكان اللي اشتغل بيه براحتي، واقتات بيه مثل ما أريد، مستقبلي ومستقبل وطني، هو كُسي.

مرة أخرى تريد تعليمي الحكمة. ومرة أخرى لا تعوزها الحكمة، لأن الحكمة هي إبنة الخبرة، والخبرة مصنوعة من الخيبات، ونجمة امرأة لا تعوزها الخيبات، وعلي مواصلة الحديث معها من العلو نفسه، أن نكون أنا وهي عند المستوى ذاته، لأننا الإثنان، نتحاور ونجلس بقرب بعض، وكل واحد منا موافق على دوره، مثلما هي الحال

بيني وبين معالي، أو مثلما كانت هي الحال بيني وبين وجيهة، لكن وجيهة هي التي لم تشأ الإستمرار على الدور الذي أنيط بها.

لم أرجع النقود، إنما أبقيتها في يدي.

ـ خذيها في كل الأحوال، فأنا أخذت من وقتك الكثير، بإمكانك أن تذهبي.

أخذت الورقتين، طوتهما. فتحت حقيبتها، ووضعتهما في داخلها، ثم نهضت وهي تغلق الحقيبة:

ـ إذا عندك رغبة تنيك، قل لي قبل ما أروح، انت حلو حباب، ويعجبني اتنيكني، عيني.

قالت ذلك وهي تعاينني بحذر. وكأنها ما زالت خائفة، فالنساء يعرفن أن الرجال عندما يُدخِلون الخوف في عقولهن، فإنهم إن تنازلوا، فلفترة قصيرة فقط، يمكن أن يعودوا إليه في أية لحظة كانت. لذلك، ظلت هي خائفة. لقد فاجأها اقتحام هذا الخوف، واقتراحها الأخير هو محاولة منها لإغرائي أو جعلي ألين. أخرجت علكة جديدة من حقيبتها، ووضعتها في فمها، وقالت:

ـ ما تريد اتنيكني، وتخلص من البزر اللي عندك، رغم أني ما أعرفك، لكني يعجبني طولك، أنت شخص غريب، لو ما لهجتك اللي تحكي بيها، كان قلت جاي مو من هذي البلاد، عيني؟

وقفت بمواجهتي، الآن أراها أفضل من الأمام، رغم ضوء المساء الشاحب الممتزج مع ضوء واهن لمصباح معلق فوق عمود كهرباء لم يكن قريباً منا. لم يكن وجه وجيهة كما تمنيت (لكن ربما تحمل اسمها!). كانت وجيهة في الثانية والثلاثين من عمرها ونجمة ما تزال في أواسط العشرينات من عمرها (لم أسألها عن عمرها)، كما لو أنها توقفت عند عمرها عندما تخرجت من الجامعة، أو عندما تزوجنا، لكنها تبدو أكبر سناً من وجيهة، بسبب التجاعيد الأولى التي زحفت على وجهها، تجاعيد التعب أو تجاعيد الخوف الذي انغرز في نظرتها، أو التنبوء بحياتها المحطمة أو ربما هي تجاعيد مؤقتة، تجاعيد عابرة، أو ربما سببها الماكياج المبالغ به لبنت شابة مثلها والتنورة التي لبستها والتي لم تغط إلاّ الجزء العلوي من أفخاذها، فهي في زي الحجاب بدت أكثر شباباً رغم ماكياجها، والتي بعد نزعها «الجبة» كما سمتها، بدا ثدياها منتصبين ومرفوعين بذلك البلوز الأسود، والساقان مكشوفين بالتنورة القصيرة التي تجعدت قليلاً عن المؤخرة بسبب جلوسها الطويل في البستان، أو عند صعودها في السيارات (رغم أنها بعد حادثة البنت المقتولة توقفت عن الصعود بالسيارات). تلك المرأة أجزت عليَّ فضلاً لا يصدق لوقت طويل وفي تلك اللحظات عادت تفعل الشيء ذاته بلمعانها المكتوم وفمها المستدير وطريقة

تصرفها السيئة، بعينيها المصبوغتين بلون الليل المظلم وأيضاً بالخوف من أصابعي ورغبتي، وأوامري المستمرة.

مددت يدي تحت تنورتها، ولمست عضلة الجلد بين جواربها ونهاية فخذها، مسدت العضلة.

- على أي حال، في النهاية هو قرارك، إذا أردت البقاء والحديث أو أن تلبسي جبتك وتذهبي.

سحبت يدي، وانتظرت رد فعلها.

- للمرة الأخيرة، رغم أني ما أعرفك من قبل، لكن يعجبني اتنيكني، عيني.

قالت تلك الجملة بيأس، ثم انتظرت رد فعلي، خمس أو عشر ثواني. لبست جبتها واختفت تدريجياً من المكان.

- ٤٩ -

هناك فعل في اللغة الألمانية تعلمته أيام خدمتي العسكرية، وظل عالقاً في ذهني أكثر من أي فعل آخر، ولا يهم أنني كنت أكرهه إلى درجة كبيرة، حتى أكثر من كرهي لأي شتيمة، ولم ينبع كرهي له عن بطر، أو لأن له رنين سيء في الأذن، عند السماع، كلا، ليس لذلك السبب، وليس للأسباب التي يظنها المرء، حتى وقبل أن يسمع باسم الفعل، فعلى العكس، وتلك هي المفارقة، أنه يحمل صدى رقيقاً عند لفظه، عند سماعه بصورة مجردة، دون التفكير بمعناه، أو دون الإضطرار لسماعه يومياً مرات عديدة، وهو لا يحمل تلك الخشونة التي يلحقها البعض الآخر باللغة الألمانية، بسبب مقاطعه الصوتية القصيرة وليونتها، مثلما لا تكمن مشكلته في معناه، فلو كنت سمعته مرة واحدة في حياتي، دون تلك العلاقة التي ارتبطت معه، والتي جعلت حياتي جحيماً منذ اليوم الأول الذي تعلمت فيه أهمية هذا الفعل، والدور الذي سيلعبه في حياتي منذ اللحظة التي حل فيها الجنرالان الألمانيان الشرقيان في وزارة الدفاع، وطلبهما مني القيام بترجمة الأشرطة المسجلة التي سجلوها على آلات خاصة، ومن مواقع خاصة: «الفعل hörchen ويعني أصغي، أنصت، إستمع، إسترق، تنصّت من وراء الباب - الحائط، مد أذنيه إلى، تَسمّع، وHörchgerät هو جهاز تقوية الصوت وتحديد اتجاهه، و Hörcher، هو المتنصت، مسترق السمع، وHörchposten هو مرقب متنصت»، هكذا عرفت من الألمانييْن، اللّذين كانا يحملان يومياً عدداً من الأشرطة المسجلة، ضمن عمليات تنصت لأخوتهم الأعداء في ألمانيا الغربية. وربما بدا لي الأمر مثيراً للفضول وممتعاً في الأيام

الأولى، عندما كانا يدربان ضباط الإستخبارات المحليين في وزارة الدفاع، على تقنية التنصت، إلا أنني بدأت أملّ من تلك التسجيلات المكررة، والتي تثير الملل على الأغلب، بسبب ما يحويه مضمون المحادثات من أمور سخيفة، ومعلومات غير ذات قيمة، عليّ ترجمتها، والتي في الحقيقة لم تزعجني ترجمتها، أكثر مما كان يزعجني ضباط الإستخبارت في الوزارة بشكوكهم، ويعتقدون أنني لا أقوم بالترجمة الصحيحة، ولمجرد ذكر مثال واحد، فهم لم يصدقوا ترجمتي لمحادثة مسجلة بين وزير الدفاع الألماني وعشيقته، عندما سألها فيما إذا كان بإمكانه مضاجعتها ذلك اليوم، فأجابته، عليها العادة الشهرية، فقال لها، بالحرف الواحد: كم يتمنى أن يتحول إلى «تامبون» في كسها Bussy، يلعق دم طمثها هذه المرة مع لحسه لكسها، في بادىء الأمر سألوني عن معنى كلمة «تامبون»، ونسيت أنهم لا يعرفونها، لأن ليس هناك امرأة في البلاد تستخدم «التامبون» (الذي هو في الحقيقة نوع من الحفاظات النسائية الإنبوبية الشكل التي تستعمل بإدخالها المهبل أثناء العادة الشهرية) أثناء مجيء العادة، فعادة يستخدمن «سانتي» (أو «الكيوتيكس» منذ دخول الجيش للكويت، وحملهم له ضمن البضائع الأخرى التي دخلت للبلاد عن طريق الكويت وراحت تباع في كل مدن البلاد، وهو في الحقيقة مجرد حفاظات نسائية، ربما تصلح للأطفال أيضاً!)، وعندما شرحت لهم ـ محرجاً ـ معنى الكلمة، كادت أن تحدث لي كارثة، قالوا لي أنني أسخر من الشرف العسكري، وأنه لا يمكن أن يحدث في تاريخ العسكرية، أن يقول قائد عسكري تلك الترهات، ولولا تدخل أحد العسكريين الألمانيين الشرقيين (كان ذلك الذي برتبة مقدم)، ليشرح له، أنني قمت بالترجمة الصحيحة، وأن ذلك شاهد على انحطاط الأخلاق الرأسمالية، وأن هذا الوزير لا يأتي بجديد، إذ كتب قبله الفرنسي نابوليون بونابرت لزوجته ماري انطوانيت، وهو يقاتل عند الجبهات الروسية، يأمرها ألا تغسل فرجها، وألا تغسل السروال الداخلي، مهما طال غيابه، لأنه عندما يعود يريد أن يشم «عطر» فرجها ويلعقها بين أفخاذها، رغم أنكم في هذه البلاد تستخدمون ضمن هذا السياق كلمة فوحة بدلاً من كلمة عطر». كانت تلك المرة الأولى التي عرفت فيها أن الألمانيّين الشرقيّين (أو على الأقل الذي برتبة مقدم منهما، يتنصت هو الآخر لترجمتي)، وبالقدر الذي امتعضت فيه، ارتحت، لأنني حتى ذلك اليوم كنت أترجم كل ما أتنصت إليه حرفياً، رغم أنه هو الذي اعترف لي، بعد انتهاء مهمته، بأنه لا يعرف حرفاً واحداً بالعربية، لكنه يعرف نفسية الضباط الذين يدرّسهم، وليست تلك المرة الأولى، فلقد سبق له أن درّس في مصر والجزائر وليبيا والصومال وسوريا واليمن الجنوبي، وهو حدس فقط ماذا أغاظهم، وأراد مساعدتي لا أكثر، فأنا بالتالي شاب طيب بالنسبة إليه، ولكن تنقصني «الروح الوطنية»، ولذلك لا أصلح أن أقوم بهذه المهمة، مهمة «المتنصت»، مسترق السمع، رغم

أنه (قال لي ذلك وهو يضرب على كتفي، ومع ابتسامة منحت الصدق لما يقول)، على يقين، بأنني ذات يوم سأرد الاعتبار لهذا الفعل، فعل التنصت، دون أن أكون مضطر للوقوف في مكان «مرقب المتنصت»، وأنني سأفعل ذلك دون إرادة مني، وذلك ما حدث لي بالفعل، عند صعودي للفندق. بعد مغادرة نجمة لي، (إذا صدقت هي مع الإسم الذي لفظته)، بقيت جالساً عند ذلك المكان، خلف سياج المقبرة للحظات غير قصيرة، حتى أنني لم ألاحظ الليل الذي بدأ يحوك عتمته فوق المدينة، وربما كنت بقيت على جلستي تلك، لا أعرف بماذا كنت أفكر، لو لم أسمع صوتين أعرفهما:

ـ هل يحتاج الأستاذ للمساعدة؟

لا حاجة لي بالتطلع بمصدر الصوتين، إذ عرفت بسرعة، أنهما محمود وعلي، الشابان اللذين التقيتهما في المقهى، واللذين حدثتني عنهما نجمة ربما ثانية أو ثانيتين، حتى خطر على بالي ما لم يكن في الحسبان، فقلت لهما وأنا أنهض:

ـ أريد مغادرة البلاد.

فسألاني:

ـ سنتحدث مع صديقنا البوليفي سقراط، وسيعمل استثناءً لكما هذه المرة لتكاليف قضية البراز، (ربما لاحظا تطلعي بهما، ونظراتي المعبرة عن الإندهاش، وكأني أسألهما «البراز؟ ماذا تعنيان؟») أنت تعرف أن قوات التحالف تشترط سلامة اللاجئين الذين يلجأون إليهم، لذلك يفحصون خروجهم في مختبرات نووية خاصة، لكي يتأكدوا من أن خراءهم سليم وخالي من الأمراض.

فأجبت بسرعة:

ـ أرجو ألا تفهماني خطأ، أريد الخروج لوحدي.

فأجاباني وهما مندهشان، وكأنهما لا يريدان تصديق ما أقوله:

ـ وماذا عن زوجة الأستاذ.

فأجبتهما بصورة أوتوماتيكية سريعة (أثارت الغيظ عندي بعدها):

ـ زوجتي تشتغل في الساحة، ساحة السيارات، وهي تحت حمايتكما.

تطلع أحدهما بالآخر، ربما تصوروا بأنني سكران. رغم ذلك، قالا لي:

ـ سننتظرك الليلة في المقبرة، عند قبر الجنرال الفرنسي «بلزاك»، القريب من المغسل.

ربما لاحظا شكِّي، أو نظراتي المتسائلة عن هذا الجنرال، فأضافا موضحين:

ـ الجنرال بلزاك، كان قائد القوات الفرنسية التي وصلت حتى تل اللحم، والذي أُطلق على رأسه الرصاص، عندما حملوا له الأوامر بالتوقف عن الزحف إلى بغداد. كان الرجل يحب بغداد أكثر من حياته، وهو الذي منذ طفولته يعشق شخصية علي بابا، ويقال إنه في لحظات إحتضاره، كان يردد، أريد رؤية علي بابا، خذوا أنتم الأربعين حرامي، واعطوني علي بابا فقط!

هكذا غادرتهما، وفي ذهني الذهاب مباشرة إلى حياوي بنزين، وإخباره، بأنني (أو أننا إذا استدعت الحال، لأنني حتى تلك اللحظة كنت أفكر بصياغة حبكة معقولة لمغادرتي وحيداً دون معالي، رغم أنني كنت متأكداً من عثوري على منفذ، أن أقنعها مثلاً بالمغادرة بعدي، نعم المغادرة بعدي، كانت تلك الجملة الوحيدة التي تطن بأذني، عندما صعدت سلم الفندق، فندق الحيارىٰ، باتجاه غرفة الإدارة، حيث التقيت بحياوي، قبل أن أعرف أن اسمه حياوي بنزين، وقبل أن أجد نفسي بدور «مسترق السمع»، أو «المتنصت»، وأن أقف عند موقع، «مرقب التنصت»، لكن دون آلة التنصت، ودون جهاز التسجيل، أقف دون إرادة مني، ولأتذكر للمرة الثانية الجنرالَيْن الألمانيَّين الشرقيَّين، وأتذكر منهما خاصة الذي برتبة مقدم، المقدم «بيرساك»، الذي حدثني عن هذه اللحظة قبل أن أعيشها، وتنبأ بأنني ذات يوم سأرد الاعتبار لهذا الفعل، فعل التنصت، دون أن أكون مضطراً للوقوف في مكان «مرقب المتنصت»، وأنني سأفعل ذلك دون إرادة مني، وهذا ما حدث لي فعلاً، تلك الليلة، بعد صعودي للفندق، واقترابي من تلك الغرفة، التي أطلقوا عليها غرفة الإدارة.

في تلك اللحظة اكتشفت أيضاً أن عندي الرغبة بفهم كل شيء، كل شيء يقال ويأتي إلى آذاني، لا يهم إن كان ذلك يأتي من البعيد، أو أنه يأتي من تلك اللغات القليلة التي أعرفها وأجيد الترجمة عنها (بالإضافة للألمانية أترجم بمناسبات متفرقة عن الانكليزية، أما الاسبانية فتعلمتها من وجيهة)، أو من تلك اللغات التي لا أعرفها، حتى وإن كان يأتي مثل دمدمة لا يمكن تمييزها كهمس لا يمكن سماعه، حتى وإن كان (في حالة أفضل) فأنا لا أفهمه، وأيضاً إذا كان هذا ما يقال، لم يقال لكي أسمعه أنا، أو بالذات يقال لكي لا أسمعه أنا. وعندما اقتربت من الغرفة، غرفة الإدارة، في فندق الحيارىٰ، كانت الغمغمات غير مميزة والهمس هو المسموع، والإثنان صدحا باللغة ذاتها، اللغة التي أعرفها، إنها لغتي، اللغة التي أتكلم بها، اللغة التي أكتب وأفكر بها، اللغة التي أترجم إليها من لغات أخرى، رغم أنني أحياناً أعيش مع لغات أخرى، أفكر

بواسطتهن أحياناً، حتى أعتقد في بعض المرات، أنها اللغات التي تعود لي، وخاصة بما يتعلق باللغة الألمانية. ولكن في تلك الليلة، وأنا أستند إلى الباب، باب «إدارة الفندق»، فندق الحيارى، سمعت أصواتاً لغتها ليست غريبة عليّ، حتى أنني وجدت نفسي ودون إرادة مني بعد سنوات بالوضع ذاته، دون إجبار من أحد، وأنّ عليّ هذه المرة فقط أن أبذل القليل من الجهد (على عكس ما كنت أقوم به من جهد أثناء ترجمتي لكاسيتات الإنصات التجسسية في وزارة الدفاع)، لكي أترجم إلى ماذا تشير تلك الدمدمات، وتلك الهمسات، صحيح أنها تبيح بسرها على شكل جمل برقية، إلا أنها تنتهي إلى مسار واحد: القتل.

هل ان تعودي هذه المرة، على ما قامت به معالي، هو ما منعني من حمل ما سمعته هناك على محمل الجد؟ أم هي لا مبالاتي التقليدية، لا مبالاتي التي هي جزء من متعتي بالتفرج على استعراض العالم؟ وإلا ما الذي جعلني، ألا أصدق أن ما أتنصّت إليه، ليس له علاقة بكاسيتات التنصت، ولا حتى بتلك الكاسيتات التي كانت تحوي على معلومات عامة «تافهة»، مثل ذلك الكاسيت الذي تحدث فيه وزير الدفاع الألماني مع عشيقته، وإبلاغه رغبته في أن يكون «تامبونا» في فرجها؟ ولماذا لم آخذ تلك الدمدمة، أو الغمغمة أو الهمهمة، بنظر الاعتبار، وخاصة أنها جاءت إلى مسمعي باللغة التي أكتب بها الآن، اللغة التي أعتقد أنها كانت واضحة ليس بتجليها عن نفسها تلك الليلة، وأنا أتنصت إليها من خلف الباب، إنما من خلال الأصوات التي ألقت بها على مسمعي، وكأنها تعرف، أنني كنت أتنصت خلف الباب، فهم ذاتهم الذين نسجوا لي القصص، لا يهم أية قصص، في الفندق أو في المقهى، هم ذاتهم الذين حملهم الليل، ظلام الممر، ممر الفندق حيث وقفت مستنداً إلى باب الغرفة، «غرفة الإدارة»، إدارة فندق الحيارى، حيث عقدوا جلستهم، ليس لإدارة الفندق، إنما لإدارة عملية القتل، أو ربما عمليتين، لا أدري، هناك شيء غير واضح داخل الوضوح، رغم معرفتي أنهم كانوا يدبرون خطة «عملية القتل» وهم جالسين، كل شيء يشير إلى جلوسهم، طريقتهم بالكلام، خفوت أصواتهم، راحتها، إصرارها، تميزها، كانوا: يهودا أو حياوي بنزين، أرسطو أو محمد طالب حمودي الصهيوني، سقراط أو محمد منعم النقشبندي. ومهما تكن الكلمات التي تفوهوا بها، فإنها تتركز في حوارات مقتضبة، لا تستدعي الجهد الكبير مني لترجمتها، حتى لو اتبعت الطريقة ذاتها التي كان يتبعها العسكريان الألمانيان الشرقيان في تدريسهما لضباط الاستخبارات في وزارة الدفاع، سأرتب الجمل مثلهما، حسب مصادرها (كما تهيأ لي في تلك الليلة):

سقراط النقشبندي: من الصعب تصديق عثوري عليها.

أرسطو الصهيوني: هي التي عثرت عليك أيها الغبي، وإذا أنقذت جلدك ذات مرة، فإنك لن تستطيع هذه المرة. ستقتلك.

يهودا بنزين: عليك أن تقتلها، عيونها جميلة، وتعرف الحاجة للعيون.

أرسطو النقشبندي: حياوي، لا تنسَ، سقراط البوليفي يقول، قوات التحالف راح تنسحب خلال أسبوع.

يهودا بنزين: لكن المهمة المطلوبة مني صعبة.

أرسطو النقشبندي: صعبة؟ تقول صعبة؟ قتل امرأة عمياء مهمة صعبة؟

سقراط الصهيوني (باكياً): ماذا أقول عن نفسي؟ علي أن أقتل ذئبة!

أرسطو النقشبندي: سيد محمد منعم ماذا تعتقد، هل القضية تشبه الحبوب التي تحصل عليها في المستشفى «عراق مجاناً»؟ لكل شي ثمنه.

سقراط الصهيوني: أعرف أخي، لكن حلمي هو اللقاء بها، وأنت تخرب الحلم، منو العرفك إنها ليست أختها مثلاً؟

يهودا بنزين: البوليفي لا يكذب، وعلينا التصرف بسرعة.

أرسطو النقشبندي: التصرف بحزم. ألم أتصرف بحزم مع مَلَكْ؟ أين الرجولة، إذا أراد أحد البقاء في هذه البلاد الخره، البلاد الفقر، فليبق، لكن بدوني، أنا سأقتل الإثنتين.

يهودا بنزين: عندي اقتراح.

أرسطو النقشبندي: ما هو؟

سقراط الصهيوني: أعرف اقتراحك، قرأناه بالكتب وشاهدناه بالأفلام، تريد أن يقوم كل واحد منا بالمهمة التي على الآخر القيام بها؟ صحيح.

أرسطو النقشبندي: لا يهمني من يقوم بماذا، المهم أنني لا أريد أن تبقى البنت على قيد الحياة، يكفي المصائب التي ألحقتها بنا هناك، أما العمياء، فيجب أخذ كل ما في خزنتها. هل سمعتما؟

سقراط الصهيوني: وأنت؟ ماذا ستفعل؟

أرسطو النقشبندي: نسيت أيها الغبي؟ هل عندك الجرأة على إخراج أعضائهما؟ سنبيع الأعضاء على قوات التحالف.

يهودا بنزين: لماذا لا نتركها إذن،فهي عمياء، وأية أعضاء سيستفاد منها؟

أرسطو النقشبندي: أولاً نحن بحاجة إلى مدخراتها، وثانياً ليس هناك ما يؤيد أنها عمياء!

أعتقد أنها كانت الجملة الأخيرة التي سمعتها منهم وهم جالسين بعدها سيطر صمت قصير، قصير جداً، ربما استمر لثوان قليلة، قبل أن أسمع صرير كراسي (ربما كانوا جالسين عليها)، وتحرك أقدام بدأت تقترب من الباب، حيث كان موقع المتنصت، حينها قررت مغادرة المكان بسرعة كبيرة، حتى أنني سمعت فقط بقايا همهمة أو دمدمة، أو جملة غير مكتملة وصلت مسمعي بصورة متقطعة، وكأنها جواب على سؤال أستطيع تحليله، رغم أن مضمونه لا يهم، ففي النهاية ما يهم هو الجواب على كل سؤال: «أقطع رقبتها». بالتأكيد كانوا يعنون المرأة العمياء، ولكن رغم أنني لم أعرف تلك العمياء التي كانوا يتكلمون عنها (مثلما لم أعرف المرأة الأخرى التي أخافتهم إلى هذا الحد)، كان من الصعب عليّ تخيل حتى تلك اللحظة، كيف يمكن لأحدهم أن يقطع رقبة شخص آخر، لا يهم الدافع الذي يرويه؟ كان ذلك أحدث الأسئلة التي انضمت إلى أسئلة أخرى كانت تطن في رأسي، وخاصة بعد مغادرتي لموقعي المتنصت، والذي سيطر على كل الأسئلة الأخرى، والذي ربما ألقيته عليها، على معالي، قبل أن أفكر بإلقاء الأسئلة الأخرى عليها (مثلاً كان يشغلني ذلك السؤال المتعلق بالشبه غير المعقول الذي نجده عند بعض الأشخاص، خاصة بعد لقائي بنجمة ـ إذا صدقت الأسم الذي لفظته ـ أو وجيهة ـ حتى وإن لم تكن وجيهة زوجتي ـ)، ولكن لا داعي لذكر الأسئلة الأخرى التي فكرت بها، لأن (وكما أثبتت لي الأحداث التي جرت ذلك اليوم، وتلك الليلة بالذات) الأمور تجري في أغلب الأحوال ليس بالاتجاه الذي خططنا له بعناية، إنما بما يحدث لنا في لحظة مباغتة، هناك دائماً ما يحملنا على التفكير به وينسينا الأمر الذي نحن فيه، فكل شيء يتقرر في دقائق قصيرة، ولا يهم ما نفكر به. ألم يكن ذلك حتى الآن هو الإيقاع الذي يتحكم بمسار قصتي (ليست قصتي وحدها، إنما قصة أسيَذ لوتي، قصة معالي، قصة وجيهة، قصة نجمة، قصة حيدر وسيف أو محمود وعلي، وقصة إفْطَيْم پَيْ دَي)، إنها لحظات غريبة، لحظات تصنعها الصدفة، تلك التي ترسم مسار حياة المرء، أو لا تحدد إيقاع حياته. في العمق نفكر كلنا بالمستقبل، نصنع الخطط، وفق رغباتنا الحرة (التي نعتقد بها حرة) ـ إلى حد معين ـ لا نستطيع أن نعيش مطلقاً في الحاضر، دون أن نملك تصوراً عن الأشياء التي نريد صنعها، الأشياء التي ستأتي. هكذا نتخيل ما سنفعله بعد

ساعات، بعد أيام، بعد أشهر، بعد سنوات. حتى يحدث ما لم نتوقعه، لا يهم ما يكون، لكن يبقى في حدود الدائرة المؤثرة على حياتنا وعلى مشاعرنا، ما يجعل المرء ينحرف عن طريقه، ويدخل للغابة، وهناك في الغابة تحدث أمور رائعة، أمور ربما تفوق طاقات تصور البعض، لينسحبوا من المشهد، أو ربما ليس عندهم الجرأة أو الرغبة التي يملكها الآخرون، الذين يتوغلون ويتوغلون في الغابة، لا يخافون من فقدان شيء، ولا يهم أنهم يضيعون طريقهم وسط عتمة الغابة ويختارون طريقاً آخراً، لكن ما يحدث وسط الغابة، هو في كل الأحوال أكثر متعة وأهمية، من ذلك الذي يحدث على الطريق المستقيم، الطريق المألوف، وذلك ما حدث لي منذ اليوم الأول، منذ الساعات الأولى، عندما بدأت الرحلة مع معالي، ولا يهم أنني لم أعِ الباعث الذي جعلني أوافق على مصاحبتها، لكني الآن أعيه، وبالذات شعرت به عندما أصبحت في الغرفة، أقصد تغير مسار ونوايا الأسئلة التي كانت تطن في رأسي، حتى لحظة دخولي الغرفة، وقبل أن تستحوذ على رأسي أفكار أخرى، عندما رأيت الجرح في رقبتها، وليس في رقبة العمياء التي حاولت تخيلها!

- ٥٠ -

لم أرَ الجرح في رقبتها قبل ذلك اليوم، عندما رجعت من رحلتي الإستكشافية الأولى. ربما لأن الغرفة كانت هذه المرة مضاءة بشكل جيد، أو إنها - وذلك هو الأرجح -، هي المرة الأولى التي أراها من جهة رقبتها اليمنى، ففي السيارة كانت تجلس إلى يميني، وحتى عندما تأملتها وهي نائمة، استلقت على الجهة ذاتها. وكأن الفراش تكملة للسيارة. هذه المرة وقد تحررت من وجودي إلى جانبها، نامت بحرية. بالتأكيد كانت قد نهضت مرة واحدة، ثم عادت لتنام من جديد، وكأنها مصرّة على جملتها تلك: «سأنام إلى أن يتغير العالم، أيقظني فقط عندما يتحسن الوضع». هكذا ببساطة تركت الأمر لي، دون تحديد زمن معين. هل أوقظها الآن؟ وماذا سأقول لها؟ فهل أقول لها إنني التقيت بامرأة ظننتها في الوهلة الأولى وجيهة؟ هل أقول لها أنني منذ الآن أضفت إلى قاموسي أو إلى قائمة همومي واحدة أخرى اسمها نجمة؟ أم هل أخفي عليها ذلك، لأكون أنا الآخر صاحب سر، وأقول لها بدلاً من ذلك بأن الوضع تحسن بالصورة التي تظنها؟ وهل ستوافق على ما أراه أنا بعيني أو أظنه تَحَسُناً؟ نحن شخصان مختلفان، ولا يغير من الأمر أننا قمنا بهذه الرحلة سوية. هناك صنف من الناس تغريهم الأمور المشكوك بها، أكثر من إغراء الأمور المعتمد عليها والموثوق بها، إلى هؤلاء الناس تنتمي معالي، إلى أولئك الذين لا يغريهم الحدث بقدر الأثر الذي يتركه، الذين تغريهم آثار مخالب الحيوان

في الرمال أكثر من الحيوان ذاته؛ إنهم الحالمون، وتلك هي حالها بلا شك، إلى حد ما. والفرق بيني وبينها، هو أنني لا أبحث هنا عن آثار في الرمل، وإذا كنت أشك قليلاً بذلك، فإنني اليوم أكثر ثقة بما عزمت عليه، فقط الذهاب إلى الأمام، ولن أرجع خطوة إلى الوراء، أو إلى جانب أو ما حول.

بإمكاني الآن إيقاظها برقة، دون هدف، حركة بسيطة، أخوية قبل كل شيء، ثم لأنتظر رد فعلها، حركة جسدها، ربما يسترخي جسدها قليلاً، وسيصنع إستدارة صغيرة، منتظراً حركة أخرى. أو ربما سيتصلب جسدها، وتدافع عن نفسها بصمت، لكي تشعرني، بأن الزمن لم ينضج لنكون مع بعض. ولكن في تلك اللحظة، كيف لي أن أفهِمَها، بأن حركة يدي، أو أية حركة أخرى ستخرج مني لا تعني على الأطلاق ما يفسره جسدها؟ كيف لي أن أقول لها، أنا لست حالماً مثلها، ولو كنت كذلك، لَكنّا بعد كل القصص التي حكيناها لبعض، بعد كل التطمينات التي صنعناها لبعضنا، بعد كل شقاء الرحلة، بعد كمية الويسكي التي عبتها في جوفها، وبعد الإطلاقات الثلاث أو الأربع أو الخمس أو الست أو السبع التي أطلقتها هي، بعد كل ذلك، لَكُنّا ـ من المنطقي ـ قد عانقنا بعضنا وقبّلنا بعضنا البعض على الأقل، نعم على الأقل، لأننا إذا أخذنا كل التجارب التي عشناها مع بعض، شخصان يطلق عليهما الناس ـ إن لم يكن الاختصاصيون ـ ناضجان، صقلتهما التجارب ـ كما يسمينا الكتّاب في الكتب ـ، وعلى هذا الأساس نكون قد نمنا مع بعضنا بسرعة. وليس كما نكون عليه الآن: هي مستلقية على السرير، تنام نوماً عميقاً، وأنا أقف في عمق الغرفة، ظهري للحائط، لا أعرف ماذا أفعل، غير أن أسحب نفسي، تدريجياً، كل مرة إلى الداخل أكثر، وكأنني أخاف من ذلك الخيال الذي أيقظني من نومي العميق ليلة رجوعي من الحرب، وهو يضرب على شباك صالون البيت، يطلب الإستغاثة، وخلفه في الضوء، ضوء القمر، أو في العتمة، عتمة النوم، وقف شبح ضخم، أو شبح لا يختلف عن باقي الأشباح، لكنه بدا لي ضخماً، بضخامة تعب الطريق الذي قطعته، الطريق الذي أطلقوا عليه طريق الموت من «كويت ستي» حتى البصرة، وبضخامة ثقل النوم الملتصق بالتعاسة والخراب، الذي ربض عند رأسي في الصالون، ولم يسمح لي أن أحرك أعضائي، أو أفتح أجفاني أكثر، لكي أرى تلك اليد التي كانت تضرب على الشباك ضربات هادئة في الأول ثم عنيفة في النهاية، أو لكي أسمع الصوت الذي راح يستغيث، كلا، لم أستطع النهوض من الصوفا حيث نمت، وكأنها نومتي الأبدية، أو وكأنني أخاف الحيوان المفترس الذي يقف عند الباب.

لو كنت مثلها، لتحصنت بحلم صغير، لفعلت، كما تفعل هي، عندما تلجأ إلى

حكاية القصة، قصة ما، حتى تجيء بعض اللحظات تختلط فيها كل القصص، فتطلب مني التعلم منها «القصة هي كل ما نحكيه، فكل قصة نحكيها تصبح حكاية، ومشكلتك أنت تريد أن تفهم كل شيء دفعة واحدة، لذلك تخفي قصتك عن الناس، تريد أن تفهم القصة التي ترويها، لا تعرف أن القصة مثل ورقة يلوحها الماء، أو مثل كلمات تطير في الهواء، وأنت تريد أن تمسكها بيديك وبذراعيك وبمرفقيك. إنها ليست سيارة تقودها.» وإذا صدقت كلماتها التي قالتها ـ إذا تذكرت بصورة جيدة الآن ـ بعد إطلاقها النار، فإنني لن أروي أية قصة في حياتي، لأنني لن أفهم أية قصة.

ولكن، هل نفهم بعضنا نحن، هي عن طريق روايتها القصة، وأنا عن طريق تحفظي، وكتماني؟ «حكاية القصة تتطلب شجاعة، وأنتم الرجال لن تكتبوا قصة لأن الشجاعة بالنسبة لكم، ليس غير الذهاب إلى الحرب وامتلاك النساء. وإلا ما معنى الزواج من أربع نساء؟ هل يستطيع رجل واحد النوم مع أربع على الدوام؟»، أردت أن أقول لها، ليس صحيحاً ما تقوله، فأنا لم أتزوج أربع، وأنا أخاف من الحرب، وأنني بودي فعلاً أن أعرف فيما إذا كنت تلك الليلة، ليلة رجوعي، أحلم، أم كانت امرأة أخرى ضربت على شباكي، إن لم تكن هي معالي التي كانت تضرب هناك، وأنها تعيش حياة ثانية الآن، مثلها مثل وجيهة. كل شيء يذهب، وتبقى فقط الأسماء، ماذا سيكون قد حصل لو قالت لي نجمة بأنها وجيهة بالفعل، ألم أكن قد قفزت فرحاً وعانقتها، ولا يهم أننا سنعيش سوية بعدها أم لا، يمكننا التحدث بذلك، واتخاذ قرار منصف للإثنين، مستفيدين من تجربتنا السابقة، ولأقنعتها بانفصالنا بالتأكيد لقلت لها، إسمعي وجيهة، أنا رجل دمرتني الظنون أكثر مما دمرتني الحرب، وأنني لم أمت وأنا أقطع طريق الموت، لأنني كنت في الأصل ميتاً، ثقي، أنني كنت أرى تساقط زملائي وأصدقائي وأعدائي من الجنود، كتل بشرية تحترق أو تتقطع إلى شظايا، وتنحل في الهواء حولي مع انحلال صرخاتها، وأنا لم تصلني ولو شظية صغيرة، لأنني كنت أسيراً ميتاً، هل سمعت بميت قتلته شظية أو انفجار؟ طبعاً لا، ألا ترين، لذلك كيف تتحملين البقاء مع رجل ميت، ولا تأخذين اعتباراً لكوننا متزوجان، فأنت تعرفين بأننا تزوجنا بعد أن أصبحنا لم نعد نحب بعضنا، إذا صح وكنا أحببنا بعضنا يوماً ما، وأننا تزوجنا ربما بسبب الشعور بالمسؤولية، بسبب ضعف عابر وقعنا فيه، ولسنا نحن أول من يفعل ذلك، فإن معظم الزيجات تقترح بصورة عابرة أو أحياناً بالخطأ، عندما يقول المرء جملة «نتزوج» وهو لا يعنيها تماماً، ثم يتفق عليها ويعلن عنها، حينها تصبح منطقية ولا يمكن الإعتراض عليها، لذلك السبب تحدث وتصبح إجبارية، صحيح أنني لا أعرف من أجبر من في حالتنا، لكن ذلك ليس مهماً، ففي النهاية كل شخص يجبر شخصاً ما، وإلا فإن العالم

يبقى ساكناً، ها أنت ترين لسنا نحن الوحيدَيْن، وإذا تحدثت عن نفسي بصورة خاصة، فأعتقد أنني تزوجتك، لكي لا أكون وحيداً. لكن نجمة لم تقلْ لي بأنها وجيهة، وأنا لم أجبرها أن تكون وجيهة، أو لم أقل لها على الأقل ما كنت أفكر به، قبل أن تذهب وتتركني جالساً في البستان ساعات لوحدي. سَكَتُّ، مثلما سَكَتّ أمام معالي، أو مثلما أسكُتُ كل مرة عندما يتعلق الأمر بالرد على كلام شخص، أو كلما تعلق الأمر في الدفاع عن فكرة ما تَطِنُّ في رأسي. لأنني بصراحة، يعوزني التركيز في معظم الأحيان، فالفكرة تولد فكرة جديدة عندي، وبدل أن ألقيها إلى الخارج، أحتفظ بها، مثل احتفاظي بالقصة. هكذا، بدل أن أرد عليها في تلك اللحظة، رحت أسأل نفسي، إذا كنت بالفعل أخاف من الموت؟ ولكن ألا أعتقد بأن الموت هو أمر طبيعي يحدث للبشر، وأنه من الطبيعي أن يحدث في الحرب، ألم تُصْنَع الحروب لكي يحدث ذلك، رغم ذلك إذا ما تساءلت مع نفسي، هل أنا أخاف من الحرب بسبب الموت، فإنني أجيب، بأن ما أخاف منه هذه الأيام ليس خطر ملاقاة الموت، إنما شيء آخر، ما يمكنني تسميته ببساطة «الفقدان»، ليس فقدان الحياة كحياة، إنما ذلك الذي يحدث فيها. ربما هذا هو السبب المهم الذي لم يمنعني من التردد للقيام بالرحلة هذه معها. وإلا فإنني إذا فتشت عن سبب آخر، فإني لا أعرف سبباً آخراً كان يمكن أن يمنعني من الموافقة على الرحيل معها مباشرة وحسب، إنما جعلني أكون مستعداً لتقبل كل مغامرات تبعات الرحلة، والمغامرة بحياتي. على الأقل هذا ما فكرت به، رغم أن ما يحدث في الحياة ـ أو ما يجري لنا الآن ـ أكثر تعقيداً مما نعتقد، لأن ما نفكر به لا يتطابق دائماً مع ما نفعله، ففي الأخير يبقى ما نفعله لا يقول لنا الكثير مما كنا نفكر به. وهذا ما حدث لنا، أو على الأقل ما حدث لي إذا تحدثت عن نفسي فقط. فأنا صعدت إلى الغرفة في الأصل، لأحكي لها عما جرى لي هذا اليوم، ولأقول لها في النهاية، أننا شخصيتان مختلفتان، أو أقول لها الحقيقة، بأنني في الواقع ليست لدي أهدافاً محددة، فكل ما هنالك، أن هناك ما حدث لي، يمكن اعتباره أمراً رهيباً أو أمراً عادياً، ولكنه مثير للسخرية في كل الأحوال، ولم أبطل التفكير به كما لو كان الأمر أعجبني؛ لا أريد أن أبحث عن شيء لأني لا أملك شيئاً يجب البحث عنه، لا أريد أن أنقذ أحداً، لأن وجيهة وعلى حد علمي ماتت، وهذا ما ثبت لي اليوم، هذا ما تأكدت منه هذا المساء مع نجمة التي تشبه وجيهة تماماً، والتي حتى وإن كانت هي وجيهة، أو كانت هربت بالفعل مع أسيَدْ لوتي، يمكنني اعتبارها ميتة، لماذا لا تكون هي مثلاً البنت الشابة بعمر السبعة عشر عاماً، التي وجدوها مقتولة في البستان، وخاصة أن وجيهة لم تكن ببراءة هذه البنت، التي وصفتها كلمات نجمة «مو بنية من البنات الملعبات، كانت فقيرة، جتي شاردة من الريف»، نجمة نصَّبَت نفسها آلهة ـ إلٰه، أو قاضياً على البنت، وأطلقت أحكامها بالكلمات، فلماذا لا أفعل أنا أيضاً؟

في النهاية تتحول الكلمات إلى أحكام عندما نقولها: معالي تقول وجيهة «قحبة»، وبيوت الدعارة التي تديرها إفْطَيْم پِّيْ دَي هي «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، ومعالي لم تشتغل في الساحة مثل نجمة، إنما كانت تشتغل في بيوت أخرى «ضرورية». لماذا لا أجيبها بشكل قاطع، لماذا لا تخرج من فمي الكلمات بقوة كلماتها. لماذا أسكت، وأنا أعرف أنها الكلمات التي تحسم كل شيء. أنها الكلمات التي تأتي في كل وضع ومن كل فم، في حالات السكر، في حالات الغضب، في حالات الانكسار، في حالات التبرم والقرف والضيق، في حالات الإعجاب، في حالات الوقوع في الحب، في حالات حيرتنا عندما لا نجد بديلاً عنها أو في حالات عدم قدرتنا على وزنها، في حالات قسوتنا على أحد، في حالات أن نكون على خطأ وفي حالات أن نكون على حق، ومع ذلك تعتبر الناس نتائج الكلمات هو مقياس الكارثة عندما تحدث كارثة، بينما من الأصح أن يعتبروا الكلمات هي السبب، لأنها هي في الحقيقة الأكثر تأثيراً، إلا إذا كنا ـ أو على الأقل لا يعرف الكثير منا ـ بأننا نسبب الكوارث من خلال كل الكلمات التي نقولها، والعالم كله يفعل ذلك دون توقف، في كل ثانية تقال وتسمع الملايين من الكلمات، من المحادثات، من البيانات، من القصص، من التعليقات، من الهذر، من القشب، من الإعترافات، من الأخبار، وكل ما يُقال ويُسمع لا يعرف أحد تقدير نتائج تأثيراته، أو عواقبه، لأن الكلمات كثيرة، بدون معنى، ومجانية لا تكلف أحداً، والمعضلة هي معضلة أولئك الذين يأخذونها موضع الجد، وهم قليلون، إنهم أولئك الذين لا يكتفون بسماعها، أو يعطونها معنى، ففي النهاية المرء هو الذي يقرر عند سماعها، إذا كان من الأفضل أن يمنحها معنى ما أم لا، ومن هذا المعنى تولد القصص. فالقصة ليست هي القصة لمجرد أن أحداً يرويها، أو يعتقد أنه يروي قصة، إنما هي أيضاً تصبح قصة، عندما لا يكتفي أحد بسماعها، إنما يمنحها معنى أيضاً. هكذا تتشكل القصص، لأن هناك أحدٌ لا يريد أن يصمت، أو لا يكفيه أن يحكي جملاً قليلة. ربما كان على معالي أن تسكت، وربما كان عليّ ألاّ أصغي، لكن القص والسماع هما مثل هدية، لذلك يروي العشاق في أيام حبهم الأولى الكثير من حياتهم، لأنهم يعتقدون، بأنهم سيحبون أكثر، لأنهم يروون أسراراً، وأنهم يقدمون هدية لشريكهم، وكلما رووا أكثر كلما عبروا عن إخلاصهم الكبير، وعن ثقتهم التي يريدون بناءها بينهم: «الحكاية هي الدليل على الحب والعطاء والثقة»، قالت لي معالي، ذات مرة. لكن المعضلة أن كلما روى المرء كلما زاد نهمه للحكي، مثله مثل الذي يسمع القصة، فمن يسمع القصة، يسمع الكلمات ويمنحها معنى، من يروي يريد أن يشد الآخر، يريد أن يذهب بلسانه حتى العمق، ومن يسمع يريد أن يبقى منشغلاً، إنه يريد أن يسمع أكثر، لأنه كلما سمع، كلما قلت ثقته، الحكي هو تعويض عن الثقة، لذلك من يسمع يريد أن يعرف

أكثر، يريد أن يبني ثقته ويريد أن يشعر بأنه ليس مخدوعاً، حتى لو كان ذلك الذي يسمعه غير صحيح، ومخترع بأكمله، هكذا نقول مرات لشخص قريب منا أو صديق «أرجوك، قل فقط ولو القليل مما تعرف عن السر»، ويبقى الآخر يتحجج ويتحجج، وهو في داخله، يريد أن يشدنا أكثر، إذ يكفي أن ننظر إلى عينيه، حتى نرى لمعاناً غير عادي، يشع فيهما بريق الحكاية، وما أن يبدأ بالحكي، أن يقول جملة واحدة، حتى نبدأ بالإلحاح عليه أكثر. الحكي مثل الصنارة، كلّما علق فيها طُعم لذيذ، كلما ازدادت إمكانيات الصيد، ومعالي صيادة ماهرة تجيد استخدام صنارة الحكي، عرفت كيف تجبرني على البقاء معها، فهي ألقت بالجملة الأولى، الجملة الطُعْم: «لا تصدق موت وجيهة، إنها هربت مع أسيَدْ لوتي»، ولذلك لن أستطيع مغادرتها بهذه السهولة، ولن يَطُلْ قراري من البقاء معها، أن أذهب إليها وأقول، بأني لا أريد التوصل لشيء لأن ليس هناك ما يمكن التوصل إليه، حتى في حالة لوم أحدهم أو بغضه غير العادل لمعالي مثلاً، أو لإفْطَيْم يَيْ دَي وحتى لأسيَدْ لوتي الإستبدادي أو اللين، الإنتهازي أو الطيب، الخائن أو المخلص، ولا حتى فكرت أن أكونه. وإذا لا يكفيها ذلك، فسأقول لها أيضاً، بأنني لا أرغب أن أحل محل أحد بالمخادعة أو التزوير ولا إلحاق الضرر بأحد، أو اغتصاب شيء لا يعود لي أو الإنتقام من أحد، أو تطهير أحد من الدنس (إذا كان هناك دنساً) والتكفير عنه أو حماية وتهدئة ضميري ولا لطرد خوفي، ليس هناك سبباً ما، لأني لم أفعل شيئاً يسيء لأحد مثلما لم يفعل أحد ما يسيء لي (حتى لو صح وإن هربت وجيهة مع أسيَدْ لوتي، فلأن لها أسبابها بالتأكيد) والأمر الأسوأ حتى ذلك مر دون ترك ضرر، ولا يحرك بي تلك الأشياء التي تحرك دواخلنا دائماً، أقصد: البحث، الإنقاذ، المتابعة، أخذ مكان أحد بالخديعة، إلحاق الضرر، الاغتصاب، أخذ الثأر، التكفير عن الذنب، الحماية والتهدئة. ورغم أن ليس هناك ما يحركنا، فليس من الممكن أن يحافظ المرء على هدوئه ويبقى في مكانه، كما لو تنبثق من تنفسنا الخالص ضغائن ورغبات فارغة، عواصف بإمكانها القضاء علينا. والآن ليست القضية، بأن ليس هناك فقط من لا يريد أن يعرف إنما أنني أنا الذي كان عليه أن يعرف كل شيء، يتنازل، وأنا أتنازل عن هذا الهدف، رغم أنني لا أملك نوايا معينة. فكيف لي أن أقنعها، بأن فقط حدث لي أمر يمكن اعتباره مرعباً أو سخيفاً، لكنه على العموم أمر مثير للسخرية وأشعر كما لو أنني أصبحت بسببه خاضعاً لعزيمة غريبة عليّ، أترقب، أفتش، أسأل، ورأسي مسكون بفزع دائم وترقب مستمرين، مثله مثل جسدي، بسبب امرأة ميتة بعرف قانون «المنطق» (إذا كان هناك منطقاً بالفعل!) الآن، وهاربة بعرف المرأة الأخرى التي فقدت مكانها بسببها، كما تقول. كيف لي أن أقنعها بأني الآن مصر أكثر منه في أي وقت مضى، عليّ الذهاب في طريقي، لا أريد البحث عن وجيهة. ولكن ربما كنت قلت لها كل ذلك، لو لم

ألتق بنجمة الحكواتية الأخرى، لكن بالفم العريض، الصيادة غير الماهرة، التي باحت لي سرها منذ البداية، ولم تُبقِ من الحكاية شيئاً. لكن تلك المرأة وليس غيرها، جعلتني أيضاً بطريقتها الفظة والخشنة في رواية الكلمات، أو بطريقتها المتوسلة، أميل إلى صفِّها. وجيهة كانت أيضاً تكذب أحياناً وتروي بعض القصص عن عملها، وحتى عندما باحت لي بسرية عملها في مديرية المخابرات، أرادت بطريقتها في رواية الكلمات سحبي إلى جانبها، أن أقف في صفِّها، أو أن أسكت على الأقل، وشخصيتها انتهازية ومتغطرسة. رغم ذلك، فكرت لو كانت تشتغل كقحبة الآن، فإنها ستكون مثلها، ستكون عرفت الخوف، ولن تكون مجبرة على رواية القصص، وسيساعدها في ذلك موهبتها القاموسية باكتشاف كلمات أكثر فظاظة وأكثر خشونة، لأن كل شيء يعدي. رغم ذلك، أقول لنفسي، شكراً لنجمة، وإلا كيف كان يمكنني أن أشك طوال هذا الوقت، عندما صدقت معالي، بكون وجيهة قحبة في بيوت إِفْطَيْم بِّيْ دَي، «البيوت الخدمية الضرورية الجديدة»، فلو صدق كلامها، يعني أنني عشت كل تلك السنوات مع امرأة هي امرأتي وهي قحبة في الوقت نفسه أو هي قحبة وهي امرأتي في الوقت نفسه، لقد عشت معها عشر سنوات (لست متأكداً من عدد السنوات!)، نمت إلى جانبها، ونهضت معها في الصباح، رأيت كل زوايا جسدها، وعرفت كل رغباتها، سمعتها تحكي ساعات طويلة وفي كل الأمزجة المتخيلة، نظرت إليها وهي إلى جانبي على المخدة، وأنني فقط لم أرها منذ أكثر من سنة، واختفت عني قبلها سنة واحدة، رغم أن الإنسان ممكن أن يتغير في هذه الفترة لو كان هذا الإنسان يعاني من مرض أو من ألم أو من نفي ما كان يوجد من قبل. وهو شكّي الذي جعلني أعتقد بأن نجمة هي وجيهة. كل شيء يرحل باتجاه زواله، باستثناء الأسماء، الأسماء الحقيقية أو الأسماء المزيفة، كل الأسماء تبقى محفورة للأبد في الذاكرة، معالي، إِفْطَيْم بِّيْ دَي، أسيَدْ لوتي، وجيهة، نجمة. كل الأسماء موجودة منذ القدم، وماذا يكون قد حدث، لو كانت نجمة قد قالت لي، بأنها «وجيهة»، لكنت قلت لها، بأني «نجم»، ولكنت نزعت عنها «جُبَّة» الحجاب، وعانقنا بعضنا، وضحكنا، لما انتهينا للبستان، لأخذتها معي للفندق، وجعلتها تلتقي بمعالي، وتوضح لها كل الالتباسات، وبدل أن ننفصل عن بعض، كما فكرت في الوهلة الأولى، أن أقول لها أن نرجع لبعض، ونبدأ من جديد، أو إذا شئت نلجأ لقوات التحالف، ونرحل عن طريقهم للخارج، إلى أوروبا، فربما ترفض وتقول لي هي هذه المرة، من الأفضل أن ننفصل، والقرار بالبقاء مع بعض هو قرار متأخر، فأقول لها، لكن قرار الانفصال هو قرار متأخر أيضاً، ليس هناك قراراً متأخراً في الحياة، كل القرارات هي مبكرة، إذا شئنا لها أن تكون كذلك، مثلما ليس هناك قراراً مبكراً، كل القرارات متأخرة، إذا شئنا لها ذلك، ألا ترين أنها مشكلة تتعلق بالكلمات، أو بترجمة الكلمات،

وأنت وأنا مترجمان، نعرف أكثر من أي شخص آخر، أو من أي زوجين آخرين، قيمة الكلمات، وإذا تفحصنا ما قلته سابقاً، ففي الحالتين سيان، إذا أردنا البقاء مع بعض، فسنبقى مع بعض، وإذا أردنا الإنفصال عن بعض، فلننفصل. لكن لأن كل الأشياء ترحل وتزول، ولا تبقى غير الأسماء في ذاكرتنا، لم يحدث ذلك، ولا يحدث، ولن يحدث، لأن كل ذاكرة تشتغل لوحدها، منعزلة، تتعاقب معها الأشياء والأسماء ضمن قانونها الخاص بالخيال، كل ذاكرة تنتج قوة الخيال الخاصة بها، ولو حدث وصَحَّ افتراضي الأول، لكان يعني قبول معالي لافتراضي، وتسليمها معي، أن كل شيء يزول، فقط الأسماء الحقيقية أو الأسماء الزائفة هي التي تبقى، وعليَّ أن أسألها هي في هذه الحالة، فهي التي تملك سراً هذه المرة، وليس أنا، فقد راح سري مع نجمة.

- ٥١ -

لبرهة فتَحَتْ عينيها. فَركَتْهما بهدوء. لم تتعجب لوقوفي في الغرفة، وكأنها تعرف أنني سأقف هكذا. نهضت من السرير وتقدمت نحو الشباك. فتحَتْه، نظرت إليّ وكأنها لاحظت أمراً غريباً، فقالت وهي تبتسم:

- هل تصبغ شعرك؟

لمست شعري، الأبيض منه بالذات والذي أعرف مكانه بصورة أوتوماتيكية، فسألتها متعجباً:

- ولكني بطلت الصبغ منذ أكثر من سنة، في الجبهة ينشغل المرء بأمور أخرى، بغض النظر أن من الأفضل للإنسان أن يبقى أميناً لشكله كما هو.

فقالت بصوت جدي:

- وأنا أصبغ شعري، لكي يبقى الشعر كما هو.

تحركت باتجاهها. كان من السهل الشعور بشعاع السماء الخافت والرقيق، وقفنا عند الشباك جنباً إلى جنب نستند بكوعَيْ ذراعَيْنا، ننظر إلى الأمام، بنظرات فزعة بعض الشيء، صامتين، بلا كلمات تؤيد شعورنا بوجودنا المشترك في الحاضر، الذراع يشعر بذراع الآخر، ودفء دم الآخر. كنت أسمع ضربات قلبي ذاتها، تضرب حتى أذني، وقلبها بدا وكأنه يريد أن يلقي بها وسط هزة أرضية، تخضها من أخمص الرأس حتى القدمين. ذراعاها تقتربان أكثر، وذراعي يصر على البقاء في مكانه، منتظراً، رغم ذلك لم تجرؤ هي أكثر، فقد استحوذ عليها الخوف لبرهة، من الممكن بسبب شَكِها بما سيؤول إليه الأمر، ألا أتجاوب مع حركتها، أو يعلم الله لماذا، أو لم تكن أفكارها واضحة، أو

لم تشأ أن تراني أتطلع لها بنظرة الرجال المنتصرين. ربما نملك نحن الرجال نظرة لا نستطيع إخفاءها أو تبديلها مهما حاولنا. اضطربت معالي قليلاً، وزاد الإضطراب من غضبها. فشعرت بأنها تجمع نفسها مثل قوقعة تتمترس في بيتها الذي ربما تعتقده من حجر، كل ثانية تنسحب أكثر إلى الداخل، لتقول بصوت مرتجف، خجل:

ـ منظر جميل، رغم كل شيء.

كانت تلك المرة الأولى التي يرن صوتها برنين فيه القليل من الخوف.

الشبابيك القليلة ـ الثلاثة أو الأربعة ـ التي كانت هناك في البعيد بعثت القليل من ضوء مساء ما زال عالقاً فيه شيء من ضوء النهار، بينما بان ضوء مصباح لعمود من الكهرباء كان يشتعل في الأربعة والعشرين ساعة، ومن مكان ما، من مكان ليس بقريب اقتربت أصوات عالية، وأخرى كانت تجيب، لكن جملهم لم تكن مفهومة.

ـ هل تسمع؟

سألتني، فأجبتها:

ـ لا أفهم ما يقولونه.

ـ لن يكون بإمكاننا أن نعرف كم ستتغير حياتنا، إذا لا نسمع جملاً معينة فقط، إنما نفهمها أيضاً.

ـ من يسمعك يقول، إنك أنت من تَعَلم لغات أخرى.

ـ عندما كنت صغيرة، كنت أخاف أن تتغير حياتي. أخاف من التعقيدات، أخاف من الكلمات، لذلك درست الرياضة.

ـ مع ذلك من الأفضل، ألا نتصرف هكذا، وكأننا لا نفهم الآخرين، المباشرين والصريحين.

ـ ولكن إحكِ لي قصة عن المباشرة والصراحة؟

كان بودي أن أضحك لسؤالها، ولكننا كنا في وضع جدي أكثر مما يجب. فقلت وكأنني أبحث عن وسيلة للخروج من الورطة، حتى أنني لم أشعر بيدي التي امتدت فوق كتفها، لتستقر لحظة، بينما كنت أسألها:

ـ قصة طويلة أم قصيرة؟

ـ طويلة أم قصيرة؟ لا يهم، كل القصص متشابهة، كلها تروى، سواء من عشر كلمات أو من مائة كلمة، أو من ألف كلمة، أو ليس لها نهاية!

كانت يدها هي التي امتدت لتغلق الشباك، وكانت يدها الأخرى التي أدارتني معها ولتقودني إلى السرير. لم نتطلع إلى بعض، إنما كنا نسير سوية إلى الأمام. فقط عندما انتهينا فوق السرير، استدرنا لنعانق بعضنا. كانت لحظة خاطفة، لكنها رغم سرعتها تبدو طويلة، ربما طويلة بطول القصص التي تعنيها معالي، من الصعب التكهن بطولها، سواء استغرقت دقيقة أو عشر دقائق، ساعة أو ساعات، يوماً أو أياماً، أو لا تنتهي، لكنها تبقى سريعة. وحتى عندما نزعنا عن بعضنا ملابسنا، جرى كل شيء بسرعة. فقط عندما أصبحنا عاريين ووقفنا عند حافة السرير، وسيقاننا ملتصقة من الجانب بالسرير، ومن الداخل ببعضها، سألتني:

ـ بماذا تفكر؟

فقلت:

ـ فكرت كيف تبدو رائحة جسدي.

قبلتها، وسألتها:

ـ هل تخيلتني عارياً؟

فأجابت:

ـ مرتان، مرة وأنت إلى جانبي في السيارة، والمرة الثانية قبل لحظات عند الشباك، وأنت؟

فقلت وأنا أقبلها في عنقها:

ـ أنا تخيلتك مرات عديدة منذ سنوات.

فقالت:

ـ عندما تخيلتك عارياً كدت أستمني.

فقلت متعجباً:

ـ كنت أعتقد بأننا نحن الرجال فقط نفعل ذلك.

صمتت لبرهة، ثم قالت لي ويدها تداعب حلمة صدري:

ـ شكراً لأنك لم تتخيلني من قبل عارية؟

فسألتها مبتسماً:

ـ ما الذي تقصدينه بمن قبل؟

ضحكت، وضمتني بقوة:

ـ لا يهم الآن، ستعرف ذلك لاحقاً، مثلما ستعرف أموراً أخرى.

في تلك اللحظة شعرت بدقات قلبها ترتفع، تضرب فوق صدري وصوتها يصل أسماعي، فسألتها:

ـ لماذا يدق قلبك؟

تلعثمت وهي تجيب:

ـ سأقول لك تباعاً.

حاولت في تلك اللحظة ألاّ أفكر إلاّ بنا، نحن الإثنين مستلقين فوق السرير هذه المرة، لكنها تجبرني على التفكير بها، ففي جسمها حركة عفوية، غير إرادية منها تبرز بين ثانية وأخرى، حركة صعب عليَّ معرفة مكانها، لكنني أشعر بها تبعد قليلاً جسدي الملتصق بجسدها. سحبتها إليّ مرتين أو أكثر لكي أبعد هاجساً غريباً استحوذ عليّ، هاجساً يقول لي، إن ثمة أمر ما على غير ما يرام، لكن جسمها وحركات عضلاتها تقول العكس، لم تبدُ متشنجة بصورة تستدعي مني التوقف أو الكف عن تمسيد جسدها، أو عناقها، أو الكف عن تقبيلها، كلا، على العكس، فعند سحبي لها، تأتي إليّ بكل جسدها، لينة، طيعة، هشة، وعند تقبيلي لها، تمد لسانها، وتحفره في عمق فمي، وإذا عانقتها، تلف ذارعيها مطوقة عنقي، وحرارة أنفاسها تلفح رقبتي، لكنْ هناك حركة ما، في مكان من جسمها تجعل كل ما يفعله جسدها ينتهي أو يوحي بالانتهاء إلى وجهة أخرى، غير تلك الوجهة التي أريدها، أو يريدها جسدي، أو جسدها ـ إذا سمحت لنفسي الحديث عنها أو عن جسدها ـ، لكن من أين لي ادعاء معرفة جسدها، وربما بقيت مع ظنوني مدة أطول، لو لم أسمعها تتمتم هي «يا الهي». جاء صوتها مثل فحيح ارتطم بعنقي، ببراءة مثل أنفاسها الساخنة التي كانت تمر على عنقي مثل لسان ساخن، بينما شعرت بثقل الحركة يتجمع بين الفخذين، حينها بحركة لا إرادية مني، مددت يدي لأباعد بين فخذيها، فشعرت، بهما يصطكان. ثم لبرهة صغيرة فقط، ربما استغرقت ثانية أو نصف ثانية أو عُشْر الثانية، عانقتني بقوة، وسحبتني إليها بقوة، ودارت بي لأكونَ فوقها وهي تفتح فخذيها على اتساعهما، وتغلقهما مثل كماشة على مؤخرتي، لتصرخ وهي تدخل عضوي المنتصب في فرجها:

ـ افتحني.

لم أجد الوقت الكافي للتفكير أو سؤالها فيما إذا كانت جادة فيما تقول أم لا، فهي لم تمنحني الوقت الكافي للتفكير أو للتراجع. كانت هي التي قررت، هي التي

أغلقت فخذيها، ثم فتحتهما، هي التي أدخلت عضوي إلى فرجها، هي التي صرخت، مثلما هي التي أبقتني طويلاً بين ذراعيها وعضوي في فرجها، وهي التي قالت لي «أريد مرة أخرى»، وهي التي جلست فوقي هذه المرة تصيح، وصوتها تردده جدران وجنبات الغرفة «بعد، بعد، بعد»، وهي التي قررت متى نتوقف، عندما فصلتني برقة عنها، والإجهاد أخذ منها كل مأخذ، وهي التي راحت تمسح الدم، الدم الذي لطخ فخذيها، ولطخ قضيبي، وانتشرت بقع منه فوق الفراش، حتى شعرت برائحته تصل خياشيمي، ثم لتنام بين ذراعيّ. أنا الآخر نمت، مخدراً، برائحة عرق جسمها، برائحة الدم، مأخوذاً بالمفاجأة، ولست خبيراً بالنساء لأعرف فيما إذا كان ذلك الدم، هو دم العادة الشهرية، أم دم غشاء البكارة بالفعل، والنساء يمكن إن يخرجن لك الدم من كل مكان (لم أنسَ قطعة الشاش التي تركتها وجيهة لي قبل رحيلها الأول؟) نمت دون أن أعرف ذلك، بل حتى أنني لم أنتبه للجرح في عنقها عندما كانت تغفو على ذراعي، إلا بعد إيقاظها لي هي. فتحت عيني فرأيتها استيقظت قبلي، وقد لفت نفسها بطرف الشرشف النظيف.

كانت تدخن سيجارة وهي ترخي رأسها في حضني. رفعت نصف جسمي من السرير، وأسندت ظهري إلى المخدة، حتى طرف السرير. مسدت جهة رقبتها اليسرى، حتى جاءت أصابعي على الندبة، فتوقفت عندها بصورة لا إرادية، فسألتها بصوت ما زال الإجهاد أو الخدر، خدر اللذة يطغي عليه:

ـ ما هذا الجرح؟

تنفست معالي بعمق.

ـ لم يكن بإمكاني التصرف بطريقة أخرى، مرة وبزجاجة مكسورة.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لقد حدث ذلك. ألست أنا امرأة جميلة كفاية؟

ـ إنك أجمل امرأة في العالم.

لبرهة صمتنا، فسألتها:

ـ معالي بودي أن أسألك؟

تلعثمتُ في سؤالي، ولاحظت هي ذلك، فمدت من مكانها يدها التي لا تحمل

فيها السيجارة لتغلق فمي.

- من الأفضل ألا نفهم بعض الجمل.

في تلك اللحظة رفعت رأسها، وقلت لها بصوت واثق، أو بدا واثقاً على الأقل لي في تلك اللحظة:

- هل تريدين الزواج بي؟

لم تجبْ. فتذكرت مرة أخرى، أن الناس بالفعل تتزوج دائماً بالطريقة نفسها، دائماً تتم الزيجات بهذه الصورة، أنها تحصل نتيجة شعور بالمسؤولية، أو نتيجة للحظة ضعف عابرة، بعضنا يتفق عليها، وتعقد ثم تعلن، وحينها تصبح منطقية ولا يمكن الإعتراض عليها، تصبح نوعاً من الإجبار، وأنا باقتراحي عليها، أريد أن أجبرها، مثلما أجبرت وجيهة، أو مثلما أجبرتني وجيهة، أو مثلما أجبرت هي معالي نفسها أسيَدْ لوتي، أو مثلما أجبر أسيَدْ لوتي معالي، ولا يهم كم هو الوقت الذي يستغرقه الزواج، كل شخص في العالم يجبر شخصاً آخر، حتى لو كان زواجاً لخمس دقائق كما حصل لأختها التي تصغرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، أختها التوأم، وبدون ذلك الإجبار، فإن كل العالم يتوقف، كل شيء ينتهي إلى نهاية غير معلومة، والناس تتزوج لأنها تريد أن تنام، والندم المسبق سيشلنا بالتأكيد. وأنا اقترحت عليها الزواج، وأعرف أنني للمرة الثانية أتصرف نتيجة الشعور بالمسؤولية، أو لكي لا أبقى وحيداً، أو أنني من الأفضل أن أحسم قراري الآن، لكي لا تقول لي لاحقاً، أنه قرار متأخر. ولكنها هي التي تجبرني أن أبلع قراري. قبلتني برقة.

- الآن سأجيبك على سؤالك قبل أن ننام مع بعض.

فسألتها متعجباً وقد نسيت السؤال:

- أي سؤال تقصدين؟

فقالت ضاحكة وبصوت لا يخلو من الأسى، بصوت منقع بالمرارة:

- سألتني لماذا يدق قلبك؟

تحركت يدي بصورة أوتوماتيكية إلى قلبها، وتوقفت هناك:

- لكنه ما زال يدق؟

فقالت:

- إنه يدق لأنني أخاف أن أخيب أملك.

سحبت يدي، لأمسد بها شفتيها هذه المرة:

ـ لماذا تخيبين ظني؟

فقالت بصوت لم يغادره الحزن، لكن قاطع:

ـ يجب ألا تفكر بي، بأني موجودة أو وجدت ذات يوم.

كل شيء يزول، تبقى فقط الأسماء، مثل الأموات، فهم لا يتركون إلا روائحهم بعد الموت. كل شيء يزول، وتريدني ألاّ أفكر، وأنا بدأت أحبها، أو هذا ما أعتقده، وأن يحب الإنسان شخصاً، يعني أنه يريد أن يعرف عنه الكثير، يريد أن يتقاسم معه، مخدة النوم، ولا يهم أنها تضع رأسها في حضني، وتتطلع في السقف، وأنا أتطلع بها، فأنا موزع بين نارين، أو بين أمرين، أريد برهاناً منها، برهاناً على دقات قلبها، أريد أن تحكي لي، لأنني أعرف أنها تخبىء سراً، ومن يحكي يوحي بأنه يقدم إخلاصه، لكنني أعرف بأن الإستماع هو قضية خطرة، وهي ربما مثلي، تريد أن تقص لي سرها، لكنها تخاف من الكلمات، الكلمات خطرة، الكلمات ممكن أن توحدنا وممكن أن تفصلنا عن بعضنا، لذلك هي تخاف أن تخيب ظني، وتقول عليّ أن أنساها، لكن كيف أفعل ذلك، بعد كل هذا المشوار، وأنا مثل ذلك الذي يدخل إلى سينما تشغل فيلمين دون توقف في آن واحد، فيرى الفيلم عند منتصفه الثاني، ولكن عندما يعاد الفيلم، ويرى بدايته، يفكر بأن الفيلم يجب أن ينتهي إلى نهاية أخرى. هكذا أنا، أو هكذا نحن الإثنان. لم يبقَ أمامنا إلا الذهاب في المشوار حتى نهايته.

ـ إحكِ لي.

قلت لها بصوت قوي، وكأنني أعلن لها عدم خوفي من القصة.

نَهضَت من مكانها، وظلت ملفوفة بالشراشف، فتحت النافذة، رمت سيجارتها، أغلقت النافذة، وظلت واقفة هناك، وتذكرت وقفتها التي حدثتني عنها عند شباك بيت أسيَدْ لوتي، بيت الزوجية في مزرعة الدواجن في «الدير» (في منطقة الهارثة)، عندما كان أسيَدْ لوتي مريضاً، ووقفت هي تعاين السماء مولية ظهرها إليه. فكرت في بادىء الأمر ما هو الفارق بين الوقفتين.

ـ سأحدثك بقصة جديدة، ولكن عليك أن تفتح أذنيك هذه المرة جيداً.

قالت ذلك بصوت هادىء، وهي تولي ظهرها لي، حينها فكرت: ليست الوقفتان هما اللتين تختلفان، إنما هما الامرأتان. إنهما امرأتان مختلفتان.

- ٥٢ -

لم تنم معالي - كما اعتقدت -، إنما نهضت بعد ساعة من مغادرتي الفندق. كانت قد سمعت صوتاً نسائياً، يأتي من ممر الفندق، وأرادت أن تتأكد بنفسها، من مصدره، لأن سماعها لصوت المرأة أشاع فيها نوعاً من الطمأنينة. أو على الأقل، كان ذلك شعورها للوهلة الأولى، بالتالي من الصعب التصديق، أنها تسمع هنا في وسط «حالة الحصار» التي بدأت تشعر به ذلك الصباح، صوتاً أنثوياً، ولا يهم إن كان لامرأة عجوز. هكذا فتحت هي أولاً باب الغرفة بهدوء حريصة ألا تخرج صوتاً، ثم مدت رأسها وحرّكته باتجاه مصدر الصوت. لم يكن صوتاً يردد جملاً واضحة، إنما كانت تختلط فيه الهمهمات مع الشكوى. رجعت إلى الغرفة، فتشت عن حقيبتها، فتحتها فتأكدت من وجود المسدس، ثم بحثت عن حذائها الذي كانت تعتقد بأنها تركته قرب السرير في الليلة الماضية، لم تجد غير فرد واحد، الأيسر، لبسته واتجهت صوب الباب. قررت الخروج إلى الممر لمعرفة صاحبة الصوت.

حرصت هذه المرة أيضاً ألا تخرج أية ضجة في تحركها. وجدت صعوبة في التحرك عبر الممر؛ كان الممر مظلماً، حتى أنها اضطرت مرة أو مرتين لتلمس الحائط، كي لا تقع. كان دهليزاً مليئاً بأشياء كثيرة من الصعب تمييزها في الظلام، لكنها ظنتها في تلك اللحظة، أكياساً من الإسمنت والجص والرمل وبراميل صغيرة وقطع صغيرة من الحديد، حرصت ألا تصطدم بها، لكي لا تثير الجلبة. وهي لا تدري في الحقيقة، فيما إذا كانت تسير في الاتجاه الصحيح، باتجاه صحن استعلامات أو إدارة الفندق، التي - منطقياً - كان يجب أن يكون الصوت قادماً منها. حاولت أثناء سيرها تذكر طريقها في الليلة الفائتة؛ عبثاً تفعل، حتى الصوت الذكوري الذي سمعته بشكل ضعيف لشخص صورته مضببة ربما كان صاحب الفندق أو مدير الفندق أو عامل الفندق، الصوت الذي حاولت تذكره، تردد لثوان فقط في جنبات مخها، ثم اختفى تماماً ليفسح المكان لصوت امرأة، ربما تستطيع الآن التكهن بعمرها، عندما تقترب من نهاية الممر، وتعرف أن المرأة لا بد أن تكون في أواخر الخمسين من عمرها، ساعدها في ذلك الضوء اليسير الذي انبعث من عمق الجهة المقابلة. حينها تأكد لها، أنها خطوات قليلة فقط، وتصل نهاية الدهليز، حيث كان عليها أن تعطف إلى اليسار، إذ يقترب منها الضوء الواهن أكثر، وحيث كان يأتي الصوت النسائي الذي بعث فيها راحة أكثر. تنفست، وفكرت، أن وجود امرأة سيخفف من وطأة الحال، وأن هذه المرأة - سيان من تكون! - ستخدمها في الوصول إلى هدفها. وهي - حتى الآن على الأقل - لم تخطىء التخمين. لبرهة أدهشتها قدرتها على تنظيم الأمور، وعلى صدق حدسها كله، وعلى سير الأشياء ببساطة مثلما

تريد ـ حتى الآن على الأقل ـ لكن مباشرة استحوذ عليها اضطراب بسيط، أجبرها على المبالغة في الصعوبات التي ستلاقيها، وعلى التكهن بهزيمة ساحقة مقدماً. لكنها لم تكن اللحظة المناسبة لفقدان السيطرة على النفس في ردود فعل باطلة.

صكّت على أسنانها، أمسكت بحقيبتها بقوة. وبحثت عن طريقها، ونادت:

ـ هل هناك أحد؟

سيطر صمت مريب في البداية، لكن لمدة ثانية واحدة، حتى سمعت صوتاً يفصل الصمت:

ـ ماذا تريدين؟

كان صوتاً نسائياً، سمعته دون أن تعرف مكان قدومه.

ـ أنا نزيلة في الفندق.

قالت معالي، وقد عرفت أن أية نغمة خاطئة في صوتها، تحوي على شيء من التوسل، ستثير الريبة إن لم يكن الإتهام، إلا أن قوة الصوت ونغمة الإصرار فيه كافية لتبديد كل شك، لذلك أضافت:

ـ أريد أن أعرف أين أنا؟

فأجابها صوت فيه شيء من الألم من جهة ما:

ـ نزيلة في الفندق؟ امرأة؟ تعالي.

نظرت معالي حولها، لكنها لم تعرف أين تتجه. ما زال الضوء خافتاً لا يشجع على التحرك بحرية، ولا يسمع غير صوت وشوشة محطات مختلفة تنبعث من راديو ترانزيستور يدير أحدهم بكرته. كانت الأصوات شبه مخنوقة. لمحت فوق الحيطان قرون غزلان كبيرة معلقة ومطعمة بخرز لامعة، بينما انبعثت رائحة زيت محروق وثوم تختلط مع رائحة أورين وملابس عفنة.

ـ أيتها السيدة.

قالت معالي وهي تفتش عن طريقها شبه المظلم. لقد فاجأت نفسها هي بقوة صوتها والعزيمة التي تجمعت فيه، وكأنها مقبلة على معركة طويلة. لبرهة تردد صوت سعال قوي وبصاق، أعقبه شخير خفيف، لكنه عميق يشبه الأنين. تعثرت معالي بتخت صغير، فسمعت أحدهم يحاول أن يقول شيئاً وهو نصف نائم. تراجعت خطوتين. لم يدم الأمر طويلاً. تنفس الصوت بعمق، فيما سُمِع صوت زر الكهرباء وهو ينفتح. غمر الضوء الممر الصغير.

- أين هي النزيلة؟

سأل الصوت المتذمر ذاته.

- أنت هنا، أيتها السيدة.

قالت معالي ذلك مرعوبة، ولكن فخورة في الوقت نفسه لقدرة صوتها.

- الصلوات على سيدنا موسى.

رأت معالي ظلاً للنصف العلوي من جسم امرأة يقفز نصف قفزة أمامها. كانت امرأة قصيرة، تقريباً قزمة، بهيئة خشنة وقحة بعض الشيء. ظلت المرأة جالسة في الفراش، نصف جسمها - من القدمين حتى الحزام - ملفوف بمنشفة كبيرة بيضاء. كانت امرأة كبيرة في السن، في نهاية الستين من عمرها، وليس كما ظنت معالي قبل، رغم أن العجوز ظلت محافظة على قوة واضحة. شعرها أبيض بوقار. إلى جانبها استقرت عصا من خشب الصاج، زُيّن رأسها بقطعة من البرونز على شكل أسد. في يدها مجموعة من المحابس، ثلاثة أو أربعة من الفضة القديمة. المكان الذي نامت فيه، يمنح الإنطباع بأنه غرفتها وليس إدارة الفندق فيه بعض الموبليات: كرسي قديم بعروات من المعدن (الفافون) مصنوعة بعناية ومهارة، التمع قليلاً تحت ضوء لمبة على شكل بطة، وضعت فوق شرشف مطرز بصورة أنيقة تنم عن ذوق، فُرِشَ على طاولة صغيرة، صُفت إلى جانبها مجموعة لمبات صغيرة منطفئة على شكل عصافير وبلابل، إلى جوارها منفضة سجائر من مرمر نادرة الوجود في هذه الأزمان. أما على الحيطان فقد عُلقت في كل مكان بوسترات تصور ما يشبه «مكة» والحجر الأسود. الحجر الأسود يبدو بأشكال مختلفة: مرة لوحده، مرة فوق بناية عالية، مرة فوق قبة كبيرة، وفي مرة واحدة يجره بحصانه فارس مدجج بالسلاح، يمسك في يده سيفاً ضخماً ويقدمه لمجموعة من الناس تتشاجر مع بعضها. كانت صوراً لا يمكن التغافل عن رؤيتها، مثلهن مثل الغرفة، التي تجبر المرء على التطلع بها - أو من الأفضل القول المكان، رغم أنه لم يحو على موبليات كثيرة، بالإضافة لكل ذلك، عُلق عند الحائط، فوق رأس المرأة، لكن بمستواه، إذا نهضت، رف صغير، وضعت فوقه آنية من الخزف فيها وردة من البلاستيك، ومغزل للحياكة، وقدر صغير ملآن بالفاصوليا الخضراء.

- هل كنت تقفين منذ وقت طويل؟

قالت المرأة، ثم أضافت:

- تقدمي!

قالت العجوز ذلك، ووضعت جهاز راديو ترانزيستور فوق الرف الصغير، بجانب

قدر الفاصوليا، ومسحت بالمنشفة بقايا النعاس.

قبلت معالي الدعوة، دون أن تخفي تلك الصرامة التي قررت الإبقاء عليها طوال الوقت. كانت فزعة بعض الشيء ربما أخذتها المفاجأة، وكانت تحتاج إلى ثوان قليلة فقط، لكي تسترد أنفاسها، كي تتحدث مع العجوز تطابقاً مع الخطة التي رسمتها في رأسها.

- حسناً، لا يهم كم من الوقت.

سكَتَتْ لثانيتين أو لثلاث، وكأنها تبحث عن جملة مناسبة.

- أنا نزيلة جديدة في الفندق، سأكون ممنونة لشرف التعرف على حضرتك.

قالت ذلك، وكأنها تبرر وقاحة مفترضة.

- المرة الثانية يتشرف فيها أحد بالتعرف عليّ. في المرة الأولى جاء الجنرال الفرنسي، قائد قوات التحالف البرية، بلزاك، للقائي. قال بأنه سمع باسمي منذ الطفولة، في قريته، كوندوم، في جنوب فرنسا. كانت الناس هناك تتناقل أخبار عسلة العراقية صانعة حبوب منع الحمل. يجوز كانوا يشعرون بقرابة مع عائلتنا، بسبب تصنيعهم مانع للحمل، الواقي المشهور، كوندوم، المرتبط اسمه باسم القرية نفسها. مختصر الكلام، أقدم لك نفسي: أنا عسلة لاوَيّ، عسلة اليهودية صاحبة الفندق، عسلة المشهورة على طول البلاد وعرضها، أكيد سمعت بي!

قالت العجوز ذلك، وهي تحرك رأسها، وكأنها تزيح شيئاً علق بشعرها، ثم تعمل إشارة بيدها، وكأنها لا يهمها جواب المرأة الأخرى، أو كأنها تعرف من تكون، أو لا يهمها من تكون، فتكمل:

- من يتشرف في التعرف على واحدة من سلالة آل لاوَيّ، على يهودية هذه الأيام، رغم أنهم أطلقوا لقب اللاوَيّين على كل الذين يبيعون حبوب منع الحمل.

سعلت عسلة وكأنها تبرر هي الأخرى وقاحة مفترضة، بينما كانت تفتل بيدها خصلاتها البيضاء.

- لا تستغربي يا ابنتي من رؤية امرأة، فأنا الأخرى لا أستغرب قدوم نزيلة للفندق.

قالت عسلة ذلك بصوت حلو وكأنها تحيد عن شكوك امتلكتها هي نفسها قبل لحظات.

- إنها أيام مجانين. فلو جئت قبل ليلة واحدة فقط، لما استطعت إيوائك. فلقد كانت ليلة البارحة ليلة مجانين، إذ جاءت منتصف سواد الليل مجموعة من الرجال، خمس

عشرة رجلاً من نقابة ما لا أعرفها، أتذكر إنهم قالوا من نقابة الحرس الجمهوري أو الملكي أو ما شابه، قالوا إنهم عثروا على سيارة مرسيدس قريبة من هنا، عليها آثار دم، وفيها زجاجة ويسكي فارغة؛ زجاجة جوني ووكر، مثل هذه، وقناني أخرى صغيرة، عادة يحملها الناس لجلب الأدوية المكروهة من المستشفيات.

انحنت عسلة قليلاً، وأرادت أن تمد يدها تحت السرير. حدست معالي ما تريده العجوز، فسارعت لمساعدتها. أخرجت من تحت السرير زجاجة، ناولتها للعجوز.

- مثل هذه، زجاجة جوني ووكر.

ابتسمت عسلة، ووضعت الزجاجة على الرف الموازي لرأسها، إلى جانب راديو الترانزيستور.

سعلت، ثم مسحت سعالها بالمنشفة هذه المرة.

- يقولون إنها السيارة التي يبحثون عنها. كانوا يتصرفون مثل المجانين. فتشوا الفندق كله، كانوا يفتحون ويضربون أبواب الغرف بصوت عال. لسوء الحظ إن معظم غرف الفندق مزودة ببابين، باب للدخول وباب للهروب. أبواب الهروب تدخل في بعضها. حتى أنهم دخلوا عليّ من الباب الخلفي، من هناك.

أشارت عسلة بالاتجاه الذي جاءت منه معالي. ثم أكملت:

- يشعلون ويطفئون الأضوية حسب مزاجهم. كانت دوشة كبيرة، لحسن الحظ أنهم غادروا، ما أن سمعوا بقدوم بعض من أعوان قوات التحالف. لا أدري فلقد قال أحدهم، إن هناك أحد مترجمي قوات التحالف هنا، ومن الأفضل أن يهربوا، لكي لا يسيئون إليه، من الأفضل عقد صداقة معه. لم يعرفوا أن القادم لم يكن من أعوان قوات التحالف، إنما هو أحد جنودهم بالفعل، اسمه سقراط، ويلقبونه بالبوليفي، يأتي هنا مرتين في الأسبوع ويلتقي بالأخوين محمود وعلي، لا أدري أية تجارة بينهما. أعضاء النقابة لا يعرفون ذلك، وهم لا يعرفون أن كل نزلائي عابرون، باستثناء ثلاثة أشخاص هم المقيمون فقط، والأخوان محمود وعلي اللذان هما مقيمان عابران، وإلا فإن كل من يأتي ينام ليلتين أو ثلاث، يقولون بأنهم ينتظرون سيارات الكوستر لكي تقلهم إلى معسكرات قوات التحالف. هل حضرتك قدمت لهذا السبب أيضاً؟

- كلا، كلا...

قالت معالي ذلك، بعد أن فوجئت بسؤال عسلة الذي لم تكن مهيأة له، لم يكن ضمن الخطة التي رسمتها؛ لكن معالي لا تستسلم بسهولة، فمن السهولة عليها تغيير التكتيك.

ـ جئت إلى هنا مع زوجي، المترجم.

تنفست عسلة، وقالت:

ـ إذن بسبب زوجك هرب أفراد النقابة. كم يوماً ستمكثان؟

ـ أسبوع أو أسبوعان، من يدري؟

في تلك اللحظة فقط، عرفت معالي أن كل ما تقوله عبث، لأنها إذا أرادت لخطتها أن تكتمل، فعليها الخروج من المصيبة بأسرع وقت ممكن؛ وأسرع وقت ممكن، هو كل شيء باستثناء هذا «الأسبوع» أو «الأسبوعين».

لكن معالي كانت تحمل كلمات جاهزة، ونتف من قصة مضطربة، زاد اضطرابها سماعها قصة العثور على سيارتهم «بل العثور حتى على زجاجة الجوني ووكر»، نعم عليها الاعتراف بجرأة بأن خطتها ممكن أن تفشل، وأن قصتها تحمل قوة إقناع أكثر في طريقة إلقائها وليس في مضمونها. عليها سحب عسلة، عسلة اليهودية، إلى جانبها، حملها على التضامن معها كامرأة، ، عليها التصرف بطريقة توحي بالثقة، بتبرير شيء يُشَكُ بأمره منذ البداية؛ تلك هي الطريقة الأسلم وليست الطريقة التي ظنتها في البداية. فقالت معالي مؤيدة كلام العجوز:

ـ كان يوم مجانين بالفعل، كم مرة أوقفونا في الطريق.

ـ من؟ أفراد نقابة الحرس الجمهوري؟

سألت عسلة، بينما راحت يدها تبحث تحت المخدة.

ـ كلا، أية نقابة؟ اللصوص، سرقوا كل شيء منا، حتى السيارة.

توقفت يد عسلة عن البحث تحت المخدة، وكأنها تريد الإبقاء على كنز ما هناك.

فقالت بصوت نصف نائم، ونظراتها كانت هذه المرة معلقة في الفراغ.

ـ هل تساعديني في النهوض؟

اقتربت معالي منها. مدت يدها للعجوز. دفعت عسلة المنشفة إلى جانب. نهضت وهي تعتمد بيدها الأخرى على السرير. وقفت. بحثت عن عصاها. مسكتها. رفعتها للأعلى، فعرفت أن المرأة عمياء، رغم أنها كانت تتصرف وتحرك عينيها في محجريهما بصورة تمنح الانطباع بكونها طبيعية، حتى أن، معالي ذاتها، لو لم تقترب منها، شكت لحظة بسلامتهما.

ـ هل تحدثت مع حياوي بنزين، أقصد مع يهودا أفرام سلومي؟

فسألت معالي وهي تقف بجانبها:

ـ لا أعرف من تقصدين؟

أسندت العجوز العصا فوق الأرض. فصلت نفسها عن معالي، وتحركت خطوتين.

كانت وهي تقف لوحدها على القدمين، تبدو أكثر قوة، رغم قامتها القصيرة. تحركت منحنية البدن. يد تستند على العصا ويد تسند ظهرها. كانت تدفع العصا بحركة تخفي وراءها شخصية واحدة وقورة أكثر من إخفائها لشخصية جدة عليلة.

ـ آخ إنسيه، أقصد يهودا أفرام سلومي، أقصد حياوي بنزين، فهو في هذه الأيام، يقوم بكل شيء بدلاً عني. هو الذي يدير الفندق.

قالت وهي تؤشر بالعصا.

ـ لا عليك، سيسجل اسمك هو، لا ترعبك حدبته، ولا تدوخك أكاذيبه. ذلك هو ديدنه، وذلك هو كنزه. وعنده الحق أن يخاف عليه. مثلي أنا، أخفي كل الذهب تحت المخدة.

توقفت قليلاً، وكأنها تتدارك ما تقوله:

ـ لماذا أثق برجل غيّر حتى أسماء أبناءه بعد الأحداث الأخيرة، وجعلهما اسمين شيعيين بالتمام. أنه زمن مجانين بالفعل.

أجابت معالي مؤيدة مرة أخرى من جديد:

ـ إنه يوم مجانين بالفعل.

اقتربت عسلة منها. مسكتها من كوعها، وقالت لها:

ـ هنا ستكونين على ما يرام، ليس هناك أنظف من هذا المكان. كل الأماكن المحيطة من هنا مسكونة بالفيروس. هنا لن يصاب أحد بالمرض، إطمأني لن يصل المكروب إلى هنا. ألم ترِ بعينيك، وإلا لكان أعضاء كل نقابات البلاد هنا، إنهم إذا ظهروا هنا فلدقائق فقط؟ يخافون من الميكروب بدون سبب. لا يعرفون أن عائلتنا قضت على الميكروب منذ زمن طويل. وهذا ما قاله أبي لحياوي قبل أن يموت.

ثم وكأن عسلة تذكرت أمراً مهماً سألت:

ـ حضرتك لست مصابة بهذا المرض، وإلا عليك دفع مبلغ كبير، الكل يدفع هذه الأيام، والبوليفي يأتي لهذا السبب، والأخوان محمود وعلي هما وسيطاه.

لم تعرف معالي ما الذي كانت العجوز تعنيه بالمرض. بالإضافة إلى أن الأمر لم

يعنيها لا من قريب ولا من بعيد. أو هذا ما بدا الأمر عليه حتى تلك اللحظة على الأقل، فأجابتها بثقة:

ـ كلا، أبداً.

فسألت العجوز:

ـ قلت لي أن زوجك مترجم؟

فأجابت معالي بصوت فيه الكثير من الفضول:

ـ نعم مترجم.

نظرت العجوز في الفراغ، وقالت بصوت حزين:

ـ كيف هي قوة الشم عندك؟ هل تشمين الميكروبات دون صعوبات. أنت تعرفين بأن المترجمين يدورون من مكان إلى آخر، ويلتقون ببشر مختلفين. هم لا ينقلون على لسانهم مختلف اللغات، إنما ينقلون الميكروبات من قومية إلى أخرى أيضاً. ليس ذنبهم أنهم ينقلون الميكروبات، لأنهم سريعو العدوى بسبب احتكاكهم بمختلف الأجناس، فالناس يحملون الفيروس دون أن يعرفوا، وخاصة الرجال منهم. الرجال يحملون الميكروبات معهم، وخاصة فوق جلدة أعضائهم، لذلك السبب يأمر المسلمون واليهود بطهور الرجال. تحت قلفة الرجال تختفي أطنان من الميكروبات، للأسف لا تنتهي بطهورهم، إنما تنتقل معهم تباعاً في برازهم دائماً. هل شممت خراء الرجال؟ ألم يخطر في ذهنك أن رائحته لا تطاق؟ وعندما تحدثهم امرأة ما عن الميكروبات التي تسبح فيه لا يصدقون. ربما عندهم الحق، فكما تعرفين أن الميكروبات كائنات صغيرة، لن يستطيع أي عضو في النقابة، حتى وإن كان عضواً في نقابة الحرس الجمهوري القضاء عليها. هل أنت متأكدة من عدم إصابة زوجك بالمرض؟

لم تنتظر عسلة إجابة معالي، إنما هي التي أكملت الحديث:

ـ بالتأكيد لا. وإلا لما كنت معه هنا. لقد انتهى الزمن الذي تضحي المرأة فيه بسبب الرجل. سابقاً في زماني، كانت المرأة تبقى مع الرجل الذي تتزوجه ولا يهم إن كان مصاباً بالمرض أم لا، المهم عندها رجل، حتى لو تزوج أربع، حتى وإن كان مصاباً بالمرض.

وما إن مرت المرأتان بأحد أبواب الغرف، حتى سمعتا أصوات سعال عالية، أنين يبعث معه النشيج.

ـ إنها أصوات بعض الرجال الذين يسكنون هنا منذ عشرين سنة. تركتهم زوجاتهم عند نشوب الحرب الأولى. ضباط متقاعدون، واحد من الشرقاط، يركبه الشيطان أحياناً، فيبدأ بالحديث بلهجة أهل مناطق الغربية، مثل عجل يابه، آخ لا أجيد تقليد لهجتهم، أما الآخر يقول إنه من بغداد والثالث شاعر عسكري مشلول بوزه، يقولون عنه أنه كان من أكبر شعراء المعركة، من العمارة، من ناحية المجر، اسمه عبد الرزاق الشيخ مخفر. الدولة تدفع تكاليفهم، رغم أنهم عزاب، إلا أنهم لا يكفون عن رواية الخرافات المتعلقة بقوتهم الجنسية وبالعذارى اللواتي فضوا بكاراتهن. في هذه الأيام من النادر أن يغادروا غرفهم، وإن خرجوا للتنزهة أو للتجول، فإن خطواتهم لا تتعدى عتبة مقهى الأمل، رغم أن الشاعر المسكين لا يستطيع الخروج لأنه لا يستطيع مفارقة زجاجة العرق، يعتقد أنها ستسرق، إذا تركها لحظة واحدة. ولولا إن صاحب المقهى زميل لهم هو الآخر، لما زاروا المقهى، لأنهم لا يطيقون الجلوس بجوار بعض، ولا يتكلمون مع بعض، لكنهم شطار برواية القصص عن بعضهم البعض.

لم تعلق معالي بكلمة. لقد فوجئت بالعجوز. كانت مشغولة برسم استراتيجيتها وتكتيكها.

ـ ليسوا هم بالرجال السيئين. لكن المرض خرب عقولهم. لم يحتملوا بعضهم أبداً. حتى حياوي ليس أفضل منهم. الميكروبات تقتل الرجال. إنهم ليسوا مثل النساء، ليست لهم قدرة على التحمل. وإلا لماذا يلجأ الرجال لضرب النساء؟ إنها علامة ضعفهم. أما نحن النساء، نقدر أن نضرب الضربة القاتلة، دون ضرب العصا.

في تلك اللحظة، ضربت بعصاها ضربات خفيفة على أحد الأبواب، حتى انبعث صراخ اختلط بسعال.

ـ هس!

همست العجوز لمعالي، وقالت لها وهي تسحبها في الممر:

ـ هل ترين، كيف أغظت يهودا أفرام سلومي، العفو، حياوي بنزين دون كلام، ودون ضرب. يعرف إنها عصاي.

ـ أنا امرأة طبيعية أيتها السيدة، ليست عندي مشاكل مع زوجي.

قالت معالي بصوت فخور.

ـ عن أية لغة يترجم؟ هل يترجم عن لغة الأحلام؟

سألت عسلة، دون منح الإنطباع بأنها تنتظر جواباً.

عسلة بمشيتها العليلة والمتفاخرة، أرجعت معالي بعد دورة قصيرة عبر الدهليز المظلم الذي جاءت منه وأبواب الغرف التي بدت لمعالي غرف يسكنها أموات، لتضعها عند نفس المكان الذي بدأتا عنده. رفعت العجوز العصا باتجاه الصور المعلقة على الحائط.

- كل تلك الصور رسمها أبي. كان أبي يطلق على نفسه مترجم أحلام. للأسف لا أحتفظ بكل رسوماته. كان يرسم كل صباح بجنون. وعندما يسأله أحد، يجيب أنه يترجم ما يراه في الحلم. جدي يقول هكذا كان ديدن أبي منذ طفولته. فهو لم يرسم رسوماً بلا معنى، إنما يرسم ما يعلن النذير. كان أبي يحلم بالحجر الأسود دائماً. هكذا رسمه بأشكال مختلفة. يقول إنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه الصحيح. وإذا سأله أحد ما الذي يقصده بالمكان الصحيح، يجيب، المكان الصحيح، حيث كان الحجر الأسود ولا يهم أين. حتى إنه يعتقد بأن المصيبة بدأت مع تلك السرقة. وكما ترين في الرسوم من الممكن أن تكون خلفية الحجر الأسود في مكة أو في القدس أو في تل اللحم، أو عند شجرة آدم، لا يهم، المهم فقط هو أن أبي كان رساماً بارعاً.

أخرجت عسلة صرخة صغيرة بالابتهاج، وقالت بتواضع فرح:

- لحسن الحظ ترك لي أهم لوحاته التي تعلن النذير. هل ترين تلك مع الفارس؟ أليست هي أجمل الرسوم؟

مرة أخرى تطلعت معالي في اللوحة، فرأت للمرة الأولى أن الفارس يمر ببناية لم تظهر بصورة واضحة، أو ربما لم ترها معالي، لأنها الشكل الوحيد الذي رسم بالفحم الأسود، إذ كان من الصعب عليها رؤية الإسم الذي كتب على بوابة البناية «تل اللحم»، وهو مرسوم على غلاف كتاب، إذ بان حجم الكتاب أكثر من الخط.

- تل اللحم. كان أبي يعرف بوجود هذه القرية، قبل تأسيسها. كانت بالأصل البيت الذي ولد فيه سيدنا ابراهيم صلوات الله عليه وسلم.

هل ترين البناية الصغيرة تلك خلف الحجر، إن نظرك بالتأكيد أقوى من نظري أنا لا أرى شيئاً؟

في الحقيقة لم ترَ معالي في عمق الصورة شيئاً يثير الإنتباه ولا الاسم الذي أشارت إليه عسلة، لكنها قالت بصوت لم يخلُ من المفاجأة:

- فندق الحيارى.

- هل تعجبك الرسوم؟

سألت العجوز بصوت حزين، لكن واثق.

ـ نعم، فيها شيء يعجبني، لا أعرف ما هو؟

قالت معالي ذلك، دون مجاملة، رغم أنها لا تعرف لماذا أجابت تلك الإجابة، ردت دون تفكير.

قالت عسلة، وكأنها تجيب عنها:

ـ بالتأكيد أن الكتاب، الذي خط الإسم عليه. هو التوراة، العهد القديم. العين بالعين والسن بالسن. تعرفين؟ الناس تعرف بس هذه الجملة، لكن ولا واحد يتكلم عن الأسفار الخمسة، أقصد سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاوّيين، سفر العدد، سفر التثنية.

هزت معالي رأسها، ولم تعرف حينها بماذا تجيب، كانت تحاول رسم خطة معينة في رأسها فقط. ربما شعرت عسلة بذلك، فقالت لها:

ـ الآن أترك حضرتك، وآمل إنك فهمت القصة كلها، وآمل أن تقولي ذلك لزوجك المترجم، وإذا لم يشأ التعلم من الدرس، فتصرفي أنت. وليبق شيء واحد عالقاً في ذهنك، لا تثقي بالرجال. هل تعرفت على حياوي بنزين؟

ـ كلا.

أجابت معالي بصوت فيه بعض من الشك هذه المرة.

ـ يقول إنه زوجي. لا يهم. ليكن زوجي. يقول إنه صاحب الفندق. لا يهم أيضاً. لكن أن يقول إنه يهودي، فهذا ما لا أقبله. عيسى في دينه وموسى في دينه. وهذا حياوي بنزين قضى حياته يتقلب مثل باقي الرجال هنا. مع عائلة القريشي التي كانت تسيطر على تجارة السيارات في النجف أصبح شيعياً، ليس لأنهم أنقذوه من الموت والتسفير إلى إيران مع الأكراد الفَيْليَّة، إنما لأنه كان يعرف أن جنته هنا عندهم وليس هناك حيث الأرض الموعودة. وعندما سَفَّروا بيت القريشي، لم يرحل معهم، لأنهم ذهبوا دون قرش واحد، فقد سُرِقَت كل ثروتهم. لم يذهب. هرب من النجف. وجاء إلى هنا. ادعى أنه مضمد. العجيب أن كل من قدم إلى هذه القرية ادعى أنه مضمد، والمصيبة إن هذه القرية لم يدخلها مضمد منذ عصر جدي. مع العلم أن اسمه الحقيقي هو يهودا أفرام سلومي وهو مسيحي من تلكيف، أبوه كان يشتغل نزاح طهاير، ولكن عندما أصبح شاباً ترك أباه في شغله لوحده، وجاء من الموصل، تزوج من ابنة عمه، وأصبح له ولديْن أحدهما سماه حيدر والثاني سيف، الأول إسم شيعي والثاني إسم سُنّي، وكأنه ولد قبل الشيطان بيومين، كل شيء يربطه بمصلحته، ديانته وأولاده، وهو

مثل القطة التي تشم رائحة السمك من بعيد، عرف أنني أعيش هنا. عسلة اليهودية. كنا نشتغل في الحفر على المعادن والخشب والغزل والحياكة والتطريز ولف السجائر. عائلة كبيرة. طردوا أهلي، لم أشأ مغادرة البلاد، لأنني ولسوء حظي كنت أحب رجلاً، خانني مع أول امرأة التقى بها، ورغم أنني كنت حاملاً في تلك الفترة، راح يدعي بأنني أنا التي خُنْته. ونسي أنني اختفيت في المستشفى وبقيت أتحمل عاري كيهودية بسببه. ولم يبق أمامي غير الشغل كممرضة هناك. حلفت ألا أبقي طفله في بطني، وذهبت إلى كوكة في بغداد، حتى تجهضني، لأن كان من المستحيل أن أجهض هنا، ومنذ ذلك اليوم حلفت أن أصنع أقراص منع الحمل، وأساعد نساء البلاد، يقولون أنني لست وطنية، أبول على وطنهم، وأنا لا أفكر مثلهم، لأني أقول من الخطأ أن يموت الإنسان في سبيل وطنه، وأن وطني هو كل تلك النساء اللواتي عرفتهن واللواتي لم أعرفهن، وعندما تتحقق سعادتي كامرأة، يوم تصير كل النساء سعيدات، تصير البشرية سعيدة، أما الوطن مثلما يقصدوه فلا أعرفه، وطني هو النساء. المستقبل والسعادة تتقرر بين أفخاذهن في كُسهنّ. وثقي، أنني لم أشعر بوطني إلا مرتين، المرة الأولى يوم بدأت بصناعة أقراص الحمل، والمرة الثانية يوم اكتشفت كذب وخداع وحقارة يهودا أفرام سلومي، العفو حياوي بنزين، اسمه السري، كما قال هو، عندما ادعى أنه كان شيوعياً أثناء عمله كمضمد في نهاية الخمسينيات.

قالت جملتها الأخيرة بسخرية، ثم سكتت لفترة غير قصيرة، لتسترد أنفاسها قليلاً، أو ربما لتنعش ذاكرتها، لتكمل:

ـ على أية حال لنرجع لموضوعنا، في تلك السنوات، في الأربعينيات، لم تكن هناك في البلاد الكثير من الممرضات. لذلك لم تُسفِّرني الدولة مع أهلي. قالوا، لنستفد منها، يهودية وممرضة. تعرفين الممرضات هن بمثابة العاهرات بالنسبة للناس. أنت تعرفين؟ ممرضة كمرادف لكلمة عاهرة. الناس تقول أن كل الممرضات عاهرات. هم على حق. أنا أقول في كل عاهرة تختفي ممرضة، في كل ممرضة تختفي الرغبة في العهر، والمهنتان إنسانيتان أفضل من كل المهن الأخرى في البلاد. لكن الناس طبعاً عندما يقولون ذلك يقصدون أمراً سلبياً. بالنسبة لهم الممرضة تهتم بأي رجل، لا يهم إن كان جريحاً أو سالماً، نظيفاً أو قذراً، المهم فقط إنه مريض ويستحق العناية. نفس الشيء فيما يخص العاهرات. نفس الشغل. لا يهم، إن كان الرجّال وسخاً أم نظيفاً، بقلفة أم بدونها، مسيحياً كان أم مسلماً أو على أقل تقدير إذا لم يعرف أحد بذلك من السلطة يهودياً. ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يحتقرون الممرضة والعاهرة، سيقولون بافتخار بأنهم مضمدون. إسأليهم إذا أردتِ اختبارهم، إن كانوا عهّار؟ سيردون عليك بغضب.

حذار. أقول لك. لا تصدقي كلام كل هؤلاء الأدعياء الذي يقولون إنهم مضمدون، فهم هنا لأسباب أخرى، الأول، يلقبونه بالصهيوني، لأنه كلما اغتصب واحدة، راح يصرخ بها ناط العينين لاهث الأنفاس: خذي عيري الصهيوني، يروح يكرر هذه الجملة مرات عديدة حتى يفحط ويسقط إلى قرب البنت، لأنه عنين، ولا يفيده ادعاؤه، وهو في الحقيقة يتاجر بالأعضاء البشرية مع قوات التحالف، بعد أن كان يتاجر بها مع المسؤولين في الدولة، فهو يعرف حاجة الأوروبيين للأعضاء، كما أن الأوروبيين يدفعون له بالدولار، والثاني الذي تقلص قضيبه وأصبح طوله بالكاد سنتيمتران، وربما ينقرض قريباً ونرتاح منه، جاء هنا مع حقيبة كبيرة بملابسه العسكرية، يبحث عن بنت يقول إنها تسكن مع عائلتها هنا، يدّعي أن إسم العائلة هو بيت سيد مسلط، لكنه لا يبوح باسم البنت، يقول إنه إذا باح باسمها فإنهم سيسرقونها منه، أو سيقتلها صاحبه محمد طالب حمودي الصهيوني وسيأخذ عينيها لجمالهما. ولا أدري إذا كان يقصد بالفعل العائلة التي أعرفها ويعرفها الناس في هذه المناطق، عائلة بيت سيد مسلط، التي عاشت حتى وقت قريب من هنا، عند أطراف تل اللحم، لا يريد أن يصدق أن بيت عائلة سيد مسلط انتقلت إلى «مكان اسمه كميت» أولاً، قبل أن تنتقل إلى الكويت، ثم لتعود إلى كميت مرة أخرى، وأتذكر كان عندهم ثلاث بنات، وأعرف إسم بنت لهم تزوجت في القرنة على ما أظن، لأن إحدى زبوناتي، يرحمها الله إفْطَيِّم بُجْيْ دَي يقولون قتلوها أيام الأحداث (تعتقد أنها قتلت!)، والتي كانت تشتري مني حبوب منع الحمل تحدثت عنها بإعجاب أكثر من مرة. الناس تخبلت، أو خبلتهم الحرب، ولولا علاقة أفرام بنزين (ها أنا أسمع إسماً آخر لحياوي أو يهودا أو سلومي بنزين، لا أدري!) بهم، لما أدخلتهم الفندق أبداً، لكن أفرام بنزين عنده مصلحة وداخل بتجارة معهم ومع قوات التحالف عن طريق البوليفي، والثالث يدعي أنه شاعر، رغم أن بوزه مشلول، ولا يستطيع الخروج، لكنه لا يكف عن كتابة أوراق صغيرة يلقيها من النافذة مثل مناشير، كتب فوقها، أنه شاعر وليحذروا من الوحي إذا نزل عليه، رغم أنه إذا أردت الحقيقة، أن جميع الناس في تل اللحم، يدّعون أنهم قديسون، ومثقفون. فحامل البكالوريا هو حتماً كاتب، والقوّاد الذي يتحدث عن داء السيلان، يخلع عليه في الحال لقب شاعر، ويعطي آراء حصيفة لا يجرؤ أحد على مناقشتها، هكذا هي تل اللحم، انقلبت المدينة بين ليلة وضحاها إلى مدينة القديسين! قديسي الخرّه، إنتظري، هي أيام وسيقلبها الله، مثلها، مثل كل المدن المجاورة لها، مثل الناصرية مثلاً، فهناك عند «الرُوف»، يبدأ «سد أبو جداحة» وسينهد عليها يوماً، يكفي أن تحفر من تحته فأرة صغيرة، وتصبح حاله حال سد مأرب، كيف والمنطقة مليئة بالجرذان، أنواع الجرذان، بكل أصنافها لا ينافسها في القتل إلا هؤلاء القديسين، قديسي الخرّه!

ضحكت عسلة، وقالت:

- لكن هذه هي الحياة، يجوز كان أبي على خطأ.

سكَتَت لثوان فقط. ثم تطلعت بمعالي وعندما لم تسمع جواباً منها، قالت لها مطمئنة:

- هكذا أتركك لوحدك، الحمام في نهاية الدهليز. وإذا احتجت شيئاً نادي على حياوي بتزين، أو ناديني، إذا ناديتني، عليك أن تهتفي أكثر من مرة، لأن سمعي ثقيل، ونومي عميق. مع السلامة.

بدت عسلة ساذجة بكل ما تقوله. لكن ربما كانت نيتها سيئة، ومن الممكن أنها تخفي تحت ذلك المظهر السلمي والوقور، تحت ذلك المظهر الحزين والمشتت بعض الشيء شخصية أخرى، علمتها التجربة أن تستخدم رواية القصص لكي تنتهي إلى عكس ما توحيه، أو إلى عكس ما تريده في الظاهر، وليست عسلة استثناءً من ذلك، كل كبار السن يتصرفون بالطريقة ذاتها، ربما تكون هذه السذاجة المخترعة هي شيء مشترك عند كل الشيوخ، وتخدمهم لكي ينتهوا إلى فعل وقول أشياء كما يحلو لهم، دون تأنيب من أحد، أو دون حساب، يجعلون أنفسهم قريبين من الموت، لكي يعطوا الإنطباع بأنهم لا يعيشون في خطر وليس عندهم رغبات ولا يأملون شيئاً، عندما لا يستطيع أحد أن يبقى في الحياة وبوعيه الكامل ويخلط الذكريات مثلما يخلط أوراق اللعب، لأن الذكريات هي التي تجعل من كل شيء يُعاش خطراً أو مرغوباً فيه، وتجعل المرء دائماً يعيش في الأمل، كما أن من المستحيل ألا يضع المرء الذكريات في المستقبل ويحللها على أساس ذلك، هذا يعني، أن المرء لا يرتبها في كل ما فُقِدَ وولّى، إنما أيضاً في كل ما يلزم وقوعه، أو أنه على وشك الوقوع، هناك أشياء معينة لا يعتقد المرء بأنها لن تحدث مرة أخرى، لأن ما حدث ذات مرة لا يمكن استبعاد حدوثه مرة ثانية، وإذا فكر أحدهم مثلاً أنه مارس الحب في المرة السابقة للمرة الأخيرة، فإنه بالتأكيد سينتحر. إن أولئك الشيوخ الذين يتحدثون عن النذير، يريدون أن يمنحوا الإنطباع فقط بأنهم ما زالوا على قيد الحياة، لأن الأحياء وحدهم من يعتقدون بأن الوقت ما زال غير متأخر لكي يحدث ما لم يحدث، الوثبات الكبيرة والتوقعات الضخمة، وعسلة في حديثها لم تتكلم مثل شخصية حيّة، كانت تتحرك مثل شبح، أو وهم، مثل موت قادم، يسدل عباءته أو ستارته على تل اللحم، ليقول، انتهت الحكاية، حكاية «تل اللحم»، إذن هي المرأة العمياء التي تحدثوا عنها، وهم لا يعرفون، أو ربما لأنهم كانوا يعرفون تحدثوا عنها: «حذار من طعنة الأعمى».

- ٥٣ -

«يجب ألا تفكر بي، وبأني موجودة أو وُجِدْت ذات يوم»، ظلّت تلك الجملة عالقة في ذهني، أكثر من تفاصيل القصة الجديدة التي حَكَتها لي، وأكثر من القصص التي أردت أن أرويها لها: قصة نجمة، وقصة التنصت، اللتين أرجأتهما إلى لحظة مناسبة، وبدل أن أفكر باللحظة المناسبة تلك، فكرت أكثر بما جرى لي معها للتو، بما حَكَته لي. فكرت، صحيح أنها حكت لي قصصاً كثيرة، لكن مَنْ الذي يضمن، أن تكون تلك القصص غير مجرد خيالات منها، وليست لها علاقة حقاً بالواقع. وجملتها التي قالتها هي برهان على ذلك، ألا تريد أن تقول لي أيضاً، بأنها وهم، وماذا سيحدث لو كنت أنا أيضاً وهماً، وقبل أن نصل إلى «تل اللحم»، أو ربما بعده أيضاً، ربما كنت كابوساً أو شبحاً، وما زلت كذلك. رغم أن هذا ليس بذي معنى، لأننا لا نستطيع أن نحكم على أنفسنا أبداً، ولا نستطيع أن ننصح أنفسنا أو نقترح عليها شكلاً من الأشكال، أننا نسمع أنفسنا فقط. هناك أشخاص يبدون للآخر بأنهم يتصرفون دائماً بصورة جيدة إذا كان الأمر ينتهي لمصلحتهم، أو أن ما يفعلونه هو جزء منهم. ولكن كيف يمكنني تقييم ما تفعله معالي. وهي كلما تحكي لي قصة، كأنما تدفع لي ديناً، كل القصص التي روتها لي، هي دفعات ديون، ديون لم أطالبها بها أو لم أجعلها تشعر على الأقل بأنها مديونة لي بشيء، بماذا؟ وليس هناك شخصاً ممكن أن يطلب شيئاً، إذا ما عرف أنه موجود أو أن من يعرفه، أو حتى لو ما عرفه فإنه يتجاهل أنه حدث أو أنه يمكن أن يحدث، لذلك ليس بإمكانه أن يطلب إعادته من جديد. وفي النتيجة من يحكي هو الذي يقرر أن يكون ذلك الشيء موجود أم لا، وأن يفرضه أيضاً ومن يعرفه هو الذي يقرر حجم الورطة التي يسببها الصمت والكتمان، وهو الوحيد الذي غالباً ما يحث على رواية ما حدث دون أن يطلب منه ذلك أو ينتظره أحد منه، وليس هناك علاقة بالذنب ولا مع تأنيب الضمير ولا مع الندم، لأن ليس هناك أحداً يشعر بنفسه تعيساً في لحظة فعله إذا كان يعتقد بضرورة فعله، لكن بعد ذلك، يأتي الإنزعاج والخوف، ولا يأتيان بالصورة التي يتخيلها الآخرون، إنما هما انزعاج وخوف أكثر من أن يكونا ندماً، أو أنهما تعب لا غير.

- ولكن معالي، قولي بربك ما الذي تبحثين عنه أنت هنا؟ لماذا جلبتنا إلى هذا المكان؟

سألتها بعد انتهائها من رواية القصة، قصة عسلة هذه المرة.

- قبل الإجابة، أجبني أنت عن السؤال، ما هي اعتراضاتك على هذا المكان، ما الذي تجده سيئاً في هذا المكان؟

قالت ذلك، وبدأت بلبس لباسها الداخلي، بينما كانت ترفع رجليها.

- إنه الجحيم!

قلت لها باقتناع.

- ليس هناك جنة أو جحيماً. أبداً. الجنة والجحيم ليستا في الخارج. نحن من يحملهما ولن يمنحنا المكان أي عزاء. لأننا نحملهما مثلما نحمل الميكروبات.

قالت ذلك، ونزعت لباسها الداخلي الذي لبسته للتو.

- نسيت إنه وسخ، لم استبدله منذ أيام.

ضحكت لبرهة، ثم صنعت وجهاً جدياً، لتقول لي:

- بربك، ألا تعيرني أحد ألبستك الداخلية. كل لباساتي وسخة.

شعرت بالحرج، فهي المرة الأولى التي تطلب فيها امرأة مني لبس لباس يخصني. المشكلة تضاعفت، عندما خطر في ذهني، بأني أنا الآخر لا أملك لباساً نظيفاً.

- أنا الآخر. لباساتي وسخة.

ضحكت، ثم قالت بحماس:

- إذن انحلت المشكلة. أنت تأخذ لباسي الوسخ، وأنا آخذ لباسك الوسخ.

وعندما لاحظت استغرابي من لا منطقية الإقتراح، علقت:

- أنت تعرف، لا يستطيع المرء تحمل قذاراته ذاته، لكنه يستطيع على الأقل تحمل قذارات الآخرين.

وعندما لاحظت عدم اقتناعي بجملتها، أضافت:

- ألسنا كلنا مؤمنين لهذا السبب. هل تعرف من هو المؤمن؟

فسألتها بصورة أوتوماتيكية:

- لا تقولي لي إنك تعرفين من هم المؤمنون أيضاً؟

فأجابت بانفعال:

- طبعاً. أعرف أحسن منك.

وبعد توقف قصير، أكملت:

- المؤمن هو من يطلب من الآخرين أن يفعلوا ما يقوله، وليس أن يفعلوا ما يفعله.

لم أفهم ما تعنيه.

- أنت وأنا مؤمنان بكل معنى الكلمة. نحن المواطنان الصالحان اللذان يحبان

والديهما والحكومة. ألم نتعلم ذلك في درس التربية الوطنية. «التضحية والإيثار هي أكبر صفات المواطن الصالح». لذلك نستبدل لباساتنا الداخلية. الآن وفوراً.

ما الذي تريد أن تقول؟ هل تريد أن تضعني في الوضع نفسه الذي هي فيه؟ قبل أن ننام مع بعضنا، لم يقارب بيننا غير ورطتنا. يمكن أن تقرب القصص الناس من بعضها، لكني لم أحكِ لها شيئاً مهماً، كانت هي التي تحكي طوال الوقت، ربما تفكر أنها دفعت ما يفوق الديون الرمزية التي في ذمتها لي، وتطلب مني أن أحكي، إنه نوع من التبادل، ولا يهم إن كان غير ذي نفع، هي تروي القبل وأنا الما بعد، كتبعية أو نتيجة لمجرى أحداث وقصص لا مفر منه. جملها تحمل رسالة واضحة لي بالتأكيد: في كل الأحوال كان ذلك ماض حدث وانتهى، كان قد حدث وربما لم يحدث، من الممكن استعادته لكنه حدث وانتهى، ولا يهم أن ما روته يتعلق بأشياء لم تعنيني بصورة من الصور، لكن الآن، بعد نومنا مع بعضنا، وبعد وصولنا إلى ما وصلنا إليه، ليس هناك مفراً من مواصلة القصة.

ـ ستفهم ما أريد أن أقوله. ستعرف ما حدث، ولن يكون الأمر بالنسبة لك سهل. ليس لأن لك ذنباً، وليس بسببك، وليس هو ذنب أحد. إنما سبب تداخل الأشياء وتداخل مصائر الناس. الأشياء تحدث، هذا هو كل شيء، ربما بسبب سوء الحظ أو حسنه، وفي أغلب الأحوال دون تدخل أحد، ودون تمنيه أن يحدث ذلك. لكن دائماً تحدث لشخص ما وهو يتقاطع بالصدفة مع شخص آخر، ومعظم الأحيان دون أن يعرف ذلك، لكن ذلك لا يفرق. ليس هناك أحداً يحسب حساب ما يحدث، أنت تقاطع طريقك معي دون أن تعرف، دون أن تعرفني، لأنني شخصية غريبة عليك، ولا يهم أنك عرفت جارتك، الآن يمكنك أن تعرف ومن الأفضل لك أن تعرف، حينها ستفهمني. سأحدثك بكل شيء بسرعة.

فكرت، بأنها هي إذن في ورطة تريد أن تخرج منها، وهي الآن فقط على عجلة من أمرها. تريد أن تحكي، وتريدني أن أفهم، وهو دور صعب بالنسبة لي، لأني أعرف أن كل واحد يفهم كما يرغب مثلما أن كل واحد يحكي قصته هو وحسب، ففي هذه الأوضاع هناك دائماً من يأخذ كل تفصيل مثلاً علامة مهمة، مثل تفاصيل مهمة، أما الثاني فلا ينظر إلى تلك التفاصيل بذات الأهمية، إنها بالنسبة له بلا معنى، وإذا تحدث الإثنان عن تلك التفاصيل، فسيتحدثان عنها بطريقة مختلفة، ليس هناك قصتين متشابهتين حتى لو عاشها الإثنان معاً، بالإضافة إلى ذلك، ليست هناك قصة تعود فقط للشخص الذي عاشها، أو الذي يخترعها، فما أن يحكيها مرة حتى تصبح ملك الآخر، تنتقل من فم إلى فم، وتُحوَّر وتُلوىٰ، حتى أننا في النهاية ننتهي لرواية قصتنا، ليست هناك قصة تُروىٰ مرتين بنفس الشكل، ولا بالكلمات نفسها، ولا حتى الراوي سيكون هو الوحيد

الذي يرويها في كل الأوقات. القصص تُروى بلهو أو بحماس، ببطء أو بسرعة، بتواضع أو بصورة مبالغة، دفعة واحدة أو على شكل دفعات، دفعات تشبه الطعم الذي يلقيه الصياد إلى سمكته الموعودة. حكاية القصة تستدعي دائماً صياداً ماهراً. ومعالي لم تصدني بالنوم معها، لم تجعلني مقنعاً في مشاعرها، إلا بعد تقديمها لي الكلمات، الكلمات هي طعم القصة الجديدة. وكأننا لم نكتفِ بكل تلك القصص التي رويناها لبعضنا، أو في أفضل الأحوال، لم نكتفِ بكل القصص التي روتها لي، ها نحن الإثنان نخترع قصة جديدة، قصة يمكن تسميتها «قصة حب»، أو بمعنى من المعاني، قصة تفوح منها رائحة الحب، ولا يمكنني منذ تلك اللحظة التي نمت فيها معها أن أخفي مشاعري إزاءها، لقد أدارت رأسي، وبدأت أدوخ بمجرد التفكير بها، وأعتقد أنها هي الأخرى، تفكر مثلي، ولا حاجة لي أن أسألها فيما إذا بدأت هي الأخرى تحبني (أو كانت تحبني منذ زمن؟) فلقد شعرت بدقات قلبها، وهي معي في الفراش، وهي تقف إلى جانبي، وإذا كان نبض القلب بهذه القوة، فله أسبابه، نعم لكل نبض قلب أسبابه، رغم أن أسبابه تتغير، وهو الذي يعلن لنا عن كينونتنا، حتى نعرف، ما الذي كناه، وما الذي نكونه، وما الذي سنكون عليه، وإذا تغير القلب، فمن الأفضل أن يلقي المرء السؤال بصيغة مغايرة، حينها لا يسأل الناس بعضهم «هل نحب بعضنا؟»، إنما يسألون «هل ما زلنا نحب بعضنا؟»، وإذا فكرت بهذا السؤال جيداً، آخذاً في اعتباري تغير قلبها وتغير قلبي، سأقول، نعم ما زلنا نحب بعضنا، ولا يهم الوقت الذي مضى على حبنا، والدليل، هو أننا ما زلنا سوية، هنا، في هذا المكان، في غرفة، في فندق الحيارى، في مكان يفترض أنه مدينة «تل اللحم»، في بلاد نشرت خرابها مثل طاعون، نعم ما زلنا نحب بعضنا، وإلا ما الذي نفعله هنا؟ وإذا شَكَكْت بحبنا لبعضنا، فإن ذلك يأتي من شكّي، فيما إذا كان هناك شيئاً اسمه حب، ولكن سيّان ما يطلقون (أو ما أطلقته أنا) على تغير القلب هذا، فإن رغبتي بحبها، هي مثل رغبتها بحبي، وهي في النهاية لا تختلف عن الرغبة لامتلاك الحب الذي فقدناه تدريجياً. «آه كم فقدنا من الحب»، صرخت تلك الجملة في داخلي، حتى أنها خرجت من فمي بهمس، دون إرادة مني، لكني عندما عاينتها، لأتأكد من سماعها لها، رأيتها استسلمت لنوم عميق، لكنه هادىء، لم يسمع فيه حتى تنفسها، فيما استرخت ذراعها فوق صدرها، وكفها مفتوحة، وكأنها تنتظر صدقة توضع في يدها، أو كأنها تدعو دعاءً لرب يزورها في المنام (ذكرتني نومتها تلك بالنومة الملائكية ذاتها لممثلة، اسمها إنعام ـ على ما أعتقد ـ. ممثلة لا تظهر في التلفزيون إلا قليلاً، ولحسن حظي رأيتها في أحد أدوارها النادرة التي لا تنسى قبل أيام قليلة من استدعائي للخدمة العسكرية في الحرب الثانية، وظلت صورتها وهي نائمة مثل خيال جميل عالقة في ذهني، كان دورها قصيراً يقتصر فقط، على الغناء وهي نائمة، كانت

تغني أغنية «الحمامة. . . ضلت طريقها الحمامة» بصوت شفاف مثل ملاك). في تلك اللحظة بدت لي قريبة جداً، وبأني أعرفها، بأنها ما عادت امرأة غريبة، رأيتها مرتين أو ثلاث من البعيد، أو سمعت قصصها بصورة حيادية، كلا، الآن، لم يكن عندي الشعور بأني أعرفها فقط، إنما نحن الإثنان رحلنا بالاتجاه الصحيح، باتجاه انتشارنا وانكشافنا واحد للآخر تدريجياً، ولم نعد نشكل ظلالاً لبعضنا. أو إذا لم يكن كذلك، فنحن على الأقل بدأنا نكون زوجان، يخرجان تدريجياً من عالمهما المحكومين به، من عالميهما المفقودين، من إرث سري لأيام مشؤومة، الإثنان يرحلان باتجاه اتحادهما وانكشافهما للبعض، لكن حتى الآن بصورة تدريجية أكثر ويكدح أكثر باتجاه النسيان. وهكذا ـ قلت لنفسي ـ ربما سأحدثها عندما تستيقظ، أو ذات يوم وبمناسبة لاحقة، عن ما جرى هذه الليلة، وعن الإحساس المؤكد التي انتابني: ربما سأكون أنا الزوج الذي حلمت به، الزوج المنتظر، الذي لم يصل حتى تلك الليلة، والذي سيساعدها لسنين طويلة أخرى على الاستمرار بالعيش بين الأحياء المتقلبين، في عالم مصنوع من الرجال وللرجال، في عالم مشكل من الريبة والقصص غير المنتهية، والحذر الذي ينتظرها عند كل زاوية. منذ تلك الليلة، بدأت تُوحِدُنا أكثر من قضية.

ـ ٥٤ ـ

مع تلك القضية، نمنا، وكان يمكن أن تستمر نومتنا دهوراً، لأن ليس هناك ما ينتظرنا في الخارج، ليس خارج الغرفة، إنما خارج مساحة النوم، خارج أرض النوم، كنا مُسَيَّجين بنومنا، نلتف على بعضنا، غارقين، في عتمة الغابة، «غابتنا»، لو لم يجعلنا صراخ يشبه العويل نفصل عن بعضنا، وننخلع من نومتنا، ونقفز من السرير فجأة، بل لنلبس ملابسنا بسرعة البرق، ولنخرج مرعوبين، أنا أرتجف من الخوف، وهي تناولت حقيبتها، وأخرجت منها المسدس، هكذا فتحنا الباب، وسرنا بخطوات حذرة باتجاه مصدر العويل. كان الممر، أو الدهليز معتماً، وكان من الممكن أن نرتطم بأي شيء لكن لم يكن هناك شيء يتقاطع مع طريقنا وسط الممر، وسط «الغابة»، فقط صوت العويل، الذي انقلب إلى أنين خافت يأتي سمعنا، ونحن نسير، هي تقبض على المسدس، وأنا إلى جانبها، أمسك كتفها، نسير ودليلنا ذلك الأنين، الذي عرفنا من أين يجيء الآن، من غرفة الإدارة، ولأننا كنا مثل العميان، فإن الأنين المختلط مع الأصوات، هو الذي أجبرنا على التوقف أولاً عند مدخل الباب، الباب الذي لم يكن مغلقاً تماماً، وكأنه ظل على حاله منذ تركي له، عند وقوفي خلفه قبل ساعات، «كانت ليلة مجانين»، خطرت في ذهني جملة عسلة اليهودية، عسلة العمياء، عسلة لاوِيّ وربما خطرت في ذهن معالي أيضاً، أو على الأقل في ذهن تلك المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي، وفي تلك

اللحظة تذكرت أيضاً ما قاله لي الضابط الألماني الشرقي بيرساك، بأنني ذات يوم سأرد الاعتبار لهذا الفعل، فعل التنصت، دون أن أكون مضطراً للوقوف في مكان «مرقب التنصت»، وأنني سأفعل ذلك دون إرادة مني، وذلك ما حدث لي بالفعل ذلك اليوم، بل حدث لي مرتين، المرة الأولى لوحدي عند صعودي الفندق، والمرة الأخرى بصحبة معالي، أو بصحبة المرأة التي حتى تلك اللحظة ظننت أنها معالي، وكان بودي أن أقول لها ذلك، لأعرف بما ستعلق به، أو ما الذي تقوله، ولكنها هي التي تصرفت بلحظة خاطفة، ودفرت الباب، باب غرفة الإدارة برجلها، واقتحمت الغرفة مثل محترفة، أو مثل أولئك الممثلين المحترفين الذين نراهم في أفلام السطو والمغامرات، في أفلام التشويق، ولكن ليس في أفلام التشويق التي واظبت معالي على رؤيتها مع صديقها، طالب أكاديمية الفنون الجميلة، الذي كان مدمناً على مشاهدة أفلام الكاوبوي، إلى حد أنه كان يفضل أن يقضي وقته بمشاهدتها، أكثر من قضائه للوقت بممارسة الجنس معها، كلا، بدأت أرى فيلماً مشوقاً يدور الآن حياً أمامي، وأنا الذي أشترك فيه، كممثل كومبارس، رغم أن دوري هذه المرة يختلف عن الدور الذي قمت به في الاستعراض الكبير، بمناسبة مرور عشرين سنة على ظهور الحاكم ومرور عشر سنوات على استلامه الراية، ومرور سنة على انتصار البلاد في حربها الأولى، وهذه المرة ليس هو دوري الوحيد الذي اختلف، عندما قبضت على المسدس، وليس أنا، إنما اختلف كل شيء، فليس هناك هذه المرة استعراضاً صغيراً أو كبيراً، مثلما ليس هناك انتصاراً للبلاد على أحد (ربما انتصرت فقط على مواطنيها!)، مثلما ليس هناك مخرجاً مصرياً أو مخرجاً محلياً، أو ممثلاً رئيسياً من مؤسسة السينما والمسرح، كلا مثلما ليس هناك أفراداً من الحرس الجمهوري، بل ليس هناك مفوض الأمن شاهين نزّال «عويد» (الاسم الثالث ذلك ألحقوه به عند نعيه)، ورائحة البصل القوية الممتزجة مع رائحة الثوم الحادة، وهو يلقي تعليماته على أساس السيناريو الذي ترجمته وجيهة حرفياً أو بتصرف عن وثيقة للجنرال البرتغالي كاردوزو وفق ما جاء موثقاً في رواية لأحد الكتاب البرتغاليين والمعارضين للجنرال سالازار، والذي نقله قبلي بتصرف كاتب اسمه «نجم والي» - كما عرفت لاحقاً - قبل أن أنقله أنا عنها؛ كلا، في تلك الليلة، وعند ساعات الفجر الأولى، وقفنا وسط الغرفة، لكي نتهيأ للمشهد ما قبل الختامي للحكاية، للرحلة وسط الغابة: أنا وهي، معالي أو المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي، وهي تقبض على المسدس، ومحمد طالب حمودي ومحمد منعم النقشبندي وحياوي بنزين، سقراط النقشبندي، وأرسطو الصهيوني ويهودا افرام سلومي، بينما جثمت فوق الأرض، جثة ضخمة، ليس هناك شك بأنها جثة عسلة، عسلة اليهودية، عسلة العمياء، عسلة لاوّيّ، رقبتها مقطوعة، وليس رقبتها التي لم تؤكد ظني من كونها هي عسلة فقط، إنما حملتني على التطبع بهم،

بالرجال الثلاثة، لأرى افرام سلومي حياوي بنزين وهو يقبض بيده على السكين، السكين المدماة، وكانت هي ثوان قليلة فقط، تلك التي حدث فيها كل شيء بالتوازي، والتي جعلتني أصحو من نومي تماماً، وأنظر بعينين مفتوحتين بكل سعتهما، لكل ما يجري، وكأننا بالفعل عند العطفة الأخيرة من الغابة: إذ سقطت فجأة السكين من يد حياوي بنزين، الذي راح ينحب بصوت أجش، وهو يقترب بحذر من معالي، أو من المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي، ويسقط عند قدميها ويأخذ بتقبيل حذاءها. هو يدمدم بصوت يختلط مع النحيب، نحيبه «أجبرني هؤلاء، أرجوكما افهماني، لا تعرفان حبي لعسلة، لكنهما أجبراني، مع البوليفي»، رغم أنه لم يكتف بالبكاء، وربما من أجل إعلان حسن نيته، دفع يده باتجاه حدبته، ليخرج صندوقاً صغيراً (لم يكن أحدبَ إذن)، وفتحه بسرعة وهو يصرخ وسط دموعه «خذي كل هذه الجوازات المزورة، استفيدي من بيعها، ولا تقتليني أرجوك»، بالفعل سقطت من الصندوق جوازات بألوان مختلفة، جوازات بلدان مختلفة، لم أشك لحظة بدقة تزويرها، وربما لذلك السبب فقط يمكن تفسير النظرات المريبة والغاضبة التي افترساه بها الإثنان: محمد طالب حمودي الصهيوني وسقراط محمد منعم النقشبندي، وفي تلك اللحظة، لحظة تقاطع نظراتنا جميعاً وتداخلها وسط تلك الفوضى، صاحت معالي، أو المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي، صاحت به أن ينهض وهي ترفسه بقدمها وحذاؤها يمس وجهه، ثم لتطلب منه أن يرفع سكينه ويطعن الإثنين بالمكان ذاته الذي طعن به عسلة، عسلة زوجته، عسلة العمياء، عسلة اليهودية، عسلة لاوي، أمر جعله يتوقف من الاقتراب منها، عندما رأى نظرتها الجدية له، رغم أنه تردد قليلاً، حتى وجدت نفسها مجبرة أن تلقي عليه خطبة قصيرة: «لا تظن بأني قاتلة، لكن، إذا استدعت الحال فإنني لن أتوانى عن فعل ذلك، عن القتل مرة ثانية وأخرى، يكفي العار الذي ألحقه بنا هؤلاء»، قالت ذلك وهي تبصق على محمد منعم النقشبندي، وتتقدم باتجاهه، وتمسكه من لحيته التي نمت، وتبصق على وجهه، وتقول، وهي تدخل فوهة المسدس في فمه: «أليس ذلك يا سيد سقراط، سيد محمد منعم النقشبندي؟ أين هي بذلاتك العسكرية، التي كنت تستبدلها واحدة بعد الأخرى، مع الرتبة بعد الأخرى، هل نسيت، ليلة اغتصابك لمعالي، رغم افتعالك لكل المكالمات التلفونية من ضباط آخرين كنت أنت منهم؟! ألا تريد الاعتراف الآن، أنك كنت تمارس إسقاطاتك عليها، تسقط كل الضباط برتبهم المختلفة، الضباط الذين ناموا مع زوجتك، عليها، على معالي؟ ألا تريد أن تمص المسدس، إنها رائحة البارود، وهي ملائمة لك أكثر من رائحة القضيب» ربما لأنها ختمت خطبتها عليه بتلك الجملة، خطر على ذهنها، اتخاذ قرار قد يبدو غريباً للجميع، وحتى لي أنا الذي كنت أقف مشدوهاً هناك، ما طلبته من الرجال الثلاثة، وربما لها هي أيضاً، إذ فجأة لاحظتها تتردد، ويدها ترتعش، لكن

الأمر لم يدم ثوان، إذ وكأنها استرجعت عزيمتها دفعة واحدة، لتتخذ قرارها، ولا يهمها كيف تؤول الأمور، ولا يهم إن بدا سلوكها منطقياً لأحد أم لا، كلا كنت متيقناً أنها لم تكن معنية برأي أحد، وأقلهم رأيي أنا، يقيناً، أنها في تلك اللحظة، فكرت «ليكن ما يكون»، وهي تعرف، أن عليها ألا تفوت مفاجأتها لهم، مثلما عليها بالفعل أن تذهب معهم باللعبة إلى أبعد الحدود، بالضبط تطابقاً مع القواعد الغريبة التي وضعوها هم لها، وأن تجبرهم بما لم يتوقعوه (في الحقيقة ما لم أتوقعه أنا، وربما ما لم تتوقعه هي، حتى لحظة طلبها منهم ذلك)، هكذا صرخت بهم بلهجة آمرة: «الآن يمص كل واحد منكم عير الثاني»، ربما لو كنت مكانهم، لأخذتني المفاجأة، لكن يبدو أن الثلاثة من طينة أخرى، من طينة واحدة، فقد بدوا وكأنهم كانوا مستعدين لفعل كل شيء، لقد عرفوا أن توسلهم لن ينفع، حتى توسل سقراط النقشبندي الذي قال لها «أرجوك، سامحيني عن كل ما فعلته مع أختك»، حينها سألته عن بذلاته العسكرية وما الذي حصل لها، فأجابها، «ما زالت هناك، في الحقيبة»، فعلقت، «لن تنفعك بذلة أو رتبة اليوم، مص!» ربما في تلك اللحظة، عند سماعي لجملة محمد منعم النقشبندي، عرفت أو من الأفضل القول، إن شكوكي بدأت تزيد بأنها ليست معالي، إنها امرأة أخرى، لكني لا أعرف من هي، وأحتاج بعض الوقت لكي أعرف الاسم الصحيح، ولكنها هي التي لم تمهلني، لأنها ربما كانت مثلي، شعرت بالقرف، من تكالب الثلاثة (لا يهم أنهم كانوا تحت التهديد، تهديدها!) على مص الأعضاء التناسلية لبعضهم، حتى أنها صرخت بحياوي بنزين، «إطعن، إقطع عضوه أنت، مثلما يقطع هو أعضاء المحكومين بالإعدام والأسرى والمعوقين والمرضى»، وإذ لاحظت تردده صرخت به مرة أخرى «إطعن!»؛ كان في تلك اللحظة يقبض بيد على سكينه وباليد الأخرى يداعب شعر محمد طالب حمودي الذي كان يمص قضيبه، لحظة اختلطت بها النشوة مع الخوف، حتى أنه لم يتردد هذه المرة من الهجوم على الاثنين بسكينه، وسط عياطهما وتوسلاتهما، أمر لم يساعدهما في تجنب الطعنات السريعة والعميقة، الطعنات المميتة التي تلقياها من سكين حياوي بنزين، الذي لم يستطع هو الآخر تجنب موته عن طريق تلك الطعنات، إنما كان عليه أن يسمع جملتها الأخيرة، جملة معالي، أو جملة المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي: «هذه هي الطلقة الأخيرة التي أحتفظ بها لأحد ما»، حينها تذكرت جملتها التي قالتها لي، ونحن في السيارة، بعد إطلاقها النار على حراس نقاط التفتيش، والتي لا أتذكرها حرفياً، لكني أعرف ما كانت تعنيه، أنها أبقت طلقة واحدة، لأحقر رجل في البلاد، تلك الطلقة التي تلقاها هو، وجعلته يسقط إلى جوار زميليه، لكي يكتمل مشهدهم الثلاثة وهم ملقون على الأرض، أرض غرفة الإدارة، في فندق الحيارى، دون أن يوحي استلقاؤهم بكونهم حيارى، إنما كان يثير الضحك أكثر، لأنهم استلقوا وبنطلوناتهم

مفتوحة، ولا يهم إن استلقى طالب حمودي الصهيوني على ظهره، لأن ذلك الوضع لم يمنع سقراط النقشبندي أن يموت هو الآخر، وجثته مائلة إلى جانب، وقضيبه ما زال في فم طالب حمودي الصهيوني، هناك إلى جانب الصندوق الصغير الذي أرادوا سرقته من عسلة، عسلة اليهودية، عسلة العمياء، عسلة لاوّيّ والذي رفعته عن الأرض معالي، أو المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي، أو من الأفضل القول ليس عند لحظة رفعها للصندوق، إنما حتى لحظة فتحها له، لأرى مثلها المجوهرات التي احتفظت بها المرأة هناك، والتي لا يقدر ثمنها، والتي دفعتها لي معالي، أو المرأة التي ظننتها حتى تلك اللحظة معالي وقالت لي، «لنغادر»، حينها غادرنا الفندق، «فندق الحيارىٰ» بسرعة، وكأننا نعرف الاتجاه الذي نسير نحوه هذه المرة، أو الذي سأقودها بالسيارة إليه فلا هي قالت لي إلى أين، ولا أنا اقترحت عليها مكان توجهنا، نعم وكأننا كنا متفقين على الذهاب إلى المقبرة، وكأنها بالفعل الطريق الأخير، أو العقدة الأخيرة قبل مغادرة الغابة، ولا يهم اختلاف نوايانا الظاهري، فلا أنا أعرف ما الذي نوَتْه، ولا هي تعرف إتفاقي مع الأخوين محمود وعلي عند قبر الجنرال الفرنسي، بلزاك، ولكن مهما بدت نوايانا مختلفة، فإنها تلتقي في لحظة الحسم عند النقطة ذاتها، النقطة التي تشير إلى الموقع الأخير لما قبل خاتمة الطريق، وإلا ما الذي جعلها هي، معالي، المرأة التي سأتوقف منذ تلك اللحظة عن تسميتها معالي، ليس لخطأ بالظن مني، إنما لأن مسار الأشياء، مسار الحكاية، مسارنا نحن الإثنين، كان لا بد أن ينتهي إلى هذه النهاية، أقصد إلى تلك النهاية، النقطة التي أوقفتني عندها، وطلبت مني التوقف، والنزول من السيارة، ومساعدتها لفتح صندوق السيارة، حيث تخبىء لي مفاجأة، وعليّ ألاّ أستغرب من خاتمة القصة، أو من الأفضل القول من ما قبل خاتمة القصة، عندما تخرج من الصندوق: آلة الچلو في الأول، وتسندها إلى جسم السيارة، ثم تطلب مني مساعدتها لرفع البطانية التي احتوت على كتلة ثقيلة، شممت رائحة عرق حادة، رائحة العرق العصري النادرة التي رشتها على مؤخرة السيارة في لحظة إنطلاقنا، في لحظة بداية رحلتنا وسط «الغابة»، والتي لم أعرف ما تحتويه، حتى لحظة حملنا لها إلى مكان قريب من السيارة، إلى مساحة حفرة صغيرة مفتوحة، يشير كل شيء إلى كونها فتحت قبل دقائق قليلة، وضعت بالقرب من كتلة التراب المجاورة لها شاهدة قبر لم أتبين ما كتب عليها، لكني تبينت ما كتب على شاهدة القبر المجاورة لها: «الجنرال بلزاك»، فعرفت بأنه المكان ذاته الذي اتفق محمود وعلي على اللقاء معي عنده، صدفة أخرى ربما كانت ستحملني ساعات أخرى أو أياماً أخرى على التفكير بها، لو لم أتعرف على الوجه، أقصد وجه الجثة التي حفظتها البطانية الملقاة أمامي: إنه وجه معالي، ولا يهم حجم الرعب، أو حجم الشك، أو حجم الخوف الذي سيستحوذ عليّ، فليست هي الجثة وحدها من يعجل بمشهد الختام، أو بمشهد ما قبل

الختام، إنما هي الشاهدة القريبة، شاهدة القبر التي وضعت بالقرب من شاهدة قبر الجنرال الفرنسي «بلزاك»، التي تشير إلى إسم وميلاد الجثة: «معالي سيد مسلط: ١٩٥٧ ـ ١٩٩١».

ـ ٥٥ ـ

ـ هناك دائماً شخصان أو ثلاثة في حياة كل شخص لهم الحق أن يعرفوا أسراره. وبما يتعلق بي، إثنان منهم ماتوا، والثالث أنت. سأحكي لك القصة.

قالت لي تلك الجملة، بعد انتهائها من طمر القبر بالتراب، وإلقائها المسحاة التي أخرجتها من صندوق السيارة أيضاً. جلست على الأرض، أو بالأحرى تهالكت مجهدة، تسند ظهرها للسيارة، سيارتنا، التي أوقفتها قريبة من القبر، وما زال صندوقها مفتوحاً.

تساءلت مع نفسي، من أعطى هذا الحق؟ لو أرادت لكانت هي تتكلم عن نفسها فلا بأس، أما أن تقول إن كل شخص في حياته اثنان أو ثلاثة يجب أن يكشف لهم أسراره، ليس صحيحاً (في رأيي) إلا إذا أراد صاحب السر كشفه للآخر. ولكن؟ لا حق لأحد على أحد أن يكشف أسراره له مهما كان؛ أردت أن أقول لها ذلك، لكني عدلت، لمعرفتي، بأنني أتشوق بالفعل أن أصبح أحد هؤلاء الشخصين أو الثلاثة، وإن استدعى الأمر لتجعلني الرابع، إضافة إلى أنها هي التي قطعت عليَّ تفكيري، أو لنقل أنها كالعادة كانت أسرع مني في الحديث.

سألتني:

ـ هل عندك سيجارة.

كنت أعرف أن سيجارة أو سيجارتين (أو ثلاث) بقيت في صندوق السيارة. سرتُ بصورة غير إرادية وفتحتُ باب السيارة، بالفعل لم أعثر على سيجارتين فقط، إنما وجدت علبة سجائر سومر سوداء، علبة كاملة، حملتها لها بسرعة، وقد استحوذ عليَّ شيء من الفرح أنساني المفاجأة التي ألقتني بها هي.

أعطيتها العلبة، وجلست إلى جانبها. كنت أنا الآخر منهكاً وبقايا إرث الليلة المشؤومة وكل ما جرى بها ما زال ينهك أعصابي.

ـ يقولون إنهم يصنعون هذا النوع من سجائر السومر في ألمانيا؟

قالت، ومسحت العرق الذي تصبب فوق جبهتها، والذي التمعت قطراته وسط ليل المقبرة الموحش. رغم الإعياء الذي هجم عليها، لم يفقد تعليقها شيئاً من السخرية،

فهي ألقت جملتها تلك بطريقة وكأنها تقول لي، «ماذا تقول أنت يا خريج قسم اللغة الألمانية؟». لكنها كعادتها، عندما تسخر، تنسى ما قالته بعد ثوان، وتدخل في موضوع آخر. وهذه المرة، بعد أن أشعلت السيجارة بولاعة احتفظت بها في حقيبتها التي لم تفارقها لحظة، مالت بجذعها قليلاً باتجاهي، قبلتني على شفتي، ثم أرجعت الولاعة إلى مكانها، أخرجت المسدس، حركته حركتين أو ثلاث، بيدها الفارغة، ووضعته في يدي، وقالت لي:

- أرجع مسدسك لك، إنه ألماني هو الآخر، اعذرني من استعارته.

لبرهة اعتقدت أنها تمزح مثل كل مرة، لكن لم يستغرق الأمر ثوان قليلة، حتى عرفت، أنها لم تمزح، فالمسدس الذي وضعته في حضني، هو مسدسي الذي تسلمته في الاستعراض الكبير بمناسبة مرور عشر سنوات على تسلم الحاكم للسلطة، ومرور عشرين عاماً على ظهوره، وسنة واحدة على انتصار البلاد (لا يهم على من!). ربما فكرت لثانية واحدة، أنه ليس المسدس الوحيد الذي يحمل الماركة ذاتها، ولكني لم أنسَ خيط الدانتيل الأحمر الذي شده عليه على شكل نجمة، مفوض الأمن شاهين نزّال. إنه المسدس ذاته، الذي وضعته بعد عودتي تلك الليلة منهكاً (لم أصدق بقائي على قيد الحياة أياماً طويلة)، إلى جانب الصوفا التي نمت عليها، بالضبط في المكان الذي وضعت عنده الرسالة التي تركتها لي وجيهة بعد رحيلها الأول عني. وفي الحقيقة نسيت أمره ليومين أو ثلاثة، ولا أتذكر متى خطر على بالي مرة أخرى، عندما سألت وجيهة عنه، ربما هو خوفي أن يطلبوا مني المسدس، رغم شكّي بالأمر، لأن الشخص الذي سلمني المسدس كان هو مفوض الأمن شاهين نزال، وبالتأكيد فإن موته أو قتله أنساهم السؤال عنه، فهو كما أتذكر، تصرف بإعطائه مسدساً لي بصورة اجتهادية، إذ - كما عرفت من وجيهة بصورة مقتضبة - لم يكن من السهل لأي شخص حيازة مسدس بسهولة، وحتى لو صَحّت حيازته للسلاح، فكان من الإلزام أن يخلو السلاح من الذخيرة، كما هي العادة في الاستعراضات الرسمية الكبيرة. بالتأكيد لم يعرف مفوض الأمن شاهين نزّال حجمه الحقيقي، وأخطأ في تصوره لدوره، فتصرف بصورة فردية، وأعطاني مسدساً من مخازن مديرية أمن «البطل جمال عبد الناصر»، وما كان عليه أن يفعل ذلك. على أية حال، لم أتذكر الأمر بصورة ضبابية - بضرورة تسليم المسدس بصورة طوعية، وعندما أجبتها برفضي لفعل ذلك، ليس طمعاً بالمسدس، إنما لأني أريد الإبتعاد شيئاً فشيئاً عما يجري، وذكرتها بقرارنا نحن الاثنين، بالانسحاب تدريجياً من المشهد، من وظيفتنا كمترجمين، وبقدر ما يخصني الأمر، فلم أعتقد بوجود عائق كبير يمنعني من التصرف بتلك الصورة، في حالتها فقط، ستكون هناك بعض الصعوبات بالتأكيد. ووجيهة لم تجد في كلامي

غضاضة، على العكس، أبدت تفهمها لما أقوله، وقالت لي، بأن عليَّ ألاّ أهتم للأمر، وأنها ستتصرف، والمسدس الآن في حوزتها (في تلك اللحظة لكي تؤيد صحة ما تقوله أخرجته من حقيبتها التي وضعتها فوق الطاولة المجاورة للصوفا)، وأنها ستسلمه إليهم في أقرب فرصة. صدقتها، وكان عندي، أو كان عندنا نحن الاثنين من الهموم ما يكفي، لذا نسيت أمر المسدس، والآن بعد أكثر من سنتين، أجد المسدس في حضني، بالهيئة ذاتها التي تركته فيها، غير أنه هذه المرة، بدون ذخيرة، بدون طلقات، لأنها شريكتي الجديدة، التي أفرغته من طلقاته وقتلت على عدد طلقاته ثمانية أفراد ربما، نعم هذه هي المرأة: جارتي السابقة المفترضة، المرأة التي لم أعرفها قبل تلك الليلة على وجه الدقة أو المرأة التي لم أعرفها قبل تلك الرحلة التي قمنا بها، المرأة التي بدأت أعتقد بأنني أعرفها منذ تلك الليلة (لا يهم النحس أو الشؤم أو الحزن الذي جلبته تلك الليلة معها)، المرأة التي بدأت أحبها، أو التي ما زلت أحبها، منذ تغير قلبي تلك الليلة، المرأة التي يستريح جسدها قربي مثل قافلة متعبة برجالها ونسائها وحيواناتها، المرأة التي ترخي رأسها على كتفي، والتي تنزل من عينها دمعة ساخنة تحرق كتفي، المرأة التي تدفن وجهها تدريجياً عند ذراعي، وتبدأ في تجفيف مخاطها، دون أن تترك يدها السيجارة التي وصلت نهايتها، المرأة التي عليَّ أن أحضنها، إذ من غير المجدي لي، التفكير بهول المفاجأة التي ألقتني بها هذه المرة، إنما من الأفضل لي تسليم نفسي لها كلياً، ليس لأنني أحبها، أو لأنني ما زلت أحبها، أو لأن قلبي تغير، أو لأن قلبها يدق دقات عنيفة أسمعها، إنما لأن رحلتي معها منذ خروجنا وحتى جلوسنا أمام قبر أصرت على ردمه بنفسها، إنها رحلة لا يمكنها أن تكون إلا بهذا الشكل، مثلما لا يمكنها إلا أن تنتهي إلى هذا المكان، إلى «تل اللحم»، أو إلى مقبرة «تل اللحم»، ليس لأن هناك أكثر من سبب لذلك، أو هناك أكثر من قضية تجمعنا وتقودنا إلى هذا المكان، إنما لأننا ببساطة مثلما يقولون في طول البلاد وعرضها بمثل هذه المناسبات: «أكلنا القندرة نفسها» (ها أنا أترجم أحد الأمثال الألمانية حرفياً)، هي المرأة المنهكة بالإرث الذي ردمته في القبر المغلق أمامنا، وأنا بكل التاريخ الذي أريد الانتهاء منه، وبهذه الصورة فقط يمكن لشخص ما، شخص آخر، لو سمع قصتنا ذات يوم أن يفهم، لماذا انتهينا أنا وهي إلى هذا المكان، لماذا قادتني هي إلى هذه الرحلة، ولماذا وافقت أنا بسرعة على مصاحبتها، ولماذا أفرغت هي هذا العدد من الطلقات، ولماذا أصَرَّت على حفر القبر لوحدها، وإلى جانب قبر الجنرال الفرنسي «بلزاك»، لأن قبره أكثر القبور شهرة واستدلالاً في مقبرة (تل اللحم)، حيث وضعت قوات التحالف فوقه شاهدة كبيرة يمكن رؤيتها من البعيد، مزودة بضوء فوسفوري يدل عليه ليلاً (إلى جانب قبر امرأة أحبتها، قرأت اسمها على الشاهدة بحروف كبيرة «مَلَكْ»)، ولماذا حملت تلك الجثة طوال هذه المدة، ولماذا احتفظت بالسر لها وحدها،

ولماذا أحبها أنا الآن، لماذا ما زلنا نحب بعضنا، أو لماذا ما زلت أحبها أنا، أو لماذا ـ ربما ـ لم يكن هناك سر احْتَفَظَت به وحَجَبْتُه عني حتى تلك اللحظة، إنما كان مجرد ماض، ذلك الذي احتفظت به، وانتظرت اللحظة المناسبة، لحظة أن نرحل سوية باتجاه انكشاف أحدنا للآخر، بإعطاء ظهرنا للزمن الماضي، بانتظار لحظة دفن ذلك الثقل، ثم الرحيل إلى الأمام، التطلع باتجاه واحد، باتجاه تشكيل القصة، وهذه المرة لا تكون مجرد أية قصة، إنما قصة انتشارنا وانكشافنا، ربما ذلك هو الشرط الوحيد لكي يفهمنا، أو يفهمني، أو يفهمها من يسمع قصتنا، لكي يقول إنها لم تقتل أحداً، إنما أفرغت المسدس من إطلاقاته فقط، وأنا لم أشاركها، إنما أنا البديل عنها، وسأفعل ما فعلته، لو لم تكن هي التي فعلته، أو لست البديل، إنما نحن مكملان لبعضنا، ونسياني لأمر المسدس، كان أمراً لا بد من حدوثه، وأن ما حدث لم يكن مجرد صدفة، فلو أحصَيْنا عدد الأشخاص المحيطين بنا، والذين يشكلون جزءاً مهماً من حياتنا، حيث تبدأ وتتغير وتتقاطع حياتنا معهم، لا يتعدى عددهم أصابع اليد، ويمكنني إحصاء عشرات القصص التي تتحدث عن تلك التقاطعات (يحلو للكثيرين تسميتها بالصدفة، مثلما يحلو للآخرين تسميتها بالقدر)، التي تشكل شخصية هذا الشخص أو ذاك، هكذا، تلك هي قصتنا، فهي قصة التقاطعات التي شكلت مصيرنا، وكان لا بد لنا أن نقوم بتلك الرحلة، وننتشر وننكشف الواحد للآخر، وننتهي في تلك المقبرة، مقبرة «تل اللحم»، دون ماض، دون إرث من شخص آخر، دون شكوك (فقط الماضي يجلب الشك معه)، إنما هي القصة، أو تتمة القصة، أو استمرار القصة، ما تبقى أمامنا: أنا وهي في ليل المقبرة الموحش، هي ترخي رأسها فوق كتفي، وقد انتهت من سيجارتها، وأنا أتطلع دون حراك، أسمع دقات قلبها العنيفة، لكي تكمل لي القصة، بعد أن رفعت المسدس هذه المرة من حضني ووضعته في الحقيبة، وقالت لي:

ـ خذ الحقيبة، إنها حقيبة وجيهة أيضاً.

لم أنظر هذه المرة إلى الحقيبة، لكي أرى حرف الواو الفضي المحفور عليها، إنما قلت لها:

ـ إرمها بعيداً.

لم ترمِ الحقيبة. وضعتها إلى جانب. أخرجت سيجارة ثانية، أرادت أن تدخن. ضحت وسحَقت السيجارة في راحتها، رمتها، ابتسمت، وقالت:

ـ الآن نحن بالفعل دون إرث قديم. سأحكي لك القصة.

ملحق
قصة مرايا سيد مسلط

لا تهمني غرابة القصة التي أرويها مطلقاً، لأني أعتقد أن الغرابة هي جزء من كل قصة خاصة. يومياً تحدث ملايين القصص في كل مكان على سطح الكرة الأرضية، ويومياً نسمع ملايين القصص. هل يمكن للمرء أن يتخيل ما يحدث يومياً في كل زاوية من زوايا أرض الله أو أرض الشيطان الواسعة، وغالباً يحدث ألاّ يصدق أحدهم قصة حدثت لشخص آخر، ربما يقول له، «بالله عليك أن ما حدث لك، حدث لآلاف الأشخاص غيرك»، أو ذلك هو الأرجح: «قصتك في الحقيقة ليست بقوة القصص التي جرت لآخرين غيرك». وليس من الغريب ألاّ يسمع المرء هذا الجواب على طول البلاد وعرضها، ففي النهاية جرت بالفعل آلاف القصص للناس، ولكن تبقى كل قصة خاصة بالشخص الذي يرويها، ومهما تشابهت فهي تظل قصة متفردة، مهما روى الناس القصص ذاتها، ومهما بدت تلك القصص متشابهة، إلا أن تلك «القصة» التي يرويها، أحدهم في لحظة ما تبقى قصته، أمر شبيه بالترجمة كما تعلمت ـ كما أعتقد ـ، فإن المترجم الجيد هو الذي يعتمد في ترجمته على المعايير الأساسية التالية: أولاً شخصية المتحدث، ثانياً شخصية المستمع، وثالثاً زمن الجملة التي يراد ترجمتها، إنه المبدأ ذاته الذي يحدث مع القصة، فعلى الراوي والمستمع أن يأخذا المعايير ذاتها أثناء رواية القصة أو أثناء الإستماع إليها وفي هذه الحالة فقط، تصبح كل قصة غريبة وكل قصة متفردة. لأن أخذ القصة على عواهنها وحسب، أو مجرد الإستماع للقصة والإكتفاء بسطحها، لن يقودنا إلى الطريق الصحيح، الطريق الذي يؤدي إلى دهاليز القصة، ويكشف لنا المخفي منها، فمن النادر أن يحكي المرء القصة كاملة، أو القصة كما حدثت بالفعل، لأن لكل قصة مستويان: المستوى الذي حدثت به بالفعل، ومستوى طريقة روايتها. وكل شيء يسمح لنفسه بالقص، على المرء فقط أن يبدأ، كلمة وراء كلمة، جملة وراء جملة، ثم تبدأ القصة.

هذا ما حدث لي بالفعل مع المرأة التي كنت أعتقد بأنني أعرفها، فهي وعلى طول

رحلتنا لم تتوقف عن مفاجأتي، حتى أنني فقدت اليقين، بحقيقة تلك المرأة ومن تكون؟ هل هي تلك المرأة التي تروي لي القصة (أو التي افترضت أنها روت لي القصص) أم هي المرأة التي قادتني إلى هذه الرحلة، جارتي، المرأة التي بدأت أحبها، وما زلت أحبها، المرأة التي تجلس بجانبي وظهرها يستند مثلي إلى جسم السيارة وسط مقبرة الغرباء، مقبرة «تل اللحم»، يحيطها ثلاثة قبور: قبر الجنرال بلزاك، قبر معالي سيد مسلط، قبر مَلَك، المرأة التي تطلب مني هذه المرة وبجدية (كل ملامح وجهها تريد أن تفرض عليَّ هذه الجدية) أن أصغي للقصة «الحقيقية» كما تقول، وكأن كل تلك القصص التي سمعتها لم تكن حقيقية، أو هي من صنع خيالها، والتي يقيناً إذا ما استمع لها أحد ما لاحقاً، سيعتقد بأنني أنا الآخر اخترعتها، هكذا مثلما تخلط هي الحقيقة مع الوهم، أخلط أنا الحقيقة مع الوهم، ولكن أليست كل قصة تحوي على الأمرين، على الحقيقة والوهم، أو على الله والشيطان؟ ولكن أليس هو وجودنا بالتالي نتيجة لهذا المزيج، مزيج الحقيقة والوهم، مزيج من الله والشيطان، رغم أن من غير المفهوم إذا كان الله الحقيقة أو الوهم، أم الشيطان الحقيقة أو الوهم؟ ولكن تلك الأسئلة يثيرها من يستمع للقصة، وليس من يرويها، وسط عتمة الليل تلك، في مقبرة «تل اللحم»، كانت تلك الأسئلة تطن في رأسي، أما المرأة التي تجلس إلى جانبي، لأسميها منذ الآن «رفيقة الرحلة» (لا يهم أية رحلة!)، هي التي تروي، بعد أن جاءت على السيجارة العاشرة أو ربما أكثر:

ـ هل تساءلت يوماً عن التنافس بين الأخوان والأخوات في العالم وفي هذه البلاد بصورة خاصة. أنتم معشر الرجال لا تتحدثون عن هذه القضية، لأنكم وبحكم تربيتكم الذكورية، تلجأون دائماً إلى سلوك واستراتيجية النعامة: تدفنون رؤوسكم في الرمال. منذ قرون ويمكن قراءة ذلك في كل كتب التاريخ، كم هو كبير عدد الرجال الذين تزوجوا زوجات أخوانهم بعد موتهم، يريدون إقناعنا بأنهم يفعلون ذلك للمحافظة على العرض أو الشرف، لكنهم لا يعترفون بالحقيقة أو بالسبب الحقيقي الذي قادهم للزواج، إنهم لا يعترفون باشتهائهم لزوجات أخوانهم. وهم يبعدون في كل أحاديثهم الشبهات عن احتمال تورطهم في قتل أخوانهم، فمن يضمن بالتالي ميتة طبيعية للأخ، رغم أن ما يشفع للرجال في حالة بلادنا، أنهم ولحسن حظهم يعيشون في بلاد تصول وتجول في حروبها شمالاً وجنوباً منذ تأسيسها على أيدي السلطات الانكليزية، وكأن دستورها الدائم الوحيد هو الحرب. وكم سمعنا عن تلك القصص التي يحدث أن يرجع فيها أحد الأخوان من الجنود بعد طول أسر أو غياب طويل عند خطوط الجبهة، يقاتل ثم يعود ليجد زوجته في حضن أخيه. إنها بالفعل مشكلة كبيرة، ولكن في هذه البلاد الفاسدة، والمنخورة لا يوجد علماء اجتماع باستثناء واحد أو اثنين، وفي الوقت نفسه، ليس فيها للدراسات الاجتماعية قيمة ما، ناهيك عن الدراسات السيكولوجية أو الجنسية، لأن من

يجرؤ على الحديث عن ذلك يعتبرونه مجنوناً لا غير. هكذا يمكن تخيل آلاف الرجال سجناء حالاتهم الخاصة بهم، متروكين وحيدين مع وسواسهم وقلقهم وشعورهم ربما بالدناءة والخيانة، بسبب اشتهائهم لزوجات أخوانهم، وأحلامهم التي لا تخفي رغبتهم بقتل الأخ أحياناً للاستحواذ على زوجته. ألم يحدث ذلك لأول أخوين على وجه الخليقة؟ وأين حدث ذلك، إن لم يكن في هذه البلاد بالذات، إذا صدقنا وجود شجرة آدم وحواء في القرنة؟ أليست تلك هي العبرة التي ترويها لنا قصة قابيل وهابيل، وليس قابيله وهابيله؟ كل أخ مرشح أن يكون قابيل وكل أخ مرشح أن يلعب دور هابيل أيضاً، والقضية ليست لها علاقة باختياره أن يكون قابيلاً أو هابيلاً، إنما لها علاقة بوضعه، فيما إذا كان أعزباً أم متزوجاً، فيما إذا كان بعيداً أو قريباً من البيت، أو فيما إذا كان الأخ الأكبر أم الأخ الأصغر، ولا يهم الفارق الزمني في العمر، حتى لو كان لساعة وخمس وعشرين دقيقة (كما في حالتها وأختها التوأم؟). ومن الطبيعي ألاّ يتساءل الرجال عن سبب عدم زواج الأخت من زوج اختها إلا فيما ندر، لأنهم يستبعدون ذلك، ولأن ذلك الحدث هو حدث نادر على مستوى الأخوات، ليس لأن الأخوات أكثر نقاءً مع بعضهن أو ليس لأنهن أخلص لبعضهن، معاذ الله، إنما لسبب بسيط جداً، إنهن يتحدثن عن ذلك، ولا يخفينه عن بعضهن. هكذا يتعلمن التنافس منذ البداية. وهذا ما تعلمناه أنا وأختي التوأم، التي لم تسأل عنها كثيراً للأسف، طبعاً لأنك مشغول بالقصة الكبيرة، بقصة الأخت التي تكبرها بساعة وخمس وعشرين دقيقة. ولكنك لم تعرف أن الأخت الصغرى مثلها مثل كل أخت صغرى في العالم، تحلم دائماً أن تأخذ مكان أختها الكبرى (رغم ما يشاع عن التوأم، بأنهما يرغبان بالتشابه بكل شيء أو امتلاك كل شيء بالتساوي)، ولا يمكنها تخيل تحقيق ذلك يوماً، دون انزياح الأخت الكبرى، نوع من توزيع الغنائم العائلية والحياتية بصورة أكثر عدالة! كم ليلة لم تنم، تؤرقها أمنية أن تكون هي أكبر من أختها بساعة وخمس وعشرين دقيقة، تلك كانت واحدة من الأمنيات أو واحدة من الأشياء التي تعرف بأنها مذ كانت طفلة مستحيلة الحدوث، رغم أن ليس هناك ما يمنعها من تمني ذلك. وما الذي يمنعها من أن تحلم بذلك، إذا كان الجميع يقول لها بأن الأخت الأخرى هي أكبر منها، وأنها هي الصغرى، والتي كان عليها أن تقبل أن يَقصُّوا لها شعرها أكثر قصراً لكي يميزوها للآخرين عن أختها الكبرى، مثلما كان عليها أن تقبل بأن تأخذ الأخت الأكبر ألعابها منها دون أن تعترض، وحتى عندما كانت تضربها كان عليها أن تسكت، وكان عليها دائماً أن تخسر، لأنها هي الأصغر، ليس في أيام الطفولة فقط، إنما في أيام المراهقة، تلك السن الحارقة بسياطها، والتي كان على الأخت أن تعيشها بصورة مرعبة وحزينة بسبب الأخت الكبرى، التي كانت تمنعها أن تعجب بأي شاب، قبل أن يعجبها هي،

لأنها هي التي أمرتها بذلك، وقالت لها، عندما توافق هي على الشاب فقط تستطيع الأخت الصغرى أن تصادقه. ولذلك طلبت منها أن تخبرها أولاً من هو الشاب. هكذا كانت الأخت الكبرى تخرج معه، إلى السينما لمشاهدة فيلم مصري أو فيلم هندي، وتأمرها بالبقاء في البيت بانتظار قرارها. هكذا لأنها الكبرى، مارست حقها في كل ما يباح لها، واستغلت ذلك الحق بصورة جيدة. لقد جربت الأخت الكبرى كل الشباب الذين أعجبوا الأخت الصغرى، التي كانت تقضي الساعات وحيدة في البيت، في انتظار قرار الأخت الكبرى. ولن ينفع الأخت الصغرى تبديل استراتيجيتها، كأن تعجب مثلاً بأكثر الشباب قبحاً، بأسوأهم، إذ يمكن استحضار العديد من المرات التي كان بإمكان الأخت الكبرى أن تخمن الشاب الذي أعجب الأخت الصغرى، وعندما تعترض الأخت الصغرى وتشكو مما تفعله معها الأخت الكبرى، تقول لها هذه، بأنها مقلدة، ولا تختار إلا الشاب الذي يعجبها، الأمر نفسه حتى في الجامعة، في كلية التربية الرياضية، حيث درستا سوية، حتى بَطّلت الأخت الصغرى من الذهاب إلى الحفلة ذاتها التي يذهبن إليها، وحتى في زيارتهن لفندق الخليج في البصرة عند استقبال الأخت التي كانت تكبرهن بسنوات كثيرة، تقترب من العشرة (ربما لذلك السبب لم تدخل في تنافس مع أي منهما)، لم تشأ الأخت التوأم الصغرى مغادرة غرفة النوم، فحتى ذلك الشاب، الضابط صاحب سيارة السوبر الذي حملت منه الأخت الكبرى للمرة الأولى أعجب الأخت الصغرى، في أول لحظة دخولهن الفندق. كان من الغباء طبعاً أن تعلن عن إعجابها مباشرة بالشاب الذي تراه، لكنها كانت تفعل ذلك برد فعل يمكن تسميته برد فعل طبيعي، أكثر من أي شيء آخر، لم تعرف التخطيط لردود أفعالها بصورة جيدة. ولسوء حظ الأخت الصغرى فإن الطبيعة هي الأخرى كانت تلعب ضدها، فهي لم تملك ثديين كبيرين مثل أختها الكبرى التوأم، والأثداء الكبيرة تعجب الرجال، ومنحت الأخت الكبرى الكثير من إمكانيات النجاح في صيدها للرجال، لكن الأخت الصغرى لم تمتنع يوماً عن التفكير بأن رغم كل شيء، فإن ليس هناك ما يمنع أن تصبح هي ذات يوم أكبر منها، مثلاً عندما تموت الأخرى، وتبقى هي على قيد الحياة، إنه أمر مرعب، رغم أن مجرد تصورها لموت أختها الكبرى يرعبها، وهي لم تصل في أمنيتها إلى هذا الحد، على العكس وكأنها متأكدة من حدوث ذلك في وقت قريب، قررت التنازل عن كل شيء للأخت التوأم الكبرى، تركت الجامعة في السنة الثالثة، واعتزلت، لبست الحجاب، وأصرت أن تبقى باكراً حتى الزواج، لكنها كانت مجبرة على معرفة كل صغيرة وكبيرة حدثت للأخت التوأم الكبرى، لأن ـ هذه ـ الأخت الكبرى، كانت تحكي لها كل شيء، ولأن الصغرى كانت تسرق دائماً دفتر اليوميات الذي يشبه بحجمه الدفاتر المدرسية، والذي كانت تحتفظ به الأخت الكبرى باستمرار في حقيبتها، حيث واظبت

على تسجيل كل ما يحدث لها فيه. بهذه الصورة عرفت الأخت الصغرى أن الأخت الكبرى، تأثرت كثيراً بصديقة لها تصغرها سناً بثلاث سنوات، إسمها ماجدة عبد الحميد، كانت تدرس معها في ثانوية كميت المختلطة، في «مكان اسمه كميت»، حتى أنها ذات مرة، وبعد فراقها لماجدة (لأسباب لم تذكرها) كتبت في يوم ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ (يوم اندلاع الحرب الأولى) بخط عريض وعلى حجم صفحة كاملة: **للأسف لم نتعرف على بعض بصورة جيدة، لكني لن أنساك يا ماجدة، ولن أنسى الإساءة التي ألحقوها بك: سأنتقم لك منهم**. لم تلتق الأخت الصغرى بماجدة عبد الحميد ذات يوم، لكن كل ما سمعته أو عرفته عنها، أنها كانت بنتاً جريئة؛ والأخت الكبرى أرادت أن تكمل طريقها، عكس الأخت الصغرى، التي أرادت السير على طريق الأخت الكبرى، ولكن على طريقتها، وليس على طريقة الإثنتين: ماجدة والأخت الكبرى. هكذا بدأت قصة الأختين، وتداخلت، وهكذا بدأ الأمر.

قالت ذلك بعينين التمعت فيهما دمعتان توقفتا عند حدود الجفنين، بعينين ضائعتين بعض الشيء وكأنهما تعلنان الحيرة والقنوط اللذين يقع فيهما المرء في هوة التذكر. لم أستطع تجنب النظر إليها، وبالذات إلى صدرها، وكأنني أريد التأكد من خلاله: أي الأختين تجلس إلى جانبي، ولكني أقول لنفسي، سيان ما أخمنه، فإن كبر الأثداء يبقى أمر نسبي، وأنا لا يمكنني أن أعقد مقارنة بين أثداء على الخيال، ففي النهاية، هناك ثديان لامرأة، جارتي، رأيتهما مرتين أو ثلاث من بعيد، وثديين آخرين مسكتهما ورضعتهما وعضّيتهما في هذه الليلة رغم أننا في النهاية لا نحمل في رأسنا إلا صورة ضبابية عن الأثداء أو أي جزء آخر من الجسم الذي استلقينا معه، وحتى لو عشنا مع المرأة عشرات السنين، يبقى ثدياها أو أي جزء آخر من جسمها، شيء جديد، في كل ليلة نعريه، أو نلمسه، نقبله أو ندخل فيه (فرجاً أو كان مؤخرة ـ عند البعض ـ)، وحتى أولئك الذين يلجأون إلى تصوير الأعضاء، فليس بإمكانهم امتلاك صورة عينية للعضو، فكل عضو من الجسم موجود فقط في لحظة حضوره بين أيدينا: في لحظة امتلاكه، والباقي مجرد خيالات. ولن يساعدني أن أسألها من تكون هي، فسيان ما ستقوله لي، لن يقنعني تماماً، وسيبقى في المنطقة الواقعة بين الوهم والحقيقة، وله علاقة بقراري أنا، مثلما لن ينفعني التخيل في تلك اللحظة بمعرفة أي واحدة من الامرأتين تجلس إلى جانبي، من الممكن، أن تكون واحدة منهن لبست سوتياناً يشد على ثدييْها أكثر ويجعلهما يبدوان أكبر، أو ربما هما ثدياها اللذان يبرزان دائماً من فتحة الثوب. ولكن لماذا نظرت إلى فتحة صدرها في تلك اللحظة؟ هل أنا مثل باقي الرجال الذين يستغلون كل فرصة للتطلع إلى فتحة صدر التي تجلس قربهم، دون أن يهمهم وضع المرأة، سواء كانت حزينة أو بوضع سيء، بل لا يمنع بعضهم من التطلع إلى جسد الأنثى حتى وإن كان جثة

هامدة؟ هكذا ولم أكتفِ بالتطلع بفتحة صدرها مرة واحدة، إنما أكثر من مرة، لأتخيل حجمه، كانت لحظة عابرة أو لحظتين، بعينين غائبتين أيضاً، لكن منافقتان أيضاً، وشكراً لها هي، وعلى استمرارها في رواية القصة، التي جعلتني أحجب عيني، قصتها شدت أذني.

- كان لا بد للأخت الصغرى أن تفكر بأنها ستصبح ذات يوم هي الكبرى، لكنها من جهة أخرى، كانت تتمنى المستحيل، لأننا نكون كباراً أو صغاراً في السن فقط من خلال علاقتنا بالآخر، وما الذي ينفعنا أن نكون كباراً إذا فقدنا الآخر، لذلك لم تتمنى هي موت أختها (فكرت، بأن الأخت الصغرى على عكس تفكير الكثير من الرجال لم تشأ الزواج من زوج أختها في حالة موتها)، إنما تمنت أن تأتي الفرصة السانحة لمساعدتها، أن تكون هي ذات يوم بوضع يسمح لها بإنقاذ الأخت الكبرى، من مصيبة ما، بالضبط مثلما يحدث في الكثير من القصص التي نقرأها أو في الأفلام التي نشاهدها، عندما تحين اللحظة الحاسمة، التي يعترف فيها بعض من الكبار كم أخطأوا بسلوكهم مع الذين يصغرونهم. هكذا قبلت الأخت الصغرى كل شيء، كل سياط وجلدات المراهقة التي ألحقتها بها الأخت الكبرى، بل رضيت أن تتزوج من شاب، تعرفت عليه الأخت الكبرى بالصدفة ومع تعرفها لأخته، الشابة الصغيرة التي لم تكمل السابعة عشر من عمرها، والتي التقت بهما بالصدفة في عيادة الدكتورة مثال الآلوسي، إبنة كوكة، في بغداد، في الأعظمية، عندما ذهبت لتجهض هناك. ربما لفت نظرها وجود الشاب في البداية، كان هو الذكر الوحيد في العيادة، والذي ظنته صبياً صغيراً في البداية بسبب طوله، قبل أن تسمع من أخته التي جلست إلى جانبها، قصته، وهي تقدمه لها «مراياي، أخي ربيع، قرة عيني»، وقبل أن تخبرها بقصة حملها من خطيبها، الذي تركها فور فض بكارتها، وجعلها تحمل. لم تُخفِ الأخت الكبرى عطفها عليه، حتى أنها سألت البنت عما تفعله بعد ذلك، فقالت لها، أنها لا تعرف أين تذهب، فهما الوحيدان لعائلة من أبوين أعميين، ماتا قبل فترة قريبة، بعد أن سقطت فوق كوخهما قنبلتين أماتتهما فوراً، وهي ستدفع كل ما ادخرته، وكل ما وفره أخوها من عزفه إضطراراً في الشهرين الأخيرين في الفنادق، مجبراً نفسه على العزف هناك مع مطربين لم يحترمهم يوماً في حياته، بالإضافة لمقته لأجواء تلك الحفلات، فاقترحت عليهما الأخت الكبرى أن يصطحباها إلى القرنة، وفعلا ذلك، وجاءا معها. وربما تمنت معالي بسبب ذلك العطف أن تحبه، فهي رغم كل شيء، ورغم ما جرى لها من مصائب (أية مصائب جرت لها في ذلك الوقت؟ هل إن المناكدات بين الأخوات تعتبر مصائب؟) لم تفقد طيبتها أبداً، ولكن لأنها لم تستطع أن تحبه، أو ربما لأنها كانت تخاف من تدميرها له عاطفياً، إذ كانت تدرك بأنها ليست في الوضع الذي يسمح لها بالاستقرار مع رجل،

ربما لكل تلك الأسباب أو ربما لغيرها، طلبت من الأخت الصغرى أن تتزوج من ربيع. هكذا كان اسمه، وكان الشاب من أفضل عازفي الچلو في البلاد، وكان يحمل الآلة الكبيرة فوق كتفه، ويتنقل بها من كونسيرت إلى آخر مؤجراً التاكسيات رغم دخله البسيط، كان قصير القامة، لم يَنْمُ بسبب مرض مزمن في الكليتين يطلق عليه طبياً «تناذر الكليتين»، أوقف تناول العقاقير المضادة له، توقف نموه تماماً، حتى أن طوله لم يتجاوز المتر وثلاثين سنتمتراً، وكانت الآلة أكبر منه حجماً، ويبدو أنه اختار العزف على تلك الآلة عمداً، فلقد سألته في تلك الخمس دقائق الوحيدة الأخيرة التي عاشتها معه، لماذا لم يَختَرْ العزف على آلة الڤيولا مثلاً، فأجابها، لأن حزن الڤيولا لا يغطي الحزن الذي يشعر به، ولأن الڤيولا صغيرة ومن السهل عليه امتلاكها، أما آلة الچلو فيها من الحزن الكثير بالإضافة إلى كونها آلة كبيرة، وهي مثل المرأة صعب السيطرة عليها أو صعب الحصول عليها بالنسبة له. قال لها ذلك، في يوم زواجهما الوحيد. كان اقتراح الأخت الكبرى، وكان ربيع سعيداً بالزواج، وهو لم يُخفِ مرحه رغم الحزن الذي كان يلفه، قال لها، إنه بالزواج منها أصبح رجلاً سعيد الحظ، ويخاف من سعادته، فهو في النهاية سيموت. حدث ذلك في اليوم الأخير قبل أن يموت. كان يوم الزواج قد أعلن مباشرة، دون خطوبة، لأن الأخت الصغرى كانت تستعجل الزواج، ربما لخوفها من أن تُغيِّر الأخت الكبرى رأيها، وتتزوج ربيع، فهي تعرف جنونها، ولأن ربيع هو الذي تمنى ذلك، وقال بمزاح مر، إنه يريد أن يلحق بالزواج قبل أن يلحقه الموت، وأنه قرأ ذلك في كتب الصوفية التي لم يُخفِ تعلقه بها، مثلما لم يُخفِ تردده على أحد شيوخ الطريقة الذي افتتح مدرسة شبه سرية في بغداد، ليتردد عليه الكثير من الشباب، قبل إلقاء القبض عليه، رغم أنه ظل لفترة طويلة مقرباً من الدولة، بل هم الذين استدعوه لتنظيم الحفل الصوفي الضخم الذي نظم قريباً من المحمودية (في تلك اللحظة تمنيت من القلب ألا تروي لي ما رواه سقراط النقشبندي عن ذلك الاستعراض الكبير، مثلما تمنيت من كل قلبي، ألا يكون ربيع، عازف الچلو، الشاب الأكثر حزناً في البلاد، قد عرف النقشبندي هذا أيضاً - لا يهم إن كان سقراط أم محمد منعم، فليذهب إلى الجحيم في الحالتين! -، رغم أني فكرت في الوقت نفسه، ما ضير ذلك، في النهاية - كما قالت هي - أن مصير حياتنا يتقاطع مع مصير أشخاص لا يزيدون على عدد أصابع اليد، ولا يعني أو يفترض ذلك أبداً معرفتهم للبعض، إنما ولمفارقة الأمر يحدث ذلك في وقت متأخر دائماً، ودائماً يشعر بعضهم بالحزن لكونهم لم ينتبهوا لذلك في الوقت المناسب، ولن ينفعهم أن يعضّوا على أصابعهم، فهم يعرفون أن ما فات فات وأن ما هو آتٍ آت، يحمل معه النذير والحزن والندم، وليس هناك أسوأ من الندم، فالحزن والنذير هما مثل الدوام اليومي بالنسبة للكثير وخاصة في البلاد التي نحن فيها، الندم فقط، هو المرعب، وربما ذلك

هو الذي يخيفني من نهاية القصة التي ترويها، أو ذلك هو الذي يرعبني من تصور أن حياة ربيع تقاطعت مع حياة سقراط محمد منعم النقشبندي، مع حياة إفْطَيِّم يِّيْ دَي، مع حياة شاهين نزّال، مع حياة أرسطو محمد طالب حمودي الصهيوني، مع حياة أسيَدْ لوتي، مع وجيهة، مع عسلة اليهودية، مع يهودا أفرام سلومي، أو حياوي بنزين، مع محمود وعلي، بل ومع البنت نجمة أيضاً، ولماذا لا أليست حياتي أنا الآن في تقاطع مع هؤلاء؟). وفي ذلك الحفل الذي عزف فيه ربيع أيضاً تعرف على رجل طلب منه أن يكون شاهد زواجه، رجل اسمه محمد منعم النقشبندي، قبل أن يطلقوا عليه إسم سقراط. لم يعرف ربيع حجم الخطأ الذي ارتكبه بفعلته تلك، لأنه لم يعرف بماضي هذا الرجل، فالرجل حصل على ثقته، وخاصة عندما أعلن استعداده منذ تلك اللحظة على نقل الچلو بسيارة بيك آب استعارها من صديق له، كان قد دخل معه بتجارة بيع أقراص منع الحمل، اسمه محمد طالب حمودي، والذي كان يمارس تجارة أخرى، تجارة كانت سرية ونادرة في البلاد قبل أن تشيع مع السنين، وقبل أن تنكشف أصابع الدولة فيها وإصرارها على الإعدامات التي يظن البعض أنها تحدث لأسباب سياسية فقط، لكنهم لم يفكروا بأبعادها التجارية، ليس المعارضين هم الذين يُعدمون فقط، إنما تتم الإعدامات في أغلب الأحوال لناس ليست لهم علاقة بالسياسة، ناس بكامل قواهم الصحية، والذين تُسَلمَ جثثهم بتوابيت مقفلة يمنع على ذويهم فتحها، لأن الكثير من أعضائهم اختفى. ولأن المدعو طالب حمودي الصهيوني له علاقة مع المؤسسة، تعهد لمحمد منعم النقشبندي بتزويد ربيع بالكِلْية التي يحتاجها، وأنه سيتوسط عند الجهات المسؤولة لكي تُجرىٰ له العملية في مستشفى «ابن البيطار»، الذي هو في الحقيقة مستشفى لا يعالج فيه إلا المشهورين من رجال الدولة وأغنياء البلاد. وعندما أخبره محمد منعم النقشبندي بالقصة، فرح على أساس أن الكِلْية التي تُسلَم له، ستُسلَم كهدية رغم أن سعرها زاد في ذلك الوقت على السبعة آلاف دولاراً، وأن تلك الكِلْية ستكون كِلْية سليمة لرجل مات ميتة طبيعية. لا يهم مَنْ كذب، محمد منعم النقشبندي أم محمد طالب حمودي، المهم أن ربيع لم يعرف بأن محمد طالب حمودي وجماعته هم على علاقة بالكثير من الأطباء، وكان من النادر الحصول على أية كِلْية بتلك البساطة. هكذا اقترح محمد منعم النقشبندي على ربيع أن يجري عملية زرع الكلية بأسرع وقت. ولسوء حظه لم يعرف ربيع أنه يسير إلى موته بذلك القرار. طبعاً لم يأملوا الحصول منه على كِلْية أو على عضو آخر من أعضائه الداخلية، لأن أعضاءه جميعها كانت مريضة. هكذا أسرعوا في عملية غسل الدم الضرورية له يومياً، لكي يدخلوه إلى غرفة العمليات بأسرع وقت ممكن، لكنه لم يعرف أن فريقاً تلفزيونياً جاء خصيصاً من مؤسسة السينما والمسرح بقيادة رئيس المؤسسة «جوزيف صايغ» (الذي شاع اسمه بـ «أبي قروة»)، وهو أحد شعراء البلاد المهمين،

يصحبه شاعران آخران، هما عبد الرزاق الشيخ مخفر وعبد الواحد عبد الحادي (الآن أعرف أنهما شاعران مختلفان، وأنني كنت أمزج إسمهما ببعض، لأنني في الحقيقة لم أجد فوارق كثيرة في قصائدهما بما يتعلق بعلاقة شعرهما بالحرب، سوى أن الأول كان يكتب بما يطلقون عليه «القصيدة المدورة» آنذاك، والثاني كان يكتب تحت شكل أطلقوا عليه «رجز المعركة»)، واللذان واظبا على إلقاء قصائد حماسية تدعو الناس للتبرع بكِلْية لهذا الشاب الجميل، الرائع، والموسيقي العظيم، ولم تبخل مؤسسة السينما والمسرح بعرض بعض المشاهد لربيع وهو يعزف على الچلو (في المرة الأولى بصحبة عازف البلاد الأول بعزف العود: مثير صفير)، أو وهو نائم في المستشفى وينام الچلو إلى جانبه، وأيضاً لم يترددوا في نقل عمليات غسل الدم له، مباشرة للتلفزيون، بصورة حية، كل تلك الصور أثارت المشاعر عند بعض الناس، الذين لم يترددوا في القدوم إلى مستشفى البيطار للتبرع بكِلْية. هكذا في اليوم المحدد لإجراء عمليته لم يعد ربيع بحاجة لكِلْية، فقد تبرع له فقط في ذلك اليوم، خمسة وثلاثين شخصاً، كل واحد منهم بكِلْية له. لكن رغم ذلك، أخفى الطبيب عليها الأمر، وأخضعها هي للتبرع بإحدى كِلْيتيْها، طبعاً لم تبخل الأخت مَلَك، بذلك. لكن ربما لضعف منها، وربما لمعاناتها من فقر دم مزمن، ما كان لها أن تقبل باستئصال إحدى كِلْيتيْها، ولكن من أين لها أن تدري بذلك، هكذا تعرضت لنزيف حاد لم يوقفه الأطباء إلا بأعجوبة، لكنها ظلت تعاني من تبعية تلك العملية حتى وقت لاحق. طبعاً لم يعرف أحد بحقيقة ما جرى في مستشفى «ابن البيطار»، حتى ليلة العرس في ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠. في ذلك اليوم جاءت الأخت الصغرى خصيصاً إلى القرنة (في تلك اللحظة توقفت عن الحديث لبرهة قصيرة، وبدأ يمتزج في نبرة صوتها الكثير من الحزن، حتى أنها لم تستطع منع دمعتين توقفتا عند محجريهما، وكأنهما تيبستا هناك، حتى أنها لم تمسحهما، إنما استمرت بالحديث وكأنها لم تكن هي التي تبكي، إنما امرأة أخرى)، كان ممكناً أن يكون عرسٌ مثل باقي الأعراس، فقد قررت الأخت الكبرى أن يتم الإحتفال في مزرعة زوجها، أسيَدْ لوتي، في الهارثة، عند منطقة «الدير»، وتبرعت لهم إفْطَيِّم بِّيْ دَي بسيارتين، واحدة صغيرة للعريسين، وثانية كبيرة للضيوف. لم يأتِ محمد منعم النقشبندي صديق ربيع في ذلك اليوم، إنما بعث شخصاً ينوب عنه، وبالذات محمد طالب حمودي، الذي كان وراء إجراء العملية. هكذا ذهبت السيارتان في ذلك المساء إلى الهارثة وسط صخب وزغاريد الجميع. لكن تلك الفرحة لم تستغرق وقتاً طويلاً، حتى تعرض لطريقهما رتل الدبابات العسكرية الذي لم يتوقف ذلك اليوم، وربيع هو الذي اقترح عليهم التوقف في الطريق، والاحتفال بالزواج في الهواء الطلق. هكذا نزلوا جميعاً من السيارات، وافترشوا الأرض، وجلس العريسان إلى جنب بعضهما، وبدأ الشيخ الذي اصطحبهم، بإعلان مراسيم الزواج. لم

يَمُرْ على انتهاء الشيخ من عقده لقران الزواج أكثر من خمس دقائق، حتى توقفت مجموعة من سيارات الجيب العسكرية، ونزل منها ضابط، وسأل عما يجري، وعندما أخبروه بالقصة، صرخ وهو يشتم هذا «الكلب» الذي يتزوج الآن، والبلاد في محنة، أمر جعل ربيع يرد عليه ويقول: لماذا في محنة فإن وفق ما سمع الجميع، بأن البلاد تحتفي برجوع الفرع للأصل، فصرخ به الضابط، فيما إذا كان يسخر من الحكومة والقيادة والثورة، وقبل أن يجيبه ربيع، أخرج الضابط مسدسه وأفرغه في الجسد الصغير وسط دهشة وصرخات الجميع.

كانت تلك اللحظة التي لم تَستطعْ فيها هذه المرة إيقاف نزول أكثر من دمعتين من محجريهما، وكانت تلك المرة الأولى التي تجرأتُ فيها على سؤالها:

- لا أدري، توقعت أن يموت ربيع بسبب العملية وليس بالطلقات، لا أدري... إن موته بهذه الطريقة ميلو درامي لكن..

توقفتُ قليلاً، لأنني أردتُ أن أكمل وأقول لها «لكنه يشبه القتل في المشهد السابق الذي جرى في الفندق، لتصبح كل الأحداث تشبه مشاهد أفلام الأكشن، رغم أنها حقيقية»، لكني بدل ذلك، وجدتني أقول لها:

- لكن لا أدري... لماذا تحدثيني عن كل ذلك، وما هي علاقته بمجيئنا هنا.

لم تفقد صوابها، أو لم تغيّرْ من وضعها أو حركة وجهها، فقد ظل كل شيء فيها جامداً، في الوضع نفسه الذي بدأت فيه برواية القصة، أو بالأحرى برواية القصص.

- العلاقة، العلاقة، طبعاً هناك علاقة، وإلا هل تعتقد بأنني أهذي، ألم أقل إن حياتنا كلها عبارة عن مجموعة تقاطعات مع عدد من الأشخاص لا يتجاوزون عدد أصابع اليد.

فسألتها:

- هل تريدين القول، إننا لم نأت هنا بسبب وجيهة وأسيَدْ لوتي وإفْطَيْم يِّيْ دَي، إنما بسبب محمد طالب حمودي الصهيوني هذا؟

فقالت بهدوء:

- أنا لم آتِ بك إلى هنا، بسبب طالب حمودي الصهيوني، إنما بسبب مَلَك.

في تلك اللحظة كان فمي هو الذي انفتح، وكأنه يجبرني على أن أسألها بخصوص وجيهة. زوجتي (أو زوجتي السابقة) وأسيَدْ لوتي، لأنني في تلك اللحظة ندمت على تفوهي باسم إفْطَيْم يِّيْ دَي وخاصة ليس بعد حديث نجمة معي عنها، إنما أكثر من ذلك، هو أنني بدأت أصدق ما قالته نجمة وعما جرى لها. ربما خفتُ أن أسمع جواباً منها يشبه الذي سمعته بخصوص إفْطَيْم يِّيْ دَي، فما الذي سأفعله لو سمعت أن وجيهة (أسيَدْ لوتي لا يهمني كثيراً) لم تعد على قيد الحياة، حتى تلك اللحظة كان مجرد التساؤل

يشكل عبئاً علي، وكنت أنا خصوصاً أثناء جلوسنا في المقبرة، كمن يبحث عن عزاء، لينتهي من القصة كلها، لينفض يديه من كل ما علق بها من أوساخ. ربما كنت بقيت أعذب نفسي بالأسئلة طويلاً، لو لم تبدأ هي بالحديث مرة أخرى:

- سآتي على وجيهة وأسيَدْ لوتي لاحقاً، عليك أن تصبر فقط، وثق، أنني لن أتحدث عنهما إلا إذا شعرت أو رأيت الجدية في عينيك. ولكن لنعد لَمَلَكْ وما جرى، رغم أن ليس من الضروري أن تعرف كل ما جرى بالتفصيل. لأنني أنا شخصياً تعبت من الموضوع. ولكن ربما لأنك بدأت تعني لي الكثير، لذلك أريدك أن تعرف مع من تكون.

سألتها بصوت وكأنه يأتي من بعيد:

- مع من أنا، هل لك أن تقولي لي.

لمست خدي بيدها، وراحت تكمل الحكاية، وكأنها لم تسمع سؤالي:

- ربما لم يعرف أحد بقصة تبرع الخمسة وثلاثين شخصاً كلٌ بإحدى كِليتَيه، لو لم يقنع محمد طالب حمودي مَلَك بالذهاب معه إلى بغداد، عن طريق وعده لها بالبحث عن عمل لها في الإذاعة، لكي تصبح مطربة، لأنها صاحبة الصوت الجميل. لكن لم يمُرْ على سفرهما الكثير من الوقت، ربما بعد أربعة أو خمسة أشهر، حتى كتبت مَلَك رسالة من بغداد تصف لها الجحيم الذي تعيشه، وتخبرها، بأن محمد طالب حمودي لم يحقق وعداً من الوعود التي وعدها، وأنه في إحدى لحظات سكره تحدث لها عن استخدامهم لربيع كطعم للحصول على كلىٰ أخرى، وأن عليها القبول بالعيش معه، بسبب ثروته. لم يصدق أحد القصة أول الأمر، ولكنها كانت أزماناً مجنونة، أزماناً حزينة، كان الناس يعيشون تحت ضغط أعصابهم، وذلك هو التفسير الوحيد: أن الأختين لم تعيرا الانتباه لرسائل مَلَك كثيراً، حتى اندلاع الحرب بين قوات التحالف وقوات البلاد، بعدها حدث كل شيء بسرعة عجيبة، وأن إفْطَيْم بِّيْ دَي هي التي عرفت عن طريق معارفها، بأن مَلَك هربت إلى «تل اللحم»، وأن محمد طالب حمودي لم يتركها، لحقها إلى هناك، بعد الأحداث التي جرت، وأنها سمعت بالأمس فقط من عسلة اليهودية عن موت مَلَك مقتولة، بعد تشويه جسمها، وسرقة بعض أعضائها الداخلية.

فقاطعتها، ولم أستطعْ كتمان المفاجأة:

- إذن مَلَك، هي البنت ذاتها التي تحدثت عنها نجمة.

فسألتني، ولم تَخْفِ ابتسامتها هذه المرة (أمر أفرحني، لأنها رغم الحزن الذي طغىٰ على صوتها وملامحها، ظلت تحتفظ بشيء من الفكاهة):

- الإسم المؤنث من اسمك؟

فأجبت دون غضاضة:

- نعم جزئي المؤنث.
حينها تطلعت بعيني، وقالت:
- قبّلني.
فقبلتها قبلة طويلة، ربما استغرقت دقيقتين أو ثلاث، قبل أن تنفصل شفاهنا عن بعضها، وأسمعها تقول:
- أنا أخاف.
قلت لها:
- أنت تخافين أن تحبي الرجل الخطأ، الرجل غير المناسب.
فهمهمت:
- لا أدري.
سألتها:
- لكني لا أدري، فيما إذا كنت تحبينني؟
فقالت بصوت لم يخلُ من الحزن:
- لم أطرح هذا السؤال على نفسي، رغم معرفتي بأهميتك عندي، وبأنك كنت تثير اهتمامي منذ زمن بعيد.
فسألتها بصوت يختلط فيه المزاح مع الجد:
- وهل لذلك علاقة بتنافس الأختين؟
ردت مباشرة:
- طبعاً، وسأقول لك كيف.
ربما تكون أشعلت السيجارة الأخيرة، قبل أن تحكي القصة بطريقتها، طريقتها التي ربما بدت ظاهرياً تعلن عن نيتها بإزالة الغموض عن الكثير من الملابسات، لكنها في الحقيقة، لم تفعل إلاّ العكس، زادتها:
- لقد كنت شخصية تثير الأختين منذ زمن طويل. لكن الأختين التوأمين اللتين بديتا في الظاهر ناضجتين، إحداهما متزوجة منذ زمن، (والأخرى لم تتزوج إلا لاحقاً ولمدة خمس دقائق، حتى أنها ظلت باكراً)، بدأتا باللعب مرة أخرى ومن جديد، منذ التعرف عليك. أتذكر بالضبط، بأن ذلك حصل بعد زيارتك الأولى مع أسيَدُ لوتي لتفحص النخيل الذي بدأ يموت، أو الذي بدأ ينتحر على حد قول أسيَدْ لوتي. وهو الذي تحدث عنك بطريقة إعجاب. حدث ذلك بزمن طويل قبل أن تتعرف الأختان على ربيع، أو قبل أن تعرف الأخت الصغرى بقصة علاقة زوجتك مع أسيَدْ لوتي، ولا تتحدث عن الأخت الكبرى، لأنها عرفت ذلك منذ زمن، قبل أن تعرف الأخت الصغرى. والأخت الصغرى سمعت ذلك بالصدفة، عندما كانت تتلصص من الشباك

عليهما. في الحقيقة كانت تهيّئ نفسها لمشهد جنسي، يجعلها تستخدم العادة السرية، أو يضاعف عندها الفضول، لكنها بدل ذلك، سمعت نقاشاً عقيماً وسخيفاً بعد اعتراف مبتسر من أسيَدْ لوتي لزوجته ليس بعلاقته مع وجيهة، إنما عن معضلته في ذلك الوقت، فقد طلبوا منهم أن يصفّي وجيهة، لسببين، أولاً لمعرفتها الكثير من الأسرار وخاصة تلك المتعلقة بالأسلحة الكيمياوية المخبأة في بيوت أسماك الجصّانية، وثانياً بسبب ضعفها الشخصي، فهي ما عادت تنفع، وخاصة بعد فقدانها الوعي في الاستعراض الكبير الذي أقيم عند شجرة آدم بمناسبة مرور عشرين سنة على صعود نجم الحاكم وسنة على انتصار البلاد وعشر سنوات على جلوسه فوق صدورنا، ولا أدري مرور كم سنة على مجيئه للعالم (تتحدث عن المناسبة بطريقتها التي لا تخلو من التهكم!). وهو لا يعرف كيف التخلص من الورطة. لم تكن تلك المرة الأولى التي يبوح بها أسيَدْ لوتي لزوجته بذلك العذاب، إنما فعل ذلك عشرات المرات، ولكنه لم يكن صادقاً تماماً لشكواه، فما أن تغيب زوجته، معالي، وما أن يعرف بغيابك، حتى يسرع إلى زيارة وجيهة. هكذا راح يفعل مستغلاً وجودها في بغداد في المرة الأولى، ثم أثناء التحاقك بالجيش في فترة احتلال الكويت.

حينها سَكَتَتْ بصورة مفاجئة، حتى وجدت نفسي مجبراً أن أبوح لها بما أفكر وبحماس:

ـ هل تخافين من رواية الحقيقة لي هذه المرة؟

علقت ساخرة:

ـ الحقيقة؟ ما الذي تقصده بالحقيقة؟ الحقيقة والوهم تعريفان يتعلقان بزاوية نظرنا للأمور.

سألتها عما تعنيه، فأجابت:

ـ في كل قضية يكمن خلفها الله أو الشيطان، الحقيقة أو الوهم.

فأجبت، وكأنني أعرف خوفها الذي جعلها تسكت فجأة:

ـ ولكنك تخافين من تقييمي للأمور.

فأجابت بسرعة:

ـ كلا، سكَتّ لأني أخاف أن أقول جملة خطأ.

سألتها باستغراب:

ـ كيف يمكنك تقييم الأمور التي فعلتها أنت لوحدك.

قالت:

ـ ليس هناك دائماً حاجة لإله، وأنا بعد كل الذي حدث كففت عن الإيمان بوجوده، وسأقول لك كيف.

لبرهة سَكَتتْ، ثم أكملت:

- من حق الأخت الصغرى في تلك اللحظة أن تفكر، بأن اللحظة الحاسمة جاءت، اللحظة التي تستطيع أن تثبت فيها للأخت الكبرى، أن بإمكانها مساعدتها، وأنها ربما ستشكرها على فعلتها. لكنها لم تعرف في تلك اللحظة أموراً أخرى: مثلاً أنها مهما فعلت فلن يعني ذلك إقناع الأخت الكبرى بصحة تصرفها، مثلما لا يعني أن الأخت الكبرى ستشكرها على ذلك التصرف، وأنها ستربّت على كتفها وتقول لها أحسنت، على العكس، فإن الأخت الكبرى ستزداد حنقاً، لأن الأخت الصغرى تصرفت مرة أخرى بصورة تريد عن طريقها إثبات نضوجها وحسن درايتها للأمر وتضحيتها، دون أن تعرف أنها مهما فعلت، فإنها ستبقى بعين أختها الكبرى الأخت الصغرى، التي عليها الإذعان والإصغاء لما تقوله لها. وثانياً، وغاب عن الأخت الصغرى أن تفهم، بأن هناك الكثير من الأشياء تحدث، ضمن إيقاعها الخاص، دون أن يتدخل المرء في مساراتها أحياناً. وإلا ما الذي جعل وجيهة تضرب على جرس الدار مثلاً في إحدى المساءات التي لف الجنون فيها البلاد، في أحد تلك الأيام، التي أطلق عليها البعض الأحداث، والبعض الآخر الإنتفاضة، والبعض الآخر أحداث الغوغاء، لكنها تبقى أياماً مجنونة لفت البلاد بدوامتها، بغض النظر عن التعريف الذي يطلق عليها، في ذلك المساء، شاءت الظروف أن تكون الأخت الصغرى لوحدها في البيت، وتطلب منها وجيهة بعضاً من النسكافة، لأن النسكافة عندها نفدت، لتطلب منها الأخت الصغرى أن تدخل، وبعد تبادل جمل قليلة، تشعر بالعطف عليها، فتنسى كونها عشيقة زوج أختها، تصارحها بالأمر المبيت لها، وأن عليها أن تهرب من المدينة وتنفذ بجلدها، تشكرها وجيهة وهي غير مصدقة، ولكن قبل أن تذهب، تذكرها بأمر النسكافة، وضحت لها بأنها هنا في زيارة لأختها، وهي الآن ليست في القرنة، وأنها لا تعرف فيما إذا كان في البيت نسكافة أم لا، لأنهم يشربون هنا عادة الشاي، تشكرها وجيهة، وتقول لها، لا داعي بتكليف نفسها العناء، لكن الأخت الصغرى تُصرّ على البحث في المطبخ رغم يأسها من العثور على النسكافة، لكنها تجد بالفعل عند زاوية أحد رفوف المطبخ علبة صغيرة من النسكافة، فتعطيها لوجيهة، التي تأخذها مشكورة، والتي قبل أن تخرج، تبوح لها، بأنها تجدها بنتاً رائعة، وأنها ستصارح زوجها عند رجوعه من الحرب، ولم تُخْفِ رغبتها أن يرجع بالفعل سالماً، وأنها ستقطع علاقتها بأسيَدْ لوتي تماماً وستعتذر من معالي. هكذا ذهبت ذلك المساء دون أن تعرف، بل دون أن تعرف الأخت الصغرى أيضاً، إنها نفَّذت بالفعل الأمر الذي نوت عليه في ذهنها: قتل وجيهة، لأن علبة النسكافة لم تحوِ على مسحوق النسكافة. كانت تحوي على سم الثاليوم، الذي سلمه الحاكم لأسيَدْ لوتي من أجل استخدامه في الأوقات الضرورية.

قلت لها بصوت تفاجأت به أنا نفسي، وكأنني أعرف المسار الذي تنتهي إليه قصتها، قصتي:

- إذن لم تهرب وجيهة مع أسيَدْ لوتي كما ادعيت!.

وقبل أن أنتهي من الجملة رفعت بيدي الحقيبة، حقيبة وجيهة، التي تزينت بحرفين من الفضة بالأحرف اللاتينية NW بصورة آلية، دون أن تعني حركتي شيئاً، حتى شعرت بيدها، تلمس يدي، وتسحب الحقيبة، لتلقي بها إلى جانب، ثم لتستدير إليّ، وتقول لي، دون التوقف عن تمسيد شعرات ساعدي، هكذا برقة، لا تغالبها إلا رقة صوتها، الذي بدأ يدخل سمعي هذه المرة، وكأنه يأتيني من مكان بعيد، منذ زمن سحيق، مثل ذلك الصوت الذي يزورنا في أعماق النوم، لكننا نشعر به قريباً من روحنا، يتخلل مساماتنا، يتسلق جسدنا مثل عصا سحرية، ويصبح جزءاً من الهواء الذي نتنفسه ونحن نائم حتى نصحو.

- من الغريب أن تسير الأمور دون إرادة منا بالاتجاه الذي رغبنا به، أو الاتجاه الذي تمنيناه.

قلت دون إرادة مني، بصوت لم يخلُ من الإستفزاز:

- هكذا أصبحت الأخت الصغرى هي الأخت الكبرى دون أن تفعل شيئاً لذلك.

فأجابتني، وكأن ما قلته لا يعنيها، دون أن تتوقف عن تمسيد شعرات ساعدي القليلة:

- بعد تلك الزيارة بأسبوع، وربما بعد شعور وجيهة بالأعراض التي يتركها الثاليوم، وكيف أنها أحست بموتها البطيء، حملت العلبة للدكتور ماجد، وسألته عن مضمون ذلك المسحوق. ولغبائه ربما أو لطيبته، أو لخوفه لما جلبته أحداث تلك الأيام من نتائج، لم يستطعْ الرجل أن يخفي نظرته المرتعبة، وطلب منها أن تصحبه إلى بيت أسيَدْ لوتي، لأن كما عرفت الأخت الصغرى والتي كانت تحتمي خوفاً في غرفة السطح بسبب الرعب الذي سيطر على الشوارع في تلك الأيام، والخوف الذي كان يبعثه الجميع، بأن الدكتور ماجد يعرف بمحتويات ذلك المسحوق من أسيَدْ لوتي نفسه الذي لم يُخفِ عنه خوفه منه في إحدى ليالي سكره، وأنه هو الذي باح له بأنه ليس في نيته استخدامه ضد أي ديك، ولا يهم أصل الديك. من باحة البيت وصلت أصوات الواقفين متوترة؛ لم يعرفوا بوجود الأخت التوأم الصغرى (مرة أخرى تتحدث وكأنها ليست هي!) في العلّية، بل لم يهمهم معرفة الأمر، أو من الأفضل القول إنهم لم يكترثوا كثيراً أو يحاولوا بذل أي جهد صغير لمعرفة ذلك؛ كانوا مشغولين بأمور أخرى، أو مطالبين ببعض الإيضاحات، وخاصة أن الأخت الكبرى وأسيَدْ لوتي لم يعبرا عن دهشتهما في تلك اللحظة بسبب ما حدث لوجيهة، نتيجة لخديعة أو حيلة منهما، فهما كانا يعنيان ما

يقولانه، وأنهما تفاجآ حقيقة لما حدث لوجيهة، ولم تنفع تلك السخرية التي واجهتهما بها وجيهة ولا تهديداتها لهما، والتي صاحبتها ـ إلى حد ما أيضاً ـ تهديدات الدكتور ماجد، التي اختلطت مع صراخ وضجيج قرقعة أسلحة ودبابات تسير، رافقتها طائرات سمتية بدأت تحوم في الأعالي، وأصوات مهددة (من الصعب عليها معرفة مصدرها في تلك اللحظة، هل هي أصوات رجال الحرس الجمهوري، أم أصوات القلة القليلة التي ظلت تقاوم جيش الدولة حتى اللحظة الأخيرة، لأن الطرفين المتحاربين كانا يستعملان اللغة والصيغة ذاتها المصحوبة دائماً بصرخة: الله أكبر!)؛ كانت أياماً مجنونة، وكان من السهل إلحاق التهمة بأي طرف كان، أية تهمة، ومن غير المهم صحتها (سواء كانت تهمة التعاون مع الدولة أو تهمة التعاون مع معارضيها!)، كأن كل طرف يدافع عن نفسه، عبر إلصاق التهمة بالآخر، ففي تلك الأيام بالذات، راح الكل يهدد الكل، وأصبح من الصعب معرفة من قتل من؛ هكذا، لم تعرف (الأخت الصغرى) بالضبط ما كان يجري عند باب الدار، سدت أذنيْها براحتيْ يديها، لكي لا تسمع ما يدور هناك، بينما راحت تحسب الوقت، وتعد الثواني، مغمضة العينين. لم يدم الوقت طويلاً حتى سمعت صوت إطلاق رصاص، خرق أذنيها، رغم محاولتها عدم السماع. إطلاقة واحدة، إثنتان، ثلاث... أربع.. طاق.. طاق... كلا، لم تستطع عدَّها. خارت قواها كلها في دقائق، ولربما ظلت في مكانها جاثمة ساعات طويلة، لو لم يقتلعها من مكانها استمرار إطلاق النار، القادم هذه المرة، من باب الدار مباشرة، والذي اختلط معه صراخ عال، جعلها لم تعرف مَنْ قتل مَنْ. هكذا اختلط أمامها كل شيء. لكنها، وبطريقة ما، وما زال بعض الخدر يسيطر على حواسها، وهي بين الخيال والواقع، تهيأ لها، أو ربما حدث ذلك بالفعل، أنها سمعت صرخة، استطاعت تمييزها من بين الصرخات الأخرى، رغم أنها لم تكن قوية، لكنها كانت مليئة بالألم والنذير، غطت على صراخ الباقين، صرخة بدت لها مألوفة جداً، وكأنها تعرفها منذ سنين، ربما سمعتها وهي طفلة: صرخة الأخت الكبرى.

كانت الأخت الصغرى، ترتجف برعبها فوق السطح، ولم تجرؤ على النزول، حتى حلول المساء، بعد أن شعرت بشيء من الطمأنينة.

فقلت لها، عندما شعرت بتهدج صوتها:

ـ هكذا وجدت تلك الحقيبة والمسدس.

فقالت لي وهي تحرك جسمها قليلاً:

ـ نعم، كانت الحقيبة ملقاة إلى جانب جثث ثلاث، لأن الدكتور ماجد هرب حينها، ولسوء حظه لم يستطعْ الوصول حتى نهاية الشارع، عندما عاجلته دبابات الحرس الجمهوري، فلقد ظنوا بأنه كان يطلق النار عليهم، أطلقوا على سيارته الرصاص ولم

يتوقفْ. هكذا ظلّت سيارته عند زاوية الشارع وفي التبديل للتعشيق الثاني، إذ ما امتلك الوقت إلى التعشيق الثالث، بينما رقدت عند عتبة الدار ثلاث جثث: جثة وجيهة، جثة أسيَدْ لوتي.. وجثة...»، لم تكمل، لأنها أرادت أن تقول: «جثة معالي»، معالي سيد مسلط، الأخت الكبرى، وبدل ذلك اكتفت بالقول: «أرجوك لا تسألني بعد الآن، فيما إذا كنت أحبك أم لا. نحن الآن متحرران من كل ماض. والآن يبقى القرار هو قرارك. هل تغادر المقبرة معي أم لا؟

ربما فكرت لبرهة قصيرة أن أسألها عن الوضع الذي وجدت الجثث فيه، أو عن مصير الجثث الذي انتهت إليه، لكنني أبعدت فكرة السؤال، إذ من العبث أن يسأل المرء مثل هذا السؤال، ومن الأفضل في هذه الأوضاع، أن يغلق المرء فمه، ويحتفظ بالسر لوحده، سر الحزن الخاص بكل شخص، لأن مهما بدا الحزن متشابهاً في الظاهر مع حزن آخر، فإنه يظل مدموغاً بخصوصيته التي لها علاقة بمن يشعر به، مثله مثل خصوصية القصة الخاصة بكل واحد.

صمتنا لحظات. لم أتوقفْ عن التطلع بها، رأيتها تُخرِجْ (لا أعرف أين كانت خبأتها) قطعة خشبية صغيرة على شكل صليب (هل يعني ذلك أنها مسيحية؟ أردت أن أسألها عن ذلك، لكني عدلت لعدم أهمية السؤال، ولأنه لن يغير من الوضع شيئاً!)، وتنهض من مكانها، ثم تتجه صوب القبر، لتثبت تلك القطعة عند القبر الذي ردمته بنفسها:

ـ هنا ترقد معالي سيد مسلط. ثم أكملت وهي تثبت اللوحة الخشبية:

ـ عندما كنا طفلتين نَحَتنا هذا الصليب من خشبة خلعناها من سريرنا المشترك، لنُقلد تلك الفتاة الصغيرة التي رأيناها في أحد الأفلام وهي تضع صليباً على قبرٍ صغيرٍ بَنَتْهُ بنفسها من الرمل على شاطئ البحر، هكذا تعاهدنا على دفن بعضنا، وها أنا أنفذ كلمتي التي وعدتها بها.

فكرت: كل شيء قابل لنقل العدوى، من يروي ينقل عدوى ما يرويه لمستمعيه، حتى يصبح من الممكن أن نقتنع بكل شيء، بل أن هناك عذر وسبب معقول لكل شيء، خاصة إذا كان ما يروى مصحوباً بشعور يثير الحماس وراءه، أو مصحوباً بتقديم رقيق وحسب، ولذلك ليس كل من يروي يجيد رواية ما يرويه، القص هو شكل من أشكال الكرم، والبخيل لن يكتب رواية أبداً، كل شيء في الحياة ممكن الحدوث، وكل شيء قابل أن يُعلن عنه، بل أكثر من ذلك، كل شيء ممكن أن يبقى دون عقاب. طبعاً، ليس هناك شخصاً يرتكب شيئاً يعتقد بأنه غير عادل، وعلى الأقل ليس في لحظة ارتكابه للفعل، والشيء نفسه يحدث مع رواية أمر ما، وتصويره كما لو كان أمراً غريباً أو واجباً، طالما أن الأمر لم يكتشف، أو طالما لا يعرف أحد بحدوثه، ولا يغير من ذلك

أن من ارتكب الفعل، يفكر بما يفعله بعقله المجرد وفي ذكرياته المجردة. لأن في الحقيقة، عندما يروي المرء ما حدث، يرويه دائماً في وقت لاحق، في وقت متأخر، ليوحي عن طريقه، بأنه ما عاد الشخص الذي كانه في الماضي، وهو قد أدار ظهره لما حدث، والآن هو شخصية جديدة، وأنه لم يختَرْ ارتكاب ذلك الفعل، إنما حتى وإن اعتبره الآخرون حماقة أو جريمة، فهو عند ارتكابه، تصرف بصورة شبه مجبرة، تصرف بما أملته عليه الظروف، أو بما أملاه عليه الواجب، وهو عندما يقول لنا ذلك، يتوقع منا، حالما ننتهي من الإصغاء إليه حتى النهاية، أن نقول له: «لا أعرف، لست متيقناً من ذلك، سنرى». ذلك ما فكرت به، عندما انتهيت من سماع ما روته لي. لكن ليست هي من روى بتلك الطريقة التي تعودنا عليها عند رواية القصة، أية قصة، ولم أكن أنا الذي أصغي لها حتى النهاية.

لقد روت القصة، كما لو أنها - القصة - حدثت لشخص آخر، ليس لأختها - إذا صدقت روايتها -، وليس أنها هي التي قتلت، أو أطلقت النار على عدة أشخاص، كما تقول هي - لم يكن يهمها كم كانوا -. في روايتها كل ما يوحي بالتفسيرات، باستثناء تفسير واحد: التفسير الذي يوحي بالذنب. فهي رَوَتْ، فقط لأنها أرادت أن تروي ما حدث لها، بالتفصيل، وأنها تأسف - ربما - لشيء واحد، أنها نَمَتْ لسنوات طويلة بيقين خطأ، وأنها رَوَتْ ذلك، لأنها تشكر - لا تعرف من تشكره بالضبط - بأنها فجأة أدركت أنها تعيش بوعي خاطئ. لحظة الاكتشاف، التي تحدث خطفاً، مثل ومضة مفاجئة، ربما أسرع من تلك الإطلاقة التي تخرج من فوهة المسدس، وللأسف لا يمكننا حساب مقدار الزمن الذي يستغرقه الاكتشاف، أي اكتشاف خطير. لأن في الحقيقة كل شيء يستغرق أو يحتاج زمناً حتى يحدث، ولكن كل ما يدوم، حتى لو كان لحظة عابرة من الزمن، هو ليس الحدث ذاته الذي يحدث لمن وقع عليه الحدث، الطلقة ليست هي الطلقة ذاتها لو أطلقت في الفراغ، والسكين التي تطعن أحدهم، تبدو كما لو لم تكن في أيدينا قبل لحظات، وبالمقابل نسير كما لو كان الأمر معكوساً، ممتلئين دائماً بالنوايا، وأسأل نفسي إذا كان ما يُروىٰ أو ما لا يُروىٰ، هو أيضاً حقيقة لم يملكها المرء في أغلب الأحيان، ويعتقد المرء بأنه امتلكها لحظة القص فقط، أو أنه يحاول إقناع المستمع أن كل ما يرويه هو حقيقة جرت بالفعل، لأنه هو ذاته يروي ضمن تلك القناعة التي تختفي وراء شعوره بالحماس لتكملة الرواية، رغم أن الهواء الذي تحمله الحكاية، هو هواء تختلط فيه الـ «نعم»، مع الـ «لا»، مع الـ «ربما»، وبينما يسير زمن الرواية، يستمر كل شيء في سيره، هذه المرة باتجاه الأمام، الحياة باتجاه الأمام، وكأن من يروي يُصْر على قذف بلوىٰ ما حدث في بئر الماضي، ليقول، إن كل شيء ذهب وتلاشى، مع نهاية كل جملة تُقال، نكتشف مصيبة أننا تصرفنا بهذا الشكل أو ذاك رغم عدم معرفتنا. ربما

لذلك أصرت على رواية القصة بطريقتها، إذ يجب أن تمنح مضموناً للزمن الذي يضغط عليها، الزمن الذي يلقي بثقله على كاهلها، فهي لا تريد أن تتصرف كباقي البشر الذين يعيشون في مثل وضعها، أن تستمر على التصرف كما كانت تفعل سابقاً، أن تسير ببطء، تقرر دون أن تعرف مضمون قرارها، أن تتصرف دون أن تعرف قيمة فعلها، لكي تستطيع التكهن وفق ذلك، بحجم الكارثة المقبلة، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، تتكهن بما سيأتي نتيجة لفعلها؛ هكذا تريد أن تتصرف بيقين شبه ثابت، دون تلك الشكوك الكبيرة، أن تتعود على سلوك جديد، سلوك لا نمنحه نحن كبشر ـ عادة ـ الكثير من الانتباه. هناك الكثير من الأشياء التي يجب معرفتها منذ البداية، لكي لا يسير المرء ولو للحظة واحدة بقناعة خاطئة إلى درجة أن العالم يبدو مختلفاً تماماً معها. ليس من المسموح به التفكير بأن كل شيء سيستمر كما كان عندما يكون كل شيء قد تغير، وبالفعل أن اللحظة التي يظهر فيها الخطأ يبدأ بعدها شعور بالعذاب يستحوذ علينا. كم كنا حمقى، نقول لأنفسنا، وليس من الضروري أن يعذبنا ذلك في الواقع، إلى هذه الدرجة، لولا وعينا لحقيقة ما ارتكبناه. العيش في الخديعة أو أن يصبح المرء مخدوعاً هي قضية سهلة، وهي أكثر من ذلك، شرطنا الإنساني الطبيعي، وفي الحقيقة، ليس هناك داع لتعذيب أنفسنا أو الشعور باللوم أو الندم بسبب ذلك. ثم أننا، ما أن نكتشف ذلك، حتى نعرف مقدار الخديعة وحجم الخطأ اللذين يحيطان بنا، حتى نبدأ بالإعتراض، بالرفض، بعدم التسامح، وعند تلك النقطة، تبدأ رواية القصص، عندما نبدأ بمنح ذلك الزمن، زمن الخطأ، زمن الخديعة، مضموناً ما، حتى يبدو لنا زمناً بعيداً، زمناً متخيلاً، زمناً غريباً، زمناً عائماً في فضاء من الأحداث أو في فضاء من الأحلام، فضاء خاضع لذاكرتنا لا غير، حتى يبدو لنا، أنه مرحلة لم نَعِشْها مطلقاً، حالة تشبه تلك الحالة التي نشعر بها عندما نعيد قراءة كتاب، أو نعيد رواية قصة رويناها سابقاً، حينها نفكر، بأننا كنا تصرفنا بطريقة مختلفة أو أننا كنا وظّفنا ذلك الزمن بطريقة مختلفة لكي ينتهي إلى حاشية من حواشي حياتنا. وأنا ما هو موقعي في حكايتها؟ حتى اليوم، كنت مثل ذلك الصبي الذي كان عندما يدخل السينما التي تعرض فيلمين دون توقف (من يتذكر تلك السينمات؟)، أقصد عندما يدخل في الظلام وعند منتصف الفيلم المعروض، حينها، ومنذ لحظة جلوسه، يشغل ذهنه، ويوظف خياله، لتخيل أسباب خلفية كل ما يحدث، كل ما يراه من أفعال وردود أفعال، أمامه على الشاشة، يبدأ بتشكيل قصة، ورسم مخطط كامل للأحداث التي جرت في المنتصف الأول من الفيلم، وحتى نهاية الفيلم تأتيه منطقية، ومقنعة. ثم يبدأ عرض الفيلم الثاني، الذي يمر بالحقيقة بصورة باردة، لا يجلب معه ذلك الحماس واضطراب الأعصاب الذي حملته له مشاهدة النصف الثاني من الفيلم الأول. وبعد أن ينتهي الفيلم الثاني، يبدأ عرض الفيلم الأول، حينها ومع تتابع

الأحداث، يكتشف أن القصة التي نسجها للنصف الأول لا علاقة لها بما يراه، وأنها ليست البداية المنطقية للأحداث التي تتابعت في النصف الثاني، حينها يبدأ بنسيان النصف الثاني الذي رآه، ويشرع بنسيج نهاية أخرى غير التي رآها، رغم أنه يعرف أن الفيلم سينتهي إلى النهاية التي انتهى إليها في نهاية العرض الأول، لكنه في لحظة متابعته الأحداث، وفي لحظة انغماره في الصور التي تتلاحق في مخيلته، ينسى الفيلم الذي دار أمامه على الشاشة، وينشغل في الفيلم الذي يعرضه على شاشة مخيلته. كنت كذلك، وأنا معها ذلك اليوم في المقبرة، إذ تعرفت عليها، مثلي، مثل ذلك الصبي الذي كُنْتُه، والذي كان يدمن ويعشق زيارة دور السينما، وخاصة تلك الصالات التي تعرض فيلمين أو أكثر في اليوم نفسه، فمنذ طفولتي، كنت أعشق الخدر والتوتر والترقب الذي تعيشهم المخيلة. ومنذ طفولتي، أو صباي، أو منذ اختفاء آخر صالات السينما التي تعرض أفلاماً عديدة دون توقف، (كانت آخرها سينما روكسي في شارع الرشيد مقابل «الأورزدي باك»). ومثلما كنت أنسى أسماء الأفلام في ذلك الوقت، وتختلط عليّ كلها، ماذا تهم أسماؤهم، كنت أقول لنفسي، المهم في النهاية هو ما يرويه الفيلم، أو ما تثيره رواية الفيلم، أو ما تفعله المخيلة، حين وبعد رؤيتي للفيلم، ماذا يهم الإسم، أقول لنفسي، الآن أيضاً، ما يهم إسمها، وعليَّ ألا أعذب نفسي بالسؤال: ماذا عليّ أن أطلق عليها من اسم منذ الآن؟

نهضت من مكانها، بعد تأكدها من استقرار اللوح الصغير. نفضت التراب أو الغبار الذي علق بملابسها، لتقف أمامي بجذعها، هي المرأة التي قادتني إلى هذا المكان، إلى «تل اللحم»، المرأة التي بدأت أحبها، المرأة التي مازلت أحبها، المرأة التي أجرؤ الآن فقط على إلقاء ذلك السؤال على نفسي فيما إذا كنت متأكداً من حبها لي، أو أفترض حبها لي، فأعرف أن من العبث أن ألقي على نفسي هذا السؤال، لأنني أعرف من هي، لأنني أعرف أن ليس من الضروري دائماً تدمير مسارات الأشياء عن طريق إثارة أسئلة بطرة، على العكس، يجب الإصغاء فقط للصوت الداخلي الذي ينبعث في داخل المرء، في دواخلنا، في لحظات لا نعتقد فقط بأنها حاسمة، إنما هي بالفعل اللحظات التي تقرر الطريق الذي سنسير عليه لاحقاً، الطريق الذي لا يمكننا بعده أن نحيد، ومن العبث أن نحيد، لأننا ما أن نكسب معرفتنا لبعض كشركاء في القصة، القصة التي نبدأ بغزلها وبنسجها بعضنا للآخر، حتى نعرف أن إثارة أي سؤال بعد ذلك هو ليس سؤالاً زائداً فقط، إنما هو تخريب لأساسات القصة التي بنيناها مع بعض، ضمن هذا التصور فقط يمكن تفسير سبب عدم طرحي السؤال المنطقي الذي كان سيطرحه - ربما - أي شخص آخر في مكاني عليها، السؤال البسيط: «وأنت من تكونين؟» ربما فهمت هي ما كان يدور في ذهني، وربما لا، ففي النهاية، لا يهم السؤال، إنما تهم النتيجة، وهي

تصرفت بطريقة لا علاقة لها بالسؤال، سواء طرحته عليها أم لا، لأنها نهضت في تلك اللحظة، اللحظة التي أتت فيها على السيجارة الأخيرة من علبة السومر السوداء ـ دون أن تُذكِّرني هذه المرة بأن هذا النوع من سجائر السومر يُصنع في ألمانيا الغربية، كما فعلت في مرات سابقة ـ، إنما اكتفت بدعك السيجارة الأخيرة، قبل أن تدوس على باكيت السجائر الفارغ وتضعه في كيس من البلاستيك يبدو أنها جلبته معها خصيصاً، ثم لتخرج من الحقيبة دفتراً صغيراً، يشبه بحجمه بالفعل دفتراً مدرسياً، غلف بجلد سميك ملون، لم أتأكد من ألوانه في تلك اللحظة، لم ترفعه بصورة كافية، تسمح لي بمعاينة ألوانه بدقة، إنما اكتفت برفعه للأعلى من مكانها، وكأنها بإخراجها له تريد أن تثبت لي صدق ما تقول: «إنه دفتر اليوميات» (قالت ذلك بصوت واهن، وكأنها متأكدة من تعرفي على الدفتر مباشرة)، ثم لترجعه إلى داخل الحقيبة بحركة بطيئة، وتضع في النهاية الحقيبة بالدفتر (وربما بمحتويات أخرى لا أعرفها) مع المسدس، مع الولاعة في كيس البلاستيك، وترميه بعيداً، ولا أدري من أين جاءتها تلك الطاقة القوية؟ ثم لتنهض، وتقول لي «نحن بالفعل الآن، دون إرثٍ قديم». قبل أن يظهر الشابان محمود وعلي اللذين رأيتهما من البعيد يقتربان باتجاهنا، واللذان كانا يسيران دون عجلة، وكأنهما ينتظران نهوضها من مكانها إلى جانبي، أو ينتظران جملتها الأخيرة تلك في تلك الأمسية، في جوابها على سؤالي، «الآن أعرفك، أعرف المرأة التي صاحبتها، المرأة التي أحبها، والمرأة التي ما زلت أحبها، ولكني لا أعرف اسمك»، وقبل أن تغادر المكان، وكأنها عرفت الشكوك التي ما زال القليل من بقاياها عندي، قالت:

ـ لا تخاف، عندما كنت صغيرة، كنت ألعب في هذه المقبرة، وأنا منذ طفولتي أعرف كل منافذ المقبرة، واسمح لي أن أقولها لك دون تبجح، معي فقط يمكنك الخروج من هذا المكان ـ المقبرة ـ، مقبرة «تل اللحم»، أنا التي يفرحها أنك تحبها، أنا التي ما زلت أحبك، الأخت التوأم الصغرى بساعة وخمس وعشرين دقيقة، التي أصبحت الكبرى منذ الليلة، البنت التي إسمها: مرايا سيد مسلط.

ما يشبه النهاية
التثنية

هل أسميها منذ الآن، مرايا أم لا، بعد أن تصرفت معها طوال الرحلة، على أنها معالي؟ وإذا رفضت، واستمريت على تسميتي الأولى لها، فهل سأصمد طويلاً أمام طريقتها برواية الأشياء، بتغييرها الأسماء، ومجرى الأحداث؟ في النهاية، الذنب ليس ذنبها، مثلما هو ليس بذنب أحد، لقد تصرفت، مثلما كان عليها أن تتصرف، وأنا تصرفت ودخلت عليها، عند النصف، النصف الثاني من القصة، قصتها، التي تحوي قصتهم كلهم، ولا تهم أشكال الصور التي شكلتها عن المنتصف الأول من حياتها، من قصتها، التي تحوي قصتهم، وتحوي قصتي بالتالي، وكل ما عليَّ الآن هو قبول طريقتها برواية الأشياء، وطريقتها بمنح مضمون للزمن الذي يضغط ويستمر بدوسه فوقنا دون أن ينتظرنا. وماذا عن اليوم الخامس من العادة الشهرية؟ هل أسألها إذا كان يحدث لها الإضطراب ذاته الذي يسببه يوم الطمث الخامس لأختها؟ وما هو الإسم الذي يمكننا أن نطلق عليه «اليوم الخامس من حياة معالي سيد مسلط»، أم «اليوم الخامس من حياة مرايا سيد مسلط»؟ وهل ستسمح لي بمجرد إلقاء السؤال؟ أم عليَّ كالعادة أن أطلق الحرية لخيالي بتشكيل قصة اليوم الخامس، ولا يهم أي يوم خامس يكون، ولا يهم إذا كان يجلب معه الحظ أم المصيبة، المهم فقط تشكيل قصة اليوم، أو تشكيل القصة التي لها علاقة به، القصة التي تجري قبله أو بعده أو بدونه، وفي النهاية مهما كان الدور الذي سيلعبه هذا اليوم، فستكون قصته مثل كل القصص الأخرى، المهم أن تكون هنالك قصة، وذلك ما علَّمتْني إياه الحياة، وذلك ما أعرفه الآن على مشارف النهاية، أعرف أن عليَّ أن أشكل قصتي أنا معها، هي التي رَوَتْ ورَوَتْ، دون أن تمل من رواياتها، ولا يهم إن كانت معالي أم مرايا، لأن الأكثر أهمية من ذلك، هو أننا، نحن الاثنان، من يلوي عنق الحكاية، نحن الإثنان من يدخل في الرواية الآن عند نهايتها، ولا يهم مقدار ما تستغرقه لحظة الإكتشاف، المهم هي لحظة الإكتشاف، لأن، في عمق الأشياء، تبقى

قيمة الأشياء هي المعيار، وليست اللحظات الزمنية التي استغرقتها، مثلها مثل تلك اللحظات التي يستغرقها خروج الإطلاقة من فوهة المسدس أو اندفاعة السكين حين انفصالها عن أيدينا، أو لحظة ملامسة أصابعنا لأوتار الآلة الموسيقية، ولا يهم اليد التي تضغط على زناد المسدس، أو اليد التي ترمي بالسكين، أو اليد التي تضرب على الآلة الموسيقية، أية آلة موسيقية، ففي النهاية، مثله مثل الذي يعيش مع الخديعة، مثله مثل الذي يخترع الخديعة، لكن من يستقبل الطلقة، من يستقبل طعنة السكين، من يسمع احتكاك الأوتار الموسيقية، هو الذي يشعر بمقدار ما يستغرقه كل ذلك من زمن، أنه لا يختلف عني في عيشه في ذلك الوضع، فهو مثلي، سواء، بما جرىٰ لي، عند دخولي للقصة من نصفها، أو عند عيشي لنصف القصة الثاني، الذي تخيلتُ على أساسه نصف القصة الأول، أو هو مثلي، عند معرفته لنصف القصة الأول بدأ ينسج حكاية النصف الثاني للقصة من جديد، أو هو مثلي، بدأ يعتقد، أن كل ذلك ليس مهماً، فربما، كل ما رواه، هو خليط من الواقع والوهم، من الحقيقة والخيال، رغم أن كل شيء يبقى في حدود الرواية في حدود القصة، في حدود المُخَيَّلة، التي تتغذى من الأمرين: من الوهم والحقيقة، من الواقع والخيال، من ذلك المزيج الذي تتركه فينا الموسيقى، أية موسيقى، مثلها، مثل تلك التي بدأت سماعها وأنا في المقبرة، والتي جعلتني استيقظ بالتدريج من الحالة التي أنا فيها، وحملتني على التطلع بي، حولي، بالمكان، لأرى، حيث جلست، ظهري يستند لسيارة، أمامي وخلفي، وإلى ما حول امتدت المقبرة وسط عتمة المساء، وعند مقدمة السيارة، وقف الأخوان محمود وعلي اللذان جاءا في الوقت المضبوط كما اتفقت معهما (فكرت: تلك هي مشكلتهما، يأتيان دائماً في الوقت المضبوط!)، في تلك اللحظة لم يبقَ أمامهما، أو ربما أنهما قدما من أجل تلك المهمة فقط، أقصد أن يقفا ملاصقين للسيارة، أحدهما يمسك بآلة الجلو، التي أسْنِدَت حينها عند جسم السيارة، والثاني يمرر قوس الآلة، هكذا يتعاونان على عزف لحن خاص، ذكرني بأغنية، ربما كان اسمها «ضلّت طريقها الحمامة»، أغنية سمعتها في فيلم، فيلم قديم، رأيته في إحدى صالات دور العرض تلك التي تعرض فيلمين، (أو، وذلك أكثر رجحاناً سمعتها بصوت إنعام وهي نائمة في دورها التلفزيوني القصير الذي تذكرته من قبل)، فيما على بعد خطوات منهما، شرعت هي، البنت، المرأة، التي رغم يقيني شبه الثابت بهويتها، وبمن تكون، لم أقرز حتى هذه اللحظة منحها اسماً، بدأت بمغادرة المكان، وبالتأكيد، أنها ستكون عند الباب، باب المقبرة بعد لحظات قصيرة، لا يهم مقدار الزمن الذي ستستغرقه خطواتها، لكنها لا تستغرق في سيرها زمناً سيختلف عن زمن خروج الإطلاقة من فوهة المسدس، أي مسدس، أو عن زمن رمية السكين، أية سكين، أو عن زمن تلامس أوتار قوس الآلة الموسيقية بأوتارها، أية آلة موسيقية، وأنني أنا الذي عليه أن يقرر؛ فقط من

يستقبل ذلك، يعرف قيمة الفعل، هكذا أنا الذي ليس عليه أن يقرر هذه المرة فقط، إنما عليه أن يعرف قبل اتخاذ القرار، عليه أيضاً أن يمنح مضموناً للزمن، الذي يضغط والذي يستمر في ضغطه حتى يسحق، أنا الذي ينهض الآن من مكانه، والذي يعرف أن الأخوين، محمود وعلي، إذا أرادا عزف لحن خاص بهما، عليهما، أن يحاولا التدرب على عزف موسيقى جديدة، غير تلك التي تعلماها في النصف الأول من حياتهما، مع عمتهما في الحجاز، وأنني إذا أردت مغادرة المقبرة، عليّ ألا أفقد تلك المرأة، صاحبتي، رفيقة رحلتي.

لبرهة قصيرة تطلعت حولي. شعرت بنفسي وحيداً وسط ظلام المقبرة. صوبت بصري باتجاه باب المقبرة، فرأيت على الجدار القريب من الباب، شبحاً بلباس أبيض، متمثلاً بشكل امرأة، في الحقيقة، شكله الخارجي امرأة، بلباس أبيض، بشعر أبيض، بجسم أبيض، بشفافية مفرطة، غير طبيعية، مثل مرآة، واقفة عند نهاية قمة جدار المقبرة، رافعة يديها، وكأنها بدأت للتو بالصلاة، ولكن وهي مولية ظهرها لِلقِبْلة؛ ركزت النظر عليها، ولم أصدق ما رأيته، حاولت بطريقة أو بأخرى تفسير المشهد بشكل منطقي، لكي أعرف، فيما إذا كان ما أراه حقيقياً أم خيالياً، ولكن قبل أن أصل إلى قرار، رأيت أضوية تخطف، تشبه أضوية قطار يمر بسرعة جنونية، وسط الظلام الذي كان ما يزال مسيطراً، وهي لا تزال واقفة كما هي، مثل تلك الحمامة التي ضلّت طريقها، حينها عرفت، عليّ أن أسير بخطوات أسرع، خلف تلك المرأة، المرأة التي أحبها، أو المرأة التي بدأت أحبها، وفي النهاية، فقط معها، مع مرايا سيد مسلط، يمكنني الخروج من المقبرة، مقبرة الغرباء، «تل اللحم».

هامبورغ ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧.

هامبورغ ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩.

الحكي مثل صنارة، كلما علق فيها طُعم لذيذ، كلما زاد الصيد؛ كلما روى المرء، كلما زاد نهمه للروي، مثله الذي يسمع القصة أو يقرأها. . هذا هو ما يفعله راوي هذه الرواية معنا؛ فهو يجعلنا ومع كل سطر يرويه، نزداد نهماً لمعرفة مسار القصة، غافلين عن شرك نصبه لنا في البداية بتلك الجملة التي استعارها من الفرنسي بوريس فيان «هذه القصة حقيقية لأنني اخترعتها أنا». . ومع قراءة كل جملة، نريد أن نعرف أننا لسنا مخدوعين، حتى لو أن كل ما نقرأه مخترعاً بأكمله، وحتى لو اختلط كل شيء بين الحقيقة والوهم، بين الله والشيطان.

«تل اللحم»؟ هل هي قصة المكان الذي يقع قريباً من مدينة سوق الشيوخ، في العراق عند تخوم البادية الجنوبية، والذي تُرى على أطرافه المقبرة المسماة باسمه، التي لا يعرف أحد متى وُجدت، مثلما لا يعرف أحد هوية المدفونين فيها؛ هل هي مقبرة لدفن الغرباء الذين مروا بالمدينة وحسب؟ أم هي قصة المكان الذي أطلق فيه الجنرال الفرنسي «بلزاك» قائد قوات التحالف البرية في حرب الخليج، النار على نفسه، بعد تسلمه الأوامر بالتوقف هناك، هو الذي كان يحلم بالزحف باتجاه بغداد؟ أم هي قصة حب بين جندي عائد من حرب فاق وصفها الجحيم وبين امرأة هاربة من مستنقع وحل الذكور الواسع، في زمن ملؤه الصخب والعنف؟

من يدري؟. . في «تل اللحم» تختلط كل القصص: قصة «معالي سيد مسلط»، بقصة «مرايا سيد مسلط»؛ قصة «شجرة آدم»، بقصة «إفطَيمْ بِنِي دَيَ» أو بقصة «وجيهة»؛ قصة «الحمامة» التي ضلت طريقها، بقصة القحبة «نجمة»، أو بقصة «نجم والي»؛ قصة «عسلة لاوِيَ اليهودية»، بقصة «مَلَك»، أو بقصة عازف الجلو «ربيع». . .

«تل اللحم» رواية الجحيم العراقي، رواية حربين عراقيتين طويلتين. . رواية الموت اليومي. . رواية الحب حلماً، يرويها نجم والي، كاشفاً للعالم وجهه الحقيقي. .

ISBN 1 85516 527 9

DAR AL SAQI

دار الساقي